

السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، مما جعلنا نعتمد عليه كثيرا
فى جميع أبواب الرسالة .

ومن المصادر التاريخية القديمة الأساسية لهذه الرسالة ،
كتاب سعيد بن بطريق ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، والذي عاصر أول
الأمراء الاخشيديين فى مصر . وهذا الكتاب باسم « التاريخ المجموع
على التحقيق والتصديق » وقد صنف ابن بطريق هذا الكتاب لآخيه
عيسى بن بطريق ، وذكر فيه التواريخ كلها من عهد آدم حتى سنة
٣٢٦ هـ . وهذا الكتاب يضم روايات متنوعة سياسية واجتماعية
واقتصادية وفكرية ودينية . وقد اعتمدنا عليه كثيرا فى دراستنا
لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، وفى توضيح دورهم فى
مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفى علاقة
الكنيسة القبطية بغيرها من الكنائس منذ الفتح العربى حتى عصر
الأمير محمد بن طغج الاخشيد .

ومنها أيضا ، كتاب يحيى بن سعيد الانطاكى ، الذى نسب
إليه ، كما عرف هذا الكتاب ، باسم « صلة تاريخ ابن بطريق » أو
« صلة تاريخ أوتيسخا » . وقد بدأ ابن سعيد كتابه من حيث انتهى
ابن بطريق ، فى كتابه السابق ذكره ، أى أنه بدأه بذكر حوادث
وأخبار سنة ٣٢٦ هـ فى عهد الخليفة العباسى الرضى . وقد راعى
ابن سعيد ، فيه الاختصار فى ذكر الحوادث والأخبار ، وانتهى به
إلى سنة ٤٢٥ هـ . وعنى بذكر أسماء الماوك والخافاء والبطارقة فى
الاسكندرية وأنطاكيا وبيت المقدس ، والقسطنطينية ، ومدة عهد
كل منهم ، وأهم الأحداث فى هذه السنين . وقد أفادنا هذا الكتاب
كثيرا ، وخاصة عند دراسة دور أهل الذمة فى عهد الخلفيتين
الفاطميين الحاكم بأمر الله ، والظاهر لاعزاز دين الله ، فى مختلف

النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وما صدر بشأن أهل
الذمة من المراسيم والمنشورات آنذاك .

الى جانب هذه المصادر الأساسية المصرية المسيحية ، اعتمدنا
على كثير من المصادر المصرية الاسلامية ، نذكر في مقدمتها ، كتاب
ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) وهو « فتوح مصر وأخبارها » ويعتبر
أول كتاب مؤرخ مصرى مسلم . وكان هذا الكتاب من أهم مصادر
دراستنا لموقف القبط واليهود من الفاتحين العرب . وأيضا أفادنا
كثيرا عند دراستنا للجزية والخراج وغيرها من الشروط التي اشترط
بها المصريون الذميون في مصر آنذاك ، وأيضا في دراسة بعض
نواحي الحياة الاجتماعية .

أما الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى :
ت ٣٥٠ هـ) فكتابه « الولاة والقضاة » ، وقد اعتمدنا عليه في دراسة
موقف القبط واليهود من الفتح العربى ، ومعرفة السياسة التي
انتهجها بعض الولاة المسلمين نحو أهل الذمة ، وموقف القضاة
المسلمين منهم . هذا فضلا عن أهمية هذا المصدر في دراسة ثورات
القبط وامتناعهم عن أداء الخراج ومقاومة الولاة المسلمين لهذه
الثورات ، وأيضا دراسة موقف بعض الأمراء المسلمين من احتفالات
أهل الذمة بأعيادهم كما عثرنا فيه على اشارات طفيفة جدا إلى
ملائس اليهود في هذا العصر .

ونذكر أيضا من المصادر المصرية الاسلامية الأساسية في هذه
الدراسة كتاب ابن الصيرفى (أمين الدين تاج الرياسة أبى القاسم
على بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفى المصرى ، المتوفى
سنة ٥٤٢ هـ) وعنوانه « الاشارة الى من نال الوزارة » وقد أفادنا
كثيرا في دراسة موقف الخلفاء الفاطميين من القبط واليهود وما اشتهر

به هؤلاء الخلفاء من انتهاج سياسة التوسع في استخدام هؤلاء
الذمين في الدواوين وأعمال الحكومة وبخاصة في الوزارة وموقف
هؤلاء المستخدمين الذمين من اخوانهم في الدين .

كما استعنا كثيرا ، في هذا الموضوع ، بكتاب ابن ميسر
« أخبار مصر » الجزء الثاني . وقد عاش ابن ميسر (محمد بن علي
ابن يوسف بن راغب ت ٦٧٧ هـ) في القرن السابع الهجري
(الثالث عشر الميلادي) . وكتابه دراسة تاريخية محايدة لتاريخ
مصر في عصر الخلفاء الفاطميين ، وموقف هؤلاء من استخدام أهل
الذمة . وبالرغم من ان ابن ميسر قد عاش في عصر الأيوبيين
والمماليك ، فإنه لم يحاول ، اطلاقا ، الاساءة الى الفاطميين والجنح
من شأنهم ، لأرضاء الأيوبيين والمماليك ، الذين رغبوا في التشهير
بالفاطميين . ونقدمهم ..

ومن أبرز المؤرخين المصريين المسلمين ، الذين اعتمدنا على
مصادرهم ، المقرئى (تقى الدين المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) وبخاصة
كتابه « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » الذي يعد
موسوعة عامة في تاريخ مصر الاسلامية ، وجغرافيتها ، والحضارات
التي قامت في وادي النيل ، وما اشتهر به المصريون من العلوم
الدينية والاجتماعية والفلسفية التي ازدهرت في العالم الاسلامي .
وقد اعتمد المقرئى في تصنيف كتابه هذا على مصادر مختلفة .
وكثيرا ما تكون هذه المصادر معاصرة للأحداث . وهذا الكتاب غنى
بالروايات والحقائق التاريخية التي تعد مصدرا أساسيا في دراستنا
لموضوع تاريخ أهل الذمة في مصر الاسلامية ، من النواحي السياسية
والاجتماعية والاقتصادية .

ومن مصنفات هذا المؤرخ التي أفادتنا كثيرا في هذا البحث
العلمي كتاب « انعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » .

الجزء الأول ، وكتاب « النقود الاسلامية » ، الذى تحدث فيه عن النقود القديمة فى بلاد العرب والعراق والشام ومصر قبل الاسلام . كما تحدث فيه عن النقود الاسلامية ، وعقد فصلا خاصا عن النقود فى مصر حتى عصره .

هذا الى جانب عديد من المصادر المصرية الاسلامية للسيوطى ، وأبى المحاسن وابن ممتى ، وغيرهم كما يتضح فى ثبت المصادر فى نهاية الرسالة . وهناك أيضا مصادر عامة منها كتاب البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى ت ٢٧٩ هـ) وعنوانه « فتوح البلدان » ويتناول فيه ما فتحه العرب من الأقاليم والأقطار ومنها مصر والعلاقات بين الفاتحين وسكان البلاد . ونذكر أيضا كتاب الطبرى (ت ٣١٠ هـ) « تاريخ الأمم والملوك » الذى زودنا بالروايات التاريخية ذات الأهمية البالغة بشأن فتح العرب لمصر وما تم بينهم وبين المصريين من صلح . كما حفل المصدر بأخبار سياسة الخلفاء نحو أهل الذمة .

ومن مصادر التاريخ الاسلامى العامة التى اعتمدنا عليها كثيرا فى دراستنا هذه كتاب الشابستى (أبو الحسن على بن محمد ت ٣٨٨ هـ) عن (الديارات) ، وكتاب القلقشندى (أبو العباس أحمد) « صبح الاعشى فى صناعة الانشا » وخاصة الأجزاء ٥ ، ١١ ، ١٣ . وكتاب النويرى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وخاصة الجزء الأول فى الفصول التى عقدها لدراسة أعياد القبط واليهود هذا الى جانب العديد من المصادر التاريخية العامة القديمة ، وقد تضمنتها ثبت المصادر فى نهاية الرسالة .

وقد اعتمدنا فى هذه الرسالة على كثير من كتب الفقه والتشريع الاسلامى وخاصة عند دراستنا لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ،

ومدى تطبيقها في مصر منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى .
ونذكر من هذه المصادر كتاب الخراج لأبى يوسف (يعقوب بن
ابراهيم ت ١٨٢ هـ) والذى صنف هذا الكتاب للخليفة هارون
الرشيد ، وكتاب الخراج ليعقوب بن آدم القرشى (ت ٢٠٢ هـ) ، وكتاب
« الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وكتاب الجهاد
وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب « اختلاف الفقهاء » لابن
جرير الطبرى . وكتاب « الأحكام السلطانية » للماوردى (أبو الحسن
على بن محمد بن حبيب البصرى ، ت ٤٥٠ هـ) ، وغيرها من كتب
الفقه والخراج والنظم الاسلامية .

وكانت كتب الرحالة والجغرافيين العرب ، من بين مصادر
هذه الرسالة وخاصة عند دراستنا للجزية والخراج وتطور جباية
مصر طوال التاريخ الاسلامى وما اشتهرت به الديار المصرية من
صناعات وما قام فيها من أسواق تجارية ، الى غير ذلك من وجوه
نشاط السكان فهناك كتاب « البلدان » لليعقوبى (أحمد بن أبى
يعقوب ابن واضح ت ٢٨٤ هـ) وهو كتاب جغرافى فى وصف البلدان
وأقسامها والمسافات بينها وأوجه نشاط سكانها ، وأخلاقهم وعاداتهم
وان كان يتميز بشئ من الاختصار . وكتاب « الأعلام النفيسة »
لابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) وينضمّن دراسة جغرافية
اقليمية للعالم . ويبدأ بدراسة الفلك والأرض . ويدرس كل اقليم
وأنهاره وما يشتهر به ، وأوجه نشاط السكان ومباغ خراجه وارتفاع
جبايته .

ونذكر أيضا كتاب ابن حوقل (أبو القاسم ، الذى عاش فى
القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) وزار مصر فى عصر الخلفاء
الفاطميين . وكتابه هو « صورة الأرض » وكان مصدرا مهما لنا فى
معرفة خراج مصر وجبايتها ، ووجوه نشاط سكانها ودور أهل الذمة

في هذا النشاط وارتباط الزراعة بفيضان النيل بالشهور
القبطية .

ومن أهم الرحالة الذين عنوا بوصف مصر ، ناصر خيبروا ،
الذي عاش في القرن الخامس الهجري . وزار مصر في عهد الخليفة
الفاطمي المستنصر بالله . وعليه كان مصدرا له شأنه في دراسة
دور أهل النمة في النشاطين الصناعي والتجاري في مصر آنذاك
كما أشار ، عند وصفه لمصر ، الى ثراء بعض القبط بها . كما رجعنا
الى كتب غير هؤلاء من الرحالة والجغرافيين .

وكان من بين المصادر الأساسية لهذه الرسالة ، أيضا ، بعض
الكتابات التاريخية القديمة التي كتبت أصلا باللغة القبطية أو
العربية . وترجمت في العصور الحديثة الى اللغات الأجنبية
الانجليزية والفرنسية . ويأتي في مقدمة هذه المصادر ، تاريخ حنا
النقيوسي Chronique de Jean, Eveque de Nikiou, Paris.
وقد عاش في القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي ، وقد عني
بنشره (زوتنبرج) باللغة الفرنسية ويعد هذا الكتاب من أهم وأدق
بل وأصدق المصادر التاريخية القديمة الخاصة بدراسة الفتح
العربي لمصر ، وموقف القبط خاصة من هذا الفتح ، وما تم بينهم من
عهود ، كما أفادنا هذا المصدر في دراسة أحوال القبط واليهود
قبل الفتح العربي لمصر .

ونذكر ، أيضا ، من هذه المصادر ، تراجم حياة بعض الآباء
والقديسين القبط ، التي عني بنشرها وترجمتها الى الفرنسية
أميائينو ، والتي أفادتنا كثيرا في دراسة أحوال القبط قبيل الفتح
العربي ، وما قاسوه من اضطهاد ، وما كان لذلك كله من أثر فعال
في نجاح الفتح العربي لمصر . ومن هذه التراجم :
Uu Eveque de Keft au VII^e siecle, Le Caire, 1889.

وتراجم الأب شنودة والاب صمويل القلمونى فى ،
Monuments pour servir a l'histoire de l'Egypte Chrétienne
aux IV^e - VI^e siècles. (Memoires de la mission Archeolo-
gique Français, au Caire, T. 4, 1885-1886).

وأیضا ترجمة البطرك الأب بنيامين فى ،
Fragments Coptes pour servir à l'histoire de la conquêt
de l'Egypte par les Arabes (Le Journal Asiatique,
1888).

وترجمة حياة البطرك الأب اسحق الذى عاصر أمير مصر
عبد العزيز بن مروان ،
Histoire du Patriarche Copte Isaac, Paris, 1890.

وهذه الترجمة الأخيرة تفيد كثيرا ، فى توضيح العلاقة بين
بطاركة القبط خاصة ورجال الدين المسيحي عامة ، وبين ولاية مصر
المسلمين ، كما أنها تفيد فى دراسة بعض النواحي
الاجتماعية لهذه الفئة من سكان مصر الاسلامية ، وما اعتاد القبط
عليه فى الاحتفال بتنصيب البطاركة .

واعتمدنا أيضا على كتاب ميخائيل السريانى وخاصة فى
توضيح بعض جوانب العلاقة بين الكنيسة المصرية وكنيسة أنطاكيا .
وأیضا فى تعبيره عن وجهة نظره فى الفاتحين العرب وموقف المصريين
منهم ، ووصف قبط مدينة تنيس وما يؤدونه من الجزية .

ومن هذه المصادر الأساسية أيضا رحلة بنيامين التوديلى .
واستفدنا منها عند دراستنا لأحوال اليهود ودورهم فى المجتمع
المصرى ، ولعله كان المصدر القديم الوحيد اليهودى وقد نشر فى

مجلدين ، الأول ترجمة للرحلة نفسها والناني نقد وتعليق ونشر
باللغتين الانجليزية والفرنسية .

Benjamin : The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela,
2 Volumes, London, Berlin, 1840.

وكان من أهم مصادر دراستنا في هذه الرسالة أوراق البردى
العربية واليونانية ، وخاصة عند دراستنا للضرائب المفروضة
على أهل الذمة وأثرها في مالية البلاد . فقد أمدنا هذه الأوراق
بالكثير من المعلومات عن مقدار هذه الضرائب ، وكيفية جبايتها
وموقف أهل الذمة من أداء هذه الضرائب ، وما نتج عن زيادتها من
مقاومة سلبية من جانب الذميين ، وما كان من وضع ولاية مصر
حدا لهذه المقاومة ، وخاصة في القرن الأول الهجري . وقد عى كل
من جروهمان وبل ، بنشر هذه الأوراق :

حروهمان : أوراق البردى العربية . وقد ترجمها الى العربية
حسن ابراهيم حسن وعبد الحميد حسن و

Bell (H. I.) : Translation of the Greek Aphrodito Papyri
in the British Museum. (Der Islam, Strassburge, 1911).

هذا الى جانب عديد من المراجع الحديثة العربية والافرنجية
وكتب الآثار التي أفادتنا كثيرا في دراستنا لجميع أجزاء الرسالة .
واستنرنا برأى مؤلفيها في كثير من الأحيان وهذه المراجع قد تضمنها
ثبت المصادر في نهاية الرسالة .

أما الصعوبات التي واجهتنا في دراستنا هذه ، فكان أهمها
قلة ما عثرنا عليه من الروايات والأخبار التاريخية عن جماعة اليهود
في مصر ، في هذه الحقبة الزمنية من التاريخ الاسلامي لمصر . فلم

نجد من المصادر القديمة التى تهتم باليهود سوى رحلة بنيامين التوديلى ، الى جانب ما كتبه كل من يعقوب مان Jacob Mann وموريس فارجون Maurice Fargon عنهم . ونلاحظ أن الأخير معتمد فى كتابه على الأول الذى اعتمد بدوره على ما جاء فى الـ Cairo Geniza الى جانب بعض الأخبار القليلة المحدودة التى تضمنتها المصادر الأخرى القديمة والحديثة عن اليهود ، ونلاحظ أيضا أن معظم هذه الروايات التاريخية تهتم باليهود فى العصر الفاطمى .

ومن الصعوبات التى واجهتنا أيضا ، فى هذه الدراسة تعدد الروايات التاريخية بشأن الحدث الواحد ، وتضارب هذه الروايات وتناقضها أحيانا مما قد يودى الى الغموض واللبس أحيانا . وقد حاولنا جاهدين ، أخذ الأقرب الى الصديق منها . وهذه الظاهرة تبدو واضحة بصفة خاصة فى الفصل الأول من الباب الأول ، والذى تناولنا فيه دراسة موقف القبط واليهود من الفتح العربى .

وتتضمن هذه الرسالة خمسة أبواب رئيسية ، كل باب منها مقسم الى فصول هذا الى جانب التمهيد وهو دراسة موجزة لأحوال القبط واليهود قبيل الفتح العربى . وقد درسنا فى الباب الأول دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى . وقسمناه الى أربعة فصول .

ناقشنا فى الفصل الأول موقف القبط واليهود من الفتح العربى . وقد بذلنا قصارى الجهد فى توضيح موقف هؤلاء المصريين من العرب الفاتحين ، ومدى مساعدتهم لهم فى اتمام الفتح . وأشرنا أيضا الى الروايات التاريخية المتعددة ، والمتضاربة أحيانا بشأن أحداث الفتح وموقف القبط ، بصفة خاصة من العرب ومدى

مساعدتهم لهم فى اتمام فتح مصر . . وختمنا هذا القسم بايضاح
رأينا الخاص فى هذه الموضوعات وتدعيمها بالروايات التاريخية .

أما الفصل الثانى فهو دراسة مفصلة لدور أهل الذمة فى
الحياة السياسية فى عصر الولاة (فى عصر الخلفاء الراشدين
والأمويين والعباسيين) ، وبيننا فيه أبعاد استخدام ولاة مصر أهل
الذمة فى شئون الحكم والادارة ، فكان منهم الكتاب وعمال الدواوين
وحكام الأقاليم ورؤساء القرى . ودرسنا موقف هؤلاء الموظفين
الذميين من اخوانهم فى الدين . كما تحدثنا فى هذا الفصل عن
موقف الولاة المسلمين من تعيين البطارقة القبط وكيف كانت موافقتهم
ضرورية لاتمام مراسيم تعيينهم . كما درسنا موقف الولاة من كل
من القبط والملكانيين ، كما ذكرنا ما تعرض له أهل الذمة فى عصر
الولاة من مضايقات مادية واجتماعية .

ويدرس الفصل الثالث دور أهل الذمة فى عصر الدولتين
الطولونية والاخشيديية ، ومدى اسنفادة الأمراء من الذميين فى
الدواوين وجباية الخراج وأعمال الكتابة . كما رسمنا صورة واضحة
شاملة لحياة أهل الذمة فى العصرين الطولونى والاخشيدي .

ثم درسنا فى الفصل الرابع ، موقف الخلفاء الفاطميين من
أهل الذمة ، وبيننا كيف توسع معظم هؤلاء الخلفاء فى استخدامهم
والاعتماد عليهم فى شئون الحكم والادارة . فكان منهم معظم الكتاب
والوزراء وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم وجباة الضرائب ، مما أدى
الى ارتفاع شأن القبط واليهود ، عما كان عليه فى العصور السالفة .
وأشرنا أيضاً الى ما كان بين كثير من الخلفاء الفاطميين والبطارقة
من مودة وصداقة ، وما كان لذلك من أثر فى سياسة التسامح التى
تمتع بها أهل الذمة فى حياتهم الدينية والاجتماعية . ودرسنا موقف

الخلفاء الفاطميين من تنصيب البطارقة القبط ، وما كان يجب على هؤلاء البطارقة نحو الخلفاء ووزرائهم وانتهينا الى دراسة ما تعرض له أهل الذمة من مضايقات فى هذا العصر .

أما الباب الثانى ، فهو دراسة اجتماعية فحواها توضيح دور أهل الذمة فى المجتمع المصرى . وقد قسمناه الى أربعة فصول أيضا . أما الفصل الأول فيضم دراسة عامة لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ومدى تطبيق هذه الأحكام فى مصر ، مع توضيح أن هذه الأحكام لم ترد الاشارة الى تطبيقها والالتزام بها الا فى بعض الفترات المحدودة ، وهى الفترات التى تعرض فيها أهل الذمة لبعض الشدائد والمضايقات .

والفصل الثانى هو دراسة تفصيلية لاحتفالات أهل الذمة بأعيادهم الدينية والقومية . وقد بدأنا هذا الفصل بدراسة طوائف أهل الذمة فى مصر الاسلامية وتنظيمات كل طائفة مع ايضاح خاص للوظائف الدينية عند كل من القبط واليهود ، ودور عبادة كل منهم . وأشرنا الى موقف المسلمين من هذه الاحتفالات الدينية ، وموقف الحكام المسلمين ومدى مشاركتهم للقبط بصفة خاصة فى احتفالاتهم مع توضيح ما جرت به عادة القبط واليهود فى احتفالاتهم بأعيادهم ودرسنا مدى تمتعهم بالحرية الدينية والاجتماعية فى تطبيق هذه العادات والتقاليد .

أما الفصل الثالث من هذا الباب ، فهو دراسة لأخلاق كل من القبط واليهود وما ساد بينهم من العادات والتقاليد ، ووصف الملابس التى ميزت كل طائفة من طوائفهم . ثم درسنا فى الفصل الرابع والآخر من هذا الباب ، العلاقات بين أهل الذمة وسائر عناصر المجتمع المصرى . وبيننا فى أول هذا الفصل العلاقات بين الطوائف

المسيحية ، وخاصة ما كان بين القبط والملكانيين ، ثم درسنا العلاقات بين القبط واليهود . ثم درسنا ما كان يسود بين أهل الذمة وبين عامة المسلمين من علاقات الود والوثام . وأشرنا الى أن عامة المسلمين لم يثوروا ، ولم يعترضوا حياة الذميين الا في فترات محدودة ، حينما كانوا يستنكرون تسلط أهل الذمة على الوظائف الحكومية والادارية والمالية . ومبالغة أمراء مصر وخالفائها في سياسة التسامح معهم ، الى جانب توالي انتصارات الرومان على المسلمين في بلاد الشام . ثم ناقشنا العلاقات الطيبة التي كانت تسود في الغالب ، بين أهل الذمة جميعا وبين حكام مصر المسلمين الذين كانوا يتصدون للدفاع عن حقوقهم وحريتهم في المجتمع ، ويحققون لهم الأمن والسلام ، في معظم الأحيان ، بل ويقتصون لهم من المسلمين . كما كان أمراء مصر وخالفائها يتخذون الأديرة القبطية ، أماكن للتنزه والصيد ، ويقدمون لرهبانها - في مقابل ذلك - كثيرا من الاعانات المالية .

وخصصنا الباب الثالث لدراسة دور أهل الذمة في الحياة الاقتصادية ، وقسمناه الى أربعة فصول . تحدثنا في الفصل الأول منها ، عن الضرائب المفروضة على أهل الذمة وأثرها في مالية مصر ، وكيف كانت الجزية والخراج في مقدمة هذه الضرائب ، وذكرنا أنه الى جانب الضرائب المعتادة ، كانت هناك ضرائب أخرى عُدناها . وأشرنا الى ما استفدناه من أوراق البردى المتنوعة في نفهم كيفية ووسائل جباية هذه الضرائب والقائمين بجبايتها ، وأوامر الولاة المسلمين بتوخى العدل في تقدير هذه الضرائب وفي تحصيلها . كما تحدثنا عن المقاومة السلبية (حركة الآبقين) والمقاومة الايجابية (الثورات) التي قام بها القبط ، وما كان من ردع الولاة المسلمين لها . وناقشنا أيضا تطور مقدار الجزية والخراج في مصر الاسلامية في هذا العصر .

وخصصنا الفصل الثانى لدراسة دور أهل الذمة فى النشاط الزراعى ، فتحدثنا بإيجاز عن ملكية الأراضى الزراعية ونظم الزراعة والرى . ثم أشرنا الى مدى عناية المصريين بالجسور وحفر الترع والقنوات واقامة السدود وبناء مقاييس النيل ودور أهل الذمة فى ذلك كله . وما كان من ارتباط الزراعة بالشهور القبطية ، ونظام إيجار الأراضى وكيفية أداء الخراج عنها فى حالة إيجارها .

أما الفصل الثالث فهو دراسة توضح دور أهل الذمة فى النشاط الصناعى ، وما اشتهر به القبط خاصة من الصناعات المتعددة ومراكز هذه الصناعات مع الاشارة الى بعض الآثار الموضحة لدور القبط فى هذا الميدان . وشرحنا فى الفصل الرابع دور أهل الذمة فى النشاط التجارى فى داخل الأراضى المصرية وخارجها . وأشرنا الى النقود المتداولة والى الموازين والمكاييل .

ويدرس الباب الرابع دور أهل الذمة فى الحياة الفكرية ، وهو ثلاثة فصول ، الأول منها دراسة مفصلة لانتشار الاسلام واللغة العربية والعوامل المساعدة على ذلك حتى صار الاسلام دين الأغلبية العظمى فى مصر . كما أصبحت اللغة العربية السيادة اللغوية أيضا ، فصارت لغة التخاطب ولغة العلم ولغة الكتابة وخصصنا الفصل الثانى لدراسة النشاط الفكرى لأهل الذمة فى دور العبادة ومشاركتهم فى نهضة الثقافة العربية . وذكرنا كيف كانت الكنائس والأديرة غنية بمكتباتها ، وأن أهم ما كان يعنى به الذميون هو الدراسات الدينية ، الى جانب بعض الدراسات الانسانية والعلمية . أما الفصل الأخير من هذا الباب فقد أشرنا فيه الى بعض المفكرين والأطباء من أهل الذمة الذين اشتهروا فى مصر الاسلامية فى ذلك العصر .

وكان الباب الخامس والأخير عبارة عن دراسة موجزة للعلاقات بين الكنيسة القبطية وبين كنائس كل من الحبشة والنوبة وأنطاكية . وقسمناه الى فصلين ، يدرس الأول منهما تطور العلاقة بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة الحبشة والنوبة . أما الفصل الثاني فهو دراسة للعلاقات بين كنيسة أنطاكية والاسكندرية . وتنتهي الرسالة بخاتمة موجزة تليها الملاحق وثبت المصادر ثم الصور والخرائط .

تمهيد

أحوال القبط واليهود قبيل الفتح العربى



يجدر بنا قبل أن نخوض فى البحث فى تاريخ أهل الذمة -
أو بعبارة أخرى تاريخ القبط واليهود - فى مصر الإسلامية من الفتح
العربى الى نهاية العصر الفاطمى ، أن ندرس أحوالهم فى مصر قبيل
الفتح ، وخاصة فى عهد الامبراطور البيزنطى هرقل ، خلال السنوات
الثلاثين السابقة للفتح العربى - أى من سنة ٦١٠ م ، الى سنة
٦٤٠ م على وجه التقريب ، وذلك من النواحي الدينية والسياسية
والادارية ، والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

أما من النواحي الدينية والسياسية ، فنجد أن مصر كانت
ولاية رومانية ثم بيزنطية منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوباترة
فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م واستيلائه على مصر ، والقضاء
نهائيا على دولة البطلمة فيها (١) . وبذل الرومان كل وسيلة
لاستغلال موارد البلاد المصرية الى أقصى درجة ممكنة ولم يختلف
الوضع فى العهد البيزنطى (٢٨٤ - ٦٤٠ م) عما كان عليه فى
العهد الرومانى (٣١ ق.م - ٢٨٤ م) (٢) .

وكانت مصر فى مقدمة البلاد التى وصلت اليها المسيحية فى
القرن الأول الميلادى ، ثم أخذت فى الانتشار تدريجيا فى جميع أنحاء
مصر منذ القرن الثانى الميلادى وناصب الأباطرة الوثنيون المسيحية
العداء (٣) ، حتى اعترف الامبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ -
٣٣٧ م) بالدين المسيحى (٤) . وفى سنة ٣٨٠ م أصدر الامبراطور
تيودوسيوس الأول مرسوما يقضى بأن تكون المسيحية الدين
الرسمى للامبراطورية (٥) .

وبالرغم من ذلك لم تنعم مصر بالأمن والهدوء ، اذ سرعان ما دار النزاع بين المسيحيين أنفسهم حول طبيعة المسيح ، وتدخل الأباطر في هذا النزاع ، وعقدوا المجامع الدينية من أجل انهاء ذلك الخلاف (٦) . وبلغ النزاع الديني بين كنيسة الاسكندرية والقسطنطينية أقصاه حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى ، حينه اختلفت الكنيستين حول طبيعة المسيح . فذهبت الكنيسة المصرية الى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة ، ولذلك سميت باسم المونوفيزيت Monophysite أى أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ؛ أما كنيسة القسطنطينية فقالت ان للمسيح طبيعتين ، ولذلك أطلق عليها اسم الدوفيزيت Duophysite أى أصحاب مذهب الطبيعتين . وكانت الغالبية العظمى من مسيحيي مصر من أتباع مذهب الطبيب الواحدة ، فخالفوا بذلك مذهب كنيسة الامبراطورية الذى أقبر مجمع خلقدونية (٧) .

رفض مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « الأرثوذكسين » - أى أتباع الديانة الصحيحة (٨) فوقع المصريون نتيجة لذلك تحت اضطهاد الأباطرة . ويرى أحد الكتاب الأوربيين أن حرمان البطريرك ديسقورس وطرده من الكنيسة فى مجمع خلقدونية ، كان فاتحة لمأساة عظيمة ، لعبت أدوارها فى منتصف القرن السابع الميلادى ، وانتهت بزوال المسيحية فى مصر (٩) . ومما لا شك فيه أنه بعنى بذلك زوال الدولة البيزنطية المسيحية وقيام حكم العرب المسلمين فى مصر .

يشير المقرئ (١٠) الى أن معظم سكان مصر عند الفتح العربى كانوا من المسيحيين وكان هؤلاء المسيحيون ينقسمون الى فريقين يختلفان فى العنصر وجوهر العقيدة ، أحدهما الرومان ، وهم الطبقة

الفاكية ، صاحبة السيادة ويدينون بمذهب الامبراطورية وعبدتهم
يزيد على ثلاثمائة ألف روماني . أما الفريق الآخر من المسيحيين
فيثألف من عامة سكان مصر ، ويسمون القبط (١١) . وهم خليط
من أجناس متعددة فمنهم الأحباش والنوبيون وغيرهم الى جانب
المصريين ، وكلهم على المذهب اليعقوبي (١٢) ومن بينهم نجد الكتاب
والتجار وأرباب المهن والحرف المختلفة ، وكانوا على عداوة مع الفريق
الأول ، مما حال دون الامتزاج الاجتماعي وخاصة في الزواج .
وكان عدد هؤلاء القبط يزيد على عشرة آلاف .

ونجد من بين سكان مصر أيضا اليهود . والواقع أنهم كانوا
يتركزون بصفة خاصة منذ العصر البطلمي ، في مدينة الاسكندرية .
وكان لهم جاليات أخرى في بعض مدن مصر السفلى ، وكذلك في
ألفيوم ، كما كان في البهتسا (١٣) ، وخاصة في العصر الروماني
جالية يهودية كبيرة ، وكانت تقيم في حي خاص بها (١٤) .

وبحول كثير من اليهود الى الدين المسيحي ، مع احتفاظهم
بأسمائهم القديمة . وتشير بعض أوراق البردى الى أن كثيرا من
اليهود في العصر البيزنطي كانوا يشتغلون بالتجارة (١٥) .
ونلاحظ أن المصادر التاريخية القديمة والحديثة قلما تشير الى اليهود
في مصر في ذلك العصر . ونرى أن ذلك راجع الى ما ساد هذا
العصر من الخلافات المذهبية الدينية والسياسية : ومما لا شك فيه
أن اليهود كانوا حريصين على أن يبتعدوا عن هذه الخلافات ،
ليمارسوا حياتهم الدينية ، ونشاطهم الاقتصادي في هدوء . ولذلك
سنجد أن هذا التمهيد يكاد يركز الدراسة على أحوال القبط .

وقد تأثرت أحوال المصريين قبيل الفتح ، بالثورة التي أعلنها
هرقل ضد الامبراطور فوقاس سنة ٦٠٩ م (١٦) . وكانت الظروف

المحيطة بالامبراطورية هي التي ساعدت هرقل في ثورته ، وانتزاع منصب الامبراطور من فوقاس ، فقد أدت عدم كفاءة فوقاس السياسية ، وقسوته الشديدة الى جانب سياسة الارهاب التي اتبعها بونوس ، نائبه في مصر ، الى اشتداد روح المعارضة في البلاد المصرية (١٧) فلم يكده المصريون يعلمون بثورة هرقل ، حتى انضموا اليه ضد الامبراطور . اذ كان المصريون - كما يذكر أحد الكتاب المحدثين - على أهمية الاستعداد للتمرد والثورة ضد الحكم الممقوت ، باستثناء بعض الموظفين المصريين (١٨) .

أسند هرقل الى القائد نيقتاس ، مهمة الاستيلاء على مصر ، وقد نجح هذا القائد في دخول الاسكندرية . وأعلنت معظم المدن المصرية ولاءها لهرقل . وقدم معظم المصريين كل مساعدة ممكنة الى قواده الذين نجحوا في السيطرة على القطر المصري ولاذ بونوس - نائب فوقاس في مصر - بالفرار (١٩) .

وهكذا تخلص المصريون من حكم فوقاس ، ورحبوا بحكم الامبراطور هرقل ، مستبشرين به خيرا ، فقد يخلصهم مما عانوه من العسف والظلم ، وأملوا في حياة هادئة مستقرة . ويرى البعض أن المصريين شاركوا في الثورة ضد فوقاس ، حيث كانوا يأملون خيرا في الحكم الجديد ، ولكنهم ما لبثوا أن شعروا بخيبة الأمل بعد قليل (٢٠) . فلم تكن نهاية حكم فوقاس ، نهاية لسياسة الاضطهاد وسفك الدماء . فبعد فترة قصيرة من حكم هرقل ، دب الخلاف الديني الذي أنهك قوى البلاد ، وجعلها عرضة للأخطار الخارجية ، وأصبح القبط لا يكثر تون بما تتعرض له البلاد من هذه الأخطار الخارجية (٢١) .

ونلاحظ أن المؤرخ القبطى حنا البقيوسى - وهو أقدم المؤرخين المصريين وقد عاش فى القرن السابع الميلادى - لم يذكر شيئا عن الخلافات الدينية فى بداية عهد هرقل فى مصر ولم يتعرض فى كتابه لوصف أى اضطهاد أو ظالم ، بل أشاد بحكم نيقتاس نائب هرقل فى مصر .

تولى نيقتاس حكم مصر ، نائبا عن هرقل الذى بدأ عهده بالتودد الى القبط معترفا لهم بالجميل ، لمساعدتهم فى قتال قوات فوقاس فى مصر ، ولذا أحسن معاملتهم . وبادر بوضع حد للنزاع بين الأحزاب السياسية المتعارضة وحاول بث السلام بينها . كما عين حكاما على مختلف الأقاليم المصرية ، لتوفير الأمن والاستقرار ورفع الضرائب عن المصريين ثلاث سنوات متتالية ، فنال محبة المصريين ورضاهم (٢٢) .

وفى الحقيقة كان من الضرورى أن يسعى نيقتاس لكسب محبة المصريين ، وبدا هذا واضحا فى إقامة البطرك الملكانى (٢٣) الذى طلب من الحكومة البيزنطية تنصيبه وكانت توليته ترضى مشاعر المصريين (٢٤) . وكان هذا البطرك يسمى حنا الرحوم ، لما اشتهر به من فعل الاحسان والخير . فكان له أتباع يجوبون أرجاء البلاد ، ليأتوا اليه بخبر « سادته ومساعديه » ولما سئل عما يقصده بهذا التعبير قال : « أقصد من تسمونهم أنتم الفقراء والمساكين ، وأسميهم أنا السادة والمساعدين ، لأنهم فى الحق يساعدوننا ويمنحوننا ملكوت السموات » ، وقد أثار احسانه وخيراته الواسعة دهشة نيقتاس (٢٥) .

أما البطرك اليعقوبى فكان حينئذ يسمى أندرونيكو . وكان لا يقل شهرة عن البطرك الملكانى من حيث الاحسان الى شعبه . وكان مقره الاسكندرية وهى من أسرة عريقة . وصفه ساويرس (٢٦)

— استشف الأشمونين بأنه كان « غنيا ، يحب الصدقة ، مقدما في الشعب ، محبا للرحمة ، لا يفتر من الاعطاء » . وكان أهله بمقديس المدينة ، حتى أنهم ولوا ابن عمه ديوان الاسكندرية . ومن أجل قوة سلطانه وتقدمته ، لم يقدروا الهراطقة يخرجوه من الاسكندرية الى الديارات . . . »

واستمر الشعب في مصر منقسما الى طائفتين ، لكل طائفة رئيسها الدينى الذى يدبر شئون كنيستها ، ويرعى أحوال رعيتها ، مستقلا عن الآخر ، ومما لا شك فيه أن الرئيس المملكانى ، كانت تؤيده الحكومة البيزنطية ، وتشد أزره على حين يحدث عكس ذلك بالنسبة للرئيس اليعقوبى .

وكان نيقتاس عازما على المضى فى طريق الاصلاح ، واسترضاء المصريين ، ولكنه فوجئ بالغزو الفارسى (٢٧) . فانصدع الحكم البيزنطى فى مصر ، ولم ينعم المصريون طويلا بالراحة والهدوء بل انقلب أمنهم الى خوف .

نجح الفرس فى غزو أراضى الامبراطورية البيزنطية ، وأصبح الطريق أمامهم مفتوحا لغزو مصر فى سنة ٦١٩ م . ومما لا شك فيه أن نقص القوات الحربية البيزنطية وعدم الاتفاق بين الرؤساء ، قد مكن الفرس من هذا الغزو دون بذل مجهود يذكر (٢٨) . ولنا أن نتساءل ، كيف نجح الفرس فى غزو مصر ؟ وهل واجهوا مقاومة من القبط ؟؟

نقدم الفرس نحو الأراضى المصرية عن طريق ساحل البحر المتوسط ، وفتحوا مدينة الفرما (٢٩) Peluse عند الحدود المصرية الشرقية (٣٠) ثم تقدموا فى الأراضى المصرية كالسيل الجارف ،

يخربون الأديرة والكنائس ، ثم زحفوا الى الاسكندرية عن طريق
نقيوس (٣١) .

كانت الاسكندرية مدينة قوية منيعة فحاصرها الفرس وألحقوا
التدمير والخراب بالقرى والأراضي المجاورة لها ، وخاصة الأديرة
والكنائس . والفرس في الحقيقة يشفون غليلهم لاخفاقهم في اقتحام
الاسكندرية والاستيلاء عليها . وقد ذكر ساويرس (٣٢) . أنه كان
بها حينئذ ستمائة دير بهاناظون (٣٣) ، تعج بالحياة والرخاء .
واقترح الفرس هذه الأديرة وأعملوا بالقتل فيمن فيها ، ونهبوا
متاعها ، ثم خربوها .

علم أهل الاسكندرية بما أقدم الفرس عليه ، من أعمال
التخريب والتدمير مما أثار ذعر الأهالي والحكام على السواء .
فأسرع الحاكم نيقتاس ، والبطرك الملكاني حنا الرحوم بالخروج
من الاسكندرية ، واتجه نيقتاس الى القسطنطينية في حين ذهب
البطرك الى قبرص حيث توفي هناك في نوفمبر سنة ٦١٧ م (٣٤) .

أما أهالي الاسكندرية فقد فتحو أبواب مدينتهم ، فدخلها
الفرس ، وأمر قائدهم السلار ، جنوده بالمحافظة على المدينة ومبانيها ،
ولكنه أوصاهم في نفس الوقت بقتل أهلها لأنهم منافقون (٣٥) .
وروى ساويرس (٣٦) أن السلار - القائد الفارسي - دعا رجال
المدينة الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والخمسين للخروج
منها ، ووعد بمنح كل منهم عشرين ديناراً . فسجل أسماءهم ، وبلغ
عدد ثمانين ألفاً ثم أمر القائد بقتل الجميع بالسيف .

وقد انفرد ساويرس بذكر هذه القصة ، وربما كانت من صنع
خيال هذا المؤرخ القبطي الذي أراد الاساءة الى المسيحيين الملكانيين

الذين كانوا يمثلون غالبية سكان الاسكندرية • ويذهب بتلر (٣٧) الى نفس الرأى ، فيذكر أنه يمكننا أن نلمس من سياق القصة ميل المؤرخ لمذهب المونوفيزت ، وما كان يختلج فى قلبه من السرور ، اذ كان يفكر فى مذبحة تهلك أهل المدينة ، وهم من أتباع المذهب الملكانى •

أقدم الفرس على قتل كثير من أهل الاسكندرية ، كما استولوا على أملاك الكنائس الغنية ، وأملاك كبار الملاك بالمدينة • وبعثوا هذه الغنائم مع الأسيرة الى الدولة الفارسية (٣٧ م) • وقد أثار تغلغل الفرس فى الأراضى المصرية ، ذعر الناس جميعا ، وخاصة الرهبان والقسس والأساقفة (٣٨) • فقد ألحق الفرس كثيرا من الأذى بالمصريين ورجال الدين فى الوجهين البحرى والقبلى (٣٩) •

ويرى هاردى (٤٠) - Hardy أن القبط المنشقين على كنيسة الدولة ، كانوا متحدين أو متحالفين مع الفرس • فقد حدث فى سوريا أن تعاون الأرمن والسريان اليعاقبة معهم ، مثلما تعاون النسطوريون معهم أيضا بالعراق ، وان كانت الكتب القبطية تشير الى أن الفرس عاشوا فى مصر كغزاة ، فحربوا الأديرة والقرى وقتلوا كثيرا من الرهبان وامتد تخريبهم الى صعيد مصر •

ومن العسير علينا قبول الرأى القائل ان القبط قد رحبوا بالفرس أو تعاونوا معهم • ونستند فى ذلك على بعض الحقائق التاريخية • فقد أقدم الفرس الغزاة على قتل الرهبان وجلهم من الأقباط (٤١) وأنزلوا الرعب فى قلوب من بقى منهم ، حتى اضطروا الى اللجوء الى الأماكن المهجورة والجبال النائية (٤٢) • كما أن الفرس سلبوا الكنائس ممتلكاتها ، وانتهكوا حرمتها ، واستولوا على أوانى الكنيسة المقدسة ، وأساءوا استعمالها (٤٣) فأنى للقبط اذن أن يرحبوا بهم ، ويجدوا فيهم الخلاص من الحكم البيزنطى •

استمر حكم الفرس لمصر عشر سنوات . ويكاد يجمع المؤرخون على أن أحوال القبط وكنيستهم في مصر ، كانت في عهد الفرس أحسن حالا مما كانت عليه في عهد البيزنطيين ، اذ نعموا غالبا بالهدوء ، وتمتعوا بحرية العقيدة على عكس ما كان سائدا في عهد البيزنطيين وأبقى الفرس بعد أن استقر لهم الأمر في البلاد ، على كبار موظفي الدولة ، تحقيقا لاستقرار الحكم (٤٤) .

وفي خلال الحكم الفارسي ، توفي البطرك اليعقوبى أندرونيكو سنة ٦٢٣ م . وأقيم من بعده الأب بنيامين بطركا . وقد أحسن الفرس الى اليعاقبة على حين أساءوا الى الملكانيين لاتفاقهم مع الرومان في المذهب الدينى . وكان البطرك بنيامين يقيم في مدينة الاسكندرية (٤٥) .

وبدأ الأب بنيامين بتطهير الكنيسة مما لحق بها خلال فترات الاضطراب . كما عمل على إعادة وحدة الكنيسة القبطية ، وبذل أقصى جهده ليعيد اليها الاطمئنان والاستقرار بعد الظروف العصيبة التي مرت بها البلاد في هذا الوقت (٤٦) . وتولى بنيامين منصبه ست سنوات في عهد الفرس حتى استعاد الرومان مصر ثانية (٤٧) .

وفرض الفرس غالبا على الكنائس جزية تؤديها لهم ، واستصفوا أحيانا ما كان للكنائس الملكية من أوقاف وأرزاق . في حين تركوا الأبنية والعمائر الأهلية لأصحابها دون المساس بها (٤٨) . وما لبث أن نهض الامبراطور هرقل لقتال الفرس ونجح في استرداد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في الشرق ، كما استعاد مصر أيضا في سنة ٦٢٩ م (٤٩) .

حرص هرقل عقب ذلك على تحقيق الوحدة السياسية والدينية بين شعوب الامبراطورية ولما كان يدرك أن القبط يتمسكون تماما

يعقيدتهم ومذهبهم المنوفيزتى ، ويتحملون العذاب فى سبيله ، رأى أنه من الحكمة أن يكسب رضاهم ، حتى تنعم الدولة بالهدوء ونتحقق الوحدة المرغوبة .

دعا هرقل من أجل إزالة الخلافات الدينية - أثناسيوس بطرك أنطاكييا ، وسرجيوس بطرك القسطنطينية وكيرس أسقف فاسيس - فى بلاد القوقاز - لبحث تحقيق هذا الهدف ، والاتفاق على ما يرضى هذه الطوائف الدينية المختلفة ، فاجتمعوا فى هيرابولس Hiérapolis فى آسيا الصغرى - فى سنة ٦٣١ م . وقرروا مشروعاً دينياً سمي مشروع الاتحاد Monothelisme وافقوا فيه على عدم ذكر قرارات مجمع خلقدونية (٥٠) . ويسمى البعض هذا المشروع أيضاً باسم صورة توفيق Monothalma ويقضى هذا المشروع بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة السيد المسيح وصفته ويدعو الجميع للاعتراف بأن للمسيح ارادة واحدة (٥١) .

ويرى الشماس منسى القمص (٥٢) أن هذا المشروع الذى أراده الامبراطور عاد بالضرر على الدولة ، ولم يحقق الهدف منه . وقد رفض المصريون مشروع هرقل كما كان من العسير ارغامهم على قبوله (٥٣) .

ومما زاد الأمر سوءاً ، أن هرقل أساء اختيار نائبه فى حكم مصر الذى عهد اليه بتنفيذ مشروعه . فقد اختار رجلاً يصفه كثير من المؤرخين بأنه سيئ الخلق ، فظ الطباع وهو الأسقف كيرس Cyrus الذى شهد الفتح العربى لمصر ، والذى عقد معاهدة الصلح مع عمرو بن العاص ، ويسميه المؤرخون المسلمون المقوقس Mukaukes (٥٤) وهو الاسم الذى سنطلقه عليه فى بحثنا هذا .

أسند هرقل الى نائبه المقوقس الرئاستين السياسية والدينية ، اذ جعله بطركا للكنيسة المملكانية في مصر ، الى جانب كونه حاكما عاما للبلاد . يقول ساويرس (٥٥) ان هرقل « أنفذ واليا الى أرض مصر ، يدعى قيرس ، ليكون بطركا ووالبا معا » .

كان بطرك اليعاقبة عند وصول المقوقس الى مصر ، هو الأب بنيامين الذي ولى البطركية بعد الأب أندرونيكو في عهد الفرس . وكان الأب بنيامين محبوبا من المصريين اذ نظم الكنيسة وأصاح أحوالها ، ورفض المشروع الديني الجديد . وينسب ساويرس رفضه الى رؤيا صادقة أمر فيها بترك الاسكندرية عند قدوم المقوقس اليها ، والاختفاء طوال عشر سنوات ، حتى تتغير الأوضاع وينصلح الحال (٥٦) .

ولكننا نرى أن بنيامين رأى أنه من الحكمة والايمان أن يرحل عن الاسكندرية بعد قدوم المقوقس ، بل طلب أيضا من الأساقفة مغادرتها . فقد أدرك بنيامين أن الشعب المصرى سيقف فى وجه تنفيذ مشروع هرقل ، وتوقع ما ينتج عن هذا الرفض من الاضطهاد والظلم . فكتب بنيامين الى جميع الأساقفة ، يطلب منهم النجاة بأنفسهم محافظة على عقيدتهم ، وحرصا على سلامة مذهبهم ، ووحدة كنيستهم . ثم خرج بنيامين من الاسكندرية الى الصعيد حيث أقام مختفيا فى دير صغير طوال عهد المقوقس (٥٧) . ونستخلص من هذه الروايات التاريخية القديمة أنه لم يحدث أى لقاء بين الأب بنيامين البطرک اليعقوبى ، وبين المقوقس البطرک المملكانى . والواضح أن الأب بنيامين خرج من الاسكندرية عند وصول المقوقس اليها .

فى حين ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن المقوقس حاول اقناع البطرک القبطى بنيامين بقبول المشروع الجديد الذى أراد به

هرقل تحقيق الوحدة الدينية التي قد تؤدي الى الوحدة السياسية .
الا أن الأب بنيامين رفض المشروع ، وذهب الى أنه لا يقبل قراراً
دينيا يصدره الامبراطور ، لأنه ليس من مهمته وضع الشرائع
اللاهوتية . وتعرض بنيامين نتيجة لموقفه لكثير من الأخطار ،
مما جعله هو وبعض أساقفة الاسكندرية يلتجئون الى الجبال
والصحارى . ثم انتهى الأمر بنفى البطريرك بنيامين الى دير حقير في
مصر الوسطى (٥٨) . هذا هو موقف البطريرك بنيامين من المقوقس
ومذهبه ، ولنا أن نتساءل عن موقف كل من القبط والمكانيين ؟؟

يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن المقوقس اتبع في أول الأمر
سياسة سلمية وأنه حاول أن يقنع شعب مصر بالمذهب
المونوثيلي (٥٩) الذي يهدف الى القضاء على الخلافات الدينية (٦٠) .
ولكن هذا المشروع واجه معارضة شديدة من المكانيين واليعاقبة
على السواء فقد اعنقد بعض المكانيين أن هذا المشروع مناقض تماماً
للمذهب الخلقدونى (٦١) . وكان على رأس هذا الفريق المعارض
صفرونيوس ، الذي حاول أن يثنى المقوقس عن تنفيذ المشروع تارة
بالحجة ، وتارة أخرى بالتوسل والرجاء ، فطلب منه المقوقس
الرجوع الى البطريرك سرجيوس - بطريرك القسطنطينية - ومهما كان
الأمر فقد وضع المشروع الجديد موضع التنفيذ ، وتعرض من يرفضه
الى أشد أنواع العذاب (٦٢) .

أبدى جميع القبط سخطهم على المشروع وتمسكوا بمذهبهم
المونوفيزتي . ورأى المقوقس أنه من العسير استمالة القبط اليه .
فرأى هرقل أن يبدل محاولته أخرى ليحقق غرضه وهو توحيد
المذاهب الدينية ، واعتمد في ذلك على البطريرك سرجيوس الذي
اقترح بأن يعترف الناس بأن للمسيح ارادة واحدة ، وأما مسألة
نفاذ تلك الارادة بالفعل الواحد ، وهل ذلك الفعل واحد أم مزدوج

خيرجاً القول فيه ، ويمنع الناس من الكلام فى هذا الأمر وأرسل
قمرارا بذلك الى جميع أرجاء الامبراطورية البيزنطية بما فيها
مصر (٦٣) .

ولا نجد أية اشارة لهذا المشروع أو غيره من محاولات التوفيق
بين المذاهب الدينية المختلفة فى المصادر المصرية القديمة المسيحية
أو الاسلامية . فلم يشر الى ذلك حنا النفيوسى فى ديوانه ،
أو ساويرس فى كتابه سير الآباء البطاركة ، أو ابن عبد الحكم فى
كتابته فتوح مصر وأخبارها ، أو غيرهم من المؤرخين المصريين . وذكر
ساويرس (٦٤) أن المقوقس - الحاكم والبطرك الجديد فى مصر
يعد خروج الفرس - كان يخير المصريين بين قبول المذهب الخاقدونى
أو التعذيب أو القتل .

والحقيقة أن المصريين ، وإن تخلصوا من مظالم الفرس
وارهابهم ، فقد تعرضوا بعد عودة الحكم الرومانى الى الاضطهاد
الدينى . فقد كان الفرس الغزاة لا يحولون بين القبط وبين التدين
بما يشاءون من المذاهب المسيحية ، فى حين عمل المقوقس على أن
يحرمهم من هذه الميزة الكبرى . ويمدنا ساويرس بعدة صور لما
لحق بالمصريين من الضغط والارهاب ، وإن كان المقوقس قد اجأ
أحيانا الى وسائل الترغيب والاغراء ، باغداق الهدايا ، واضفاء
صفات التشريف فقبل بعض القبط مشروعه (٦٥) . ونجح المقوقس
أيضا فى استمالة بعض الأساقفة وجذبهم الى مشروعه مثل أسقفى
تقيوس والفيوم وغيرهما ممن خالف العقيدة الأرثوذكسية وقبل
المشروع الذى يدعو اليه المقوقس (٦٦) . فى حين تمسك أساقفة
وققسس آخرون بعقيدتهم ولم ينشئوا عن مذهبهم ، رغم ما حل بهم
من صنوف العذاب والارهاب . وفى مقدمة هؤلاء الأب مينا والبطرك
بنيامين (٦٧) . والقس يوسف الذى أمر المقوقس بجلده جلدا

شديداً (٦٨) • والأب صمويل القلمونى الذى أمر المقوقس بطرده من الدبر بعد أن ضاق به الأمر (٦٩) • وفى الوقت نفسه كان بعض القسس يتخفون فى ملابس العلمانيين حتى يتمكنوا من مباشرة مهمتهم الدينية بين القبط (٧٠) •

عدد مارسيل Marcel (٧١) أعمال الجور والطغيان التى عانى القبط منها فى عهد المقوقس • فقد تعرض القسس والأساقفة المعارضون للحبس والنفى ، وفرض الغرامات المالية عليهم ، وللمصادرة واغلاق الكنائس ونهب الأديرة ، وقتل من فيها • واستمرت الحكومة البيزنطية فى اتباع سياسة الأرهاب ، لاختضاع القبط لكنيسة الدولة •

وكان من الطبيعى أن ينحاز الامبراطور هرقل الى جانب الملكانيين فى مصر ، فعين منهم الأساقفة فى جميع الأقاليم المصرية ، فى حين أنزل بأهل مصر التاودوسيين الكثير من العذاب (٧٢) • فكر بعض المصريين فى تدبير مؤامرة تخلصهم من حكم المقوقس ، فاجتمع أصحاب المذهب الجايانى (٧٣) فى كنيسة دفاشير - Defâchire بالقرب من مريوط - وانفقوا على قتل المقوقس • وعلم ضابط رومانى يدعى أودقيانسوس بهذه المؤامرة ، وكان عدواً شديداً للقبط • فبعث بجنده لقتل المتآمرين ، وبذلك أخفقت المؤامرة ونجا المقوقس (٧٤) • واستمر اضطهاد القبط ومعاملتهم بالشدّة والقسوة طوال حكم المقوقس فى مصر منذ توليه فى سنة ٦٣١ م • حتى الفتح العربى لمصر (فى سنة ٦٤٠ / ٦٤١) ولم يتحول المقوقس عن هذه السياسة طوال حكمه (٧٥) •

لقد كانت الحياة الدينية فى مصر هى التى تشكل أوضاع القبط ، وتحدد مدى استقرارهم وأمنهم • وقد أثر الخلاف الدبنى

بين الدولة البيزنطية وقبط مصر فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وإذا انتقلنا الى الحديث عن النظم الادارية فى مصر قبيل الفتح العربى ، ومدى مشاركة المصريين فيها ، نجد أن النظام الادارى السائد ، هو النظام نفسه الذى كان فى عهد الامبراطور جستنيان . فقد كانت البلاد مقسمة اداريا الى خمس مقاطعات كبرى هى : مصر ، وليبيا ، ومصر العليا ، واوجيستميكا أو أتريب ، وأركاديا أو اقليم الفيوم . وكان يحكم كل مقاطعة دوق له سلطات مدنية وحربية (٧٦) .

وكان تحت امرة كل دوق قوة عسكرية خاصة به . وقد دلت أوراق البردى على اشتراك المصريين فى الجيوش البيزنطية قبيل الفتح العربى . « والواقع أن الاحكام البيزنطيين قد اعتمدوا على هؤلاء المصريين فى مساعدة الموظفين فى أعمالهم ، وفى جمع الضرائب والقضاء على قطاع الطرق ، واخماد الثورات الدينية » (٧٧) .

وقسمت كل مقاطعة من المقاطعات الخمس الى مديريات ، يحكمها حاكم مدنى . وكل مديرية كانت مقسمة بدورها الى عدة أقسام ادارية ، فكانت هناك الأقاليم والمدن ذات الادارة المحلية والاضياح الأتوبراجية (٧٨) . وكانت المدينة هى الوحدة الأساسية للادارة المحلية ولشئون جمع الضرائب ، وتتكون الادارة المحلية للمدينة من عدد من الموظفين وملاك الأراضى ، ورجال الدين ، والأعيان . ويقوم هؤلاء بانتخاب موظف يسمى جابيا أو محصلا ، ويكون مسئولا عن الشؤون المالية (٧٩) . أما القرى فكانت صورة مصغرة لما كانت عليه المدينة ويحكمها رئيس القرية (٨٠) .

وكانت الظاهرة الشائعة فى ذلك العصر هى تركيز النفوذ السياسى والاقتصادى فى أيدى فئة قليلة من الأسر الرومانية ، الذين كانوا الى جانب امتلاكهم للأراضى الواسعة أو الأبعاديات يشغلون وظائف رؤساء المقاطعات ورؤساء المديرين ورؤساء الأقاليم (٨١) . على حين نجد سكان البلاد يخدمون فى أملاكهم ، وعليهم أن يحققوا لهؤلاء الاقطاعيين ، وسائل المعيشة ، الى جانب مهمتهم فى المجتمع من المحافظة على النظام والأمن (٨٢) .

أما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فنجد أن مصر قد أصبحت مخزنا لقمح القسطنطينية ، كما تدهورت أحوال الزراعة والصناعة والتجارة ، وأيضا تدهورت قيمة العملة الى حد كبير . ومن ثم ساد القحط القرى والمدن المصرية العامرة (٨٣) . وعليه اتسعت الهوة بين ملاك الأراضى واصحاب الاقطاعات من الرومان وبين القبط (٨٤) .

وعانى المصريون كثيرا من الضرائب الباهظة المفروضة على الرؤوس والصناعات والأراضى والماشية ، والمادة والسفن ، وزوجات الجنود ، وأثاث المنازل بل على الموتى أيضا . وكان القبط - الى جانب ذلك - ملزمين بايواء من يمر بهم من الموظفين المدنيين والعسكريين البيزنطيين وتوفير حاجاتهم وأيضا تقديم الغذاء للجنود (٨٥) .

ويصف دانييل دينيت (٨٦) كيفية تقدير الضرائب وجبايتها فى مصر البيزنطية آنذاك ، ففي شهر يوليو أو أغسطس من كل عام ، يصدر حاكم الشرق منشورا ، محدد فيها تقدير الضرائب النقدية وما يترك للنفقات المحلية ، وما يرسل الى خزانة الدولة وخزانة الحاكم العام . ويصدر هذا المنشور الى حكام المديرىات ، وهؤلاء

يدورهم يدعون المنشور في سبتمبر أو أكتوبر . وكان لهم السلطة
المباشرة على الضياع الأتوبراجية .

كان حاكم الاقليم هو المسئول عن الأموال المطلوبة من المدن
والقرى ، فكان يرسل الى موظف كل مدينة ، ورئيس كل قرية
يخصصهم من الضرائب . وكان مراقب جمع الضرائب ومعاونوه
يجمعون الضرائب من السكان داخل المدينة ، كما يجمعون أيضا
ضرائب الأرض التي يملكونها خارج المدينة . أما رؤساء القرى
فيجمعون ما عليهم من الضرائب ، ويؤدونها مباشرة الى حاكم
الاقليم (٨٧) .

نستخلص من ذلك أنه كانت هناك ضريبتان في ذلك العصر ،
ضريبة على الأفراد وتجمع من المدن والقرى ، وضريبة على الأرض
التي يملكها سكان هذه الأقسام كلها . وكان حاكم المقاطعة
أو البدوق يزود القائمين بجمع الضرائب بقوة عسكرية لضمان
تحصيل الضرائب كلها (٨٨) . وكان هناك ضرائب عينية مثل
ضريبة الملح ، وكانت ترسل مباشرة الى القسطنطينية ، والمسئول
عن ذلك حاكما أتريب ومصر العليا . فكانا يرسلان المساحين
لفحص الأرض وحالة الري ودرجة الخصوبة من أجل تقدير هذه
الضريبة (٨٩) .

وأمام هذه الضرائب الفادحة والفسوة في تحصيلها ، اضطر
كثير من المصريين الى ترك أراضيهم ، وأعمالهم والهروب الى الأديرة
والكنائس ، أو وضع أنفسهم تحت حماية ملاك الأراضي وأصحاب
الضياع (٩٠) . ولكنه كان في الواقع كالمستجير من النار بالرمضاء
فبمضي الزمن كانت تصبح أرضه ملكا للكبير الذي وضع نفسه
تحت حمايته ويتحول الفلاح الصغير الى مجرد عامل أجير لهذا
المالك الكبير (٩١) .

ويمكن وصف نظام الضرائب في مصر في العصر البيزنطي ، بأنه « نظام معقد ، شديد الوطأة ، غير عادل في واقعه ، وغير كفء في مناجه ، موزع المسئولية ، يسيطر عليه بطء الروتين ، وعجزه عن التنفيذ ، ولم يسعد بهذا النظام سوى طبقة واحدة من السكان هم ملاك الضياع الأتوبراجية من ذوى الجاه والنفوذ السياسى » (٩٢) .

أما من الناحية الثقافية ، فكان يسود مصر فى ذلك العصر اللغة اليونانية واللغة القبطية (٩٣) . وكانت اللغة اليونانية حتى الفتح العربى هى اللغة الرسمية للحكومة والكنيسة - والتجارة ، والعلاقات الخارجية (٩٤) . أما اللغة القبطية فقد تفرعت الى لهجات متعددة ويتكلم بها غالبية المصريين القبط الذين كانوا يعملون - فى الغالب - فى الزراعة ويجهلون اللغة اليونانية ، ولم يكن معظم المصريين على جانب من العلم . فى حين نجد مراكز النشاط الفكرى فى الأديرة القبطية وأشهرها : الدير الأبيض بسوهاج ودير سنت ميخائيل بالفيوم ، ودير سنت مقار فى وادى النطرون (٩٥) .

وكانت هذه الأديرة وغيرها تضم مكتبات عظيمة ، تحتوى على الكتب الدينية بصفة خاصة ، الى جانب مؤلفات فى الطب والفلسفة والتاريخ وغيرها من العلوم . وكان الرهبان يقومون بترجمة الكتب اليونانية الى القبطية ، الى جانب كتابتهم فى التاريخ وجغرافية بلادهم ، والأدوية الطبية وسير القديسين والبطاركة ومؤسسى المذاهب الدينية والقواعد الديرية وغيرها من نواحي النشاط الفكرى (٩٦) .

والى جانب النشاط الفكرى للقبط ، كان هناك النشاط الفكرى للرومان ، حتى أصبحت مصر من أهم مراكز الثقافة فى

الشرق قبيل الفتح العربى ، وخاصة فى ميادين الفلسفة والعلوم الدينية والفلك ، والأدب وغيرها من العلوم (٩٧) .

هذه هى أحوال القبط واليهود فى مصر قبيل الفتح العربى من النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وأن كانت دراستنا - فى الحقيقة - تتركز معظمها على القبط دون اليهود ، فهذا لأننا لم نجد فى المصادر التاريخية الكثير عن حياة يهود مصر قبيل الفتح العربى . ويبدو أنهم كانوا يعيشون فى هدوء بعيدا عن الخلافات الدينية المذهبية ، ويمارسون نشاطهم الاقتصادى والدينى - كما ذكرنا من قبل .

ويمكننا أن نقول ان شعور الكراهية والعداوة التى أبداهها المصريون نحو البيزنطيين ، كان يتزايد يوما بعد يوم ، نتيجة سياسة البيزنطيين الدينية والسياسية والاقتصادية . وربما كان أبرز دوافع الكراهية هو الخلاف الدينى ، ونظام الضرائب الظالم (٩٨) وخاصة أن الموظفين قد اتبعوا سياسة ارهابية فى تحصيل الضرائب حتى يحققوا ثراء شخصيا . كما اعتبر الأباطرة مصر مخزنا للغلال ، يتزودون منه بحاجاتهم دون مراعاة مصالح المصريين أنفسهم . هذا الى جانب سخط المصريين على سياسة الأباطرة وموقفهم من أكليروس الاسكندرية ، واضطهادهم للبطاركة القبط ، وتدخلهم فى العقائد الدينية ورغبتهم فى ضم القبط لكنيسة الدولة ، وما نتج عن ذلك من مذابح واضطهاد (٩٩) .

والحقيقة التاريخية أن المصريين ، وان سخطوا على هذه الأوضاع ، الا أنهم لم يثروا ضد الدولة البيزنطية ، ولم يتطلعوا الى منقذ ينقذهم من هذه الأوضاع الظالمة . وهكذا كانت الظروف مهيأة لنجاح الفتح العربى لمصر ، اذ كانت نفوس المصريين معبأة

بالكراهية الشديدة والعداوة العظيمة للبيزنطيين . وإن كان
الفريقان يتفقان في العقيدة الواحدة ، إلا أن الخلاف المذهبي كان
من العوامل الرئيسية للعداء بينهما . ومما لا شك فيه أن المصريين
رأوا في الفتح الغربى مخلصا لهم من اضطهاد البيزنطيين ، ومحققا
لهم الأمن والسكينة ، حتى يستطيعوا مباشرة نشاطهم الدينى فى
حرية وسلام .

الهـوامش:

- (١) - سيده كاشف مصر في فجر الاسلام ، ص ٨ ، على جبهته الخربوطلى .
مصر العربية الإسلامية ، ص ٧ .
(٢) - سيده كاشف مصر في فجر الاسلام ، ص ١ .
(٣) - Munier : L'Egypte Byzantine, p. 8.
اضطهد الإمبراطور البيزنطيون في مصر ، وبلغ هذا الاضطهاد اقصاه في عهد
الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) وليس أدل على ذلك الاضطهاد من
أن الكنيسة القبطية في مصر بدأت تقويمها الذي أسمته تقويم الشهداء بالسنة
الاولى من حكم هذا الامبراطور - سنة ٢٨٤ م - انظر ، سيده كاشف مصر
في فجر الاسلام ، ص ٣ .
(٤) - Munier : L'Egypte Byzantine, p. 80.
(٥) - Ibid., pp. 38-39.
(٦) ويسمى المجمع الدينى Oecumenical Council ويرأسه الامبراطور
ويدعو اليه الاساقفة من جميع انحاء العالم المسيحى أو من ينوب عنهم من رجال
الدين ، وكانت قراراته نافذة فى جميع انحاء العالم المسيحى . وقد عقدت
سبعة مجامع دينية الاول فى عهد قسطنطين الاول فى نيقية سنة ٣٢٥ م .
والثانى هو مجمع القسطنطينية سنة ٣٨٢ م . والثالث مجمع افسس سنة ٤٣١ م .
والرابع هو مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م . والخامس مجمع القسطنطينية الثانى
سنة ٥٥٣ م . اما السادس والسابع فكانا بعد الفتح العربى لمصر وهما : مجمع
القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ م ومجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ م . انظر نورمان
بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، حاشية ص ٩٨ .

(٧) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٤ - على ابراهيم حسن .
مصر في العصور الوسطى ، ص ٣٤ . ومجمع خلدونية : دعا اليه الامبراطور
مارقيان Marcian (٤٥٠ - ٤٥٧ م) في سنة ٤٥١ م ، وقد عقد
المجمع بآسيا الصغرى في مدينة خلدونية وأقر هذا المرجع مذهب الطبيعيتين ،
ونذهب الى أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح . كما
قرر حرمان ديسقورس بطرك الاسكندرية من الكيسة ، انظر : سيده كاشف
مصر في فجر الاسلام ، ص ٤ .

(٨) سيدة كاشف : المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٥ - ٦ .

(١٠) الخطط : ج ٤ ، ص ٣٩٣ .

(١١) كلمة قبط Kibt يقال انها التسمية العربية لأهل مصر ، نسبة
الى ملك مصر القديم ، قبط بن نوح بن سام . ويعتقد بعض الأوربيين أن كلمة
قبط مشتقة من كلمة Coptos اسم إحدى المدن المصرية . واسم
القبط - في الواقع - يطلق على أهل مصر من المسيحيين اليعاقبة . انظر .
The Encyclopedia of Islam, V, 2, Art. Kibt, p. 990.
وتشير بعض المراجع الى أن مصر كانت تعرف بين الشعوب السامية المجاورة
لها قديما باسم مصر - ومعناه في اللغات السامية الحد - ومصرين بالآرامية ،
ومصريين بالعبرية كم . عرفها العرب باسم مصر وقد سمي القبط مصر باسم كيمي
بمعنى أرض السواد . وقد عرفها الآشوريون باسم هيكيوتاه ، وهو الاسم الذي
يطلقه المصريون على عاصمة ملكهم القديمة منف ، ومعناها « بيت - روح -
بتاح » وقد سمع اليونان منذ أقدم العصور هذا الاسم فأخذوه عنهم ، وأسموا
مصر باسم ايجبتوس - وقد ورد هذا الاسم كثيرا في شعر هوميرو - فإذا حذف
علامة الرفع (وس) ثم الحركة الاولى التي ظنها العرب حرف استهلال ، خلص
لنا بعد ذلك اسم قبط . أي أن العرب قد حرفوا الاسم بعد ذلك الى قبط ، وصار
هذا الاسم مميذا لسكان مصر من المسيحيين اليعاقبة . انظر : مراد كامل :
ط في ركب الحضارة ، ص ٩ ، « رسالة مارمينا سنة ١٩٥٤ م » .

(١٢) وقد اختلفت الآراء في سبب هذه التسمية التي أطلقت على أتباع

ك ديسقورس بطرك الاسكندرية الثامن فليل انهم سموا بذلك لان هذا
البطرك كان اسمه في العلمانية يعقوب وقيل انهم سموا بذلك نسبة لأحد تلامذة
هذا البطرك الذي كان يسمى يعقوب . وقيل أيضا نسبة الى أحد تلامذة البطرك
ساويرس بطرك أنطاكية الذي كان يرسله الى أصحابه ليثبتوا على رأى بطرك

الاسكندرية المذكور فنسبوا اليه . كما قيل انهم نسبوا الى يعقوب البردغانى
تلميذ ساويرس بطرك انطاكية وكان راهبا فى القسطنطينية وكان يطوف بالبلاد .
ويدعو الى مذهب ديسقورس . انظر القلقشندي صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٧٨
والشائع ان اليعاقبة نسبة الى يعقوب البرادعى Jacob Baradeus اسقف
مدينة الرها الذى كان يذهب مذهب الطبيعة الواحدة وقد زار مصر وبلاد المشرق
ينظم الكنائس المنوفيزية بها . انظر : سيدة كاشف : مصر فجر الاسلام ،
ص ٥٠ .

على ابراهيم حسن . مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤ .

(١٢) البهنسا مدينة فى أول الصعيد ، غربى النيل ، وهى منطقة عامرة ،
كثيرة الدخل . ويقال ان المسيح وأمه أقاما بها سبع سنوات . انظر ياقوت
الحموى . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥١٦ - ٥١٧ .

The Jewish Encyclopedia, Volume, V., p. 60. (١٤)

Ibid., p. 60. (١٥)

Hardy : Christian Egypt ; Church and People, p. 179. (١٦)

وكان هرقل حاكما لأفريقيا واستطاع أن ينال محبة الشعب الرومانى .
ولذا اتصلت به الأحزاب فى العاصمة البيزنطية ، من أجل تنظيم الثورة ضد
الامبراطور القائم آنذاك « فوقاس » فاستجاب هرقل لدعوتها . كما اتصل بكبار
الملك فى مصر وحرضهم على الثورة وقد أعلن الشعب المصرى مشاركته فى
هذه الثورة ، وحالوا دون تصدير الحبوب الى العاصمة البيزنطية . انظر
أيضا : أسد رستم : تاريخ الروم ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

Hardy : Christian Egypt., p. 179. (١٧)

ويبدو أن بونوس كان كل همه جمع الأموال . ويشير حنا النقيوسى ،
على أنه كان يلجأ الى وسائل التعذيب والارهاب فى جمع الضرائب . ولذلك رحب
الشعب المصرى بثورة هرقل ، واستولى على أملاك الحكومة وخزائن القمح
والأموال العامة ، انظر : Chronique de Jean, p. 423.

Deihl : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 536. (١٨)

Chronique de Jean, pp. 421-427 et, Hardy : Christian Egypt, pp. 179-180. (١٩)

(٢٠) بتلر . فتح العرب لمصر ، ص ٤٣ .

.. (٢١) على إبراهيم حسن . مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤ ، ويقول :
Milne : بشأن الخلاف الدينى انه فى السنوات الست الاولى من حكم
مرقل لم يكن هناك سلام بين الكنائس المسيحية المتخاصمة . يعنى بذلك الكنيسة
الامبراطورية والكنيسة القبطية . انظر :

A History of Egypt Under Roman Rule, p. 114.

Chronique de Jean, p. 430.

(٢٢)

(٢٣) يقول القلقشندى - فى كتابه صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٧٦ ، ان
الملكانيه هم اتباع ملكان الذى ظهر ببلاد الرومان ، وكان يدعو الى مذهب
الطبيعتين . وقيل انهم سمو بذلك نسبة الى مركان احد قيصرات الرومان لانه كان
يقوم بنصرة مذهبهم فقيل لهم مركانية ثم عرب الاسم الى ملكانيه . ومن ثم عرف
اتباع الكنيسة البيزنطية باسم الملكانيين وذلك بعد الفتح العربى لمصر . ويقال
ان العرب اطلقوا عليهم هذا الاسم لاتباع اصحابه مذهب الامبراطور . وان هذا
الاسم مشتق من كلمة ملك العربية .

انظر سيده . كاشف . مصر . فى فجر الاسلام ، ص ٥ .

(٢٤) بتلر . فتح العرب لمصر . ص ٤٤ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢٦) سير الابطام البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ - ويسميه المقرئ
ادراسلون الخطط ، ج ٤ ، ص ٧٩٣ .

Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 114. (٢٧)

Deila : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 539. (٢٨)

وقيل ان غزو الفرس لمصر كان سنة ٦١٥ م . وقيل سنة ٦١٦ م . انظر
بتلر . فتح العرب لمصر ، ص ٦٣ و

Amelineau : Un Evêque de Koft au VII Siecle, p. 264.

(٢٩) هى التسمية العربية للمنطقة واسمها القبطى برمون . وهى قريبة من
البحر ولها مرفأ لعله متصل بالمدينة بخليج يجرى من البحر . والغرما مدينة
قديمة منيعة الحصون بها كثير من الآثار المصرية القديمة كما ان بها كنائس وأديرة .
وكانت مفتاح مصر من الشرق .

انظر ، بتلر . فتح العرب لمصر ، ص ١٨٥ - ١٨١ .

Munier : L'Egypte Byzantine, p. 67.

(٣٠)

(٣١) بتلر : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣٢) سير الابهاء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٣٣) منطقة الهاماطون لها أكثر من اسم قبطى . واسم هذا المكان فى اليونانية : اناتون . ويترجم فى اللاتينية الى Enriatum ومعناها الشاسع . ويقال ان هذا المكان كان على بعد تسعة أميال من غرب الاسكندرية . وأن به كنيسة تسمى هاناظون . وكانت مكرسة باسم مار جرجس . وفى الحقيقة ، يبدو أن الاسم مأخوذ من رقم البريد . وكان ذلك هو النظام المتبع فى القسطنطينية ومصر أيضا . انظر : بتلر : فتح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٤٧ .

Hardy : Christian Egypt, p. 181, and Deihl : L'Egypte

Chrétienne et Byzantine, p. 539.

(٣٥) ساويرس ، سير الابهاء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ . ويشير

هذا المؤرخ الى أن السلطان رأى فى منامه شخصا يقول له : « سلمت ههنا المدينة لك ، وبنائها وكل ما فيها ، فإياك أن تؤذيها بل لا تبق أهلها فيها لانهم منافقون » والواقع أن المدينة سلمت اثر خيانة بعض أفرادها عقب خروج نيقثاس والبطرك منها فى يونيو سنة ٦١٩ م . نلاحظ هنا اضطراب التواريخ - وأن الذى قام بهذه الخيانة شخص يسمى بطرس ، قدم من البحرين الى الاسكندرية طلبا للعلم . انظر : بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٧٠ - ٧١ و

Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes d'Egypte, p. 76.

(٣٦) سير الابهاء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣٧) فتح العرب لمصر ، ص ٦٨ .

Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes, p. 76; et

Deihe : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 539.

Amélineau : Un Evêque de Koft au VII Siecle, p. 299. (٣٨)

ويذكر أميلينو من هؤلاء الأساقفة الاسقف البيزنتيوس . Pisentios الذى رأى أنه من الأفضل أن يأتى الى الجبال البعيدة عن أعين الفرس . فنظم شبثون أسقفيته بمدينة قفط . ووزع كل ممتلكاته على الفقراء والمحتاجين وترك أهله وخرج فى صحبة تلميذه حنا ، ولاذ بجبل جيمي Gûmi .

(٢٩) ساويرس : سير الالباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٤ . ويذكر
أن الفرس علموا وهم في الطريق الى الصعيد أنه يوجد في الجبال والمقابر
حوالي سبعمئة راهب يعيشون في بدخ وترق فأرسل اليهم القائد الفارسي جيشا
أحاط بهم وقتلهم جميعا .

Hardy : Christian Egypt, pp. 181-182. (٤٠)

(٤١) ساويرس : سير الالباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

Amélineau : Un Evêque de Koft, p. 299. (٤٢)

Amélineau : Un Evêque de koft, p. 300. (٤٣)

وقد أجمل أحد القديسين - وهو الأب شنودة الذي عاش قبيل الغزو الفارسي -
تنبؤاته بما سوف ينزله الفرس بالمصريين عند استيلائهم على البلاد فنراه يقول :
« وينزلون الى مصر ، وتكون فيهم مقتلة عظيمة وينهبون أموال المصريين .
ويبيعون أولادهم بالذهب ، لشدة الاضطهاد الذي للمفرس وعسفهم . وكثيرون
من السادات يصيرون عبيدا ، وعبيد كثيرون يصيرون سادات الويل لمصر من أهل
الفرس ، لأنهم يأخذون أواني البيع ويشربون بها الخمر أمام المذبح بغير خوف
ولا جزع أيضا ، ويفضحون النساء أمام بعولهن ، وتكون شدة عظيمة وضيق .
وان الذين يبقون يموت ثلثهم بالحزن والكآبة ، ثم بعد قليل ينصرفون الفرس عن
مصر ، انظر :

Amélineau : Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte,
p. 340.

(٤٤) ساويرس : سير الالباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، بتلر .

فتح العرب لمصر ، ص ٧٣ ويشير الى ما يدل على ذلك ، وهو استمرار سلطان
بعض أقرباء البطرك أندرونيكو في ديوان الاسكندرية .

Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes, p. 77. et, (٤٥)

Amélineau : Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte,
tine, p. 68.

والأب بنيامين من ضيعة تسمى برشوط - في اقليم البحيرة - ولا شب
رغب في النسك وزهد فيما تركه والداه وكل ما يملك ، وفضل حياة الرهبانية ،
فلجأ الى الشيخ تاونا بدير يسمى دير قيريوس فالبسه هذا الشيخ اسكيم
الرهبنة ورباه على خوف الله وحفظ الكتب المقدسة ، ثم رسمه البطرك أندرونيكو
قسيسا ، وجعله مساعدا له في أعمال الكنيسة ، وأوصى بأن يكون هو البطرك
من بعده . انظر : ساويرس : سير الالباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص
١٠٤ - ١٠٥ .

(٤٦) انظر ترجمة البطررك بنيامين ، وتوضح هذه الترجمة جواب مهمة عن مدى اهتمامه بالكنيسة القبطية والقبط في ذلك الوقت في :
Amélineau : Fragments Coptes pour servir à l'histoire de la
Conquêt de l'Egypte par les Arabes, p. 368.

(٤٧) ساويرس : سير الاء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٤٨) بتلر . فتح العرب مصر ، ص ٨٠ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ١٠٤ ، ٨ . ايدرس بل . مصر من الاسكندر
الأكبر حتى الفتح العربي ، ص ٢٥٥ .

(٥٠) بتشر : تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes, p. 78, et Deihl :
L'Egypte Chrétienne et Byzantine, pp. 541-542.

(٥١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٦ ، على ابراهيم حسن :
مصر في العصور الوسطى ، ص ٣٥ ، على حسنى الخردوطلى : مصر العربية
الاسلامية ، ص ١٠ .

(٥٢) تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٣٩٨ .

(٥٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٥٥ .

(٥٤) Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes, pp. 78-80.

ويسمى أيضا le Caucasien وهو أسقف مدينة فاسيس في أرمينيا
ببلاد القوقاز كما ذكرنا .

(٥٥) سير الاء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(٥٦) ساويرس : سير الاء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ ويقول :
« فلما وصل الى الاسكندرية - يعنى المقوقس - اعلم الأب بنيامين ملك الرب
به ، وأمره أن يهرب . فقال له الملك : اهرب أنت ومن معك هاهنا ، لأن
شدائد عظيمة تنزل عليكم ، لكن تعزى ، فما يقيم لنا الجهاد الا عشرة سنين ،
وأكتب الى جميع الاساقفة الذين في كرسىك يلتفتوا حتى يجسوز غضب الرب » .

(٥٧) ساويرس : سير الاء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(٥٨) بتشر . تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ، ص ١١٨ ، الشمس منسى
القمص ، تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٥٩) وهو المذهب الذي أقره الإمبراطور هرقل والأساقفة المجتمعون في سنة ٦٣١ م في هيرا بوليس والذي يقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام في طبيعة المسيح وصفته ، والإعتراف بأن المسيح أرادوا واحدة كما ذكرنا .

(٦٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٦١) وهو المذهب الذي أقره المجمع الديني المنعقد في سنة ٤٥١ م بخلقدونية في آسيا الصغرى والذي يذهب إلى أن للمسيح طبيعتين ، ويعتبر من يقول بأن له طبيعة واحدة كافرا .

(٦٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٥٩ .

(٦٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٦٤) سير الأياء البطارقة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ ويشير إلى أن هرقل قد أوصى المقوقس : « أن قال أحد أن مجمع خلقدونية حق خلوه ، ومن قال أنه ضلال وكذب أغرقوه في البحر » .

(٦٥) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٦٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٦٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ . ويذكر أن المقوقس أمر بإشعال النيران في الأب ميتا كما أمر بقلع أسنانه وإضرابه وضربه ضربا شديدا بإسيا . ثم أمر بوضعه في جوال ، مسك بطرفيه وهو في البحر ، وعرض عليه الاعتراف بمذهب خلقدونية ثلاث مرات ولكن رفضه وأصر على رايه . فألقى به في البحر .

(٦٨) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٦٣ .

(٦٩) Amélineau : Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte pp. 774-777.

وتنضمن ترجمة حياة هذا الأب ، وصفا جليا لما أنزله المقوقس بالقبط من الاضطهاد والقسوة . فقد رفض الأب صمويل المشروع الجديد ، ودعا رهبانه ديره إلى عدم قبوله ، والهروب من وجه المقوقس . فاشتد غيظ المقوقس لذلك ، واستدعى إليه الأب صمويل مقيدا في سلاسل حديد ، وأمر بضربه ضربا شديدا . ورغم ما نزل به من تعذيب رفض دعوة المقوقس وتمسك بالعقيدة الأرثوذكسية فاشتد غيظ المقوقس لذلك ، وكاد جنده يقتلون الأب صمويل لولا تدخل حاكم الفيوم آنذاك .

ثم أمر المقوفس بطرده من جبل نكلون Niklône ويسمى في الجزيرة النكلون ويقع على مسافة ساعتين الى الجنوب الغربي من الفيوم ، انظر-بتلر :فتح العرب لمصر ، ص ١٦٥)

(٧٠) ساويرس : سير الاء البطارقة م ١ ، ج ١ ، ص ١١٢ . وذكر من الأمثلة على ذلك القس أغاثو الذي كان يقيم بالاسكندرية ، ويرتدى ملابس العلمانيين ليلا ، ويطوف بالارثوذكسيين الذين اختفوا في منازلهم ، فيقضى لهم حاجاتهم ، ويزيدهم من المعلومات الدينية . على حين كان بالنهر يحمل على كتفه آلات نجارة ويتظاهر بأنه نجار ، حتى لا يتعرض له اتباع المذهب الخلقدونى ، فيتمكن بذلك من دخول المنازل القبط ، ويزيدهم من العلوم الدينية . ويقوى صبرهم . واستمر أغاثو على هذا الوضع حتى الفتح العربى :

(٧١) Egypte depuis la Conquete des Arabes jusqu'à la domination Française, p. 12.

(٧٢) ساويرس : سير الاء البطارقة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٧ . والتاودوسيوس نسبة الى البطرک تيودوسيوس أو تاودوسيوس الذي كان يعتقد أن جسم المسيح كجسم البشر ، وخالف بذلك أحد شمامسة القبط ويدعى جايان أو غايان الذي كان يعتقد أن جسد المسيح لا يفنى ولا يفسد . وتنازع الاثنان على كرسى البطرکية - فى القرن السادس الميلادى - ورفضت الغالبية العظمى من القبط رأى جايان وغلب عليهم ما ذهب اليه تاودوسيوس . وكان توقيع البطرک « خيل » السادس والأربعين هو « خيل بمشيئة الله مطران الاسكندرية وطائفة التيودوسييين » وذلك فى القرن الثامن الميلادى . وأيضا توقيعات الكتب القبطية كانت على هذه الصورة فى القرن السابع الميلادى . ولذلك أشار ساويرس الى أن قبط مصر هم التاودوسييون . انظر ، تروتون : أهل الذمة فى الاسلام ، حاشية ص ٨٣ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، حاشية ص ٢٧ .

(٧٣) ويسمون أيضا « الغايانيون » Gaianites نسبة الى شماس قبطى يسمى غايانوس Gaianus نازع البطرک وتاودوسيوس الأول كرسى الاسكندرية فى سنة ٥٣٥ م . ونفاه القيصر بستانيانس الأول الى جزيرة سردينيا . وانتشر حزبه فى الأراضى المصرية . وفى سنة ٥٤٩ م ، انضمت شيعته الى شيعة يولييان الخيالى ، واقاموا لهم رئيسا واحدا باسم بطرق قيما زعموا ، فجرفوا بالغايانيين والخياليين . وقد تمكن الأب يونس البطرک فى سنة ٧١٣ م ، من هداية أكثرهم الى الكنيسة القبطية انظر : تروتون : أهل الذمة فى الاسلام ، حاشية ، ص ٨٣ .

(٧٤) Chronique de Jean, p. 446. وبتلر ، « تاريخ العرب لمصر » .

ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٧٥) Chronique de Jean, p. 446. ويقول هذا المؤرخ : « ان كيرس

ظل الى ما بعد موت الامبراطور هرقل - عندما عاد الى مصر - ولم يذهب عنه
حقده من عباد الله ولم يمتنع عن اضطهادهم ، بل زاد قسوة على قسوة ، وبما
لا شك فيه انه يقصد بعبارة « عباد الله » القبط .

(٧٦) دانييل دينيت : الجزية والاسلام : ص ١١٥ .

ويذكر البعض أسماء مختلفة للأقسام الادارية في مصر في ذلك العصر
وهي : الاسكندرية ويقع فيها الحاكم البيزنطى ، وغربى الدلتا ، ومصر العليا ،
وشرق الدلتا ، ومصر الوسطى ، انظر سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ،
ص ١٢٠ - على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ، ص ٨ .

(٧٧) سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ، ص ١٢ - على حسنى الخربوطلى

مصر العربية الاسلامية ، ص ٨ - ٩ .

(٧٨) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ، ص ١١٥ . والضياح الاتوهرجية هي

الابعديات التى تتمتع بحق دفع الضرائب مباشرة للحاكم العام دون تدخل
لمشرفين على الادارة المحلية فى المدينة .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٨١) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 118.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن دوقية مصر العليا The baid كانت
وراثية فى أسرة أبليون Apion كما كان أبليون الأول حاكما عاما للبلاد فى
سنة ٥١٨ م وكان ابنه حاكما لمصر سنة ٥٢٣ م . ثم وزيرا للمالية من ٥٢٣ الى
٥٢٨ م . كما شغل أفراد آخرون منهم عددا عظيما من الوظائف المهمة فى مصر
والقسطنطينية ، انظر المصادر نفسها والصفحات .

(٨٢) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 118.

(٨٣) Munier : L'Egypte Byzantine, pp. 92-93.

- (٨٤) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 119.
- (٨٥) حسن، ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ١ ، ص ٢٩٩ - على
حسنى الخربوطلى . مصر العربية الاسلامية ، ص ٩ .
- (٨٦) الجزية والاسلام ، ص ١١٧ .
- (٨٧) المصدر السابق ، ص ١١٧ - ١١٨ .
- (٨٨) نفس المصدر السابق ، ص ١١٨ .
- (٨٩) المصدر السابق ، ص ١١٩ .
- (٩٠) Munier : L'Egypte Byzantine, p. 93.
- (٩١) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٢ .
- (٩٢) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ، ص ١١٩ .
- (٩٣) Munier : L'Egypte Byzantine, p. 87.
- (٩٤) Ibid., p. 89.
- (٩٥) Ibid., p. 87.
- (٩٦) Munier : L'Egypte Byzantine, pp. 87-89.
- (٩٧) Ibid., p. 89. انظر :
- (٩٨) Ibid., p. 92. انظر :
- (٩٩) Ibid., pp. 92-93. انظر

[illegible][illegible]

1

4 4 4

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
84

الباب الأول

دور أهل الذمة في الحياة السياسية في مصر
من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي

- ١ - موقف القبط واليهود من الفتح العربي •
- ٢ - دور أهل الذمة في الحياة السياسية في عصر الولاة •
- ٣ - أهل الذمة في عصر التولتين الطولونية والاختشيدية •
- ٤ - موقف الدولة الفاطمية من أهل الذمة •

11.

١ - موقف القبط واليهود من الفتح العربى

لمسنا من دراستنا لأحوال القبط واليهود السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية قبيل الفتح العربى ، أن الظروف كانت مهيأة لقدم العرب الفاتحين . وفى الحقيقة كان الفتح العربى لمصر هو حلقة من حلقات سلسلة الفتوحات العربية الاسلامية ، من أجل تحقيق عالمية الدين الاسلامى . ويرتبط موقف الأهالى فى مصر من الفتح العربى ، بموقف الدولة الرومانية من الدعوة الإسلامية ومن الدولة العربية الاسلامية التى قامت فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد الهجرة ، فى المدينة ، وما لبثت أن اتسعت فى أواخر عهد الرسول فشملت كل أرجاء الجزيرة العربية .

بعد البعثة النبوية ، دعا محمد صلى الله عليه وسلم ، الى الاسلام فى شبه الجزيرة العربية سرا ، ثم جهرا ، وانتقلت الدعوة من مكة الى المدينة بعد الهجرة اليها . وبعد عقد الرسول لصلح الحديبية ، وتوقيع هدنة مع قريش ، رأى الرسول أن يبدأ الخطوة الأولى نحو تحقيق عالمية الدعوة الاسلامية فيدعو ملوك وأمراء الدول المعاصرة . فبعث الرسول اليهم كتباً يدعوهم فيها الى الاسلام ، ومن هؤلاء الملوك والأمراء ، هرقل امبراطور الدولة الرومانية ، والقوقس حاكم مصر والاسكندرية (١) .

بعث الرسول الى الامبراطور هرقل ، دحيه بن خليفة الكلبي
فى سنة ٦ هـ . وقد أوصاه ، بأن يعطى الكتاب لعظيم بصرى .
ليسلمه الى هرقل الذى كان حينئذ بمدينة حمص بالشام (٢) .
وجاء فى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام الى هرقل :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، الى هرقل عظيم
الروم ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، أسلم تسلم ، وأسلم
يؤتلك الله أجرك مرتين ، وان تتول ، فان اثم الأكارين عليك » (٣) .

وتعددت روايات المؤرخين عن موقف هرقل من كتاب الرسول
صلى الله عليه وسلم ، فيقول ابن سعد (٤) : أن هرقل لما قرأ
الكتاب ، جمع كبار الرومان فى دسكرة (٥) له بحمص ، ودعاهم
الى الايمان بالنبي العربى ، واعتناق الاسلام . الا انهم اعترضوا
وغضبوا ، فلما رأى هرقل ذلك « يشس من اسلامهم ، وخاف منهم
على نفسه وملكه » فسكن من روعهم قائلاً : انه أراد أن يختبر
ايمانهم بالمسيح ، وأنه سر منهم لتمسكهم بعقيدتهم ، ورفضهم
الدين الاسلامى الجديد .

وتحدث أحد الأساقفة النصارى - فى عهد الخليفة عبد الملك
ابن مروان - الى بعض العلماء ، عما كان من موقف هرقل من كتاب
رسول الله . فقال انه بعد أن تسلم هرقل الكتاب ، كتب الى بعض
أصحابه ممن يقرأ العبرانية بشأن النبي المنتظر ونصحه بأن يتبعه
ويصدق دعوته (٦) .

فلما علم هرقل بذلك ، جمع عظماء الرومان فى دسكرة ،
وأخبرهم بكتاب النبي الذى يدعو فيه الى الاسلام ، وذكر لهم أن
هذا النبي هو الذى نجد الاشارة اليه فى كتبهم ، فمن الخير أن
يصدقوا بما جاء به ، حتى يأمنوا جانب قومه العرب (٧) .

غضب الرومان من حديث الامبراطور هرقل ، وأسرعوا بالخروج من الدسكرة ولكنها كانت مغلقة عليهم ، فأعادهم هرقل ، وقال لهم : « يا معشر الروم ، انى قد قلت لكم المقالة التى قلت ، لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى قد حدث ، وقد رأيت منكم الذى أسر به » (٨) .

وتشير رواية ثالثة الى ترحيب هرقل برسول النبى صلى الله عليه وسلم ، وتذكر أن هرقل رحب بدحية ، وأخبره أنه يعلم تماماً أن النبى العربى ، هو النبى المنتظر ، وهو الذى يجد اسمه فى كتبهم . ثم قال هرقل : « ولكنى أخاف الروم على نفسى ، ولولا ذلك لاتبعتك » وطلب من دحية أن يذهب الى الأسقف « ضغاطر » ويخبره بأمر النبى (٩) . وذهب دحية الى هذا الأسقف وأعلمه بما دار بينه وبين هرقل حول النبى صلى الله عليه وسلم . وأبدى الأسقف « ضغاطر » سروره ، وخلع ثيابه السوداء ، وارتدى رداء أبيض اللون وأمسك عصاه بيده ، وخرج الى الكنيسة ، وقال لمن كان بها من الرومان : « يا معشر الروم ، انه قد جاء كتاب من أحمد يدعونا فيه الى الله عز وجل ، وانى أشهد أن لا اله الا الله ، وأن أحمد عبده ورسوله » ورفض الرومان هذه الدعوة وقتلوا الأسقف (١٠) .

نستخلص من الروايات التاريخية السابقة أن هرقل كان يميل الى اعتناق الاسلام وأنه دعا الرومان الى اعتناقه ، ولكنهم رفضوا الدعوة . فنزل هرقل عند رغبتهم ، خوفا منهم على نفسه وعلى ملكه ، وزعم أنه كان يريد اختبار مدى تمسكهم بعقيدتهم ، خوفا منهم وأنه اطمأن لما لمسه فيهم من الصلابة والتمسك بدينهم .

كان العرب المسلمون قد أصبحوا وحدة سياسية واجتماعية قوية فضلا عن كونهم وحدة دينية . وكان هرقل يدرك أن الدولة

العربية الاسلامية التي قامت في المدينة آخذة في القوة والانتعاش ،
مما يهدد المصالح الرومانية ، كما رأى هرقل تجنب الصدام
العسكري مع هذه الدولة الاسلامية الجديدة ، في وقت انهدك
الجيش الروماني قواه في حروبه مع الدولة الفارسية .

ويروي الطبري (١١) أن هرقل جمع بعد ذلك كبار
الشخصيات الرومانية وعرض عليهم الايمان بالنبى الجديد ، ولكنهم
رفضوا دعوته في شدة وقالوا مستنكرين حديثه : « نحن نكون تحت
العرب ، ونحن أعظم الناس ملكا ، وأكثرهم رجالا ، وأفضلهم بلدا » .
ويروي الطبري أيضا أن هرقل عرض على هؤلاء الرومان - بعد
رفضهم اعتناق الاسلام - أن يدفع سنويا الجزية للعرب وبنبيهم ،
حتى يأمن جانبهم . فرفض الرومان دفع الجزية أيضا وقالوا : انهم
أكثر عددا من العرب ، وأعظم ملكا منهم ، وأوسع أرضا . فعرض
عليهم هرقل أن يتنازل للعرب عن سوريا ، فرفض الرومان ذلك
أيضا .

ورواية الطبري هذه تبين أن الامبراطور هرقل لم يكن راغبا
في الاسلام عن ايمان وعقيدة وانما كان يهدف من وراء ذلك الى
غرض سياسى وهو المحافظة على عرشه . لذلك عرض على قومه
الرومان كسب جانب العرب وبنبيهم بأية وسيلة ممكنة ، ولكن
الرومان رفضوا الرضوخ لرغبته ، فأثر هرقل الاحتفاظ بدينه
المسيحى . ويتضح موقف هرقل في غضبه على المقوقس - حاكم
مصر - حينما عقد معاهدة الصلح مع عمرو بن العاص - كما سنرى
في هذا الفصل وعليه نرى أنه من العسير علينا أن نؤيد جميع
ما جاء في الرواية العربية ، ولاسيما أن هرقل في ذلك العصر ،
كانت تحيط به الأخطار الخارجية ، وخاصة الخطر الفارسى .

واذا كان هذا هو موقف الامبراطور هرقل وقومه الرومان من النبي صلى الله عليه وسلم ومن الدعوة الاسلامية ، فماذا كان موقف المقوقس حاكم مصر ؟ وكيف استقبل رسول البى (ﷺ) ؟

بعث النبي عليه الصلاة والسلام ، حاطب بن أبى بلتعة اللخمي ، الى المقوقس حاكم مصر وكان يقيم فى الاسكندرية . فسلمه حاطب كتاب النبي ، وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . فأما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » (١٢) .

وحفظت الروايات التاريخية العربية ما دار من حديث بين المقوقس وحاطب بن أبى بلتعة . وهى تشير الى أن المقوقس لما قرأ كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، سأل حاطب : ما منعه أن يدعو على اذا كان نبيا ؟ فأجاب حاطب قائلا : « انه كان من قبل رجل زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك . . وان لك ديننا لن تدعه الا لما هو خير منه وهو الاسلام ، والكافى بالله به ، فقد ما سواه . وما بشاراة موسى بعبسى الا كبشاراة عيسى بسمحمد ، وما دعاؤنا الى القرآن الا كدعاء أهل التوراة الى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به » (١٣) .

ويجمع المؤرخون على حسن استقبال المقوقس حاكم مصر والاسكندرية لحاطب بن أبى بلتعة ، رسول النبي عليه الصلاة والسلام ، واکرامه له . ويشير ابن عبد الحكم (١٤) الى ما دار

بينهما من حديث بشأن النبي وصفاته . ونسبنتج من هذا الحديث
مدى الملام المقوقس بصفات النبي ، وأنه كان يعلم مسبقا بظهور نبي
جديد ، ولكنه كان ينتظر ظهور دعوته في بلاد الشام لا في شبه
الجزيرة العربية .

وأعلن المقوقس لحاطب ، ترحيبه باعتناق الإسلام ، إلا أنه
كان يخشى معارضة القبط لهذه الدعوة ، ثم طلب منه أن لا يخبر
أحدا من أهل مصر بما دار بينهما من حديث وألا يشير إلى رغبة
المقوقس في الاسلام (١٥) .

وهكذا تذكر الروايات العربية أن كلا من الامبراطور جوقل
والمقوقس ، قد رغبا في اعتناق الاسلام ، ليس عن ايمان حقيقي ،
وأنما كن الدافع لهما هو مصالحهما السياسية فكلاهما بخاف على
عرشه أو حكمه . وانتهى الأمر بأن رضخ كلاهما لمعارضة قومه
لهذه الدعوة الجديدة . ويبدو هذا واضحا في قول النبي عليه
الصلاة والسلام ، عندما تسام كتاب المقوقس ، نقد قال : « زين
الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه » (١٦) .

بعث المقوقس كتابا الى النبي ، ردا على كتابه إليه ، جاء فيه :
« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام ، أما بعد ،
فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، وما تدعو اليه وقد علمت
أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت
رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ،
وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام » (١٧) .

وكان من أثر تحسين استقبال المقوقس لحاطب بن أبى بلتعجة ،
والهدايا التي بعث بها الى رسول الله ، والتي كان من بينها مارية

القبطية التي انجبت للرسول ابنه ابراهيم ، أن أنى النبی علی أهل مصر من القبط ، وأوصى بهم خيرا (١٨) . ونذكر فی هذا المجال أيضا أن هاجر أم اسماعيل ، وزوج ابراهيم عليه السلام ، كانت مصرية (١٩) .

بشر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين بعقبة مصر ، وأوصاهم بقبط مصر خيرا ، وهناك أحاديث ، كثيرة ، ذكرها نواب الحديث والمؤرخون ، ومنها أن النبی قال : « انکم ستفتحون أرضا ، يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم دم ورحما » (٢٠) وقال أيضا : « انکم ستکونون أجنادا ، وان سير أجنادکم ، أهل المغرب منکم ، فاتقوا الله فی القبط ، لا تاكلوهم أكل الخضر » (٢١) وقال الرسول عليه الصلاة والسلام أيضا : « الله ، الله ، فی أهل الذمة أهل المدرة السوداء ، النسخ الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا » (٢٢) .

بعد أن أشرنا الى موقف كل من هرقل والمقوقس من الدعوة الإسلامية ، نعرض لأهم أحداث الفتح العربی لمصر ، وموقف القبط واليهود من الفتح .

بعث الخليفة عمر بن الخطاب ، عمرو بن العاص علی رأس الجيش العربی الاسلامی لفتح مصر ، بعد أن انتهى من فتوح الشام فی سنة ١٨ هـ (٢٣) . وتعددت الروایات التاريخية حول خروج الجيش الاسلامی بقيادة عمرو بن العاص الى مصر ، فمنها ما يشير الى أن عمرو بن العاص استأذن الخليفة عمر بن الخطاب فی فتح مصر وأغراه بسهولة الفتح وكثرة خيرات مصر . وتذكر بعض الروایات أن الخليفة هو الذى أمر عمرو بن العاص بالسير علی رأس الجند لفتح مصر . وتذهب روايات أخرى الى أن عمرو بن العاص خرج لفتح مصر علی رأس الجيش دون استئذان الخليفة (٢٤) .

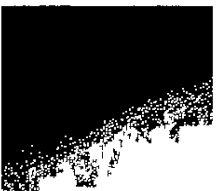
بلغ المقوقس حاكم مصر ، خبر قدوم عمرو بن العاص على رأس الجيش الاسلامى لفتح مصر ، فأسرع بالتوجه الى بابليون ، وأخذ يعد العدة ، ويجهز الجيوش لمواجهة عمرو بن العاص وجنده . وكان حاكم حصن بابليون (٢٥) من الرومان ويسمى الأعيرج (٢٦) . وأراد المقوقس ألا تبلغ المصريين أخبار انتصارات العرب فى الشام وتخاذل الرومان أمام الفاتحين فبعث رسلا الى الحدود المصرية لمنع دخول القادمين من بلاد الشام سواء من الرومان أو من غيرهم ، حتى لا ينقلوا أخبار انتصارات العرب وتخاذل الرومان الى سكان مصر فيثيروا مخاوفهم (٢٧) .

يشير المؤرخون الى أن أولى المناطق التى دار فيها القتال بين العرب الفاتحين وبين المصريين ، كانت مدينة الفرما (٢٨) . وقد استمر القتال بين الفريقين شهرا تقريبا ، وانتهى بانتصار المسلمين ، وهزيمة الجيش الرومانى . وتم بذلك للمسلمين الاستيلاء على المدينة (٢٩) .

وتشير بعض الروايات التاريخية الى مساعدة قبط الفرما لعمرو بن العاص . وتذكر أنه كان بالاسكندرية أسقف للقبط يسمى أبو ميامين ، ولما بلغته أخبار قدوم عمرو بن العاص على رأس الجند المسلمين الى مصر ، كتب الى القبط يبتشرهم بقرب زوال دولة الرومان ، وانتهاء حكمهم فى مصر . وطلب من القبط مساعدة العرب وقائدهم عمرو بن العاص (٣٠) . الواقع أن أبو ميامين هذا ، هو الأب بنيامين بطرك القبط اليعاقبة فى مصر ، الذى بادر بالخروج من الاسكندرية عند قدوم المقوقس اليها حاكما لمصر وبطركا للملكانيين فيها ، وقد لجأ هذا البطرك - كما ذكرنا فى التمهيد - الى بعض أديرة الصعيد .

ونستخلص من كتابات المؤرخين عن أول مواقع الفتح العربى ، أن المقوقس لم يبادر بارسال نجدة لأهل القرما ، عندما علم بحصار العرب لها ، بل تركهم يلاقون مصيرهم . ويصور بعض الكتاب المحدثين موقف المقوقس بأنه أول خيانة ارتكبها فى حق دولته ، ويذهب الى أنه كان يرمى الى فصل الاسكندرية عن القسطنطينية بالاتفاق مع العرب المسلمين ، ومساعدتهم ضد دولة الرومان (٣١) وسنرى أنه أيضا لم يسرع بارسال نجدة الى ابنته أرمانيوس فى بلبيس ، لتشهد من أزرها أمام العرب ، بل تخاذل عنها حتى تم للعرب فتح بلبيس .

تقدم عمرو بن العاص وجنده فى الأراضى المصرية ، دون أية مقاومة حتى وصل الى بلبيس (٣٢) ، حيث دار القتال لمدة شهر تقريبا ، ونجح المسلمون فى الاستيلاء عليها (٣٣) . وينفرد الواقدي (٣٤) بالإشارة الى تقدم يوقنا صاحب حلب على رأس بعض الجند ، جيش عمرو بن العاص ، حتى وصل بلبيس ، حيث أرمانيوس ابنة المقوقس ، التى ما لبنت أن أدركت حقيقة أمره ، وأعدت العدة لقتاله . وفى الوقت نفسه بعثت بكتاب الى أبيها المقوقس تعلمه بما حدث ، وتخبره بتقدم جند العرب فى الأراضى المصرية ، وسألته الاستعداد للمقاتلة . وارسال قوة لنصرتها عليهم . فجمع المقوقس كبار رجال دولته ، وسألهم المشورة ، فاقترحوا عليه ارسال جيش الى أرمانيوس لمساعدتها ضد العرب ، الى جانب الاستنجد بجيرانه لنصرته عليهم ، وجمع الجيوش من جميع البلاد المصرية ، استعدادا لمواجهة هؤلاء القوم المسلمين . ولكن المقوقس أبى ذلك ، وأعلم الحاضرين بأنه مهما استعد ، فلن يقوى على هؤلاء العرب ، وأنه من الحكمة أن يرسل الى ابنته كتابا يطلب فيه منها التلطف فى معاملة يوقنا ومن معه من الجند العرب ، ومنحهم الأمان ، وارسالهم اليه لتطبيب خاطرهم (٣٥) .



فلما علمت بذلك أرمأنوسة أرسلت الى يوقنا تخبره بما كتب أبوها اليها . وفى الوقت نفسه وصله رسول من قبل عمرو بن العاص ليخبره باقتراب عمرو منه ، فبعث اليه يعلمه بما حدث ويستتبعه في الوصول اليه فى بلبيس . عند ذلك أسرع عمرو بالهراق بيوقنا ودار القتال بين الجيش الاسلامى وجيش أرمأنوسة ، وانتهى الأمر بهزيمة أرمأنوسة وأسر المسلمين لها . وأحسن عمرو ابن العاص اليها ، ثم أرسلها مكرمة الى أبيها المقوقس فى صحبة قيس بن سعد ، الذى قال للمقوقس فى حديث طويل له معه : « أيها الملك لا بد لنا منكم ، ولا ينجيكم منا الا الاسلام أو الجزية أو القتال » فوعده المقوقس بعرض هذه الأمور على قومه ، مع الإشارة أنه واثق من عدم استجابتهم لأى أمر من هذه الأمور الثلاثة ، لانهم قوم عناد ، ولأن « قلوبهم قاسية من أكل الحرام » (٣٦) .

ثم مضى عمرو بن العاص على رأس جنده ، دون مقاومة تذكر حتى وصل الى قرية أم دنين (٣٧) ، حيث اشتد القتال ، وواجه عمرو مقاومة عنيفة ، مما اضطره الى طلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى أسرع بنجده (٣٨) . وتدل هذه المقاومة على أن الرومان - خاصة - أدركوا خطورة الموقف ، وأعدوا العدة ، لمواجهة المسلمين مهما كلفهم ذلك من جهد .

ومما يدل على حرج الموقف فى أم دنين ، أن عمرو بن العاص قسم جنده الى مجموعتين : ترك احدهما فى حصار أم دنين ، وقاد الأخرى بنفسه الى مدينة أون (٣٩) وكتب يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب الذى بادر بارسال أربعة آلاف بقيادة الزبير بن العوام (٤٠) . فقسم عمرو حينئذ جنده الى ثلاث فرق ، حاصرت احداها أم دنين واتجهت الأخرى الى شمال حصن بابليون ، واحتفظ عمرو بالفرقة الثالثة فى مدينة أون (٤١) .

وفى الحقيقة كان عمرو ، سياسيا قديرا ، ومحاربا محنكا ،
يُمكن قسّم جنده الى ثلاث فرق ، حتى يوهّم عدوه بكثرة جنده ، حتى
انه جعلها تحارب فى ميادين ثلاثة وحمى الوطيس فى أم دنين ،
وهزم عمرو الرومان ومن معهم من القبط شر هزيمة . وتمكن بعض
الرومان وقوادهم من الفرار الى حصن بابلليون ، فى حين هلك كثير
منهم . وعليه نجح عمرو بن العاص فى الاستيلاء على أم دنين .
أما الرومان وقوادهم الذين لجئوا الى حصن بابلليون ، فما لبثوا أن
تركوه ، لاجئين الى مدينة نقيوس ، فرارا من مذبحه قد تحل
بهم (٤٢) .

وتذكر بعض الروايات التاريخية القبطية ، أن فتح الفيوم ،
كان بعد حصار أم دنين وقبل فتح حصن بابلليون ، كما تشير الى
أن عمرو بن العاص قد قام بمحاولة لفتح اقليم الفيوم قبل اتمام
فتح أم دنين ، ولكنه لم يحالفه التوفيق ، حتى وصله المدد من
الخليفة ، فتمكن من الاستيلاء على أم دنين ، ثم وجه جهوده لاتمام
الاستيلاء على اقليم الفيوم . ونولى الدفاع عن الفيوم ، قائد الحامية
ويدهى (يوحنا) ، كما أقام الرومان أيضا حامية فى مدينة
اللاهون (٤٣) ، لتتابع تحركات القوات العربية ، وتنقل أخبارها
الى يوحنا وجنده المقيمين بالقرب من شاطئ النيل . وأرسل
الرومان سرية من الرماة والفرسان لتحول بين المسلمين الفاتحين
وبين تقدمهم نحو الفيوم (٤٤) . وهكذا بذلت القوات الرومانية كل
الجهود العسكرية لمواجهة الفتح العربى . واضطر المسلمون أمام
هذه الاستحكامات الرومانية الى الزحف فى الصحراء ، وواصلوا
تقدمهم حتى وصلوا الى البهنسا ، وقضوا على حاميتها الرومانية .
ثم اتجهوا لقتال حامية يوحنا التى لجأت الى مدينة أبويط (٤٥) .
ولكن القوات العربية حاصرتها وقضت عليها (٤٦) . وعلم
تيودوسيوس - حاكم اقليم الفيوم - وانستاس - حاكم مدينة

الاسكندرية - بانتصارات العرب ، فسارعوا بالفرار الى حصن
بابلليون ، حيث لحق بهما بعض القواد من أبويط ، وأخبراهم وعن
معه من القوات المحتشدة بخطورة الموقف (٤٧) .

وبعد نجاح عمرو بن العاص ، وجنده المسلمين في الاستيلاء
على أم دنين والحق الهزيمة بالرومان ، أعد البعثة لاتهم فتح اقليم
الفيوم ، وكان حاكم مدينة الفيوم - ويسمى دومنتيانوس - قد
أصابه الذعر ، عندما علم بانتصارات العرب الساحقة على الرومان
فأسرع بالفرار الى مدينة نقيوس دون أن يعلم بقراره أحد ، تاركاً
مدينة الفيوم وشأنها فعلم بذلك عمرو بن العاص ، واشتد ساعده ،
وأرسل فرقة من جنده فجحت في الاستيلاء على مدينة الفيوم ومدينة
أبويط . وهكذا تم للمسلمين فتح اقليم الفيوم وباءت جهود الرومان
بالفشل (٤٨) .

هذه هي الروايات القبطية التي تتحدث عن فتح العرب
لاقليم الفيوم . ولكن المؤرخين المسلمين يجمعون على أن فتح الفيوم
كان بعد فتح حصن بابلليون ، وليس قبله كما يذهب المؤرخ القبطي
حنا النقيوسي . كما أن الروايات الاسلامية تذكر أن الذي قام
بفتح اقليم الفيوم أحد قواد عمرو . وتشير بعض هذه المصادر
العربية الى أن العرب الفاتحين ظلوا يجهلون مكان اقليم الفيوم ،
بعد فتح الحصن بعام كامل ، حتى دلهم اليه بعض الأشخاص ،
فأرسل عمرو بن العاص ، أحد قواده لفتح الفيوم (٤٩) .

ويبدو أن أهل مصر ، من القبط بصفة خاصة ، بدءوا يقدمون
المساعدات الفعالة للعرب ، ويتعاونون معهم ، بعد استيلائهم على
اقليم الفيوم . فقد طلبه عمرو ، من أبا كيرى (٥٠) حاكم دلاص (٥١) ،
أن يبعث الى القوات العربية في الفيوم بعض السفن لينتقلوا بها من

الجانب الغربى للنيل الى الجانب الشرقى ، للسيطرة على ضفتى النيل (٥٢) . كما طلب عمرو أيضا من جورج حاكم - اقليم مصر - أن يبني « كوبرى » على قناة مدينة قليوب حتى يتمكن من فتح المدن المصرية . ونجح عمرو فى فتح مدينة أتريب ومنوف بمساعدة القبط له (٥٣) .

وعاون القبط أيضا العرب فى اقامة كوبرى ضخمة عند بابلليون، لمنع السفن من الذهاب الى نقيوس والاسكندرية ومصر العليا من جهة ، ولتيسير عبور الفرسان العرب النيل من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من جهة أخرى . وأصبح القبط فى الحقيقة ، أعوانا للمسلمين ، يقدمون لهم العون والمساعدة (٥٤) .

ويحاول المؤرخ القبطى حنا النقيوسى (٥٥) ، الاساءة الى عمرو ، فيذكر أنه أمر باحضار الحكام الرومان ، مقيدى بالأغلال ، فى أقفاص من الخشب . كما أخذ من الأهالى كثيرا من الأموال ، وضاعف الجزية عليهم ، وأرغمهم على حمل الكلا والعليق لخيول المسلمين . ولكننا نرى أنها مبالغات واضحة بغرض النيل من العرب - فقد اشتهر عمرو بالتسامح مع المصريين ، وخاصة أنه كان فى حاجة الى استمالتهم حتى لا يقفوا الى جانب الرومان . وقد رأينا كيف قدم المصريون ألوانا مختلفة من المساعدة للعرب على حين كان من البديهي أن يقف عمرو من الحكام الرومان موقفا حاسما ، فقد أصروا على مقاومة الفتح العربى .

كان الحكام الرومان ، قد تركوا مدينة نقيوس الى حصن بابلليون ، حتى اذا علموا بانتصارات المسلمين فى اقليم مصر ، ومساعدة بعض المصريين لهم ، بادروا بالخروج الى الاسكندرية ، وتركوا فى نقيوس حامية صغيرة بقيادة دومنتيانوس ، للدفاع عن المدينة كما بعثوا الى حاكم سمنود (٥٦) (دارس) يحثونه على

الدفاع عن الأراضي الواقعة بين فرعى النيل (٥٧) . فى حين ترك بعض القبط دينهم ، واعتنقوا الاسلام ، واستولوا على املاك المسيحيين الذين هربوا من وجهه المسلمين ، مؤثرين التمسك بدينهم (٥٨ ، ٥٩) .

وبعد أن انتهى القواد المسلمون من فتح اقليم الفيوم ، شدد عمرو بن العاص الحصار على حصن بابلليون . وقد تعددت الروايات التاريخية ، حول حصار الحصن وموقف القبط والرومان منه . ويجدر بنا الاشارة الى هذه الروايات ومناقشتها ، حتى يتضح لنا موقف أهل مصر من الفاتحين العرب .

شدد عمرو ، وجنده الحصار على الحصن ، حتى طلب الرومان والقبط المعتصمون بالحصن ، التفاوض من أجل الصلح ، ومنح الأمان للمصريين . فأجابهم عمرو الى طلبهم على أن يؤدي كل واحد منهم للمسلمين « ديناراً وجبة وبرنسا وعمامة وخفين » (٦٠) .

استضاف الرومان والقبط - عقب هذا الصلح - جند عمرو ابن العاص ، فقدموا عليهم وقد ارتدوا البرود (٦١) . ثم استضاف عمرو الرومان ومن معهم من القبط ، وصنع لهم الشريد (٦٢) والعراق (٦٣) ، وأمر أصحابه بلبس الأكسية (٦٤) ، واشتمال الصماء (٦٥) ، والقعود على الركب وجلس العرب الى جانب الرومان (٦٦) ، مما يدل دلالة واضحة على تسامح العرب ، وميلهم الى السلام الذى هو من أسس الاسلام .

وتشيد بعض المصادر التاريخية بجهود الرومان التى بذلوها للدفاع عن الحصن ومقاومة الفتح العربى . فقد أقاموا حول الحصن الخنادق ، والتحصينات المنيعة (٦٧) . ولكن المسلمين استمروا

فى الحصار رغم قلة عددهم • ووضع عمرو خطة جريية ناجحة ،
فقد وزع جنده المسلمين حول أسوار الحصن ، حتى يتوهم العدو
أنهم أكثر عددا • إلا أن الرومان أدركوا حقيقة الأمر ، وعلموا قلة
عدد جند عمرو بالنسبة لعددهم • ولكن هذا لم يضعف من عزية
عمرو وجنده المسلمين (٦٨) •

واستمر حصار عمرو لحصن بابلين سبعة أشهر (٦٩) •
انتهت بتسلى جماعة من المسلمين بقيادة الزير بن العوام أسوار
الحصن ، ونجحوا فى اقتحامه ، وفتحوا الأبواب لساير الجند
المسلمين وحينئذ اضطر المقوقس الى طلب الصلح من عمرو مقابل
دفع الجزية للمسلمين • فوافق عمرو على طلبه (٧٠) •

هذا فى حين تذهب بعض الروايات التاريخية الأخرى الى أنه
بعد حصار عمرو لحصن بابلين بشهر تقريبا ، أسرع المقوقس وعدد
من كبار الرومان والقبط بالخروج من الحصن الى جزيرة الروضة •
وأمر بقطع الجسر الذى يصل بين شاطئ النيل ، وقد لحق به
الأعيرج حاكم الحصن عندما لمس شدة الموقف (٧١) •

وهذه الروايات تثبت وجود المقوقس داخل الحصن عند
حصار المسلمين له وتوضح تخاذله اذ غادر الحصن سرا فى أثناء
الحصار الى جزيرة الروضة حيث يأمن قتال المسلمين • كما توضح
أن بعض القبط اشتركوا مع الرومان فى الدفاع عن الحصن ، اذ ان
هذه الرواية تشير الى خروج كبار القبط من الحصن مع المقوقس •

وتذكر بعض المصادر أيضا ، أن المقوقس قال لمن معه من
الرومان والقبط : « ان العرب قد جاءهم نجدة ، وليس لنا بهم طاقة ،
ولا نأمن منهم أن يفتحوا القصر فيقتلونا ولكن نسد أبواب الحصن ،

ونصير عليها مقاتلة ، ونخرج من القصر الى الجزيرة وفتحنا
بالبحر » (٧٢) . ومما لا شك فيه أن هذه الرواية تؤكد خبر
المقوقس للسالة الرومانية ورغبته الأكيدة في مصالحة ال
والتوقف عن قتالهم .

وبدأ المقوقس - من جزيرة الروضة - المفاوضات مع
من أجل الصلح وعقد العهد والأمان . فأرسل الى عمرو بن
يقول : ان عدد الجند المسلمين قليل ، ينقصه العدة والآلات على
أن عدد الجند الرومان ، ومن معهم من القبط ، عظيم وهم مز
بالسلاح والعدة ، وقال له أيضا : « وانما أنتم أسارى في أيدي
فابعثوا الينا رجالا منكم ، نسمع من كلامهم ، فلعل أن يأتي
فبما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم
القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ، ولا
عليه . ولعلكم أن تندموا ان كان الأمر مخالفا لطلبكم ورجائ
فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن و
من شيء » (٧٣) .

وهكذا أراد المقوقس أن يوقع الرعب في نفوس المس
المحاصرين لهم ، حتى يدفعهم الى قبول المفاوضة من أجل الصل
وان كانت الحقيقة هي أن المقوقس وقومه هم الذين سيطر
الفرع والخوف ، فأرادوا وضع حد لهذا الحصار ومصالحة المس
المحاصرين .

احتجز عمرو بن العاص رسل المقوقس يومين ، وقاله
ليس أمامكم الا اختيار أمر من أمور ثلاثة . الاسلام أو ال
أو القتال (٧٤) . فلما عاد رسل المقوقس ، أشادوا بصفات الع
وما يتميزون به من القوة والتفاني في الجهاد في سبيل الله
جانب التواضع ، والخشونة والعبادة (٧٥) .

• وأدرك المقوقس ما عليه المسلمون من القوة والعزم على الجهاد ،
وأقنع قومه بضرورة الاتفاق معهم على رأى يرضى به الطرفان . فأرسل
يطلب من عمرو مندوبين عنه للتفاوض معهم فأرسل عمرو إليه عشرة
من المسلمين ، من بينهم عبادة بن الصامت وأمره أن يكون هو المتحدث
باسمهم ، وأن يخبر المقوقس بين الاسلام أو الجزية أو القتال (٧٦) •

وأخبر عبادة المقوقس بأن المسلمين لا يبتغون من الدنيا
إلا رضا ربهم ، والجهاد في سبيله والفوز بنعيم الآخرة ،
ولا يطعمون في حياتهم إلا فيما يسد رمقهم ويستتر عورتهم (٧٧) ،
وحاول المقوقس أن يثير مخاوف عبادة بن الصامت وصحبه فأخبرهم
بقدوم جموع غفيرة من الرومان لمحاربتهم ، وأن المسلمين لن يقووا
على مواجهتهم ، وذكرهم بما لا قوه من ضيق شديد طوال حصار
الحصن الذى استمر سبعة أشهر ، وتظاهر بأنه يشفق عليهم
ويرأف بحالهم • ثم عرض عليهم الصلح ، وأن يؤدي أربعة دنانير
لكل مسلم ، ويدفع مائة دينار للأمير ، وألف دينار للخليفة ، مقابل
جلاء العرب من البلاد (٧٨) • وهكذا لم يفتن المقوقس الى الأهداف
الدينية السامية ، التى قدم العرب المسلمون من أجلها ، وهى نشر
دعوة الحق ، وظن أنهم إنما قدموا من أجل عرض الدنيا الزائل ،
ولم يفتن الى أن العرب المسلمين هم قوم الموت أحب اليهم من
الحياة ، وهدفهم الجهاد فى سبيل الله • فقال عبادة للمقوقس ،
إنهم لا يهابون أية قوة مهما كانت ، وإنهم لا يبتغون إلا الغلبة عليهم ،
فتعظم بذلك غنيمة الدنيا لهم • أو الاستشهاد فيحسن لهم جزاء
الآخرة • واستشهد فى ذلك بقوله تعالى : (كم من فئة قليلة ،
غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) • وعرض عليه
أمورا ثلاثة ، ليختار المقوقس وقومه الاسلام أو الجزية
أو القتال (٧٩) •

رفض الرومان والقبط ، ، اعتناق الاسلام أو دفع الجزية ،
وأصروا على القتال ، وحاول المقوقس جاهدا ، اقناعهم بقبول دفع
الجزية للمسلمين . الا أنهم أصروا على موقفهم وأمروا بقطع الجسر
بين الحصن وجزيرة الروضة . واشتد القتال بين الفريقين ، وتحقق
النصر للمسلمين وعند ذلك لم يجد الرومان والقبط بدا من قبول
دفع الجزية وعقد الصلح مع المسلمين (٨٠) .

وكتب المقوقس الى عمرو بن العاص ، بأنه مازال حريصا على
اجابته الى واحد من الأمور الثلاثة التي عرضها عليه ، وأن قومه
اقتنعوا برأيه واستجابوا لرغبته . ومن ثم عادت المفاوضات بين
الطرفين (٨١) . وتم عقد الصلح بين عمرو والمقوقس بالشروط
التالية :

١ - يفرض على جميع من بمصر ، أعلاها وأسفلها ، من القبط
ديناران ، يتساوى في ذلك الرفيع والوضيع ، ومن بلغ الحلم
منهم دون النساء والأطفال والشيوخ .

٢ - ضيافة القبط للمسلمين النازلين عليهم ثلاثة أيام .

٣ - للمقبط أرضهم ، وأموالهم ، لا يتعرض لهم في شيء منها (٨٢) .

واشتراط المقوقس على عمرو ، أن يترك للرومان حرية الموافقة
على هذه الشروط ومن رفضها منهم ، فله الحرية في الخروج من
مصر الى الدولة الرومانية . وأرسل المقوقس شروط هذا الصلح
الى الامبراطور هرقل (٨٣) . وهذه الرواية التاريخية التي ذكرناها
تشير الى أن هذا الصلح كان ينطبق على جميع أهالي مصر . في حين
نجد بعض المؤرخين يذهب الى أنه كان هناك صلحان ، أحدهما يختص
بحصن بابليون ، والثاني يختص بجميع الأراضي المصرية الأخرى .

فيذكر البلاذري (٨٤) أنه بعد أن اقتحم الزبير بن العوام والمسلمون الحصن طلب صاحب الحصن من عمرو بن العاص ، أن يعاملهم كما عامل المسلمون أهل الشام عند فتح بلادهم * فقد فرضوا الجزية على الروم ، والخراج على الأرض مع بقائها في أيدي أصحابها * ويتضح من هذه الرواية أن الذي طلب عقد الصلح مع المسلمين هو صاحب الحصن وليس المقوقس حاكم مصر ، وقد عقد عمرو الصلح مع صاحب الحصن ويتضمن الشروط الآتية :

- ١ - يفرض على كل بالغ ديناران مع إعفاء الفقراء من ذلك * .
- ٢ - يدفع كل واحد من ملاك الأراضي ، الى جانب الدينارين ، ثلاثة أراذب حنطة ، وقسطى زيت ، وقسطى عسل ، وقسطى خل رزقا للمسلمين ، تجمع في دار الرزق وتقسّم بينهم * .
- ٣ - يتم احصاء جميع المسلمين ، ويجب على أهالي مصر أن يقدموا لكل مسلم جبة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل ، وخفين في كل عام ، أو عدل الجبة الصوف ، ثوبا قبطيا * .
- ٤ - اذا نفذ المصريون الشروط السابقة ، لا يسبى العرب النساء والذراى ، ويسمح العرب للمصريين بالاحتفاظ بأموالهم ومتاعهم (٨٥) * . ويروى البلاذري (٨٦) أيضا ، أن عمرو بن العاص طبق شروط هذا الصلح - الذى عقده مع حامية بابليون ، على جميع أهالي مصر ، وهكذا كانت هناك مرحلتان لعقد الصلح * .

وهكذا نجح عمرو والمسلمون في فتح حصن بابليون * ويجدر بنا الإشارة الى نص كتاب الأمان الذى منحه عمرو بن العاص للمصريين ، فهو يرسم الأبعاد التى حددها العرب المسلمون لمعاملة أهالي مصر ، وقد جاء فى هذا الأمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمرو بن العاص
 أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ،
 وصابهم ، وبرهم ، وبحرهم ، لا يندخل عليهم شئ من ذلك ،
 ولا ينتقض ، ولا تساكنتهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ،
 إذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف
 ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم فان أبى أحد منهم أن يجيب ، رفع
 عنهم الجزية بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة . وإن نقص نهرهم
 من غايته إذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من
 الروم والنوبة ، فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى
 منهم ، واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من
 سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم ،
 على ما في هذا الكتاب ، عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير
 المؤمنين ، وذمة المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا
 بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمتعوا من
 تجارة صادرة ولا واردة » ودخل في ذلك أهالي مصر كلهم وقبلوا
 الصلح » (٨٧) .

ونسـتخلص من هذا النص أن الصلح الذي عقده عمرو بن
 العاص مع المقوقس عقب الاستيلاء على الحصن :

١ - كان خاصا بأهالي مصر جميعا في الوجهين البحري والقبلي .
 ويؤكد ذلك ما ذكر في هذا العهد من مبلغ الجزية وهو مبلغ
 كبير ، ولكنه يفيدنا في أن هذا الصلح كان خاصا بجميع
 البلاد المصرية .

٢ - يمنح العرب ، القبط الأمان على أرواحهم وعقائدهم وأموالهم
 وكنائسهم .

٣ - يفرض العرب الجزية على المصريين ، ويزاد قدرها أو ينتقص تبعاً لأحوال الفيضان فى كل عام . وكانت تدفع على ثلاثه أقساط فى السنة . وترتب على هذا الصلح أن أصبح المصريون أهل ذمة .

٤ - يطبق العرب شروط هذا الصلح على الرومان والنوبيين اذا شاءوا ذلك ، واذا رفضوها ، فلهم حرية مغادرة البلاد الى حيث يريدون . ويقصد بالنوبيين هنا النوبيون المقيمون فى الأراضى المصرية وليست بلاد النوبة .

وبعد عقد الصلح - (فى سنة ٢٠ هـ - ٦٤١ م) - أمر عمرو بن العاص الجند الرومان بمغادرة الحصن ، على أن يحملوا معهم بعض أموالهم ، وأعطى لهم مهلة ثلاثة أيام يغادرون بعدها الأراضى المصرية (٨٨) . ورفض عمرو بن العاص تسليم السببايا حتى يستشير الخليفة عمر بن الخطاب . وقد أمر الخليفة برد السببايا (٨٩) .

ومن العسير أن نقبل رأى القائل بأن عقد الصلح اشترط فيه اقرار الامبراطور هرقل له حتى يسرى تنفيذه ، وتعهده المقوقس أن يرسل شروط الصلح الى الامبراطور كما اتفق على أن تظل الأوضاع كما هى ، وأن يبقى الحصن بيد الرومان حتى يقر الامبراطور الصلح (٩٠) . ونستند فى هذا الرأى على الرواية التى تشير الى أن اشتراط اقرار الامبراطور للصلح كان خاصاً بنفاذه على الرومان دون القبط الذين رحبوا به جميعاً (٩١) ، وأن الحصن تسلمه العرب عقب الفتح مباشرة حين تم الصلح - كما ذكر حنا النقيوسى أقدم المؤرخين المصريين ، والذي عاش فى القرن الأول الهجرى (الموافق القرن السابع الميلادى) ، وأن تجلو الجنود الرومان من الحصن فى خلال ثلاثة أيام من يوم الفتح كما ذكرنا آنفاً .

غضب هرقل عندما بلغه عقد الصلح مع العرب الفاتحين ،
وكتب الى المقوقس يوبخه على ذلك ، ويقول له ان الجند العرب
أقلية بالنسبة لعدد القبط . وأنه اذا كان قبط مصر قد رحبوا
بالعرب ، وقبلوا أداء الجزية ، فان عدد الرومان بمصر يزيد على
مائة ألف ومعهم السلاح والعدة . وطلب من المقوقس أن ينهض مع
الرومان لقتال العرب . وكتب هرقل أيضا رسالة مشابهة الى
الرومان بمصر (٩٢) .

أما المقوقس ، فكان مقتنعا بالموقف الذى اتخذه من عمرو بن
العاص والمسلمين متمسكا بعقد الصلح . وحاول اقناع الرومان
بقبوله فقال لهم : « واعلموا معشر الرومان ، والله انى لا اخرج
مما دخلت فيه ، ولا مما صالحت العرب عليه . وانى لأعلم أنكم
سترجعون غدا الى قولى ورأى ، وتتمنون أن لو كنتم أطعموني .
وذلك انى قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك . ولم يره ،
ولم يعرفه ويحكم ، أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا فى دهره على
نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة » (٩٣) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخبر المقوقس ، عمرو بن
العاص ، برفض الامبراطور للصلح وأنه كتب اليه والى جماعة
الرومان بمصر ينقض الصلح ومواصلة القتال . وأكد المقوقس
لعمرو أنه هو والقبط متمسكون بالصلح وبتنفيذ شروطه . ثم طلب
من عمرو الموافقة على أمور ثلاثة : أولها احترام عهوده للقبط
واعتباره واحدا منهم ، وثانيها ألا يقدم عمرو على مصالحه الرومان
حتى يصبحوا أرقاء وفيئا للمسلمين ، وثالثها ، أن يأمر عمرو عند
 وفاة المقوقس بدفن جثمانه فى كنيسة أبى يحنس
بالاسكندرية (٩٤) .

ووافق عمرو على ما طلبه المقوقس ، في مقابل مساعدة القبط له ضد الرومان ، خلال زحفه الى الاسكندرية ، فيضمنون له سلامة الجسور على النيل ، ويقدمون المأوى والضيافة للجند المسلمين ، وقدم القبط كل المساعدات الممكنة للجيش الاسلامي (٩٥) .

وبعد هذه الانتصارات الرائعة التي حازها الجيش العربي ، وبعد نجاحه في فتح بابلين ، لنا أن نتساءل : هل تلقى العرب مساعدة من القبط أو الرومان في أثناء الخصار ؟

ساعد بعض القبط عمرو بن العاص في أثناء حصاره للحصن ، فقد تقدم اليه فريقان - على التوالي - أحدهما بقيادة شخصين يدعى ميناس ، والآخر بقيادة كزماس بن صمويل . وقد قدموا على عمرو ، من الشاطئ الغربي للنيل ، وكان هدفهم الكيد للرومان ، وهم من أهالي اقليم الفيوم ، ويتصرفون بالفساد والاقدام (٩٦) . وكانت المعاونات التي يقدمها القبط للجيش العربي تدعم جهوده ، وتضعف من مقاومة الرومان ، وتخرج موقفهم ، وتقلل من هيبتهم .

واتخذت المساعدات التي قدمها القبط المصريون للجيش العربي صورا عديدة نذكر بعضها . ففي أثناء حصار حصن بابلين ، جمع القائد الروماني تيودور جيشه بين فرعي النيل ، فلما علم عمرو بذلك ، أسرع بالزحف بكتيبة من الجند محاذيا الفرع الشرقي للنيل . وفي الوقت نفسه بعث تيودور قائدين من قواده (٩٧) الى سمند المناهضة العرب ، وطلب من الجند المقيمين بها مساعدتهما ضد العرب ، الا أنهم أبوا قتال العرب (٩٨) . ومما لا شك فيه أن معظم هؤلاء الجند كانوا من القبط الذين كرهوا الحكم الروماني ، ورأوا في العرب مخلصا مما هم فيه .

ويشير أحد المؤرخين القبط الى مساعدة بعض قواد
عمرو بن العاص والمسلمين ، ولكننا نرى أنها لم تكن مساعدا
عن اقتناع ، بل كان الغرض منها المنفعة الشخصية بدل
عادوا ثانية الى عدائهم القديمت للعرب ، وانضموا الى
الرومانية . حيثما أدركوا أن تأييدهم للعرب لم يحقق لهم
الذاتية . ومن هؤلاء القواد الرومان ، نذكر القائد كلادجي i
والقائد سبنديس Sabendis (٩٩) .

ويرى بعض المؤرخين أن استيلاء المسلمين على الحصن
خير انتقام للقبط من الرومان ، الذين لم يراعوا حرمة عيد
فأخرجوا في هذا اليوم القبط الأرثوذكس الذين كانوا في
الحصن - لرفضهم اتباع مذهب الامبراطور الديني -
معاملتهم ، فانها لوا عليهم ضربا بالسياط ، وقطعوا أيديهم
وفي الحقيقة كان هذا الاضطهاد هو حلقة في سلسلة طويلا
القبط المصريون منها طويلا ، عبر الحكم البيزنطي . ولاش
هذه الاضطهادات المتكررة كانت من العوامل التي دفعت
القبط الى كراهية الحكم البيزنطي ، وتقديم المعاونات
العرب .

بعد استيلاء عمرو بن العاص على حصن بابليون ،
فتح مدينة الاسكندرية فقد رفض الامبراطور هرقل الصلح
عقده المقوقس مع عمرو ، وبعث قوات رومانية كبيرة أغلقت
الاسكندرية ، وتآهبوا للمقتال (١٠١) . وخلال زحف
العاص الى الاسكندرية ،لقى كثيرا من المساعدات والمعاونا
قدمها القبط المصريون ، فقد أصلحوا الطرق ، وأقاموا
والأسواق . ولم يلق عمرو أية مقاومة على طول الطريق
بابليون الى الاسكندرية حتى بلغ ثرثوط (١٠٢) حيث

بالرومان. ويجار القتال بين الفريقين ، وتحقق النصر لعمر و (١٠٣) .
ثم تم فتح مدن نقيوس (١٠٤) ، وصنبا (١٠٥) ،
وسلطيس (١٠٦) ، والكريون (١٠٧) في طريقهم الى الاسكندرية
وأسرعت الحاميات الرومانية في هذه المدن المصرية ، بالفرار الى
الاسكندرية معتصمة بها .

كانت الاسكندرية ، مدينة منيعة ، ذات حصون عظيمة ، وقد
عسكر الجند المسلمون بالقرب منها ، وكان يصحبهم رؤساء القبط
الذين كانوا يقدمون الطعام للجند المسلمين ، والعلف لخيولهم .
كما كانوا يدلونهم الى الطرق والمسالك المؤدية الى المدينة (١٠٨)
والحقيقة أن أهل المدن المصرية المجاورة للاسكندرية انقسموا الى
فريقين فريق مع القائد العام الروماني نيودور ، والآخر يؤيد
الجيش العربي . وسادت البلاد حرب أهلية ، فكان أتباع كل
فريق ينقض على أتباع الفريق الآخر . وفي الوقت نفسه تمكن
سكان الاسكندرية من منع الجند المسلمين من اقتحام أسوار
مدينتهم (١٠٩) .

وفي الاسكندرية كان هناك بعض الحكام والقواد الرومان ،
الذين لاذوا بالفرار الى العاصمة البيزنطية ، الى جانب بعض أهالي
الدلتا من القبط والرومان الذين تركوا ديارهم ولجئوا الى
الاسكندرية . وحينما كان عمرو بن العاص والمسلمون يغزون مدن
الدلتا كان يسود الاسكندرية جو من الاضطراب والفتنة . وقد
تنازع الرؤساء والحكام والقواد كما انقسم سكان الاسكندرية
والمهاجرون اليها ، الى فريقين متخاصمين ، ونشب القتال بينهما ،
وراحت ضحيته أعداد هائلة (١١٠) . ويتضح لنا من هذه الرواية
التاريخية أن ذلك النزاع قد نتج عن عداوة شخصية وتنافس سياسي
الى جانب الخلافات الدينية سواء أكان ذلك الخلاف بين الملكانيين

وبين اليعاقبة ، أم بين المسيحيين بصفة عامة وبين اليهود . وان كان يبدو من الروايات التاريخية السابقة ، أن اليهود كانوا مسالمين طوال سنوات الفتح ، إذ لم يرد لهم أى ذكر فى المصادر التاريخية .

تعددت الروايات التاريخية حول اتمام فتح الاسكندرية . وتجميع هذه الروايات على حصار المسلمين لهذه المدينة، وان اختلفت فى مدة هذا الحصار (١١١) . وقد تحصن الرومان بالاسكندرية ، وكانت تصلهم الامدادات من الامبراطور هرقل ، الذى كان حريصا أشد الحرص على الاحتفاظ بالاسكندرية ويقول : « لئن غلبوا على الاسكندرية فقد هلكت الرومان ، وانقطع ملكهم » . وأخذ يعد العدة للخروج بنفسه للدفاع عنها ، الا أن الموت وافاه فى سنة ١٩ هـ . (أو سنة ٢٠ هـ) فكسر الله بموته شوكة الرومان (١١٢) .

اشتد ساعد العرب ، وازداد حماسهم فى القتال على أثر وفاة هرقل « واستأسدت العرب عند ذلك ، وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية ، فقاتلوهم قتالا شديدا » (١١٣) .

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن المقوقس طلب من عمرو ابن العاص ، فى أثناء حصار الاسكندرية ، الصلح والمهادنة لمدة معينة ، فرفض عمرو . ثم تقول هذه المصادر : « الا أن القبط فى ذلك يحبون المهادنة » (١١٤) وقد تدل هذه العبارة على أن المقوقس والقبط المعتصمين بالاسكندرية ، أرادوا الصلح والمهادنة ، فى حين أصر الرومان على مواصلة القتال . ولا نستطيع تأييد هذه الروايات التى تذهب الى وجود المقوقس فى مدينة الاسكندرية . فقد حدثتنا الروايات الموثوق فيها عن تواجد المقوقس فى حصن بابلون، فى أثناء حصار العرب للحصن ، وأنه عقد الصلح مع عمرو بن العاص ، بل

انحاز الى جانب القبط فى موقفهم من المسلمين ضد الرومان ،
مما يجعلنا نشك فى وجوده بالاسكندرية خلال حصارها . والحقيقة
اننا عانينا الكثير نتيجة اضطراب وتناقض الروايات التاريخية
حول الفتح العربى لمصر ، وأخذنا بالروايات الأكثر تواردا والموثوق
فيها .

نجح العرب فى فتح الاسكندرية وسارع الرومان الى الفرار ، برا
وبحرا ، وترك عمرو بن العاص ، فرقة من جنده لحراسة المدينة ،
وأسرع بقواته لتتبع الفارين برا . ولكن الرومان الذين هربوا عن
طريق البحر ، رأوا أن الفرصة مواتية ، لاستعادة الاسكندرية .
فعادوا اليها وقتلوا من بها من المسلمين . وعلم عمرو بذلك ، فعاد
الى الاسكندرية وقاتل هؤلاء الرومان وأجلاهم (١١٥) .

هذا فى حين يذكر الطبرى (١١٦) أن فتح الاسكندرية قد تم
صلحا ليس عنوة فعندما وصل المسلمون الى بلهيب ، كتب اليهم
صاحب الاسكندرية - ولم يذكر الطبرى اسمه - يطلب الأمان من
عمرو مقابل دفع الجزية ورد سبائهم . وكتب عمرو الى الخليفة
عمر بن الخطاب يستشير . فأمر عمر قائده بأن يخير السبائيا بين
اعتناق الاسلام ، أو دفع الجزية اذا أرادوا الاحتفاظ بعقائدهم ،
كما أوضح تعذر رد السبائيا التى تم توزيعها كغنائم فى مكة والمدينة
واليمن .

هذا ويزودنا المؤرخ القبطى حنا النقيوسى بتفاصيل قيمة عن
صلح الاسكندرية وما تتضمنه من شروط . ويبدو أن المقوقس حاكم
مصر ، وبطرك الملكانيين بها ، كان قد استدعاه الامبراطور هرقل
القسطنطينية عندما علم بعقده الصلح مع المسلمين عند فتحهم
حصن بابلليون . فلما تولى هرقل الثانى منصب الامبراطور ، رأى

إعادة المقوقس الى مصر ، لتحقيق السلام مع المسلمين ، وعقد الصلح معهم (١١٧) .

والواقع أنه لم يكن المقوقس الشخص الوحيد الذي رغب في السلام مع المسلمين بل شاركه في ذلك ، الشعب والحكام والقواد * ومن أجل ذلك اجتمع المقوقس مع الحكام الرومان في مصر - الذين كانوا قد لاذوا بالاسكندرية - من أجل الاتفاق على عقد الصلح مع المسلمين (١١٨) . ثم رحل المقوقس الى بابلليون لمقابلة عمرو بن العاص والقادة المسلمين ، وعرض عليهم الصلح مقابل دفع الجزية * وقد أحسن عمرو استقباله ، ورحب به * وقال المقوقس له : « ان الله قد أعطاكم هذه الأرض ، فلا تدخلوها بهذه اليوم في حرب مع الرومان » (١١٩) . وانتهى هذا الاجتماع بعقد صلح الاسكندرية ، الذي تضمن الشروط التالية :

- ١ - يدفع الجزية كل من دخل في العقد .
- ٢ - يبقى المسلمون في أماكنهم دون تدخل في أي عمل أو تعديل أي وضع حتى يجلو الجند الرومان * .
- ٣ - يجلو الجند الرومان عن الاسكندرية خلال أحد عشر شهرا ويحملون معهم ممتلكاتهم ومنازلهم * ومن أراد منهم الرحيل عن طريق البر ، يدفع جزية شهرية ، حتى يتم رحيله من أرض مصر .
- ٤ - يأخذ المسلمون رهائن ، مائة وخمسين من العسكريين ، وخمسين من المدنيين * .
- ٥ - لا تعود القوات الرومانية ثانية الى الاسكندرية * .
- ٦ - يسود السلام ، ويوقف القتال بين المسلمين والرومان * .

٧ - يتعهد المسلمون بحماية كنائس المسيحيين وبمنحهم الجزية الدينية .

٨ - يسمح لليهود بالإقامة في الاسكندرية (١٢٠) .

انفرد المؤرخ حنا النقيوسي ، بذكر شروط هذا الصلح ، دون غيره من المؤرخين القدماء . ومما لاشك فيه أن سماح عمرو بن العاص لليهود ، بالإقامة في الاسكندرية - أهم مراكز نشاطهم - كان مكافأة لهم ، لعدم تدخلهم في قتال المسلمين ، والتزامهم الحياد طوال أحداث الفتح ، كما رأينا . وقد ذكر عمرو في كتابة للخليقة - عمر ابن الخطاب أن عدد اليهود بالاسكندرية حوالى أربعين ألفا ، وهم يؤدون الجزية (١٢١) .

وتذكر بعض المصادر أنه قد رحل حوالى سبعين ألف يهودي ، من الاسكندرية عند دخول عمرو بن العاص فيها (١٢٢) . ولم يشير هذا المصدر الى سبب رحيلهم من الاسكندرية . ولا الى أى جهة ذهبوا . وقد يكون بعضهم قد ترك الاسكندرية الى غيرها من المدن المصرية ، وقد يكونون قد غادروا الأراضي المصرية . ونحن نرجح أنهم انتشروا من الاسكندرية الى غيرها من المدن المصرية ، بذلك لأن موقفهم من الفتح كان موقف حياد .، وأنهم لم يقوموا بأية مقاومة أو عمل عدائى ضد العرب الفاتحين حتى يخبثوا بطشهم ، بل وعلى العكس من ذلك كانوا يكرهون الحكم الرومانى . وعليه ، فقد فضل هؤلاء اليهود ، الإقامة في غير الاسكندرية من المدن المصرية حتى تتسع دائرة نشاطهم في ظل الحكم العربى الجديد .

وإذا ناقشنا شروط صلح الاسكندرية ، نجد أن الشرط الأول قد جعل أهالى الاسكندرية أهل ذمة ، يؤدون الجزية في مقابل الدفاع عنهم ، وتأمينهم على أنفسهم ، وعلى مصالحهم ، وممتلكاتهم . وكان

هذا الشرط أيضا أحد شروط صلح بابليون . ومن الشروط المشتركة بين الصلحين ، حماية المسلمين لكنائس القبط وغيرهم من المسيحيين ، وعدم التدخل في شئونهم الدينية . أما فيما عدا ذلك فهي شروط خاصة بمدينة الاسكندرية وشعبها ، مما يميز هذا الصلح عن صلح بابليون .

بعد عقد هذا الصلح عاد المقوقس الى الاسكندرية ، وأخبر الحكام والقواد ، وكبار رجال المدينة من الرومان ، بما تم بينه وبين عمرو بن العاص ، وبما تضمنه الصلح مع المسلمين في حين لم يعلم سائر أهالي الاسكندرية شيئا عن هذا الصلح : فلما قدم بعض المسلمين الى الاسكندرية لحمل الجزية المقررة في الصلح ، أراد بعض سكان المدينة مقاومتهم ، الا أن الجيش الروماني حال دون ذلك ، فثار الشعب ، وانتشرت الفوضى في جميع أرجاء المدينة ، بل أرادوا قتل المقوقس ورجمه بالحجارة ، تعبيرا عن سخطهم عليه لعقده الصلح مع المسلمين (١٢٣) . وخرج المقوقس الى الثائرين ، لتهديئة روعهم وتوضيح حقيقة الموقف ، فذكر أنه أقدم على هذه التسوية من أجل خدمتهم ، وانقاذهم وانقاذ أطفالهم ، وتوسل اليهم قبول الصلح . وسلم سكان الاسكندرية بقبول الصلح وحصلوا كثيرا من الأموال الى المقوقس ليدفع الجزية المقررة عليهم للمسلمين . وما تجدر الإشارة إليه أن المقوقس حمل الجزية بنفسه الى عمرو بن العاص (١٢٤) .

كان من الطبيعي أن يقضى فتح الاسكندرية على أي أمل في عودة الحكم الروماني الى مصر ، وفترت الحماسة للقتال ، ورأى معظم أهالي مصر الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد . ومن ثم تم فتح كثير من مدن الدلتا صلحا ، بعهد بين حاكمها وبين المسلمين ، ومن هذه المدن اخنا ورشيد والبرلس . وفرض العرب

عليهم في الصلح « دينارين على كل انسان جزية ، وأرزاق المسلمين ،
الى جانب شروط ستة لا يخرجون من ديارهم ، ولا تنتزع نساؤهم
ولا كنوزهم ولا أراضيهم ، ولا يزداد عليهم » (١٢٥) .

وتشير بعض الروايات الى أن الجزية المفروضة على هذه
المناطق ، لم تكن محددة بدليل أن طلما صاحب اخنا ، قدم الى
عمرو بن العاص ، وسأله عما عليهم من جزية ، فأجابه عمرو وهو
يشير الى ركن كنيسة : « لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ،
ما أخبرتك بما عليك ، انما أنتم خزنة لنا ، ان كثر علينا كثرنا
عليكم ، وان خفف عنا ، خففنا عنكم (١٢٦) » وحاول طلما حشد
بعض الجند الرومان ، ولكن العرب هزموه وأسروه (١٢٧) .

نجح العرب فى فتح دمياط (١٢٨) ، وتنيس (١٢٩) ، وتونس
ودمزة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ، فتم لهم اخضاعها جميعا بصلح
ينسبه صلح بابليون (١٣٠) .

وهكذا تم للعرب المسلمين فتح البلاد المصرية ، واستقرت
الامور لهم فيها . الا أن الاسكندرية ما لبثت أن نقضت الصلح
(سنة ٢٣ وقيل ٢٥ هـ) (١٣١) ولا شك أن الرومان هم الذين
نقضوه ، وليس القبط المصريين . ذلك أن عمرو بن العاص ، كان
ولى عبد الله بن حذافة بن قيس حكم الاسكندرية وعاد عمرو الى
الفسطاط ، فانتهم الرومان هذه الفرصة ، وكتبوا الى الامبراطور
البيزنطى قسطنطين بن هرقل ، يخبرونه برحيل عمرو عن
الاسكندرية ، وقلة عدد جند الحامية العربية بالاسكندرية . كما
شكوا له اضطرابهم الى أداء الجزية للمسلمين . فرأى الامبراطور
أن الفرصة سانحة لاستعادة الاسكندرية من أيدي المسلمين ، فأرسل

ثلاثمائة سفينة ، تحمل قوات رومانية ، بقيادة مانويل
الخصى (١٣٢) .

قدم مانويل الى الاسكندرية ، وقتل بعض الجند المسلمين ،
ونجا البعض الآخر بأرواحهم (١٣٣) وانحاز الرومان بالاسكندرية
الى جانب مانويل ، فى حين لزم المقوقس والقبط الحياد ، واحتفظوا
بعهدهم مع المسلمين . ورفض عمرو بن العاص الذهاب الى
الاسكندرية لمواجهة مانويل وصحبه وقال : « لا ولكن أدعهم حتى
يسيروا الى ، فانهم يصيبون من مروا به ، فيخزي الله بعضهم
ببعض » (١٣٤) . فقد كان عمرو يتوقع أن ينزل الجند الرومان
سخطهم على أهالى المدن والقرى التى يمرون بها فى زحفهم لقتال
الجيش الاسلامى ، وتحقق ظن عمرو ، فقد كان الجند الرومان
يقتحمون القرى ، ويشربون خمورها ، ويأكلون أطعمتها ، ويسلبون
وينهبون حتى بلغوا مدينة نقيوس حيث نصدى لهم عمرو (١٣٥) ،
واضطروهم الى التقهقر نحو الاسكندرية وتتبعهم حتى تم له
وللمسلمين استعادة الاسكندرية والقضاء على الثورة ، وقتل كثيرا
من الرومان ، كما سبى أعدادا كبيرة منهم (١٣٦) .

ومما لاشك فيه أن عمرو بن العاص كان يلقى المساعدات
والعون - فى طريقه - من القرى التى نزل بها ، ومما لاشك فيه
أيضا أن موقف القبط وبطركهم بنيامين كان موقف تأييد للعرب ،
اذ كانوا يشدون أزرهم ويقدمون لهم كل عون ممكن ، ويظهرون
لهم الود ويحافظون على عهدهم الذى تعاهدوا به فى صلح
الاسكندرية . ذلك أنه لم يكن من العقل والحكمة أن يساعد القبط
الرومان فى هذه المرة ، لأنهم لم يكونوا يأملون خيرا فى عودة حكمهم
للبلاد . اذ ان ذكريات المقوقس ، وعسفه بهم كانت ما تزال
منقوشة فى قلوبهم ، وأنهم شعروا بالطمأنينة على دينهم وديارهم

فى ظل حكم العرب لهم • والواقع أن ذلك لم يكن يتحقق لهم اذا عاد اليهم حكم الرومان • ولقد صدق بتلر حين قال : « ولو فعلوا غير ذلك لكانوا أحق الناس وأجهلهم ، كأنهم يسعون الى وضوح أيديهم فى أغلال الروم ، وكشف أجسامهم لجلد سياطهم » (١٣٧) • ولما تم لعمر بن العاص القضاء على مانويل وثورته ، شكا اليه المصريون من أهالى القرى المجاورة مما أصابهم من جند مانويل ، وما نهبه الرومان من قراهم • فأعاد عمرو اليهم كل ما كان مانويل قد أخذه منهم (١٣٨) •

وبعد هذه الدراسة لأحداث الفتح العربى لمصر ، وموقف كل من القبط والرومان واليهود منه ، نلمس تعدد الروايات العربية وغير العربية التى أوردها المؤرخون المسلمون وغير المسلمين ، وتناقضها أحيانا ، واختلافها فى التفاصيل أحيانا أخرى وان كانت جميعها تتفق فى أن المصريين قد صاروا أهل ذمة (١٣٩) • ويرى بعض المؤرخين أن مصر فتحت عنوة ويرى آخرون أنها فتحت صلحا ، وهناك من يذهب الى أن بعض المناطق قد فتحت عنوة والبعض الآخر قد فتح صلحا (١٤٠) • ويمكن القول ، ان روايات هؤلاء المؤرخين يكمل بعضها البعض ، ولا بد من الاعتماد عليها جميعا ، حتى يمكننا تكوين صورة كاملة متكاملة لأحداث الفتح العربى لمصر •

واذا تركنا هذه الروايات العربية التى حفلت بها المصادر التاريخية القديمة ، يجدر بنا الإشارة الى آراء المؤرخين المحدثين حول موقف قبط مصر من العرب الفاتحين ، ومدى ترحيبهم بهم ، ومدى تقديم المساعدات لهم • وكان من الطبيعى أن ينقسم هؤلاء المؤرخون المحدثون الى فريقين ، أحدهما يبرز ترحيب القبط بالفتح العربى ، وفريق آخر ينفى هذا رأى •

ينسب توماس أرنولد (١٤١) ، النجاح السريع الذى أحرزه الفاتحون العرب الى ما وجدوه من ترحيب المصريين بهم ، الذين كرهوا الحكم البيزنطى الظالم ، ولما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت . فان اليعاقبة - وهم يكونون السواد الأعظم من المصريين - قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الملكانى التابعين للامبراطور .

ومما لاشك فيه أن بعض القبط وقفوا موقف الحياد ، لأن ترحيبهم بالعرب ، معناه انتقالهم من تبعية الى أخرى ، وهم بذلك لن يتمكنوا من اجلاء العرب والبيزنطيين معا وفى وقت واحد ، كما أن فريقا من القبط حارب الى جانب الرومان البيزنطيين ، اذ كانوا يتوقعون انتصار الرومان على العرب (١٤٢) .

فى حين يرى أحد المؤرخين المحدثين أنه لما قدم العرب الى مصر فاتحين ، احتاجوا الى ما يشد أزهرهم ، فوجدوا فى القبط خير معين ، وإن كان ليس هناك ما يدل دلالة واضحة على مساعدة القبط للعرب فى تقدمهم من العريش حتى فتح حصن بابليون ، الا أنه من الثابت أنهم لم يساعدوا الرومان ضد العرب ، بل أمدوا العرب بالعلوفة والمؤن وغيرها (١٤٣) .

ويرى هاردى (١٤٤) Hardy أن القبط نظروا الى الفاتحين العرب على أنهم منقذون ومحررون لهم مما كانوا يلاقونه ويعانونه ، فقد كانوا يبغضون الرومان بغضا شديدا ، لما قاسوه على يد المقوقس . وقد أدرك المسلمون حقيقة مشاعر القبط ، مما جعلهم أكثر جرأة وجسارة فى القتال .

والحقيقة أن المصريين ، رحبوا بالفتح العربى الذى يقضى على الأوضاع القائمة الظالمة ، والدليل على ذلك تمرد بعض القواد

وعصيان بعض الحاميات ورفضها قتال المسلمين (١٤٥) . وينذكر
سينيلفستر شولير (١٤٦) Sylvestre Chauleur - أن القبط لم
يرتكبوا خيانة في حق الدولة الرومانية ، فقد كانوا من قبل ساخطين
على فساد الادارة ، وسياسة الامبراطور الدينية ، ولذا كان من
الطبيعي أن يخضع القبط ، ويسلموا للعرب الفاتحين تخلصا من
طغيان الرومان واستبدادهم . ويؤكد المؤرخ رأيه برواية تذكر أن
الرهبان قد تركوا أديرتهم ، وانضموا الى الجند المسلمين ضد
الرومان . كما أنه عندما حاول البيزنطيون غزو مصر ثانية ، كان
موقف القبط أكثر وضوحا ، وقد انحازوا الى جانب المسلمين وقدموا
اليهم كل مساعدة ممكنة .

وينذهب مؤرخون محدثون آخرون ، مذهبيا مخالفا ، فينعون
الآراء التي تذهب الى أن القبط رحبوا بالفاتحين العرب ، وقدموا
لهم العون والمساعدة . وهؤلاء المؤرخون يستندون في آرائهم على أن
المسلمين أخفقوا في فتح بعض المناطق ، ووجدوا كثيرا من الصعوبات
والعقبات في فتحها (١٤٧) .

وبقف بعض المؤرخين المحدثين موقفا وسطا ، فيذكرون أن
القبط قد انقسموا الى فريقين متميزين في موقفهم ، فقد انحاز فريق
منهم الى الرومان ، في حين أبدى فريق آخر ترحيبه بالعرب (١٤٨) .

وبعد هذا العرض لآراء المؤرخين المحدثين حول موقف القبط
من الفاتحين العرب ، يمكننا أن نقول ، انه مما لا شك فيه أن كثيرا
من القبط قد ساعدوا العرب في تقدمهم في الأراضي المصرية ، وقدموا
لهم كل مساعدة ، وكل تأييد ممكن . وكان ذلك نتيجة طبيعية
لما قاسوه من الاضطهاد والعسف لمدة عشر سنوات . ونستند في ذلك
على أقوال المؤرخين القدماء .

فقد كتب أسقف القبط بالاسكندرية (أبو ميامين) عند قدوم الجيش العربى لمصر ، الى القبط ، يشير عليهم بالترحيب بالعرب . فلن تكون للرومان دولة . كما قدم قبط الفرما كثيرا من المساعدات للجيش العربى (١٤٩) ، مما فتح الطريق أمام العرب . وكتاب هرقل الى المقوقس يوضح حقيقة موقف القبط . وكراهيتهم للقتال ، واستعدادهم لدفع الجزية ، وقد جاء فى هذا الكتاب : « . . . انما أذاك من العرب اثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى ، فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروههم علينا ، فان عندك من بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف » (١٥٠) . ومن الروايات القديمة التى تثبت ترحيب القبط بالعرب ، وتقدير المعاونات لهم ، هذه الرواية : « ان عمرو بن العاص ، قد خرج بالمسلمين حين أمكنهم الخروج من حصن بابلين ومعهم جماعة من رؤساء القبط . وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصار لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الرومان » (١٥١) ، وأشار بعض المؤرخين القدماء صراحة الى أن مساعدة القبط للعرب الفاتحين ظهرت بوضوح بعد فتح العرب لاقليم الفيوم (١٥٢) .

والحقيقة أن العامل الرئيسى لنجاح الفتح العربى لمصر ، ولنهاية الحكم الرومانى ، هو السياسة التى انتهجها الامبراطور هرقل ، والمعاملة التى عامل المقوقس بها القبط الأرثوذكس ، وما لقيه هؤلاء القبط من بطرك الملكانيين . وقد رأى بعض المصريين أنهم خسروا شيئا اذا تقبلوا الحكم العربى بدلا من الحكم الرومانى ، من الحكمين بالنسبة لهم حكم أجنبى ، وقد خبروا حكم رومان سنوات طويلة ، وعانوا من فسادهم ومظالمه ، وتوقعوا أن يكون الحكم العربى أخف وطأة ، أو أكثر تسامحا ، وخاصة أن العرب يدينون بعقيدة تخالف عقيدة المصريين المسيحية ، فتنتهى

بذلك الخلافات الطائفية التي سادت دهرها ، وأدت الى اضطهاد القبط . كما كان كثير من القبط قد سمعوا بسياسة التسامح التي اتبعها العرب الفاتحون نحو المسيحيين في بلاد الشام .

كما أن الجزية التي فرضها العرب ، وقبلها القبط ، كانت نضال كثير ا إذا قارنوها بالضرائب الباهظة التي كان يؤديها المصريون للدولة الرومانية ، وقد أثقلت كواهلهم ، وأدت الى كثير من المساوئ الاقتصادية . ولمس قبط مصر تواضع العرب وبساطتهم ، مما شجعهم على الخلاص من سياسة التفرقة العنصرية التي اتبعها الرومان في حكم مصر .

أما يهود الاسكندرية ، فقد كانوا قد استفروا دهرها طويلا في هذه العاصمة وامتزجوا بأهلها من القبط المصريين ، وشاركوهم ظاهريا ، مشاعرهم وكراهيتهم للحكم الروماني وهؤلاء اليهود وان كانوا في الحقيقة يبغضون الطائفتين المسيحيتين ، على السواء ، لاختلافهم معهم في العقيدة ، الا أنهم آثروا اخفاء بغضهم ، حرصا منهم على مصالحهم المادية ونشاطهم الاقتصادي .

وكان الفتح العربي مفاجأة لليهود الاسكندرية ، وقد جعل موقفهم حرجا ، فقد كانوا في الحقيقة لا يريدون اقحام أنفسهم في معارك حربية أو خلاف سياسي ، أو نزاع طائفي ، ويريدون التفرغ التام لنشاطهم الاقتصادي الواسع النطاق الذي يمارسونه منذ سنوات طويلة في الاسكندرية ، وجعلهم يسيطرون على كثير من المرافق الاقتصادية . وقد خشوا نتائج مساعدتهم السلطات الرومانية الحاكمة ، فقد يتحقق النصر للعرب . كما تخرجوا من تأييد الفتح العربي ، فقد يكون النصر للرومان ، مما يعرضهم لسيخطهم واضطهادهم . كما كان هؤلاء اليهود يدركون حقيقة مشاعر القبط العدائية نحو الرومان .

ولهذه الأسباب كلها ، آثر اليهود انتهاج سياسات التام ، والوقوف موقفا سليما تجاه الأحداث الدائرة فى الاسكندرية وخارجها . وفى الحقيقة لم يكن العرب الفاتح حاجة الى معاونة هؤلاء اليهود . فعدددهم قليل اذا قارناهم القبط الذين يمثلون غالبية سكان مصر ، كما أن اليهود لم قوة عسكرية بل اتجه كل اهتمامهم الى الشئون الاقتصادية قدر العرب لهؤلاء اليهود موقفهم ، فسمحوا لهم بالبقاء الاسكندرية .

وفى رأينا أن العرب الفاتحين كانوا على جانب الفطنة والذكاء ، حينما اتخذوا هذا الموقف من اليهود . هؤلاء اليهود فى الاسكندرية هم عصب النشاط الاقتصادي جلاؤهم من المدينة يوقف هذا النشاط ، فى وقت يريا الفاتحون تحقيق الاستقرار . ولاشك أن الاقتصاد هو الاستقرار السياسى والادارى والاجتماعى . كما أن العرب أن يشبتوا لجميع أهالى مصر أنهم يكافئون كل من لم يقف عدائيا . كما كان العرب يخشون من محاولة الرومان اس الاسكندرية ، ولذا رأوا أن يضمّنوا حياد اليهود مرة أخرى

وفضلا عن ذلك ، أن هذه السياسة التى انتهجها المسلمون نحو اليهود هى جزء من سياسة التسامح الاسلامى أهل الذمة - أهل الكتاب - فى كل مكان .

٢ - دور أهل الذمة في الحياة السياسية في عصر الولاة

درسنا في الفصل السابق ، موقف القبط واليهود من الفتح .
ونبحث في هذا الفصل ، الدور الذي قاموا به في الحياة السياسية
في عصر الولاة (٢٠ - ٢٥٤ هـ = ٦٤١ - ٨٦٨ م) ، الذين حكموا
مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، وفي العصر العباسي حتى
قيام الدول المستقلة .

وقد أصبح يطلق على القبط واليهود ، في مصر - شأنها شأن
غيرها من البلاد الاسلامية - (أهل الذمة) . والذمة في اللغة العهد
والأمان والضمان ، والمنتفعون بهذا العهد يسمون أهل الذمة
أو « الذميون » (١٥٣) . وأهل الذمة هم المستوطنون في الأقطار
الاسلامية من غير المسلمين الذين صاروا سادة البلاد وحكامها (١٥٤) .
وهم أهل الكتاب . أي أصحاب الكتابين السماويين التوراة
والانجيل ، وهم اليهود والمسيحيون ومن في حكمهم ممن لا كتاب
سماوي لهم ، وهم المجوس والسامرية والصابئة (١٥٥) . ولهذه
الطبقة أحكام خاصة في الاسلام سنتحدث عنها وعن مدى تطبيقها
في مصر في الفصل الأول من الباب الثاني .

أما القبط ، فنجد فى المصادر التاريخية الكثير من أخبارهم ومواقفهم ، أما بالنسبة لليهود فى مصر ، فقد أغلقت المصادر التاريخية الحديث عن دورهم فى الحياة السياسية فى هذا العصر وربما كان ذلك الاغفال ، لانهم كانوا أقلية بالنسبة للقبط فى ذلك العصر . ويبدو أن عمرو بن العاص قد ترك اليهود وشئونهم الخاصة ، كما أن بعضهم كان قد احتكر سك النقود ومارسوا نشاطا اقتصاديا واسعا . والحقيقة أنهم تمتعوا فى ظل حكومة العرب بالتسامح والعدل ، وكانت لهم جالية بالفسطاط الى جانب جاليتهم الكبيرة فى الاسكندرية (١٥٦) .

والواقع أن تاريخ اليهود منذ الفتح العربى لمصر حتى قيام الدولة الفاطمية يعثر به الغموض ، ولكن الثابت تاريخيا أن اليهود عوملوا كغيرهم من غير المسلمين ، فكانوا يؤدون الجزية ويسمون بأهل الذمة (١٥٧) .

كان كثير من المصريين ، فى أثناء تقدم عمرو بن العاص فى الأراضى المصرية ، قد غادروا مدنهم وأراضيهم ، وبادروا بالفرار الى مدينة الاسكندرية ، لعلهم يجدون الحماية والأمن . فلما سم لعمرى والمسلمين فتح جميع المدن المصرية بما فيها الاسكندرية ، رأى هؤلاء النازحون العودة الى ديارهم وأراضيهم ، وطلبوا من المقوقس أن يطلب من عمرو السماح لهم بالعودة (١٥٨) . وفاوض المقوقس عمرو ، من أجل تحقيق رغبات المصريين فى العودة حتى يكسب رضائهم ، فيتناسوا سياسة الاضطهاد التى اتبعها قبل الفتح العربى ، الا أن عمرو بن العاص رفض تحقيق رغبة المقوقس مما أثار ألمه واستياءه (١٥٩) . وبذلك أخفقت مساعيه فى كسب رضاء المصريين والتكفير عما ارتكبه فى حقهم .

تم لعمر بن العاص فتح جميع المدن المصرية ، وأبقى النظم
الإدارية على ما كانت عليه من قبل ، كما أبقى عمرو بعض الأحكام
المصرية في مناصبهم التي كانوا يتولونها قبيل الفتح . نذكر منهم
ميناس الذي كان يحكم مصر السفلى . وكان هذا الحاكم مغرورا
جاهلا ويمقت القبط مقتا شديدا . ومن هؤلاء الحكام أيضا شنودة
حاكم إقليم الريف ، وفيلوخينوس حاكم إقليم الفيوم . وكان هؤلاء
الثلاثة يكرهون القبط كراهية شديدة ، ويحملونهم كثيرا من
الأعباء (١٦٠) .

وتذهب الرواية القبطية الى أنه كان على المصريين أن يقدموا
للعرب الفاتحين العلف لدوابهم ، وبعض الأطعمة - كالعسل واللبن
والفواكه والخضر وغيرها - الى جانب أداء الجزية وخراج الأرض .
كما تذهب الرواية القبطية أيضا الى أن خوف القبط من حكامهم -
كان من دوافع أدائهم هذه الضرائب (١٦١) . ومن مزاعم هذه
الرواية القبطية أيضا أن المصريين قد سسخوا لإعادة حفر قناة
تراجان لتصل المياه من بابليون الى البحر الأحمر - وتبالغ الرواية
القبطية في تعاملها ضد العرب ، حتى انها تشبه معاملة العرب
الفاتحين للمصريين بمعاملة فرعون مصر لبنى اسرائيل (١٦٢) ولكن
هذه الرواية وغيرها من الروايات القبطية كانت متعاملة على عمرو
ابن العاص والعرب تحاملا شديدا ، بحيث انها تعبر عن العصبية
الدينية . والأحداث التاريخية تنفى تماما ما ذهب اليه هذه
الروايات من أن عمرو كان يعامل المصريين بدون رحمة ولا شفقة ،
وأنة لم يراع شروط العهد الذي منحه اياهم (١٦٣) .

وفي الحقيقة أن عمرو بن العاص ، لم يبق هؤلاء الحكام في مناصبهم
من أجل اتباع سياسة الشدة في معاملة المصريين . ولكنه رأى
الاحتفاظ بكبار الحكام في مصر عند الفتح العربي لأنهم أعلم بنظم

الحكم في مصر ، وأدرى بشئونها الادارية . فقد أبقي عمرو النظم الحكومية والادارية الموجودة في مصر ، ولم يغير شيئا منها ، حتى تستقر الأمور ، وتهبط الأحوال فيتمكن عند ذلك من تغيير ما يرى تغييره .

ونحن نتفق مع بنلر في أن المقوقس لم يكن هو الوحيد الذى تخلى عن ولائه للامبراطورية الرومانية ، بل شاركه فى ذلك هؤلاء الحكام الثلاثة الذين أسرعوا باعلان ولائهم للدولة العربية . وقد ظن هؤلاء لحكام الرومان ، أن خير مظهر يعبرون به عن ولائهم للعرب هو معاملة القبط معاملة حازمة ، وقد تنصف أحيانا بالشدّة ، لكسب رضاء العرب عنهم من جهة ، وللتعبير عن كراهيتهم القديمة للقبط نتيجة الخلاف المذهبي والطائفي من جهة أخرى (١٦٤) .

توفى المقوقس حاكم مصر الرومانى ، الذى عقد الصلح مع عمرو ، فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢ م وكان دائما يعبر عن آلامه لوقوع مصر فى أيدي العرب ، ولما أصاب الامبراطورية الرومانية من انحلال داخلى (١٦٥) . وبعد وفاة المقوقس بجوالي ثلاثة أشهر ، اختير الشماس بطرس بطركا للملكانيين فى مصر ، فى عيد القديس تيودور (١٦٦) ، فى شهر يوليو من السنة نفسها (١٦٧) .

ويبدو أن تأخير اختيار البطرک الملكاني ، ربما كان راجعا الى رغبة الملكانيين فى استشارة القسطنطينية فيمن يتولى هذا المنصب ، والى ما كان يسود القسطنطينية حينئذ من اضطرابات داخلية . أو لعل هذا التأخير كان ناتجا عن تردد الكثيرين فى قبول هذا المنصب ، بعد أن انفصلت الأمور الدينية فى مصر عن السلطة الدينية فى القسطنطينية وانعدام الأمل فى العودة الى حوزة الامبراطورية البيزنطية .

ولما انتهت الهدنة المنفق عليها فى صلح الإسكندرية ، غادر القائد الرومانى تيودور وأصحابه المدينة ، وفى صحبتهم ما كان يبدى المسلمين من الرهائن المدنية والعسكرية . كما رحل عن المدينة كثير من الموظفين وكبار الشخصيات الرومانية بها ، فتحمل أعباء الضرائب من يقى بالمدينة وغيرهم من سكان مصر آنذاك . ودخل عمرو الاسكندرية حيث رحب به أهلها (١٦٨) .

وهكذا انتصر العرب انتصارا حاسما شاملا ، وخرج الرومان من مصر الى الأبد وبدأ العرب الفاتحون يتفربون من القبط ، حتى يضمّنوا ولاءهم وإخلاصهم لهم ، وحتى يتمكنوا من توطيد أقدامهم فى البلاد . وخير دليل على ذلك موقف عمرو بن العاص من البطرك اليعقوبى بنيامين .

أخبر الدوق سنانوتيوس (١٦٩) عمرو بن العاص ، بقصة هروب البطرك بنيامين عند قدوم المقوقس الى مصر ، حاكما لها وبطركا للملكانيين بها . فكتب عمرو أمانا لهذا البطرك . ويبدو أنه لم يكن أحد يعرف المكان الذى كان يقيم فيه البطرك طوال عهد المقوقس . وقد جاء فى أمان عمرو للبطرك بنيامين : « الموضع الذى يكون فيه بنيامين ، بطرك النصارى القبط ، له العهد والأمان ، والسلام من الله ، فليحضر آمنا مطمئنا ، ويدبر حال بيعته ، وسياسة طائفته » (١٧٠) .

وعلم الأب بنيامين بهذا الأمان ، فعاد الى الاسكندرية ، بعد غيبة استمرت ثلاث عشرة سنة ، قضى منها عشر سنوات خلال حكم الامبراطور هرقل ونائبه المقوقس وثلاث سنوات منذ بدء الفتح العربى لمصر (١٧١) . فلما علم عمرو بن العاص بظهور هذا البطرك استدعاه اليه معززا مكرما . فقدم الأب بنيامين على عمرو ، فأحسن استقباله ، وأشاد بحسن مظهره وقال انه لم ير ، فى جميع الكور

المصرية رجلا يشبه هذا البطررك . ثم عهد عمرو الى هذا البطررك
بشئون الكنيسة القبطية ، ورعاية مصالح القبط (١٧٢) .

أخذ الأب بنيامين يدبر شئون الكنيسة القبطية فى أمن
وسلام ، وحرص على أن يعيد اليها وحدتها ، وهداية من ضل فى
عهد الامبراطور هرقل ، وحاد عن العقيدة الأرثوذكسية . فاجذب
اليه معظم القبط الذين استجابوا لدعوة هرقل ونائبه المقوقس
- المخالفين لهم فى المذهب الدينى - باتباع وسائل الوعظ
والارشاد (١٧٣) .

كما عاد كثير من القبط الأرثوذكس الى أراضيهم ، بعد أن
علموا بعودة بطركهم الأب بنيامين وبعد أن انقضى عهد الظلم
والقسوة . فى حين بقى البعض على ما صاروا اليه حتى لا يشتبه
أمرهم ، بأنهم مخالفون للمذهب الأرثوذكسى (١٧٤) .

كان مركز عمرو بن العاص فى مصر ينعدم يوما بعد يوم ،
ويدأ فى تحصيل الضرائب التى اشترطها على المصريين فى عقد
الصلح ، الا أنه لم يمس أملاك الكنيسة ، بل أعلن حمايته ورعايته
لها ، وظلت الكنيسة محتفظة بأموالها وأملاكها (١٧٥) . وتمتع
القبط فى مصر فى ظل الحكم العربى الاسلامى بالحرية الدينية ،
واستمروا فى نشاطهم الاجتماعى والاقتصادى فى أمن وسلام .

وقدم الى الاسكندرية عند قدوم عمرو اليها ، أحد زعماء القبط
ويسمى يوحنا الدمياطى وكان قد أعلن ترحيبه بالفتح العربى ،
واشتهر بعطفه على فقراء القبط ، ورثائه لحالهم ، لما لاقوه من
اضطهاد خلال الحكم الرومانى . وقد ولاء عمرو بن العاص حكم
اقليم مصر السفلى بدلا من الحاكم ميناس - السابق الاشارة اليه -

الذى زاد الضرائب كثيرا عن المقدار المشروط . وكان القبط المصريون قد عانوا الكثير من مظالم ميناس حتى انهم كانوا يقدمون أولادهم ، بدلا من الضرائب الباهظة المفروضة عليهم شهريا (١٧٦) وهذا يدل دلالة واضحة على أن عمرو بن العاص ، كان يتدخل دائما لحماية مصالح القبط ، وكان اذا علم باجحاف بعض موظفيه بالقبط وتحميلهم القبط أكثر مما يطيقون ، كان يعزل هؤلاء الموظفين من مناصبهم ، ويولى بدلهم ممن يثق في عدلهم وانصافهم . وهذه السياسة هي في الحقيقة جزء من السياسة العامة التي انتهجها عمرو بن العاص من أجل كسب مودة قبط مصر ، وتوفير العدل والأمن لهم ، في ظل الحكم العربي الجديد .

ويرى بعض المحدثين أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح العربي في غلبة وسرور لتخلصهم من عسف الرومان واضطهادهم لهم لمخالفتهم إياهم في المذهب الديني ويذكر أن أكبر دليل على ذلك ، الخطبة التي ألقاها باسيل - أسقف مدينة نقيوس - بدير مقاريوس . وما كان من رد البطريرك بنيامين عليه بقوله : « لقد وجدت في مدينة الاسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون » والواقع أنه من هذه العبارات التي قالها البطريرك يتضح مدى الطمأنينة التي شعر بها المصريون في عهد عمرو بن العاص (١٧٧) .

وكان عمرو بن العاص يتنكر ، ويتجول في الأحياء المصرية ليقف على أحوال القبط والمصريين ، وسياسة الحكم والموظفين فيهم ، وليتبين مشاعر الشعب المصري نحو الحكم الاسلامي (١٧٨) .

لم يكن عمرو بن العاص - أول ولاية مصر الاسلامية - هو وحده الذي أحسن معاملة القبط وغيرهم من أهل النمة ، بل كان

الخليفة عمر بن الخطاب ، بوصى دائما ولاته بحسن معاملة أهل
الذمة ، ويمنع الاساءة اليهم ، حتى ولو اقتضى الأمر ، الاقتصاص
لهم . من عماله ومن أولادهم كما حدث عندما اقتصر لأحد قبط مصر
من واليها عمرو وابنه عبد الله على مرأى من الناس (١٧٩) .

ويشيد الجميع بسماحة الخليفة عمر مع أهل الذمة في مصر ،
فقد أقرهم في أراضيهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية عقائدهم .
بل ومنحهم حرية الإقامة في مصر أو الخروج منها (١٨٠) . والحقيقة
أن أهل الذمة في مصر قد نعموا بالهدوء والأمن طوال عصر الخلفاء
الراشدين الذين كانوا يوصون دائما ولاتهم بأهل الذمة خيرا .
فنجدهم الخليفة عمر عند وفاته يوصى من يلي الخلافة بعده : « أوصى
الخليفة بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيرا ، أن
يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفون فوق
طاقتهم - فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظلم معا هذا
أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » (١٨١) .

واتبع الخليفة عثمان بن عفان - من بعده - سياسة سمحاء
إزاء أهل الذمة في جميع أرجاء الدولة الإسلامية ، وأوصى عماله
برعاية شئونهم ، وعدم الاجحاف بهم في جمع الضرائب فقد كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا وراعيا لقومه ولم يكن
جائبا (١٨٢) .

كذلك أحسن على بن أبي طالب ، معاملة الذميين ، فأوصى
عماله في جميع أنحاء الدولة الإسلامية بهم خيرا ، وأمر بمراعاة
عهودهم ، والدفاع عنهم ، وعدم الاجحاف بهم (١٨٣) . وقد أوصى
عامله محمد بن أبي بكر بأهل الذمة حين قدم مصر واليا عليها من
قبله في سنة ٣٦ هـ . وجاء في عهد ولايته : « بسم الله الرحمن

الرحيم ، هذا ما عهد عهد الله على ، أمير المؤمنين الى محمد بن أبى
يكر ، حين ولاء مصر ، وأمره بتقوى الله فى السر والعلانية .
وبالعدل على أهل الذمة ، وبانصاف المظلوم ، وبالشدة على الظالم .
وأمره أن يجنى خراج الأرض على ما كانت عليه من قبل لا ينقص
منه ولا يبتدع فيه . . . » (١٨٤) .

والواقع أن العرب حينما وطدوا أقدامهم فى البلاد ، أبقوا
النظام الإدارى ، كما كان عليه قبل الفتح العربى ، كما أنهم
استخدموا الموظفين المصريين الذين لم يهربوا عند قدوم العرب الى
البلاد المصرية (١٨٥) . وهكذا لعب المصريون دورا لا يستهان به
فى إدارة البلاد فى عصر ولاة الخلفاء الراشدين وتشير بعض أوراق
البردى الى أسماء حكام أقاليم وموظفين من القبط - الى جانب
ما ذكرنا آنفا - منذ السنوات الأولى للحكم العربى فى مصر .
ويرجع تاريخ هذه الأوراق الى سنة ٢٢ هـ - ٦٤٢ م وتذكر أن
خريستوفور وتيودوراكس ابنى قيرس ، كانا حاكمين لاقليم
هيراكليوبولس - Héracléopolis (١٨٦) .

وكما قام أهل الذمة بدور فى الحياة السياسية فى عصر ولاة
الخلفاء الراشدين ، فقد استمروا فى أداء هذا الدور فى عصر
الولاة الأمويين والعباسيين . فاذا كانت روح الاسلام الحققة هى
التي دفعت بالعرب الى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو
المصريين ، فاننا نجد أيضا أنه كان للعوامل السياسية أكبر الأثر
فى حمل العرب على ترك مقاليد الأمور فى أيدي أهل مصر من القبط
خاصة ، محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين .
أى أن القبط صاروا يتمتعون بحريتهم الدينية الى جانب قيامهم
بنصيب كبير فى إدارة بلادهم . ولاشك فى أن القبط قد حلوا محل
الرومان الذين غادروا مصر ، والذين كانوا يشغلون كثيرا من
الأعمال فيها (١٨٧) .

ونبحث فيما يلي دور أهل الذمة ، وخاصة القبط منهم في
الادارة والحكومة ، اذ كان منهم الكتاب وعمال الدواوين ، وحكام
الأقاليم بل وأيضا عمال الخراج . ثم ما كان من تدخل الولاة
المسلمين في اختيار البطررك ، وانتصار هؤلاء الولاة لليعاقبة على
الملكانيين . وأخيرا ما تعرض له الذميون من مضايقات خلال هذا
العصر (٤٠ - ٢٥٤ هـ) ومما تجدر الإشارة اليه ، أن وضع أهل
الذمة في العصر العباسي لم يختلف عما كان عليه في العصر الأموي
كما سنرى .

عهد الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ = ٦٨٢ -
٦٨٤ م) بولاية اقليم الاسكندرية والبحيرة ومربوط ، وما يليها
لأحد المسيحيين الملكانيين ، ويسمى تيودوسيوس (١٨٨) . ووقف
تيودوسيوس موقفا عدائيا من القبط الأرثوذكس ، وبطركهم الأب
اغاثو . وساعده في ذلك ما صار له من سلطان بفضل مرسوم
الخليفة . فقد طلب من البطررك اغاثو جزية سنوية على تلاميذه
مقدارها ستة وثلاثون دينار . كما كان يلزمه بكل ما يحتاجه من
نفقات على الأسطول والنوتية . كما طالبه بزيادة على خراج كنائسه ،
وقدرها سبعة آلاف دينار (١٨٩) . وفي الحقيقة كان موقف هذا
الحاكم من البطررك اغاثو يمثل انتقاما من القبط اليعاقبة وبطرڪهم ،
ورغبة في اضعاف شأنهم ، وعودة سيادة الملكانيين عليهم ، كما كان
الحال في العهد البيزنطي ، وخاصة أن هذا الحاكم كان يمارس
سلطات واسعة في دائرة حكمه ، فكان يفرض ضرائب جديدة ،
ويزيد مقدار الضرائب المفروضة فعلا .

ثم أمر تيودوسيوس ، أصحابه بترجم البطررك اغاثو بالحجارة
وقتلته : فكان هذا البطررك لا يخرج من قلايته (١٩٠) ليلا ولا نهارا .
ولما توفي البطررك اغاثو حفر تيودوسيوس على كل أمواله ، وعلى

جميع أموال الكنائس القبطية في الاسكندرية وختم عليها ، فانتشرت
المجاعة في المدينة واستمر الحال على ذلك حتى توفي
تيودوسيوس (١٩١) .

ويشيد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين بدور القبط الواضح
في الادارة والحكومة في ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ)
الذي اتخذ له كاتبين أرثوذكسيين هما : أثناسيوس (١٩٢) وأصله
من مدينة الرها ، والثاني يسمى اسحق من أهل شبرا (١٩٣) .

خدم هذان الكاتبان مصالح القبط ، ومصالح بطركهم
يوحنا (١٩٤) ، وعملوا على تحقيق كل آمالهم ورغباتهم بشأن
الكنائس وغيرها . وكان حاكم الاسكندرية تيودوسيوس - كما
ذكرنا - قد حصر على أموال الكنائس وأملأها بعد وفاة البطريرك
أغاثو ، فلما أقيم يوحنا بطركا ، بعث لأثناسيوس وزميله اسحق
يعلمهما بما أصاب القبط على يد حاكم الاسكندرية وما حل ببيعتهم
آنذاك . وتمكن هذان الكاتبان بما لهما من نفوذ وسلطان أن ينهيا
هذا الحجر ، فعادت جميع أملاك وأموال الكنائس القبطية الى البطريرك
يوحنا (١٩٥) .

ويبدو أن أثناسيوس قد تولى ديوان الخراج في عهد الوالي
عبد العزيز بن مروان . واستمر في اهتمامه بمصالح القبط
والكنيسة القبطية طوال عهده . فلما توفي البطريرك سيمون (١٩٦)
(في سنة ٦٩١ م) وأصبحت الكنيسة بدون راع لها ، طلب
أثناسيوس ومن معه من الكتاب القبط من الوالي عبد العزيز بن
مروان ، أن يرسل الأسقف اغريغوريوس الى الاسكندرية للتحفظ على
أموال الكنائس ورعاية شئونها (١٩٧) وأجاب عبد العزيز بن مروان
الكتاب القبط الى طلبهم ، وأنفذ اغريغوريوس الى الاسكندرية وكتب

له سجلا ، يفوضه التصرف فى أموال الكنائس ، وعهد ا
شئونها ، وقام اغريفوريس بهذه المهام نحو ثلاث سنوات

وكان أثناسيوس ينعت فى المكاتبات الرسمية بالكاهن
ويضم ديوانه عشرين كاتباً ، ثم زاد عددهم حتى و
كاتباً (١٩٩) . وزادت إيرادات أثناسيوس وأولاده . ف
دينار عن كل جنسى فى مصر ، الى جانب ما كان يحصل
أثناسيوس من الهدايا والأموال العظيمة من الوالى عبد
مروان (٢٠٠) . حتى بلغ ما يتقاضاه ستين ألف دينار سنو
وصارت كل شئون البلاد المصرية فى ولاية عبد العزيز بن
تحت تصرف كاتبه أثناسيوس (٢٠٢) . وأثرى أثناسيوس
ذلك كله ثراء كبيراً ، واتسعت أملاكه . فقبل انه
أربعة آلاف عبد ، الى جانب عدد لا يحصى من الضحايا
والهدائق ، ومقدار عظيم من الذهب والفضة (٢٠٣)
أثناسيوس غيورا على دينه ، متحمساً لمذهبه ، فشيّد
الكنائس بمصر خاصة فى القسطنطينية ، ومنها كنيسة ماد
وكنيسة أبى قير (٢٠٤) .

ولم يكن أثناسيوس واسحق هما الموظفان الوحيدان
الذمة فى حكومة عبد العزيز بن مروان ، اذ كان هناك
الكتاب القبط (٢٠٥) ، الى جانب بعض حكام الأقاليم
بطرس حاكم الصعيد ، الذى أسلم فى نهاية حكم عبد
مروان (٢٠٦) . وأيضاً كان حاكم مريوط مسيحياً الا أن
أتباع المذهب الملكانى (٢٠٧) . وهكذا تغلغل الذميون من
خاصه فى الأعمال الادارية والحكومية المختلفة .

ولذا فانه من العسير علينا أن نقبل ما ذهب اليه
الكتاب المحدثين ، من وصفهم سياسة عبد العزيز بن مروان

أهل الذمة عامة والقبط خاصة بالظلم والجور (٢٠٨) وقد رأينا كيف
أشرك عبد العزيز بن مروان القبط في إدارة البلاد ، وكيف عمل على
تحقيق مطالبهم المختلفة الى جانب السماح لهم ببناء الكنائس في
مدينته الجديدة حلوان (٢٠٩) .

ومن صور التسامح العربي الاسلامي ، وتغلغل الذميين في
شئون الادارة والحكم ما نلمسه في عصر قرة بن شريك (٩٠ -
٩٦ هـ) فقد كان يتولى ديوان الاسكندرية رجل من أهل النمة ، من
المسيحيين الملكانيين ويسمى نادر (٢١٠) . وكان هذا الحاكم
على عدااء شديد مع البطرك القبطي الاسكندروس (٢١١) .

وكان جباة الضرائب ، وحكام الكورات أيضا في عصر هذا
الوالي من القبط (٢١٢) . وقد عهد قرة بن شريك الى أحد القبط
ويدعى يونس بجباية الخراج من الرهبان والأساقفة وكان يونس
يتمتع بمكانة عظيمة لدى قرة وكبار رجال الحكومة المصرية في ذلك
العصر . وقد قال قرة بن شريك : « يجب أن تعلم أن الرهبان
والأساقفة الذين في سائر الأماكن قد نقل عليهم الخراج . وها هنا
أمر سهل منهم من هو مكثر ومنهم من لا يقدر على قوته . ونحن
نعرف حال سائر النصارى فان رأيت أن توليني أمرهم واستخرجت
الخراجات » فوله قرة بن شريك أمر خراج الرهبان والأساقفة وان
كان الواضح من هذه الرواية أنه ولاه أمر الجزية والخراج عامة ،
ويؤكد ذلك أن قرة بن شريك قد أوصى يونس أن يضاعف الجزية
على غير القبط (٢١٣) وهكذا رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف
الدولة في أيدي الذميين . على أن هذا النظام لم يكن من مميزات
حكومة قرة بن شريك أو العهد الأموي ، وانما كان من مميزات
النظام المالي الذي تركه البيزنطيون لخلفائهم العرب (٢١٤) .

وفى الوقت الذى نجد فيه بعض الولاة فى مصر يستخدمون الذميين فى شئون الحكم والادارة نجد بعض الخلفاء الأمويين ، يعارضون هذه السياسة ، وينهون ولاتهم فى مختلف الأقاليم الإسلامية عن استخدام أهل الذمة ، والاعتماد على المسلمين بدلا منهم . ومن هؤلاء الخلفاء عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) فقد كره هذا الخليفة - كما كره الخليفة العباسى المتوكل بعد ذلك - استعمال الذميين فى الادارة وأعمال الدواوين . وتعددت روايات المؤرخين حول تفسير سياسته واتجاهاته ولكن كتبه العديدة التى وجهها الى عماله فى مختلف الأقاليم الإسلامية ، جاء فيها توصيات بعدم استخدام أهل الذمة ، واحلال المسلمين محلهم . ويجدر بنا الإشارة الى بعض هذه الكتب ومنها : « أما بعد ، فإن المشركين نجس حين جعلهم الله جند الشيطان ، وجعلهم الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فأولئك لهم علة لعنة الله ، ولعنة اللاعنين . ان المسلمين كانوا فيما مضى ، اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك ، يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير ، فكانت لهم فى ذلك مدة ، فقد قضاها الله . . فلا أعلم كاتباً ولا عاملاً فى شئ من عملك ، على غير دين الاسلام الا عزلت واسنبدلت مكانه رجلاً مسلماً . فان محق أعمالهم محق أديانهم ، فان أولى بهم انزالهم منزلتهم ، التى أنزلهم الله بها من الذل والصغار ، فافعل ذلك ، واكتب الى كيف فعلت » (٢١٥) .

وهكذا أمر هذا الخليفة عماله باستخدام المسلمين ، فان لم يكن فيهم خير ، فغيرهم من الذميين أولى ألا يكون فيهم خير أيضا (٢١٦) . وكان والى مصر آنذاك حيان بن شريح ، الذى احتج لدى الخليفة بأن هذا الاجراء ، سيؤدى الى اعتناق معظم أهل الذمة فى مصر الاسلام ، مما ينتج عنه قلة الجباية ، مما يضر بموارد

الخزانة العامة (٢١٧) . وكان معظم الولاة حريصين على المحافظة على مستوى الإيرادات .

وأبدى عمر بن عبد العزيز سخطه على آراء واليه ، وبعث برسول ، وأمره بضرب حيان ثلاثين سوطا . كما أرسل إليه يأمره برفع الجزية عن أسلم من أهل الذمة ، وتمنى أن يسلم جميعهم على يديه « فان الله بعث محمدا داعيا ، لا جابيا » (٢١٨) .

واستجاب والى مصر لأوامر الخليفة ، فعزل الموظفين من أهل الذمة من مختلف الأعمال واستبدل بهم غيرهم من المسلمين ، كما أبعد أهل الذمة عن العمل فى المواريث ، كما نزع منهم رئاسة الكور المختلفة (٢١٩) .

وتشير الرواية القبطية الى أن عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله بمصر « من أراد أن يقيم فى حاله وبلاده ، فيكون على دين مذهب مثله ، ومن لا يريد يخرج من أعمالى » . فينزل القبط وغيرهم من الذميين من وظائفهم ، وجعل مكانهم المسلمين « ودخلت اليد على النصرارى من الولاة والمتصرفين المسلمين فى كل مكان كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم » (٢٢٠) .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك ، هل استمر الخلفاء والولاة ، بعد عصر عمر بن عبد العزيز فى انتهاج سياسة اقضاء الذميين عن المناصب الحكومية والادارية ؟

وفى الحقيقة أن الأوضاع قد عادت الى ما كانت عليه قبل خلافة عمر بن عبد العزيز واستمرت سياسة استخدام الذميين فى الادارة وأعمال السواوين ، فكان من بينهم الكتاب ورؤساء الأقاليم

وغير ذلك من الأعمال طوال عصر الولاة الأمويين في مصر ، بل وفي عصر الولاة العباسيين ، بتأييد من الخلفاء أنفسهم الا في حالات نادرة كما سنرى .

أحسن الخليفة العباسي المأمون (١٩٧ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م) معاملة أهل الذمة وخاصة القبط في مصر . فقد قدم الى مصر في سنة ٢١٧ هـ . وتقدم اليه أحد كبار رجال القبط ويسمى بكام ، وطلب من الخليفة أن يوليّه كورة بورة (٢٢١) فعرض عليه المأمون اعتناق الاسلام حتى يمكن له أن يعهد اليه بهذه الولاية . ولكن بكام كان متمسكا بدينه في الوقت نفسه الذي كان فيه شديد الحرص على الولاية ، فقال للخليفة المأمون : « لأمر المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم ، أفلا يكون له مولى واحد نصراني » . وعند ذلك عهد اليه المأمون بكورة بورة وما حولها (٢٢٢) .

أحسن بكام معاملة القبط ، كما أحسن معاملة المسلمين ، على حد سواء ، ولم يتحيز لآخوانه في العقيدة المسيحية ، فكسب بذلك محبة وود سكان الكورة على اختلاف مذاهبهم الدينية (٢٢٣) .

وفي عهد الخليفة المأمون أيضا ، كان يلى الديوان في مصر ، أحد القبط ويسمى اسحق بن أندونة ، ينتسب الى أسرة عريقة تشتهر بالشراء . وكان قد أمل في البطركية الا أن قانون البيعة قد حال بينه وبين تحقيق آماله (٢٢٤) .

وتشير بعض الروايات التاريخية الى أن المأمون حينما قدم الى مصر شكّا اليه المسلمون من تسلط الذميين عليهم ، وأن الخليفة سأل أحد أصحابه ، ويسمى عمرو بن عبد الله الشيباني عن أصل قبط مصر ، فأجابه بأن أصلهم يرجع الى فراعنة مصر القدماء وذكره

بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد نهى عن استخدامهم فى أعمال الحكومة والكتابة . ثم قرأ عليه قصيدة لـخالد بن صفوان ، مدح فيها عمرو بن العاص ، كما حرصه فيها ضد القبط وأغرام بهم ، وفيها يقول خالد بن صفوان :

يا عمرو قد ملكت يمينك مصرنا وبسطت فينا العدل والأقساطا
فاقتل بسيفك من تعدى طوره واجعل فتوح سيوفك الاقباطا
فيهم أقيم الجسور فى جنباتها ورأى الأنام البغى والافراطا (٢٢٥)

فلما عاد الخليفة المأمون الى بغداد أمر بعزل جميع الذميين من وظائفهم وسجن الكثير منهم (٢٢٦) . وان كنا لا نجد فى المصادر المصرية اشارة الى نهيه استخدام الذميين فى شئون الادارة والحكم .

استمر ولاية مصر فى العصر العباسى ، يستخدمون الذميين فى أعمالهم ، ويعتمدون عليهم فى ادارة البلاد . فقد قام كل من مقارة بن يوسف - وكان يتولى شئون بيت المال واستخراج الأموال - وابراهيم بن ساويرس ، بدور عظيم فى سياسة البلاد ، وذلك فى أثناء ولاية عبد الواحد بن يحيى الوزير (٢٣٦ - ٢٣٨ هـ = ٨٥١ - ٨٥٢ م) - وكان هذان الموظفان من القبط ، يرفعان من شأن اخوانهم فى العقيدة ، ويحققان لبطركهم رغباته بقدر المستطاع . وظهر هذا واضحا حينما أساء والى الاسكندرية ، أحمد بن دينار ، الى البطرك يعقوبى قزمان (٢٢٧) . فقد تقدم مقارة بن يوسف ، وابراهيم بن ساويرس الى والى عبد الواحد ، يطلبان منه استدعاء البطرك قزمان الى القسطنطينية بحجة أنه ولى البطركية حديثا ، ولا علم له بما على كنائسه من خراج (٢٢٨) .

واستجاب عبد الواحد لطلب هذين القبطيين ، وأرسل من يستدعى البطررك من الاسكندرية . فلما قدم الى القسطنطينية ، استقر الأمر على أن يسكن مدينة دميرة (٢٢٩) ، وجميع سكانها من القبط ، كما اهتم هذان القبطيان بأمور البيعة وتعهدا بضمان الخراج المفروض عليها (٢٣٠) . وهكذا نجح الموظفان القبطيان في انقاذ البطررك القبطي من يد والى الاسكندرية .

وظهر فى العصر العباسى بعض الكارهين لاستخدام الذميين فى المصالح الحكومية - كما حدث فى العصر الأموى من قبل - فقد حاد الخليفة العباسى المتوكل (٢٢٣ - ٢٤٧ = ٨٤٨ - ٨٦١ م) عن سياسة التسامح التى اتبعها معظم الخلفاء العباسيين فعانى أهل الذمة فى عصره من بعض المضايقات . فقد نهى المتوكل عن استخدام أهل الذمة فى دواوين الحكومة التى ترتبط بمصالح المسلمين (٢٣١) .

تعددت روايات المؤرخين حول سياسة المتوكل نحو أهل الذمة ، وكتبه الى عماله بضرورة اتباعها ، واقصاء الذميين عن مختلف الأعمال . وهناك كتاب للمتوكل فى هذا الشأن وفيه يوصى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية ، بأن يكون موظفونهم من أهل الأمانة والنصح ، وهو يرى أن هذه الخصائص لا تتوافر عند أهل الذمة ، فنراه فى هذا الكتاب يقول : « فأما الأمانة ، فليس أحد منهم مأمونا على أموال الفئ وأموال المسلمين ، لأنهم عداة الدين ونعاته . وأما النصيحة ، فغير موجودة عند من كان مقامه بين ظهرانى المسلمين على . . قهر وذلة وصغار » (٢٣٢) .

ونهى المتوكل فى كتابه هذا ، عن استخدام الذميين فى شئ من أمور المسلمين ، وأموالهم وتدبير خراجهم ، فلا يكون منهم فى

الدواوين الخاصة والعامة فى العاصمة والنواحي ، وأعمال الجبهة ، والمعادن والبريد وسبائر الأعمال (٢٣٣) . وفى الوقت نفسه اتخذ المتوكل فى كتابته بعض الحالات التى يمكن استخدام المسلمين لأهل الذمة . فيها فكتب : « من كان متقلدا لعمل من خاص أعمال أمير المؤمنين ونفقاته ، ولا يد له ، ولا سلطان على المسلمين * فان اقراره فى ذلك العمل ، ريث ما يؤخذ بما جرى على يده ، ويجار لمكان غيره من المسلمين ثم يصرف عنه ، وخلا من استعان به مستعين فى قهرمته ، وخاصة نفقات منزله وحشمه » (٢٣٤) .

كما هدد المتوكل عماله ، اذا تهاونوا فى تنفيذ ما جاء فى هذا الكتاب ، أو حاولوا الاغضاء عن أحد من أهل الذمة ، باخفاء أمره تحت اسم غيره من المسلمين (٢٣٥) . ونرى أن كل ما كتبه المؤرخون الأقدمون عن سياسة المتوكل ازاء أهل الذمة ، كانت كتابات عامة ، ولا نجد كتابات مفصلة - الا نزرا يسير - عن الاجراءات التنفيذية التى اتخذت فى هذا العصر فى مختلف الأقاليم الاسلامية .

ولى الخليفة المتوكل على مصر ، رجلا فارسيا مسلما يسمى عبد المسيح بن اسحق وجعل له الولاية والخراج ، وأمره أن ينتهج سياسة نحو القبط وكنائسهم مثل سياسته نحو النصارى فى بغداد والمشرق . فأنزل عبد المسيح بالقبط كثيرا من الاضطهاد ، وأخرجهم من الديوان ومن كثير من المصالح الحكومية ، وولى مكانهم موظفين من المسلمين (٢٣٦) .

ثم أمر المتوكل واليه على مصر ، ببناء المقياس الهاشمى للنيل ، وبمنع القبط من تولى أمره ، وأن يعهد بذلك الى المسلمين (٢٣٧) . ولكن هذه السياسة التى انتهجها المتوكل ، لم تدم طويلا ، وعاد ولاية مصر الى استخدام الذميين فى أعمالهم ، وفى إدارة البلاد .

وتشير بعض أوراق البردى الى استخدام القبط بصفة خاصة
فى تحصيل الجزية والخراج ، سواء أكان ذلك قبل عصر الخليفة
المتوكل أم بعده . فنجد وثقة بردية ، يرجع تاريخها الى ١٣ طوبة
سنة ٢٣٣ هـ (١٠ سبتمبر سنة ٨٤٧ م) جاء فيها أن
القسطال (٢٣٨) لكورنى الأشمونين وأسفل انصنا وقوص ، كان
قبطيا ويسمى مينا بن ابراهيم (٢٣٩) . وهناك بردية أخرى
مؤرخة فى سنة ٢٤٩ هـ (٨٦٣ / ٨٦٤ م) وفيها أن القسطال كان
قبطيا ويسمى ابن ابيهوه (٢٤٠) . كما تشير بعض أوراق البردى
الى أن رؤساء القرى فى القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى
كان كلهم من القبط تقريبا (٢٤١) .

والحقيقة أن القبط بصفة خاصة ، دون غيرهم من أهل الذمة ،
كان لهم دور واضح فى ادارة البلاد المصرية - كما ذكرنا - فكان
منهم الكتاب وعمال الدواوين وحكام الأقاليم وعمال ديوان الخراج .
وكانوا يستفيدون دائما من مناصبهم فى خدمة أخوانهم القبط ورعاية
كنائسهم ، وتوفير كل سبل الراحة لبطركهم . ونبحث فيما يلى
موقف ولاية مصر المسلمين فى ذلك العصر ، من اقامة البطارقة .

كان والى مصر له حق الاشراف على اختيار بطرك القبط .
باعتبار والى نائب الخليفة ، ورئيس الحكومة فى مصر . ويبدو من
النصوص التاريخية أن الأساقفة كانوا يستشيرون والى فى اختيار
البطرك الجديد ، كما أنهم كانوا يقدمون من الاسكندرية الى العاصمة
الاسلامية - القسطنطينية - بعد اختيارهم للبطرك ، لمقابلة والى مصر ،
وتقديم واجب التحية له . وكانت موافقة والى على البطرك الجديد ،
شرطا ضروريا لاتمام رسامته بطركا .

وهناك أمثلة عديدة ، منها ، ما حدث فى ولاية عبد العزيز بن
مروان ، عندما توفى البطرك يوحنا (٦٧ هـ - ٦٨٦ م) فقد اجتمع

الأساقفة والكهنة والقبط بالاسكندرية واتفقوا فيما بينهم على ترشيح الشماس جرجه ، بطركا دون مسورة الوالى عبد العزيز بن مروان كالعادة ، وأنه اذا اعترض على ذلك ، يخبرونه بأن البطررك يوحنا كان قد أوصى به أن يكون بطركا من بعده ، وأنه لا يمكن مخالفة هذه الوصية . وبالفعل عينوا جرجه فى درجة قسيس ، والبسوه النياب الخاصة بذلك وقرروا رسامته بطركا فى غد ذلك اليوم (٢٤٢) .

ومن محاسن الصدق ، أن اليوم الذى تقرر تنصيب القس جرجه فيه بطركا ، لم يكن يوم أحد ، وقد جرت العادة بين القبط على أن يتم تعيين بطاركتهم فى يوم الأحد دون غيره من أيام الأسبوع . وقد أدرك ذلك أرش ديقن (٢٣٤) المدينة ، ويسمى مرقص ، فمنعهم من تنفيذ رغبتهم فى رسامة جرجه بطركا ، فى غير يوم الأحد ، حتى لا يخالف القوانين الكنسية التى جرت العادة بمراعاتها واتباعها (٢٤٤) . وفى ذلك اليوم قدم الى الاسكندرية ورسل الوالى عبد العزيز بن مروان ، وطلبوا من الأساقفة والكهنة وبطاركتهم المرشح ، الرحيل معهم الى القسطنطينية لمقابلة الوالى عبد العزيز ، ولكن ما لبث أن اكتشفت حقيقة الأمر ، وفطن الجميع الى أن جرجه ، ليس هو الذى أوصى به البطررك يوحنا ، اىكون خلفا له ، وإنما الأب اسحق . فغضب عبد العزيز بن مروان لذلك أهمل الغضب ، وأبطل تعيين جرجه ، وأمر بإقامة الأب اسحق بطركا بدله (٢٤٥) .

وبعد وفاة البطررك اسحق ، حدث خلاف بين الأساقفة والكهنة والشعب القبطى على من يصبح بطركا بعد وفاة الأب اسحق . فرأى قوم منهم ، أحقية يوحنا ، وكان راهبا بدير الزجاج ، كما كان رجلا عالما كاتباً . فى حين اختار الآخرون الأب بقطر ، وكان

أيضا ممن اشتهروا بالفضل والعلم (٢٤٦) . ورجحت كفة الفريق الأول ، فقد كان من بينهم أعضاء الكنيسة الانجيلية التي تضم مائة وأربعين كاهنا . فكتب حاكم مدينة الاسكندرية تادرس الى والي عبد العزيز بن مروان ، يخبره باتفاق القوم على اختيار الأب يوحنا بطركا لهم (٢٤٧) . مما يسبت ضرورة موافقه والي مصر على تنصيب البطرک الجديد . وتوجه تادرس وفي صحبته البطرک المرشح وبعض الكهنة الى القسطنطينية - كما جرت العادة - للمقابلة والى وتقديم الولاء والتحية له . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد اعترض أحد الأساقفة على اقامة يوحنا بطرکا ، مما أصاب الجميع بذهول عظيم . فلما سأل الأمير هذا الأسقف ، عمن يصلح لهذا المنصب ، رشح الأب سيمون (٢٤٨) .

علم عبد العزيز بن مروان أن الأب سيمون هذا ، من أصل سرياني ، من أهل المشرق . فقال للأساقفة المجتمعين : « فما تقدروا أنتم أن تقيموا واحدا من بلادكم » فأعلموه أنه لا يوجد أفضل من يوحنا ، وأنهم يختارونه بطرکا لهم ، وأن الأمر لله وللوالى . وسأل عبد العزيز سيمون عن رأيه في الأب يوحنا ، فأجابه : « ما يوجد في كورة مصر ، ولا في المشرق من يستحق مثل هذا ، وهو أبى الروحاني ، ورباني من صغرى ، وسيرته سيرة الملائكة » . وانتهى الأمر باتفاق الأساقفة والكهنة وغيرهم من الحاضرين على اقامة سيمون بطرکا لهم ، ووافق والي عبد العزيز على رأيهم (٢٤٩) .

وكان قد حدث بعد وفاة الأب سيمون (٨٢ هـ = ٨٠١ م) أن خلا كرسى البطرکية ثلاث سنوات ، وتولى شئون الكنيسة خلالها الأسقف اغريغوريوس . وفي ختام هذه السنوات الثلاث ، اتفق الأساقفة والكهنة على ترشيح القس الاكسندروس بطرکا ، وكان راهبا بدير الزجاج ، عالما بالكتب . وطبقا للعادة المتبعة ، قدم القوم

معه الى الوالى عبد العزيز بن مروان الذى أجابهم الى رغبتهم ، ووافق على اختيارهم ، وأقيم هذا القس بطركا فى عيد القديس مارى مرقص فى (٨٦ = ٧٠٥ م = ٤٢٠ ش) (٢٥٠) .

وتحفظ لنا النصوص التاريخية مثلا آخر ، لتدخل الولاة فى اختيار البطرک ، وضرورة موافقتهم على اقامة البطرک الجديد . فلما تولى حفص بن الوليد حكم مصر - للمرة الثانية - (١٢٥ هـ = ٧٤٣ م) - فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك - اجتمع اليه الأساقفة والكهنة من جميع أرجاء مصر ، وسألوه أن يأذن لهم فى اقامة البطرک . فأذن لهم حفص ، بترشيح من يرونه يصلح لهذا المنصب ، واشترط عليهم أن يلقاه قبل أن يتم تعيينه بطركا . ولكن حدث بين الأساقفة والكهنة ، اختلاف فى رأى كاد يودى بالكنيسته القبطية (٢٥١) .

وانتهى الأمر ، باختيار القس خيال - ويسمى أيضا كييل - ليكون بطركا . وكان قسا فى بيعة القديس أبى مقار . وبادر المجتمعون الى حفص بن الوليد ليعلموه بما تم بينهم ، وأعطاهم كتابا ، يطلب فيه من شيوخ وكهنة وادى هبيب ، تسليم القس خيال اليهم . ثم أذن لهم باقامته بطركا بعد قدومهم به اليه (٢٥٢) .

وهكذا كان لوالى مصر حق التدخل فى اقامة البطرک الجديد طوال العصر الأموى . وذكرنا من الأمثلة ما يوضح ذلك ويؤكد . ونجد فى العصر العباسى أيضا من الأمثلة ما يؤكد استمرار هذا الحق لولاة مصر .

لما توفى البطرک يوحنا فى ولاية الليث بن الفضل على مصر (١٨٢ - ١٨٧ هـ = ٧٩٨ - ٨٠٣ م) - فى عهد الخليفة هارون

الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م) اجتمع الأساقفة والكهنة الأرثوذكس بالاسكندرية ، واتفقوا على ترشيح القس مرقص بطركا ، وكتبوا بذلك الى الأب خيال أسقف مصر (٢٥٣) .

ثم قدم انبا خيال علي الوالي وفي صحبته جميع الرؤساء القبط ليخبره بما حدث ، ويلتمس منه الموافقة على اقامة القس مرقص بطركا . فأمر الوالي بكتابة اسمه في الديوان وأذن لهم في قسمته بطركا لهم (٢٥٤) .

وتذكر المصادر التاريخية ، منلا آخر ، لدور الولاة العباسيين في اقامة البطرك الجديد . فبعد وفاة الأب سيمون الثاني (٢١٥ / ٢١٦ هـ = ٨٣٠ / ٨٣١ م) بدأ أهالي الاسكندرية يفكرون فيمن يتولى البطركية بعده . وطمح في البطركية صاحب ديوان مصر اسحق السيد بن اندونة ، وكان فاحش الثراء ، ووعد حاكم الاسكندرية عبد الله بن زيد بألف دينار ، اذ ساعده في اقامته بطركا للقبط (٢٥٥) .

وكانت اقامة اسحق بطركا ، أمرا يخالف قانون الكنيسة القبطية في ذلك الوقت لأنه كان علمانيا ، ومتزوجا . فرفض الأساقفة تنصيبه ، واستقر رأيهم على ترشيح القس يوساب - أحد رهبان دير أبي مقار - وطلبوا من عبد الله بن زيد حاكم الاسكندرية الموافقة على تنصيبه بطركا ، الا أنه رفض ذلك طمعا فيما وعده به اسحاق من منحه ألف دينار (٢٥٦) .

وغضب الأساقفة من موقف عبد الله بن زيد منهم ، وهددوه بالرحيل الى والى مصر بالفسطاط ، ليحقق لهم رغبتهم . وانتهى الأمر بموافقة والى الاسكندرية على اقامة الأب يوساب بطركا في

٢١ هاتور سنة ٥٤٧ ش (٢٥٧) = (٢١٦ هـ - ٨٣١ م) .
ونستخلص من هذه الرواية أن والى الاسكندرية كان يحل محل
والى مصر فى الموافقة على اقامة البطرك وان كنا لم نلمس ذلك فى
عصر الولاة الأمويين . ونستخلص أيضا أن والى المسلم فى هذا
العصر لم يكن يشترط رؤية الشخص المرشح للبطركية قبل
قسمته ، كما كان الحال فى العصر الأموى .

وبعد أن تحدثنا عن دور القبط - بصفة خاصة - فى أعمال
الحكومة والادارة ، وما كان من دور ولاية مصر المسلمين فى اختيار
بطركهم ، نتساءل عن موقف الولاة المسلمين من كل من المذهبين
المسيحيين فى مصر . الملكاني واليعقوبى ؟ وهل كان هؤلاء الولاة
ينتصرون لليعاقبة دون الملكانيين ؟ أم كانوا يعدلون بين الفريقين ؟

كان عمرو بن العاص - عقب فتح مصر - قد كتب أمانا
للبطرك اليعقوبى بنيامين فعاد الى كرسيه ، بعد أن غاب عنه ثلاث
عشرة سنة . ويصف المقرئ (٢٥٨) أثر ذلك فيقول : « فغلبت
اليعاقبة على كنائس مصر ، ودياراتها كلها ، وانفردوا بها ، دون
الملكانيين » .

ومما لاشك فيه ان القبط اليعاقبة كانوا قد تنفسوا الصعداء
بعد زوال حكم الرومان ، وقيام الحكم الاسلامى فى مصر ، نتيجة
لما قاسوه من الاضطهاد والظلم فى عهد الرومان . وكان طبيعيا أن
يتقرب القبط من الحاكم العربى ، حتى يقوى أمرهم على الملكانيين ،
خصومهم فى المذهب ، فقد جاء الوقت لتكون فيه كفتهم هى
الراجحة .

وكان أكثر سكان مصر آنذاك من القبط اليعاقبة ، وقد أحسن
عمرو والمسلمون اليهم كثيرا ، وتوددوا اليهم أكثر من الملكانيين
اتباع كنيسة القسطنطينية وهم أقلية قليلة ، وقد ضعف أمرهم

بزوال حكم الرومان فى مصر • وقد سار خلفاء عمرو بن العاص على نفس منوال هذه السياسة • فنرى مسلمة بن مخلد يأذن للقبط ببناء كنيسة لهم فى القسطنطينية - العاصمة الاسلامية - كما أن عبد العزيز بن مروان لما نقل عاصمته الى حلوان ، اختار دير طمويه للإقامة فيه فترة من الوقت للاستشفاء ، ودفع لرهبان الدير عشرين ألف دينار مقابل ذلك (٢٥٩) •

وانتصر المسلمون غالبا للقبط اليعاقبة على الملكانيين • وأخذ القبط كثيرا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد خصوهم الملكانيين • كما انتهزوا فرصة حسن علاقاتهم بالمسلمين لكى يجذبوا بعض الملكانيين الى مذهبهم (٢٦٠) • تم حدث فى ولاية قرّة بن شريك على مصر ، أن فرضت على الملكانيين جزية مضاعفة • ذلك أن قرّة بن شريك عهد الى أحد القبط ويسمى يونس ، بتحصيل الخراج من الرهبان والأساقفة • فلما سأل يونس ، قرّة بن شريك عما يفعله بشأن المسيحيين غير اليعاقبة ، قال له قرّة : « افعل بهم بناموس النصارى - أى القبط - وأضعف الجزية عليهم » (٢٦١) •

ومع ذلك احتفظ بعض الأساقفة الملكانيين بمذهبهم حتى وفاتهم ، دون تدخل فى حياتهم أو ايذاء • وبالرغم من أن بعض البطارقة الأرثوذكس كان يستحيل الناس الى مذهبهم بالدهماء والاقناع ، فان عددا من المصريين ظلوا على المذهب الملكانى (٢٦٢) وان كان ذلك لا يعنى أن كلا من الفريقين ، قد تمتع بنفس الميزات • فقد تأرجحت الكفتان تبعا للظروف وسياسة الولاة • ولم يكن احتفاظ الأساقفة الملكانيين وبعض المصريين بمذهبهم ، يدل على أن الولاة المسلمين كانوا مناصرين للملكانيين • ويمكن أن نقول ، بصفة عامة ان الولاة المسلمين قد منحوا كلا من الفريقين الحرية الدينية •

كان الملكانيون في مصر ، طوال عصر الولاة ، ليس لهم بطرك
الا في فترات محدودة - بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة للقبط
اليعاقة . ونذكر فيما يلي الفترات التي تمتع فيها بعض الملكانيين
بالحرية ، وبعض النفوذ والسلطان .

استطاع تاوضوسيو ، أحد الملكانيين الخلقدونيين - في خلافة
يزيد بن معاوية - أن يستصدر من الخليفة سجلا يمنحه السلطة
والحكم على الاسكندرية ومريوط وما يليهما ، بحيث لا يكون لوالى
مصر ، سلطان عليه ، وقد توصل الى ذلك بعد ان أدى مبلغا عظيما
من المال للخليفة يزيد . فتسلط هذا الحاكم الملكاني على القبط
وبطركهم أغاتو وفرض عليه الغرامات المالية ، ثم حجر على أموال
الكنيسة القبطية وأملأها بعد وفاة البطريرك أغاتو (٢٦٣) .

كما اتخذ عبد العزيز بن مروان - في أثناء ولايته على مصر -
قراشين له من الملكانيين . واما انتقل من القسطنطينية الى حلوان ،
واتخذها عاصمة له ، سمح لهؤلاء الملكانيين ببناء كنيسة لهم في
هذه العاصمة الجديدة (٢٦٤) .

وتمكن الملكانيون في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٨ -
٩٦ هـ = ٧٠٧ - ٧١٥ م) من أن يقيموا بطركا ملكانيا لهم ،
يسمى أنوسين ، وكان يعمل طبيبا . ويبدو أنه لم يبق في منصبه
طويلا فقد تمكن أحد الملكانيين وبدعى نسطاسيوس ، من أن يتولى
بطركية الملكانيين في مصر ، بعد أن دفع مبلغا عظيما من الأموال
لوالى مصر قرّة بن شريك . الا أنه في نهاية الأمر ترك مذهبه
الملكاني وتحول الى المذهب اليعقوبي وصار أسقفا للقبط (٢٦٥) .

كذلك نجد الخليفة هشام بن عبد الملك ، بعد أن تم الاتفاق
بينه وبين الامبراطور البيزنطي (٢٦٦) ، يسمح للملكانيين في

مصر ، باقامة بطرك لهم • وتم اختيارهم للأب قزما ، الذى أقام
فى كرسى البطركية الملكانية ثمانى وعشرين سنة (٢٦٧) . وكان
قزما أميا لا يعرف القراءة ، ولا الكتابة ، ويعمل فى صناعة الأبر •
ولما ولى البطركية للملكانيين خرج من الاسكندرية وقصد الخليفة
هشام فى دمشق ، وطلب منه ان يعيد للملكانيين الكنائس التى
استولى عليها اليعقوبيون فى مصر • فعهد الى واليه بمصر عبيد الله
ابن الحبحاب ، أن يسلم للبطرك قزما ، كل ما بيد اليعاقبة القبط
من الكنائس الملكانية (٢٦٨) •

ووقع خلاف بين الملكانيين واليعاقبة فى مصر ، فى خلافة
مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ = ٧٤٥ - ٧٥٠ م) - آخر
الخلفاء الأمويين - وكان يتولى حكم مصر آنذاك عبد الملك بن مروان •
وكان هذا الخلاف حول أحقية كل فريق منهما ، فى ملكية كنيسة
أبى مينا بمريوط • وتولى عبد الله الفصل بينهما فى هذا الخصام ،
وكان بطرك القبط فى ذلك الوقت هو الأب خيال ، فى حين كان
بطرك الملكانيين الأب قزما (٢٦٩) •

قضى كل من الفريقين ، اليعاقبة والملكانيين ، صوم الأربعين ،
وهم يترددون على قصر الوالى عبد الملك ، كل يوم من الصباح الى
آخر النهار ، حتى يفصل بينهم ، ويحكم بأحقية أى فريق منهما
للكنيسة دون الفريق الآخر ، وانتهى الأمر بأن عهد عبد الملك الى
صاحب الديوان ويسمى يسا بن يمن ، أن يحكم بين الفريقين ،
ويدرس حجج كل منهما (٢٧٠) •

أمر يسا ، صاحب الديوان ، كل فريق بكتابة حججه وآرائه
فى أحقيته فى ملكية الكنيسة الا أن الملكانيين أغدقوا عليه الهدايا
والأموال ، طمعا فى أن يحكم لهم يسا ، بأحقيتهم للكنيسة على حين

تقدم البطررك خايل ، بالحجج التي تبرر أحقيته للكنيسة ، وتحدث
عن تاريخ بنائها ، وكان كتابه الى صاحب الديوان ، باللغتين العربية
والقبطية . واستمر التحكيم بين الفريقين شهرا كاملا دون الوصول
الى قرار حاسم (٢٧١) .

فلما ولي الديوان القاضي أبو الحسين وتولى التحكيم بين
المتخاصمين ، نيابة عن الوالى . سأل كل فريق عن رئيسه الدينى ،
وأصل عقيدته ، واطلع على الكتب التي قدموها ، لسلفه الذى كان
يتولى التحكيم بينهم . ويبدو أنه أدرك عدم أحقية الملكانيين فى
الكنيسة ، لأنه طلب من الفريقين ، تقديم حجج وأساليب
أخرى (٢٧٢) . وحاول الملكانيون ، وفى مقدمتهم البطررك قزما ،
أن يتفقا مع اليعاقبة ، على ما يرضى كلا من الفريقين . كما تحول
بعض الملكانيين ، ومنهم قسطنطين أسقف مصر الملكانى ، الى المذهب
اليقوبى (٢٧٣) .

ثم جمع القاضي أبو الحسين ، الفريقين المتخاصمين ، وحضر
الاجتماع أصحاب الدواوين والكتاب ووجوه القوم ، ليصدر القاضي
حكمه النهائى فى هذا الخصام . فطلب من البطرركين أن يقسم كل
منهما بأحقية فى الكنيسة . فرفض ذلك أنبا خايل ، فى حين أقسم
الأب قزما . ثم سأل كليهما عن شهودهما . فأجاب الأب خايل ، أن
هذه البيعة ، بنيت منذ ثلاثمائة وخمسين سنة ، وأن القائمين على
بنائها ، هما تاوفيلس وطيماتاوس واسمهما مكتوب على الكنيسة .
فلما تأكد القاضي من صندوق البطررك خايل ، وضع حدا لهذه
الخصومة ، وحكم بأحقية القبط اليعاقبة فى كنيسة أبى مينا بمريوط
دون الملكانيين (٢٧٤) . وهكذا انتصر اليعاقبة وتسلموا بيعتهم ،
وهم فرحون ، مسرورون .

تم كان العصر العباسي ، وفي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٣ - ٧٧٥ م) ، أصبح بلطيان بطركا على الملكانيين . وكان طبيبا حاذقا ، وتولى كرسى البطركية سنتا وأربعين سنة . وعظم نفوذه في عهد الخليفة هارون الرشيد واسترد كثيرا من الكنائس المملكانية ، بأمر من الخليفة نفسه (٢٧٥) .

كان والى مصر عبيد الله بن المهدي (١٧٩ - ١٨٠ هـ = ٧٩٥ - ٧٩٦ م) قد أهدى الخليفة هارون الرشيد ، جارية مصرية . فمرضت ، وطلب الخليفة أحد أطباء مصر لعلاجها ، فبعث اليه عبيد الله ، بلطيان البطرک المملكاني المعروف بمهارته في الطب ، ونجح هذا البطرک في علاج جارية الخليفة . فسر لذلك الرشيد ، وأعطى بلطيان كثيرا من الاموال والهدايا ، كما كتب له منشورا ، يحق له بمقتضاه ، استرداد الكنائس المملكانية من أيدي اليعاقبة (٢٧٦) .

ولما توفي البطرک المملكاني بلطيان ، أقيم مكانه الأب أسطاط ، بطركا للملكانيين في مصر . ثم خلفه ، خرسطوفور ، الذي تولى منصبه ، اثنتين وثلاثين سنة (٢٧٧) .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك ، هل كان الذميون يعيشون في أمن وسلام ، طوال عصر الولاة ؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقول انهم تعرضوا ، أحيانا لبعض المضايقات في عهد بعض الولاة الأمويين أو الولاة العباسيين .

ويرى بعض الكتاب المحدثين أن الشروط التي اشترطها عمر ابن الخطاب ، في العهد الذي منحه لأهل الذمة ، كانت نواة هذه المضايقات ، وأساسا اعتمد عليه بعض الخلفاء والولاة في التشديد

على الذميين ، والتضييق عليهم . فالخليفة عمر بن الخطاب ، هو أول من وضعهم فى مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين فأمر أن تختتم رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا . مما أدى أحيانا الى تعرض أهل الذمة الى بعض المضايقات (٢٧٨) .

والحقيقة أن عمر بن الخطاب قد اشترط على أهل الذمة بعض الشروط ، التى تتضمن تحديد شكل الملابس . وطريقة الركوب ، فقد اشترط عليهم لبس الزنار ، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ثيابهم ، وسروجهم ، ونعالهم ، وأن تكون قلانسهم مضربة ، ومنع نساءهم من ركوب الرحائل (٢٧٩) . ولكننا نرى أن الخليفة أراد بذلك سهولة التمييز بين أهل الذمة والمسلمين فيكون لكل من الفريقين زى خاص ، كما أراد تشجيع أهل الذمة على اعتناق الاسلام . كما أن قرارات عمر بن الخطاب هى فى الحقيقة تتناول مسائل شكلية ، فى حين أطلق عمر الحرية الدينية لأهل الذمة ، وأمر بحمايتهم ، والتخفيف عنهم .

ويمكن القول أيضا أن هذه الشروط لم تكن أساسا لما تعرض له الذميون من مضايقات فى جميع الأحوال . بل كانت هناك بعض الظروف والأحداث العرضية التى قد تسبب سوء التفاهم ، بين بعض الولاة والذميين . فقد كانت العادة المتبعة فى ذلك العصر ، أن يخرج البطريرك لتهنئة الوالى الجديد ، كما جرى العرف أن يخرج البطريرك لاستقبال الوالى اذا قدم الى مدينة الاسكندرية . واذا أهمل البطريرك القيام بهذه الواجبات ، بدأت السعيايات ، للايقاع بين الوالى والبطريرك ، وينعكس سوء العلاقات بين الرجلين على سائر أهل الذمة .

وهناك أمثلة كثيرة على هذه الأحداث العرضية ، نذكر منها :
ما حدث في ولاية عبيد العزيز بن مروان ، حينما قدم الى
الاسكندرية ، ولم يخرج البطررك يوحنا لاستقباله والسلام عليه ،
وعند ذلك سعى به قوم من الملكانيين ، وأوغروا صدر عبد العزيز ،
اذ زعموا له أن البطررك لم يخرج للقاءه ، لتكبره ، وجبروته ،
ولاتساع ثرائه (٢٨٠) .

ونغضب عبد العزيز على البطررك أشد الغضب ، واستدعاه ،
وعنفه ، وفرض عليه غرامة مالية قدرها مائة ألف دينار . وعهد
به الى رجل يدعى « سمد » ويشتهر بالقسوة حتى يعذبه ، حتى
الموت ليرغمه على أداء الاموال للوالى . وهدد سمد البطررك يوحنا ،
اذا لم يدفع المبلغ المطلوب عنه ، بأنه يلبسه ملابس يهودى ، ويلطخ
وجهه بالرماد ، ويطوف به أنحاء المدينة . وانتهى الأمر بقبول
البطررك يوحنا دفع مبلغ عشرة آلاف دينار (٢٨١) .

علم الكتاب والمتصرفون القبط بالاسكندرية ، بأن الغرامة
المالية المفروضة على البطررك يوحنا قد خفضت الى عشرة آلاف
دينار ، فأبدوا سرورهم ، وطمأنوا البطررك بأن الاساقفة وكتاب
الدواوين سيتحملون سدادها ، وتعهدوا للوالى عبد العزيز بن
مروان بذلك ، فأطاق سراح البطررك يوحنا ، وعم القرح والسرور
قلوب القبط الارثوذكس (٢٨٢) .

صار للبطررك يوحنا منذ ذلك الحين ، مكانة عظيمة عند والى
مصر عبد العزيز بن مروان ، الذى أمر « أن لا يخاطب أحد البطررك ،
الا بالخطاب الحسن ، ولا يذكر فيه كلمة سوء ، ولا يعترضه أحد
فيما يريد ، ولا فى خروج ولا فى دخول فى المدينة » . وأدى البطررك
بمساعدة الكتاب والرؤساء القبط ، المبلغ المطلوب منه ، كما ساعده

عبد العزيز ، في بناء كثير من الكنائس ، وبناء طاحون كعك ،
ومعصرة زيت ، ودور كثيرة جعلها لبيعه الفديس مرقص (٢٨٣) .

تعرض القبط وبطركهم مرة أخرى في ولاية عبد العزيز بن
مروان ، لبعض الأذى والضيق فقد كانت كنيسة الحبشة والنوبة
تابعين للكنيسة القبطية بالاسكندرية ، فلما وقع سوء التفاهم
بين ملكي البلدين ، رأى البطررك القبطي اسحق ، أن يكتب اليهما
ليزيل ما بينهما من سوء تفاهم . فسعى قوم بالبطرك لدى
عبد العزيز ، فاشتد غضبه ، وأمر باحضار البطررك ليقتله حتى
يحول بينه وبين الاتفاق مع ملكي دولتين أجنبيتين ، مما يضر
بمصالح مصر (٢٨٤) .

ويادر الكتاب القبط ، بتحرير كتب أخرى ، غير التي كتبها
البطررك ، وأعطوها للرسول المبعوثين الى ملكي الحبشة والنوبة ،
واسسندوا الكتب الأولى التي كتبها البطررك تم أخيروا الأمير
عبد العزيز ، بأنهم استدعوا رسل البطررك واستردوا منهم الكتب
التي كانوا يحملونها الى ملكي الحبشة والنوبة ، وقرأ عبد العزيز
الكتب ، فلم يجد فيها شيئا يضر مصالح البلاد ، فهدأت ثورته
وأطلق سراح البطررك (٢٨٥) .

وتذكر الرواية القبطية أن الوالي عبد العزيز بن مروان ،
قد أساء - آنذاك - الى القبط وبطركهم ، اذ أمر بكسر جميع الصليبان
في كور مصر ، سواء أكانت من الذهب أم الفضة كما كتب عدة
رقاع ، جعلها على أبواب كنائس مصر جميعها ، وفيها : « معجده
الرسول الكبير الذي لله وعيسى أيضا رسول الله ، وان الله لم
يلد ولم يولد » (٢٨٦) .

وكان الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، يلى كثيرا من أمور مصر فى ولاية أبيه . وكان يحوذ طاعة الجميع . الا أنه كان مبغضا أشد البغض للقبط ، ينزل بهم كل أذى ممكن . وقد اختصن شماسا يسمى بنيامين ، وكان يظهر للأصبغ جميع أسرار القبط ، كما ترجم له الانجيل وكتب القيامة وغيرها من الكتب الدينية الخاصة بالقبط الى اللغة العربية . وكان الأصبغ يحرص أشد الحرص على قراءتها ، ليقف على ما جاء فيها عن الاسلام والمسلمين . واستمر الأصبغ على موقفه العدائى من القبط (٢٨٧) .

وجد الملكانيون المخالفون للعقيدة الارثوذكسية الفرصة سانحة أمامهم للايقاع بخصومهم فقدموا كل مساعدة ممكنة للأصبغ للايقاع بالقبط ، وحرصوه على رهبانهم ، وذهبوا الى أنهم يملكون أموالا وأملاكا كثيرة . فأمر الأصبغ باحصاء الرهبان فى جميع أنحاء البلاد المصرية ، وفرض عليهم الجزية لأول مرة فى مصر الاسلامية ، ومنع الأديرة من قبول رهبان جدد . كما ألزم اساقفة فى مختلف الأقاليم بدفع ألفى دينار ، زيادة عن خراج وساياهم . وساعد الأصبغ فى تنفيذ سياسته نحو القبط ، الراهب بنيامين الذى كان أكثر عدا للقبط من الأصبغ . وأمام هذه الشدائد اضطر كثير من القبط ، الى ترك دينهم المسيحى واعتناق الاسلام (٢٨٨) .

وتعرض القبط أيضا لبعض المضايقات فى ولاية عبد الله بن عبد الملك الذى ولى مصر بعد عبد العزيز بن مروان (٨٦ - ٩٠ هـ = ٧٠٥ - ٧٠٩ م) فقد انتهج هذا الوالى سياسة اضطهاد القبط ، ولجأ أحيانا الى وسائل التعذيب ، وإلى القتل أحيانا أخرى (٢٨٩) . وتصف بتشر (٢٩٠) فترة حكم هذا الوالى ، بأنها فترة شؤم ، على القبط منها ، فى حين كانوا ينتظرون منه العدل والانصاف ، ولكنه خيب ظنهم .

جرت العادة - كما ذكرنا - على أن يخرج البطرك من
الاسكندرية ، الى القسطنطينية ، المسلم على الولى الجديد وتهنئته .
فلما ولى عبد الله ولاية مصر ، خرج اليه البطرك الاسكندروس
لتهنئته بامارة مصر والسلام عليه . ففرض عبد الله على البطرك
غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار ، وسلمه لأحد حبابه ، وأمره
بإيادته والتضييق عليه ، حتى يسدد هذه الغرامة (٢٩١) . وحاول
القبط تخفيض مقدار هذه الغرامة ، ولكن دون جدوى . وانتشر
القلق بين عامة القبط والرهبان والأساقفة ، حتى اضطر أحد
الشماسه أن يطلب من الولى عبد الله ، أن يسلمه البطرك ،
ليتجول به فى مدن الوجه البحرى لجمع المبلغ المطلوب من القبط
ورؤسائهم فى هذه البلاد واستجاب الولى لطلب الشماس وانتهى
الأمر ، بأن سدد البطرك الغرامة المالية (٢٩٢) .

وكان عبد الله يأمر أعوانه ، بأن يجمعوا له الأساقفة والرهبان ،
فيسخر منهم ، ويسمعهم ما لا يحبون . وكان يقول لهم : « أنتم
عندى مثل الرومان ، ومن قتل منكم واحدا ، غفر الله له ، لأنكم
أعداء الله » (٢٩٣) .

وبعد عبد الله ، تولى حكم مصر ، من هو أشد منه قسوة ،
فقاسى القبط فى عهده كثيرا من الشدائد ، وهو الولى قره بن
شريك (٩٠ - ٩٦ هـ = ٧٠٩ - ٧١٥ م) الذى أساء معاملة
أصحاب عبد الله ، والقبط ، والمسلمين ، على حد سواء . وسجن
كثيرا منهم ، كما ضيق على البيع والرهبان (٢٩٤) .

حدث عندما قدم قره بن شريك الى مصر ، أن خرج البطرك
الاسكندروس - كما جرت العادة - للسلام عليه وتهنئته . ولكن
قره بن شريك ألزمه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار ،

كما دفع من قبل لسلفه عبد الله . وأصر قررة على طلبه ، على الرغم من أن البطرك أكد له ، أنه لا يمتلك منها شيئا ، بل انه لا يقدر على أداء خراج الكنائس ، وأنه انما جمع المبلغ الذى دفعه لسلفه من عامة القبط وغيرهم (٢٩٥) .

اضطر البطرك أمام اصرار والى مصر على دفع الغرامة التى حددتها ، الى التجول ثانية فى مدن وقرى الصعيد ، ليجمع من القبط ما يقدرون على دفعه اليه . وقد رحب به شعب الصعيد ترحيبا كبيرا ، لأنه البطرك الوحيد الذى زار الصعيد منذ عهد بنيامين وتمكن البطرك من دفع ألف دينار لقررة بن شريك ، بعد سنتين ، لحقه فيها كثير من الضيق (٢٩٦) .

ولم تنته المضايقات التى سببها والى مصر قررة بن شريك للبطرك القبطى الاكسندروس عند هذا الحد . اذ ما لبث أن أوقع بعض المغرضين بالبطرك ، فقد أبلغوا قررة بن شريك بأن لدى هذا البطرك من يضربون له الدنانير . فقبض قررة على البطرك وأغلق البطركية ، وعاقب البطرك وأصحابه أشد عقوبة . ولما ثبت بطلان هذه السعاية وكذبها ، أطلق سراحهم ، وأمر بفتح البطركية (٢٩٧) .

ثم حدث بعد ذلك ، أن تار كهنة الاسكندرية وقبضوها على البطرك ، وألزموه بدفع رسوم مالية لهم ، الا أنه لم يكن لديه الأموال الكافية للاستجابة لطلبهم ، فأساءوا اليه وأهانوه ، وحاول البطرك الدفاع عن نفسه ، فقال لهم ، ان أموال الكنائس قد نهبها الوالى قررة بن شريك ، حتى انهم أصبحوا فى القداس يستخدمون كاسات من الزجاج بدلا من الكاسات الذهبية والفضية (٢٩٨) .

وكان الوالى أسامة بن زيد (٩٦ - ٩٩ هـ = ٧١٥ - ٧١٨ م) أشد قسوة ممن سبقه من ولاة مصر فى العصر الأموى ،

كما كان أبغضهم للقبط خاصة . فقد أمر بعدم ترهب أى راهب جديد، وأجصى الرهبان فى مصر ، وأمر أن يوسم كل واحد منهم بحلقة حديدية ، توضع فى يده اليسرى ، وعليها اسم بيعته وديره ، ألا ينقش الصليب على هذه الحلقة وأن يكون التاريخ المسجل على الحلقة هو التاريخ الهجرى (سنة ٩٦ هـ) وعاقب الوالى الرهبان الذين خالفوا هذه الأوامر ، عقابا شديدا ، وصل الى حد القتل أحيانا (٢٩٩) .

وكان أسامة بن زيد ، مثله مثل بعض الولاة ، حريصا على جمع المال بأية وسيلة فأمر عماله بالاستيلاء على بعض الممتلكات . وكان يقول لعماله : « سلمت لكم أنفس الناس ، فاحملوا القماش والمال والبهائم ، وكل ما تجدونه لهم ، ولا تراعوا أحدا ، وأى موضع نزلنموه ، فانهبوه » (٣٠٠) .

وطلب أسامة من الرهبان ألف دينار ، وأغلق أبواب البيع . كما طلب من رؤسائهم دينارا عن كل واحد منهم ، وعذبهم فى سبيل أداء ذلك . وهددهم بهدم جميع الكنائس والأديرة فى مصر . وانتهت هذه المظالم بنهاية عهد أسامة ، فقد توفى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ، وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز الذى عزل أسامة عن حكم مصر (٣٠١) (فى سنة ٩٩ هـ = ٧١٨ م) .

ورغم ما نعرفه من تسامح وعدل عمر بن عبد العزيز ، فإن أهل الذمة عامة ، والقبط منهم خاصة ، تعرضوا فى عهده لبعض المضايقات . فقد نهى عن استخدامهم فى الإدارة وأعمال الحكومة — كما ذكرنا آنفا — وكتب الى ولاته ، أن من أراد أن يستمر فى الإقامة فى الأمصار الاسلامية ، فعليه اعتناق الاسلام (٣٠٢) . كما شدد عليهم فى اللبس والركوب ، مما سنّفصل الحديث عنه فى الباب التالى .

وأبدى ساويرس حيرته ، من أوامر عمر بن عبد العزيز ، فهو يأمر دأئما ولاته بالعدل والرحمة والتسامح ، وقام بكثير من الإصلاحات التي عادت بالفائدة على المسلمين والذميين ورفع الخراج عن الكنيسة والأساقفة . ولكن الخليفة في الوقت نفسه يدهو أهل الذمة الى اعتناق الاسلام ، ويشجع على اعتناقه برفع الجزية عن أسلم من الذميين . وعليه يشبهه ساويرس بالدجال ، ويقول : ذلك لأنه يصنع خيرا كثيرا أمام الناس ويفعل السوء أمام الله (٣٠٣) .

ثم ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز (١٠١ - ١٠٥ هـ = ٧١٩ - ٧٢٣ م) وكان شديد العداء للذميين ، وخاصة القبط ، الذين عانوا الكثير من الشدائد في عهده . وأمر يزيد (في سنة ١٠٤ هـ) بكسر الصليبان ، وإزالة الصور من البيع في مختلف أرجاء الدولة الاسلامية (٣٠٤) .

أما الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٦ هـ = ٧٢٣ - ٧٤٤ م) فقد أبدى عطفه ، وبسط رعايته على القبط الأرثوذكس في مصر . وكان يحرص على أن يراعى في معاملتهم شروط العهد التي منحها عمرو بن العاص للقبط بعد الفتح العربي . وولى الخليفة عبيد الله بن الحبحاب على خراج مصر ، وأوصاه بالقبط وغيرهم من المصريين (٣٠٥) . ولكن هذا الوالى ، لم ينفذ أوامر الخليفة ووصاياه . فحينما قدم عبيد الله الى مصر ، أوقع الظلم على القبط وغيرهم من أهل الذمة في مصر . وأمر بوسم جميع القبط على أيديهم ، بعلامة صورة الأسد ، وقطع يد من لم ينفذ هذا الأمر . الا أن البطريرك الاكسندروس امتنع عن ذلك ، وأصر على الخروج الى القسطنطينية لمقابلة والى مصر ، لعله يعفيه من الوسم . ولكن عبيد الله أصر على ضرورة وسمه أسوة بجميع قبط مصر . وأصر البطريرك على موقفه ، ولم ينقذه من تنفيذ الأمر سوى وفاته (٣٠٦) .

وألزم هذا الوالى أنبا صموئيل أسقف وسيم (٣٠٧) ، بدفع ألف دينار غرامة لبیت المال الا أنه كان فقيرا ، ولا يصل الى قوت يومه . والتمس من الوالى اعفاءه من الغرامة ، فأمر الوالى الشرطة بالقبض عليه ، وسلمته الشرطة لنفر من البربر ، ألحقوا به صنوفا مختلفة من العذاب ، حتى جمع له القبط ، ثلاثمائة دينار ، قدمها للوالى ، فأفرج عنه ، بعد أن أوشكل على الموت (٣٠٨) .

والحقيقة التاريخية ، أن المسلمين نالوا من مظالم هذا الوالى الأموى ، ما ناله القبط أيضا وكان عبيد الله بن الحبشاب عامل الخراج (١٠٥ - ١١٦ هـ) يتبع سياسة ظالمة نحو أهالى مصر على اختلاف أديانهم . وتقدم بعض المسلمين ، بشكواهم الى الخليفة همام بن عبد الملك الذى بادر بعزله عن خراج مصر ، وجعل مكانه ابنه الماسم عبيد الله ، الذى كان أكثر ظلما وقسوة من أبيه (٣٠٩) .

وتعرض القبط والبطرك أنبا خيال أيضا فى ولاية حفص ابن الوليد ، لكثير من المضايقات ورأى بعض القبط الأرثوذكس الخلاص منها ، اما بالهجرة من الفطر المصرى أو باعتناق الاسلام . وبلغ عدد من من اعتنق الاسلام منهم ، أربعة وعشرين ألف قبطى . وأبدى البطرك ألمه وأسفه لهذه الأحداث . ولكن هذه المضايقات ، انتهت بنهاية ولاية حفص بن الوليد (٣١٠) .

نجمت مصر ، بعد ذلك ، بالهدوء والأمن فى ولاية حسان بن عتاهية (سنة ١٢٧ هـ - ٧٤٥ م) الذى بسط رعايته وحمايته على البيع والأساقفة والرهبان . وكان دائما على علاقة طيبة مع البطرك أنبا خيال . وقد انتهج من جاء بعده من الولاة هذه السياسة نفسها ، حتى اذا ولى حكم مصر عبد الملك بن مروان فى (سنة ١٣٢ هـ - ٧٥١ م) - فى عهد الخليفة مروان بن محمد آخر

الخلفاء الأمويين - عانى القبط من كثير من المضايقات ، ذلك أن
عبد الملك كان شديد الكراهية للقبط . وتفرغ عبد الملك لجمع أكبر
قدر من الذهب والفضة وغيرهما ، لبيعها الى الخليفة (٣١١) .

واعتقل عبد الملك البطرک ، وبعض الأساقفة ، وأساء
معاملتهم ، كما اعتقل أيضا ثلاثمائة رجل وامرأة ، وألقاهم جميعا
فى السجن (٣١٢) . وبعد عدة أيام ، اسندعى عبد الملك اليه
البطرك ، وطالب منه دفع خراج البيع ، وشدد فى التضييق عليه ،
فطلب البطرک من الوالى اطلاق سبيله ، ليتجول فى مدن وقرى
الصعيد ، ليجمع الأموال المطلوبة منه ، فكان ذلك . ثم أطلق
عبد الملك سراح البطرک بعد أن قدم له الأموال التى جمعها من
القبط (٣١٣) .

وحدث أن اعتقل عبد الملك البطرک مرة ثانية ، مما أثار
غضب ملك النوبة كريكوس وجهاز فرقة من الجند ، ليتقدم بها الى
مصر ، لقتال عبد الملك ، وليرغمه على أن يطلق سراح البطرک ،
مما أثار مخاوف عبد الملك ، فأطلق سراح البطرک ، وعهد اليه
بتحسين العلاقة بينه وبين ملك النوبة (٣١٤) .

تعرض القبط أيضا لبعض المضايقات ، فى أثناء الصراع بين
الأمويين والعباسيين . فلما فر مروان بن محمد - آخر الخلفاء
الأمويين - الى مصر ، عاث جنده فى البلاد فسادا ، ونهبوا رؤساء
القبط ، وسبوا النساء والأطفال ، واستولوا على الأموال . كما هرب
كثير من القسس والرهبان خوفا من بطش مروان وجنده (٣١٥) .

واعتقل مروان البطرک اليعقوبى أنبا خايال ، والبطرك
الملكانى قزما . ودفع قزما ميلغا من المال ، فأطلق مروان سراحه ،

فى حين بقى أنبا خيال فى معتقله يقاسى العذاب ، وتردد مروان فى قتله . ثم قال : « ما فائدتنا فى قتل هذا الشيخ ، وقد كان منع البشامرة عن قتالنا ، وكتب اليهم فما قبلوا منه . لكن نحملة معنا الى رشيد ، ونجعله أيضا يكتب لهم ، ويقول : ان كل ما حل به لأجلكم » (٣١٦) .

ولما وصل جيش أبى مسلم الخراسانى الى مصر ، هرب جند مروان الى الصعيد . وهناك قتلوا كثيرا من القبط ، ونهبوا أموالهم ، وسبوا نساءهم وأطفالهم ، وأحرقوا الديارات بمن فيها من الرهبان والراهبات (٣١٧) . ويشير بعض المؤرخين الى أن جند مروان كانت تترك مدن الصعيد ، فتقتل كثيرا من أهلها ، وتهدم ما بها من الكنائس (٣١٨) .

وفى الحقيقة تعرض القبط جميعا وبطركهم أنبا خيال ، خلال تواجد مروان بن محمد فى مصر ، لشدائد عظيمة ، فقد أراد مروان قتل البطرك عدة مرات ، ولكنه كان فى كل مرة يتراجع عن قتله وقد انتقل مروان وبعض جنده الى الجيزة عندما وصل الجيش العباسى ، ومروا فى أثناء ذلك على دير راهبات ، فأسروهن جميعا (٣١٩) .

ولما تغلب العباسيون على الخليفة مروان بن محمد فى مصر ، وقامت الخلافة العباسية ، أطاق العباسيون سراح البطرك ، ومن معه من المعتقلين . وقد أحسن الجند العباسيون للقبط وبطركهم ، وطلبوا من كل قبطى أن يعلق صليبا من الذهب أو الفضة أو النحاس على جبهته وعلى ثوبه بل وعلى باب بيته ، حتى يمكن التعرف عليهم دون غيرهم من المصريين ، لتوفير الحماية لهم (٣٢٠) . ومع ذلك ما لبث أن ضوعفت الجزية والخراج على المصريين . فلما تقدم

البطرك بالشيكوى ، قيل له : ان هذا أمر من الخليفة لأنه يعلم أن أهل مصر إذا وجدوا راحة بسنة واحدة ، نافقوا وحاربوا ، كما حارب البشامة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (٣٢١) .

والواقع ، أنه كما تعرض أهل الذمة - وخاصة القبط - لبعض المضايقات فى فترات معينة طوال العصر الأموى ، تعرضوا أيضا لبعض الشدائد فى عهد الخلافة العباسية فى بعض الفترات . نذكر منها ، فترة النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة ، بعد وفاة أبيهما هارون الرشيد (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م) وما صاحب ذلك من تنافس بين الزعماء على الرئاسة ومناطق النفوذ فى مصر وانقسمت البلاد المصرية بين الزعماء المتنافسين ، فصار لعبد العزيز الجوى شرقى الدلتا ، فى حين ساد نفوذ السرى بن الحكم من مصر الى أسوان . أما قبيلتا لخم وجذام ، فقد سيطرتا على غربى مصر ، والاسكندرية ومريوط والبحيرة وأعمالها ، وضيقتا على أهالى الاسكندرية (٣٢٢) .

وخلال هذه الاضطرابات نزلت جماعة من الأندلسيين فى مدينة الاسكندرية ، وجاءوا بأعداد ضخمة من الرقيق والسبى ، وكانوا يبيعونهم فى أسواق الاسكندرية ، واشترى منهم البطرك اليعقوبى مرقص ، حوالى ستة آلاف ، من بينهم رهبان وقسس وشمامسة ونساء وأطفال ، وقد أعتقهم البطرك مرقص ، وجعل لهم حرية البقاء فى مصر أو الخروج الى بلادهم فإذا اختاروا مغادرة البلاد ، كان يدفع لهم نفقات الرحيل حتى يبلغوا بلادهم (٣٢٣) . ويبدو أن الأندلسيين ، كانوا يطردون سكان الاسكندرية من ديارهم ، سواء من القبط أو اليهود - ويسكنون فيها (٣٢٤) .

طمع الأندلسيون فى السيطرة على مدينة الاسكندرية ، فحاربوا قبيلتى لخم وجذام وقتل فى أثناء ذلك كثير من أهالى

الاسكندرية ، سواء من القبط أو اليهود أو المسلمين . كما أحرقت
معظم أحياء المدينة ، وكثير من الكنائس . وعاث الأندلسيون في
المدينة نهباً وسلباً وقتلاً وتخريباً ، مما اضطر البطريرك مرقس
إلى مغادرة الاسكندرية ، وقضى خمس سنوات في ضيق
وعذاب (٣٢٥) . وتمكن أحد رؤساء القبط ويسمى مقارة بن ثابت
النيراوى - من أهل سمند - من الحصول ، من عبد العزيز الجروى
على تصريح ، يسمح فيه للبطرك ، بالقدوم إلى مقارة فى أمن
وسلام (٣٢٦) . وبالأرغم من ذلك واصل البطريرك اجتماعه ببيع
الاسكندرية ، وبيعة أبى مينا بمريوط (٣٢٧) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد تعرض الرهبان فى برية
شبهات (٣٢٨) ، لكثير من الأذى والارهاب ، من العرب القاطنين فى
الصحراء . وقد أسر هؤلاء العرب ، الرهبان وهدموا البيع والقلالى ،
فى حين تمكن بعض الرهبان والقسس من الفرار من وجه هؤلاء
العرب ، وتشتتوا فى كل موضع من البلاد المصرية (٣٢٩) .
ويصف أحد المؤرخين هذه الشدائد التى تعرض لها القبط
فى مصر عقب وفاة هارون الرشيد اذ اختلف أولاده ، وقامت الحوارج
وتغلبوا على الاسكندرية - يقصد بالحوارج الأندلسيين - وقتلوا
الكثير ، ونهبوا البلاد ، وخرج البطريرك مرقس من المدينة ، وبقي
غائباً عنها خمس سنوات وثار المغاربة ، وأحرقوا الديارات بوادى
هييب ، ونهبوها ، ولم يبق بها من الرهبان الا نفر قليل (٣٣٠) .

وتعرض القبط وبطركهم الأب يوساب ، أيضاً لبعض الشدائد
فى خلافة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٧ - ٨٤٢ م) عندما
دفع أحد القبط الطامعين فى أسقفية وسيم ، ويسمى تادرس ،
مبلغاً كبيراً من المال ، ليأمر البطريرك يوساب ، بتعيينه أسقفاً ، الا أن
البطرك رفض ذلك ، مما أثار حنق الوالى وغضبه . فهدد البطريرك
بهدم كل كنائس مصر ، وبدأ بهدم كنائس القسطنطينية (٣٣١) .

وألزم هذا الوالى أيضا البطرك بدفع غرامة مالية قدرها ،
ثلاثة آلاف دينار ، حتى يوقف عملية التخريب والهدم فأقلق ذلك
القبط ، الا أنهم - وخاصة الكتاب والرؤساء منهم - طمأنوا البطرك ،
ووعدوا الوالى بسداد المبلغ ، مما خفف من حدة غضبه (٣٣٢) .

تأمر أسقف مصرينة مع القاضى محمد بن عبد الله ضد البطرك
يوساب ، للحط من شأنه وازعاف أمره . وكان يساعدهما فى
ذلك بعض الأساقفة المفرضين . فكان القاضى يستدعى البطرك -
وهؤلاء القوم مجتمعون عنده - ويسمعه كلاما مهينا ، الا أن البطرك
يوساب ، كان يجيب على كلامه فى قوة وشجاعة ، ويستشهد فى
حديثه بعبارات من الكتاب المقدس (٣٣٣) . كما أظهر البطرك
يوساب ، للقاضى وأعوانه سجلات من الخلفاء بتأييد حقه فى
البطركية ، وتنصيبه بطركا للقبط فى مصر ، السجل الذى منحه اياه
الخليفة هارون الرشيد ، ثم السجل الذى منحه اياه الخليفة المأمون
عندما قدم الى مصر ، والسجل الآخر كان من الخليفة المعتصم أخى
الخليفة هارون الرشيد ، ثم السجل الذى منحه اياه الخليفة المأمون
الواقع ، وصرف البطرك مكرما ، معززا (٣٣٤) .

وكان هذا القاضى ، يأخذ غلمان البطرك يوساب ، القادمين
اليه ، كهذايا من أفريقية والحبشة والنوبة ، ويضطرهم الى اعتناق
الاسلام ، وترك خدمة البطرك يوساب وكنيسته وكان يعاونه فى
ذلك بعض الأساقفة ، وخاصة أسقف مصرينة (٣٣٥) .

وكانت أشد الفترات قسوة بالنسبة لأهل الذمة ، فى العصر
العباسى ، هو عصر المتوكل على الله ، الذى ضيق على النصارى
جميعا - المسيحيين على اختلاف مذاهبهم واليهود - وظهر هذا
واضحا فى تحديد أشكال اللبس والمسكن ، ومنع الخليفة استخدام

أهل الذمة فى الوظائف ، كما منعهم من بناء الكنائس ، وأمر بهدم
المسيحية منها (٣٣٦) .

وكان والى مصر آنذاك - عبد المسيح بن اسحق - يمقت أهل
الذمة من القبط واليهود مقتا شديدا ، إلا أنه « بدأ بالنصارى
وأنزله عليهم بلايا ، وأذلهم جدا ، بأحزان شتى » . فأمر بمحو
علامة الصليب ، وكسر الموجود منه ، وألزمهم بأداء الصلاة والطقوس
الدينية بصوت خفى . كما منعهم من الصلاة على أمواتهم ، ومن
ضرب الناقوس . وحرم النبيذ فى جميع أنحاء مصر ، فصار القبط
يبلون عيدان النرجون بالماء ، ويعصرونها ، ويجعلونها محل النبيذ
فى الأقربان وعمل القداس (٣٣٧) .

أنزل هذا الوالى ، كل ظلم ممكن بأهل الذمة ، فأبعدهم عن
أعمال الحكومة والدواوين واضطربهم إلى صنع ثيابهم ، حتى
لا يتشبهوا بالمسلمين . وأمرهم بأن يضعوا على أبواب دورهم صورا
مفرعة تمثل الشياطين ، كما منعهم من ركوب الخيل ، ولذا رأى
كثير منهم اعتناق الإسلام (٣٣٨) .

وما لبث أن عزل الخليفة المتوكل ، هذا الوالى ، وجعل ابنه
مكانه ، ولكنه انتهج سياسة أبية فى معاملة أهل الذمة ، بالقسوة
والإرهاب (٣٣٩) . وسخر القبط فى إصلاح مراكب الأسطول ،
مقابل إطعامهم ، وبدون أجر (٣٤٠) .

كما أمر هذا الوالى باحضاء نظام للمدن والقرى ، وفرض على
كل ضيعة ، تقديم عدد من الرجال للعمل فى الأسطول . وكان على
القبط أن يشتروا من أموالهم ، الأدوات والعدة اللازمة لذلك ، ومن
خالف هذه الأوامر ، فرضت عليه غرامة مالية . وكان الوالى يجند

أحيانا لهذا العمل الضعفاء الذين ليس لهم قدرة على السير ،
ولا يعرفون صنعة البحر ، فيضطر هؤلاء بدورهم أن ينيبوا عنهم
من يقوم بذلك بدلهم ، نظير دفع مبلغ من المال لهم . وضح القبط
من هذه الأوامر ، مما اضطر الوالى الى أن يأمر بصرف دينارين لكل
قبطى من الذين يعملون فى الأسطول (٣٤١).

وفى الحقيقة أن الخليفة المتوكل - فى أواخر عصره - رأى
أن يعدل عن سياسة الاجحاف بالقبط ، وغيرهم من أهل النمة ،
بعد أن أدرك مدى ما تعرض له الذميون فى مصر من الظلم والقسوة
وما لحق بهم من الشدائد فى عصره . فعهد بولاية مصر الى يزيد
ابن عبد الله (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ = ٨٥٦ - ٨٦٧ م) وقد أجبن
هذا الوالى الجديد معاملة القبط ، وغيرهم من سكان مصر ، وعم
الرخاء ، وهدأت النفوس ، ونشطت التجارة ، وعاد الى مصر من
تركها من القبط أثناء الاضطهاد والشدّة (٣٤٢) .

ولما ولى المنتصر بن المتوكل الخلافة (سنة ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م)
جعل على خراج مصر أحمد بن مدبر ، الذى اشتهر بالقسوة والشدّة ،
وحبه لجمع المال ، فأحزن ذلك الأب شنوده بطرك القبط (٣٤٣) .
ولما قدم ابن مدبر الى مصر ، وضع يده على أموال المسلمين ، والقبط ،
واليهود ، وضاعف عليهم الجزية والخراج . وأمر باحصاء الرهبان
فى جميع أرجاء مصر ، وألزمهم بدفع الجزية والخراج (٣٤٤) .

وقرر ابن مدبر أن يصحب معه البطرك شنودة الى وادى
هبيب ، ليضمن له ما على أديرته من جزية وخراج ، وطبق ابن مدبر
هذه القرارات أيضا على باقى أديرة وبيع مصر كلها ورأى الأب
شنودة ، الهرب نجاة بنفسه من هذه المضايقات ، كما هرب كثير
من الأساقفة (٣٤٥) .

أنفذ ابن مدبر نوابا عنه ، الى مختلف الأقاليم المصرية ،
غسلبوا من الأديرة والكنائس ما بها من الآلات والأدوات الخاصة
بالقديس ، وألزموا القومة (٣٤٦) بدفع دينارية الأساقفة وحصلوا
كل ذلك الى الديوان . كما أمر ابن مدبر باغلاق جميع الكنائس
فى مصر الا كنيسة واحدة ، ليقدموا فيها القربان (٣٤٧) وأنزل
نواب ابن مدبر ، المظالم بالأساقفة والرهبان ، وكانوا يحملونهم
مقيدين بالحديد الى مصر ، حتى يؤدوا ما عليهم للديوان ، واستمر
البطرك مختفيا نحو ستة أشهر ، فى حين كان شعبه القبطى فى أشد
حالات الحزن والألم ، لما أنزله ابن مدبر وثوابه بهم جميعا (٣٤٨) .

ورأى البطرك شنودة أن يعاود الظهور من مكمنه ، ويسلم
نفسه لابن مدبر . فكتب يلتمس منه الأمان ، فوعده ابن مدبر
بذلك ، اذا قدم قبل أن يقبض عليه أحد عماله ، أما اذا قبض عليه
قبيل أن يسلم نفسه ، فإن ابن مدبر سينزل به وبالكنائس
والأساقفة أشد أنواع العذاب (٣٤٩) . فسلم البطرك شنودة
نفسه لابن مدبر ، الذى ما لبث أن طالبه بما عليه من خراج بلغ
سبعة آلاف دينار . وقد تعاون جميع الأساقفة بمصر مع البطرك
فى تسديدها « وكانت كورة مصر فى ضيق عظيم ، وافتقر
الأساقفة والرهبان ، وكل واحد ، من أجل الغرامات التى رتبها
هذا الإنسان المخوف ، أكثر من جميع من تقدمه » (٣٥٠) .

بعد وفاة الخليفة المنتصر ، وقع نزاع بين المتنافسين على
الخلافة (المستعين والمعتز) واستمر هذا النزاع ثلاث سنوات
(حتى سنة ٢٥٢ هـ = ٨٦٦ م) وانتهى بتولية المعتز الخلافة . وفى
أثناء هذا النزاع ، كسبت التجارة بين مصر والمشرق ، واستمر
ابن مدبر عامل الخراج فى مصر ، فى تشدده على أهل الذمة وغيرهم
فى مصر (٣٥١) .

وعاث العرب ، القاطنون في الجبال والبراري في أرض مصر ،
فساداً ونهباً ، وخاصة في الصعيد ، ونهبوا كثيراً من الأديرة ،
وقتلوا من بها من الرهبان والراهبات . عند ذلك قرر الكاتبات
القبطيان ابراهيم وساويرس السفر الى بغداد ، العاصمة العباسية ،
وتقديم شكواهم الى الخليفة المعتز ، ورجب الخليفة بمقدمتهما ،
وكتب لهما سجلاً ، يسمح للقبط باعادة بناء الكنائس في مصر ،
وضمن سلامتها . وثبت السجل في الديوان ، الا أنه توفي قتيلاً
أن يوقع عليه (٣٥٢) . فلما ولي المستعين الخلافة ، وعلم بهذا
السجل ، بادر الى توقيعه . وزاد عليه بأن قرر أن يحتفظ القبط
بما في أيديهم دون تعرض لهم ، وأن يعاد اليهم جميع ما نهب منهم
من أموال وآنية وأرض وغير ذلك مما كان بأيديهم (٣٥٣) .

ابتهج البطريرك شنودة والقبط في مصر ، وقاموا باعادة بناء
الكنائس في كل مكان من أسوان الى الفرحا وجم الفرج والسرو في
البلاد (٣٥٤) . ولكن ما لبث أن انقلب ابتهاجهم الى حزن ، فبعد
ثار بعض المسلمين في الاسكندرية ، وانضم اليهم العربان ، وعاثوا
في البلاد نهباً وسلباً ، وأحرقوا الأديرة بمن فيها ، ثم حاصروا
الاسكندرية ، ومنعوا وصول المؤن والمياه اليها . فسألت أحوال
السكان داخل المدينة ، وحرمت الكنائس من اقامة القربان ، لعدم
توفر الغلة والخمر « فأواس البيع قد ملكها هؤلاء القوم ، ونهبت
مخازنها وأموالها وتقوا بها على محاصرة الاسكندرية » (٣٥٥) .

حزن البطريرك شنودة لذلك أشد الحزن ، واستقر به المقام
في مدينة المحلة الكبرى وكان يدفع للتجار الأموال ، ليشتروا بها
تجاراتهم ، فاذا دخلوا مدينة الاسكندرية سلموا هذه الأموال
للمستول عن الكنائس بها - ويسمى الأقنوم - لينفق منها على
البيع وبهذه الوسيلة استقامت أحوال كنائس الاسكندرية .

وإستمر العريان ومن معهم ، ينهبون الأديرة والقلالي ، والرهبان صابرون على ما حل بهم من ضيق وشدة (٣٥٦) .
فلما ولي مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ - ٢٥٤ هـ = ٨٦٧ - ٨٦٨ م) ، ضحى معه الى مصر قوما من الأتراك الأقوياء ، وأعد الغدة لقتال القوم النافرين بمدينة الاسكندرية وخاربهم في البر والبحر ، حتى تمكن من اخماد ثورتهم والقضاء عليهم ، واسترداد ما نهبوه من المتاع والأموال ، فأمنت مصر من شرهم ، وعاد اليها الأمن والهدوء (٣٥٧) .

ونستخلص من دراستنا هذه ، لدور أهل الذمة في الحياة السياسية في عصر الولاة (٢٠ - ٢٥٤ هـ = ٢٤٠ - ٨٦٨ م) ، أن القبط بصفة خاصة كان لهم دور لا يستهان به ، بعد قاموا بنصيب كبير في ادارة شئون البلاد وحكمها . كما كانوا دائما يحرسون على كسب رضا حكام مصر المسلمين ، الذين كانت موافقتهم ضرورية على تعيين البطارقة الجدد كما كانوا يحرسون على أن نسود العلاقات الطيبة بين ولاة مصر المسلمين وبين بطاركتهم القبط . على حين تلاحظ أن اليهود لم يكن لهم شأن في سياسة البلاد في ذلك العصر ، ولم تشر المصادر التاريخية الى ذلك من قريب أو بعيد .

ويمكننا القول بصفة عامة ان القبط واليهود وغيرهم من أهل الذمة ، قد تمتعوا بحرياتهم الدينية والاجتماعية في ذلك العصر ، اللهم الا بعض الفترات المحدودة التي تعرضوا فيها لبعض المضايقات ، وخاصة القبط وبطركهم . ونلاحظ أن انقلاب ولاة مصر ضد القبط وبطركهم أحيانا ، كان يحدث في الغالب نتيجة سعاية بعضهم ببعض والوشاية بهم لدى الولاة . وان كنا نلمس في الوقت نفسه أن الموظفين القبط كانوا يحرسون أشد الحرص

على رعاية شئون اخوانهم القبط ، وتوفير الأمن لبطركهم ، والعمل على تحقيق رغباتهم جميعا . وكان لهؤلاء الموظفين - في الغالب - مكانة كبيرة لدى ولاة مصر المسلمين . واستمر القبط خاصة دون غيرهم من أهل الذمة ، يلعبون دورا كبيرا في الحياة السياسية حتى في عصر الدول المستقلة ، وهذا ما نقوم ببحثه في الفصول التالية والتي تتضمن دور أهل الذمة في عهد الدولتين الطولونيين والإخشيدية ثم موقف الخلفاء الفاطميين من أهل الذمة .

٣. أهل الذمة في عصر الدولتين الطولونية والاختشيدية

شهد مطلع العصر العباسي الثاني ، ازدياد نفوذ الأتراك ، واستئثارهم بالمناصب الكبرى ، وأصبح يلى الحكم فى مصر ، غالباً ولاية من الأتراك . واعتاد معظم هؤلاء الولاة البقاء فى العاصمة العباسية ، للتمتع بمباهج الحياة فى هذه العاصمة ، وأنبوا عنهم من يثقون فيهم لحكم مصر (٣٥٨) . وبهذه الوسيلة قدم أحمد بن طولون (٣٥٩) الى مصر ، فقد أناب عن الوالين التركيين باكباك ويارجوخ (٣٦٠) فى حكم مصر . ولمس ابن طولون ضعف الدولة العباسية ، ووقوع خلفائها تحت سيطرة الأتراك وعجز السلطة المركزية عن السيطرة على ولايات الدولة ، ولذا رأى أن يحكم مصر حكماً ذاتياً مستقلاً ، وعمل على إنشاء دولة طولونية ، يتوارث أبناؤه الحكم فيها ، مع الاعتراف بتبعية رسمية شكلية للدولة العباسية وبذلك دخلت مصر فى دور تاريخى جديد متميز ، وهو عهد الدول المستقلة ، وانتهى بذلك عصر الولاة . كما دخل أهل الذمة فى دور آخر له خصائصه واتجاهاته . فقد كان عصر ابن طولون تحولاً رئيسياً فى حياة أهل الذمة فى مصر .

كانت أعمال مصر عند دخول أحمد بن طولون - نيابة عن
باكباك التركى (٢٥٤ هـ - ٨٦٨ م) - مقسمة بين عدة أشخاص .
فكان يلى مدينة الاسكندرية اسحاق بن دينار ، ويتولى القضاء بكار
ابن قتيبة ، ويقوم بشئون الخراج أحمد بن مدبر (٣٦١) . وكان
توزيع السلطات على هذا النحو يحول بين استئثار أحدهم بحكم
مصر أو الطمع فى الاستقلال عن التولية السياسية . ولذلك لم يكن
الطريق ممهدا أمام أحمد بن طولون ، الذى كان يعمل على انشاء
دولة مستقلة فى مصر ، فقد كان عليه الخلاص من منافسيه ،
وتركيز السلطات المختلفة فى يده . وكان أشد المنافسين خطورة
على أطماعه وآماله ، عامل الخراج ابن مدبر ، الذى عانى المصريون ،
وخاصة أهل الذمة ، فى عهده من الضرائب الباهظة التى فرضها
عليهم ، كما أساء ابن مدبر معاملة الرهبان والأساقفة ، والبطرك
القبلى ، مما أثار مشاعر المصريين جميعا ضده .

ولى مصر بعد باكباك ، يارجوخ صهر أحمد بن طولون ، فأبقى
أحمد بن طولون نائبا عنه فى حكم مصر ، وكتب إليه « تسلم من
نفسك لنفسك » (٣٦٢) وما لبث أن زاد سلطان أحمد بن طولون
واتسعت دائرة نفوذه . فقد أرسل الخليفة المعتمد إليه كتابا
« بأن يتسلم جميع كورة مصر ، وأن يكون جميع الولاة من تحت
يده » (٣٦٣) . فتولى حكم مدينة الاسكندرية بدلا من واليها اسحاق
ابن دينار وكان ذلك يخالف ما جرت به العادة ، فقد كان للاسكندرية
دائما واليها الخاص بها ، المستقل بحكمها عن والى مصر ، ولم يكن
أحدهما يتدخل فى شئون الآخر . وكان استئثار أحمد بن طولون
بحكم الاسكندرية فى سنة ٢٥٧ هـ (٣٦٤) .

ثم بعث الخليفة المعتمد يطلب الخراج من ابن طولون ،
ويستحثه فى جمع الأموال فكتب إليه ابن طولون : « لست أطيع

ذلك ، والخراج بيد غيري » ، عند ذلك فلد الخليفة أحمد بن طولون خراج مصر (٣٦٥) . وهكذا صار أمر البلاد المصرية كلها بيد أحمد ابن طولون ، فقويت شوكته وعظم أمره بديار مصر .

نعم أهل الذمة في عصر الدولة الطولونية بالهدوء والاستقرار ، فتمتخست أحوالهم ، وباشروا طبقوسهم الدينية في حرية تامة . وأحسن الأمراء الطولونيون معاملة أهل الذمة وخاصة القبط منهم . وكان أحمد بن طولون لا يتوانى عن الدفاع عن حقوقهم والاقتصاص لهم من عماله وقواده ، وهو ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب مع واليه على مصر عمرو بن العاص حين اقتص منه لأحد القبط في مصر .

ويشير البلوى (٣٦٦) الى رواية نستدل منها على معاملة ابن طولون لأهل الذمة وخاصة القبط ، فقد روى أن ابن طولون بعث أحد قواده ، الى بعض جهات الريف لاصلاح أحوالها . فلما انتهى القائد من مهمته ، وشى بعض القبط من الضيعة براهب ، وأرادوا الانتقام منه ، وأخبروا القائد بأن الراهب ، عثر على كنز عظيم . فاستدعى القائد هذا الراهب ، وطلب منه خمسمائة دينار . وتقدم الراهب بشكواه الى دار الامارة ، فاستدعى ابن طولون القائد واعتقله ، كما استدعى الراهب ، وأحسن لقاءه وأرضاه .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن المصادر التاريخية القديمة ، لم تذكر شيئا عن تاريخ اليهود في مصر ، ودورهم في الحياة السياسية في هذا العصر ، كما كان شأنهم في عصر الولاة . ويبدو أن اليهود كانوا مسلمين ، منصرفين الى شئونهم الخاصة ، وينباشرون أعمالهم في هدوء وسلام ولا شأن لهم بأمور السياسة والحكم ، ولا علاقة لهم أيضا بالحكام .

يقول موريس فارجون (٣٦٧) **Maurice Fargon** انه بالرغم من قلة الوثائق التي وصلتنا عن هذا العصر ، فان الجالية اليهودية في مصر ، كانت على جانب عظيم من الأهمية . وكان أكثرية اليهود يمتازون بالشراء ، ومن بينهم أكبر رجال الأعمال ، وان كنا نجهل دور اليهود في الادارة في هذا العصر . ومما يدل على ثراء اليهود في هذا العصر ، انه حينما ألزم أحمد بن طولون بطرك القبط أن يسأ خايل ، بدفع غرامة مالية قدرها عشرون ألف دينار ، اضطر الى بيع بعض أملاك الكنائس القبطية في مصر ، واشترى اليهود أوقاف بعض الكنائس وأرض الحبش ، ظاهر القسطنطينية ، كما اشترى كنيسة بجوار الكنيسة المعلقة بقصر الشمع (٣٦٨) .

وفي الحقيقة تمتع اليهود في ذلك العصر بالحرية الدينية والاجتماعية والاقتصادية فباشروا طقوسهم الدينية في أمن وهدوء ، واستمروا في مزاولة المهن المختلفة واقتناء الضياع والاشتغال بالتجارة وخاصة تجارة العملة ، كما اشتغلوا بالعلوم والطب (٣٦٩) .

هذا في حين قام القبط بدور لا يستهان به ، في ادارة البلاد ، وهو الدور نفسه الذي قاموا به أيضا في عصر الولاة ، فكان منهم عمال الخراج ، وكتاب الدواوين ، بل شاركوا في أعمال الشرطة والمحافظة على الأمن والنظام في البلاد . وتشير أوراق البردى الى أسماء كثير من القبط الذين كانوا يقومون بجباية الخراج ، وجمع الضرائب الأخرى . فنجدهم يشغلون وظائف القسطنطينية والجهند (٣٧٠) . ونجد من بين هذه الأوراق البريدية ، ما يتضمن ايصالا خاصا بدفع الخراج ، ومؤرخ في ٣٠ طوبة . سنة ٢٦٦ هـ . ٢٥ يناير ٨٧٥ م . ويدل على أن القسطنطينية كان قبطيا ويسمى بقم ابن بقطر (٣٧١) . وهناك بريدية أخرى تتضمن ايصالا يرجع

تاريخه الى سنة ٢٧٨ هـ - ٨٩١ م . يشير الى أن عامل الخراج كان قبطيا ويدعى بلوثة بن أبي قرا (٣٧٢) . وهناك بردية ثالثة مؤرخة في سنة ٢٨٧ هـ - ٩٠٠ م . وفيها اسم الجيهندين من القبط . هـما : (بهيوه بن ماعة ، والثاني منيا بن شنودة) (٣٧٣) .

ومن بين القبط اتخذ أحمد بن طولون ووزرائه بعض الكتاب . فكان لابن طولون كاتبان قبطيان ، هما يوحنا وابراهيم ابنا موسى - ويسميهما ساويرس أيضا بسوس وابرام كما كان لوزير ابن طولون أحمد بن المارداني ، كاتب قبطي يسمى يوحنا - أو يوانس (٣٧٤) .

وكان هؤلاء الكتاب يعملون على رعاية مصالح اخوانهم من القبط ، وحماية بطركهم فلما تعرض البطريرك أنبا خايال لتضييق أحمد بن طولون ، حينما فرض عليه غرامة مالية كبيرة حاول هؤلاء الكتاب مساعدة بطركهم ، وبذلوا قصارى جهدهم في انقاذه واخراجه من الحبس واستعان هؤلاء الكتاب بالوزير ابن المارداني ، الذي تمكن من اقناع ابن طولون ، باطلاق سراح البطريرك في مقابل أدائه عشرين ألف دينار (٣٧٥) .

وكان ابن طولون ، أيضا ، يتخذ بعض مواليه من القبط . ومن هؤلاء أندونة الذي نسبت اليه قرية أندونة (٣٧٦) . وكان ابن طولون قد فصله من عمله وفرض عليه غرامة مالية قدرها خمسون ألف دينار (٣٧٧) . ومما لاشك فيه أن أندونة هذا شخص غير الراهب أندونة الذي كان يأنس اليه أحمد بن طولون في دير القصير ، ويلتمس منه النصيح والارشاد .

كان أحمد بن طولون يتردد كثيرا على رهبان دير القصير ، الذين قالوا عنه : « كان كثيرا ما يطرقنا الأمير أحمد بن طولون ،

ويخلو في بعض قلالينا يفكر . وكان يأنس براهب منا ، يقال له أندونة ، (٣٧٨) كما ظفر أحد القبط ويسمى ابن أبى ذؤيب بنفوذ عظيم فى عهد أحمد بن طولون . فكان من بين حجاب القصر ، وكثيرا ما سعى بالكتاب ، والعاملين بالدولة . وكان يلزم ابن طولون كظله فكان يأكل معه ويجالسه ويناديه . وكان ابن طولون يطمئن اليه ، ويستشير به فى كثير من الأمور (٣٧٩) .

كما ان أحمد بن طولون كان يعتمد على المهندسين القبط فى البناء والتعمير . فعهد الى أحمد القبط ويسمى سعيد بن كاتب الفرغانى فى بناء عين ماء له . وبعد الفراغ من بناء العين رأى سعيد ابن كاتب الفرغانى ، أن موضع العين يحتاج الى قصرية جبر وأربع طوبات ، فعملها ولسوء حظ هذا القبطى ، أن فرس ابن طولون عثر به عند هذا الموضع مما جعل ابن طولون يشك أن ذلك المكروه أراد به القبطى له . فبدلا من مكافأته ، قبض عليه ، وأمر بجلده وحبس (٣٨٠) .

ولما أراد أحمد بن طولون بناء جامع يحمل اسمه ، قدر له أن هذا الجامع يحتاج الى ثلاثمائة عمود (٣٨١) . فأشار عليه بعض أصحابه ، بأن يأخذ ما يلزمه من الأعمدة من أعمدة الكنائس بالضياغ والقصرى . ولكنه رفض هذا العرض ، وحجته فى ذلك ، أن هذه الأعمدة نجسة ، وأنه يريد أن يكون بناء الجامع من المال الحلال (٣٨٢) . فلما علم سعيد بن كاتب الفرغانى وهو فى سجنه بذلك أرسل الى ابن طولون يخبره ، بأنه يستطيع أن يقيم له الجامع الذى يريد ، بدون أعمدة الا عمودى القبلة (٣٨٣) ، مما يغنيه عن أخذ أعمدة الكنائس ، ولعله أراد بذلك ارضاء الأمير ابن طولون من ناحية ، والا تمتد يد التخريب والتدمير الى كنائس القبط بأخذ أعمدها من ناحية أخرى .

فأخرج أحمد بن طولون المهندس القبطى من سجنه ، وطلب منه توضيح ما ذكره فرسم له صورة للمسجد ، أعجبت الأمير ، فأذن له بالبناء ، وجعل تحت تصرفه مائة ألف دينار للانفاق منها على بناء الجامع . وقد أحسن القبطى البناء ، وأحكم الصنعة ، وخرج الجامع فى أجمل وأحسن صورة ممكنة . ولما تم المهندس القبطى البناء ، خشى غدر ابن طولون له - كما فعل به بعد فراغه من بناء عين الماء - ولكن ابن طولون أمنه ، وكافأه ، وأمر بصرف عشرة آلاف دينار له ، وخلع عليه ، كما أجرى عليه رزقا واسعا (٣٨٤) .

ويبدو أن بعض الأمراء الطولونيين كانوا يتخذون وزراء لهم من القبط ، فيذكر أحد المؤرخين ، أن خمارويه بن أحمد بن طولون ، كان له وزير قبطى ، وأن بنان الحمال بن محمد بن حمدان اضطر هذا الوزير الى النزول عن دابته ، وقال له : « لا تركب الخيل ، ويلزمك ما هو مأخوذ عليكم فى ملتكم » . فلما علم بذلك خمارويه غضب أشد الغضب ، وأمر بمعاقبة هذا الحمال ، لاهنته لوزيره القبطى (٣٨٥) .

كما كان خمارويه ، يعتمد على بعض القبط فى المحافظة على الأمن والنظام فى بعض البلاد المصرية ، وفى الدفاع عن حدود بلاده . وتشير الرواية القبطية الى أن أسقف طما ويسمى أنبا بخوم ، كان له حوالى ثلاثمائة غلام ، وكان يعتمد عليهم فى حفظ الأمن فى بلاده ، كما أتيقن الكثير منهم الرمى بالنشاب . وكان أنبا بخوم يتمتع بمكانة عظيمة لدى الأمير خمارويه ، كما أحب هذا الأمير ، غلمان الأسقف ، وقربهم اليه . كما اعتمد عليهم فى حفظ الأمن والنظام ، وفى تفقد أحوال تلك البلاد ، وحراسة حدود البلاد الغربية ، لأنه كان يخشى الفاطميين فى المغرب ، وكان لهذا الأسقف وغلمانه من ينقل اليهم أخبارهم ، ثم يخبرون بها الأمير خمارويه (٣٨٦) .

وقد لمبسنا فى أثباء دراستنا لدور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى هذا العصر ان الأمراء الطولونيين ، كانوا يقربون اليهم القبط اليعاقبة ، ويعتمدون عليهم فى شئون الادارة وأعمال الحكومة دون خصوصهم فى المذهب الدينى - أى الملكانيين - بل حدث فى بعض الأحيان أنهم كانوا يمكنون القبط من الملكانيين ؛

نذكر من الأمثلة على ذلك أن الأمير خمارويه ، كان يقرب اليه أنبا بخوم أسقف طما ، وأنه طلب منه ألا يخفى عنه شيئاً من أخبار البلاد . وقد انتهز الأسقف أنبا بخوم هذه الفرصة ، للايقاع بالملكانيين وبطركهم . فحمل كثيراً من الأموال والهدايا الى خمارويه ، وأقام عنده بضعة أيام . وأخبره بأن الملكانيين فى الاسكندرية قد أقاموا بطركاً لهم ، وأن هذا البطرك عين للرومان فى بلادنا . فكتب خمارويه سجلاً ، الى عامل الاسكندرية ، وأمره فيه بتنفيذ كل ما يشير اليه الأسقف أنبا بخوم .

وقد سر لذلك أنبا بخوم ، وأمر بالقبض على بطرك الملكانيين وقطع الأصابع التى يصلب بها من يده اليمنى . كما أهانه وأهان من وجده عنده من الأساقفة الملكانيين (٣٨٧) .

وهكذا نجح القبط واليهود وغيرهم من أهل الذمة فى ان يعيشوا فى هدوء وسلام فى عهد الأمراء الطولونيين ، وتمتعوا بقسط وافر من الحرية . ولا تتحدث المصادر التاريخية عن أى مضايقات ، أو عسف ، تعرض لها أهل الذمة فى ذلك العصر . اللهم الا ما أشارت اليه الرواية القبطية من فرض أحمد بن طولون غرامة مالية على بطرك القبط أنبا خايال ، وقد كان ذلك نتيجة لسعاية بعض القبط بالبطرك .

فقد حرق أسقف سخا على البطرك أنبا خيال ، فأوقع به عند ابن طولون ، وأغراه به ، وأخبر الأمير أحمد بن طولون ، أن البطرك يمتلك أموالا لا تعد ولا تحصى (٣٨٨) - وكان ابن طولون في أشد الحاجة الى الأموال في ذلك الوقت ، لأنه كان يعد العدة للقتال في بلاد الشام - فاستدعى ابن طولون البطرك أنبا خيال ، وطلب منه مساعدته في هذه الظروف العصيبة ، واعطاه ما عنده من الأموال ليجوز بها الجيوش ، فيحظى البطرك بذلك ، برضاء الأمير ابن طولون ، ورضاء الخليفة أيضا عنه (٣٨٩) .

وأعلم البطرك ابن طولون ، أنه لا يمتلك ذهباً ولا فضة ، مما أغضب ابن طولون ، وجعله يندم على اكرامه للبطرك ، وحسن معاملته اياه ، وقال عنه ذلك للبطرك : ان كل من هو على دين مخالف للإسلام « اذا أكرم ، لا يعرف الاكرام » وأمر بحبس عاقبا له على رفضه تقديم الأموال للأمير (٣٩٠) .

ولعل هذا الحدث ، هو الذي جعل بعض الكتاب المحدثين ، يذهبون الى أن أحمد بن طولون ، كان يعتبر بطرك القبط خصمه ، وأنه عدو له ، يخشى بطشه . ولذلك فكر في عدة وسائل يتبعها لأخذ أموال القبط ، وأنه بالرغم من عدم فرضه ضرائب جديدة إلا أنه ألزم البطرك أنبا خيال بدفع غرامة مالية كبيرة (٣٩١) .

ورأى الكتاب القبط في دار الامارة ، وفي دار الوزارة أن يستعينوا بالوزير لكي يتوسط لهم ، لدى أحمد بن طولون ، حتى يطلق سراح البطرك أنبا خيال (٣٩٢) . وقد أبدى الوزير شعورا طيبا نحو الكتاب ووعدهم بمساعدتهم ، في الافراج عن البطرك . ومضى الوزير كعادته الى أحمد بن طولون وبعد أن أخبره بأحوال البلاد ، حدثه بشأن البطرك ، والتمس منه اطلاق سراحه ، مقابل

فرض غرامة مالية عليه . فوافق ابن طولون على التماسه ، بعد أن كان مصرا على قتل البطرك . واتفق على أن تدفع الغرامة ، وقدرها عشرون ألف دينار ، على قسطين ، القسط الأول بعد شهر والقسط الثانى بعد أربعة أشهر (٣٩٣) . وهكذا كان الكتاب والموظفون القبط ، بما لهم من مكانة لدى حكام ووزراء مصر من المسلمين ، يعملون جاهدين على توفير الراحة لآخوانهم من القبط وبطركهم وتوفير الأمن والطمأنينة لهم ، ونلمس ذلك واضحا طوال تاريخ مصر الإسلامية .

كان الضامن للبطرك عند ابن طولون ، الكاتب يوحنا وابنه مقار ، وتعهدا للأمير بدفع المبلغ المطلوب من البطرك فى الميعاد المحدد . ثم صحبا البطرك الى كنيسة السيدة العذراء بقصر الشمع حيث أقام البطرك أنبا خيال . ولم يكن البطرك يملك شيئا يدفع منه ما فرض عليه من غرامة . ولذلك فكر فى أن تكون إقامة الأساقفة الجدد مقابل أداء مبلغ معين من المال ، وبهذه الوسيلة يتمكن من تسديد ما عليه من أموال فى الوقت المحدد (٣٩٤) .

وتمكن البطرك من جمع القسط الأول من الأساقفة الجدد ، الى جانب ما دفعه الكاتب يوحنا وابنه مقار . كما اقترض من الوزير ألف دينار ، واقترض أيضا من المسلمين مبالغ عظيمة وحمل يوحنا وابنه ما جمعه الى ابن طولون ، وأخبراه بطريقة جمع هذه الأموال ، وكتب ابن طولون ، ايصالا جديدا ، وقع عليه أربعة من الكتاب القبط والأساقفة ، وضمنان تسديد المبلغ الباقي بعد أربعة أشهر من تاريخ تسديد القسط الأول (٣٩٥) .

وظل البطرك فى ضيق شديد ، فقد كان يدرك عجزه عن سداد باقى الغرامة المفروضة عليه . وهداه تفكيره الى التجول فى

بعض مدن الوجه البحرى ، لجمع الصدقات من القبط ، وحتى يتسنى له جمع بقية الغرامة (٣٩٦) . وفى الوقت نفسه حدث أن خرج أحمد بن طولون الى دمشق ، وبعد بضعة أيام لازمه المرض ، مما اضطره الى العودة الى مصر ، حيث توفى بعد أيام من عودته . وولى حكم مصر بعده ابنه خمارويه الذى أعفى البطرك أنبا خيال من باقى الغرامة المالية ومزق الايصال الخاص بها . فلما علم البطرك بذلك هدأت نفسه وبدأ يراعى شئون الكنيسة (٣٩٧) .

وفى الواقع ، قد أحسن خمارويه معاملة أهل الذمة جميعا ، وخاصة القبط ، وكان يراعى أحوالهم ، وخاصة الأساقفة والرهبان . ولم تشر المصادر التاريخية الى أنه أقدم على اساءة أحد منهم ، أو تعرض لكنايتهم وأدبرتهم بسوء (٣٩٨) . وبعد وفاة هذا الأمير الطولونى لم يذكر المؤرخون لنا شيئا عن دور القبط واليهود فى تاريخ مصر السياسى . وفى سنة ٢٩٢ هـ ، تمكن قواد الخليفة العباسى ، المكتفى ، من القضاء على آخر الأمراء الطولونيين فى مصر ، وحملوهم أسرى الى بغداد (٣٩٩) .

وهكذا سقطت الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ - ٩٠٥ م . بعد أن حكمت مصر حوالى ثمان وثلاثين سنة . وتعرضت البلاد بعد ذلك لاضطرابات شديدة ، اذ تنافس الولاة العباسيون وعمال الخراج على الانفراد بالسلطة والنفوذ فى مصر . فمنذ زوال حكم الأمراء الطولونيين حتى ولاية محمد بن طغج الاخشيد سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م ، توالى على حكم مصر ، ما يقرب من أربعة عشر واليا . كما تعرضت البلاد للخطر الخارجى ، اذ حاول الفاطميون غزو مصر ، بعد أن أسسوا دولتهم فى شمال أفريقيا سنة ٢٩٦ هـ (٤٠٠) .

أما عن دور أهل الذمة فى هذه الفترة الانتقالية بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الاخشيدية ، فلم يكن واضحا ، ولم

نلمس في كتابات المؤرخين القدماء ، ما يشير الى هذا الدور صراحة
ويبدو أنهم - أي أهل الذمة - كانوا يعيدون عن المنازعات بين
المتنافسين ، ولعل قصر فترة حكم الولاى ، وتعاقب عزله وتعيينه ،
شغلت المؤرخين عن الحديث عن دور أهل الذمة في الحياة السياسية
آنذاك ، اللهم الا بعض الاشارات القليلة .

فبعد أن تغلب محمد بن على الخلعجى على عيسى بنوشرى ،
واستأثر بولاية مصر فى سنة ٢٢٩ هـ - ٩٠٥ م ، تقرب الى
القبط خاصة ، دون غيرهم من أهل الذمة . واستعان بهم فى شئون
الحكم والادارة ، فجعل يوحنا بن موسى ، مستشارا له ووزيرا ،
كما قلد أخاه ابراهيم خراج مصر (٤٠١) .

ويبدو أنه منذ ذلك الحين ، قد علا شأن القبط ، وصار منهم
أكثر الكتاب ، حتى ضج المسلمون ، من تسلط هؤلاء الكتاب القبط
على مصالحهم ، وقدم المسلمون شكواهم فى ذلك الى الخليفة المقتدر
سنة ٢٩٦ هـ . « ففهم فيهم ، بنحو ما كان عهد به المتوكل من
رفضهم واطراحهم واسقاطهم من الخدمة . ثم لم يدم ذلك
فيهم » (٤٠٢) . ونستخلص من هذه الرواية أن الخليفة العباسى
المقتدر ، لما بلغته شكوى المسلمين من تسلط أهل الذمة عليهم فى
شئون الحكم والادارة رأى أن يسلك السبيل نفسه الذى سلكه
الخليفة العباسى المتوكل من قبل ، وهو ابعاد أهل الذمة عن شئون
الحكم وعدم استخدامهم فى أعمال الحكومة ، مهما كان الأمر ،
واحلال المسلمين محلهم الا أن هذه السياسة لم تستمر طويلا
فلم يلبث الولاة المسلمون أن انتهجوا سياسة استخدام أهل الذمة
فى أعمال الكتابة وادارة شئون البلاد .

أمر الخليفة المقتدر ، ولأته ، بعزل الكتاب والعمال . من أهل
الذمة ، وعدم استخدامهم ، واحلال المسلمين محلهم . وكتب الى

عماله ، فى مختلف أرجاء الدولة الاسلامية ، كتابا جاء فيه « عوائد الله عند أمير المؤمنين ، توفى على غاية رضا ، ونهاية أمانيه ، وليس أحد يظهر عصيانه ، الا جعله الله عظة للأنام ، وبادره بعاجل الاصطلام (والله عزيز ذو انتقام) فمن نكث وطغى ، وبغى ، وخالف أمير المؤمنين ، وخالف محمد - صلى الله عليه وسلم - وسعى فى أفساد دولة أمير المؤمنين ، عاجله أمير المؤمنين بسطوته ، وطهر من رجسه دولته (العاقبة للمتقين) . وقد أمر أمير المؤمنين بترك الاستعانة بأحد من أهل الذمة فليحذر العمال تجاوز أوامر أمير المؤمنين ونواهيته » (٤٠٣) ونرى فى هذا الكتاب ان الخليفة أراد ، أن يثبت الخوف والرغبة فى نفوس عماله حتى لا يخالفوا ، ما أمرهم به من نبد استخدام الذميين ، وعدم الاستعانة بهم فى أى شأن من شئون البلاد .

ويبدو أن الخليفة المقتدر قد نهى عن استخدام أهل الذمة فى بعض المجالات ، وسمح باستخدامهم ، فى مجالات أخرى . فيروى أبو المحاسن (٤٠٤) ، أن الخليفة المقتدر أمر عماله فى البلاد الاسلامية بعدم استخدام أحد من الذميين سواء القبط أو اليهود الا فى مجالات الطب والجهنزة . ونجد فى أوراق البردى ، ما يؤيد ما ذهب اليه المؤرخ أبو المحاسن ، اذ كان جهابذة مصر والمتصرفون بها من أهل الذمة وخاصة القبط .

فهناك ورقة بردية ، تتضمن ايصال دفع خراج ، ويرجع تاريخها الى ٨ بئونة سنة ٢٩٣ هـ - ٣ مايو سنة ٩٠٦ م . ونجد فيها اسم جهنزيين من القبط ، هما ، مينا بن شنودة ، وساويرس ابن زكريا (٤٠٥) . ونلاحظ أن ذلك كان قبل قرار الخليفة المقتدر بحوالى ثلاث سنوات ، ولكن هذه الظاهرة استمرت بعد قرار الخليفة بسنوات كثيرة . فنجد برديتين ، تتضمن كل منهما ايصالا عن دفع

الخراج ، ويرجع تاريخ احدهما الى سنة ٣١٢ هـ - ٩٢٤ م .
والأخرى ترجع الى شوال سنة ٣١٣ هـ - يناير ٩٢٦ م . وفيهما
أن الجهبند كان قبظيا ويسمى يحنس بن مينا (٤٠٦) .

وهناك بردية أخرى ، وفيها أن عامل الخراج كان قبظيا ،
ويسمى مرقورة بن شنودة وتذكر هذه البردية أن خضر بن شبيب
أدى ما عليه من الجزية سنة ٣١٨ هـ - ٩٣٠ م وكتب له ايصالا
بذلك ، على يد مرقورة بن شنودة الجهبند (٤٠٧) . ولا نجد في
المصادر التاريخية المصرية وغير المصرية ، الاسلامية وغير الاسلامية ،
أية اشارة الى كتاب أو أصحاب دواوين من القبط أو غيرهم من أهل
الذمة ، في هذه الفترة الانتقالية ما بين سقوط الدولة الطولونية
وقيام الدولة الاخشيدية ، اللهم الا ما ذكرنا آنفا في ولاية محمد
ابن علي الخلعجي وحتى سنة ٢٩٦ هـ .

ومؤسس الدولة الاخشيدية في مصر ، هو محمد بن طغج بن
جف الفرغاني الملقب بالاخشيد (٤٠٨) وقد ولي مصر ، بعهد من
الخليفة العباسي ، الراضي بالله في سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م . فقدم
الى مصر في رمضان من السنة نفسها (٤٠٩) . واستمرت الدولة
الاخشيدية قائمة في مصر ، حوالي خمس وثلاثين سنة ، حتى تمكن
الفاطيون من فتح البلاد المصرية والقضاء على الدولة الاخشيدية
سنة ٣٥٨ هـ .

ولنا أن نتساءل عن دور أهل الذمة في الحياة السياسية في
هذا العصر ، هل كان منهم كتاب وأصحاب دواوين ؟ أم أن
استخدامهم كان قاصرا على أعمال الجهبند وجباية الضرائب ؟
ونتساءل أيضا عن سياسة الأمراء الاخشيديين ازاء هؤلاء الذميين ؟
وهل نعم أهل الذمة بالهدوء والسلام في هذا العصر ، كما كان

الحال فى العصر الطولونى ؟ أم تعرضوا للمضايقات وعسف
الحكام المسلمين بهم ؟

اقتصر استخدام الذميين فى هذا العصر غالبا ، على جباية
الخراج ، والأعمال المالية المختلفة . والدليل على ذلك ما جاء فى
الأوراق البردية ، من الاشارة الى الجهابذة وعمال الخراج القبط .
وتضم مجموعة الأرشيديوق ريتير فى فينا ، وثيقة من البردى ،
تتضمن ايصالا مؤرخا من سنة ٢٣٥ هـ - ٩٤٢ م ، ويشير الى أن
بكام بن دانيال ، دفع الجزية المقررة عليه ، وقدرها ثلث دينار ،
وثلثا قيراط ، فى حضور أبى الحسن بن عيسى لعامل الجباية
تيودور بن خاييل (٤١٠) .

وجاء فى بردية أخرى ، وثيقة تتضمن صكا صادرا ، عن أحد
جباة الخراج ، ومؤرخا فى شهر طوبة - سنة ٣٤٦ هـ = يناير ٩٥٨ م .
وفيه أن عيسى بن الحسن اللبان ، قد قبض من ابو جميل مرقورة
ابن مينا الجهبذ ثلاثة وعشرين دينارا معسولة (٤١١) الى أن كتب له
بها سفنجة (٤١٢) فى النصف من طوبة لخراج سنة ٣٤٦ هـ ،
وكتب جريح بن قوريل بأمره (٤١٣) .

كان من بين الموظفين القبط ، الذين أشرفوا على الشئون المالية
فى هذا العصر ابن عيسى بقطر بن شفا ، وتذكر بعض الروايات أنه
تولى خراج مصر للأمراء الاخشيديين (٤١٤) ومنهم أيضا ابراهيم
ابن مروان فى عهد أونوجور ، وكذلك جرير بن الحصان (٤١٥) .

ونلاحظ أن استخدام القبط واليهود فى أواخر عصر الأمراء
الاخشيديين ، لم يكن قاصرا على جباية الخراج ، وتحصيل الضرائب،
وما يرتبط بذلك من الأعمال المالية . فتذكر الرواية القبطية أن

كافور الاخشيدى (٤١٦) ، كان له وزير من القبط يسمى أبو اليمىن قزمان بن مينا ، وتضيف الرواية القبطية إلى ذلك أنه ولّى خراج مصر ، ودبر أمورها بعد وفاة كافور ، حتى استقر الأمر للخلفاء الفاطميين سنة ٣٥٨ . فلما لمسوا فى أبي اليمىن قزما بن مينا ، الثقة والأمانة ، أبقوه فى مكانه ناظرا فى كورة مصر (٤١٧) .

كما نلاحظ فى هذا العصر ، ظاهرة لم نلمسها من قبل فى تاريخ مصر الاسلامية ، وهى استخدام اليهود ، الى جانب القبط فى شئون الادارة وأعمال الحكومة . اذ كان يعقوب بن كلس اليهودى من مستشارى كافور ، ومن أقرب الناس اليه . يقول ابن الصيرفى (٤١٨) : « كان يهوديا ، كاتباً ، صائناً لنفسه ، محافظاً على دينه ، جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه ، واتصل بخدمة كافور الاخشيدى ، فحمد خدمته ، ورد اليه زمام ديوانه بالشام ومصر ، فضبطه على حسب ارادته » .

كان كافور يشتشبر ابن كلس فى كل أموره ، حتى بلغ به الأمر ، أنه أمر جميع رؤساء الدواوين بألا يصرف درهم أو دينار الا بتوقيع ابن كلس . وقد اتخذ كافور هذا القرار فى سنة ٣٥٦ هـ (٤١٩) . وبلغ من شدة اعجاب كافور بابن كلس أنه رغب أن يوليه الوزارة ولكن حال دون ذلك دينه اليهودى ، ولذلك قال كافور : « لو كان مسلماً ، لصح أن يكون وزيراً » (٤٢٠) فلما سمع يعقوب بن كلس بذلك ، طمع فى الوزارة ، واعتنق الاسلام فى شعبان سنة ٣٥٦ هـ . فتضاعف حب كافور وتقديره له . ولكن يعقوب بن كلس ما لبث أن رحل الى بلاد المغرب وغادر مصر (٤٢١) .

وبالواضح من النصوص التاريخية أن أهل النمة عاشوا فى هدوء وسلام طوال عصر الأمراء الاخشيديين ، كما كان حالهم فى عصر الأمراء الطولونيين ، لم نسمع عن اضطهادات أو عسف نزل

بأهل الذمة فى ذلك العصر . والحقيقة أن سوء المعاملة التى كان أهل الذمة يشكون منها فى بعض الأحيان لم تكن موجهة اليهم بصفتهم الطائفية وإنما كان الأمراء الإخشيديون - وخاصة محمد بن طغج الإخشيد - يصادرون أموالهم أحيانا، مثلما كانوا يصادرون أموال المسلمين ، فى ذلك العصر ، على حد سواء . وكان الخلاف والنزاع بين ضغوف القبط ينتهى أمره أحيانا إلى الأمير الإخشيدى فيفصل فيه ، وقد ينتهز الأمير الفرصة ، ليستحوز لنفسه شيئا من أموال الكنيسة وكنوزها .

فقد حدث فى أمارة محمد بن طغج الإخشيد ، انشقاق بين البطريرك الملكانى سعيد بن بطريق - الذى ولى كرسي البطريركية للملكانيين بمصر فى سنة ٣٢١ هـ . وسمى افثيشيوس (٤٢٢) - وبين رعاياه من الملكانيين . وانقسموا إلى فريقين، فريق مع البطريرك، وفريق عليه ويتزعمه أسقف تنيس ابن النخيلي ، وأسقف الفرما ابن بليحا . وحاول البطريرك جاهدا أن يصلح أحوال الملكانيين .

وتوفى أسقف تنيس ، ابن النخيلي فأقام بدله تاوفيل بن الشقى ، إلا أن شعب تنيس ظل منقسما على نفسه إلى فريقين ، أحدهما مع البطريرك ، والثانى عليه (٤٢٣) .

ويروى ابن سعيد الأنطاكي (٤٢٤) أن الأسقف الجديد قد حاول تهدئة النفوس ، وإصلاح الأحوال ، ومع ذلك استمر الخصام بين الفريقين ، حتى لجأ خصوم البطريرك إلى محمد بن طغج الإخشيد وحرصوه على البطريرك ، ثم وصف ابن سعيد الإخشيد قائلا : « وكان رجلا ظالما ، كثيرا ما يصغى لسماع السعائيات وقبولها ، ويهلك المسعى به ، والمنتصح فيه ، ويأتى عليه » .

وأرسل محمد بن طغج الإخشيد أحد قواده على رأس جماعة من الجند ، إلى مدينة تنيس فختم على الكنائس الملكانية بها ، وحجر

على جميع ما بها من الآلات والآنية ، وملأ بها كثيرا من الصناديق وحملها الى محمد بن طنج الاخشييد (٤٢٥) . فلما علم الأسقف تاوفيل بن الشقى بذلك ، طلب من الكتاب القبط أن يتوسطوا لهم لدى الأمير ، لتصفية الجو ، والعفو عن البطرك الملكاني . فتم له ما أراد ، وأعيدت اليهم ممتلكات الكنائس الملكانية ، مقابل دفع خمسة آلاف دينار للأمير (٤٢٦) . ونلمس من هذه الرواية أن الموظفين القبط ، كانوا لا يتأخرون عن الأخذ بيد اخوانهم في الدين المسيحي أى الملكانيين ، بالرغم من اختلافهم معهم في المذهب لدينى ، والتوسط لدى الأمراء المسلمين ، من أجل اصلاح أحوالهم والعفو عن معصياتهم .

وكان لهذا الحدث وموقف الاخشييد منه ، أثره في نفس مسيحي مصر في مختلف المدن المصرية ، فيقول ابن سعيد الأنطاكي (٤٢٧) : « هرب جماعة من منازلهم ، خوفا من المصادرة والعزم ، ولما شاهد النصارى تفاقم الحال والهلاك الواقع لوقف تنيس ، عدل بعضهم بعضا ، واتفقت كلمتهم ، ورجعوا الى كنيسة واحدة ، الا أن نفوس أكثر أهل تنيس ، لم تزل مستوحشة من الأسقف تاوفيل بن الشقى » .

ونستخلص من هذه الروايات التاريخية أن طائفة المسيحيين الملكانيين في مصر ، كان لها شأن في ذلك العصر ، وأن أمورهم كانت مستقيمة ، اذ كان لهم بطركهم وأيضا أساقفتهم ، شأنهم في ذلك شأن القبط اليعاقبة . وهكذا قام أهل الذمة جميعا - سواء القبط أم اليهود - بدور ، له شأنه في الحياة السياسية في عصر الأمراء الاخشيديين ، وشغل اليهود لأول مرة في تاريخ مصر بعض المراكز المهمة في البلاد ، وتمتع جميع أهل الذمة بالحرية الدينية ، وعاش الجميع في أمن وسلام .

٤ - موقف الدولة الفاطمية من أهل الذمة

بعد دراستنا لتاريخ أهل الذمة السياسى فى عصر الولاة ،
ثم فى عصر الدولتين الطولونية والاششيدية ، يمكن ان نقول ان
عصر الدولة الفاطمية ، كان العصر الذهبى لأهل الذمة ، سواء القبط
أم اليهود ، فقد تمتعوا خلاله بالهدوء والاستقرار ، وشغلوا أعلى
المناصب الادارية والمالية ، فى جميع عهود الخلفاء الفاطميين ، بل
فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أيضا ، الذى يصفه المؤرخون
غالبيا ، بالتعسف ضد أهل الذمة ، والتضييق عليهم .

ويدرس هذا الفصل دور أهل الذمة فى شئون الادارة والحكم ،
فقد كان منهم الوزراء والكتاب ، وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم ،
وخدام القصر ، وعمال الخراج . ثم يدرس الفصل أيضا دور
الخلفاء الفاطميين ووزرائهم فى اختيار البطرک القبطى ، وإقامته على
كرسى البطرکية وموقف الخلفاء أيضا من البطرک المملكانى ، ثم يدرس
ما تعرض له أهل الذمة من المضايقت فى بعض العهود ، وخاصة
فى عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ = ٩٩٦ - ١٠٢١ م) .

أما عن دور أهل الذمة فى شئون الادارة والحكم ، فقد تميز
عصر الخلفاء الفاطميين بالتوسع فى استخدام الموظفين الذميين ،

فنجده منهم فى هذا العصر ، الوزراء والكتاب وعمال الدواوين وجباة الخراج وغير ذلك من ميادين العمل . ولا غرو فى أن ذلك كان نتيجة طبيعية لاختلاف الفاطميين الشيعة مع المصريين السنيين - أتباع مذهب الخلفاء العباسيين - فى المذهب . ومن ثم كان هدف الفاطميين ، عندما قدموا الى مصر ، هو بذل قصارى جهدهم من أجل نشر المذهب الشيعى ، وانتهاج سياسة تحقق لهم هذا الهدف فى جميع البلاد المصرية وغيرها من البلاد التى كانت تحت حكمهم (٤٢٨) .

ومن ثم لم يعتمد الفاطميون - فى شئون الادارة وأعمال الحكومة - على المصريين السنيين لمخالفتهم لهم فى المذهب ، ورأوا استخدام الذميين من القبط أو اليهود ، والاعتماد عليهم فى ادارة البلاد المصرية وجباية خراجها ، لأنهم بعيدون عن التعصب لهذا المذهب أو ذاك . وهكذا ارتفع شأن أهل الذمة فى هذا العصر ، وتمكنوا من البلاد ، وصار لهم فى معظم الأحيان ، السيادة على المسلمين، مما كان يؤدى أحيانا الى تنفير المسلمين، وإثارة مشاعرهم ضد الذميين . ومهما كان الأمر ، فإن حكام مصر المسلمين بصفة عامة - كما يذهب بعض الكتاب المحدثين - السابقين للفاطميين أو اللاحقين لهم ، أدركوا أنه ليس فى الإستطاعة ، الإستغناء عن استخدام أهل الذمة ، وقد أدى الى ضرورة هذه السياسة الواقع العملى فى الادارة المصرية فى العصور الوسطى ، اذ كانت الادارة فى حاجة الى كفايات خاصة فى دواوين الانشاء والمال ، وغيرها من نواحي الادارة ، لا يقوم بها الا أهل الذمة من سكان البلاد (٤٢٩) .

وكان القبط بصفة خاصة ، أكثر دراية ، بالأعمال الكتابية والحسابية ، وتحرير الرسائل ومن ثم توسع الخلفاء الفاطميون فى استخدامهم فى كافة فروع الادارة ، وتدرجوا فى المناصب حتى

أسندت اليهم الوزارة . ولقد حازت هذه السياسة القبول من الناحية العملية ، الا أنه قد دبت الكراهية لهم فى النفوس ، عندما أصبح منهم ، كل جباة الضرائب والفائضون على أموال الدولة (٤٣٠) .

ونلاحظ خلال دراستنا للعصر الفاطمى ، أن بعض الذميين ، كانوا يعتنقون الاسلام ويتركون دينهم المسيحى أو اليهودى فى سبيل تولى الوزارة أو غيرها من الوظائف الادارية . ونذكر من هؤلاء أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن طرون بن داود بن كلس (٤٣١) ، الذى لعب دورا بارزا ، فى خلافة المعز لدين الله ، وولده العزيز - اذ ارتفع شأنه ، وذاع صيته . وفى المحرم سنة ٣٦٣ هـ ، عهد اليه المعز ، بولاية الخراج وجميع وجوه الأموال الحسبية ، والسواحل والأعشار ، والجوالى والأحباس ، والموارث ، والشرطتين (٤٣٢) وجميع ما يزيد على ذلك فى مصر من سائر الأعمال وأشرك معه فى هذه الولاية ، عسلوج بن الحسن ، وكتب لهما الخليفة ، سجلا بذلك (٤٣٣) .

وكان يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن ، يجلسان فى دار الامارة ، بجامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع ، وسائر وجوه الأموال . ويحضر الناس للقبالات (٤٣٤) ويطالبان الناس ببقايا الأموال ، مما على المالكين للأرض أو المتقبلين أو العمال . واستقصيا فى الطلب ، ونظرا فى المظالم . ونتج عن ذلك ، توافر الأموال ، وزيادة الضياع ، وحسنت أحوال الناس (٤٣٥) .

انشغل ابن كلس بعد ذلك ، فى سنة ٣٦٥ هـ . عن حضور ديوان الخراج ، وما يرتبط به من أعمال ، وانفرد بالاشراف على أمور المعز لدين الله الخاصة فى قصره ، وفى غيره من الدور (٤٣٦) . وقد عظم شأن ابن كلس بعد وفاة المعز ، وولاية ابنه العزيز بالله ،

الذى عهد اليه بالنظر فى سائر أموره ، كما جعل له الوزارة ، فى
المحرم سنة ٣٦٧ هـ كما خلع عليه (سنة ٣٦٨ هـ = ٩٧٩ م)
ومنحه لقب الوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ، أو يكاتبه الا بهذا
اللقب (٤٣٧) .

ويصف ابن القلانسي (٤٣٨) ، يعقوب بن كلس بأنه كان
« كبير الهمة ، قوى النفس والمنة ، عظيم الهيبة فاستولى على أمر
العزیز ، وقام به واستتصحه ، فغول عليه ، وفوض أموره اليه ،
وكانت أموره مستقيمة بتدبيره » وقد عظمت مكانة ابن كلس على
مر السنين ، وظهر هذا واضحا فى سنة ٣٧٠ هـ . حينما انتهج
الخليفة العزیز ، سياسة الخلاص من نفوذ الكتاميين والاعتماد على
الأتراك . كما كان الخليفة ، يستشيريه فى كل الأمور (٤٣٩) .
ولكن فى سنة ٣٧٣ هـ ، غضب العزیز بالله على وزيره ابن كلس
واعتقله فترة ، ولكن ما لبث أن أطلق سراحه فى العام التالى . ورد
اليه كل ما كان بيده من مهام الدولة ، وشئون البلاد ، وكتب له
سجلا بذلك ، الى جانب منحه هدية ، تتألف من عدد عظيم من العبيد
الترك والمغاربة (٤٤٠) .

وفى الواقع ، اتسعت دائرة أعمال ابن كلس ، وعظم نفوذه
فى كل ميدان ، حتى ان اسمه كان يكتب على الطراز وفى الكتب .
وكان يجلس فى داره ، لتصريف شئون الدولة ، واتوقيع الرقاع
التي ترفع اليه ، ويقضى الحاجيات . وعين فى داره ، الحجاب ،
وأجلسهم على مراتب ، وألبسهم الديباج وقلدهم السيوف والمناطق .
كما رتب فى داره الدواوين . وكان كل ديوان يضم عددا كبيرا من
الكتاب (٤٤١) . واستمر ابن كلس ، يتولى منصب الوزارة ،
وأصبح الساعد الأيمن ، للخليفة العزیز بالله (٤٤٢) .

ولما مرض ابن كلس ، حزن عليه العزيز بالله ، حزنا شديدا ،
اذ كان يكن له حبا شخسيا عظيما . وزاره في داره ، وسأله أن
يفضى اليه بوصيته . الا أن ابن كلس قال له : « أما ما يخصنى ،
يا أمير المؤمنين فلا ، لأنك أرعى بحقى ، من أن أسترعيك اياه ،
وأرأف على من استخلفه من أن أوصيك به ، لكنى أنصح لك فيما
يتعلق بدولتك » فلما سأل العزيز بالله ، وزيره عما ينصحه به فى
شئون دولته ، أجابه : مسألة الرومان ، وقبول الدعوة من بنى
حمدان ، الى جانب ذكرهم اسم الخليفة الفاطمى على البسكة ، وقتل
المفرج بن دغفل بن الجراح (٤٤٣) .

ولما توفى ابن كلس فى سنة ٣٨٠ هـ ، حزن عليه العزيز بالله
أشد الحزن ، وأمر بتعطيل الدواوين والأعمال ، عدة أيام حدادا على
وفاته (٤٤٤) . ويعدد ابن الصيرفى (٤٤٥) تركة ابن كلس ،
فيقول : « كان له فى اقطاعه ، مائة ألف دينار ، وأربعمائة ألف
غلام ، وأن الطائفة التى تسمى العزيزية منسوبة اليه وله من
الجواهر ، ما قيمته أربعمائة ألف دينار ، كما كان له من كل صنف
من البز ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، وكان عليه للتجار ، ستة عشر
ألف دينار فقضاها العزيز عنه من بيت المال .

ومما لاشك فيه أن يعقوب بن كلس - رغم اعتناقه الاسلام -
كان يخدم اليهود ويراعى مصالحهم ، كما كان يتخذ أصدقاءه ،
وغلمانه - فى الغالب - من اليهود أيضا . فكان أعز صديق له فى
خلافة المعز لدين الله ، موسى اليهودى ، وكان كثيرا ما يقوى جانبه
ويرفع من شأنه عند الخليفة المعز (٤٤٦) . فكان من الطبيعى أن
يغضب المسلمون لذلك ويحنقوا على ابن كلس لاستئثاره بشئون
البلاد ، وقيامه وحده على أمورهما . ومن ثم نجد بعض الشعراء
يهجون ابن كلس فى أكثر من قصيدة شعر ، فقال الشاعر ، الحسن
ابن بشر الدمشقى :

قل لأبى نصر (٤٤٧) صاحب القصر
والمتأتى انقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز
منه بحسن الشناء . والذكر
وأعط وامنع ، ولا تخف أحدا
فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدرى ماذا يراد به
وهو اذا مادرى فما يدرى (٤٤٨)

ومن هذه الأبيات نستخلص ، مدى اتساع نفوذ الوزير ابن
كلس ، وتنفيذ أبى نصر ، كاتب الانشاء لأوامره - دون أن يدرك
ال خليفة ، خطورة تسلط هذا اليهودى الأصل على المسلمين ، وبلغ
الحال ، حدا ، جعل الشعراء ينددون بهذا الوضع . فقال ابن بشر
الدمشقى أيضا :

تنصر فالتنصر دين حق
عليه زماننا هذا يدل
وقبل بثلاثة عزوا وجلوا
وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب ، وهذا ال
عزيز ابن ، وروح القدس فضل (٤٤٩)

وغضب ابن كلس عند سماعه هذه الأبيات ، وكان كثيرا
ما يشكو الشاعر الى الخليفة العزيز بالله وقال له : « لم يبق
للعفو عن هذا معنى ، وفيه غض من السياسة ، ونقص لهيبة

الملك » • وأضاف الى ذلك أن هذا الشاعر ، هجاء ، أيضا هو ونديمة
ابن زبارج قائلا :

زبارجى نديم ، وكلس وزير

نعم على قدر الكلب ، يصلح الساجور (٤٥٠)

وغضب العزيز بالله عند سماعه هذا الهجاء ، أشد الغضب ،
وأمر بالقبض على الشاعر ، الا أن ابن كلس دس له من قتله ، وحمل
رأسه الى الخليفة (٤٥١) •

ونذكر من النعميين ، الذين اعتنقوا الاسلام ، وتقلدوا الوزارة
فى عصر الدولة الفاطمية أيضا ، الوزير (أبو منصور صدقة بن يوسف
الفلاحى) • وكان يهوديا ، ثم اعتنق الاسلام ، وولى الوزارة للخليفة
المستنصر بالله فى سنة ٤٣٦ هـ • ومنحه الخليفة لقب « الوزير
الأجل ، تاج الرياسة ، فخر الملك وصفى أمير المؤمنين » •
واستمر وزيرا ، حتى قبض عليه ، وقتل فى سنة ٤٣٩ هـ (٤٥٢) •
وكان لأبى سعد ابراهيم ، ولأخيه أبى نصر هارون ابنى سهل
التسترى اليهوديين ، دور عظيم فى تقليد أبى منصور صدقة
الوزارة (٤٥٣) • كما كان لأبى سعد دور عظيم فى وزارة أبى منصور
صدقة • فقد عظم شأن أبى سعد بن سهل التسترى وتدرج فى
المراتب ، حتى صار ناظرا فى جميع أمور الدولة « فلا يخرج شئ
عما يرسمه ، ولا يعمل الوزير الا بما يحده له ، ويمثله » وهكذا
كان الوزير ، أبو نصر صدقة ، ينفذ كل ما يمليه عليه أبو سعد
وليس له أمر ولا نهى سوى التنفيذ (٤٥٤) • لذلك فكر الوزير فى
مكيدة يتخلص بها من أبى سعد ، ونجح فى التخلص منه ، بمساعدة
بعض الأتراك • فغضبت أم الخليفة لذلك ، وحنقت على أبى نصر
صدقة ومازالت به حتى صرفته عن الوزارة ، وأمرت بقتله • على حين

ولى المستنصر ، أبا نصر هارون بن سهل التستري ، خزانة الخاص ،
كما عهد الى ابن أبى سعد التستري بالنظر فى أحد الدواوين (٤٥٥) .

وكان من وزراء الخليفة المستنصر ، اليهود الأصل ، الذين
اعتنقوا الاسلام ، العميد علم الكفاة ، أبو سعد على الحسن بن
أبى سعد ابراهيم بن سهل التستري - وكان يهوديا ثم اعتنق
الاسلام ، وحفظ القرآن ، وكان يتولى ادارة بيت المال ، قبل
توايه الوزارة (٤٥٦) .

ومما لاشك فيه أن هؤلاء الوزراء ، كانوا يخدمون اخوانهم
اليهود ، ويراعون شئونهم ويحققون لهم رغباتهم فى مختلف
الميادين ، حتى ولو تعارض ذلك مع رغبات المسلمين ومصالحهم .
على الرغم من اعتناق هؤلاء الوزراء للاسلام . وبلغ الأمر أن ضج
المسلمون من تسلط اليهود وغيرهم من الذميين على أمورهم ، وتغنى
الشعراء بذلك ، بل دعوا الى التهود - فى أشعارهم - حتى يصلوا
الى أكبر المناصب ، وأعلى المراتب فى البلاد . من ذلك ما قاله الرضى
ابن البواب :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم ، وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر انى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (٤٥٧)

والى جانب هؤلاء الوزراء الفاطميين ، الذين كانوا يهودا قبل
اسلامهم ، نجد أيضا وزراء فاطميين آخرين ، تخلوا عن دينهم
المسيحى ، واعتنقوا الاسلام ، وتقلدوا الوزارة . وخدموا أيضا
اخوانهم القبط ، كما فعل الوزراء الذين كانوا يهودا قبل اسلامهم .
ونذكر منهم ابن زنبور أبا سعد منصور بن أبى اليمن سوريس بن
مكراوة ، ناظر الريف ، وكان قبطيا ، ثم اعتنق الاسلام بعد توليه

الوزارة ، فانكر القبط اسلامه ، ولقب : « الأجل الأوحى ، المكين ، السيد الأفضل ، الأمير شرف الكفاة ، عميد الخلافة ، محب أمير المؤمنين » وقد حدث أن طالبه الجند بأرزاقهم ، فوعدهم بتحقيق رغباتهم ، واجابتهم الى ما يرمون اليه ، الا أنه ما لبث أن هرب مع اللواتين ، وانتهى بذلك أمره فى الوزارة (٤٥٨) .

والى جانب هؤلاء الذميين ، الذين تركوا دينهم اليهودى أو المسيحى ، واعتنقوا الاسلام ، من أجل تقلد الوزارة ، نجد من بين اليهود والقبط من احتفظ بدينه ، وتولى الوزارة وغيرها من الوظائف الادارية والمالية فى البلاد المصرية فى عصر الدولة الفاطمية .

حينما تم لجوهر الصقلى - القائد الفاطمى - فتح مصر فى سنة ٥٣٨ هـ ، كان يشرف على أمور مصر ، أحد القبط ، ويسمى أبو اليمن قزمان بن مينا . فلما أدرك جوهر الصقلى ، ما يشتهر به هذا القبطى من الأمانة والثقة « أبقاه على حاله ، ناظرا فى كورة مصر » (٤٥٩) وعندما دخل المعز لدين الله البلاد المصرية فى رمضان سنة ٦٣٢ هـ ، قرب قزمان بن مينا اليه ، وكان يأخذ برأيه ، ويسمع مشورته ، لما كان يتمتع به من السمعة الطيبة ، والأخلاق الحميدة . وبعد فترة عهد المعز اليه بالاشراف على استخراج أموال مصر (٤٦٠) .

ولما أدرك يعقوب بن كلس ، ما صار لأبى اليمن قزمان ، من مكانة عظيمة ومحبة لدى الخليفة المعز ، حنق عليه ، وحسده ، وخشى منه على مكانته فى الدولة . وعند ذلك فكر فى حيلة يبعد بها أبا اليمن عن البلاد المصرية ، فأشار على المعز لدين الله ، بأن يوليه أعمال فلسطين ، فاستجاب له . وتخلص ابن كلس بذلك من منافسه (٤٦١) .

وقد ترك ابن قزمان - عند خروجه الى فلسطين لتولى أعمالها - مبلغ تسعين ألف دينار ، مع البطريرك القبطي أنبا أفراهام ، وأمره بصرفها على البيع والفقراء والأسرى ، اذا توفى ولم يعد الى مصر . فلما قدم ابن قزمان مصر ، ثانية ، بعد هزيمة القرامطة ، سأل البطريرك عما تم من أمر أمواله ، فأجابته البطريرك ، بأنه قد صرفها فى الأبواب نفسها التى حددها له عند خروجه الى فلسطين ، خشية أن يعلم بها الخليفة ، ويطلبها منه (٤٦٢) .

اشتهر الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦ م) بعطفه الشديد على المسيحيين الملكانيين ، والقبط اليعاقبة ، على حد سواء . وامتازت سياسته معهم جميعا بتسامح عظيم . ولا غرو فى أن السبب الذى انتهج من أجله هذا الخليفة هذه السياسة ، أنه كان متزوجا ، من امرأة مسيحية رومانية الأصل ملكانية المذهب . وكان لهذه الزوجة أخوان : الأول يسمى ارستس ، وقد جعله العزيز بالله ، بطريركا للملكانيين فى بيت المقدس . أما الثانى فيسمى أرمانوس ، وقد صار مطرانا على القاهرة ومصر (٤٦٣) . ويسميه ساويرس (٤٦٤) أرسان ، ويشير الى إقامته بطريركا للملكانيين بالديار المصرية تحت تأثير أخته زوجة العزيز بالله « لأن السلطان كان لها » ، على حد قول هذا المؤرخ . ومن ثم أحسن العزيز الى كل من الملكانيين والقبط اليعاقبة ، وتمتع الجميع فى عهده ، بكامل حرياتهم الدينية والمدنية .

شغل أهل الذمة ، فى عهد الخليفة العزيز ، أعلى المناصب الادارية وأجلها فى البلاد المصرية ، فكان منهم جل الكتاب (٤٦٥) ، كما استوزر ، العزيز بالله ، عيسى بن نسطورس القبطي بعد وفاة وزيره ، ابن كلس اليهودى الأصل بمدة (٤٦٦) . فيروى المقرئى (٤٦٧) : أنه فى سنة ٣٨٤ هـ تسلم عيسى بن نسطورس ،

سائر الدواوين » ونظر في جميعها ، وأمر ونهى ، وخاطب سائر
الكتاب عن العزيز وخاطب سائر الأولياء وكافة الناس في مهماتهم ،
وتوقيعاتهم » .

وتميز ابن نسطورس بالمهارة ، والكفاية في ضبط الأمور ،
وفى جمع الأموال ووفر كثيرا من الخراج ، ومال إليه اخوانه من
القبط ، فأحسن معاملتهم وأكرمهم ، واستعان بهم في أعمال الدولة
دون المسلمين (٤٦٨) . واشتد ساعد عيسى بن نسطورس ، وقوى
مركزه ، وصار يخاطب بسيدنا الأجل (٤٦٩) . ووصفه مان (٤٧٠) Mann
- بأنه كان قويا ، شديدا ، قبض على كل عمل مريب لنفسه ،
وزاد الضرائب زيادة كبيرة ، وحابى اخوانه في الدين ، وولاهم أهم
وظائف الدولة ، بدلا من المسلمين ، مما أثار سخط المسلمين ،
الذين كانوا يكرهون تسلط الذميين عليهم ، وتوليهم أمور بلادهم .

كما استناب الخليفة العزيز بالله ، بالشام ، يهوديا يسمى
منشا بن الفرار . فسلك مع اليهود مسلك عيسى بن نسطورس نفسه
مع القبط في مصر (٤٧١) . وهكذا تسلط القبط واليهود على
شئون المسلمين في مصر والشام ، وغضب المسلمون في مصر ،
وقدموا للعزيز بالله ، رقعة تتضمن شكواهم من تسلط الذميين
عليهم ، ونفذ أمرهم في شئونهم (٤٧٢) .

لما تسلم العزيز بالله هذه الرقعة ، ووقف على ما قصده
المسلمون ، سأل في هذا الشأن - أحد المقربين إليه ، وهو قاضي
القضاة أبو عبد الله محمد بن النعمان فقال للخليفة : « مولانا أعرف
بوجه الرأى والتدبير » وفطن العزيز بالله إلى ما صار إليه حال
المسلمين مع الذميين (٤٧٣) . وأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس

وسائر الكتاب القبط وأن يحل المسلمون محلهم ، كما كتب الى نائبه بالشام بالقبض على منشأ ، واقصاء اليهود عن الوظائف ، وإقامة المسلمين مكانهم (٤٧٤) . وصادر من أموال عيسى بن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار (٤٧٥) .

ولكن عيسى بن نسطورس ما لبث أن عاد الى ممارسة مهامه ، التي عهد بها اليه الخليفة من قبل ، واشترط العزيز بالله عليه ، استخدام المسلمين فى الدواوين والأعمال . وقد توسط لعيسى ، عند الخليفة ، ابنته ست الملك ، فقد كانت على علاقة طيبة مع ابن نسطورس ، اذ كان يكن لها ، كل حب وتقدير ، ولا يرفض لها طلبا ، ولا يرد لها قولا (٤٧٦) . واستمر ابن نسطورس وزيرا فى خلافة الحاكم بأمر الله ، حتى قتله الحسن بن عمار الكتامى (٤٧٧) الذى عهد اليه الحاكم بأمر الله ، بالنظر فى الأموال ، وتدبير الأمور ، ولقب بأمين الدولة فى شوال سنة ٣٨٦ هـ . وكان ابن نسطورس قد رسم رسوما جائرة ، وأحدث مكوسا ، تزيد على ما جرى الرسم بأخذه ، فألقى ابن عمار ذلك ورد الأمور الى ما كانت عليه ، وقبض على ابن نسطورس وقتله فى صفر سنة ٣٨٧ هـ (٤٧٨) .

وحنى عصر الحاكم بأمر الله ، الذى يتهمة المؤرخون ، بالتعصب الشديد لمذهب الشيعة واضطهاده لأهل الذمة من القبط واليهود ، نجد أن أهل الذمة كانوا يلعبون دورا مهما فى إدارة البلاد المصرية وسياستها . فنجد من بينهم وزراء الحاكم بأمر الله ، وكتابه ، بل وأيضا عمال الخراج وغيرها من شئون الحكم والادارة .

ونلاحظ أن أغلب هؤلاء الموظفين الذميين فى خلافة الحاكم بأمر الله - كانوا من القبط دون اليهود . ونذكر منهم أبا العلاء فهد بن ابراهيم ، وهو أحد القبط البارزين فى ذلك العصر ، فقد

ولى الوزارة للحاكم ، وكان قبل توليه الوزارة كاتباً لبرجوان الذى
تولى الوصاية على الحكم فى أول خلافته سنة ٣٨٧ هـ . ولقب
أبو العلاء بالرئيس ، فى جمادى الأولى سنة ٣٨٨ هـ (٤٧٩) . فلما
زال أمر برجوان ، واستقل الحاكم بأمر الخلافة ، استوزر أبا العلاء
فهذا (٤٨٠) . وطلب احضار جميع الكتاب والمستخدمين وأوصاهم
بطاعة فهد ، واحترامه ، وبرعاية الأعمال ، والحرص على الأموال ،
فأجابوه بالسمع والطاعة ثم قال الحاكم لفهد : « أنا حامد لك ،
وراض عنك ، وهؤلاء الكتاب خدمى فأعرف حقوقهم ، وأجمل
معاملتهم ، واحفظ حرمتهم ، وزد فى راتب من يستحق الزيادة
بكفايته وأمانته » (٤٨١) .

واستمر أبو العلاء فهد بن ابراهيم ، يتمتع بنفوذه العظيم ،
وسلطانه الواسع ، حتى زال أمره ، وقتل فى سنة ٣٩٣ هـ (٤٨٢) .
فقد تأمر عليه اثنان من عمال الحاكم بأمر الله وهما أبو طاهر
محمود بن محمد النحوى البغدادى ، وكان يتولى ديوان الحجاز ،
وابن العباس المصرى ، متولى ديوان الخراج . فقد نجح فى
السعاية والوشاية به عند الخليفة ، واقترحا عليه القيام بالمهام
التي يقوم بها فهد ، ونصحاه بالخلاص منه وقتله . وقال له :
« فكتب خطاً لك ، بأننا نكفيك أمرك . ونقوم بمسئلتها على مرادك ،
ونقسم لك وجه المال الذى ضمننا استخراجه لك وتوفيره من
الأعمال » (٤٨٣) . فأمر الحاكم بأمر الله بقتل فهد ، والقبض على
أخيه أبى غالب . على حين أحسن الى أولاد فهد ، وخلع عليهم ، وكتب
لهم سجلاً بالأمان ، وبحماية دورهم ، وعدم التعرض لهم (٤٨٤) .

كان من بين الوزراء القبط فى عهد الحاكم ، منصور بن
عبدون ، وقد ولى الوزارة بعد على بن صالح الروذبارى . وكان ابن
عبدون يتميز بالكر والشدة . وكان بينه وبين أبى القاسم الحسن

ابن علي المغربي وأبيه أبي الحسن عداء قديم . فبدأ كل واحد منهما محاولة الايقاع بالآخر . وأكثر أبو القاسم من السعاية بالكتب القبط ، حتى أمر الحاكم بأمر الله بالقبض على جماعة منهم ، وضربهم بخمسمائة سوط ، فاذا مات أحد منهم رموا بجثته للكلاب ، وإن لم يمت أعيد ضربه ، « فبذل جماعة منهم مالا عظيما ، على أن يستبقوا ، فلم يقبل منهم ، واستمرت الشجناء بينهم » (٤٨٥) .

استمر الخلاف والخصام بين منصور بن عبدون الناظر في الدواوين بمصر ، وبين بني المغربي ، وقتل كثير منهم . ولكن ما لبث أن تغير الخليفة الحاكم على ابن عبدون ، وقتله - وكانت هذه هي سياسة الخليفة الحاكم دائما ، يقرب اليه الأشخاص ، ويكثر من الهدايا اليهم ، ويجعلهم في أعلى مناصب الدولة ثم ما يلبث أن يحرق عليهم ، فيقتلهم ، ويصادر أموالهم وأملأهم - ويبدو أن ابن عبدون كان كاتباً قبل توليه الوزارة ، وبعد أن تولاهما لقب بالكافي . وقد استوزر الحاكم بأمر الله بعده ، زرعة بن نسطورس ولقبه بالشافى ، فى سنة ٣٩٧ هـ (٤٨٦) .

كان من بين القبط المقربين الى الخليفة الحاكم ، أيضا ، صاعد ابن عيسى بن نسطورس الذى اصطنعه الحاكم فى سنة ٤٠٩ هـ ، ورفع من شأنه ، وخلع عليه ، وكتب له سجلا ، صار بمقتضاه « قسيم الخلافة » الا أنه ما لبث أن تعرض لانقلاب الحاكم عليه ، وغدر به اذ أمر بقتله فى ذى الحجة من السنة نفسها ، وبذلك زال أمره (٤٨٧) . وتشير الرواية القبطية الى أن والى الاسكندرية ، فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، كان من القبط ، ويسمى أبو مليح ابن قوطية (٤٨٨) . وفى الواقع أنه كان يلى حكم الاسكندرية منذ خلافة العزيز بالله واستمر فى منصبه حتى خلافة ابنه الحاكم بأمر الله .

ونستخلص من الأوراق البردية التي ترجع الى هذا العصر ،
أن القبط كانوا يعملون فى جباية الخراج وأعمال الجهيذة ، نذكر
منها بردية ، يرجع تاريخها الى سنة ٤٠٥ هـ ، وتتضمن ايصالا
عن دفع الخراج عن كورة الأشموين ، وفيها أن الجهيذ ، كان قبطيا
ويسمى بquam بن شنودة (٤٨٩) .

وبرز أهل الذمة ، أيضا ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله ،
اذ كان يحبهم ، ويكثر من مجاملتهم واعتمد على كثير منهم فى ادارة
شئون البلاد وتنظيمها . وقد ذكرنا أن بعض الذميين وأكثرهم من
اليهود كانوا قد تركوا دينهم ، واعتنقوا الاسلام فى سبيل
الاحتفاظ ببعض وظائفهم . والى جانب هؤلاء نجد أن كثيرا من
الذميين ، قد شغلوا أعلى الوظائف فى البلاد ، ولعبوا دورا مهما
فى سياستها ، مع احتفاظهم بدينهم . ونذكر من هؤلاء الشيخ
أبو زكريا يحيى بن مقارة ، وكان يتولى ديوان النفقات (٤٩٠) .
ومنهم أيضا أبو السرور يوحنا بن يوسف الأيخ ، وكان كاتب
سر الخليفة ، ويتمتع بمكانة عظيمة لديه حتى انه عهد اليه بأمر
مصر وأعمالها ، « وما كان فوق يده ، يد ، الا يد الخليفة » (٤٩١)
ونستخلص من كتابات المؤرخين المختلفة ، أنه كان يقوم بمهام
الوزير .

كان ابن الأيخ كريم الخلق ، يحسن الى القبط والمسلمين على
حد سواء ، ويقضى حوائج الجميع دون أدنى محاولة لنصرة القبطى
على المسلم ، كما كان يفعل غيره من القبط عندما يستخدمهم الخليفة .
كما كان يحاول - على قدر استطاعته - ازالة الضيم والجور عن
الجميع على اختلاف أديانهم ولذلك أحبه القبط والمسلمون على حد
سواء (٤٩٢) .

وتمتع أبو السرور بن الأيخ ، بمكانة عظيمة عند الخليفة المستنصر ، فكان ساعده الأيمن فى تصريف أموال دولته ، وكثيرا ما كان يقول للأمراء المسلمين ، وحجاب القصر ، وكبار رجال الدولة : « هذا النصرانى ، هو حركة دولتى ، وبغيره ما كان ينتظم للمملكة حال » . وكان بذلك يثير حقد بعض الأمراء على ابن الأيخ ، حتى حاول أحدهم الايقاع به عند الخليفة ، فقال له : « انه قبطى لا يؤمن جانبه » وأكثر هذا الأمير من السعاية ضد الوزير القبطى ، أمام الحاضرين فى مجلس الخليفة المستنصر من الأمراء المسلمين وكبار رجال الدولة (٤٩٣) . وغضب المستنصر من هذا الأمير - ويسمى سهم الدولة - وأمر وزيره ، وكاتم سره القبطى ، بالحجز على جميع أموال هذا الأمير وأملاكه والختم عليها ، وأن يبيع منها ما يحب بيعه ، ويحمل أموالها الى بيت المال ، ويسجل الباقى فى ديوان المال . كما أمر الخليفة - فى الوقت نفسه - بالقبض على الأمير المسلم ، الناقم على وزيره ، ووضعه فى السجن (٤٩٤) .

كان أبو السرور يوحنا طيب القلب ، حسن النية ، ولذا حزن لما حل بالأمير سهم الدولة ، كما خشى اجتماع الأمراء المسلمين عليه ، انتقاما لما حل بزميلهم ، فاتصل بهم ، وطيب خاطرهم ، وطلب منهم التعاون معه فى التماس الصفح والعفو من الخليفة لسهم الدولة ، ونجح فى مساعيه ، وأطلق سراح سهم الدولة ، وأعيدت اليه أمواله وأملاكه (٤٩٥) .

وبالرغم من ذلك استمر سهم الدولة ، يكن كل حقد وكراهية للوزير القبطى : فلما كانت سنة ٤٦٥ هـ ، حاول الافرنج غزو دمياط ، فخرج المستنصر بجنوده لردهم على أعقابهم . فرأى سهم الدولة انتهاز الفرصة لتدبير مكيدة ، ضد أبى السرور ، بالاتفاق مع غلام كان يعمل فى خدمته ثم طرده ، فحنق عليه واتصل

بسهم الدولة ، وكتب سهم الدولة كتابا على لسان أبي السرور
للافرنج ، ذكر فيه دلائل وأمورا ، يستعينون بها في هزيمة المسلمين
وهلاكهم . ورسم لهم في كتابه خطة المسلمين ، وأمر الغلام بحمل
الخطاب الى الافرنج في طريق جند الخليفة (٤٩٦) .

وقبض الجند المسلمون على الغلام ، وقدموه للمستنصر ،
فأخذ الكتاب منه ، وقرأه ، وعلم منه أن سيده كاتب سر الخليفة
أبي السرور هو الذي أمره بتوصيل الكتاب الى الافرنج ، فغضب
الخليفة أشد الغضب ، وأحضر أبا السرور وقال له : « ويك
يا ملعون يا نجس ، أيش كنت تريد تكون في دولة الافرنج ، هل
وصل أحد لما وصلت أنت في الجاه في أيامي ، أنت الخليفة ، أنت هو
صاحب البلاد ، لعن الله من يلبس النصارى ثوب العز » وأمر
بالقبض عليه وقتله ، ومصادرة كل أمواله وأملاكه . وقد نجح أبو
السرور من القتل ، اذ شفع له لدى الخليفة ، أحد الأمراء المسلمين
اكتفاء بتعذيبه ومصادرة أمواله (٤٩٧) .

وبعد أن تم للمسلمين الغلبة على الافرنج ، واستعادة
دمياط ، وتنظيم أمورها ، طلب الخليفة شئق أبي السرور يوحنا ،
عقابا له على ما كان يريد به المسلمين ودولتهم . ولكن الخليفة سرعان
ما فطن الى المكيدة التي دبرها سهم الدولة بالاتفاق مع الغلام (٤٩٨) .
فأمر المستنصر بشئق الغلام ، وسجن الأمير سهم الدولة ، ومصادرة
كل أمواله وأملاكه ، على حين يرد الى أبي السرور يوحنا كل ما أخذ
منه من الأموال . ولكنه رفضها قائلا للمستنصر : « يا مولانا ، من
مالك قدمت لك ، وكل ما أنا فيه من نعمتك ، وحصل لي من جاهك ،
وعندي كثير من انعامك ، وصدقاتك مما لا أستحقه » . فاستحسن
الخليفة ذلك منه . ثم طلب أبو السرور من الخليفة ، أن يأذن له
في بناء كنيسة فكان له ما أراد (٤٩٩) .

ولما توفي أبو السرور يوحنا ، حزن عليه المستنصر أشد الحزن ، وقال للأمراء المسلمين : « والله يا أمراء هذا كان نعم الوزير ، ونعم المشير ، وكنت مستبارك برأيه ومشورته ، ومهما سألته عنه ، أجابنى من ظاهر قلبه من غير دفتر » (٥٠٠) . وأمر الخليفة بإحضار ابن أبي السرور إليه وسلم إليه ديوان أبيه ، كما عين له بعض الكتاب المعلمين لتعليمه ، فتعلم فى أقل من سنة أصول الحساب والخط العربى والنحو ، وبذلك واصل القيام بمهام أبيه بعهد من الخليفة المستنصر (٥٠١) .

كما نجد أيضا ، كثيرا من المستخدمين القبط فى الدواوين المختلفة فى خلافة المستنصر ، ومنهم الشيخ أبو الفضل يحيى بن ابراهيم ، وكان يتولى ديوان الأبواب وديوان الصناعة (٥٠٢) وقد تولى هذا الديوان فى سنة ٤٧٨ هـ الشيخ الأثير نجيب الدولة ومكينها أبو مليح مينا بن زكريا ، فى وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى (٥٠٣) .

أما ديوان المجلس (٥٠٤) فكان يتولاه فى ذلك العصر ، الشيخ أبو الطيب سهلون بن كيل ، وكان يجلس فى قبة الخراج بالقصر . وكان شديد الظلم بالناس ، فصادر أموالهم واشتد فى عقوبتهم . وكان يساعده فى هذه السياسة الظالمة كاتب الخزانة أبو الحارث . وامتد ظلمه وقسوته الى المسلمين والقبط اخوانه فى الدين - على حد سواء - ومن حلت بهم عقوبتهما موهوب بن مفرج الاسكندراني وأبو الخير بن أبي السرور بن الأيخ ، وأبو الفتح بن روفائيل الكاتب . وكان يطالبهم كما يطالب غيرهم بدفع مبالغ اضافية من الأموال (٥٠٥) .

وامتد هذا التعنت والظلم الى جميع أنحاء البلاد المصرية . فلما علم الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى بهذه المظالم أمر بالقبض

على سهلون بن كيل وأبى الحارث ، وطيف بهما ، ثم صلبا على باب النصر وقتلا رميا بالنشاب (٥٠٦) .

ومن المستخدمين القبط أيضا فى ذلك العصر ، أبو المليح منصور ، ويعرف بابن العلمى ، وكان يتولى امر الاسكندرية (٥٠٧) . وهذا قام الذميون ، وخاصة القبط منهم ، بدور عظيم فى شئون مصر السياسيه والاداريه فى خلافة المستنصر ، الذى اشتهر بحبه وبحسن معاملته لهم . واستمر الذميون يقومون بالدور نفسه حتى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله ، الذى كان جل اعتماده عليهم ، فكان منهم الكتاب وعمال الدواوين دون الوزراء . ذلك أنه منذ وزارة بدر الجمالى - فى خلافة المستنصر بالله - وحتى خلافة الحافظ لدين الله الذى استوزر بهرام الأرمنى ، لم يتخذ الخلفاء وزراء من أهل الذمة ، وكان استخدامهم قاصرا على أعمال الكتابة ومختلف الدواوين . ونلاحظ ذلك أيضا بعد زوال امر بهرام الأرمنى وانتهاء عمله فى الوزارة للخليفة الفاطمى الحافظ .

ويصف بعض المؤرخين استخدام القبط ، خاصة فى خلافة الأمر بأحكام الله ، فيقولون : « فى أيام الأمر بأحكام الله ، بالديار المصرية ، امتدت أيدى النصارى وبسطوا أيديهم بالخيانة ، وتفنونوا فى أذى المسلمين ، وأيضا المضرة اليهم » (٥٠٨) . ونلاحظ فى هذا العصر ، أن معاملة الموظفين القبط السيئة ، امتدت الى المسلمين ، وإلى اليهود أيضا .

ونذكر من المستخدمين القبط فى ذلك العصر ، الشيخ أبو الفضل بن الأسقف ، وكان يتولى ديوان المجلس ، والنظر فى جميع الدواوين وأعمال الدولة (٥٠٩) . وكان مثله مثل سائر كبار المستخدمين القبط فى رعاية مصالح اخوانهم فى الدين ، وتسهيل

أمورهم وتحقيق رغباتهم . ولذا نجد ابن الأسقف يطلب من الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش اعفاء البطريرك أنبا مقارة ، من الرسوم التي جرت العادة بدفعها لوالى الاسكندرية والمستخدمين هناك ، وأخبره أنه لا يتمكن من ذلك ، لأنه راهب لا يمتلك شيئا . كما التمس منه استدعاءه اليه وتطبيب خاطره ، وتدعيم مركزه (٥١٠) .

واستجاب الأفضل ، لطلب ابن الأسقف ، وأمر بكتابة منشور الى والى الاسكندرية وغيرها من الأقاليم التى يمر بها البطريرك فى طريقه ، يأمرهم فيه باعزازه واکرامه ، واعفائه من الرسوم ومساعدته ومعاضدته فى كل ما يحتاج اليه (٥١١) .

وكان من بين المستخدمين القبط فى ذلك العصر ، أبو اليمى وزير متولى ديوان أسفل الأرض ، وكان يشترك مع ابن الأسقف فى السعاية بالموظفين اليهود ، لحقدهم الشديد عليهم ، لما تمتعوا به فى ذلك العصر من المكانة العظيمة لدى الخلفاء ، والعمل على استخدامهم فى بعض الوظائف . وكانت دسائس كل من ابن الأسقف وأبى اليمى وزير تثير المشاعر ضد اليهود فى كل البلاد المصرية (٥١٢) . ونلمس من كتابات المؤرخين المختلفة ، بعد ذلك ذكر الموظفين اليهود ، الا عددا قليلا جدا منهم ، ولعل ذلك راجع الى أن معظمهم كان يعمل بالتجارة ويتعدون عن السياسة والحكم ، التى كان يقوم القبط بالجانب الأكبر منها .

ونذكر من المستخدمين اليهود فى ذلك العصر أبا المنجى بن شيه الذى عهد اليه الأفضل بالاشراف على شئون الزراعة . فقام بحفر قناة تبدأ من النيل ، وتخدم أراضى الدلتا وقد نسبت هذه القناة اليه وسميت باسمه . كما قام أبو المنجى ، بخدمات عظيمة فى الحياة الزراعية فى ذلك العصر ، ولكن ما لبث أن وشى به ، لدى الأفضل ، بعض الجاسدين عليه ، فأمر بسجنه (٥١٣) .

واشتهر من كتاب الدواوين آنذاك : أبو العلاء بن تريك
 وكان محبا للعلم ، ويعمل في ديوان المكاتبات (٥١٤) ، ثم عمل
 في بيت المال (٥١٥) . ولما استحدث الأفضل ديوان التحقيق في
 سنة ٥٠١ هـ ، عهد به الى الشيخ أبي البركات يوحنا بن أبي
 الليث (٥١٦) . ولما توفي ابن الإسقف ، جعل كل المهام التي كان
 يقوم بها ، الى الشيخ أبي البركات . فتسلم النظر في الدواوين
 والأموال والمصالح في جميع أنحاء البلاد المصرية ، واستمر يتولاها
 حتى قتل في سنة ٥١٨ هـ (٥١٧) . كما استخدم الأفضل أيضا
 القبط في الديوان الخاص . فقد سوليه منهم آنذاك : أبو الفضل
 جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبي قباط (٥١٨) .

ويذكر يعقوب مان (Mann) (٥١٩) أن بعض الوثائق تشير
 الى أن الأفضل كان يقرب إليه القبط أكثر من اليهود . وأنه في
 وزارته ، في عهد الخليفة الأمر ، تعرض اليهود للأخطار وخاصة
 بعد وفاة تاجد اليهود ميوراك (Memorak) الذي كان له شأن في
 تاريخ مصر السياسي ، كما كان على علاقة طيبة بالأفضل .
 ويضيف مان ، الى ذلك أن المستخدمين القبط هم الذين كانوا
 يسيئون لليهود ، ويوقعون بهم لدى كبار رجال الدولة . وكان
 أول ما فعله الشيخ أبو البركات يوحنا ، عزل الموظفين اليهود من
 الوظائف التي كانوا يشغلونها في ذلك العصر . ولكن بعد وفاته
 صار لأعداء اليهود اليد العليا في البلاد ، وقد حاول اليهود الانتقام
 من الشيخ أبي البركات ، فاتهموه بمراسلة الإفرنج في بلاد الشام .
 والتعامل معهم بغير المصلحة . وهكذا كان بين يوحنا أهل الذمة في
 مصر على عداء فيوقع كل فريق بالآخر . ولما مات يوحنا ،
 ومن القبط والذين اشتهر أمرهم في عهد الخليفة بالامر
 الراهب أبو نجاح بن ميتا . وكان يعمل في خدمة الشيخ أبي

البركات يوحنا بن أبى الليث (٥٢٠) ثم دخل فى خدمة الخليفة -
فى سنة ٥٢٠ هـ - بعد انتهاء أمر الشيخ أبى البركات - وكسب
إليه يشكو المستخدمين القبط ونهبهم الأموال وعدم صلاحيتهم ،
وقال له : « انهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها » (٥١١)
فسمح الخليفة له بمصادرة أموالهم (٥٢٢) ، كما أمر الخليفة بإطلاق
يد الراهب فى الدواوين والحسابات (٥٢٣) . واتخذ الراهب
لقب : « الأب القديس ، الروحاني النفيس ، أب الآباء ، وسيد
الرؤساء ، مقدم دين النصرانية ، وسيد البتركية (يعلمها البتركية)
صفي الرب ، ومختاره ، وثالث عشر الحوارين » (٥٢٤) .

وكان الراهب ، فى أول عهده ، جوادا ، كريما ، وأكثر من
فعل الخير ، فعم الرخاء البلاد ونشطت اقتصاديات مصر ، وزادت
الإيرادات ، ولكنه ما لبث أن استبد بالسلطة وحده ، وقبض على
الكتاب وكبار رجال الدولة (٥٢٥) . وارتفع شأن الراهب ، فكانت
تنسج له فى تنيس ودمياط ، ملابس خاصة من الصوف الأبيض
المحلاة بالذهب وكان يرتدى فوقها غفارة (٥٢٦) ديباج ، ويتطيب
بعدة مثاقيل (٥٢٧) مسك . وكان يركب الدواب بالسروج المحلاة
بالذهب والفضة ، ويجلس فى قاعة الخطابة ، فى جامع عمرو بن
العاص ، حيث يستدعى الناس للمصادرة (٥٢٨) .

سيطر الراهب على الدواوين ومصالح الحكومة ، وبدأ بمصادرة
أموال القبط ، وقبض على الكثير منهم . وبعد أن أنزل الكثير من
الشدائد بأخوانه القبط ، تحول إلى المسلمين ، وأنزل بهم ألوانا من
الأضرار (٥٢٩) . ويقول ابن النقاش (٥٣٠) عنه : « فصادر اللعين
طامة من بالديار المصرية من كاتب وحاكم وجندى ، وعامل وتاجر ،
وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم » .

وهكذا أساء الراهب استعمال سلطانه ، والحق الاذى بكل المصريين من القبط والمسلمين ، على اختلاف مراكزهم فى الدولة . فلما تمادى فى استبداده ، حاول بعض شيوخ الكتاب نصيحته حتى يعدل عن سياسته « وأشاروا عليه بترك ما يكون سببا فى هلاكه » . وأفهموه أن عاقبة ذلك ستكون سيئة (٥٣١) . ولكن الراهب أجابهم قائلا : « نحن ملاك هذه الديار ، حرثا وخراجا ، ملكها المسلمون منا ، وتغلبوا عليها ، وغصبوها ، واستملكوها من أيدينا ، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين ، فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبة الى من قتل من رؤسائنا وملوكنا ، فى أيام الفتوح فجميع ما نأخذ من أموال المسلمين وأموال ملوكهم ، وخلفائهم نحن لنا ، وهو يصدق ما نستحقه عليهم . فاذا حملنا لهم مالا كانت المنة لنا عليهم » (٥٣٢) . أى ان الراهب أراد بتصرفاته هذه ، الانتقام لقيط مصر من العرب المسلمين ، فى حين أن جميع المصادر التاريخية تؤكد أن العرب المسلمين ، قد أحسنوا معاملة القبط فى أثناء فتح مصر وطوال العصر الاسلامى .

كما أنشد الراهب هذين البيتين ، وهما فى الواقع يعبران عن مشاعره وسياسته نحو المسلمين :

يبتى كرم يتموجها أمها وأهاتها فديست بالقديم
ثم عبادوا حكموها بينهم ويلهم من فعل مظلوم حكم
(٥٣٣)

وعلم الخليفة الأمر ، بمقالة الراهب ، فغضب أشد الغضب ، وقرر الانتقام منه ومن غيره من الذميين . يقول القلقشندى (٥٣٤) : « ثم انتبه من رقدته ، وأفاق من سكرته ، وأدركته الحمية الاسلامية ، والغيرة المحمدية ، فغضب لله غضبة ناصرة للدين ، وثائر للمسلمين ، فالبس أجل النمة الفيار ، وأنزلهم بالمنزلة التى أمر الله أن ينزلوا بها من الذل والهغار ، وأمر أن لا يولوا شيئا من أعمال الاسلام .

وأن ينشأ في ذلك كتاب يقف عليه الخاص والعام ، • سنذكر نص هذا الكتاب ، في نهاية الرسالة ضمن الملاحق •

استدعى الخليفة الأمر ، الراهب ، وسأله عن حقيقة ما سمعه ، فلم يجبه بشيء ، فأمر والي مصر ، بتسليمه الى الشرطة ، وضربه بالنعال حتى يموت (٥٣٥) • وعلى أثر ذلك غضب الخليفة على كل الذميين ، وقرر عدم استخدامهم ، وتطبيق الأحكام الإسلامية عليهم ، والتشديد عليهم في الالتزام بها •

الا أن هذه السياسة - سياسية عدم استخدام الذميين - في شئون الحكم والإدارة - لم تدم طويلا ، ذلك أنه عندما تولى الخلافة الجاهظ بن الدين بالله (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ١٢٨١ - ١٢٩١ م) استوزر أجيد الذميين وهو بهرام الأرمني في سنة ٥٢٩ هـ ، وظل يتولى الوزارة حتى ربيع الآخر سنة ٥٣٨ هـ ١٢٤٦ م) وعظم أمر هذا الوزير انتهى عند الخليفة الجاهظ ، وحتى ذكر كلام المسلمين فيه لأجل منهجه وحسدوه لأجل محبة الخليفة له • وكونه أعلى كلمته عليهم • وكان للنصارى في أيام دولته ، نفاذ كلمة ، وعزة نفس وكل تصرف جليل من الدواوين الكبار الذي للخليفة والوزراء ، في أيديهم • وكان منهم النظار والمشارفون في جميع أرض مصر ، قبلها وبحريها وتغورها • (٥٣٧) ونرى من ذلك ان استخدام الخلفاء الفاطميين لأهل الذمة ، لم يكن قاصرا على القبط واليهود من المصريين ، بل استخدم بعضهم ، بعض الأجانب من غير المسلمين ، ومنحوهم كثيرا من السلطات • وكان هؤلاء يجابون القبط المصريين ، فابتسح نفوذهم جميعا •

وكان يتولى ديوان التحقيق في وزارة بهرام الأرمني الشيخ أبو زكريا بن يحيى بن بولس الكاتب النصراني • وقد خلق عليه الخليفة دراعة (٥٣٨) وأقام داخل القصر ، في مواضع أقرده له • وقد استخدم معه اثني عشر كاتباً قبطياً (سنة ٥٣٠ هـ) (٥٣٩) •

وهكذا انبسطت أيدي أهل الذمة ، وخاصة المسيحيين اليعاقبة منهم ، في مختلف شئون الحكم ، وصار لهم النفوذ والسيادة على المسلمين .

وغضب المسلمون ، لعلو شأن القبط وغيرهم من المسيحيين . وتسلطهم عليهم ، ورأوا التخلص من نفوذهم وسلطانهم في البلاد ، وذلك بالقضاء على عهد بهرام الأرمني . فاجتمع نفر من الأمراء والجند والشعب عامة ، واستصرخوا برضوان بن ولخشي ، وكان الحافظ يحبه ، ويلقبه بلقب « فحل الأمراء » فاستنجدوا به وقالوا له : « وما للمسلمين من ينقذهم من اهانة الأرمن غيرك ، فان قووا أكثر من هذا ، تنصر كثير من المسلمين » . فحشد ابن ولخشي الجند ورفع المصاحف على أسنة الرماح (٥٤٠) . ورفض بهرام قتال المسلمين ، وقال لأصحابه ، انه قرر لقاء أخيه الباساك والسفر الى بلاد الأرمن ، وترك البلاد لأصحابها وأمرهم بحمل ما يمكنهم حمله من الأموال والمتاع كما قال لهم : « ومملكة هذه الديار ، قد جعلها الله للمسلمين ، فما يجوز ، ولا يحل لي من الله أن أقاتل القوم على مملكتهم ، وأنتزع منهم حقهم . ولو لم يستعن بي الخليفة ، على ما جرى عليه من ولده ، ورضي بي ، بما فعلته من خدمته ، وطاعته ، ما ابتدعت شيئا من نفسي » (٥٤١) وذهب بهرام الى قوص ، فوجد أهلها ، قد ثاروا ، ضد واليها الباساك وقتلوه . فلجأ بعد ذلك الى الديارات ، حيث عكف على العباداة ، وترك الأمور الدنيوية (٥٤٢) .

أما رضوان بن ولخشي فقد استوزره الخليفة الحافظ في سنة ٥٣١ هـ . وأمر ابن ولخشي بنهب الكنائس . وأحرق المسلمون دير الأرمن ، وقتلوا بطركهم ، وكل من وجدوه معه من الرهيان . كما أمر بعدم استخدام أهل الذمة ، وخاصة القبط وغيرهم من

المسيحيين ، في الدواوين . كما أن يشهد أهل الذمة الزنار في
أوساطهم ، وألا يركبوا الخيل ، كما ضاعف الجزية عليهم (٥٤٣) .
وكان ابن ولخني ، أول وزير ، يأمر بالتضييق على أهل الذمة ،
وينهى عن استخدامهم . ومما تجدر الإشارة إليه أنه بعد زوال وزارة
بهرام الأرمني ، في خلافة الحافظ ، لم يتول أحد من الذميين الوزارة
حتى سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية في سنة ٥٦٧ هـ
(١١٦٩ م) .

لمسنا من دراستنا ، لدور أهل الذمة في إدارة مصر في ذلك
العصر ، كيف كان منهم الوزراء ، والكتاب ، وعمال الدواوين ،
وكيف كان الكير منهم يحظى برضاء الخليفة أكثر مما كان يناله
المسلمون ، ولمسنا تسلط الذميين غالبا على المسلمين ، ومحاباتهم
لاخوانهم في الدين . ويذكر جوتن (٥٤٤) Goiten أن كثيرا من
القبط واليهود ، قد شغلوا أكبر مناصب الحكومة في عهد الخلفاء
الفاطميين ، وعلى حين احتفظ الكثير منهم بدينهم الأصلي ، نجد أن
بعضهم اعتنق الاسلام ، وان حافظوا على علاقاتهم الطيبة مع اخوانهم
في الدين ، واهتموا برعاية مصالحهم .

ويرى أوليري (٥٤٥) O'Leary أن النظم الادارية في الشرق
الاسلامي ، قد أتاحت الفرصة ، لظهار ما انطوت عليه نفوس
الذميين من الظلم والخيانة ، تلك العواطف التي لم يقدرُوا على كبح
جماحها ، حتى قام الدليل على صحة ما اتهموا به . ومع أن
استخدام أهل الذمة في الوظائف المدنية كانت عادة منتشرة في
البلاد الاسلامية ، الا أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم قد بالغوا في
استخدام أهل الذمة في الوظائف المدنية كانت عادة منتشرة في
دراستنا لهذا العصر . والواقع أن أهل الذمة بصفة عامة ، كان لهم
شأن عظيم في ذلك العصر ، فتقلد الكثير منهم الوزارة وقويت
شوكتهم في الدولة (٥٤٦) .

لمسنا من دراستنا لدور أهل الخدمة في الحياة السياسية في مصر في عصر الولاة ، ثم في عصر الدولتين الطولونية والافشيديّة ، موقف الولاة والأمرء المسلمين من اختيار البطررك وإقامته على كرسي البطرركية . وكيف كانت موافقتهم لضرورة إتمام إقامة البطررك الجديد . ونلاحظ أن هذه الظاهرة ، استمرت في عصر الخلفاء الفاطميين ، إلا أن الوزراء في هذا العصر كان لهم دورهم الواضح أيضا في اختيار البطررك ، وتعيينه . كما كان من الضروري أن يتوجه البطررك بعد تعيينه للسلام على الخليفة ووزيره ، وكسب رضاهما ، ونذكر بعض الأمثلة على ذلك فيما يلي :

لما توفي البطررك أنبا زخارياس (٥٤٧) في خلافة الظاهر لأعزاز دين الله ، بدأ القبط وأساقفتهم يفكرون في تعيين بطررك جديد لهم . وطمع البعض في هذا المنصب عن طريق اتصالهم بالخليفة ووزرائه . ولكن فريقا منهم أسرع إلى الوزير على بن أحمد ، وحادثوه في هذا الأمر . وكان هذا الوزير يحب القبط ويميل اليهم ، فأخبرهم ، بأعفاء البطررك الجديد من الرسوم التي كان مقررا دفعها عند إقامته ، ومقدارها ثلاثة آلاف دينار . ودعاهم إلى اختيار بطرركهم وإقامته ، وأشار عليهم باتباع الطريقة السائدة في بغداد عند اختيار المسيحيين هناك لبطرركهم ، وهي طريقة القرعة (٥٤٨) .

واجتمع الأساقفة ورؤساء وادي هبيب من أجل ذلك ، واستقر رأيهم على إقامة القس سنودة بطرركا لهم (٥٤٩) .

وكان من العادات المتبعة في ذلك العصر ، أن يتوجه البطررك بعد إقامته إلى قصر الخليفة ، ودار الوزير للسلام عليهما ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها ما حدث في عهد الخليفة المستنصر بالله ،

ووزيره أمير الجيوش بدر الجمالى . فبعد أن تمت مراسيم اقامة الأب كيرلص بطركا خرج من الاسكندرية قاصدا القاهرة ، للسلام على الخليفة ووزيره . فلما وصل الى جزيرة الروضة أرسل الأب يعقوب ، أسقف مصر ، الى الشيخ أبى الفضل يحيى بن ابراهيم ، صاحب ديوان الأبواب ، وأعلمه بوصول البطررك الجديد (٥٥٠) .

بادر الشيخ أبو الفضل يحيى ، بارسال المراكب لنقل البطررك ومن كان فى صحبته من الأساقفة والكهنة ، الى مصر ، واجتمع عن الشاطيء عدد غفير من الشعب ، وسار البطررك بعد ذلك فى موكب عظيم حتى بلغ القصر ، ودخل البطررك الى مجلس المستنصر ، حيث كانت معه أمه وأخته . ورحب الخليفة والحاضرون بالمجلس ، بالبطررك الأب كيرلص ، وطلبوا منه البركة والدعاء لهم ، وقالوا له : « جعلك الله مباركا علينا وعلى دولتنا » وأمر الأسقف بطرس أسقف دميرة - أن يقرأ الدعاء للخليفة ، أمام باب القاعة التى يجلس فيها (٥٥١) .

غادر البطررك قصر الخليفة ، وتوجه الى دار الوزير ، أمير الجيوش بدر الجمالى ، وبين يديه القرآن . وأحسن الوزير لقاء البطررك وأكرمه ، ودعا البطررك له كثيرا . وقد أمر الوزير بدر الجمالى ، الى مصر ، بمرافقة البطررك الى أى مكان يريد الذهاب اليه « وأن يراعيه ويخدمه ، ويقضى حوائجه مادام بمصر » (٥٥٢) .

وهناك أمثلة أخرى نوضح دور الخليفة فى اقامة البطارك الجديد فى ذلك العصر منها ما حدث فى خلافة الحافظ ، عندما توفى الأب غبريال بن تريك . واتفق القبط على اقامة ميخائيل بن دنشترى بطركا لهم . « ولما اتفقت الجماعة على الرضا به ، كرزوه شماسيا ، ثم قسا ، وفى ثالث يوم كرزوه قمصا فى الكنيسة المعاقبة بمصر ، بعد استئذان الخليفة يومئذ ، وخروج أمره بتقديمته . وكتب له سجلا بذلك » (٥٥٣) .

وتوفي البطررك الأب ميخائيل (فى جمعة عيد الفصح فى ٢
برمودة. سنة ٨٦٣ ش) وتجدد النزاع حول كرسى البطرركية :
واتفق رأى رؤساء القبط والأساقفة على اقامة يونس بن أبى الفتح
- أحد رهبان دير أبى يحنس - بطرركا لهم ، وتسميته باسم يوحنا .
فاستدعوه الى القاهرة ونصبوه قسا ثم قمصا بكنيسة المعلقة .
ولكن يونس بن كدران ، طمع فى تنصيبه بطرركا ، واتصل بالخليفة
وموظفيه ، ينشد مساعدتهم له . فأمر الخليفة بعقد مجلس للبحث
فى المرشحين لهذا المنصب واختيار أحدهم (٥٥٤) : وحضر هذا
المجلس الأساقفة وخواص الدولة ، وقاضى القضاة ، وصاحب ديوان
الانشاء ، وغيرهم من كبار رجال الدولة . وجرت بين الجميع ،
مناقشات وحوار ، وأصر الأساقفة على اقامة يونس بن أبى الفتح
بطرركا دون ابن كدران ، الذى كان يطمع فى معاونة الخليفة وأصحاب
السلطان له ، واستشهد الأساقفة ببعض المزامير ، لتأييد وجهة
نظرهم (٥٥٥) .

تم استمر رأى ، على عقد مؤتمر آخر بالاسكندرية ، يحضره
كبار رجال القبط والأساقفة والكهنة ، حتى يتم الاتفاق على اختيار
أحد المرشحين . وحضر حاكم الاسكندرية هذا المجلس ، كما حضره
القاضى والموظفون القبط ، والتجار والأساقفة من أهالى القسطنطينية
والقاهرة . وافتتح والى الاسكندرية هذا المجلس قائلا : « قد أمر
مولانا ، سلام الله عليه ، أن الذى ترغبون فيه من هذين الرجلين ،
قدموه عليكم ، فاتفقوا على من ترضون به منهما » واستقر رأى الجميع
على يونس بن أبى الفتح ، فتم تكريزه بالاسكندرية (يوم الأحد
وفى سنة ٨٦٣ ش) ثم عاد الى مصر حيث استقبله القبط أحسن
استقبال ، وسار فى موكب عظيم حتى كنيسة أبى مرقورة ، مقر
اقامته ومسكنه (٥٥٦) .

ولنا أن يتساءل بعد ذلك عن موقف الخلفاء الفاطميين من
البطرك الملكاني ، وما موقفهم من كل من الملكانيين واليعاقبة ؟؟
والحقيقة أننا لا نجد في المصادر التاريخية إلا إشارات يسيرة إلى
البطرك الملكاني في ذلك العصر . ويبدو أنه كان يعيش مع اخوانه
الملكانيين في هدوء وسلام ، يؤدون ما عليهم من التزامات دون
معارضة . وتذكر الزاوية القبطية أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله ،
كان له دوره الواضح في إقامة البطرك الملكاني في عصره ، وهذا
البطرك هو الأب أرساني ، أخو زوجته الملكانية المذهب ، وأمر
الخليفة العزيز ، برد الكنائس إليه بعد انزاعها من اليعاقبة (٥٥٧) .

ولما توفي البطرك أرسانيوس - كما يسميه ابن سعيد
الأنطاكي - في أثناء موجة سخط الحاكم بأمر الله ، ضد أهل الذمة
جميعا ، ظل الملكانيون بدون بطرك ، حتى أذن الخليفة الحاكم لأهل
الذمة جميعا بعمارته الكنائس ، وأمر برد أوقافها إليها ، فرأى
الملكانيون إقامة بطرك لهم . وانفق الجميع على إقامة الأب جرجس
(جرجيوس) بطركا ، وهو من أهل دمياط ، وقد ترهب بدير طور
سيناء . كما أقاموا سنة ٤١١ هـ ، أساقفة ملكانيين لدمياط ومصر ،
وبدءوا في تعمير كنائسهم وأديرتهم . وكان يعاونه في تحقيق ذلك
كله ، أخت الحاكم بأمر الله (٥٥٨) . ومما لاشك فيه أن هذه
السيدة هي ابنة زوجة الخليفة العزيز بالله ، المسيحية الملكانية ،
الرومانية الأصل . ولذلك كانت تساعد الملكانيين ، وتعمل على
تحقيق رغباتهم ، وبلوغ آمالهم ، مما يوفر لهم كل أمن وسلام .

ونستخلص من هذه الدراسة ، أن أهل الذمة كانوا يتمتعون
بالحرية في حياتهم الدينية والدينية ، وكانت إقامة البطرك
القبطي أو الملكاني تتم في هدوء وسلام دون اعتراض من جانب
الخلفاء الفاطميين ، الذين اشتهروا بحبهم للذميين ، وتقريبهم لهم ،

والاعتماد عليهم في شئونهم وشئون دولتهم ، ويمكننا أن نقول ان العصر الفاطمي كان من أزهى العصور التاريخية بالنسبة لأهل الذمة في تاريخ مصر الإسلامية ، وان كان لم يخل أحيانا من بعض الفترات المحدودة التي عانى أهل الذمة منها ، وخاصة في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، الذي اشتهر بالقلب والتغير السريع ، وشملت مظالمه أحيانا الذميين والمسلمين ، على حد سواء .

كان عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) أسوأ الفترات التي شهدتها أهل الذمة . وكان يتولى البطركية حينئذ الأب زخارياس ، الذي أقامه اليعاقبة بطركا لهم (سنة ٣١٣ هـ - ١٠٠٤ م - ٧١٦ ش) واستمر يتولى منصبه ثماني وعشرين سنة . منها تسع سنوات ، حفلت بالشدائد ، نتيجة سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله نحو أهل الذمة (٥٥٩) ويقول المقرئ (٥٦٠) : « وفي بطركيته نزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها . وذلك أن كثيرا منهم ، كان قد تمكن في أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء ، وتعاضموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم ، فاشتد بأسهم ، وتزايد ضررهم ومكايدهم للمسلمين ، فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك ، وكان لا يملك نفسه اذا غضب » .

ونرى أن سياسة الحاكم لم تكن موجهة ضد القبط فحسب ، بل نحو اليهود والمسلمين أيضا . فقد اشتهر الحاكم بحدة الطباع في معاملته لخاصته وقواده ، وبقسوته أحيانا في معاملة رعاياه ، وتقلب سياسته ، حتى انه تنكر لوصيه ومربيه برجوان (٥٦١) . وتشير بعض المصادر الى أن الحاكم كان قد أنقذ حوالى مائتى ألف يهودى ، من أيدي جماعة من المغيصبين كادوا يفتكون بهم في يناير سنة ١٠١٢ . وتمتدح هذه المصادر سياسة هذا الخليفة الفاطمي

ولكن هذه السياسة العادلة المتسامحة ، لم تكن تستمر طويلا ،
اذ لم يلبث أن عاد الحاكم الى سياسة أخرى ، تتصف بالاضطهاد
والظلم (٥٦٢) .

استدعى الحاكم ، عشرة من مقدمى الأراخنة والكتاب القبط ،
وهندهم بالقتل ، والتعذيب ، ان لم يعتنقوا الدين الاسلامى .
ونذكر من هؤلاء أبا نجاح ، وكان قبطيا أرثوذكسيا فحاول الخليفة
أن يجذبه الى الاسلام ، ويجبره على التخلي عن الدين المسيحى فقال
له : « أريد أن تتخلى عن دينك ، وتعود الى دينى ، فأجعلك وزيرى ،
وتدبر أمور مملكتى » فطلب أبو نجاح منه أن يمهل الى اليوم التالى ،
فمضى أبو نجاح الى أهله ، وأصدقائه ، ودعاهم الى اليمان الصادق
والتمسك بدين المسيح مهما كان الأمر . وعاد الى الحاكم ، وأعلمه
بتمسكه بدينه مهما تعرض للتعذيب . وعند ذلك أمر الحاكم بضربه
الف سوط حتىلقى حتفه » (٥٦٣) .

وتذكر الرواية القبطية أنه كان من بين هؤلاء القبط الرئيس
فهد بن ابراهيم الذى قدمه الخليفة الحاكم على جميع الكتاب
وأصحاب السواوين وقد قال له الحاكم : « أنت تعلم أننى اصطفيتك ،
وقدمتك على كل من فى دولتى ، فاسمع منى ، وكن معى فى دينى ،
فأرفعك أكثر مما أنت فيه ، وتكون لى مثل أخ » ولكنه أصر على
تمسكه بالدين المسيحى ، فأمر الحاكم بضرب عنقه فى الحال (٥٦٤) .

وأصر باقى الأقباط العشرة على التمسك بعقيدتهم المسيحية .
فأمر الحاكم بتعذيبهم وضربهم بالسياط ، ولما اشتد بهم التعذيب
والضرب ، أعلن أربعة منهم اعتناقهم الاسلام (٥٦٥) وينفرد ساويرس
— دون غيره من المؤرخين القدماء — بذكر هذه الرواية القبطية التى
تتهم الخليفة الحاكم بأنه عذب القبط وأمر بضربهم بالسياط حتى
يعتنقوا الاسلام .

ويرى بعض الكتاب المحدثين أن الخليفة الحاكم بأمر الله ،
أراد بذلك تحويل أرباب الوظائف من القبط إلى الاسلام ، بدلا
من طردهم . ذلك لأنه كان يعتقد - كما كان يعتقد غيره من الخلفاء
الفاطميين أو حكام مصر قبل عصرهم - أنه لا يمكن الاستغناء عن
الموظفين القبط في إدارة البلاد ، وجباية أموالها (٥٦٦) .

وقد تنابعت أوامر الخليفة الحاكم بأمر الله ، التي أعاقى
القيسيون منها سواء من القبط أو اليهود . فقد تشدد في تطبيق أشد
الأحكام وأعنفها ، وتدخل في حياتهم العامة والخاصة وفي هيئتهم
وذكوبهم . ونراه يبدأ بكتابة تشجلات إلى ضائر الألقاء المصرية ،
يأمر فيها بالآلة يشرب أحد النبيذ ، وتكسر جميع الأوعية التي يحفظ
فيها النبيذ في كل مكان (٥٦٧) . كما أمر بالتشديد عليهم في منعهم
من ضرب التواقيس . ثم أمر بتزع الصلبيان من فوق قباب الكنائس
وتنحز الصلبيان المرسومة على أيدي القبط (٥٦٨) .

ورأى الحاكم بأمر الله ضرورة التمييز بين المسلمين وبين
أهل الذمة في اللبس والركوب . ففي المحرم سنة ٣٩٥ هـ ، ألزمهم
بشد الزنار في أوساطهم ، وليس الغيار ، وأن يلبسوا العباء
البيضاء على رؤوسهم (٥٦٩) . ثم أمر في سنة ٤٠١ هـ أن يغير
النصارى واليهود الزناير الملونة التي يلبسونها ، وأن يقتصر
على وضع الزناير السود فقط دون غيرها من الألوان ، واستعمال
العباء السود أيضا (٥٧٠) .

وفي سنة ٤٠٣ هـ ، منع الحاكم بأمر الله ، أهل الذمة من
ركوب الخيل ، وأمر بأن يقتصر ركوبهم على البغال والحمير بسروج ،
والجمل من غير محاذة بالنيح . والقصة بغال (الكون من جود مسومة) (٥٧١) .
والآن تكون ركوبهم من الخيل من غير محاذة بالنيح (٥٧٢) .

أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، ألا يركب أحد من النصارى مع
مكارين أو نوتية من المسلمين (٥٧٣) ثم أمر القبط بأن يحملوا في
أعناقهم صلبانا خشبية طولها شبر ، ثم أمر أن يكون طولها ذراعا
ونصفا . أما اليهود فيحملون كبة خشب على شكل رأس العجل
الذي عبدوه في البرية . وما لبث أن أمر الحاكم بأن تكون زنة كل
صليب خمسة أرتال وأن تكون الصلبان كلها مختومة بخاتم رصاص
عليه اسم الخليفة ، وتعلق في رقاب القبط وغيرهم بحبال من ليف .
وأمر الحاكم بعقاب كل من يخالف هذه الأوامر عقابا شديدا (٥٧٤) .

وأمر الخليفة الحاكم بأمر الله بمنع الذميين ، من دخول حمامات
المسلمين ، وجعل لهم حمامات خاصة بهم ، وميز حمامات القبط
بصلبان خشبية ، وميز حمامات اليهود بقرم من الخشب (٥٧٥)
وأمر بأن يكون في أعناق القبط عند دخولهم الحمامات الصلبان ،
وفي أعناق اليهود الجلال ، لتمييز الذميين من المسلمين (٥٧٦) .

واضطرب كثير من أهل الذمة أمام هذه المضايقات المتنوعة الى
اعتناق الاسلام ليأمنوا على أرواحهم ، ولتستقر حياتهم (٥٧٧) .
ويقول ابن سعيد الأنطاكي (٥٧٨) عن الحاكم انه « يتهدد النصارى
ويقرعهم ، ويكثر الأراجيف ، والشفاعات فيهم ، فأسلم كثير من
شيوخ الكتاب المتصرفين وغيرهم من النصارى ، وتبعهم خلق كثير
من عوامهم » وأسلمت أيضا جماعة من اليهود ، ويذكر ابن سعيد
أيضا : أن دور أهل الذمة قد نهبت حتى اضطرب البعض ازاء هذه
المضايقات جميعا الى اعتناق الاسلام حتى تناقص عدد القبط كثيرا ،
في حين تمسك أكثر اليهود بدينهم ولم يعتنق الاسلام منهم غير نفر
يسير .

ويشير يعقوب مان (٥٧٩) الى اسلام بعض اليهود ، تجنباً لهذه
المضايقات ، على حين تمسك آخرون بدينهم ، وفضلوا مغادرة البلاد

المصرية الى اليمن والدولة البيزنطية ، ويشير الى أن بعض الوثائق التي وجدت بالفسطاط ويرجع تاريخها الى سنتي ١٠١٦ ، ١٠١٨ م ، تتضمن أن رئيس الجالية اليهودية ويسمى ابراهيم بن شماريا Ephraim b. Shemary أصر أمام الحاكم على تمسكه بدينه « وأعلن .. أنهم يهود » . كما تتضمن هذه الوثائق أن يعقوب بن يوسف متولى بيت الدين ترك مصر في أثناء هذا الاضطهاد ، وخرج الى الشام حيث أقام في مدينة حلب .

ونتيجة عسف الحاكم بأمر الله ، اضطرب بعض الزعميين الى كتابة الرقاع المتضمنة السب للخليفة الحاكم ، ولأسلافه ، وصنعوا تمثالا لامرأة من الورق ، وألبسوها خفا وازارا ، ونصبوها في الطريق ، وجعلوا في يدها رقعة فيها شتم قبيح للحاكم بأمر الله . فلما قرأها الخليفة الحاكم ثار غضبه ، وأمر بحرق مصر ، وقتل كل من فيها (٥٨٠) .

ويشير المقرئ (٥٨١) الى أن اليهود كانوا يسكنون في حي من أحياء مصر ، ويسمى جارة الجودرية - نسبة الى إحدى طوائف العسكر في خلافة الحاكم بأمر الله ، وتسمى طائفة الجودرية - وعلم الحاكم أن يهود هذه الحارة ، يجتمعون للسمر في أوقات فراغهم ويتغنون :

وأمة قد ضلوا ودينهم مقتل قال لهم نبهم نعم الأدام الخيل

ويسخرون من الحاكم ويقولون يا لايتبى قوله وسماعه ، فأمر الحاكم عند ذلك بأحراق الحارة بمن فيها من اليهود .

كما كتب الخليفة الحاكم بأمر الله ، الى جميع عماله الأقاليم ، بتسكين المسلمين من حدم الكنائس والديارات ، ونهب ما فيها . فم

الهدم كنائس مصر من سنة ٤٠٣ الى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٣ - ١٠١٥ م) فهدمت الكنائس التي بظاهر مدينة القسطنطينية ، وتخربت كنائس القس خارج القاهرة ، وأباح الحاكم ما فيها للعامّة ، فنهبوا منها الكثير (٥٨٢) . كما أمر الحاكم بأمر الله بهدم دير القصير ، ونهبت العامّة ما فيه (٥٨٣) . واستولى الخليفة أيضا على جميع ما بهذه الكنائس من الأمتعة والأواني الذهبية والفضية . وتلاحظ أن الخليفة لم يميز في قراراته هذه بين القبط اليحساقيّة وبين الملكانيين ، فالجميع أصابه الكثير من الأذى ، وتعرضت أديرتهم وكنائسهم للتدمير والخراب على أحد شعوبه لهذا العهد .

في سنة ١٠١٣ هـ (١٠١٤ م) استعاد على مقدونيا في بقض القسطنطينية اليهوديّة ، إنهم أبلغوا اليهود في مصر أنهم تعرضوا لآلي تخريب وأولاهم حتى سنة ١٠١٣ هـ . ثم أعيد لهم أديرتهم وأماكنهم في القاهرة .

جميع معابد اليهود ، وخاصة معبدهم الكبير بالقسطنطينية ، تعرضت لخراب من الأتراك في سنة ١٠١٣ هـ . المخلقة أن أعرض الحاكم بقلده في مختلف أنحاء البندلاب المصرية ، تخريب جميع الكنائس والأديرة والمعابد المسيحية واليهودية على حد سواء ، ونهب محتوياتها .

واضطّر كثير من القبط اليحساقيّة والملكانيين الى خلع الغيار والزّناار والصليب وغيرها وتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، فلم يكتشف أحد حقيقتهم ، وظنّت عامة الناس أنهم قد أسلموا (٥٨٥) .

على حين تمسك بعض القبط بعقيدتهم علانية . ونذكر من هؤلاء الشماس بقيرة . وكان يعمل في الدّيوان ، ثم ترك الخدمة فيه ، وحمل الصليب ، وذهب الى قصر الحاكم بأمر الله ، وصاح قائلا : « المسيح ابن الله » وجاوب الحاكم أقناعه باعتناق الاسلام ، ولكنه أصدر على التمسك بعقيدته ، فكان - كما وصفه ابن المقفع - كالصخرة القوية التي لا تضطرب (٥٨٦) .

وسخط الحاكم على بقيرة الشماس ، وأمر بقيده بالحديد ووضعها في السجن ، ولكنه ما لبث بعد فترة قصيرة أن أمر بإطلاق سراحه ، وكتب له سجلا ، جاء فيه « أن لا يعترض أحد بقيرة الرشيدى فى بيع ولا شراء ، ولا فى أمر من الأمور » وفرح بقيرة بذلك ، وطاف على جميع القبط وطمانهم (٥٨٧) .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الحاكم بأمر الله ، أمر أهل الذمة من القبط واليهود ، بالخروج من مصر الى بلاد الرومان . ولكنهم اجتمعوا أمام قصره ، وسألوه العفو ، والسماح لهم بالبقاء فى الأراضى المصرية ، فأذن لهم بذلك ، وعفا عنهم (٥٨٨) . وتشير بعض الوثائق الى وجود اليهود بالفسطاط سنة ١٠١٦ م . حيث كانوا يقيمون فى حى خاص بهم فى قصر الشمع (٥٨٩) ، مما يدل عدول الحاكم عن نفى الذميين عن مصر .

ولم يكن القبط من الموظفين وعامة الناس هم الذين يتعرضون وحدهم لمضايقات الحاكم بأمر الله ، وأوامره ، بل عانى أيضا بطركهم الأب زخارياس من بعض التشدائد اذ أمر الحاكم بسجنه ثلاثة شهور . وكان السبب فى ذلك طمع أحد القسيس ، ويسمى يونس فى الأسقفية ولم يكن له حق فى تولي هذا المنصب الدينى ، كما كانت الأسقفية تشترى ، حينئذ بالمال (٥٩٠) . فلما لم يحقق البطررك له هدفه ، رأى يونس أن يستعين بالخليفة للانتقام من البطررك ، فرحل الى القاهرة ، وكتب رقعة ، قدمها للخليفة الحاكم بأمر الله ، جاء فيها : « أنت ملك الأرض ، لكن للنصارى ملك لا يرضى بك لكثرة ما قد كنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع الأسقفية بالمال ، ولا يفعل ما يرضى الله تعالى » واتهم يونس البطررك باتهامات عديدة ، مما أثار غضب الخليفة ، وأمر فى الحال باغلاق جميع البيع ، واستدعاء البطررك اليه ، وأمر باعتقاله لمدة ثلاثة شهور (٥٩١) .

عانى البطريرك الكثير في سجنه ، وهدده القائلون على حراسته
بالتعذيب ان لم يعتنق الاسلام ثم اتبعوا معه وسائل الترغيب ،
فقالوا له : « ان اجبت الى ذلك نلت مجدا عظيما ، ويجعلك الحاكم
قاضي القضاة » . ولكن البطريرك أصر على تمسكه بدينه (٥٩٢) .

وحدث أن قبطيا ، اعتقلته الحكومة ، لأنه مدين لها بثلاثة
آلاف دينار . وكان له صديق من العرب ، يدعى ماضى بن مقرب ،
وكان له مكانة عظيمة عند الخليفة الحاكم بأمر الله ، فطلب القبطي
منه أن يتوسط له وللبطريرك عند الخليفة لاطلاق سراحهما ، واستجاب
الخليفة لهذه الوساطة وأفرج عنهما (٥٩٣) . وهكذا نجا البطريرك
من الحبس وفرح فبط مصر لاطلاق سراحه ، ونصحوه بالاقامة في
أديرة وادى هبيب ، فأقام بها تسع سنوات (٥٩٤) . وهى السنوات
التي تعرض القبط فيها للمضايقات والشدائد فى خلافة الحاكم
بأمر الله .

ويروى ابن المقفع (٥٩٥) أن عامة الناس من المسلمين ، قد
نهجوا ، نهج الخليفة فى ايذاء أهل الذمة ، فنراه يقول : « وكان
على النصارى فى هذه التسع سنين ، ضيق عظيم ، وطرد وشتهم ،
ولعن من المسلمين ، ويبصقون فى وجوههم . وكان أكثر ذلك
بمدينة تنيس وأعمالها ، وإذا جاز نصرانى عليهم يشتموه ، ويقولوا
له ، اكسر هذا الصليب ، وادخل فى الدين الواسع . وإن نسى
نصرانى صليبه ومشى بلا صليب لقى هوانا كثيرا » .

ويصف ابن الراهب (٥٩٦) سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله ،
إزاء أهل الذمة فيقول عنه : « وكان قلنا شدد على النصارى واليهود ،
ونكل بهم ، وأخرب كنائسهم ، وقتل أكابرهم ، وعاقبهم ، وأسلم
منهم خلق كثير » . ويبدو أن الدوافع التى دفعت بالحاكم الى هذا
المسلك إزاء الذميين هو ضغط الرأى العام الاسلامى ، الذى أثارته

مخاطبة الخلفاء الفاطميين ، أسلاف الحاكم ، لغير المسلمين ،
واستخدامهم في شئون الإدارة والحكم ، وحسن معاملتهم ، وتمتعهم
في ذلك العصر بالحربة الدينية ، مما أوغر صدور بعض المسلمين
عليهم (٥٩٧) .

وهناك رواية قبطية تتحدث عن تمسك القبط بعقيدتهم ،
بالرغم مما تعرضوا له من شذائذ ومضايقات ، وحرصهم على القيام
بطقوسهم الدينية ، مهما كلفهم ذلك من مشاق فكانوا يؤدون الصلاة
ويبشرون طقوسهم الدينية سرا بين أطلال الكنائس التي أصابها
الخراب والهدم ، وإذا فطن الولاة والحكام إلى ذلك ، تقدم القبط
لهم بالرشوة ، ليغضوا الطرف عنهم (٥٩٨) .

ثم تقول هذه الرواية القبطية ، « وبعدها بثلاثين سنة أخرى ،
بدعوا يعمرّون الكنائس في البيوت ، ويكرزونها سرا ، ويصلون
فيها ، ويتقربون » وحاول بعض المسلمين الإيقاع بهم ، فسعوا بهم
عند الحاكم ، وأخبروه بأن القبط قد بنوا الكنائس في المنازل وفي
الريف ، وأنهم يقدمون فيها قربان . في حين كان الحاكم بأمر الله
لا يحفل بذلك ، وفضل التغافل عما يفعله هؤلاء القبط (٥٩٩) .

وفي سنة ٤١١ هـ (٧٦٣ ش) أصدر الحاكم بأمر الله سجلا
سمح فيه لأهل الذمة ، بعمارة الكنائس ، وأغفاهم من لبس الغيار ،
وحمل الصليب وسمح لهم أيضا بضرب النواقيس في كل مكان ،
كما كانوا يفعلون من قبل ، فعسم الفرح والسرور بين جميع
القبط (٦٠٠) . ورغبت جماعة من القبط الذين اضطرتهم الحاكم
بأمر الله إلى اعتناق الاسلام ، في العودة إلى دينهم المسيحي ، فأذن
لهم الحاكم بذلك ، وأمرهم بلبس الغيار وشد الزنار ، ولبس
السواد ، وحمل الصليبان (٦٠١) .

ويقول ابن زولاق ، انه فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) ارتد
أكثر من سبعة آلاف يهودى الى دينهم القديم فى يوم واحد . كما
عاد الى مصر كثير ممن كانوا قد تركوا الديار المصرية الى غيرها من
البلاد (٦٠٢) . وشك كثير من القبط فى نوايا الحاكم بأمر الله ،
وظنوا أن فى الأمر خدعة ، وأنه أراد الوقوف على ما فى ضمائرهم ،
ثم ينزل بهم العقاب . وتقدم الأب سلمون رئيس دير طور سيناء
الى الخليفة وأفصح له عن مخاوف القبط ، فكتب لهم سجلا ، منحهم
فيه الأمان (٦٠٣) . وسنذكر نص هذا السجل فى الملاحق ، فى
نهاية الرسالة . وهكذا تسامح الحاكم بأمر الله ، فى نهاية حكمه ،
مع الذميين وترك لهم حريتهم الدينية ، كما سمح لهم بتعمير كنائسهم
ومعابدهم وكتب لهم سجلاته فنحول لهم الحق فى ذلك .

ثم تولى الخلافة الظاهر لاعزاز دين الله ، فى شوال سنة
٤١١ هـ . بعد وفاة أبيه الحاكم ، فأصدر سجلا قرىء على الناس ،
وفيه منح أهل الذمة الأمان على أرواحهم وأموالهم وأملأهم ،
وأولادهم ، وترك الخرية الدينية لهم (٦٠٤) . وعاشوا طوال عهد
الخليفة الظاهر فى هدوء وسلام ، كما كانوا يعيشون قبل عهد
الخليفة الحاكم بأمر الله .

ومن الفترات التى تعرض فيها أهل الذمة ، وخاصة القبط ،
لبعض المضايقات عهد الخليفة المستنصر بالله ، ووزيره اليازورى
الحسن بن عبد الله ، حين كان يتولى البطركية الأب
أخرسطودلوس (٦٠٥) . ومن العوامل الرئيسية لهذه المضايقات ،
موقف أبى الحسين عبد الوهاب بن على السيرفى ، الذى
تولى القضاء فترة فى الاسكندرية ، وكان يبغض القبط أشد البغض ،
فلما زار مدينة دمروا (أو دميرة) حيث يقيم البطرك أخرسطودلوس ،
لم يوفه البطرك حقه فى الاحترام ، مما جعله يسخط عليه ، وعزم

على ايذائه ، هو واخوانه فى العقيدة ، فسعى بهم عند الوزير ، فكان مما قال : « ان هذه دمروا ، هى القسطنطينية الثانية ، وفيها سبع عشرة بيعة ، أكثرها مستجد ، وأنه قد استجد فى غيرها من النواحي بيع كثيرة . وان هذا اللوضع ، قد عمر فيه موضع لسكناء ، ونقش على باب الكفر ، وأهان الاسلام وأهله » ثم أشار على الوزير بأن يأمر بغلق جميع الكنائس وهدم ما استحدث منها ، وأن يفرض على المسئولين عنها أموالا كثيرة (٦٠٦) .

وقد أثار هذا الكلام حنق الوزير على القبط ، واشتد غضبه عليهم ، فكتب الى القاضى المذكور بأن يستوثق مما كتبه بحضور بعض الشهود معه . فسار أبو الحسين فى صحبة بعض الموظفين الى دمروا ، ودخل منزل البطرك ، فوجد على باب المنزل نقش « باسم الأب والابن والروح القدس ، الاله الواحد » فأمر بإزالته (٦٠٧) . وهكذا بدأت العاصفة ضد القبط ، اذ أمر الوزير ، عقب ذلك ، بغلق جميع البيع والكنائس فى كافة أنحاء مصر (فى ٥ بثونة سنة ٤٤٦ هـ = ٧٧٣ ش) وكان يعاون الوزير ، فى تنفيذ هذه السياسة ، أبو الفرج البابلى ، وكان من متقدمى الدولة وأصحاب الدواوين ، وناصر الدولة بن حمدان والى الريف بالشرقية والغربية ، والذى أسرع بالقبض على البطرك والأساقفة ، وطالبهم بغرامة مالية قدرها سبعون ألف دينار (٦٠٨) ، كما قام ناصر الدولة بتعذيب ثلاثة من الأساقفة ، حتى لقوا حتفهم ، وهم : أبو اسحق وتادرس وأبو حرجة (٦٠٩) .

وبالرغم مما ألحقه اليازورى ، وأعوانه بالقبط وبطركهم من الشدائد ، كان يوجد بالبلاد المصرية فى ذلك العصر ، من يعطفون عليهم ، ويشملونهم بالحماية ، ونذكر منهم ، حاكم الاسكندرية الأمير المؤيد حصن الدولة أبو تراب حيدرة بن ميروا الكتامى

الدمشقي ، الذي نصدي لحماية القبط ، ورعاية كنائسهم ، ولذا
رقض تنفيذ أوامر اليازوري بغلق جميع البيع ، وبمطالبة قبط
الاسكندرية بعشرة آلاف دينار ، ونصح القبط باخفاء جميع أواني
الكنائس وممتلكاتها وأموالها (٦١٠) .

وبعد تفاهم الأمير حصن الدولة مع قبط الاسكندرية ، بدأ
تنفيذ أوامر الوزير اليازوري ، فاستدعى قاضي القضاة والشهود ،
ومتولى الترتيب ، وأعلمهم بما جاء في كتاب الوزير ، وعهد اليهم
بتنفيذ ما جاء فيه ، من غلق الكنائس ، ونهب جميع ما فيها من
الأواني والذهب والفضة . ولكن هؤلاء - المكلفين بتنفيذ أوامر
الوزير - لم يجدوا شيئاً في الكنائس سوى الحصى ومصايد
الفران ، فلما أخبروا الأمير حصن الدولة بذلك قال لهم : « إذا
كان هذا موجوداً في كنائسهم ، وبيعتهم الكبيرة ، فكيف يكون حال
هؤلاء النصارى ومن أين لهم هذا المال الملتبس منهم ؟ » (٦١١) .

ومهما كان الأمر ، فقد أغلقت جميع كنائس الاسكندرية ،
سواء الكنائس اليعقوبية أو الكنائس المملكانية ، وكتب الأمير حصن
الدولة بذلك الى اليازوري ، ووضح له سوء أحوال القبط المالية ،
وعدم مقدرتهم على دفع المبلغ المطلوب منهم . وما زال به ، يشكو
له حال المسيحيين في مدينته ، حتى خفض المبلغ المفروض عليهم الى
ألفي دينار . عند ذلك بادر الأمير حصن الدولة بإبلاغ القبط
بذلك ، وجعل ألف دينار على القبط ، البعاقبة والألف الآخر على
المملانيين (٦١٢) .

واستمر عطف الأمير حصن الدولة على القبط ، فكان يمد
يده اليهم دائماً بالمساعدات المالية ، فتذكر بعض الروايات ، أنه
استدعى بعض القبط ومنحهم مائتي دينار ، وقال لهم : « هذه أخذتها

لكم من نصياري رشيد ، وأتكو ، والحديدية ، ومجلة الأمير .
فخذوها عوضاً مما قمتم به « فشكروه ، واشتروا بهذه الأموال
ثياباً وقمحا ، ووزعوا هذه الأشياء على الضعفاء والمحتاجين من
الخوانهم القبط (٦١٣) .

وتعرض القبط مرة أخرى ، لبعض الشدائد ، فى عهد الخليفة
المسننصر ، وذلك عندما نجح المسارقة والأترار فى مصر ، فى إثارة
سخط الخليفة المسننصر على ناصر الدولة بن حمدان وصحبه .
وقامت الحروب بين الفريين ، وتقهر ناصر الدولة ومن معه إلى
الاسكندرية ، حيث حالفوا قبائل قيس ولواته (٦١٤) . وخرج ضد
الخليفة المسننصر لمتابعتهم ومحاربتهم ، ولكن تحقق النصر لناصر
الدولة ورجاله ، وملكوا كثيراً من المدن والقرى ، وعاثوا فيها نهبا
وسلبا ، واستولوا على جميع ما فى الكنائس والأديرة من الآوانى
الذهبية والفضية والأموال ، والحقوا بها الخراب والتدمير وأزالوا
جميع ما فيها من الصور . وقبض اللواتيون على البطرك ، واستولوا
على ما فى قلايته ، من الأموال ، كما الحقوا به كثيراً من
العذاب (٦١٥) .

وكاد اللواتيون يفتكون بالبطرك القبطى لولا تدخل ناصر
الدولة بن حمدان ، الذى أنقذه من أيديهم ، مقابل دفع ثلاثة آلاف
دينار لهم . وأدى أبو الطيب بن يحنس الرواوى منها ألف دينار ،
وبقى على البطرك تدبير باقى المبلغ . فرحل البطرك إلى الاسكندرية
ونزل بيعة أبى سرجة ، وطلب من أولاده وتلاميذه ، مساعدته فى
تدبير هذا المبلغ ، فاعتذر إليه بعضهم ، واحتجوا فى ذلك بما هم
فيه من غلاء ، وقسوة العيش . فغضب البطرك أشد الغضب ،
وهددهم ، باقتراض المبلغ من القاضى ومن المسلمين ، فاستجابوا له ،
وأدوا له المال المطلوب (٦١٦) .

وتعرض القبط أيضا دون غيرهم من أهل الذمة لبعض المضايقات ، فى عهد الخليفة الحافظ . ذلك أنه عندما ثار ابنه الحسن عليه ، قبض على البطريرك الأب غبريال وسجنه وصادر أمواله . وغضب الكتاب القبط والعامه لذلك ، وجمعوا مبلغ ألف دينار ، قدموها للأمير الحسن للافراج عن بطركهم (٦١٧) .

كما تعرض رهبان وادى هبيب فى هذا العصر ، لبعض الشدائد ، وكان غضب الحافظ عليهم ، وانزال جنده الشدائد بهم ، نتيجة سعاية ، حلوش ، أحد رهبان دير لبوكا بهم (٦١٨) . فأراد الخليفة الحافظ ، التحقق من اتهامات هذا الراهب ، فأرسله مع بعض حجابيه وجنده الى أديرة وادى هبيب . وألحق حلوش وجنده الخليفة الأذى بالرهبان ، ونهبوا الأديرة ، وأحرقوا الكثير منها « وحل بهم منه شدة عظيمة ، وأخذ منهم قوما من شيوخهم ، ودخل بهم القاهرة » فلما التقى الحافظ بهم ، سألهم عن حقيقة أمرهم ، ومدى صدق اتهامات الراهب حلوش . فنفوا هذه الاتهامات . ولما تبين الحافظ الحقيقة ، أحسن اليهم ، وأكرمهم ، وسمع لهم بالعودة الى دياراتهم آمنين مطمئنين (٦١٩) .

وقاسى القبط وبطركهم بعض الشدائد ، فى خلافة الظاهر أبى منصور بن اسماعيل الذى ولى الخلافة بعد أبيه الحافظ فى سنة ٥٤٤ هـ . وقد استوزر ، العادل بن السلار ، وقد ضيق هذا الوزير ، على القبط فى هيئتهم وملابسهم ، وألزمهم بشد الزنار ، وخلع الطيالسة من على رموسهم . ولكن هذا التضيق على القبط لم يدم أكثر من ثلاثة أيام (٦٢٠) .

وتذكر الرواية القبطية أن هذا التضيق ، كان نتيجة تحريض بعض الفقهاء الكارهين للقبط ، والى مصر آنذاك ، ناصر الدين نصر

ابن عباس ، بهم ، ليحصل منهم على كثير من الأموال . ووضح له أنه اذا اشتد في معاملة القبط ، وألزمهم بشد الزنار في أوساطهم ، ولبس الغيار ، اضطروا الى رشوته بالمال ليعدل عن ذلك القراز . وطمع ابن عباس في أموال القبط ، وأمرهم بهذه الأوامر ، ولكن مضت ثلاثة أيام دون أن يتقدم القبط بالشكوى ، فألغى هذا الأمر في اليوم الرابع (٦٢١) .

وفي ذلك العصر أيضا قبض الوزير ابن السلار ، على البطررك يوحنا ، واعتقله في سجن دار الوزارة ، حيث عانى الكثير من ألوان العذاب ، وظل البطررك معتقلا حتى زال أمر ابن السلار (٦٢٢) . وكان سبب اعتقال الوزير للبطرك أن ملك الحبشة ، كان قد سخط على المطران الموجود في بلاده ، لأنه اعترض على طريقة تولي هذا الملك . وبعث الملك بكتابين الى مصر ، أحدهما الى الوزير العادل ابن السلار ، والثاني للبطرك يوحنا ، يطلب فيهما تعيين مطران جديد للحبشة بدلا من مطرانها أنبا ميخائيل . وأراد ابن السلار الاستجابة لرغبة ملك الحبشة ، في حين امتنع عن ذلك البطررك يوحنا ، وقال لابن السلار : « ما في شريعتنا أن نخول انسانا رتبة الكهنوت ونرجع نعزله منها حتى يموت . فاذا مات ولينا غيره ، لأن رتبة الكهنوت سمائية ، ما هي أرضية » . فغضب ابن السلار وقبض على البطررك واعتقله (٦٢٣) .

وتعرض القبط أيضا لبعض الشدائد في السنوات الأخيرة من عهد الدولة الفاطمية . ففي بداية خلافة العاضد عبد الله بن يوسف ابن الحافظ سنة ٥٥٥ هـ ، وفي عهد وزيره الصالح طلائع بن رزيك ، نزلت بالبطرك يوحنا شدة عظيمة ، نتيجة خلاف حول مسائل دينية مسيحية بينه وبين رهبان دير أبي مقار ، وامتناع هؤلاء الرهبان عن تنفيذ أوامر البطررك (٦٢٤) ، مما أدى الى توتر العلاقات

بينهم وبين البطرك ، فسعوا به عند الوزير الصالح طلائع بن رزيك ، وحرصوه على الاستيلاء على أموال البطرك ، فعقد الوزير مجلساً ، للنظر في الخلافات الدينية القائمة ، وهو في الحقيقة يريد نغرة ، ينقذ منها للوصول إلى أموال البطرك . وانتصر الوزير للرهبان ، وزجر البطرك ، ثم أمر بسجنه . ثم امتد ايداء الوزير إلى عدد من الأساقفة من أنصار البطرك (٦٢٥) .

واستمر البطرك يوحنا في سجنه ، حتى زال أمر ابن رزيك ، ثم الافراج عن البطرك وكل من كان معه في الحبس من الأساقفة (٦٢٦) . وتوضح هذه الروايات المختلفة كيف كان القبط يوقعون بالبطرك ، وباخوانهم في العقيدة ، لدى أولياء الأمور في البلاد وأدت هذه الخلافات إلى تدخل السلطات الحاكمة ، وانعكست على أحوال أهل الذمة وأدت أحيانا إلى الاضرار بهم . واستفاد بعض الحكام أيضا من هذه الخلافات ، في الوصول إلى ما يستطيعون الحصول عليه من أموال الذميين .

وفي أثناء النزاع بين شاور وضرغام على الوزارة - في عهد الخليفة العاضد - وما كان من استنجد شاور ، بنور الدين زنكي أمير دمشق ، نزل بالقبط شذائد وأضرار عظيمة . فكان جند نور الدين يقتلونهم أو يبيعونهم رقيقا ، بأثمان زهيدة ، لا تزيد عن عشرين درهما للقبطي . كما عرض هؤلاء الجند ، الاسلام على القبط ، ومن بينهم الراهب ، شنوفة ، وهو من رهبان دير أبي مقار ، ولكنه تمسك بدينه المسيحي ، فقتله الجند ، وأشعلوا النار في جثته (٦٢٧) .

ولما ولي الخليفة العاضد ، أسد الدين شيركوه ، الوزارة في سنة ٥٦٤ هـ ، تشدد في معاملة أهل الذمة ، فأمرهم بشيّد الزنار ، كما أمر اليهود بأن يكون في عمائمهم خرقة صفراء تمييزاً

لهم عن القبط (٦٢٨) • وهكذا أمر شيركوه بضرورة مراعاة التمييز بين المسامين وأهل الذمة في أزيائهم . ويشير أحد الكتاب المحدثين من القبط ، الى أنه عقب صدور أوامر أسد الدين شيركوه ، بشأن الذميين ، رفع اليه أحد الكتاب القبط ، ويدعى زكريا بن أبي مليح مماتى ، رقعة يلتمس فيها منه ، السماح للقبط بارخاء العذبة - أى طرف العمامة - على مؤخرة الرأس وجاء فى هذه الرقعة :

يا أسد الدين ، ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غيارا شد أوساطنا فما الذى أوجب كشف القفا
(٦٢٩)

ولم يعد الذميون ، يتولون ، الوظائف الحكومية والدواوين فى ذلك العصر ، وخاصة حينما تولى صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب الوزارة ، فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد والذى ينسب اليه بعض المؤرخين ، بغضه لأهل الذمة ومنعهم من تولى المناصب الحكومية • والحقيقة ان صلاح الدين ، كان فى هذه السياسة ، يطبق الأحكام الاسلامية التى سادت فى العصور المبكرة من التاريخ الاسلامى • وأصدر صلاح الدين أمرا بمنع تولى النصارى الشئون المالية فى الحكومة ، واستمرت هذه السياسة فى عهد خلفائه من الأيوبيين (٦٣٠) •

وكان هذا تقيض السياسة التى سادت فى معظم فترات العصر الفاطمى ، فقد كان من بين أهل الذمة ، الوزراء وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم ، والكتاب ، كما كان من بينهم عمال الخراج والجهايزة • والحقيقة ، أن الحد من استخدام الذميين وخاصة القبط منهم ، بدأ فى عهد الخليفة الأمر ، حينما أدرك مدى تسلط

القبط على ادارة البلاد ، وتحكمهم فى مصالح المسلمين . كما انتهج هذه السياسة أيضا الوزير رضوان بن ولخش فى خلافة الحافظ ، عندما أدرك سيطرة القبط على شئون الدولة ، وتسلبهم هم وغيرهم من المسيحيين على أمور المسلمين . فأصدر ابن ولخش أوامره ، بعدم استخدام أهل الذمة ، وأمر أيضا بضرورة التمييز بينهم وبين المسلمين فى الملبس . فلما تولى صلاح الدين الوزارة ، جدد هذه الأوامر ، واستمرت هذه السياسة بعد سقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ .

ورغم ما عاناه أهل الذمة فى بعض فترات العصر الفاطمى ، فإن هذا العصر كان فى الحقيقة العصر الذهبى بالنسبة لأهل الذمة من القبط واليهود فى مصر . ولأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامية ، تولى اليهود شئون الإدارة والحكم - وإن كان كافور الاخشيد استخدم يعقوب بن كلس اليهودى - بعد أن كان ولاية مصر وأمراؤها ، يقصرون استخدامهم على القبط وحدهم دون اليهود . وسطح نجم اليهود فى العصر الفاطمى ، وعلا شأنهم ، واستخدمهم الخلفاء الفاطميون ، كما استخدموا القبط ، وظهرت هذه السياسة واضحة فى عهدى المعز والعزیز ، ثم فى خلافة المستنصر بالله والأمر بأحكام الله .

وعاش أهل الذمة غالبا فى هدوء وسلام فى ظل الفاطميين ، كما تمتنعوا غالبا أيضا بحرياتهم الدينية والدينية ، فشهد هذا العصر تعمير الكثير من الكنائس والأديرة ومارس الذميون طقوسهم الدينية فى أمن وسلام ، باستثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله . وفى الواقع لم يكن الحاكم مجحفا بهم ، ولا ظالما لهم ، فقد اشتهر بسرعة التقلب والتغير . ولم تكن سياسته المتقلبة ازاء أهل الذمة محسب ، بل بالنسبة للمسلمين أيضا وخاصة السنيين منهم . فنراه يذم الصحابة ، ويأمر بلعن أبى بكر ، وعمر بن الخطاب ،

وعثمان بن عفان ، ثم لا يلبث أن يتوقف عن هذه السياسة . وكان هذا هو شأنه أيضا مع أهل الذمة ، فقد استخدم كثيرا منهم فى الوزارة وأعمال الدواوين والكتابة والخراج . ولكنه كان سرعان ما يتغير عليهم ويأمر بقتلهم ومصادرة أموالهم .

وتشدد الحاكم غالبا ، فى تطبيق أحكام الاسلام على الذميين ، والزمهم بضرورة التمييز بينهم وبين المسلمين فى الملابس ، والركوب ، والمسكن ، والحمامات ، وأفرد لهم حمامات خاصة بهم ، جعل لها علامات مميزة . الى جانب التضييق عليهم فى ممارسة الطقوس الدينية وما كان من أوامره بهدم الكنائس والأديرة ومعابد اليهود ، وتهب جميع ما فيها . ثم نراه بعد ذلك يعدل عن هذه السياسة ، ويسمح لهم بتعمير الكنائس ، ويطلق حرياتهم فى ممارسة الطقوس الدينية ، بل أصدر سجلات تخول لهم الحق فى كل ذلك ، وتضمن لهم الأمان على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وأملاكهم . وصار يأنس الى بعض الرهبان والقسس ويتردد اليهم فى الأديرة .

فلما كانت خلافة الظاهر ، أصدر منشورا ، زاد فيه من اطمئنان أهل الذمة وأمانهم ، وترك لهم الحرية الدينية . وإذا كان أهل الذمة قد تعرضوا لبعض الشدائد فى فترات أخرى ، فإنها كانت سريعا ما تزول ، ويعود لهم الأمن والسلام .

ونلاحظ أنه بينما كان استخدام الخلفاء الفاطميين لأهل الذمة على نطاق واسع حتى أواخر عصر الخليفة الأمر ، نجد تضاؤل هذه السياسة المتسامحة بعد عصر هذا الخليفة وحتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ . فقد تشابعت المنشورات والأوامر بالنهاى عن استخدام أهل الذمة فى شئون الحكم والإدارة وجباية الأموال . وبسقوط الدولة الفاطمية ، دخل تاريخ أهل الذمة فى مصر فى دور جديد متميز .

الم — و أمش

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤١ ، وتشير الرواية التاريخية العربية الى انه لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم ، من الحديبية في شهر ذي الحجة سنة ٦ هـ ، عرض على أصحابه انفاذ رسل من قبله الى ملوك العجم يدعوهم الى الاسلام ، فكتب اليهم : فقل له : ان الملوك لا يقرءون كتابا ، الا مختوما . فاتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام خاتما فضة ، ونقش عليه « محمد رسول الله » وختم به الكتب . فخرج من قبل النبي في المحرم سنة ٧ هـ ، ستة رسل ، كل واحد منهم يتكلم بلسان الامة التي بعث اليها . ومن هؤلاء عمرو بن أمية الضمري الذي نجاشي الحبشة ودحية بن خليفة الى قيصر الرومان ، وحاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس حاكم مصر والاسكندرية ، وعبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى فارس ، وشجاع بن وهب الاسدي الى الحارث بن أبي شمر الغساني ، وسليط بن عمرو العامري الى هوزة بن علي الحنفي . انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ - ٢٦٢ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ . وبصري اسم يطلق على مكانين : أحدهما بالشام ، وهو قصب كورة حوران ، والآخر بالعراق ، من قرى بغداد بالقرب من كبراء ، والمقصود هنا بصري الشام . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤١ .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

(٤) الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ .

(٥) الدسكرة كلمة معناها الأرض المستوية ، وتطلق على القرية العظيمة كما تطلق على بناء يشبه القصر تحيط به بيوت الاعاجم ، ويكون هذا البناء للملوك حيث يقومون فيه بالشرب واللهو . انظر : الوسيط : ج ١ ، ص ٢٨٣ .

- (٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .
- (٧) نفس المصدر والصفحة .
- (٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .
- (٩) نفس المصدر والصفحة .
- (١٠) نفس المصدر ، ص ٢٩٢ .
- (١١) نفس المصدر السابق والصفحة .
- (١٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤١ ، ٤٢ .
- (١٣) نفس المصدر ، ص ٤١ ، ٤٢ ويقول ابن سعد - الطبقات الكبرى - ج ٣ ، ص ٢٦٠ ، أن المقوقس لما وصله كتاب النبي ، قرأه ، ثم وضعه في حق من عاج وختم عليه ، وطلب من بعض جوازيه أن تحفظه له . وقال لحاطب : خيرا .
- (١٤) فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٢ .
- (١٥) نفس المصدر والصفحة .
- (١٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .
- (١٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٣ . إحدى هاتين الجاريتين هي مارية القبطية والثانية سيرين التي وهبها النبي ، لشاعره حسان ابن ثابت . كما كان من بين الهدايا ثياب قبطية وبغلة بيضاء ، وحصان أشهب ومال وصدقة . انظر ابن سعد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ ، ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٤٣ ، ٤٤ .
- (١٨) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .
- (١٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١ - ٢ .
- (٢٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢ .
- (٢١) نفس المصدر ، ص ٢ - ٣ .
- (٢٢) نفس المصدر ، ص ٣ .
- (٢٣) نفس المصدر ، ص ٤٩ . وقيل كان خروج عمرو على رأس الجيش الاسلامي في سنة ١٦ هـ . وقيل سنة ١٩ هـ وقيل سنة ٢٠ هـ . انظر الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٧ .
- البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١٤ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٢١٢ .

ابن الاثير . الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥١ - ٥٢ . الواقدي : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٥٨ ، البغدادي : فتوح البلدان ، ص ٢٦٤ . الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٠ - ٢٢ . الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٧ - ٨ ، معروف بن محمد : عجائب الاخبار عن مصر الامصار ورقة ٣٠ ب ، مخطوط . وتشير هذه المصادر الى الكتاب الذي ارسله الخليفة الى عمرو ، يأمره فيه بالعودة اذا لم يكن قد اجتاز الاراضي المصرية ، اما اذا كان قد اجتازها ، فليسر على بركة الله ، يعنى ذلك تردد الخليفة في فتح مصر وخوفه من عاقبة هذا الفتح ، ولما تستقر بعد اقدام الفاتحين العرب في بلاد الشام .

(٢٥) تذكر بعض الروايات ان لفظ (بابليون) يطلق على دير صغير الى الجنوب من الحصن ، في حين كان اسم الحصن « قصر الشمع » وتذكر روايات اخرى ان اسم الحصن في زمن الفتح كان (بابليون - ان خيمي) ومعناها (بابليون مصر) ولذلك سهل تحريف الاسم في اللغة العربية الى بابليون . وقد دلت الاخبار على وجود هيكل للذئب في الحصن القديم ، وان الفرس قد بنوا هيكلًا آخر في القرن السابع الميلادي . وكان على الهيكل منائر توجد فيها الخيران ليلا ونهارا . فنشأ عن ذلك اسم « قصر الشمع » ومهما كان أمر التسمية فقد استمر كتاب اوزبا في العصور الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم بابليون وليس مصر . انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ، وحاشية ص ٢١٦ .

اما المؤرخون المسلمون فيسمون الحصن أحيانا باب اليون ، انظر تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٩٧ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٦ ، ٥٩ . ويسميه البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١٤ - اليوننة .

(٢٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٣ ، ويسميه الكندي - الولاة والقضاة ص ٨ - المندقور . كما يشير الى انه كان يقال له الاعرج . وبالرغم من هذه الرواية ، لم ينشط المقوقس لمساعدة جيش الفرما أو بلبيس أو غيرهما من المدن المصرية ضد الجيش الاسلامي كما سنرى والواضح انه كان يقيم الاستحكامات والاستعدادات في حصن بابليون فقط حيث نزل فيه . (٢٧) الواقدي : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٦٤ . ويفرد الواقدي بهذه الرواية دون غيره من المؤرخين المسلمين أو القبط .

(٢٨) وكان يسكنها قوم من العرب المواليين للرومان والذين كانوا يؤدون
الاموال الى المعوقس وكان وايها من قبل المعوقس يسمى الريديان ، انظر
الواقدي ، فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واحبارها ، ص ٥٣ . البلدري : فتوح
البلدان ، ص ٢١٤ ، الخندي الولاة والعصاة ، ص ٨ ، ابن بصريق : السريخ
المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٥ . ويذكر ياقوت الحموي - معجم
البلدان ، ج ١٥ ، ص ٢٦٢ - ان العبال استمر سهرين بمدينة الفرما . ويسرد
الواقدي بالاشارة الى ان يوقنا - صاحب حلب - كان قد اعتنق الاسلام ، وانضم
الى جنود المسلمين . وسأل عمرو بن العاص في ان يتقدمه في الاراضي المصرية
حتى يستطلع له الاخبار ويمهد له الامور . فاجابه عمرو بن العاص الى ذلك .
فدخل يوقنا وصحبه الاراضي المصرية - في زى الرومان - ولم يعلم بما اراده
أحد : وسأل عن ارمانوسة ابنة المعوقس - التي اعدها ابوها للذهاب الى قسطنطين
ابن هرقل ، ولكن خوفها من العرب منعها من مواصلة الطريق فاعامت في بلبيس
وارسلت الى الفرما الى فارس لحراستها - فلما علم يوقنا بوجود ارمانوسة في
بلبيس ، سار اليها حتى يوهما بأنه قادم من قبل قسطنطين ليحملها اليه في
القسطنطينية بعد فراره اليها . وهو في الوقت نفسه يريد خداعها ، وبمريد الامور
لجند عمرو بن العاص . وقد احسنت ارمانوسة الى يوقنا وصحبه في بادئ الامر ،
ولكنها ما لبثت ان علمت بالخديعة التي ارادها ، فتوجهت اليه على رأس
جيشها لتهديده وقتاله . الا ان يوقنا اشتد في حديثه معها ، ومن بين ما قاله
لها : « .. جئناكم لنجاهدكم ، اما الاسلام ، واما الجزية ، واما القتال » ،
وارسلت ارمانوسة كتابا لابيها المعوقس تعلمه فيه بما حدث ، انظر : فتوح الشام
ج ٢ ، ص ٦٤ - ٦٦ . والواضح انه في اثناء ذلك كان عمر بن العاص ، قد
تقدم في الاراضي المصرية وتم له فتح الفرما ، واصبح على مقربة من بلبيس
حيث قائد يوقنا .

(٣٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واحبارها ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، الاستبصار
في عجائب الامصار ، ص ٧٩ .

(٣١) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٣٢) بلبيس Belbéis بينها وبين قسطنطين مصر عشرة فراسخ على
طريق الشام . انظر : ياقوت الحموي . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧٩ .

أهل الزمة ج ١ - ٢٢٥

(٢٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٤ ، الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٨ .

(٢٤) فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٢٥) الواقدي : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٦٦ - ٦٧ . وهذا نص ما قاله المقوقس للحاضرين : « يا أهل دين النصرانية ، اعلموا أن الملك محتاج إلى سياسته ، ومن ملك عقله ، ملكه رايه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره . وليشتت الغلبة بالكثرة ، وانما هي بحسن التدبير . والله لقد كان قيصر أكثر منى جندا ، وأوسع بلادا ، وأعظم عدة . وقد جمع من بلاد الروم إلى اليونانية ، ومن اقلية ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد ومن بلاد الأندلس واستنصر بها وبغيرنا ، فما أغنى عند جمعه شيئا ولا قدر أن يرد القضاء والقدر عنه . واعلموا أن العقل أساس الأدمى المخاطب ، المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الأرض فمن ملك عقله ، ملك أمره . ومن لم يجد منه حظا كان بجهله أرضى . ولن تنال الحكمة الا بالعقل . قال الحكيم ماسوس : ان الحكمة مرمى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لأنها غذاء الأرواح ، وقوت القلوب ، واعلموا أنى لست أتكلم الا بالصدق ، وأنتم تعلمون أن محمدا في أيامه بعث إلينا يدعونا إلى دينه . فاستدللت على صدق قوله بكتابه ، وما ظهرت من معجزاته . وقد سمعتم أنه لما بعث ، ما سمع أحد بذكره الا وخاف منه . وقد سمعت أن الغدر انشق له ، والذراع المسموم كلمه ، وقال يا رسول الله انى مسموم فلا تاكلنى . وقد كلمه العنب والحجر والشجر والمدر ، وعرج به إلى السماء وركب أوج الماء . وأول من تغلب عليه قومه ، وحاربه عشيرته حين أنكروا قوله وفعله ، فنصر عليهم وقهرهم . وقد تبين لهم الحق فاتبعوه ونصروه وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام . وما أنكرت من أمرهم شيئا ، فانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويقيمون حدود الله التى أمر بها . وما فى كتابهم شيء الا وفى الانجيل مثله . وقد أضلكم بولس وأعواكم حين عرر بكم ، وبذل شرعكم ، وسماكم باسم لا يليق بكم . وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحل لكم جميع ما حرم عليكم من قبل . وهذا هو عين الحال وداعية العمى أن تتعدوا ما قاله نبيكم . وكيف ينبغي لروح الله عيسى ابن مريم أن يكلمكم بما لا أرسله الله إليكم . ثم أن بولس قال لكم انه أحل لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصي ، ما ظهر منها وما بطن ، فأطعتم أمره ، وصدقتم قوله ، وحاشا المسيح أن يفعل ذلك . وما كان أحد من الانبياء الا على ما جاء به محمد . وهؤلاء الحكماء الأولون ما منهم

إلا من يتكلم بوحداية الله تعالى . وهذا الحكيم دمونا الذي وضع في برارى
الجحيم وصادا . وجعلها مثلا للامم الاتين وذكر فيها من ياتى من الامم والاجيال
الى اخر الزمان . أو صور الحكماء منفردة به . والنسر يعهد رأس الحمل ،
والنسر يقيم في كل برج ثلاث الاف سنة كما قدر بالمقدار الحكيمى . وكان قد
صوره صورة وكتب على رأسها بقلم اليونانية أربعة أسطر : الاول من خاف
الوعيد سلم مما يريد . الثاني من خاف ما بين يديه ، صان دموعه بما في
يديه . الثالث أن كنت تريد الجزيل فلا تنم ولا تقيل . والرابع بادرك قبل ثرول
ما تحاذر . فمن كان هذا كلامهم ، فكيف صنع سواهم . وهذه فريضة هؤلاء
القوم المحمديين .

(٣٦) الواقدي . فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٦٧ - ٧٠ .

(٣٧) أم دنين ، قرية بمصر بين القاهرة والنيل ، اختلطت بمنارل القاهرة .
انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٥١ . ويسمىها حنا
النقيوس تندونياس Tendoûnyas ولعل ذلك هو اسمها عند الفتح العربى .
انظر : Chronique de Jean, p. 437 . ومكانها الآن حديقة الأزبكية .

(٣٨) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٤ ، الكندى : الولاة
والقبضاة ، ص ٨ .

وينفرد الواقدي برواية تذهب الى أن عمرو بن العاص سار من بلبيس الى
قليوب حين أحسن الى أهلها . ويروى أيضا أن أرسطوليس بن المقوقس بعث
الى المسلمين رسولا يطلب مفاوضة عمرو بن العاص ، فاستجاب عمرو لدعوته ،
وخرج بنفسه للقاءه والتفاوض معه . وخير عمرو أرسطوليس بين الاسلام
أو الجزية أو القتال . وكان أرسطوليس يتكلم اليونانية ولم يكن عمرو بن
العاص ملما بها ، وإنما كان مولاه وردان يعلمها جيدا كلاما وترجمة . أدرك
أرسطوليس ومن معه أن المتكلم معهم هذا هو عمرو بن العاص قائد الجند
المسلمين ولكن وردان عندما فهم ذلك ، أعلمهم بخطأ ظنهم وأخبرهم بأنه أقل واحد
بين المسلمين وتمكن عمرو من الخروج من عند أرسطوليس بعد أن وعده بأحضار
وقد من عشرة أنفار للتفاوض معه . ولا يوجد فى المصادر التاريخية المصرية
ما يؤكد هذه الرواية ويبدو أن الأمر قد اختلط على الواقدي ، فهناك حادثة
مشابهة أشار إليها المؤرخون عند فتح الاسكندرية ، وسنذكرها فى مكانها من
البحث .

ثم حدث بعد ذلك أن وضع الرومان ومن انضم اليهم من القبط كميناً لعمرو
وجنده المسلمين في أثناء صلاتهم الجمعة ، إلا أن المسلمين نجحوا في قتل هؤلاء
المتأمرين ، ويسمى هذا اليوم ، « بحر الحصى » انظر فتوح الشام ، ج ٢ ،
ص ٧١ - ٧٤ .

(٣٩) تسمى مدينة أون Aouân أيضا باسم عين شمس . وبينها وبين
القسطاط ثلاثة فراسخ ومدينة أون هي قصبة كورة أتريب في شرق مصر . ويوجد
في الصعيد بلد يسمى أيضا باسم عين شمس . انظر ياقوت الحموي : معجم
البلدان ج ١٤ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٤٠) Chronique de Jean, p. 437. ويذكر المؤرخون المسلمون أن المدد
الذي بعث به الخليفة إلى عمرو بن العاص كان أنى عسر ألف مقاتل ، ويذكر
بعضهم أيضا أنه كان عشرة آلاف فقط . انظر : ابن عبد الحكم . فتوح مصر
وأخبارها ، ص ٥٦ .

البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣١٤ . الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٨ .
ياقوت الحموي . معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٢٦٢ .

Chronique de Jean, p. 437. (٤١)

(٤٢) Ibid., p. 438. وتقع مدينة نقيوس في الطريق بين
القسطاط والاسكندرية ، انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١٩ ،
ص ٣٠٣ .

(٤٣) وتقع مدينة اللاهون Lahoûnn على بحر يوسف على بعد عشرة
أميال من مدينة الفيوم ، وكانت لها أهمية كبيرة في الدفاع عن الاقليم . انظر
المسعودي : مروج الذهب ، ج ١٠٠ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

Chronique de Jean, p. 434. انظر (٤٤)

(٤٥) وتسمى أيضا بويط . وهو اسم لقريتين بالصعيد ، احدهما بالقرب من
بوصير والآخرى قرية في كورة أسيوط . انظر : ياقوت الحموي معجم البلدان ،
ج ٤ ، ص ٥١٣ .

ولا شك أن المقصود هنا القرية التي بالقرب من بوصير .

Chronique de Jean, p. 435. (٤٦)

Ibid pp. 435-436. (٤٧)

Ibid., p. 439.

(٤٨)

(٤٩) يدعى هذا القائد ربيعة بن حبيش بن موفطة الصرفى . وفى رواية أخرى أن قيس بن الحارث الذى عهد اليه عمرو أيضا بفتح بلاد الصعيد . وأنه قد لحق به ربيعة بن حبيش عند مدينة القيس (والقيس اسم كورة وقيل اسم قرية وليس كورة . وقيل أنها سميت بذلك نسبة الى القائد قيس بن الحارث المرادى . وتقع غربى النيل بعد الجيزة . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١٦ ، ص ٤٢٢) وانهما اشتركا معا فى فتح اقليم الفيوم . انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ ، ص ٢٢٨ . فى حين يذكر البلاذرى - فتوح البلدان ، ص ٢١٨ - أن عمرو بن العاص لما فتح حصن بابلليون أرسل خارطة ابن حذافة العدوى لفتح الفيوم وقرى الصعيد ، فغلب عليها .

(٥٠) Abakiri والحقيقة أنه أبو قيرس وذلك اعتمادا على ما كشف من وثائق « قرعة باسك » Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung. فالوثيقة رقم ٥٥٨ منها مكتوبة باليونانية والعربية بتاريخ أبريل ٦٤٣ م . وتتضمن كتابا من عبد الله بن جابر الى كريستوفوروس وتيودوراكس ابى قيرس . وهذه أقدم وثيقة فى مصر . والوثيقة رقم ٥٥١ وتتضمن كتابا من خارطة بن حذافة الى أبى قيرس حاكم هرقليوبولس . وتذكر الوثيقة رقم ٥٥٤ هذا الاسم أيضا . انظر . بتلر . فتح العرب لمصر ، حاشية ص ٢٠٦ .

(٥١) Délas تقع على الضفة الغربية للنيل فى جنوب ممفيس الى الشرق من مدينة الفيوم وتسمى بالقبطية نيلوج ، واسمها باليونانية نيولوبولس . انظر . Amélineau : La géographie de l'Egypte à l'époque Copte, p. 136.

Chronique de Jean, p. 439.

(٥٢)

Ibid., p. 439.

(٥٣)

Ibid., pp. 439-440.

(٥٤)

Chronique de Jean, p. 440.

(٥٥)

(٥٦) سمندود . تقع على الضفة النيل ، جهة دمياط . بينها وبين المحلة ميلان . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١١ ، ص ٢٥٤ .

Ibid., p. 440.

(٥٨ ، ٥٩) ل

(٦٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٥ ، ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن هرقل لما علم بقدم عمرو بن العاص والمسلمين الى مصر ، طلب من المقوقس أن يعرض على عمرو إنسحاب المسلمين من الأراضي المصرية مقابل دفع مبلغ معين من المال . وكان ذلك عند بدء حصار حصن بابليون . كما عرض المقوقس على عمرو أنه بعد جلاء العرب من مصر سيتزوج هرقل من ابنة الخليفة عمر بن الخطاب . ولكن عمرو رفض هذه العروض . انظر : يتشر تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ، م ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢١ . ولا نجد في المصادر المصرية الاسلامية وغير الاسلامية ما يشير الى ذلك من قريب أو بعيد .

(٦١) البرود ، جمع البرد . ومعناها كساء مخطط يلتحف به . ويجمع على أبراة وأبرد وبرود . الوسيط ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٦٢) الثريد ، هو ما يثرد من الخبز ثردا ، أي فته ثم يله بمرق . الوسية ج ١ ، ص ٩٤ .

(٦٣) العراق هو العظم الذي أكل لحمه . الوسيط ، ج ٢ ، ص ٦٠٢ .
(٦٤) الأكسية جمع الكساء ، وتعني اللباس . الوسيط ، ج ٢ ، ص ٧٩٤ .
(٦٥) جمع صم . ومعناها الأرض الغليظة أو الداهية الشديدة . المنجد ص ٤٤٨ .

(٦٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٥ .
(٦٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٦ . ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٢ .
(٦٨) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ص ٥٦ - ٥٧ ذكرنا من قبل بأن هذه كانت سياسة عمرو بن العاص عندما اشتد عليه الأمر في أم دنين ، فقسم جنده فريقين ، كما أنه لما وصله المدد من الخليفة وزع جنده بين ثلاث فرق ، وجه كل منها الى جهة معينة .

(٦٩) تذكر بعض المصادر المصرية أنه حدث في أثناء هذا الحصار ، أن دخل عمرو بن العاص الى داخل الحصن للتفاوض مع الحاكم الروماني ، الذي أوصى حارسه بقتل عمرو عند خروجه . إلا أن عمرو لظن الى هذه المؤامرة اعتدما قال له بعض الحاضرين : « قد دخلت فأنظر كيف تخرج » عند ذلك تعهد عمرو لصاحب

الحصن بأن يحضر له نفرا من أصحابه للتفاوض معه . ففضل صاحب الحصن قتل الجماعة على قتل فرد واحد وبذلك نجا عمرو من القتل . ومما لا شك فيه أن الحاكم الروماني لم يكن يعرف شخصية عمرو ولو كان يعرفه لقتله . انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٥٧ .

(٧٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٨ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٢٦٢ . والأخير يشير إلى أن المقوقس وكبار القبط والرومان كانوا في جزيرة الروضة عند صعود الزبير إلى أعلى الحصن . وأنه من هذه الجزيرة طلب مفاوضة عمرو بن العاص من أجل الصلح . وهذا عكس ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم من أن المقوقس كان موجودا داخل الحصن عند اقتحام المسلمين له بقيادة الزبير . ومما لا شك فيه أن ذلك ينتج عنه خلط بين الروايات مما يبعدنا أحيانا عن الحقيقة .

هذا في حين يشير بعض المؤرخين المسلمين الآخرين إلى أن الحصن قم تم فتحه عنوة ، وأن أهله صاروا ذمة للمسلمين ، وفرض العرب عليهم الجزية على رؤوسهم ، والخراج على أراضيهم . ويروى أن الزبير بن العوام صعد إلى أعلى الحصن ، وهو مجرد من السيف وتبعه المسلمون ، وتم فتح الحصن عنوة . واستباح المسلمون ما فيه . وأقر عمرو أهله على أنهم ذمة ، فوضع الجزية في رقابهم ، والخراج في أرضهم . انظر : البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١٥ .

(٧١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٨ . (٧٢) ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٢ . ولعل قول المقوقس هذا هو الذي جعل ابن بطريق يعتبر يعقوبيا وليس ملكانيا . ويشير إلى أن المقوقس كان يكره الرومان . وأنه كان يخفي مذهبه اليعقوبي حرصا على مركزه السياسي وخوفا من أن يقتله الرومان . ويقول ابن بطريق : إنه لجأ إلى هذه الحيلة . وهي الخروج من الحصن والاقامة في جزيرة الروضة . لأنه كان قد استأثر لنفسه بأموال مصر ، منذ حاصر كسرى القسطنطينية . ولذلك كان يخشى أن ينتصر الرومان على العرب ، ويقع في يد هرقل ، فيقتص منه ويطالبه بهذه الأموال . ونحن نرى أنه لو كان يعقوبيا لما اختاره هرقل حاكما لمصر ، وبطركا للمسيحيين الملكانيين بها في سنة ٦٣١ م . ولا اضهد قبط مصر اليعاقبة .

(٧٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٩ .

ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٢ .

(٧٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٠ .

(٧٥) نفس المصدر ، ص ٦٠ . وهذا نص ما قاله رسل المقوقس عن العرب : « رأينا قوما ، الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم » .

(٧٦) نفس المصدر ، ص ٦٠ . وكان عبادة بن الصامت ، شديد السواد ، لفظ المنظر حتى خاف منه المقوقس ، وطلب من الوفد المصاحب له أن يعهدوا إلى شخص آخر منهم ليتحدث إليه بدلا من عبادة . إلا أنهم رفضوا ذلك ، وأعلموا المقوقس أن عبادة أفضلهم جميعا فى الرأى والعلم ، وأن قائدهم قد أمره هو بالكلام وأوصانا ألا نخالف أمره . وأن هذا الأسود واحد من ألف رجل أشد سوادا من عبادة ، وأقطع منظرا منه .

انظر المصدر نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(٧٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦١ . ويسكر ميخائيل السريانى أنه لما قدم العرب Taiyaye بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر ، خرج اليهم أسقف الاسكندرية المقوقس وعرض عليهم جزية سنوية قدرها مائتا ألف دينار ، وينصرفون عن البلاد المصرية فقبل عمرو ذلك - ونحن نشك فى صحة هذا الخبر لأن هذا المؤرخ لم يكن مصريا ، كما أنه لم يذكر لنا المكان الذى التقى فيه المقوقس مع عمرو والمسلمين - ثم يشير هذا المؤرخ الى وشاية بعض المصريين بالمقوقس لدى الامبراطور هرقل ، وعزل الأخير للمقوقس ، وتوليته مانويل الارمنى بدلا منه على مصر - ونحن نرى أنه ليس بين المصادر المصرية وغير المصرية ما يشير الى ذلك . كما أن تلك الرواية تؤدي الى خلط الحوادث والأخبار ولعل الأمر قد التبس على هذا المؤرخ ، مما أوقعه فى الخطأ عند ذكر الحوادث . وتجمع المصادر على أن مانويل هذا قد أرسله الامبراطور قسطنطين بعد تمام فتح مصر ، لاستعادة الاسكندرية سنة ٢٥ وكما سنرى .

ويضيف ميخائيل فيذكر أنه لما قدم رسل العرب الى بابليون لأخذ الجزية المقررة رفض مانويل تأديتها لهم . وأخبرهم أنه مستعد لقتالهم مهما كلفه ذلك من جهد فقدم عمرو على رأس الجند المسلمين لفتح مصر . وانتهى الأمر بهزيمة

مانويل ومن معه من الرومان • وتم للعرب الاستيلاء على مصر • فلما علم هرقل بذلك ، استدعى المقوقس ثانياً وطلب منه مساومة العرب على أن يتسحبوا من مصر مقابل دفع مبلغ من المال ضعف ما كانوا يأخذونه من قبل ، إلا أن عمرو بن العاص رفض ذلك وأخبره بأنه لن يخرج هذه المرة من الأراضي المصرية •
Chronique de Michel le Syrien, T. 11, fase. 3, 420. انظر :

ويناقش بتلر - في كتابه فتح العرب لمصر ، ص ١٨٢ - ١٨٥ ما كتبه بعض المؤرخين اليونان عن فتح مصر ، وخاصة ما يدعونه من أن المقوقس قد نجح في صرف عمرو والمسلمين عن مصر مقابل جزية سنوية • ونحن نتفق مع بتلر في عدم تأييد هذه الرواية ، وأنه من العسير قبولها ، إذ لم يشر إليها أحد من مؤرخي مصر أو المشرق ، باستثناء المؤرخ ميخائيل السرياني كما ذكرنا آنفاً •

(٧٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦١ - ٦٢ •

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ •

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٦٣ •

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ٦٣ - ٦٤ •

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١٥ ،

ص ٢٦٣ •

(٨٤) فتوح البلدان ، ص ٢١٦ •

(٨٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ •

(٨٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ - ٢١٧ • ويرى الواقدي أن المسلمين لما

حاصروا الحصن ، كان به أرسطوليس بن المقوقس ، وأرجانوس بن راعيل أخ المقوقس ، الذي طلب من عمرو ابن العاص الصلح والأمان في مقابل أداء الجزية ، وسلم عمرو مفاتيح الحصن ، وقال له عمرو : « قد أمناكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم مدة منا عليكم • وقد وضعت عنكم الجزية هذه السنة ، وفي السنة الآتية ، نأخذ منكم من كل محتلم أربعة دنانير ، ومن أسلم قبلنا ، ويفرد هذا المؤرخ بذكره هذه الرواية دون غيره من المؤرخين ، ويضيف أن أرجانوس اعتنق الاسلام عقب الفتح كما أسلم عدد كبير من القبط وحول عمرو بن العاص الكنيسة الموجودة الى جامع • انظر : فتوح الشام : ج ٢ ، ص ٨٣ - ٨٤ •

ويذكر بعض المؤرخين رواية أخرى عن فتح بابليون ، تشير الى أن المقوقس

أرسل جاثليقي مصر (أبو مريم) وأسقفها (أبو مريام) للتفاوض مع عمرو ،
فدعاهم إلى أحد أمور ثلاثة الاسلام أو الجزية أو القتال . فوعده أبو مريم
وأبو مريام بعرض الأمر على المصريين والرد عليه بعد بضعة أيام . فقال المقوقس
إلى قبول أحد أمرين الاسلام أو الجزية ، فاعترض على ذلك أحد القواد الرومان
ويسمى أرطبون ، وأصر على قتال المسلمين . إلا أن عمرو بن العاص شدد
الحصار على الحصن ، وقتل أرطبون وجنده . عند ذلك عرض القبط على المقوقس
مصالحة المسلمين الذين هزموا من قبل الفرس والرومان في العراق وبلاد الشام .
ولكن المقوقس أصر من جانبته على مواصلة الدفاع عن الحصن حتى غلبه المسلمون
وتم لعمرو فتح الحصن ، وعقد صلحا مع المقوقس . ونرى أن هذه الرواية تشيد
بموقف المقوقس ، وتضميمه على قتال المسلمين ، ورفضه رغبة القبط في مصالحة
عمرو والمسلمين ، انظر . الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ١٩٧ .
١٩٩ . ابن الأثير : الكامل ج ٢ ، ص ٣٩٥ ، تحصيل الاستيفاء في مغارى
(المصطفى) ورقة ١٠٨ ب ، ١٠٩ مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠١٦ تاريخ .

(٨٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ١١٩ - ٢٠٠ . أبو المحاسن
النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ ، تحصيل الاستيفاء في مغارى المصطفى ،
ورقة ١٠٩ ، ١٠٩ ب .

القلقشندي صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٢٤ . ويقول جمال الشيال -
في كتابه تاريخ مصر الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٣ - إن صاحب الحصن عقد
صلحا مع عمرو يتضمن الشروط الآتية :

- ١ - خروج الجند من الحصن في مدى ثلاثة أيام .
 - ٢ - أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم ما يكفيهم لبضعة أيام .
 - ٣ - أن يستولى العرب على ما في الحصن من ذخائر وآلات . وقد أشار
هنا النقيوسي في ديوانه . pp. 446-447 . إلى ما اعتبره هذا المؤرخ الحدث
شرطا أول . قرئى أن عمرو أمر الجند الرومان بالخروج من الحصن وترك لهم أهلة
ثلاثة أيام من يوم فتح الحصن . أما ما يعتبره جمال شرطا ثانيا فلا نجدة وانضموا
في المصادر القديمة ، وكل ما هنالك أن هنا النقيوسي ذكر أن عمرو سمح للجنة
الرومان بحمل قليل من الأموال عند خروجهم من الحصن . أما الشرط الثالث
فكان أمرا طبيعيا أن يستولى العرب على ما في الحصن من الأموال والمتاع .
- (٨٨) Chronique de Jean, pp. 446-447.

- (٨٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ : ابن الأثير :
الكامل ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، بحصيل الاستيفاء في مغازي المصطفى ، ورقة ١٠٩ ب .
- (٩٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٢٩ .
- (٩١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٤ .
- (٩٢) المصدر نفسه ، ص ٦٤ - ٦٥ . وهذا نص كتاب هرقل للمقوقس :
« اتما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد العبيط
ما لا يحصى فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم
علينا ، فإن عندك من بمصر من الرومان وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة
ألف معهم السلاح والعدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت ،
فعجزت عن قتالهم ، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الرومان في حال القبط
أذلاء ، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الرومان حتى تموت أو تظهر عليهم ، فإنهم
فيكم على قدر كثرتم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم ، كأكلة . فهاضمهم القتال
ولا يكن لك رأي غير ذلك » .
- (٩٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥ .
- (٩٤) المصدر نفسه والصفحة . وانظر أيضا : البلاذري : فتوح البلدان ،
ص ٢١٧ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٤ .
- (٩٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥ ، ابن بطريق :
التاريخ المجموع ، ص ٢٤ . وكان ذلك تحقيقا لما جاء في حديث الرسول عليه
الصلوة والسلام : « الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ، ويكونون لكم
عدة وأعوانا في سبيل الله » ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٣ .
- (٩٦) Chronique de Jean, p. 448 .
- (٩٧) القائدان هما : ياكبرى Yekburi وساتفري Satisfari .
- (٩٨) Chronique de Jean, p. 440 .
- (٩٩) Ibid., p. 441 . ويرى أنه قد انضم القائد كلاجي إلى
صفوف المسلمين لمساعدتهم في القتال فلما علم بذلك تيودور ، بذل أقصى جهده
في الاتصال به حتى تحقق له ذلك وطلب من كلاجي العودة إلى جانب الرومان .
وأجاب كلاجي إلى ذلك على ألا تتعرض زوجته وأسرته بالإسكندرية لأي أذى .
ومن ثم لحق بجند تيودور ثم أرسله الأخير إلى تقيوس لمساعدة القائد
دونتيانوس .

أما القائد سيندس - الذى غضب من قائد الحامية فى دمياط ويسمى هنا -
لأنه أهانه وصفعه على وجهه رغم كبر سنه ومركزه - فقد انضم هو الآخر الى
جانب المسلمين ، ثم ما لبث أن تخلى عنهم ، كما فعل كلاجى ، وذهب الى
الاسكندرية ، واعترف بما ارتكبه من جرم فى حق دولته .

Chronique de Jean, p. 447. (١٠٠)

(١٠١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٦ .

(١٠٢) اسم لقرية بين الاسكندرية ومصر . وبها أسواق وكنيسة كبيرة .
وبها معاصر للسكر ، وبساتين واسعة وأكثر فواكه الاسكندرية منها . انظر ،
ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٧ .

(١٠٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٦ .

(١٠٤) وكانت أهم الحصون فى الطريق الى الاسكندرية . وقد أسرع قائد
حاميتها لاثذا بالفرار - عندما علم بقدوم العرب اليه - الى الاسكندرية ، وتشبه
به فى ذلك جنود الحامية حتى اذا وصل العرب المدينة - أى نقيوس - وجدوها
خالية من الجنود ، وتم لهم فتحها بسهولة . انظر :

Chronique de Jean, p. 448.

(١٠٥) Sâ اسمها القديم سايس ، وتقع شمال دمنهور . بتلر . فتح
العرب لمصر ، حاشية ، ص ٢٤٨ .

(١٠٦) وفيها اشتد القتال بين المسلمين والرومان ، ونجح المسلمون فى
فتح المدينة وأصبح الطريق أمامهم مفتوحا ، للتقدم نحو الاسكندرية . انظر :
ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٧ ، ابن بطريق : التاريخ
الجموع ، ص ٢٤ ويسمى هذا الموضع سلطس . ويقول بتلر ان الاسم الصحيح
لهذا الموضع هو سنطيس ، وتقع بين كريون وكوم شريك . انظر : فتح العرب
لمصر ، حاشية ، ص ٢٥٠ .

(١٠٧) ويقال أن كريون اسم لنهر بمصر يأخذ من النيل . ولذلك شربه
غيرها بالسفن ذات القلوع - انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١٦ ،
ص ٤٥٨ .

ويشهد المؤرخون المسلمون باستبسال الرومان فى هذه الموقعة ، ويشيرون
الى أن القتال استمر على أشده بضعة عشر يوما بين المسلمين والرومان . وأن
الرومان قد وصلتهم امدادات من سخا وبليث والخيس وسلطيس ، وقدموا كل

مساعدة ممكنة للرومان ضد المسلمين . والحقيقة أنه يبدو أن الرومان أرادوا الاحتفاظ بالاسكندرية دون وقوعها في أيدي العرب الفاتحين . وعاونهم في ذلك سكان المدن والقرى المجاورة ولكن خاب أملهم ، وألحق بهم العرب هزيمة ساحقة في هذه المدن . انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٧ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٢٢ .

وتقع سخا بين فرعى النيل على نحو عشرين ميلا ، شمال غرب سمنود . أما بلهيت أو بلابيب ، فتقع على الجانب الغربى للنيل . ولعل هذا الاسم القديم كان يطلق على مكان القرية التى تسمى دبی . أما الخيس فتقع بجوار دمياط . انظر : بتلر : فتح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٢٥٢ .

(١٠٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٧ .

Chronique de Jean, pp. 449-450.

(١٠٩)

ويذكر هذا المؤرخ أنه لما تعذر الفتح على عمرو بن العاص في بادىء الأمر ، رأى أن ينزل الرعب في قلوب أهالى الاسكندرية فهاجم بعض مدن وقرى الدلتا . وبلغ مدينة سخا : إلا أنه لم يتمكن من فتحها . ثم تقدم نحو مدينة طوخ - Tōukho (وهو اسم يطلق على عدة أماكن منها طوخ في صعيد مصر غربى النيل ، وطوخ الخيل أيضا في الصعيد ويقال لها طوه ، وطوخ بالحواف الغربى وتسمى طوخ فريد - وهى المصودة هنا - وطوخ في الدقهلية وطوخ بلفطة وطوخ طنبشة في المنوفية ، وطوخ الملك في القليوبية . انظر : ياقوت الحموى ، ج ١٣ ، ص ٤٦ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٥٩ وحاشية ص ٢٥٩) - ومن طوخ سار عمرو الى دمسيس ، على بعد تسعة أميال الى الشرق من طوخ فريد . بتلر : فتوح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٢٥٩ وتقد أخفق عمرو في فتح هذه المدن . ثم عبر عمرو وجنده الى الضفة الشرقية قاصدين دمياط ، ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها أيضا . انظر :

Chronique de Jean, pp. 441-442.

ومما لا شك فيه أن اخفاق عمرو وجنده في فتح بعض مدن الدلتا هو الذى جعل بعض المؤرخين المحدثين يذهبون الى معارضة الرأى القائل بأن مصر أذعن للعرب دون قتال ، وأن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه .

انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٥٩ .

ونحن نرى أنه كان بين أهالي مصر من قدم المساعدة للجند المسلمين ،
ورحب بهم ، كما اتضح لنا من روايات المؤرخين القديماء ، ومنهم من عارضهم
وقاومهم بجانب الرومان .

Chronique de Jean, pp. 450-451. (١١٠)

(١١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ، ابن بطريق .
التاريخ المجموع ، ص ٢٦ .

الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٢ .
ص ٢٢٢ .

(١١٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٩ . ويقول حنا
النقيوسى - ص ٤٤٣ - أن هرقل مات فى فبراير سنة ٦٤١ م : متأثرا بحزنه
الشديد لهزيمة الرومان وموت قوادهم .

(١١٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٩ .
وتذكر بعض الروايات التاريخية أنه قد حدث أن أسر الرومان عمرو بن
العاص مع ثلاثة آخرين - من بينهم مولاة وردان - فى أثناء حصار الاسكندرية .
واختلفت الأقوال فيما حدث لهم داخل الحصن . ف يرى البعض أنهم أفلتوا من
الأسر بعد نجاح أحدهم فى مبارزة بعض الرومان وتغلبه عليهم . ويرى آخرون
أنه قد أدرك بعض الرومان الحاقدين أن عمرو بن العاص بين المأسورين ، وذلك
حين قال لهم : عليهم أن يختاروا أحد ثلاثة الاسلام أو الجزية أو القتال .
فلما فهم ذلك وردان - مولى عمرو - لکم عمرو على فمته قائلاً : « ما لك وذا
الكلام بين الرؤساء ، وليس لى المعسكر أدنى منك ، ولا أقل ، فاترك غيرك
يتكلم » . وبخيلت هذه الحيلة على الرومان . وأطلقوا سراحهم بعد أن وعدوهم
سؤال أميرهم عمرو ارسال بعض مندوبين من المسلمين للتفاوض معهم . انظر
المصدر نفسه ، ص ٧٠ - ٧١ . ابن بطريق : التاريخ المجفوع ص ٢٥ . ابن
العميد : تاريخ المسلمين . ص ٢٩ - ٣٠ . وقيل ما يشبه ذلك فى حصار حصن
بايليون . مما يؤيد الى اضطراب الروايات التاريخية بشأن الفتح .

(١١٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٢ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٢ ،
ص ٣٩٧ .

(١١٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ابن بطريق .
التاريخ المجموع ، ص ٢٦ . وتذكر بعض الروايات أن الذى ساعد عمرا والمسلمين
على فتح الاسكندرية رجل يسمى ابن بسامة ، وكان على أحد ابواب المدينة

وقد طلب الأمان من عمرو بن العاص على نفسه وأرضه وأهل بيته ، على أن يفتح له باب المدينة ، فأجابه عمرو الى ذلك . ودخل عمرو والمسلمون من جهة القنطرة التي يقال لها قنطرة سليمان . انظر : ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص ٧٢ . ابن اياس . بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(١١٦) تاريخ الامم والملوك ، ج ٣ ، ص ١٩٦ . ووصف هذا المؤرخ ما حدث في أثناء عرض الاسلام أو الجزية على السبائيا من الرومان والقبط . فيقول إنه اذا قبل أحدهم الاسلام ، كان المسلمون يكبرون تكبيرة أشد من تكبيرتهم عند فتح مدينة ، ويحوزونه اليهم . واذا اختار النصرانية ، نخرت النصراني ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك . ويشير أيضا الى ما حدث لأحد السبائيا ويسمى أبو مريم عبد الله بن عبد الرحمن الذي أسلم فوثب عليه أهله يريدون قتله ، وشقوا عليه ثيابه . انظر . المصدر نفسه ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(١١٧) Chronique de Jean, p. 452.

(١١٨) Ibid., p. 453.

(١١٩) Ibid., p. 455.

(١٢٠) Chronique de Jean, p. 455.

(١٢١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٤ . ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٦ . ابن العميد تاريخ المسلمين ، ص ٣٠ ، على حين تشير رواية أخرى الى أنه كان يوجد بالاسكندرية نحو ستمائة ألف يهودي وأن كثيرا منهم هرب الى بلاد الرومان . فيبلغ عدد من بقى منهم ويؤدون الجزية نحو خمسين ألف يهودي . انظر : ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٢ . ويكاد يقتصر ما كتبه المؤرخون بشأن اليهود آنذاك على هذه الرواية وسنرى أنهم بدءوا يبرزون في التاريخ ، ويكتب عن بعض شخصياتهم ومكانتهم في مصر الاسلامية بصورة واضحة في العصر الفاطمي .

(١٢٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(١٢٣) Chronique de Jean, p. 456. انظر :

(١٢٤) Ibid, p. 456. انظر :

وفي أثناء حصار الاسكندرية ، حمل عمرو بن العاص كثيرا من الغنائم والأسرى من المدن والقرى المجاورة لها الى حصن بابلليون . كما قام بعض الجند المسلمين بعدة فتوحات في بلاد الصعيد ، ساعدهم في ذلك ضعف الجنود الرومان ، وما ساد من شعور الكراهية للرومان بين المصريين الأرثوذكسيين ، لما نزل بهم من الاضطهاد والعسف على يد المقوقس والحكام الرومان في جميع أرجاء البلاد . وقد أراد سكان بعض مدن الصعيد قتال المسلمين ، ولكن حكامهم الرومان رفضوا الصمود بجانبهم ، بل وبادروا بالفرار الى الاسكندرية وهم يحملون ما تمكنوا حمله من الأموال والمتاع ، لشعورهم بعدم قدرتهم على مواجهة المسلمين . ونحن نرى أن فرار جميع الحكام الى الاسكندرية ، لم يكن بغرض الدفاع عن العاصمة الرومانية وإنما ليسهل لهم ، الخروج من الاراضي المصريه بحرا الى القسطنطينية - وصار أهالي الفيوم يحلون حل من يجدونه من الرومان . ويمكن القول بصفة عامة ، ان سكان الصعيد جميعا كانوا ييغضون حكمه هرقل ، أشد اليغص ويكرهون الجند الرومان . ولذلك فضلوا حكم المسلمين على حكم الرومان المسيحيين المخالفين لهم في المذهب الديني ، انظر . Chronique de Jean, pp. 442-443.

(١٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٧ ، ويسمى اخنا « اجنا » ،
أبو عبيد : الأموال ، ص ١٤١ .
ياقوت : معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٣٦٤ .

ويقول عن اخنا ان البعض يقول : اخنو ، وجدت في غير نسخة من كتاب فتح مصر بالجيم والجميع يعرفها بالخاء .

ويقول القضامي وهو يعدد كور الحوف الغربي ، وكورنا اخنا ورشيد والبحيرة ، وكلها بالقرب من الاسكندرية . المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(١٢٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٧ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(١٢٧) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٢٤ . ويذكر بعض المؤرخين المحدثين أن ظلما لما عرض عليه شروط الصلح التي صالح عليها عمرو بن العاص المقوقس ، سأل عن مقدار الجزية ، فأجابته عمرو بما ذكرنا في المتن ، فغضب ظلما أشد الغضب ، وعزم على عدم الانعان للمسلمين ، ولكنهم أرغموه على التسليم وحملوا من بلاده كثيرا من الأسرى . انظر : بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٠٢ .

(١٢٨) دمياط كلمة سريانية اصلها دميظ . قال الرسول في تسميتها ان ادريس لما نزل عليه الصحف ، كان اول ما انزل الله فيها . انما الله ذو الجبروت ، انا مدير المديرين بأمرى وصنعي . اجمع بين العذب والمالح والثلج والنار كل ذلك يعلمي ، ليتم بذلك الدال والميم والطاء . وأشار الرسول الى فتح المسلمين لدمياط . سيفتح لكم ثغر هو بلد القدرة . يسكن فيه الاولون من امتي . رباط ليلة فيه خير من عبادة ألف شهر . فسأله انس بن مالك عن بلد القدرة ، فاجابه : بلد الميم والدال والطاء . وقال عليه الصلاة والسلام . « اسمها بالعربية دمياط ، وفي التوراة البيضاء ، وفي الانجيل الخضراء ، وفي الزبور الهزيمة أو الهزيمة » . انظر ابن دقماق . الانتصار بواسطة عقد التمهيد ج ٥ ص ٨٠ . المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٤٥ . وتشير بعض الروايات الى امتناع حاكم دمياط الهاموك عن التسليم للمسلمين والاذعان الى عقد الصلح فعهده عمرو بن العاص الى المقداد بن الاسود ، يقتاله . ومما تجدر الإشارة اليه ان أحد أبناء الهاموك قد انحاز الى جانب المسلمين . ودلهم على عورات ومسالك بلاده . وتشير ايضا هذه الرواية الى ان أحد حكام دمياط قال للهاموك : « أيها الملك ، ان جوهر العقل لا قيمة له ، وما استغنى به أحد الا هدام الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك . وهؤلاء العرب من بدء أمرهم . لم ترد لهم راية ، وقد فتحوا البلاد وانكروا العبادات ولما لاحد عليهم قدرة ، ولسنا بأشد من جيوش الشام ، ولا أعز ولا أمتع : وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر ، والرأي ان تعقد مع القوم صلحا ، تنال به الامر » . وحقق البمام ، وصيانة الحرم . فما انت بأكثر رجلا من القوس » . الا أنه أمر علي محاربة العرب والتصدى لهم وانتهى الأمر بفوز المسلمين ، وتم لهم فتح دمياط . انظر المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٤٥ . ويقول ابن دقماق : ان فتح دمياط تم في سنة ٢١ وفي قول آخر سنة ٢٢ هـ . والانتصار بواسطة عقد التمهيد ج ٥ ص ٨٠ .

(١٢٩) بعد فتح دمياط سار المسلمون لفتح تنيس . وكان حاكمها رجلا عربيا نصرانيا يسمى ابو طور أو ابو ثور . وقد تصدى لقتال المسلمين وخرج للقائهم في عشرين الفا من اصحابه اكثرهم من العرب النصرانيين . والبعض من القبط الرومان ، وانتهى الامر بقتل أبي ثور وفتح مدينة تنيس . وأشار المقرئ الى الدور الذي قام به شطا بن الهاموك في مساعدة المسلمين في هذا الفتح . انظر الخطط ج ١ ص ٢٤٥ و ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

Quatremere : Memoires géographiques et historiques sur l'Egypte
T. I. p. 307.

أهل الذمة ج ١ - ٢٤١

- (١٣٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٨ .
- (١٣١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٣ .
- (١٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .
- (١٣٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .
- (١٣٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
- (١٣٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٣ .
- (١٣٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٣ . ويقول ابن عبد الحكم ان عمرو بن العاص قد أقسم اذا أظهره الله على الرومان ، ليهدمن سور الاسكندرية وينزل بها الخراب ويقتل أهلها . انظر فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٣٥ .
- (١٣٧) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٤١٠ .
- (١٣٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ .
- (١٣٩) Antoine Fattal : Le Statut legal des non-Musulmans en pays de Islam, p. 53.
- (١٤٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ - ٨٢ .
- (١٤١) الدعوة الى الاسلام ، ص ١٢٣ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٤ - ١٨٦ .
- (١٤٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٦ .
- (١٤٣) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٤٨ . ويشبه ترحيب القبط بالعرب الفاتحين ، بترحيبهم بالفرس من قبل .
- (١٤٤) Christian Egypt, p. 187.
- (١٤٥) The Encyclopedia of Islam, Art Kibt, Vol. 2, p. 990.
- (١٤٦) Histoire des Coptes. pp. 93-94.
- اسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .
- (١٤٧) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٥٩ - ٣٠٩ .
- (١٤٨) اسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٢٥٢ - ٣٥٣ .

- (١٤٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٣ - ٥٤ .
- (١٥٠) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
- (١٥١) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
- (١٥٢) Chronique de Jean, pp. 439-448.
- (١٥٣) انظر . القوامع العربية .
- (١٥٤) Antoine Fattal : Le Statut legal des non-Musulms en pays d'Islam, p. 72.
- جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٤ ، ص ١٥٣ ، على حسبيد
الخربوطلي : الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٢٦ ، الاسلام وأهل الذمة ،
ص ٦٥ .
- (١٥٥) الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٢٨ ، ابن القرار : الاحكام
السلطانية ، ص ١٢٨ ، الشعرائي : الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ، ترتون : أهل
الذمة في الاسلام ، ص ٤ .
- (١٥٦) Mourice Fargon : Les Juifs en Egypte, pp. 113-114.
- (١٥٧) Main : The Jews., Vol. 3, p. 13.
- ويشير الى بعض الاخبار القليلة عن اليهود في ذلك العصر ، منها سماح
عمرو لهم بالاقامة في الاسكندرية . كما يبدو انه كان ينظر الى ملابس اليهود ،
نظرة احتقال بدليل ان حاكم الاسكندرية سمى Samad هدد البطريرك يوحنا
بارتداء ملابس يهودي .
- (١٥٨) Chronique de Jean, p. 457.
- (١٥٩) Ibid., p. 463.
- (١٦٠) Ibid., p. 457.
- (١٦١) Ibid., p. 457.
- (١٦٢) Chronique de Jean, pp. 457-458.
- (١٦٣) Ibid., p. 458.
- ويرى أحد المؤرخين المحدثين ان وصف
الروايات القبطية لعمرو أو العرب بأنهم من الهمج والبربر ، وما ذهبت اليه من
أن عمرا عامل المصريين بشدة وقسوة ، له أهمية من ناحيتين : أولا أن هؤلاء
الحكام الثلاثة - ميناس وشتوده وفيلوخينوس - كانوا أبرز حكام مصر

بعد المقوقس وكانوا من الرومان - اتباع المذهب الملكاني - وكانوا شديدي
القسوة في معاملة القبط . ثانيا : أنه قد ثبت أن عمرا كان يعامل المصريين
أشد المعاملة قبل فتح الاسكندرية وبعدها . ويستشهد بذلك في تأييد رأيه في
أن المصريين لم يرحبوا بالعرب . وقد ناقشنا ذلك من قبل في الفصل الأول ،
انظر :

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .
(١٦٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣١٢ .

(١٦٥) Chronique de Jean, pp. 462, 485. كانت أخبار القيسطنطينية
لا تبشر بالخير . فقد زال أمن الامبراطورة مارتينة وضربها المؤيد للمقوقس - وفي عهد
قلاجريوس من منفاه ، وكان عدوا للمقوقس . وحاول فلنتين الثورة ف فشل وأظهر
أنه كان يعد لجارية العرب ، وأظهر ولائه للاميراطور بالبقاء بكل من كان
يوافق مارتينة وأنصارها مما أثار مخلوق المقوقس ووخشى على نفسه من الذي
أو القتل . انظر المصدر نفسه ، ص ٤٦٢ .

(١٦٦) Ibid., p. 463. ويوافق هذا اليوم عيد الصليب .

(١٦٧) بتلر فتح العرب لمصر ، ص ٣١٥ ، وحاشية الصفحة نفسها ١٠

(١٦٨) Chronique de Jean, p. 463. ويشير بتلر في فتح العرب
لمصر ، ص ٣١٧ الى تاريخ رحيلهم في ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م .

(١٦٩) كان عميدا للقبط عند دخول العرب مصر . فقد تولى شؤون الكنيسة
في اثناء اختفاء الأب بنيامين فأحسن ادارتها وجمع كلمة الأمة بعد أن كانت الحوادث
قد جعلتها اثنتاتا . انظر : شيدة كاشف . مصر في فجر الاسلام ، حاشية ،
ص ١٨٧ .

(١٧٠) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ج ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
ويذكر أبو صالح الارمني - ص ١٠٢ أن نص الامان « فليظهر الشيخ البطريرك
مطمئنا على نفسه وعلى طائفته القبط جميعهم التي بالديار المصرية » وغيرها .
« فكل من نفوسهم من كل مكروه » .

(١٧١) ساويرس : سير الابهاء البطارقة ، ص ١٠٩ .
Chronique de Jean, p. 464.

(١٧٢) ساويرس : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ج ١ ، ص ١٠٩ .
Sylvestre Ghauleur : Histoire des Coptes, pp. 106-107.

(١٧٣) ساويرس : سير الالباء البطارقة ، م ١ ج ١ ، ص ١٠٩ .

(١٧٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(١٧٥) Chronique de Jean, p. 464.

(١٧٦) Ibid., pp. 464-465. مثلا كانت الضرائب المقررة على مدينة

الاسكندرية ٢٢ ألف دينار الا أن ميناس أجحف بالقبط ، وزاد عليهم الضرائب كثيرا عن هذا الحد ، حتى بلغ مقدار جباية الاسكندرية ٢٣٧٥٠ دينار ، وذلك رغبة منه في التقرب من عمرو بن العاص عن طريق زيادة ما يقدمه اليه من الأموال ، فعزله عمرو من منصبه ارضاء للقبط .

انظر . المصدر نفسه ، ص ٤٦٥ .

(١٧٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(١٧٨) ابن الداية : المكافاة ، ص ٨٧ - ٨٨ . ويروى أن عمرا كان يتنكر

في زي عامة الناس ويخرج وحده ، ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين . وفي يوم ما وصل به السير الى طرف من اطراف القسطنطينية فرأى جماعة قد التأم على سبيل فيه . فقال لها : اعملوا بي كل ما تؤثرونه من الشرور . ولا تردوني الى يد الأمير ، فاني هربت منه . فقال بعضهم : ردوه الى يد الأمير فيقتله . ويكن لكم بذلك عارفة . عند الأمير : فساقوه الى دار الإمارة . حتى قرب الى الدار ، فقام اليه الشرطة ، فأمرهم بقتل هؤلاء القوم عن آخرهم . ولم يهاود عمرو بن العاص التناكر بعد ذلك .

(١٧٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٢٥ - ٢٢٦ . ويشير الى أن

عمر لم يكتف بضرب القبطي لعمرو وقال له : « منذ كم تغبذتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

انظر أيضا جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٤ ، ص ١٠٨ -

١٠٩ . الشماس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٢٠٦ .

(١٨٠) توفيق الطويل : قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ،

ص ١٦٨ .

(١٨١) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٢٥ ، محمد ضياء الدين الرئيس

الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، ١٧٢ .

(١٨٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

- (١٨٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .
 على حسنى الخربوطلى . الحضارة الاسلامية ، ص ١٤٨ .
 (١٨٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ٥٥٦ .
 (١٨٥) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٩ .
 (١٨٦) وهى اهناسيا .
 Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes, p. 98.
 (١٨٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٩ .
 (١٨٨) ابن المقفع : سيرة الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ويسميه
 تاووضوسيا ، وفى موضع آخر ص ١٢٤ تادرس . انظر أيضا ، السنكسار ،
 ج ١ ، ص ١٢٧ ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٢ . ويذكر هؤلاء
 أن تيودوسيوس ذهب الى الخليفة المذكور بدمشق وقدم له هدايا وأموالا عظيمة
 وطلب منه أن يوليّه حكم الاسكندرية وما يجاورها ، وأن يكتب الخليفة له سجلا
 بذلك . فكتب الخليفة يزيد لتيودوسيوس سجلا يحق له به حكم الاسكندرية والبحيرة
 ومريوط . كما أشار الخليفة فى هذا السجل الى أن والى مصر ليس له سلطان
 على هذا الحاكم .
 (١٨٩) ابن المقفع : سيرة الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ،
 السنكسار ، ج ١ ، ص ١٢٧ . وأصل البطريرك أغاثو من مريوط . وكان قسا
 فى الكنيسة فى بطريركية الأب بنيامين . وشهد اصطهادات المقوقس وتحدى
 مذهبه الذى كان يدعو اليه القبط . فكان ليلا يتزيا بزى العلمانيين ، ونهارا
 يتنكر فى زى نجار - يحمل آلات النجارة - كما ذكرنا آنفا فى التمهيد - وعاد
 الى الظهور بعد الفتح العربى وعودة البطريرك بنيامين الذى عهد اليه بتدبير أمور
 البيعة ، وولى البطريركية من بعده . انظر ابن المقفع : المصدر السابق ،
 ص ١١٢ .
 (١٩٠) القلاية جمعها قلالى ، وهى مقابر منفردة للمتوحدين المنعزلين عن
 السكن بين الناس . وهى تعد أصلا لسكنى الرهبان ويقوم الرهبان بحفرها فى
 الصحراء أو مقابر الجبال أو بنائها من الطوب . انظر عبد المسيح البرموس :
 تحفة السائلين ، ص ١٧ . حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ، ص ١٢٨ .
 والمقصود هنا البناء الذى يسكنه البطريرك ويكون فيه أقامته طوال توليه كرسى
 البطريركية .

(١٩١) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ص ١٢٤ .

(١٩٢) ويسميه أحد المؤرخين السريان اثناسيوس بن غومايه Athnasius Ben Gaumaye ويقول إنه كان يشتهر بالإنيل ، والذكاء ، وكان متبحرا في العلوم الكنسية والدنيوية . وذاعت شهرته حتى بلغت أخباره الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي عهد اليه بتعليم أخيه عبد العزيز بن مروان الذي ولى أمرة مصر .
Chronique de Michel le Syrien, T. 2, fasc. 3, p. 475.

(١٩٣) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .
Amélineur : Histoire du Patriarche Copte Isaac, p. 43.

(١٩٤) أصله من سمندود ، وتردب بدير أبى مقار . وكان كاتباً للبطريرك اغاثو وولى البطركية من بعده ، الانبا ايسيندوس : الزبدة النفسية ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(١٩٥) ابن المقفع . سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
(١٩٦) أصله من أهل المشرق ، جاء به والده منذ صباه الى الاسكندرية . ثم صار قساً فى بطركية اغاثو . وبعد وفاة البطرک استحق ، وفق اختيار القبط على الأب سيمون ليكون بطركاً لهم . وحاول بعض الكهنة دس السم له الا أنهم فشلوا . وحارب البطرک سيمون ظاهرة التسرى بين الأساقفة والقبط . وتعرض للكثير من المحن . انظر : ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ - ١٤٢ .

(١٩٧) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(١٩٨) ابن المقفع . سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(١٩٩) ثرتون . أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢١ .

Chronique de Michel ... , T. 2 fasc. 3, p. 475. (٢٠٠)

ويبلغ عدد جند مصر ثلاثين ألف جندي واستمر هذا العطاء احدى وعشرين سنة ، حتى صار اثناسيوس فاحش الثراء .

(٢٠١) ثرتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢١ .

Chronique de Michel ... , T. 2, fasc 3, p. 475. (٢٠٢)

Ibid., p. 475. (٢٠٣)

Ibid., p. 476.

(٢٠٤) انظر :

• وابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤١ .
• وقد سعى بالناسيوس أحد المكاينيين . ويسمى شرجيوس بن منصور ، عند
الخلافة عبد الملك بن مروان في دمشق ، واتهمه أمامه بنهب أموال مصر ،
وجعلها معه إلى الشام بعد وفاة عبد العزيز بن مروان . فاستدعى عبد الملك
الناسيوس ، وقد تمكن الأخير من إرضاء الخليفة وقدم له مبلغا عظيما من
الأموال . انظر : Chronique de Michel, T. 2, fars. 3, p. 477 . ويقال
أن عبد الملك قبض على الناسيوس وأهله وأخذ منهم كل ما جمعه من الأموال .
• ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٢٠٥) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

(٢٠٨) يتشتر : تاريخ الأمة القبطية ، م ٢ ، ص ١٦٣ - الراهب البراموسي :
حسن السلوك في تاريخ البطارقة والملوك ، ج ١ ، ص ٤٣١ - الأنبا إيسيندوس
الزييدة النفيسة ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(٢٠٩) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤١ - أبو صالح الأرمني :
ص ٦٧ .

(٢١٠) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .
ويقول ترتون ، ص ٢٢ - ٢٣ أن اسمه تيودور ، وأنه كان يلقب في الكتب الرسمية
باسم أغسطس Augustales وكان هذا لقب حاكم الاسكندرية في العصر
البيزنطي .

(٢١١) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .
الاسكندروس البطركية بعد ثلاث سنوات من وفاة البطرك سيمون . وكان
متواضعا ، انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

(٢١٢) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢١٣) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

- (٢١٤) Lamhams Un Gouverneur Omayyade, p. 115.
- (٢١٥) عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٢٥ -
- ١٣٦ . ابن النقاش . الذمة في استعمال أهل الذمة ورقة ٨٣ ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ تاريخ . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ص ٢١٢ -
- ٢١٣ . يزيد في النهاية هذا الكتاب « وأمر بفتح اليهود والنصارى من الركوب على السروج الا على الأكف . وليكتب كل منكم بما فعله من عمله » .
- (٢١٦) ابن كثير . عمر بن عبد العزيز ، ص ٩١ . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن هذا الخليفة كره أن يكون للذمي سلطان على المسلمين ، وأن يعصر كتيه الى ولاته في هذا الشأن يعد رسالة تعليمية ، جاء فيها « أما بعد ، فإن الله عز وجل . أكرم بالاسلام أهله ، وشرفهم وأعزهم ، وضرب الذل والصغار على من خالفهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس . فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة ، فتبسط أيديهم والسنتهم ، وتذلهم بعد أن أعزهم الله ، ونهيتهم بعد أن أكرمهم الله تعالى . فإن الله عز وجل يقول : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يالونكم خيالا ، ودوا لما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) . ترقون : أهل الذمة في الاسلام ، ص ٢٣ .
- (٢١٧) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢١٣ .
- (٢١٨) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢١٣ .
- (٢١٩) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٦٩ أبي المحاسن . النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
- (٢٢٠) ابن المقفع سيرة الائمة البطارقة ، م ٦ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .
- (٢٢١) بورة مدينة على ساحل النيل ، بالقرب من دمياط . وتنسب اليها العمائم البورية والسماك البوري .
- انظر . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٦٠ .
- (٢٢٢) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٥٨ . ترقون : أهل الذمة في الاسلام ، ص ٢٤ .
- (٢٢٣) ابن بطريق : المصدر السابق ، ص ٥٨ . ترقون : المصدر السابق ، ص ٢٤ - ٢٥ .
- فأذن للقبط ببناء كثير من الكنائس . كما سمح للمسلمين ببناء مسجدهم غير المسجد الموجود .

(٢٢٤) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
(٢٢٥) ابن النقاش : الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ - ابن قيم
الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ . ويزيد بيتا رابعا
جاء فيه :

عبدوا الصليب وثلاثوا معبودهم وتوازنوا ونقدوا الأشرطا

(٢٢٦) ابن النقاش . الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ - ٨٧ .
ويقول ان الامام على بن حمزة الكسائى كان يقرأ القرآن على الخليفة بعد
عودته الى بغداد ، فلما وصل الى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا
اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم) .
قال الكسائى للخليفة . انك تقرأ كتاب الله ولا تعمل بما جاء فيه . ولذلك أمر
بعزل الذميين من أعمالهم ، واستخدم المسلمين بدلا منهم .

(٢٢٧) ويسمى أيضا قسما وقد جلس على كرسى البطركية بعد وفاة أنبا خيال .
وكان شماسا فى بيعة القديس أبى مقار . وأصله من سمند . انظر : ابن
المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢ .

(٢٢٨) المصدر ، نفسه ، ص ٣ .

(٢٢٩) قرية كبيرة بمصر بالقرب من دمياط . انظر ياقوت الحموى : معجم
البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٧٢ .

(٢٣٠) ابن المقفع : المصدر السابق ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣ . ويعلق على عناية
الموظفين القبط باخوانهم وبطركهم فيقول : « وكان من نعمة الله ان جماعة من
المؤمنين متولين ديوان السلطان ، وجميعهم يبذلون أنفسهم مع البيعة شهوة
واجتهادا عن أمانتهم ، وأزاحوا البطرک والبيعة والمؤمنين وصاروا تحت هدوء
وسلام ولا يوجد موضع واحد فيه اضطراب فى تلك الأيام » .

(٢٣١) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ . الطبرى .
تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ، ص ٣٥٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .
ويروى أن السبب الذى دفع المتركل الى اتباع هذه السياسة ، أنه عندما
كان يؤدى فريضة الحج ، شكا اليه بعض الناس من استغلال أهل الذمة على
المسلمين ، وسلطانهم عليهم : فأنار ذلك من سخطه وغضبه على أهل الذمة ،
فما جعله يسلك هذا السبيل . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ،
ص ٣٦٦ .

ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢٣٢) ابن زبر القاضى : شروط النصارى ورقة ١٦ ، مخطوط بدار الكتب .

(٢٣٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٧ .

(٢٣٤) المصدر نفسه ، ورقة ١٧ ، ١٨ .

(٢٣٥) المصدر نفسه ، ورقة ١٨ . ويذكر القلقشندى كتابا للمتموكل جاء فيه « وقد انتهى الى امير المؤمنين ان اتاسا لا راي لهم ، ولا ردية ، يستعينون باهل الذمة فى افعالهم ، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين ، ويسلطونهم على الرعية ، فيعسفونهم ، وينسطون ايديهم الى ظلمهم وغشهم ، والعدوان عليهم ، فأعظم امير المؤمنين ذلك ، وأنكره ... وتبرأ منه ، وأحب التقرب الى الله بحسنه والنهي عنه . ورأى أن يكتب الى عماله على الكور والأمصار ، وولاة الثغور والأجناد فى ترك استيغالهم لأهل الذمة فى شيء من أعمالهم وأمورهم ، والاتراك لهم فى أماناتهم وما قلدهم امير المؤمنين واستحفظهم اياه ... » وأشار الخليفة فى كتابه هذا الى ما يتميز به المسلمون دون الذميين من الثقة والأمانة والدقة وغير ذلك .

انظر : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٨ .

(٢٣٦) ابن المقفع - سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ - ٥ .

ويصف هذا المؤرخ ما صارت عليه أحوال القبط الموظفين منهم وغير الموظفين والبطرك على النحو التالى : « فأما الكتاب المؤمنون الذين تقدم ذكرهم ، فكانوا تحت ضيقة عظيمة ، وصعوبة ، من هذا الذى ليس بانسان . ومن قوة أمانتهم ، لما صرفوا من أشغالهم ، توكلوا على رحمة الله تعالى ذكره وسألوا أن لا ينسأهم . فأما أبونا البطرك ، لما شاهد الأراخنة وما نالهم من الصعوبة من ذلك الشيطان والبطالة ، وقطع معاشهم ، وأنهم الذين كانوا يهتمون بأمور البيعة ، كان حزينا جدا وقد أحملت كتب المؤمنين الى الأب البطرك ، يسألونه الدعاء لهم . وكانوا أيضا يكاتبون الابهاء الصالحين المنقطعين الى الله فى الجبال والديارات بمواصلة الدعاء لهم وللمؤمنين بالمسيح ، أن يكشف الله عنهم هذه الغمة ، ولا ينسأهم ، ولا يدعهم تحت رجزه وغضبه » ، المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٢٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ .

(٢٣٨) ويكتبها البعض بالجيم بدلا من القاف . والقسطال لقب يطلق على الموظف المشرف على مالية الكورة ، أو بمعنى آخر مندوب ديوان الخراج والأموال . ويرى جاستون فيت G. Wiet أن كلمة جسطال تقابل الكلمة البيزنطية أوجستاليوس . انظر سيدة كاشف . مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٦ .

(٢٣٩) جروهمان : أوراق البردي ، ج ١ ، ص ١٣٤ ، ١٤٠ .
(٢٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ، واسم القرية التي كان يقوم بتحصيل
خراجها غير واضح .

(٢٤١) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .
(٢٤٢) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٠ و
Amélineau : Histoire de Patriarche Copte Isaac, p. 44.

(٢٤٣) Archdeacon وهو رئيس الشماسة ويكون مسكولا عن نظام
الكنيسة ونظافتها . كما يكون من مهامه الإشراف على أملاك الكنائس ومساعدة
الأسقف في أعماله كما يكون حريضا على مراعاة العادات والتقاليد والقوانين
الكنسية . انظر :

The Oxford Dictionary of Christian Church, p. 79.

(٢٤٤) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، ويقول .
« وهذا أمر من الله ، ليقدم من اصطفاه ، أولا وهو الأب اسحق الراهب ، وكان من
أهل شبرا » انظر أيضا :

Amélineau : Hist, du P. Isaac. pp. 444-5.

(٢٤٥) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٢٠ - ١٣١ و
Ibid., pp. 45-47.

(٢٤٦) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

(٢٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ كان والد الأب سيمون قد حضرا به اليه
الاسكندرية ، حيث قدماء قربانا للبيعة لأجل جسد القديس ساويرس . فأخذ
تأدرس سيمون في بطركية الأب أغاثي ، وعهد الي الأب يوحنا - وكان شماسا -
ليعلمه قوة الكتابة وفضول الكتب فتعلم سيمون الكتابة القديمة ، وكثيرا من
الحديث في زمن يسير . ولما أدرك البطريرك أغاثي صلاحيته ، أوسمه قسا .
وكان يلي الأب يوحنا في الدرجة في دبر الزجاج . انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ،
البنكسار ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢٤٩) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٢٥٠) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(٢٥١) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ - ١٧٢ ، وكانت الكنيسة القبطية بدون بطرك منذ وفاة الأب قادرس في ولاية القاسم بن عبيد الله الخراج (١١٦ - ١٢٥ هـ = ٧٢٤ - ٧٤٢ م) حتى ذلك الوقت الذي تمت فيه إقامة أنبا خايال بطركا في ولاية حفص بن الوليد ، انظر المصدر نفسه ، ط ١٦٨ ، و (١١٦)

(٢٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ، وتشير الرواية القبطية التي أن الفريق الذهاب إلى وادي هبيب لاختبار أنبا خايال مقابل مع هيب من تبيوخ ووهبان هذا الوادي وكان من بينهم أنبا خايال ، وكان هذا الموعد قادمًا لتهنئة عظيم ابن الوليد بالولاية ، وليتمس منه إزالة الظلم الذي نزل بهم في ولاية سلفه القاسم بن عبيد الله - وبعد عودة وقد الأساقفة ومعهم أنبا خايال ، أخبروا الوالي حفص بن الوليد بما حدث مما أثار دهشته وإعجابه ، المصدر نفسه والصفحة .

(٢٥٣) ابن المقفع ، سيرة الأباء البطارقة ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، وجاء في هذا الكتاب : « هكذا نقول ، أبوتك تعلم ما جرى علينا من اليم في مضي أجيال الطوباني أنبا يوحنا إلى الربة في هذا الزمان الصنعب وتقلب الملوك وأبوتك تعلم أن قطيع حرايب بعير راع يدجله الذئب هيبقة وكل المدينة بغير حور العطف يهلكها . ولأجل هذا اجتمعنا في البيعة العظمى بالاسكندرية والآباء والأساقفة ، فقد كتبنا نقول ، واجد منا طلب به قلبنا على القيس مرقس أن يكون لنا أباً » .

(٢٥٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، ابن العنيد ، تاريخ المسلمين ، ص ١٢٢ .

(٢٥٥) ابن المقفع ، سيرة الأباء البطارقة ، ج ٢ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، ص ٢٧٣ .

(٢٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، والقس يوشاب أصله من منوف العليا وأبوة من كبار رجال القبط ، وقد خدم ثاندس حاكم الاسكندرية ثم خرج إلى وادي هبيب ، ثم أقامه البطرك مرقس شماساً ثم قسا ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ ، ص ٢٧٤ .

(٢٥٨) الخط ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢٥٩) Stanley Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle ages, p. 26.

(٢٦٠) سيدة كاشيف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٩٦ الراهب البراموسى :
حسن السلوك في تاريخ البطارقة والملوك ، ج ١ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ستانلى
لين بول : سيرة القاهرة ، ص ٧١ .

(٢٦١) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٢٦٢) بترل : فتح العرب لمصر ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(٢٦٣) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ ،
السنكسار ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢٦٤) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤١ ، أبو صالح الأرمنى ،
ص ٦٧ .

(٢٦٥) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٥٠ ، السنكسار ، ج ٣ ،
ص ٦٦٦ ، ترتون : اهل الذمة في الاسلام ، ص ٨٢ .

(٢٦٦) قيل انه حدث في سنة ١٠٧ هـ - ٧٢٥ م أن ارسل الامبراطور
البيزنطى لاون ، هدية الى الخليفة هشام فأتت هذه الهدية اكلها ، وتمكن
الخلقودونيون في مصر من اقامة بطرك لهم . انظر : ترتون : اهل الذمة في
الاسلام ، ص ٨٢ ، ميخائيل شاروبيم : الكافي في تاريخ مصر القديمة والحديثة ،
ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(٢٦٧) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤٥ . ويذكر أن الملكانيين كانوا
بدون بطرك منذ هروب بطركهم الى القسطنطينية في السنة الثالثة من خلافة
عمر بن الخطاب الى أن أقيم قزمان هذا بطركا ، وغلبت اليعاقبة على جميع
الكنايس بمصر . انظر ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ - ٤٦ . في حين أشار ساويرس الى
أن الملكانيين كان لهم بطرك في خلافة الوليد بن عبد الملك وولاية قره بن شريك
على مصر . وأن كان لم يبق في كرسيه طويلا ، وتحول الى المذهب اليعقوبى .
ثم يشير في موضع آخر الى اقامة بطرك لهم في ولاية القاسم بن عبيد الله
وليس أبيه عبيد الله بن الحبحاب . انظر : سير الابهاء البطارقة م ١ ، ج ٢ ،
ص ١٢٧ .

(٢٦٨) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤٥ . ويسمى هذا الوالى
عبد الله بن الجيحان السكوى .

(٢٦٩) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(٢٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢٧١) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ - ١٧٦ . وقد أشار بعض الأرثوذكسيين على الأسقف أنبا موسى أن يشير على البطرك خيال بدفع مبلغ من المال لصاحب الديوان كما فعل الملكانيون ، حتى ينصفهم ولكنه رفض ذلك وقال ان هذا التصرف لا يليق بالقبط المؤمنين ، وعليهم جميعا الصبر وان الله لن يتغلى عنهم .

(٢٧٢) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ - ١٧٩ . وجرت مناظرات بين البطرك خيال والبطرك قزما عن الاتحاد ، وكتب الأب خيال : « انه لا يجب ان يقال ان في المسيح طبيعتين ، متفرقتين بعد الاتحاد ، ولا اثنين ولا شخصين » انظر أيضا السنكسار ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٢٧٤) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٧٩ - ١٩٠ .

(٢٧٥) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤٩ ، ٥٢ .

(٢٧٦) المصدر نفسه ، ص ٥١ - ٥٢ المقرئ : الخط ج ٤ ، ص ٢٩٦ و Le R. P. Antefage : Les Coptes, pp. 23-24.

(٢٧٧) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٥٢ . وكان أسطاط يعمل في صناعة الكتان ثم ترهب في دير القصر وصار رئيس الدير . وبنى كنيسة الأبوسطولين ، وبنى بها قلاية للأساقفة . أما فخرسطوفور ، فيبدو أنه كان لا يقدر على المشي ، فكان يحمل على الأيادي ، وجعل الأسقف الملكاني بطرس ، ينوب عنه في اقامة الاساقفة . انظر المصدر نفسه والصفحة .

(٢٧٨) توفيق الطويل : قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢٧٩) على حسنى الخربوطلى : الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٤٣ .

(٢٨٠) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٦ . وأصل يوحنا من سمند ، وقد ولى البطركية بعد وفاة الأب اغاثو . المصدر نفسه ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، السنكسار ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٢٨١) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٢٦ - ١٢٧ . ويروى أن يوحنا قال لسمند : ليس حتى معى مائة درهم فما شئت ان تقبل بحسدى فافعل ، لنفسى وجسدى معا بين يدي المسيح . فغضب لذلك سمند ، وأمر بقصرية

فحاشي مملوءة جمر نار ، وتجعل رجلاه فيهما حتى يقبل دفع المطلوب منه .
 ويشير ساويرس الى ان زوجة عند العزيز بن مروان ، تعرضت قتي هذا اليوم
 لشدائد عظيمة ، وبعثت الى ستمائة تامة الا يلحق اي اذى بالبطرك . كما حال
 الوالى نفسه لسعد . « اياك ان تمس جسده لاجل ما نالنا في هذه الليلة بسببه .
 ولكن مهما قدرت عليه خذه منه بلطف . والا فلا تقربه بسوء ، لان الله قد اظهر
 لى انه غيبه » . كما اشار ساويرس الى ان البطرك يوحنا ، قال لسعد : « يا هده
 بلباس يهودى . ان لم يخلصنى الرب الهى من يديك ، والا فما لك قدرة ان
 تقتل بنى شليثا الامم » .

(٢٨٢) ابن المقفع : سير الابهاء البطركية . ص ١٧٧ .
 ويشير الى ان عبد العزيز بن مروان لما حضر البطرك للالتفات عليه عليه . على دفع
 عشرة الاف دينار ، امر باحضار وسادة كبيرة ليجلس عليها البطرك ، وقال له
 « اما تعلم ان السلطان لا يقاوم ؟ فاجاب البطرك : السلطان نسمع منه امره فيما
 يجب ، ونخالف امره فيما يغضب الله . فقد قال ربنا فى الانجيل ، لا تخافوا
 ممن يقتل الجسد ، وليس له سلطان على النفس ، ولكن خافوا ممن يقدر يهلك
 النفوس والجسم جميعا ، يعنى الله القادر على ذلك وحده . عند ذلك قال له
 الامير : الهك يحب الصدق والحق . فاجاب يوحنا : الهى حق كله ، ليس فيه
 كذب ، بل يهلك كل من ينطق بالكذب . فقال له الامير : انك صادق الوثقة .
 وانما دفعه لك القبط بسبب مطالبتى لك بالاموال ، ادفعه لى ولا اطلبه منك اكثر
 من ذلك . وبذلك اطلق سراح يوحنا وخرج من دار الامارة فى موكب خائف
 بالقراءة والترتيل حتى بلغ الكنيسة وقضى مع شعبه .

(٢٨٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ . ويذكر انه لما عاد الوالى الى القسطنطينية
 من الاسكندرية ، علم بمرض البطرك يوحنا ، فحزن عليه اشد الحزن ، وبعث
 الكتاب ليفتقدوه ، وخبروا الامير بحالته .

(٢٨٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٢٨٥) ابن المقفع : سير الابهاء البطركية ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢٨٦) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

(٢٨٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢٨٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢٨٩) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .

- (٢٩٠) تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ، ص ١٧٢ .
- (٢٩١) ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .
- (٢٩٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .
- (٢٩٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .
- (٢٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .
- (٢٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ . ويذكر ساويرس أن البطريرك الاكسندريون قال لقرة بن شريك عندما طالبه بالمال : « شرعنا يأمرنا ان لا يكون لنا قنية ، ولا نكثر ذهب ولا فضة ، بل تصرف حاجة يوم بيوم ، لما نحتاجه من الكلب للفقراء والمحتاجين . وانما فعل بى عبد الله ما فعل بسعاية الناس السوء ، حتى كلفنى والزمنى ثلاثة آلاف دينار . ولم يوجد معنى منها شيء . حتى اخرجتني الى البلاة كالمدين اتصدق ، حتى وفق الله لى ، ما طيب به نفسى ، على الى الآن خمسمائة دينار ، فمن أين يكون معنى شيء » . وامتنع البطريرك ان يقسم على الا يوجد عنده اموال .
- (٢٩٦) ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ . ويقص أنه من سوء حظ هذا البطريرك ان غثر راهبان ، على خمسة كيزان نحاس مملوءة مالا من سكة الرومان . فاختبأ واحدا منها لهما ، واعطيا الأربعة الأخرى لبيتهما . وقد جادر بدوره الى ارسال هذه الاموال الى البطريرك ليدفع منها الغرامة المطلوبة منه ، فقبضها وكيل البطريرك الاكسندروس وكاتبه نيابة عنه . فى اثناء تنغيه فى بلاد الصعيد :
- وحدث بعد ذلك ان ترك الراهبان الرهينة ، ولبسا لباسا قاجرا ، مما لفت اليهما الانتظار . واضطر احدهما الى الاعتراف بحقيقة الأمر . فوصل الخبر الى والى قرة بن شريك فأمر بخلق الايسقوبية - الدات البطركية - والاستيلاء على ما فيها وفى غيرها من البيع من الاوانى والذهب والفضة والكتب . واساء الى أصحاب البطريرك ، فاختبأ أربعة الكيزان المذكورة . كما حضر البطريرك من الصعيد ، واراد قتله . الا أنه طرحة فى السجن وهو مكبل بالحديد . وبعد سبعة أيام أفرج عنه ، والزمه فى الوقت نفسه بدفع الغرامة المطلوبة منه .
- (٢٩٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
- (٢٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .
- (٢٩٩) ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥١ .
- ابن الجعدي : تاريخ السنين . ص ١١١ .
- المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .

(٣٠٠) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٥١ . ابن العميد ، المصدر السابق ، ص ٦٩ ويقول ابن المقفع : المصدر نفسه والصفحة - أن عماله كانوا تنفيذا لأوامره يقلعون الأعمدة والأخشاب . ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار .

(٣٠١) ابن المقفع . سير الأبياء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ / ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٦٩ .

(٣٠٢) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(٣٠٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(٣٠٤) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ . ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٧٠ ، المقرئى . الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ . ويجدر بنا الإشارة الى أن الامبراطور البيزنطى ليو الايسورى ، أصدر قرارا بحظر الصور والتماثيل الدينية ، كما فعل الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ولكن قرار الامبراطور كان فى سنة ١٠٨ هـ = ٧٢٦ م ولعل الدولة البيزنطية كانت متأثرة فى ذلك بالدولة الإسلامية . انظر سيدة كاشف . مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٠٢ .

ويشير المقرئى - الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ - الى انه فى بطركية قسما أمر امبراطور الرومان ثوفيل بن خائيل سنة ٢٤٤ هـ بمحو الصور من الكنائس ، لانه سمع أن قيم كنيسة عمل فى صورة مريم شبه ثدى ، يخرج منه لبن فى يوم عيدها . واتخذ ذلك وسيلة لجمع المال . فقتل هذا القيم ، وأمر بمحو الصور من الكنائس ، وكتب ذلك الى قسما بطريرك القبط فى مصر ، ولكنه ما لبث أن سمح باعادة الصور الى الكنائس ثانية .

(٣٠٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٧٠ . ويقول انه ولى عبد الله ابن صفوان . فى حين يسميه ساويرس عبيد الله ، فقط ، انظر : سير الأبياء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٤ . ويقول المقرئى : ان الوالى المذكور هو حنظلة بن صفوان . الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ - ونرى أن الاصح هو عبيد الله بن الحبحاب الذى ولاه الخليفة على خراج مصر (١٠٥ - ١١٦ هـ = ٧٢٣ - ٧٢٤ م) فى حين كان حنظلة بن صفوان يلى أمرة مصر منذ سنة ١٠٢ هـ = ٧٢٠ م . ثم عزله هشام وجعل مكانه محمد بن عبد الملك ، فى سنة ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م . انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٧٠ (جدول بأسماء الولاة

وعمال الخراج) ويذكر ساويرس - ص ١٥٣ - ١٥٤ أن الخليفة هشام كان ينتهج السياسة نفسها بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس في بلاد الشام ، وكان يقرب اليه بطركهم اثناسيوس . كما كان يقدم له الكثير من الأموال للكنائس والاديرة .

(٢٠٦) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .
(٢٠٧) اوسيم قرية على بعد ميل من القسطنطينية في الطريق الى الجيزة .
انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢٠ ، ص ٢٧٧ .

(٢٠٨) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .
ويذكر أن سبب ذلك هو اتهام أنبا صمويل بتحريضه البطرك على ألا يقبل الوسم . وأشار عليه بالهروب الى الاسكندرية . وعليه طلب من عبيد الله مهلة ثلاثة أيام حتى يفكر في الأمر ، وبذلك يتمكن من الخروج الى الاسكندرية سرا . ولكن البطرك مات في الطريق قبل وصوله الاسكندرية .

(٢٠٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ، ١٦٢ .

ويشبه ساويرس ذلك بما جاء في الانجيل : « ان كل شجرة رديئة تثمر ثمرة رديئة » .

(٢١٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ - ١٧٣ . السنكسار ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٢١١) المصدر نفسه ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢١٢) ابن المقفع : سير الأباء ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٨١ ، السنكسار ، ج ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ . ونلاحظ اضطراب الرواية التاريخية بشأن هذا الحديث . يذكر ساويرس (ص ١٧٣) أن رسول الخليفة قبض على حفص بن الوليد وأحرقه بالنار ، وأعيدت مصر الى حسان بن عتاهية ، وبعد حسان ولى امرأ مصر عبيد الملك (ص ١٧٤) ونراه يقول (ص ١٨١) أن حفص بن الوليد اعتقل البطرك أنبا خنسال . في حين نجد في السنكسار أن عبيد الملك هو الذي قام باعتقال البطرك المذكور واسمه عبيد الملك بن مروان . ونحن نرجح الرواية الأخيرة .

(٢١٣) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .

(٢١٤) السنكسار ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

Quatrèmière : Mémoire Géographiques et historiques sur l'Egypte, T. 2, pp. 56-57, et Fowler : Christian Egypt, p. 61. and, Stanley Lane-Poole : A history of Egypt in the Middle ages, p. 27.

(٣١٥) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .
(٣١٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .
(٣١٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ - ١٩٤ . ابن العميد . تاريخ المسلمين ، ص ٩٩ .

المقريزي . الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ .
(٣١٨) أبو صالح الأرمني ، ص ٩٨ .
ويذكر من بين هذه المدن مدينة طما ويبلغ عدد سكانها خمسمئة عشر ألفاً .
قيطى ، وليس بينهم يهودى واحد . وكان لهم ست وثلاثون كنيسة . وقد أرسل
مروان بن محمد فرقه من الجند . قتل الكثير من أهل طما ، وشردت آخرين .
كما هدمت الكنائس ما عدا كنيسة أبى مينا ، فى نظير تادية ثلاثة آلاف دينار .
فلم يتمكن الذبط إلا من اداء الفى دينار . فاضتبغ ثلث الكنائس متسجداً
للمسلمين .

(٣١٩) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، ص ١٩٥ - ٢٠٢ ، ابن العميد
تاريخ المسلمين ، ص ٩٩ .

(٣٢٠) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .
(٣٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .
Chronique de Michel Le Syrien, T. 3, fasc. I, pp. 23-24. (٣٢٣)

(٣٢٤) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

Chronique de Michel, T. 3, fasc. I, p. 60. (٣٢٥)

(٣٢٦) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .
٢٥٢

(٣٢٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ . حاول عبد العزيز الجروى أن يتدخل فى
تعيين البطريرك الجديد بعد وفاة الأب مرقس ورفض القبط هذا التدخل ، وغينوا
البطريرك يعقوب . فعضب لذلك عبد العزيز الجروى . واقسم بضرورة قتل
الأساقفة ، وتخريب ما بقى من كنائس مصر اذا لم يسلم يعقوب نفسه . ولكنه
توفى قبل أن يصله البطريرك يعقوب . انظر بتشر : تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ،
ص ٢٢٠ . وذكر ساويرس أن سدد العداء بين البطريرك يعقوب وبين عبد العزيز
الجروى . أن الأخير طلب من البطريرك تعيين أحد الأشخاص أسقفاً لرفض البطريرك

لمخالفة ذلك للقوانين الكنسية ، فغضب عبد العزيز وطلب البطرك اليه ، وهدده
إذا رفض مقابلته ، ولكن لم يتم ذلك لوفاة عبد العزيز الجروى . انظر : سير
الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٣٢٨) بركة شيهات هو الاسم القبطى لمنطقة أديرة وادى النطرون ، ومعناه
ميزان القلوب ، لأنه مكان عبادة ونسك واصلاح السريرة . كما تسمى هذه
المنطقة باسم الاسقيط أى الناسك أو النساك أو محل النسك وتسمى أيضا باسم
وادي هبيب . انظر الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٥ ، عمر طوسون : وادى النطرون
ورهبانه وأديرته ، ص ٣٩ ، عبد المستيخ البراموسى : تخفة السائلين ، ص ٤٤ .

(٣٢٩) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٣٣٠) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ١٢٣ .

(٣٣١) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٣٣٢) المصدر نفسه ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٣٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٣٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٣٣٥) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٣٣٦) المصدر نفسه ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ .

(٣٣٧) المصدر نفسه ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ - ٥ . وكان القبط يقولون

« انك اسلمتنا فى يد أعداء ائمة منافقين ماردين ، ويد ملك ظالم ، اشر من كل من
على وجه الأرض . والآن لا نقدر ان نفتح فانا ، لأن حزننا وعارا ، صار
لعبيدك ، والذين يعبدونك ، ولا تسلمنا لاجل اسمك » .

(٣٣٨) المصدر نفسه ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٥ - ٦ . وكان من بين القبط الذين

اعتنقوا الاسلام ، قبطى يسمى اصطفى بن اذدونه وأمله . وصار يذكر القبط
بكل سوء . ويقول انهم كانوا يلبسون ثيابا بدون اكمام مثل الرهبان فى ذلك
العصر .

(٣٣٩) المصدر نفسه ، ص ٨ . ويقص لنا بعض العجائب التى فى فى الراقع

من صنع الخيال ، فلا يعقل مثلا أن تنزف صور مرسومة دما ولا يسيل من عيونها
دموع . ويروى هنا المؤرخ أن سكان وادى هبيب ، شاهدوا الدم يتزف من جنب
صورة السيد المسيح فى بيعة القديس ساويرس ، واشتعل هذا الهم فى
شفاء المرضى . وفى رواية أخرى أن جميع صور أديرة وادى هبيب كانت تسيل

الدموع من عيونها ، بسبب ما أنزله ولاية مصر من ظلم بالقبط . انظر المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٣٤٠) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٣٤١) المصدر نفسه ، ص ٩ - ١٠ .

(٣٤٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ - ١١ .

(٣٤٣) المصدر نفسه ، ص ٢١ . ويشير الى أن ابن مديبر أنزل كثيرا من البلايا بأهل فلسطين قبل قدومه أما البطرك شنودة فاصلته من قرية إلبتون ، وعمل في خدمة البطرك يوساب ثم عين آنوما لبيعة القديس أبي مقار . وقد أعيد بطركا بعد وفاة البطرك قسما .

(٣٤٤) ابن المقفع . سير الابهاء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٣٤٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٣٤٦) القومة جمع قيم وهو الشماس . انظر القلقشندي : صنيح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ . ويقومون بخدمة الكنيسة ومساعدة الاساقفة والقسس في تقديم القداس . انظر :

Autefag's : Les Copts, p. 33.

(٣٤٧) ابن المقفع : سير الابهاء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٥ .

(٣٤٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣٤٩) المصدر نفسه ، ص ٢٦ - ٢٧ . وذكر هذا المؤرخ أن ابن مديبر كان يكتب على ما جمعه من الاموال ، هذا ما كان يسرقه من تقدمتي ، المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٣٥٠) ابن المقفع . سير الابهاء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٣٥١) ابن المقفع : سير الابهاء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٠ - ٣٢ .

كان المتوكل ، قد أوصى بولاية أولاده الخلافة من بعده . فلما ولى بعده المنتصر ، اعتقل اخويه المعتز والمؤيد ، فلما ولى المستعين الخلافة (في سنة ٢٤٨ هـ) ٨٦٢ م (أطلق سراحهما ، الا أن المعتز حاربه من أجل الخلافة ، فكان ما ذكرنا في المتن .

(٣٥٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٣٥٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٣٥٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٢٥٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢٥٦) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤٢ .

(٢٥٧) المصدر نفسه ، ص ٤٢ - ٤٣ . وكان ذلك وابن المدير مازال على

خراج مصر .

(٢٥٨) كثر الأتراك في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية منذ خلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ ، وعلا أمرهم في البلاد : فقد صاب المقتدر من استئثار الفرس بالنفوذ كما ضاق بتيارات الشعوبية التي ثارت بين الفرس والعرب . كما كانت الخلافة تركية فاعتمد الخليفة على الأتراك ، وأخذ منهم حرسا خاصا له ، كما أسند إليهم مناصب الدولة ، ومن ثم أصبح ولاية مصر معظمهم من الأتراك وكانوا يقيمون في مقر الخلافة في بغداد ، يرسلون إلى مصر ، من ينوب عنهم في حكم البلاد باسمهم ، فيدعون لهم على المناصب ، وينقشون أسماءهم على السكة . انظر : حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

Stanley Lane-Poole : History of Egypt, pp. 59-61.

(٣٥٩) هو أحمد بن طولون الأمير أبو العباس التركي - وطولون معناها المبدد . الكامل - وأبوه طولون كان مولى لنوح بن أسد بن سامان عامل بخارى وخراسان ، أهداه (نوح) في جملة ممتلكاته إلى الخليفة المأمون فصار من جملة أمرائه . وولد له ابنه أحمد في سنة ٢٢٠ هـ ، وفوض إليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه من سلطان . ثم تنقلت به الأحوال إلى أن ولي أمره الثغور وأمرة دمشق ، ثم الديار المصرية . انظر أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١ - ٥ ، ٥٠٦ .

(٣٦٠) هكذا يسميه الطبري (ج ٨ ، ص ١٠) والكندى (ص ٢١٦)

في حين يسميه ابن الأثير (ج ٥ ، ص ٣٦٧) (ياركوج) .

(٣٦١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

(٣٦٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

Stanley Lane-Poole : History of Egypt, p. 62.

و

(٣٦٣) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٣٦٤) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٢١٦ . ويقول أبو المحاسن - النجوم

زاهرة ، ج ٣ ، ص ٧٠٠ في سنة ٢٥٦ هـ .

(٣٦٥) الكندي : الولاة والقضاة ، من ٢١٧ • أبو الحياسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٧ •

وتذكر الرواية القبطية انه بعد وفاة مزاحم بن خاقان ، تولى امره مصر ، رجل قوى شجاع اثار خوف جميع عمال مصر ، ومنهم القاضى والوالى وصاحب الديوان • وهو ابن طولون الذى عزل ابن المدير وولى بدله عاملا آخر معروفا بمراعاة احكام الاسلام ، وتضيف الرواية القبطية الى ذلك انه بعد عزل ابن المدير عن ولاية خراج مصر وضع فى السجن وعانى من الكثير من الاهانات والتعذيب ما يقرب من شهر • انظر (ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٥ - ٤٦ •

(٣٦٦) سيرة ابن طولون ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ •

Les Juifs en Egypte depuis les Arisus les Arigines (٣٦٧)
Jusque à ce jour, p. 114. Et Zaky, M. Hassan : Les Tulunides
pp. 219-220.

(٣٦٨) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ ، ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ج ٢ ، ص ٢٣٣ •

Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 14. Et Maurice Fargon
Les Juifs, p. 114, Et Zaky Hassan, Op. Cit., p. 220.

(٣٦٩) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٥١٣ •
(٣٧٠) الجهاد هو الذى يقوم بجباية الخراج ، ويضطلع بتسليم وتحرير دفع الخراج والاعفاء منه كما يشرف على الضرائب الأخرى • انظر ، جروهمان : أوراق البردى ، ج ٣ ، ص ١٥٤ •

(٣٧١) جروهمان : أوراق البردى ، ج ٣ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ •

(٣٧٢) المصدر نفسه ، ص ١٥١ - ١٥٢ •

(٣٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ - ١٥٤ •

(٣٧٤) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، السنكسار ، ج ٢ ، ص ٤٩ •

(٣٧٥) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٥ ، ص ٧٦ ، السنكسار ، ج ٢ ، ص ٤٩ •

(٣٧٦) اندونة احدى قرى الجيزة • المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٥ •

(٢٧٧) ويقول المقرئ أن أندوتة كان كاتباً لأحمد المدايني الذي كان يتقلد ضياع موسى بن بغا ، فقبض ابن طولون عليه وفرض عليه الغرامة المذكورة في المتن . انظر : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ترتون : أهل الزمة في الاسلام ، ص ٢٦ .

(٢٧٨) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ١١٨ . ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، القسم الخاص بمصر ، ص ١٣٠ .

(٢٧٩) البلوى . سيرة ابن طولون ، ص ٢١٧ .

(٢٨٠) المصدر نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢٨١) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٢٨٢) ترتون : أهل الزمة في الاسلام ، ص ٢٦ .

(٢٨٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦ ، البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ١٨٢ .

(٢٨٤) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢٨٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .

(٢٨٦) ساويرس : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

(٢٨٧) ساويرس : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٢٩٨) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٠ - ٧١ . كان هذا الأسقف يدخل في اختصاصه ضيعة بنوشر وبها كنيسة كبيرة . فذهب إليها البطريرك والأساقفة لتكريزها . فلما جاء وقت تقديم القديس لم يحضر الأسقف المذكور . فأشار الأساقفة على البطريرك ببدء القديس وعدم انتظار هذا الأسقف مما أثار غضب الأخير وجعله يلقي بالقديس على الأرض فقرر البطريرك والأساقفة المجتمعون عزل هذا الأسقف من دياره ، ولذلك عمد إلى العناية بالبطريرك عند الأمير . انظر المصدر نفسه ، السنكسار ، ج ٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣٨٩) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧١ . ويشير إلى قول ابن طولون للبطريرك : « أنت تعلم ما نحتاج إليه من الأموال يرسم الحمل إلى الخليفة في بغداد ، لأنه صاحب هذه الأرض ، وبخاصة لما عليه من الحروب ، وأنتم يا مقدمي النصراني ، تحت سلامة وما تحتاجون إليه ذهب ولا فضة . وقد عرفت أن لك مال كثير وأنية لا تحصى ، ذهب وفضة وديباج ، وأنواع الحرير للبيع ، وأنا أحبك وأوقر شيخوختك وقد أحضرتك بغير اجحاف ، ولا عنف ، لأنك يجب أن تكرم ولا تهان ، فادفع لي ما عندك لأحمله إلى الخليفة ، فتجد به عنده وعندى نعمة » . المصدر نفسه والصفحة .

٢٩٠) المصدر نفسه ، ص ٧١. وصاحب البطرك في الحبس شماس يسمى ابن المنذر ويسميه ابن المقفع ابن المدير . وكان يحب الصدقة وفعل الخير ، لزم البطرك . وكان يجوم ويفطر معه . وأقام معه في الحبس سنة . انظر ، المصدر نفسه ص ٧١ - ٧٢ . السنكسار ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

٢٩١) بتشر ، تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ، ص ٢٤٧ .

٢٩٢) ابن المقفع . سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٢ - ٧٣ . وتذكر الرواية القبطية أيضا أن الكتاب القبط شكوا حال البطرك الى أم الامير أحمد بن طولون وأخبروها بأنهم يريدون التماس الافراج عن البطرك وأخبروها أيضا بأنهم سيسألون الوزير أن يتوسط لهم لدى ابن طولون حتى يطلق سراح بطركهم .

٢٩٣) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

٢٩٤) المصدر نفسه ، ص ٧٣ - ٧٤ . ولما أحصيت الكراسى الخالية من الأساقفة وجدت أنها عشرة كراسى فعين البطرك أساقفة جددا لها نظير مبلغ معين من المال .

٢٩٥) المصدر نفسه ، ص ٧٤ . ويشير الى اجتماع السنودس واستقرار رأيهم على أن يجتمعوا من كل قبطي دينارا « ونهضوا بفعلهم هذا قانون الابهاء الحواريين ، ومعلمي البيعة القديسين القائلين أن لا يؤخذ عن موهبة الله وهي الكهنوت ، لا ذهب ولا فضة ، أي الشرطونية » . ومضى البطرك الى وادى هبيب . باع الرمارم التي هي موضع وقوف الرهبان في البيعة للصلاة . وأخذ من كل راهب دينارا ثم مضى الى الاسكندرية وطلب من الكهنة السماح له بأخذ ما في البيعة من الآلات والممتلكات على أن يعطيهم في كل سنة ألف دينار . فاجتمع له من كل ذلك عشرة آلاف وهو يوازى المبلغ الذي اقترضه لسداد القسط الأول من الغرامة .

٢٩٦) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٦ . ويذكر أن البطرك قصد مدينة تنيس لجمع الصدقات من القبط ولعل ذلك لكثرة عدد القبط بها — فلما وصل المدينة أسرع الشعب اليه ليتبارك به . وفي أثناء ذلك قال أحد الرهبان انه لن يمضي أكثر من أربعين يوما حتى يعفى البطرك من باقى الغرامة ويمزق الايصال الخاص بها. وحدث ذلك فقد توفى أحمد بن طولون . وولى امره مصر ابنه خمارويه فكان ما ذكرنا في المتن وفي السنكسار أن البطرك قصد مدينة بلديس وليست مدينة تنيس ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

٢٩٧) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٦ . المنتكش :
ج ٢ ، ص ٤٩ . وتذكر بعض الروايات أنه لما مرض ابن طولون ، اشترك
القيط واليهود مع المسلمين في الدعاء له بالشفاء ، من أعلى جبل المقطم . وان
وفاته كانت سنة ٢٧٠ هـ : انظر ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٧٠ ، الكندي .
الولاة والقضاة ، ص ٢٢١ . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .
وينكر الأخير أنه كان له طبيب من القبط يسمى سعيد بن نوفيل ، ص ٩٧ .

٢٩٨) ابن المقفع . سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٧ . ويشير
الى أن خمارويه خرج الى وادي هبيب ، ودخل بيعة أبي مقار ، ومسك جسده
هذا القديس ، فاعمى عليه ، وان الرهبان ، مسحوا جبينه بزيت قناديل هذه
البيعة . كما يذكر أنه لما رأى صورة القديس تادرس رمى بحزمة ریحان
اليها ، وقال « خذها يا فارس يا شجاع » .

٢٩٩) الطبري . تاريخ الأمم والملوك ، ج ٨ ، ص ٢٢٤ . أبو المحاسن :
النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .

٤٠٠) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ، ص ١٣٤ . و
Stanley Lane-Poole : A History of Egypt, pp. 77-81.

٤٠١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٤٩ . ويسمى بعض
المؤرخين هذا الوالى باسم الخليجي . كما يسميه آخرون (ابن الخليج) .
انظر : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٨ ، ص ٢٢٤ ، الكندي : الولاة والقضاة ،
ص ٢٥٩ .

٤٠٢) عريب بن سعيد : أصله ، تاريخ الطبري ، ص ٣٠ . وقيل ان شكوى
الباس للمقتدر كانت سنة ٢٩٥ . وليست سنة ٢٩٦ هـ . انظر القلقشندي : صبح
الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٨ .

٤٠٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

٤٠٤) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

٤٠٥) حروهمان : أوراق البردي ، ج ٣ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

٤٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٤٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

٤٠٨) أصله من أولاد ملوك قرغانة . جاء جده من التركستان في عهد الخليفة
المعتصم . انظر ، أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ، آدم متز .

الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ . والاشييد لقب ملوك فرغانة ، ومعناه ملك الملوك . كما أن أصبح لقب ملوك طبرستان ، وصول لقب ملوك جرجان وخاقان لقب ملوك الترك وقيصر لقب ملوك الروم ، وكسرى لقب ملوك الفرس ، والنجاشي لقب ملوك الحبشة وفرعون لقب ملوك مصر القدماء . انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ . وهذا اللقب منحه الخليفة الراضى أحمد بن طغج والى مصر فى سنة ٣٢١ هـ . انظر نفس المصدر ، ص ٢٥٢ .

(٤٠٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٨٥ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ .

(٤١٠) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٧٧ .
(٤١١) أى صادقة . ويقال هو معسول الكلام : حلو النطق ، ومعسول المواعيد أى صادقها . الوسيط ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ .

(٤١٢) حوالة أو ايصال وهى كلمة فارسية معربة . ومعناها حوالة صادرة من دائن يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين فى تاريخ معين لائن شخص ثالث أو لائن الدائن نفسه أو لائن الحامل لهذه الحوالة . الوسيط ، ج ١ ، ص ٤٣٤ .
(٤١٣) جروهمان : أوراق البردى ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

(٤١٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٧٧ . ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٧ .

(٤١٥) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٧٨ .
(٤١٦) أصله نوبى ، وكان امن بين سبى بلاد النوبة . وقد سلحه الاخشيد بن علمه الخط والادب وغيره من العلوم ، وجعل له الوصاية على ولديه من بعده . انظر :
ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٤١٧) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤١٨) الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ١٩ . وكان يعقوب بن كلس من يهود بغداد ، ثم خرج منها الى بلاد الشام حيث نزل بمدينة الرملة وعاش فيها فترة من الزمن . وانتهى به الامر الى أن صار وكيلا للتجار بها ، وأصبح عليه من الاموال ما صار عاجزا عن ادائه فهرب الى مصر فى عهد كافور الاخشيدى فنال اعجاب كافور ، لما كان يتميز به من الفطنة ، وحسن السياسة ، انظر المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ .

ويذكر بعض المؤرخين الآخرين أن السنيب الذي جعل كافور يقرب ابن كلس إليه ويعتمد عليه في كثير من الأمور هو أنه كان قد عهد إليه بجلب مبلغ كبير من المال في مكان معين بالرملة إلى جانب النظر في تركة بكين بن هارون التاجر ، فقام بذلك على أكمل وجه إلى جانب أنه قد توفي أحد أثرياء اليهود بالقرما ، فأخذ ما عنده من إجمال الكتان والأموال وحمل كل ذلك إلى كافور ، فأعجب به وأصبح لابن كلس مكانة عظيمة في نفسه . انظر :

ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ١٩ - ٢٠ .
(٤١٩) ابن زولاق . أخبار سيديونية المصري ، ص ٧٤ .

سيدة كاشف . مصر في عصر الأخشيديين ، ص ١٧٧ . حسن إبراهيم .
حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٤٢٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ .
المقريزي الخطط ، ج ٣ ، ص ٧ .

(٤٢١) ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٢١ ، المقريزي
الخطط ج ٣ ، ص ٧ .

وتذكر الرواية القبطية أن أسلم ابن كلس كان في خلاف العزيز لدين الله
الفاطمي . انظر ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٢ .
ونرجح الرواية الأولى القائلة بأن ابن كلس أسلم في إمارة كافور حتى بدأ يخشاه
كبار رجال الدولة من المسلمين ، فترك مصر إلى بلاد المغرب .

(٤٢٢) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٨٦ .
(٤٢٣) صلة تاريخ أوتيا ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٦ - ١٧ .

(٤٢٥) تاريخ ابن سعيد الأنطاكي ، ص ١٧ - ١٩ ، ابن العميد : تاريخ
المسلمين ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ .

(٤٢٦) تاريخ ابن سعيد الأنطاكي ، ص ١٩ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ،
ص ٢٠٩ . وباع الأسقف بعض ممتلكات الكنيسة ، دون قيمتها ، حتى يجمع المبلغ
المطلوب منه . فلما علم بذلك الأمير ، بعث من قبله رسولا ، استحضر جميع
المشتريين ، وأخذ منهم نصف الثمن زيادة ، فمن كان اشتري شيئا قيمته مائة
دينار ، قبض منه خمسين دينارا فاجتمع له من ذلك أموال ضخمة .

(٤٢٧) صلة تاريخ أوتيا ، ص ٢٠ - ٢١ .

- (٤٢٨) حسن إبراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٠٢ .
- (٤٢٩) عبيد المنعم ماجد . نصم العجميون ورسولهم في مصر ، ص ٩٩ .
- (٤٣٠) حسن إبراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٦٢ .
- (٤٣١) أصله من العراق : ثم خرج مع أبيه إلى الشام ، واستغل بالتجارة . ثم انتقل إلى مصر ، وأصل بخدمه كاسور الاخشيدى - كما ذكرنا - وقال سنة كافور . لو كان مسلما لصح أن يكون وزيرا . فلما سمع يعقوب ذلك اعتنق الاسلام في سنة ٣٥٦ هـ . وعظمت مكانته لدى كافور ، ثم خرج إلى بلاد المغرب سنة ٣٥٧ هـ . واتصل بخدمة المعز الفاطمى ولعب دورا في فتح مصر ، ثم دخلها مع المعز لدين الله سنة ٣٦٢ هـ . انظر ، ابن زولاق . أخبار سيدييه ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ١٩ - ٢١ .
- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ .
- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٥٨ .
- المقريزى . الخطط ، ج ٣ ، ص ٧ .
- (٤٣٢) كان لمصر شرطة واحدة في العصر الأموى ، ومقرها القسطنطينية ، فلما بنيت العسكر في العصر العباسي ، استحدثت الشرطة العليا تمييزا لها عن شرطة القسطنطينية التي عرفت بالشرطة السفلى . كما أسس مركزا للشرطة سنة ٢١٣ هـ . في جنوب شرق مسجد عمرو بن العاص ، وصار يعرف بدار الشرطة حتى القرن الرابع الهجرى . ولما فتح الفاطميون مصر ، وأسست مدينة القاهرة ، نقلت إليها شرطة العسكر ، وعرفت أيضا بالشرطة العليا ، انظر : G. Wiet : Matériaux Inscriptionum pour un Corpus Arabicarum, Egypt T. 2, pp. 47, 58.
- وعلى حسنى الخربوطلى . مصر العربية الاسلامية ، ص ٢١٥ .
- (٤٣٣) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٧ . وأتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ .
- ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٥ .
- (٤٣٤) نظام قبالات الاراضى ، هو نظام لجباية الخراج وغيره من الضرائب عرف في مصر منذ عصر الولاة العباسيين واستمر سائدا في مصر حتى ذلك العصر . ويعنى هذا النظام ضمان بعض الأشخاص الضرائب المقررة على كل ناحية من البلاد . فيتقبل الشخص - أى يضمن - خراج ناحية معينة لمدة أربع سنوات . وهذا النظام سنتناوله بالدراسة والبحث في الباب الثالث ، الفصل الخاص بالجزية والخراج وغيرهما من الضرائب التى التزم أهل الذمة بدائمه للحكام المسلمين .

(٤٣٥) ابن ميسر اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، المقرئى . الخطط ، ج ٢ ، ص ٧ ، واتعاط الحنفا ، ص ١٤٥ .

(٤٣٦) المقرئى . الخطط ، ج ٣ ، ص ٨ .

(٤٣٧) المصدر نفسه ، ص ٨ . ابن الصيرفى . الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢١ . ويقول ابن القلانسى . ان العزيز بالله جعل الوزارة لابن كلس سنة ٣٦٥ هـ . وليس سنة ٣٦٧ هـ . انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ ويقول المقرئى . الخطط ج ٣ ، ص ٨ . انه دبر امور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب . واعمال هذه الاقاليم كلها من الرجال والاموال والقضاء والتدبير . وجعل له اقطاعا كل سنة بمصر والشام ، مقداره ثلاث مائة ألف دينار .

(٤٣٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ . ابو شجاع محمد بن الحسين الملقب بظهير الدين الرودرادى : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٥ .

(٤٣٩) المقرئى : اتعاط الحنفا ، ص ٢٦١ .

(٤٤٠) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢١ - ٢٢ .

ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٦٤ . ابن العميد . تاريخ المسلمين ، ص ٢٤٧ . ويذكر ابن القلانسى ان سبب اعتقال ابن كلس ، هو غضب الخليفة منه ، ليدسه السم لاحد قواده الترك ويسمى ابو منصور الفتكين ، لحنقه عليه ، لما صار له من محبة ومكانة لدى الخليفة .

انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١ .

ويروى المقرئى لنا حدثا ، يدل على ان العزيز بالله ، كان يرجع الى وزيره ابن كلس على كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاط . فيقول انه في سنة ٣٧٧ هـ ، اساء عمال الشرطة الى بعض التجار ، وقتلوا بعضهم ، واعتقلوا آخرين منهم . فرفع هؤلاء التجار شكوى الى العزيز بالله ، فرفعها بدوره الى وزيره ابن كلس ، وطلب منه استقصاء الحقيقة ، ومعاقبة المذنبين ، واطلاق سراح المعتقلين . كما عهد اليه بتولية عمال جدد لشرطة مصر السفلى وشرطة مصر العليا ، ويعزل عن الشرطتين من قام بهذا الجرم . انظر اتعاط الحنفا ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤٤١) فكان هناك ديوان العزىة وديوان الجيش ، وآخر للاموال ، وديوان الخراج ، وديوان للسجلات والانشاء وديوان للمستغلات ، ذلك الى جانب خزائن الكسوة والمال ، والدفاتر والاشربة ، وكان لكل خزانة ناظر . انظر . المقرئى . الخطط ، ج ٣ ، ص ٨ .

Marin : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 19.

(٤٤٢)

(٤٤٢) ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٣ . ابن القلانسي :
ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢ . ابو شجاع : ديل نجارب الأمم ، ج ٢ ،
ص ١٨٥ .

(٤٤٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢ . ابو شجاع : ذيل
تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ١٨٥ . ويصف المقريني ، كفن ابن كلس فيقول : ان
نفقات هذا الكفن بلغت عشرة آلاف دينار فقد كفن في خمسين ثوبا ، ما بين وثي
ومثقل اى منسوجا بالذهب - وشرب ديبقي مذهب ، وجفت كافور ، وقارورين
من المسك ، وخمسين قنا ماء ورد . انظر : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٦٨ .

(٤٤٥) الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٣ .

(٤٤٦) ابن المنفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ص ٩٢ .

(٤٤٧) هو ابو نصر عبد الله الحسين القيرواني وكان كاتباً للديوان

الانشاء .

(٤٤٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٧٦ . أحمد أمين : ظهر الاسلام

ج ١ ، ص ٨٥ .

(٤٤٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٧٦ . أحمد أمين : ظهر الاسلام

ج ١ ، ص ٨٦ .

(٤٥٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .

(٤٥١) المصدر نفسه ، والصفحة .

(٤٥٢) ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٧ - ٢٨ .

ابن ميسرة : اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٤٥٣) اشتهر امر هذين اليهوديين ابو سعد واخوه ابو نصر في عصر

الحاكم بامر الله . فكان ابو سعد يشتغل بالتجارة في حين كان ابو نصر يعمل في

اعمال الصيرفة : « واشتهر من امرهما في البيوع واظهار ما يحصل عندهما ، من

الودائع الخفية ولمن يفقد من التجار ، في القرب أو البعد ، وينشأ به جمين

الذكر في الاتفاق فأتسع حالهما لذلك » . وفي عهد الخليفة الظاهر ، علا شأن

ابى سعد . واعتمد عليه الخليفة في ابتزاع ما يحتاج اليه من كل غال وثمين

وقد باعه جارية سوداء فتزوجها الخليفة ، واعتز بها ، وانجبت له ولده المستنصر

الذي ولى الخلافة من بعده .

وكان طبيعيا أن يعظم شأن أبي سعد وأسرته في خلافة المستنصر تحت تأثير والدته ، التي عهدت إلى أبي سعد بالاسراف على مصالحها وبولى خدمتها . وكانت تعمل دائما على راحته ورعاية أمور أسرته فلما رغب الحسن بن علي الأنباري في الوزارة - بعد أحمد بن علي الجرجاني - قصد أبو نصر هارون أخو أبي سعد المستنصر فأهانه أخذ الظلمان وتوقع أبو نصر أن ابن الأنباري سيعاقب الغلام ولكن ابن الأنباري شارك غلامه في أهانه والاساءة اليه .

فاخير أبو نصر أخاه بما حدث له وأدركا أن ابن الأنباري يكن لهما كل عداء . وأخبرا والدته المستنصر بذلك . وهنا يظهر دور هذين اليهوديين الواضح في عزل ابن الأنباري عن الوزارة وتحقيق رغبتها في أن يتولى الوزارة أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، انظر المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ و Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 79.

ويقول مان : ان اسم هذين اليهوديين يتكرر كثيرا في Genizah fragments وان أبا سعد كان أكثرهما نفوذا وإعلاهما شأنًا عند الخليفة المستنصر ، في حين كان أخوه أكثر نشاطا واهتماما بشئون جماعة اليهود ، وحياتهم الدينية والدنيوية ، وأنهما كانا من اليهود الريانيين .

(٤٥٤) ابن الصيرفى : الإشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٨ . المقرئى الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٤٥٥) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ١ - ٢ .

(٤٥٦) ابن الصيرفى : الإشارة الى من نال الوزارة ، ص ٥٢ .

(٤٥٧) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٩٧ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٧٠ ، ٢١١ .

(٤٥٨) ابن الصيرفى : الإشارة الى من نال الوزارة ، ص ٥٤ .

(٤٥٩) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٨ ويصفه بأنه « كان رجلا دينيا ، يتولا لم يتزوج قط ، ولم يسمع عنه أن له صبيوة ، ويفعل الخير مع كل الناس ، ومشكور من كل أحد » ، المصدر نفسه ، ص ٩٨ . (٤٦٠) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

(٤٦١) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ ، وخرج القرامطة في ذلك الوقت الى بلاد الشام وبلغوا في تقدمهم أعمال فلسطين . فآخذ قزمان من مينا ما جمعه من الأموال - ومقدارها مائتا ألف دينار -

أهل الذمة ج ١ - ٢٧٣

وأخفاها في أحد الأديرة في الجبال ، وعاد الى عمله بفلسطين . وعاهد رئيس القرامطة الذي قال له : « لا تخف فما يلحقك مني شر ، وأنا أجعلك بصحبتى كما كنت مع المعز » وحانت بذلك الفرصة امام الحلقةدين عليه قوشوا به عند الخليفة المعز وقال ابن كلس للمعز : « هذا قزمان بن مينا الذي تقول انه ثقة ، مأمون ، قد صالح عدوك ودفع له المائتي ألف دينار التي استخرجها من بلادك ليقويه بها عليك » .

فغضب المعز لذلك أشد الغضب ، وحنق على قزمان ، ورأى الانتقام منه ، فقبض على أهله وأخذ أموالهم . ثم خرج لقتال القرامطة وغلبهم ، وعند ذلك أرسل قزمان بن مينا يعلم المعز بما حدث له مع القرمطي وكيف تلافى شره ، وخلص المائتي ألف دينار . وحضر الى الخليفة ومعه هذه الأموال فأعجب المعز لذلك وأحسن استقباله ، وزادت مكانة قزمان ، بذلك ، عند المعز ، فأطلق سراح أهله وأعاد اليهم أموالهم .

(٤٦٢) المصدر نفسه ، ص ٩٩ . أما البطرك افراهم فيسمى ابراهيم بن زرعة وهو سرياني الأصل وكان يشتغل بالتجارة ، كما كان كثير الصدقات ويساعد المحتاجين محبوبا من جميع القبط ورؤسائهم ، ولذا تم اختياره بطركا لهم . فلما أقيم بطركا ، أبطل الشرطونية وتصدق بجميع أمواله وكان المعز يحبه ويحرص على لقائه كما أنه كان يعمل برأيه في بعض الأمور ، وطلب منه سكنى القاهرة ليكون بالقرب منه . انظر ، المصدر نفسه ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٤٦٣) ابن سعيد الانطاكي ، ص ١٦٤ . آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٩٥ .

O'leary : A short history of the Fatimid Khalifate, p. 116.

(٤٦٤) سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١١٣ . في حين يسميه ابن سعيد الانطاكي ، أرسانيوس ، ص ١٦٤ .

(٤٦٥) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(٤٦٦) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ . أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

(٤٦٧) اتعاظ الحنفا ، ص ٢٧٧ .

(٤٦٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٣ .

(٤٦٩) ابن سعيد الانطاكي ، ص ١٧٦ .

The Jews in Egypt ..., Vol. 1, p. 19.

(٤٧٠)

(٤٧١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ . وعن أعمال منشأ بن العزار واسمه ، انظر :

Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, pp. 19-22.

(٤٧٢) ويقول ابن القلانسي (ان بعض المسلمين كتبوا هذه الرقعة واعطوها لامراته لتسلمها للخليفة وقد جاء في هذه الرقعة : « يا أمير المؤمنين ، بالذي عز النصراني بعيسى بن نسطورس ، واليهود بمنشأ بن العزار ، وأذل المسلمين بك ، الا نظرت في أمرى » ، انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ . على حين يذكر ابن الأثير ، أن المسلمين عملوا صورة امرأة من الورق ، وجعلوها في طريق الخليفة وفي يدها الرقعة المذكورة ، انظر : الكامل : ج ٧ ، ص ١٧٦ .

(٤٧٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٣ . أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

(٤٧٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ . أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

(٤٧٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٧٦ . أبو المحاسن : التجوّم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٦ . ويقول حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الدولة الفاطمية حاشية ص ٢٠٣ عن ابن زولاق ، مخطوطة بالمكتبة الاملية ببافيس رقم ١٨١٧ ورقة ١٥٠ - ان العزيز أرسل في الحال وأمر بصلب النصراني على باب القصر ، وأرسل الى اليهودي بدمشق ، وصلبه على باب المدينة . ويقول حسن إبراهيم حسن ، ان ابن زولاق لم يبين لنا ان كانت هذه المدينة القاهرة أم دمشق ، والواضح أن الصلب كان على باب مدينة القاهرة . وان صلب ابن نسطورس لا يقتضى موته ، وأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من سبع سنوات . ومات في السنة نفسها التي مات بها ابن زولاق وهو عمدتنا في هذه المسألة : مما يجعل هذه الرواية أقرب الى الصحة من غيرها .

(٤٧٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ ، أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

Bar Hebraeus : The Chronography of Gregory Abu'l Farag, T. I, p. 117.

(٤٧٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٦ . ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٤٧٨) ابن سعيد الأنطاكي ، ص ١٨٠ .

(٤٧٩) ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٢٧ . ويذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه - رفع الأصغر عن قضاة مصر ، القسم الأول ، ص ٢٠٩ - موقف أبي العلاء فهد في ذلك الوقت من شكوى تقدم بها بعض الناس ، إلى القاضي الحسن بن علي بن النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون المغربي . وفحوى الشكوى أن لهم ودائع في الديوان الحاكمي . فأحضر القاضي بعض من لهم علم بهذه المسألة وسألهم عن حقيقة الأمر . فأخبروه بأن ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، قد تصرف في هذه الأموال في صورة قرض فأنكر ذلك ، واشتد القاضي بمطالبته بهذه الدائع . وقام فهد بن إبراهيم النصراني المذكور - كاتب برجوان في ذلك الوقت - وفتش عليهم واضطر المتهم بذلك إلى بيع كل أملاكه فأخذ منه سبعة آلاف دينار وحصل الكاتب قدر هذا المبلغ مرتين وأخير القاضي بذلك ، واستدعى أصحاب الحقوق ، وأعطى كل منهم حقه .

(٤٨٠) ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٢٨ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٨٠ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٦ .

(٤٨١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٦ ، أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ . ويقول ابن ميسر : في كتابه مصر ، ج ٢ ، ص ٥٦ - وخلع الحاكم على فهد ، وحمل على بغلة ، وجعل بين يديه بغلة أخرى ، وأعطاه عشرين ثوباً . وجعله خليفة القائد حسين بن جوهر . في حين يصف ابن الصيرفي - في كتابه الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٢٨ - هدية الحاكم إلى وزيره فهد فيقول : « وجعل إلى الرئيس هدية ، هي عشرة آلاف دينار ، وسقط فيه حلة . لا حمل لها ، ودرك فيه جوهر ، وخواتم وطيّب ، وأسفاط وخمسون رأساً من الخيل والبغال » .

(٤٨٢) ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٢٨ .

(٤٨٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٤٨٤) المصدر نفسه ، ص ٥٩ - ٦٠ .

Bar Hebraeus : The Chronography of Gregory Abul Farag, p. 182.

ويذكر ساويرس رواية أخرى فيقول أن سبب قتل فهد بن إبراهيم هو رفضه اعتناق الاسلام ، فقد قال له الحاكم بأمر الله : « انت تعلم أنني اصطفييتك وقسمتك

على كل من فى دولتى ، فاسمع منى وكن معى فى دينى فأرفعك أكثر مما أنت فيه ، ويحوى لى مساح » . وقد دحرنا لى ليس انه سدده على سائر المسيحيين وجعله وزيرا له . ولكن أبى العلاء فهد لم يستجب لرغبة الخليفة ، وأصر على تمسكه بدينه المسيحى . عند ذلك امر بصرب عنقه واحراق جسده بالنار . واستمرت النار مشتعلة فى جسمه ثلاثة ايام دون أن تحترق جثته . ويقول ابن المقفع . « وكانت هذه آية من الله سبحانه لانه كان رجلا دينيا ، فيه رحمة عظيمة ، ولم يرد قط من يطلب منه شيئا ، حتى انه كان يجتاز الشوارع راكبا فيلقاه من يطلب الصدقة فيمد يده الى كفه ، ويظن أن ليس فيه شيء فيجد ما يدفعه للسائل » . انظر : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤٨٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦١ - ٦٢ . والروزيبارى ، مشتقة من كلمة روزبار وتطلق على أماكن معينة ، تقع فى جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة ، كما يطلق هذا اللفظ على قرى كثيرة تقع على مقربة من أصفهان ، وعلى قرية قريبة من بغداد . انظر ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة القاطمية ، حاشية ، ص ٢٠٧ .

(٤٨٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٢ ، ٦٤ . ابن سعيد الانطاكي ، ص ١٩٦ ، ١٩٨ - ١٩٩ (ويجعل ذلك فى سنة ٤٠١ هـ . ويتفق معه فى ذلك ابن الصيرفى فيذكر : أنه فى المحرم سنة ٤٠١ هـ ، رد النظر الى زرة ابن نسطورس والسفارة ، ولقب بالشافى ، واستمر فى ذلك حتى توفى فى سنة ٤٠٣ هـ . وكان يشتغل بتثمين الأموال ، وتدبير الاعمال . انظر ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٨ .

(٤٨٧) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٣٣ .

(٤٨٨) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٤٨٩) جروهمان : أوراق البردى ، ج ٣ ، ص ١٦٣ - ١٦٥ .

(٤٩٠) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

(٤٩١) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

M. George Solomon : Un Texte Arabe Indéduit pour servir à l'histoire des Chéteins d'Egypte, p. 2.

George Solomon, Op. Cit., p. 2. (٤٩٢)

(٤٩٣) ص ٣ - ٤ ، George Solomon : Op. Cit. ، وقد أجاب الخليفة

على هذا الأمير « أنا أريد أن يكون نصرانيا لان النصرانى يخاف على عرضه ،

ويخشى عليه دينه ، ولا يستجري أن يقع في مكروه » فأجاب الأمير ، بأنه مهما كان فهو
عدو الاسلام ، وأنه ان تمكن من ضرر الاسلام والمسلمين ، لفعل ذلك . وقد
أغاظ هذا الكلام الخليفة فأمر بانفضاض الجميع من حوله . وقد ندم الأمير سهم
الدولة على ما بدر منه ، كما لامه الأمراء المسلمون الباقون ، وقالوا له : كل
كلامك في عرض هذا النصراني . دليل حسدك ، وشرك يقع على رأسك . وأعلم
أن من جملة أدب الأجناد : خدام الملوك ، متابعتهم على هواء نفوسهم ،
والامتنال لأوامرهم ، والسكون في وقت غضبهم . . . ورد جوابهم بما يلائم
أغراضهم . . . وزادوا على ذلك أنهم قالوا له ، انه قام بعكس ذلك ، ففي حين كان
الخليفة يمتدح وزيره ، كان يحط هو من شأنه . فأدرك الأمير عند ذلك خطورة
الموقف ، وأسرع الى منزله وأعلم زوجته بما حدث فبادرت بأخذ هدية ثمينة الى
زوجة أبي السرور يوحنا ، لتطلب منها السماح والعفو من زوجها ، حتى يطيب خاطر
الخليفة . فوعدها أبو السرور بذلك ، الا أنه رد لها الهدية وطمأن نفسها ووعدها
ببذل أقصى جهده في العفو عن زوجها الأمير . انظر . ص ٥ - ٦ .

(٤٩٤) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٤٩٥) جورج سليمان . المصدر نفسه ، ص ٦ - ٨ . وتوضح الرواية التاريخية
ما كانت عليه نفس هذا الأمير من الكراهية الشديدة لأبي السرور والحقد عليه
لما وصل اليه من مكانة دونه . وكان الأمراء المسلمون كثيراً ما يزورونه لتطليب
خاطره الا أنه كان يقول لهم : « يا مسلمين هذا كله من تحت رأس نصراني ،
والله ان هذه . . مصيبة عظيمة » فأجابه الحاضرون بأن هذه هي رغبة الخليفة
ويجب طاعته ، ثم ان أبا السرور ، رجل طيب الخلق ، محبا لفعل الخير دائماً ،
وأعلموه بمساعيهم من أجل خلاصه من يد الخليفة . وقالوا له . « كف لسانك ،
وأمسك فمك عن ذكر هذا النصراني ، لئلا تشنق في هذه الدفعة . وأعلم لو تولى
أحد من المسلمين موضع هذا النصراني ما جرى علينا خير ، وهذا النصراني
أخير لنا من المسلمين ، لأنه يحقر نفسه لعلمه أنه ذمى ذليل وليخاف على
نفسه ودينه . والله ما قلنا من يضر لهذا النصراني ضميراً تجساً ، وأنت من
حسدك تعمل هذا كله وحسدك يرجع عليك » .

واتفقوا على عدم زيارة بسهم الدولة بعد هذا اليوم .

(٤٩٦) المصدر نفسه ، ص ٨ - ١٠ .

(٤٩٧) المصدر نفسه ، ص ١٠ - ١١ . وقال هذا الأمير للمستنصر : « . .
تمهل قليلاً ، واكشف وفتش . . . وأين هو هذا الملعون ، ان شنق شنيقتك كلباً .

وقبل هذا وبعده ، هذا عنده أموال تسد الفضاء وعين الشمس ، وهذا العسكر يحتاج فى هذا الوقت النفقة ، ومتى يشنق هذا النصرانى ذهبته أمواله ، ومن ناحية أخرى فان دفاتر الحساب عنده ، وان شنتقه فيه ضرر على الاسلام والمسلمين ، والأفضل مصادرة كل أمواله وما له من ذهب وفضة ثم يشنق بعد ذلك . وكان الأمير يهدف من وراء ذلك نجاة ابن الأيبح واستقصاء الحقيقة .

وتظاهر أمام الخليفة بأنه سيلحق به أشد ألوان العذاب ، وأنه أيضا سيلحق كل اهانة ممكنة بالقبط جميعا وقال له فى حضرة المستنصر : « احمل الاموال يا كلب يا ملعون ، اقسم بالله ، وحياة رأس مولانا الخليفة ، متى لم تحمل الى فى ثلاثة أيام مائة ألف درهم ، تقوى بها العسكر ، وقوم الاسلام المجاهدين ، والا عذبتك ، بعذاب لم يكن مثله وأطعمك من لحمك ، ولا أشنقك ، لأن شنتك ساعة وتموت وتستريح ، وانما أميتك كل يوم ألف موة » . وفى الحقيقة أن هذا الأمير كان يحصر أبا السرور اليه فى السر ، ويتحدث معه حتى يعرف منه حقيقة هذا الحدث . وحصل منه فى خلال ثلاثة أيام على خمسة الاف دينار ، وقام بتوزيعها على الأمراء والجند بأمر من الخليفة وكان من بين من كان له نصيب فى هذه الأموال ، الأمير سهم الدولة الذى قص القصة على الأمير المكلف بأبى السرور ، وأبان له حقيقة الأمر ، ولكنه أخفى الأمر عن الخليفة وجمع المسلمين ، حرصا على وحدة المسلمين فى ذلك الوقت وحتى تتم الغلبة على الأفرنج .

انظر المصدر نفسه ، ص ١١ - ١٣ .

(٤٩٨) جورج سليمان : ص ١٤ - ١٥ . وتشير الرواية التاريخية الى أن الأمير المكلف بأبى السرور استفتى الخليفة قائلا : « ماذا يقول مولانا أعزه الله ونصره على أعدائه ، وبلغه منام فى رجل نذى قد عمل عليه انسان مسلم وظلمه ، وسعى فى هلاكه وهلاك كل جنسه » . والمسلم المذكور يظن أن جميع ما يعمله مع النصرانى النذى من المكروه له فيه أجر وثواب ، لأنه عدو فى الدين . وهذا النذى برئ من جميع ما نسب اليه ، وعرضه نقى نظيف ، أبيض مثل الشمس ، عرفنا يا خليفة الله فى أرضه ، هل يجوز للمسلم أن يتسبب فى هلاك النذى من غير ذنب . افتنا فى هذا رحمة الله عليك وعلى آبائك وأجدادك الطاهرين آمين » فكتب الخليفة على ظهر هذه الفتوى : « لا يجوز للمسلم أن يتعدى على النذى ، وان تعدى عليه بغير حق ، ينتقم الله تعالى من المسلمين ، لأن اهل الذمة النصرانى واليهود تحت زمام المسلمين وفى حميتهم ، لأنهم يزنون الجزية ، فمن تعدى على أحد

منّ الذميين ، أخذنا حق الله منه والسلام » فسّر الأمير لذلك ، واحتفظ بهذه الفتوى في خزانته .

انظر ، المصدر نفسه ، ص ١٣ - ١٤ .

(٤٩٩) المصدر نفسه ، ص ١٥ - ١٦ .

(٥٠٠) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

(٥٠١) المصدر نفسه ، ص ١٩ ، وكان هذا الابن دون سن البلوغ ألا أن الخليفة لمس فيه أدب أبيه وحسن أخلاقه وقال له . « يا ولدى ان كان أبوك مات ، فأننا من اليوم أبوك » .

(٥٠٢) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

ونرى أن المقصود بديوان الصناعة هو صناعة المراكب والسفن المختلفة وكان هناك صناعة بالمفس انساها المعز لدين الله ، وميل ابنه العزيز بالله . أما صناعة الجزيرة ، فكانت أول صناعة عملت بمصر سنة ٥٤ هـ . واستمرت قائمة حتى إمارة محمد بن طغج الاخشيذ الذي أنشأ صناعة لساحل الفسطاط ثم أمر في سنة ٣٢٥ هـ ، بنقل صناعة الجزيرة الى صناعة مصر وكان موضعها بمصر في دار حرم ابن طولون . وبالرغم من ذلك استمرت مراكب الأسطول تعمل بالجزيرة حتى خلافة الأمر بأحكام الله الذي أمر أن تكون صناعتها بدار الصناعة بمصر . انظر : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣١٧ ، ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٥٠٣) ابن المقفع : سير الأبياء انبطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

(٥٠٤) أما عن ديوان المجلس فيقول ابن الطوير أنه أصل الدواوين قديما ، فيه معالم الدولة بأجمعها ويضم هذا الديوان عددا لا يستهان به من الكتاب . وصاحب هذا الديوان هو المتحدث في الاقطاعات ، ويكتب له سجلا بذلك ، كما يخلع عليه . وينظر فيما ينفق في الاعياد ، وعلى أولاد الخليفة وأقاربه ، وأرباب الرواتب على اختلافهم وما يرد من الملوك من الهدايا ، وما يرسل اليهم وغير ذلك من الأمور المهمة ، ايعلم ما بين السنة والأخرى من التفاوت . انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ - ٤٠٤ . المقرئزي . الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥٠٥) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

(٥٠٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٥٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

(٥٠٨) ابن النقاش : الزمة فى استعمال أهل الزمة ورقة ٩١ .

القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ .

(٥٠٩) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣ .

(٥١٠) المصدر نفسه ، ص ٣ .

وانبا مقاره ، هو البطرك التاسع والستون فى العدد . ولى البطركية بعد أنبا ميخائيل وكان قسا بدير أبى مقار ويعرف بالمصور . وكان جيد الكلام ، حافظا لقوانين الرهبنة ، وأراد ألا يلى هذا المنصب فادعى أنه ابن ثاوية ولا علم له بالكهنوت ، إلا أن القبط ورؤسائهم والكهنة والأساقفة ، أصرروا على إقامته بطركا وذلك فى ١٣ هاتور سنة ٨١٩ ش = ٤٩٢ هـ . وانظر المصدر نفسه ، ص ١ - ٢ .

(٥١١) المصدر نفسه ، ص ٣ .

(٥١٢) Maurice Fargon : Les Juifs en Egypte, p. 120.

(٥١٣) Maurice Fargon ; Op. Cit., p. 121, et Mann : The Jews in Egypt, T. I, p. 215, and The Jewish Encyclopedia, Vol. V, p. 62.

(٥١٤) ديوان المكاتبات كان يتولاه أجل كتاب البلاغة ويخاطب صاحب هذا الديوان بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب البست الشريف . ويسلم المكاتبات الواردة المختومة ، فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والاجابة عنها للكتاب . والخليفة يستشير فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد الثول بين يديه وله حاجب من الأمراء الشيوخ وفراشون . انظر ، المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٥١٥) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٢٥ - ٢٦ . وقد اختير بعد ذلك بطركا وسمى أنبا غبريال وكان أكبر المساعدين على إقامته بطركا ، الشيخ أبى البركات يوحنا بن أبى الليث ، صاحب ديوان التحقيق .

(٥١٦) ابن ميسر . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٢ . المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١١٤ ب . وديوان التحقيق مهمته المقابلة على الدواوين ، وكان يتولاه انسان خبير ، ويكون له حاجب بين يديه . انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٩٢ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٥١٧) المقرئى . اتعاظ الحنفا ، ورقة ١١٥ .

- (٥١٨) أبو صالح الأرمني ، ص ٥٤ .
 (٥١٩) The Jews in Egypt, T.I., pp. 211-212.
 وذلك كما كان يفعل كل من ابن الأسقف وأبو اليمين وزير من قبل .
- (٥٢٠) ابن ميسر . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧١ . وأصل الراهب من أشمون
 طناح ترهب على أيدي أبي اسحق بن أبي اليمين وزير بن عبد المسيح ، متولى
 ديوان أسفل الأرض . ثم قدم الى القاهرة ، واتصل بخدمة أبي البركات ثم اتصل
 بخدمة الخليفة الأمر . كما ذكرنا في المتن .
 انظر أيضا : المقرئى : اتعاط الحنفا ، ورقة ١٣١ ب .
 (٥٢١) المقرئى : اتعاط الحنفا ، ورقة ١٣٠ ١ .
- (٥٢٢ ، ٥٢٣) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧١ .
 (٥٢٤) المقرئى : اتعاط الحنفا ، ورقة ١٣٠ ١ .
 (٥٢٥) المصدر نفسه ، ورقة ١٣٠ ١ . القلقشندي . صبح الأعشى ، ج ١٣ ،
 ص ٣٦٩ . ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢٦ .
 (٥٢٦) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة أو رداء
 لغطاء الرأس ويتدلى حتى الوسط ، انظر الوسيط ، ج ٢ ، ص ٦٦٣ . والمعنى
 الأخير هو المقصود هنا .
- (٥٢٧) جمع مثقال ومثقال الشيء مثله في الوزن . وفي القرآن (ان الله لا يظلم
 مثقال ذرة) الوسيط ، ج ١ ، ص ٩٨ .
- (٥٢٨) المقرئى : اتعاط الحنفا ورقة ١٣١ ب ، ابن ميسر . أخبار مصر
 ج ٢ ، ص ٧١ .
 (٥٢٩) اتعاط الحنفا ، ورقة ١٣٠ ١ .
- (٥٣٠) الذمة في استعمال أهل الذمة ، ورقة ٩١ .
 القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ٣٦٩ . ابن قيم الجوزية : أحكام
 أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢٦ .
- (٥٣١) ابن النقاش : الذمة في استعمال أهل الذمة ، ورقة ٩١ . القلقشندي
 صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ . ابن قيم الجوزية ، ق ١ ، ص ٢٢٦ .
- (٥٣٢) ابن النقاش : الذمة في استعمال أهل الذمة ورقة ٩١ . القلقشندي :
 صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ،
 ق ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥٢٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٧٠ : ابن قيم الجوزية .
أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢٧ . ويختلف البيت الثاني الذى ذكره ابن
قيم عن ذلك الذى ذكره القلقشندي : ومهما كان الأمر فالمعنى واحد وإن اختلف
التعبير . وذكر ابن قيم البيت الثاني على هذا النحو :

ثم عادوا وحكموا فيهم . ولناهمك بخصم . يحتكم

(٥٢٤) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٧٠ : ابن قيم الجوزية : أحكام أهل
الذمة ، ق ١ ص ٢٢٧ .

ويقول ابن ميسر عند حديثه عن حوادث سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨/١١٢٩ م)
أن الراهب استدعى يوما ما ، أحد كبار الدولة ويسمى ابن الفرس ، وكان له
مكانة عظيمة بين الناس فأهانه ، وتشدد معه فى الكلام . فانتهز ابن الفرس صلاة
الجمعة ، وقال فى جامع عمرو بن العاص : « يا أهل مصر ، انظروا عدل مولانا
الأمر ، فى تمكينه النصرانى من المسلمين » ، فأثار هذا الكلام ، الحشد المجتمع ،
وكادت تقع فتنة آنذاك فى البلاد المصرية . انظر ، ابن ميسر ، أخبار مصر ،
ج ٢ ، ص ٧١ - ٧٢ .

فى حين يذكر المقرئى رواية أخرى عن نهاية الراهب وزوال أمره ، فيقول أنه
ألزم شخصا ما - لم يذكر اسمه - بسبعين ألف دينار ، ثم طلبها منه مائة
ألف دينار . وكان هذا الشخص واسع التجارة . فوصل خبره رجال القصر ،
الذين تمكن أحدهم من شرح ما يقوم به الراهب للخليفة الأمر وأنه يشاركه فى
هذا السوء صاحب الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبى قراد أو تراد (ابن
أبى قيراط) وأبو يعقوب إبراهيم السامري ، الكاتب . وأخبر الأمير بكل
ما أنزله الراهب والمتعاونون معه بالمسلمين من ضرر وسوء . فأجابه الخليفة
أنه لا يعلم شيئا من ذلك ، فقال له : « يا أمير المؤمنين انهم قد اتفقوا على
أتى الناس ، وقد جعلك الله خليفة فى الأرض ، واسترعاك على عياده ، وكل
راع مسئول عن رعيته » .

فغضب لذلك الأمر ، وأمر بعزل الراهب وغيره من الموظفين القبط عن وظائفهم ،
واحلال المسلمين محلهم . انظر اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣١ ، ب .

(٥٢٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣١ ب ، ابن ميسر : أخبار مصر ،
ج ٢ ، ص ٧٢ .

ابن الدريهم . منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ٩٠ ب .

٥٣٦) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٣ ، ط ، ص ٢٩ . ابن ميسر :
أخبار مصر ج ٢ ، ص ٧٨ .

• ونلاحظ اختلاف الروايات التاريخية فى كيفية توليه الوزارة . يذكر ابن
ميسر (٧٨ - ٧٩) أن السبب فى قدوم بهرام الى مصر ، هو غضبه لعدم
توليه رئاسة الأرمن فى بلاده بأرمينيا . وأن الخليفة الحافظ ، لما سمع به
أراد استوزاره . ولكن بعض رجال الدولة رفضوا ذلك بحجة أنه مسيحي فلا يرضاه
المسلمون ، ولأنه من شروط الوزير ، صعود المتبر فى الأعياد مع الامام ليزور
المرزة الحاضرة بينه وبين الناس ، وأخيرا لأن القضاة منذ وزارة بدر الجمالى فى
عهد الخليفة المستنصر كانوا يذكرون أسماء الوزراء نيابة عنهم فى الكتب الحكيمية
النافذة الى الأفاق . ولكن الحافظ أصر على استوزار بهرام . وتذكر الرواية
القبطية (سير الأبياء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٢٨ - ٣٠) أن بهرام قدم مصر
مع بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر وأنه قد تولى أمر الأرمن فى مصر
كما استخدم فى بعض الوظائف وهو محتفظ بدينه المسيحي ، وتدرج فى الوظائف
حتى تولى أمر الضريبة ولقب بـ يتاج الدولة فلما ولى الحافظ للخلافة وثار عليه
ابنه الحسن ، استنجد الجند ببهرام ، فقدم اليهم ، وخشيه الحسن ، واختفى ،
وخلص الأمر للخليفة الحافظ ، فاستوزر بهرام .

(٥٣٧) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٣ ج ١ ، ص ٣٠ - ٣١ .
وتذكر المصادر التاريخية المختلفة ، أن بهرام استدعى أهله ، وأصدقاءه من
بلاد الأرمن ، حتى بلغ عدد الأرمن فى مصر ، ثلاثين ألفا . واستعان بالكثير
منهم فاستطالوا على المسلمين ، وألحقوا كثيرا من الأذى والضرر بهم . وبنى
هؤلاء الأرمن كثيرا من الكنائس ، حتى خشى منهم أهل مصر ، وكثرت الشكاية
منهم ، وخشى المسلمون منهم على الاسلام . وكان الياسك أخو بهرام ، يتولى
حكم قوص فاستباح أموال الناس وجار جورا عظيما فى البلاد . انظر ، ابن
ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧٩ . المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣٧ ١ .
(٥٣٨) الدراعة : ثوب من صوف ، مشقوقة المقدم ، الوسيط ، ج ١ ،
ص ٢٨٠ .

(٥٣٩) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٥٤٠) ابن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٠ .

ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣٧ ١ .

(٥٤١) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣٠ - ٣١ .
ويقول ابن ميسر (ص ٨٠) ان الخليفة هو الذى اشار عليه بالخروج من القاهرة
الى اخيه الباسك .

(٥٤٢) ابن المقفع . سير الالباء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣١ . ويذكر
ان الحافظ احضره الى القاهرة فى رمضان سنة ٥٣٣ هـ واسكنه القصر ، وانه
لما زال امر ابن ولخشى ، عرض عليه الوزارة ثانية ، ولكنه رفض قائلا : « انا
راهب ما انا جندي » (ص ٣٣) ويقول ابن ميسر (ص ٨٤) : مات بهرام فى
ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ وحزن عليه الحافظ اشد الحزن ، وأمر باغلاق الدواوين
ثلاثة ايام . واحضر بطرك الملكانيين وأمره بتجهيزه ، وجعل على تابوته الديباج ،
وخرج الخليفة فى جنازته ، وبكى عليه بكاء شديدا .

(٥٤٣) ابن المقفع . سير الالباء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٥٤٤) انظر : Jews and Arabes, p. 82.

(٥٤٥) A Short history of the Fatimid Khalifa'e, p. 114.

(٥٤٦) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ١٣٨ .

(٥٤٧) كان الاب زخارياس ، قيم كنيسة الاسكندرية . وقد طمع فى البطركية -
بعد وفاة الاب فيلاتاوس احد تجار مصر الاثرياء ، ويسمى ابراهيم بن بشر ،
وكان له شأنه عند الامراء ومقدمى مصر من القبط . وتمكن بمساعيه لدى هؤلاء ،
من الحصول على سجل يخول له امر البطركية ، وذهب الى الاسكندرية لاتمام
ذلك . فرفض الاساقفة اقامته ، لان ذلك مخالف لقوانين الكنيسة . وواصل
الاساقفة والكنيسة اجتماعاتهم حتى يتم لهم اختيار بطركهم ولم يكن احد يفكر فى
القس زخارياس قيم الكنيسة حتى حدث بينما القوم مجتمعون ان صعد هذا القس
الى اعلى البيعة ، فزلت قدمه على السلم دون ان ينكسر ما معه ، عند ذلك
قال المجتمعون : هذا هو الذى يستحق هذا الامر ، فتم ذلك ونصبه القوم
بططبيب خاطر ابراهيم بن بشر ، واقامته اسقفا حتى يامنوا جانب الخليفة ،
فجعله اسقفا على كرسى منوف ، وخلصت البطركية لانبا زخارياس . انظر :
ابن المقفع ، سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٥٤٨) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .
وهذه الطريقة تقتضى ، ان يختار القبط من الديارات مائة رجل . ثم يختار

القوم منهم خمسين ، ومن الخمسين يختاروا خمسة وعشرين ، ومن هؤلاء يختاروا عشرة ، ثم يستقر رأى القوة على ثلاثة من هؤلاء العشرة . ويكتب اسم كل واحد منهم فى رقعه ، وفى الرقعة الرابعة اسم الأب ، وتشمع كل ورقة من الورقات الأربع ، وتوضع على الهيكل . وبعد الصلاة والانتهاى من القيداس يأتى المجتمعون ، بطفل صغير ، ليختار واحد من الرقاق الأربع : فإذا كان فيها اسم من الاسماء الثلاثة ، كان هذا هو الشخص الذى أراد الله الرب ليكون لهم بطركا ، وان كان فيها اسم الرب ، علموا أنه لا يوجد بين الاسماء الثلاثة أحد يصلح للبطركية ، وعليهم أن يختاروا ثلاثة آخرين .

(٥٤٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ . وأصل الراهب شنودة من أهل تلبانة عدى ترهب وعمره أربع عشرة سنة .

(٥٥٠) المصدر نفسه ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

وانبا كيريلس هو الراهب جرجة ، وكان قسا فى دير أبى مقار ، وأقيم بطركا بعد الأب اخريستوذولس فى خلافة المستنصر ووزارة امير الجيوش بدر الجفالى . وقد أراد الهروب من هذا المنصب ، ولكن القوم اصرروا عليه ، واقاموه بطركا لهم . انظر : المصدر نفسه ، ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٥٥١) ابن المقفع . سير الالباء . البطركية ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٠ .

(٥٥٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٠ .

(٥٥٣) المصدر نفسه ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣٨ . وكان الأب ميخائيل راهبا فى دير دنشستري بدير القديس أبى مقار . وكان حسن الوجه والهيئة ، يتجسف بالموقار والخفة . وكان لا يعرف القراءة والكتابة . لزم قانون الرهبنة ولم يطمع فى كهنوت ولا طقوس . فلما توفى انبا غبريال ، بقى كرسى البطركية خاليا أربعة أشهر ، وطمع فى البطركية راهب آخر يسمى يونس بن كوران ، وأيده فى طلبه جماعة من الرهبان والأساقفة ، وكان يجيد القبطية عالما بالكتب الكنسية طيب الخلق ، جلو الكلام . ولكن القبط رفضوه بطركا لهم . وراوا اتباع طريقة الرقعة فى اختيار بطركهم فكتبوا أسماء : يونس بن أبى الفتاح ، وميخائيل بن دنشستري وراهب ثالث من دير البراموس ، فى رقاق ثلاث وفى الرقعة الرابعة اسم السيد المسيح . واقاموا القديس ثلاثة أيام ، ثم جاءوا بطفل ليختار رقعة من الرقاق الأربع ، فكانت الرقعة المختارة تحمل اسم ميخائيل ، فوافق الجميع عليه ليكون بطركا لهم آنذاك . انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦ - ٣٨ .

- (٥٥٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
- (٥٥٥) المصدر نفسه ، ص ٤٠ - ٤١ .
- (٥٥٦) ابن المقفع : سير الایاء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .
- (٥٥٧) ویسمى هذا البطرك ایضا باسم ارمانیوس وارسانیوس . ابن المقفع .
سير الایاء البطارقة م ٢ ، ج ٢ ، ص ١١٣ . آدم متز : الحضارة الاسلامیة ،
ج ١ ، ص ٩٥ .
- (٥٥٨) ابن سعید الأنطاکی ، ص ٢٣٧ .
- (٥٥٩) المقریزی : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٨ .
- (٥٦٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .
- (٥٦١) ابن المقفع : سير الایاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢١ . وكان
برجوان یسمیه فی صغره الوزغة ، فأرسل الیه أحد خواصه ، یقول له : « الوزغة
الصغيرة ، قد صار تنینا عظیما وهو یدعوك » وأمره بقطع رأسه ورأس قائده .
ویروی أنه اذا أراد أن یقتل شخصا أنعم علیه بالمال والخلع ، ثم یرسل الیه من
یضرب عنقه حقب ذلك .
- واستمر علی ذلك حتی ألقى خواصه ومقدمی جیشه . المصدر نفسه ،
ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٥٦٢) Goitein : Jews and Arabes, p. 83 .
- (٥٦٣) ابن المقفع : سير الایاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ -
١٢٣ . ویذكر أن أبا نجاح طلب أن یشرب فی أثناء الضرب فأذن له الخلیفة الحاکم
بأمر الله ، علی أن یكون رهینة اعتناقه الاسلام ، فقال أبو نجاح لهم : « أعیدوا
له ماءه فانی غیر محتاج الیه ، لأن سیدی یسوع المسیح قد أسقانی » ویقال ان
البعض شهدوا الماء وهو یتساقط من لحيته . ونرى فی ذلك مبالغة شدیة .
- (٥٦٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .
- (٥٦٥) نفس المصدر ، ص ١٢٣ .
- (٥٦٦) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطمیین ورسومهم فی مصر ، ص ٩٩ .
- (٥٦٧) ابن المقفع : سير الایاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .
- (٥٦٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ - ١٢٥ . ویذكر ابن سعید الأنطاکی أن هذه
الأوامر أصدرها الخلیفة الحاکم فی سنة ٤٠٢ هـ . انظر صلة تاریخ اوتیخا ،
ص ٢٠٣ .

(٥٦٩) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ . ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٨٧ .

المقرىزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ . القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٥٩ . ابن على الاسحاقى : اخبار الاول . فيمن تصرف فى امور مصر من ارباب الدول ، ص ١٧١ . ويذكر ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٧ - انه ألزم اليهود بلبس العمام السود ، ولم يذكر انه ألزم القبط بذلك ايضا .

(٥٧٠) ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٠٠ .

(٥٧١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ . المقرىزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ .

(٥٧٢) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

المقرىزى ، الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ .

القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ .

(٥٧٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ . المقرىزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٧ .

(٥٧٤) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ . ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ . ويذكر ابن سعيد الانطاكى ان القبط قد ألزموا بذلك أولا ثم فى سنة ٤٠٢ هـ ألزم اليهود بان يعلقوا فى رقابهم الاكر الخشب . انظر : صلة تاريخ اوتيا ، ص ٢٠٣ .

(٥٧٥) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ .

(٥٧٦) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ . المقرىزى : الخطط ،

ج ٤ ، ص ١٩٩ . ابن على الاسحاقى . اخبار الاول فيمن تصرف فى امور مصر من ارباب الدول ، ص ١٧١ .

(٥٧٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٥٧٨) تاريخ ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٥٧٩) انظر : The Jews in Egypt, T. I, pp. 35-36, 37.

(٥٨٠) تاريخ ابن الراهب ، ص ٨٢ . ويروى ساويرس أنهم عملوا أكثر من صورة لامرأة ، وكرروا ذلك مرارا ، انظر سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٥٨١) الخطط ، ج ٢ ، ص ٦ ، ٧ . ويروى أن الحاكم أسكن اليهود في بحارة زويلة ، وهددهم بالقتل إن لم يعتنقوا الاسلام . فاضطر كثير منهم إلى أجابته ، ثم أمرهم بالعودة إلى دينهم فارتد منهم في يوم واحد سبعة آلاف وقيل أنه عاد بعد ذلك وأمر بهدم معابدهم ، ثم أمر بإعادة بنائها . انظر ، ميخائيل شاروبيم : الكافي في تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٠٩ . عن ابن زولاقي ، مخطوط بالمكتبة الأملية ببغداد .

(٥٨٢) ابن سعيد الأنطاكي ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، المقرئ . الخطط ، ج ٤ ص ٣٩٩ .

(٥٨٣) يذكر ابن سعيد أن هدم دير القصير كان في سنة ٤٠٠ هـ . وهو أحد الأديرة المملوكية بمصر ويقع في جبل المقطم . وكان يقيم فيه البطرك المملوكي أرسانيوس ، فأخرج منه مع كل من كان فيه من الرهبان ، وخرّب . ونش جميع ما فيه من القبور . كما خربت في ذلك الوقت كنيسة ماري مريم بدمياط ، وكانت تعرف بكنيسة العجوز ، وخرّب خرابا عظيما ، كما قتل البطرك أرسانيوس سرا ، انظر ، صلة تاريخ أوتيسا ، ص ١٩٧ .

The Jews in Egypt, T. I, p. 34. (٥٨٤)

وتقول الرواية القبطية أن الحاكم « أنفذ سجلات إلى سائر أعمال مملكته ، بأن تهدم البيع ، وأن يحمل ما فيها من الأنيسة الذهب والفضة إلى قصره ، وأن يطالب الأساقفة في كل مكان ، وأن لا يبايعوا النصارى ولا يشاروا من المواضع ، انظر سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٣٧ .

(٥٨٥) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٣٧ .

(٥٨٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

(٥٨٧) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . ويضيف ابن المقفع أن بقيرة قد تنبأ بزوال اضطهاد الحاكم لهم واصلاح أمورهم بعد ثلاثة أيام من خروجه من السجن وحدث فعلا في اليوم الرابع لخروجه من السجن ، أن أمر الحاكم بأمر الله « بأن يبايع النصارى ويشاروا كما جرت عادتهم

وكتب سجلا بأنه من أراد من النصارى يمضى الى بلاد الروم أو بلاد الحبشة
أو النوبة وغيرها ، لا يمنعهم أحد ، وكانوا قبل ذلك ممنوعين منه » .
(٥٨٨) المقرئى . الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ . ميخائيل شاروڤيم :
الكافى ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

Mann : The Jews in Egypt, T. I, pp. 37-38. (٥٨٩)

(٥٩٠) ابن المقفع . سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، كان الأب
زخارياس عفيفا ، وكان يتحكم فى اهله وتلاميذه وكانوا يبيعون الدرجات الكهنوتية
لمن يرغب فيها ، وكان لا حول ولا قوة له معهم ، حتى انه لا يتمكن من اطعام
أحد أو قضاء حاجته بدون اذن منهم بل كان لا يملك حرية غذاء نفسه . فلما
قدم اليه الراهب يونس آملا فى الاسقفية بعث به الى تلاميذه ، وأهله كعادته
فتعرض يونس لاهانة أحدهم ويسمى خيال وكان أسقف مدينة سخا ، وهدده اذا
هو فكر ثانية فى الاسقفية . فغضب يونس أشد الغضب وقرر أن يشكوهم الى
الحاكم بأمر الله ، ولكن بعض الرؤساء القبط هدموا من روعه ، ووعدوه بمساعدته .
وكتبوا له كتابا الى البطرك ، الذى كان متغيبا فى ديارات وادى هبيب . فتسلم
هذا الكتاب الأسقف أنبا خيال ، فرأى أن ينتقم منه ، وأثار عليه العرب خفر
الديارة . فغضب البطرك لذلك وأرسل من أسرع بانقاذ الراهب يونس ، ووعد
البطرك بالاسقفية عند خلو أى كرسي ولكنه تعذر عليه تنفيذ ذلك . انظر المصدر
نفسه ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٥٩١) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ . ويضيف
أن الحاكم أمر بالقائه فى السجن أمام السباع لتأكله ولكن هذه السباع لم تقترب
منه ، فاشتد غيظ الحاكم ، واتهم سايس السباع بأنه أشبعها طعاما حتى لا تقترب
من البطرك مقابل مبلغ من المال . وأمره بحرمان السباع من الطعام لفترة ،
ولكن حدث مثل ما حدث فى المرة الاولى ، ولم تمس السباع البطرك بسوء .

(٥٩٢) المصدر نفسه ، ص ١٣١ . وكان مع البطرك فى الحس رجل مسلم ،
فقال له : « يا شيخ السوء أما تسلم حتى يخلوك » وتناول منهم الكرامة الكبيرة .
فأجابه البطرك : « اعتمادى على الله الذى له القدرة وهو يعيننى » فضربه بأحد
القائمين على حراسته عندما سمع منه ذلك . فقال له البطرك : « أما الجسد فلكم
عليه السلطان ، تهلكونه كما تريدون . وأما النفس فانها بيد الرب » .

(٥٩٣) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٥٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

(٥٩٥) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٥٩٦) تاريخ ابن الراهب ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٥٩٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٧ .
O'Leary : A short History of the Fatimid Khalifate, p. 134.

(٥٩٨) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ . محمد

عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٢ .

(٥٩٩) ابن المقفع . سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن سعيد

الأنطاكي ، ص ٢٢٨ .

(٦٠٠) ابن المقفع . سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ . ابن

سعيد الأنطاكي ، ص ٢٢١ . ويقول الأخير ، ان الحاكم لقي في هذه السنة الابهاء
سلمون رئيس دير طور سيناء فسأله الابهاء سلمون في السماح له باعادة بناء دير
القصير « وان يرى رأيه بالمسامحة به ، وعودة الرهبان الى سكناه ، واجتماع
النصارى فيه للصلاة ، واطلاق ما يرسمه من الأوقاف » فأجاب الخليفة الحاكم بأمر
الله الى ما اراد ، وكتب له سجلا بذلك يحول له بمقتضاه اعادة بناء دير القصير
الى ما كان عليه قبل الهدم ، والسماح للرهبان بسكناه ، وتزويده بكل ما يلزمهم
فيه - ونص هذا السجل ، سنكتبه في الملاحق في نهاية الرسالة - انظر صلة
تاريخ أوتيفا ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٦٠١) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ . ابن سعيد

الأنطاكي ، ص ٢٣١ .

(٦٠٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٠٩ .

عن ابن زولاق مخطوط بالمكتبة الاهلية ببازيس .

(٦٠٣) ابن سعيد الأنطاكي ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ . ويضيف ان الحاكم انس

بالاب سلمون وكان لا يؤخر له طلبا بشأن اصلاح حال الكنائس والقبط وكثيرا ما
كان يلقاه عند خروجه الى الصحراء ، حتى شنع عليه بعض عوام المسلمين
لما عرفوه من ميظه ومشاركته الرهبان في لباس الصوف فقالوا انه قد تتلمذ
لأنبا سلمون . وكان كثيرا ما يتردد على دير القصير ويشاهد عمارته ويستحث
الصناع على الفراغ منه واطلق لهم كثيرا من الدنانير اسهاما منه في البناء
ومساعدة الرهبان . انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٦٠٤) ابن سعيد الأنطاكي ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٦٠٥) والبطرك أكرسوطولوس هو البطرك السادس والستون . صار بطركا بعد وفاة الأب شنودة في خلافة المستنصر بالله . اذ اجتمع أهل الاسكندرية والكهنة للتشاور فيمن يلي كرسى البطركية بعد البطرك شنودة ، فرشح بعضهم القمص يونس بن تيروس ، من دير الأب ساويرس - ثربى الاسكندرية - ولكن بطل أمره . فاجتمع القوم بعد ذلك لاختيار آخر يصلح للبطركية فذكر لهم الأب أكرسوطولوس وكان قسيسا أصله من يورة ، وكان بدير وادى هبيب ثم اقام فى صومعة على البحر فى نستره وحبس نفسه فيها . وانتهى الأمر باقامته بطركا فى الاسكندرية فى كيهك سنة ٧٦٢ ش . انظر : ابن المقفع : سير الایاء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٦٣ - ١٦٥ .

(٦٠٦) المصدر نفسه ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧٦ .

(٦٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ .

(٦٠٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ، ١٩٨ . وكان البطرك أكرسوطولوس يقول للأساقفة هذه كراسى مرقص الانجيلي . فيكون نصف دخل الكرسى للمارى مرقص والنصف الآخر للأسقف ويقول لهم : « فأقرضنى عن النصف الذى للمارى مرقص البشير ، كذا وكذا ، واجب أنت الى أن تستوفى قرضك ، وبعد هذا مهما حصل فى الكرسى ، احمل النصف الذى منه للمارى مرقص الى القلاية » وكان يفعل ذلك حتى لا يتهمه القبط بأنه يأخذ الشرطونية . ويبيع الرتب الكهنوتية .

(٦٠٩) المصدر نفسه . ص ١٩٨ .

(٦١٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .

(٦١١) ابن المقفع . سير الایاء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

(٦١٢) ابن المقفع (سير الایاء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧٩ . ويذكر ساويرس أن قبط الاسكندرية شكوا الى حصن الدولة احوالهم وما هم فيه من انقطاع الدعاء فى الصلوات والقيام بالقداس بسبب غلق الكنائس ، فأعطاهم مفتاح كنيسة مارى جرجس التى كانت بيتا لأول بطاركة مصر ، وهو الأب انباتو . وقال لهم : « امضوا وافتحوا هذه الكنيسة وصلوا فيها سرا وادعوا لى » .

(٦١٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .

(٦١٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٦١٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ . وتقول ان سبب مزية جند المستنصر هو كثرة عدد القواد ، فكان عليها أمين الامناء أبو اليمن ساويرس بن مكرامة ابن زينور ، والأستاذ عزيز الدولة زمام العبيد ونجاح الدولة وناصر الجيوش بن اسد الدولة . وقد اختلف الرأي بينهم ، ولم تتوحد كلمتهم ، مما ساعد على نجاح ناصر الدولة بن حمدان وجنوده وغلبته على بلاد الشرقية والغربية .

(٦١٦) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، ج ٢ ، ص ٣ ، ص ١٨٣ -

١٨٤ .

(٦١٧) المصدر نفسه ، ج ٣ ، م ١ ، ص ٢٨ .

(٦١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

وقد اتهم رهبان وادى هبيب بأنهم يعلمون علوما وملاحم بمقتضاها يعرفون ما يجرى للملوك وكيف يتم تغلب دولة على أخرى ، وأنهم « يجمعون الدنانير وغيرها من قنايا الذهب والفضة والمصاغ ، ويخالفون بهذا مذهبهم ، وكلام انجيلهم ووصية المسيح لهم ، وأن عندهم صورة ساقية بللور لا يوجد عند أحد من ملوك الدنيا مثلها » .

(٦١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٦٢٠) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٦٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٦٢٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٦٢٣) المصدر نفسه ، ص ٥٢ - ٥٤ .

(٦٢٤) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٦٢٥) المصدر نفسه ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٦٢٦) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٦٢٧) المصدر نفسه ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٦٢٨) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٦٢٩) الشماس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٥٤٥ .

(٦٣٠) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

1. The first step is to identify the problem or question that needs to be answered. This involves understanding the context and the specific requirements of the task.

الباب الثانى : _____

أهل الذمة فى المجتمع المصرى

- ١ - أحكام أهل الذمة فى الاسلام ومدى تطبيقها فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى .
- ٢ - الاحتفالات الدينية والقومية .
- ٣ - الأخلاق والعادات .
- ٤ - العلاقات بين أهل الذمة وسائر عناصر المجتمع .

10. 11. 1944

11. 11. 1944

12. 11. 1944

13. 11. 1944

14. 11. 1944

15. 11. 1944

16. 11. 1944

١ - أحكام أهل الذمة فى الاسلام ومدى تطبيقها فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى

أهل الذمة هم المستوطنون من غير المسلمين ، فى البلاد التى فتحها المسلمون ، وصاروا سادتها وحكامها (١) . والذمة فى اللغة هى العهد والأمان والضمان ، والمنتهفون بهذا العهد يسمون (أهل الذمة ، أو الذميون) (٢) . وأهل الذمة هم أهل الكتاب - أى أصحاب الكتابين السماويين ، التوراة والانجيل - وهم اليهود والمسيحيون ، ومن فى حكمهم ممن لا كتاب سماوى لهم وهم المجوس والسامرية والصابئة (٣) .

أصبح المصريون من القبط واليهود بعد الفتح العربى لمصر ، أهل ذمة - شأنهم شأن سكان البلاد الأخرى التى فتحها العرب المسلمون ، فأصبحوا فى ذمة المسلمين بعد اعطائهم العهد والأمان على أنفسهم وأموالهم ، ونسائهم وأطفالهم ، وحرىاتهم الدينية والمدنية ، ويلب المسلمون عنهم . وهذه الحقوق التى حصل عليها أهل الذمة فى مصر - وغيرها من البلاد الاسلامية - كانت فى مقابل بعض الواجبات التى التزموا بها ، أو الأحكام التى فرضت عليهم ، وأصبح لزاما عليهم أن يقوموا بها . وكان فى مقدمة هذه الواجبات ، أداء

الجزية وضيافة المسلمين ، وأداء الخراج . كما كانت هناك حدود رسمتها الحكومة العربية الاسلامية ، وترتبط ببناء الكنائس والدور ، والملابس ، وبمعاملة الذميين للمسلمين ، والطقوس الدينية ، وغير ذلك مما سنتناوله بالبحث والدراسة .

تحدث القرآن الكريم عن الجزية في قوله سبحانه وتعالى :
(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يَحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (٤) ونستخلص من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى ، قد خص أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، بدفع الجزية دون غيرهم من غير المسلمين . وعليه ، كانت أول جزية أخذت في الاسلام ، من أهل نجران وهم نصارى (٥) .

وإذا كان هذا هو أساس أخذ الجزية من اليهود والنصارى فما أساس أخذ الجزية من غيرهم من المجوس والسامرية والصابئة ؟

وفي الواقع أن أخذ الجزية من المجوس ، لم ينص عليه في القرآن الكريم ، وإنما كان سنة ، من سنن النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ يشهد بعض الصحابة أن النبي عليه الصلاة والسلام ، كان يأخذ الجزية من المجوس ؛ وأنه أخذها من مجوسىي هجر (٦) وقال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » (٧) .

كما أجمع الفقهاء والعلماء على أخذ الجزية ، من السامرية والصابئة ، استنادا الى ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم ، مع المجوس ، وتشبيها بهم . لأن المسلمين أو أكثرهم - مع كراهية

ذبائحهم ، ومناكحتهم - يعتبرونهم فى حد المجوس (٨) . وقد روى
عن الأوزاعى أنه قال : « كل دين بعد الاسلام ، سوى اليهود
والنصرانية فهم مجوس ، أحكامهم كأحكامهم » (٩) .

ويقول الماوردى (١٠) ، بشأن أخذ الجزية من المجوس
والسامرية والصابئة : « يجرى المجوس مجراهم (أى مجرى أهل
الكتاب) فى أخذ الجزية منهم ، وإن حرم أكل ذبائحهم ، ونكاح
نسائهم ، وتؤخذ من الصابئين والسامرة ، إذا وافقوا اليهود
والنصارى فى أصل معتقداتهم ، وإن خالفوهم فى فروعهم . ولا تؤخذ
منهم إذا خالفوا اليهود والنصارى فى أصل معتقداتهم . » .

وهكذا يتفق الفقهاء فى أن الجزية حق واجب للمسلمين على أهل
الذمة ، وهم أقل أهل الكتاب ومن فى حكمهم من المجوس والسامرة
والصابئة . وقال أبو يوسف (١١) : « والجزية واجبة على جميع
أهل الذمة فى السواد ، وغيرهم من أهل الحيرة ، وسائر البلدان ،
من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ما خلا نصارى
ينى تغلب » .

والجزية تعنى ، الضريبة المفروضة على رؤوس أهل الذمة ،
واسمها مشتق من الإجزاء ، أما جزاء على كفرهم ، لأخذها منهم
صغاراً ، وأما جزاء على أمان المسلمين لهم ، لأخذها منهم رقفاً (١٢) .
ويقول ابن قيم الجوزية (١٣) أن كلمة جزية ، مشتقة من كلمة
(جزاة ، بمعنى « قضاء ») . وذلك اعتماداً على قوله سبحانه
وتعالى : (لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) . وقد اختلفت الآراء
فى تفسير قوله تعالى : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .
واتفقت جميعها فى أن الجزية وضعت اصغاراً ، واذلالاً ، لأهل
الذمة ، المقيمين فى دار الاسلام ، وليست أجرة مقابل اقامتهم (١٤) .

أما عمن تجب عليهم الجزية ، فقد أجمعت آراء الفقهاء والعلماء ،
على أن الجزية واجبة على الرجال البالغين ، القادرين على العمل دون
النساء والأطفال ، والشيوخ والعاجزين عن الكسب والزهبان إلا إذا
كان لديهم يسار ، يدفعونها منه (١٥) .

بعد دراستنا لفقهاء الجزية ومن يجب عليهم أدائها من غير
المسلمين، نبحت في مقدار الجزية ، وتفاوتها ، بتفاوت ثراء الذميين .
وقد اختلف الفقهاء والعلماء في تحديد مقدار الجزية . فذهب فريق
منهم ، الى أن الجزية ليست قدرا ثابتا على جميع أهل الذمة ، وإنما
هى متروكة لاجتهاد الولاة والأمراء ، وانها تختلف باختلاف الزمان
والمكان (١٦) . فى حين يرى آخرون أن الحد الأدنى للجزية يجب
ألا يقل عن دينار عملا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
حينما فرض على كل بالغ من أهل اليمن دينارا أو ما يعادله من
المعافر ، وأنه لا مكروه فى الزيادة حسب حال الذميين من
اليسار (١٧) .

ويرى فريق ثالث أن الجزية مقدرة على ثلاث درجات ، حسب
حالة الذميين من اليسار أو الفقر . ففرض على الموسرين منهم ،
ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط الحال ، أربعة وعشرون درهما ،
وعلى من دون ذلك ، اثنا عشر درهما (١٨) .

ونحن نرجح الرأى القائل بأن الجزية لم يكن لها حد ثابت ،
وأنها كانت متروكة لاجتهاد الولاة والأمراء . وأن مقدار الجزية
يختلف من مكان الى آخر ، ومن عصر الى عصر آخر ، حسب حالة
البلاد من اليسر أو العسر . فنجد الجزية فى بلاد الشام ، مثلا ،
تختلف فى مقدارها عن الجزية فى البلاد المصرية . كما أن الجزية
تختلف فى مصر من عصر الى عصر آخر ، حسب حالة البلاد من

العسر أو اليسر ، وأيضا حسب سياسة الولاة والأمراء الحكام في
نمصر ازاء أهل الذمة . وسنعرض لذلك بالبحث والدراسة في
الباب الثالث ، الفصل الخاص بدراسة الجزية والخراج وغيرهما
من الضرائب التي يلتزم أهل الذمة بأدائها .

ثم نتساءل ، هل كانت الجزية تدفع نقدا أم عينا ؟ يقول
ابن قيم الجوزية (١٩) : « ولا يتعين في الجزية ذهب ولا فضة ،
بل يجوز أخذها مما يتيسر من أموالهم من ثياب ، وسلاح يعملونه ،
وحديده ونحاس ، ومواش ، وحبوب ، وعروض وغير ذلك » والواقع
أن ذلك كان عملا بما سنه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حينما
قرض على أهل اليمن دينارا ، أو ما يعادله من المعافر أى الثياب .

وكان الحكام المسلمون يلزمون - فى الغالب - سياسة العدل
والرحمة عند جباية الجزية من الذميين ، ويرفقون بهم ، وخاصة
فى فجر الاسلام . وينصح قاضى القضاة أبو يوسف (٢٠) ، بالرفق
بأهل الذمة ، فيقول : « ولا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيذائهم
الجزية ، ولا يقاموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى
أبدانهم شئ من المكارة ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا
ما عليهم ، ولا يخرجون من الحبس ، حتى تستوفى منهم الجزية »
ويزوى عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم انه قال : « من ظلم
معاهدا أو كلفه فوق طاقتة ، فأنا حجيجه » (٢١) . فقد كان النبى
عليه الصلاة والسلام ، يدعو دائما الى الرفق بأهل الذمة ، والتزام
الرحمة معهم ، وعدم تكليفهم ما لا يقدرون عليه أو ظلمهم . وعمل
الخلفاء الراشدون بسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، فنرى الخليفة
عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يوصى بأهل الذمة ، وبحسن
معاملتهم فيقول : « أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ،
أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، ولا يكلفون فوق

طاقتهم ، (٢٢) وكان هذا الخليفة شديد الرفض بالذميين ، يمنع عماله فى الأقاليم الاسلامية من تعذيب أهل الذمة من أجل الجزية أو تكليفهم بما لا يطيقون (٢٣) ، وبلغ به الأمر أنه كان يتصدق على المحتاجين منهم من بيت مال المسلمين (٢٤) .

أما ما تشير اليه بعض المصادر العربية من أن الخليفة عمر ابن الخطاب قد أمر عماله فى العراق ، وفى مصر ، بختم رقاب أهل الذمة (٢٥) . فنرى أن هذه السياسة لم تستمر طوال العصور التاريخية الاسلامية ، والدليل على ذلك ، أن ختم رقاب أهل الذمة فى مصر ، لم يحدث الا فى فترات محدودة ، وهى بعض الفترات التى تعرض فيها الذميون لبعض المضايقات وان الختم أو بمعنى آخر الوسم لم يكن يتم دائما على رقاب أهل الذمة ، وانما كثيرا ما كان يحدث وسم أيديهم ، وخاصة القبط منهم ، كما سنرى عند دراستنا للجزية وغيرها من الضرائب فى الباب التالى .

والواقع أن ختم الرقاب ، كان وقت جباية الجزية فحسب ، فيقول أبو يوسف (٢٦) : « ينبغي أن تختم رقابهم ، فى وقت جباية جزية رؤوسهم ، حتى يفرغ من عرضهم ، ثم تكسر الخواتم » . ومما تجدر الإشارة اليه أن ختم الرقاب عادة بيزنطية ، اقتبسها العرب من الرومان ، وكانوا يقومون بها وقت جباية الضرائب . ومما لا شك فيه أن الهدف من ذلك ، كان سهولة التمييز بين الذين دفعوا الضرائب ، وبين الذين لم يؤدوها (٢٧) .

أما عن موعد أداء الجزية من أهل الذمة ، فقد اختلف العلماء والفهاء فى تحديده . فيرى كل من النسافعى ، وأحمد بن حنبل ، أن الجزية تجب فى آخر الحول (٢٨) . على حين يرى أبو حنيفة أنها تجب فى أول الحول ، وانها تؤدي على أقساط شهرية ، كما يرى

انها من نوع العقوبة ، فاذا اجتمعت على الذمي جزية عنه سنين ،
تداخلت ، كما تتداخل العقوبات واذا أسلم وعليه جزية سنين
سقطت كلها . كما انه اذا مات الذمي قبل اداء الجزية وبعد أول
الحول سقطت عنه (٢٩) .

وهل تسقط الجزية عن الذمي اذا اعتنق الاسلام ؟ كان الذمي
اذا ترك دينه واعتنق الاسلام ، يجب رفع الجزية عنه ، لأنه ليس
هناك جزية على المسلمين الذين يؤدون الزكاة . وقد قال الرسول
صلى الله عليه وسلم : « ليس على مسلم جزية » (٣٠) ويقول مالك :
« الصواب ان يوضع عمن أسلم الجزية ، حين يسلم ، ولو لم يبق
عليه من السنة الا يوم واحد » (٣١) فقد قال تعالى ، في سورة
الأنفال : (قل للذين كفروا ، ان ينتهوا يغفر لهم ، ما قد سلف : »
وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين) (٣٢) وهكذا يرى الامام مالك
اسقاط الجزية عن الذميين عند اسلامهم ، كما تؤكد ذلك الآية
الكريمة ، وأن كل من أسلم ، يغفر الله له كل ما قام به من اثم
وذنب قبل اسلامه .

وتشير المصادر التاريخية الى مدى حرص بعض الخلفاء
المسلمين على تطبيق هذه القواعد ، ومعاينة عمالهم في الأقاليم
المختلفة ، لعدم رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة . ومن هذه
الأقاليم مصر ، وخاصة عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٣٣) .

وأخذ بعض أمراء بنى أمية الجزية من الذميين ، بعد اعتناقهم
الاسلام ، على أساس أنها بمنزلة الضرائب على العبيد ، فلا يسقط
اسلام العبد عنه ضريبته (٣٤) . ويقول ابن قيم الجوزية (٣٥)
- تعليقا على الآراء المختلفة حول هذا الموضوع - ان سقوط الجزية
بالاسلام ، مذهب فقهاء المدينة ، وفقهاء الرأي والحديث ، ما هذا

« الشافعي وأصحابه الذين يذهبون الى أن اسلام الذمي بعد بدء
الحول لا يسقط عنه الجزية ، باعتبارها ديناً يجب عليه الوفاء به .

وفي الحقيقة أن الذمي ، اذا ترك دينه ، واعتنق الاسلام ،
يكون له ما للمسلمين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ،
كقوله تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فإخوانكم
في الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون) (٣٦) . ومن ثم ترفع عنهم
الجزية التي لا يلتزم بها المسلم لأنه يؤدي الزكاة (٣٧) .

أما بالنسبة لأخذ الجزية من الذمي بعد وفاته ، فقد انقسم
العلماء والفقهاء الى فريقين فيذهب فريق - ومنهم الشافعي - الى
أنه اذا مات أحد الذميين ، أخذت الجزية من تركته بقدر الفترة
التي عاشها خلال السنة ، فان مر عليه نصفها ، ولم يؤد الجزية ،
يؤخذ من أمواله نصف الجزية المقررة عليه (٣٨) . بينما يرى
الفريق الآخر - مثل أبي حنيفة - أن الجزية تسقط بموت الذمي ،
لأنها وضعت في الأصل ، اذلالاً ، وصغاراً له ، وهذا الوضع بطبيعة
الحال ينتهي بموته (٣٩) .

كتب حيان بن سريج عامل مصر ، الى الخليفة عمر بن
عبد العزيز ، يسأله أن يجعل جزية الموتى من القبط على أحيائهم .
ويبدو أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، تردد في الموافقة ، فسأل
عراك بن مالك ، عما اذا كان لأهل الذمة في مصر عهد ، فأجابه
عراك بن مالك : « ما سمعت لهم بعقد ولا عهد ، وإنما أخذوا عنوة
بمنزلة العبيد » عند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله بمصر ،
أن يجعل جزية أموات أهل الذمة ، على الأحياء منهم (٤٠) . ولكن
هناك رواية أخرى ، تذكر رأياً مناقضاً ، وتشير الى أن عمر بن
عبد العزيز قال : « ليس على من مات ، ولا من أبقى جزية » بمعنى

أنها لا تؤخذ من ورثته بعد وفاته ، لأنها ليست بمثابة الدين ،
ولا من أهله اذا هرب عنهم ، لأنهم لم يكونوا ضامنين له (٤١) .

ويجدر بنا أن نشير الى تعليق أحد الكتاب القدماء عن اختلاف
الآراء بشأن أخذ الجزية من موتى أهل الذمة ، فنراه يقول : « قل
الآخذون لها ، هي دين وجب عليه في حياته ، فلم يسقط بموته
كديون الأدميين » وقال المسقطون لها : هي عقوبة فتسقط بالموت
كالحدود ولأنها صنغار واذلال ، تزول بزوال محله . وقولهم انها
دين ، فلا تسقط بالموت ، انما تتأتى على أصل من لا يسقطها
بالاسلام ، وأما من أسقطها بالاسلام فلا يصح منه هذا الاستدلال ،
ولا ريب أن الجزية عقوبة وحق عليه ، ففيها أمران : فمن غاب جانب
العقوبة ، أسقطها بالموت ، كما تسقط العقوبة الدنيوية عن الميت ،
ومن غلب فيها جانب الدين لم يسقطها » (٤٢) .

ونعددت الآراء ، في أخذ الجزية من أهل الذمة ، عينية مما
يحوزون من الخمر والخنازير مما يحرمه الاسلام . فبرى البعض
انه يجوز للذمي أن يؤدي ما عليه من الجزية أو الخراج أو الدية
أو الدين وغيره ، من الخمر والخنازير ، وغيره مما يكون محرما في
اعتقادنا (٤٣) . بينما يذهب الفريق الآخر الى انه لا يجوز ذلك
اطلاقا ، وخاصة في دفع ما عليهم من الجزية (٤٤) .

وقد ألزم الذميون الى جانب الجزية ، بضيافة المسلمين وأرزاقهم .
وقد اختلفت الآراء أيضا حول ذلك . فمنهم من قال : انه على الذمي ،
ضيافة المسلم يوما واحدا ، ومنهم من ذهب الى ضيافة المسلم ثلاثة
أيام (٤٥) . بينما يقول الشافعي : انه لا يعلم يقينا ، من جعل
عليه عمر بن الخطاب الضيافة ثلاثة أيام ، ولا من جعل عليه يوما
وليلة ، ولا من جعل عليه الجزية ولم يفرض عليه ضيافة (٤٦) .

ونلمس من دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ،
أن عمرو بن العاص لما صالح المقوقس ، بعد استيلاء العرب على حصن
بابلليون ، اشترط على القبط ، ضيافة المسلمين ثلاثة أيام . فقد
جاء فى صلحهم : « على أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم ، حيث
نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين ، أو أكثر من
ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم » (٤٧) .

ويجدر بنا الإشارة الى كيفية أداء الذمى للجزية ، كما تصوره
بعض الروايات . فكان المحتسب يصاحب العامل المختص بجمالية
الجزية ، فيحضر الذمى بين يديه ، ثم يلطمه بيده على صفحة عنقه
ويقول له : « أد الجزية يا كافر » ويخرج الذمى يده من جيبه ،
وهى مطبوقة على الجزية فيعطيها له بذلة وانكسار « (٤٨) » .

وتذهب بعض الروايات الى أنه ، كان يجب على جابى الجزية
ألا يستعمل العنف ، أو الصرب فى جمعها من أهل الذمة ، وألا يضطر
الذمى الى بيع ما يملك من الماشية والدواب والأغنام وغيرها ،
لسداد ما عليه من جزية . وكان الأمر يقضى أن يكون الذمى واقفا ،
وقت أداء الجزية ، أما الجابى لها فيكون جالسا . وعليه أن يشعر
الذمى بأنه شخص حقير حين يدفعها وانه لا يقابل بالاحترام (٤٩) .

وتذكر بعض الروايات الأخرى ، « أنه كان يتعين على الذمى
— يهوديا كان أم نصرانيا — أن يذهب بسخصه فى يوم معين ، الى
الأمير المخول حق تسلم الجزية . ثم ينصب الأمير عرشا ، مرتفعا ،
يجلس عليه ، ويمثل أمامه الذمى . ويقدم اليه الجزية على كفه
وهى مبسوطة ، ويتناولها الأمير ، بصورة ، تكون يد الأمير فيها
هى العليا ويد الذمى هى السفلى . وحينذاك يصفعه الأمير على عنقه ،
ثم يخرج الشخص ، الواقف أمام الأمير فى غلظة . . وكانت العامة
تدعى لمشاهدة هذا المنظر » (٥٠) .

ونحن نرى فى ذلك مبالغة واضحة فى تصوير اذلال أهل الذمة ،
ومدى ما تعرضوا له من اهانة فى العصور الإسلامية . إذ إننا لم
نلاحظ خلال دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية - من
الفتح العربى الى سقوط الدولة الفاطمية - ما يؤكد ذلك ، أو حتى
يشير اليه من قريب أو بعيد . وعليه فمن العسير ، ان نسلم بما
جاء فى هذه الروايات - فى مصر الإسلامية وخاصة إذا تذكرنا ،
ان جباة الجزية ، كانوا فى الغالب - من الذميين وخاصة القبط ،
فلا يعقل ، ان يلحق الذمى ، مثل هذه الاهانات ، باخوانه الذميين
مهما كان الأمر .

أما الخراج ، فهو الضريبة التى يدفعها أهل الذمة للمسلمين ،
عن أرضهم . ويقول الماوردى (٥١) : الخراج هو ما وضع على رقاب
الأرض من حقوق تؤدى عنه . وانه يعتمد على اجتهاد الامام
أو الوالى . قال الله تعالى : (أم تسألهم خراجا ، فخراج ربك خير) .

ويقول الشافعى (٥٢) فى تعريف الخراج : انه كراء الأرض ،
وليس فيه صغار ولا ذلة أهل الذمة كالجزية . وهناك أمور تتفق فيها
الجزية مع الخراج ، وأمور أخرى تختلف فيها . فنجد أن الجزية
تتفق مع الخراج فى أنها تؤخذ من غير المسلمين ، صغارا لهم ،
واذلالا ، وأنهما يصرفان فى أهل ألفىء ، وأنهما يجبيان ، مرة فى
كل سنة (٥٣) . ويرى بعض العلماء : أنهما يسقطان بالإسلام (٥٤) ،
بينما يرى آخرون ان الجزية تسقط بالإسلام ، بينما الخراج يؤخذ
فى جميع الأحوال . ومن وجوه الاختلاف أيضا أن الجزية نص ، وأن
الخراج اجتهاد ، وأن أقل الجزية ، مقدر بالشرع ، وأكثرها مقدر
بالاجتهاد . وأما الخراج ، فأقله وأكثره ، مقدر بالاجتهاد (٥٥) .

ولما كان الخراج ضريبة عينية أو نقدية ، على الأرض التى
يبد أهل الذمة ، يجدر بنا أن نشير الى أحكام الأرض المختلفة فى
الإسلام . وقد اختلف العلماء فى ذلك ، فمنهم من يقسمها الى أربعة

أو ستة أنواع ، لكل نوع حكمه المستقل به . أما التقسيم الرباعي ، فيشمل الأرض التي أحيائها المسلمون ، وهذه لا خراج عليها ، وإنما هي أرض عشر . والأرض التي يعتنق أصحابها الاسلام ، وبدون أرض عشر ، لا يجوز أن يوضع عليها الخراج . والأرض التي يستولي عليها المسلمون عنوة وقهرا . وفيها اختلف الفقهاء ، يقول الشافعي أنها غنيمة تقسم بين المسلمين ، وتكون أرض عشر لا خراج عليها . بينما جعلها مالك وقفا على المسلمين ، بخراج يوضع عليها . أما أبو حنيفة ، فقد جعل للامام الخيار في تعيين أحد الأمرين . والأرض التي صولح المشركون عليها بوضع الخراج ، وهي نوعان : أحدهما ما تركه أصحابه ، فخلص للمسلمين دون قتال ، فتصير الأرض وقفا على مصالح المسلمين ويضرب عليها الخراج كالأجرة الى الأبد ، والآخر الأرض التي أقام فيها أصحابها وصالحوا المسلمين ، على خراج يؤدونه ، وهي صنفان أيضا : الأول أن يتنازل أصحابها عنها للمسلمين فتصير وقفا على مصالحهم ، وخراجها أجرة لا تسقط باسلامهم . والثاني أن يحتفظ أصحابها بها ويصالحوا عنها المسلمين ، بخراج يوضع عليها ، وهذا الخراج يسقط باسلامهم ويجوز لهم بيعها (٥٦) .

أما التقسيم الثاني للأرض وأحكامها فيتفق مع الأول في الأنواع الثلاثة الأولى ، أما النوع الرابع من الأرض ، فيقسمه هؤلاء ثلاثة أقسام ، لكل قسم حكمه : الأول ما صولح عليه المشركون من أرضهم ، على أن تظل في أيديهم ، مقابل خراج يضرب على الأرض ، ويسقط باسلامهم ، ولهم الحق في بيع هذه الأرض ، والتصرف فيها كيفما شاءوا . والثاني . أرض جلا عنها أصحابها ، فخلصت للمسلمين بغير قتال ، وحكمها حكم الأرض العنوة ، ويكون عليها الخراج ولا يسقط بالاسلام . والثالث ، أرض صالحهم المسلمون عليها ، وتقر في أيديهم بالخراج ، وحكمها حكم العنوة (٥٧) .

ونحن نرى أنه فى الحقيقة أن التقسيم الثانى هو نفس التقسيم الأول ، مع اختلاف فى الشكل ، فمنهم من جعل أقسام الأرض الرئيسية أربعة الى جانب تصنيف داخل هذه الأقسام ، بينما الفريق الآخر ، جعلها جميعا أقساما رئيسية لكل منها حكمها المستقل .

وفى الواقع ان مقدار الخراج ، المفروض على أهل الذمة - على أرضهم - كان يختلف من جهة الى أخرى ، كما أنه قد يكون نقدا ، وقد يكون عينا . وكان أول من وضع الخراج فى الاسلام عمر بن الخطاب . يقول الماوردى (٥٨) : « أول من مسح السواد ، ووضع الخراج ، وحدد الحدود ، ووضع الدواوين ، وراعى ما تحتمله الأرض من غير حيف بمالك ، ولا اجحاف براع ، وأخذ كل من جريب قفيزا ودرهما » .

وهناك أمور يجب أن تراعى عند تقدير الخراج ، منها جودة التربة الزراعية أو رداءتها ومنها أنواع الزرع من الحبوب والثمار حيث تختلف أسعارها . والأمور الثالث ، الطريقة التى تروى بها الأرض (٥٩) . ومما لا شك فيه ، أن ذلك كله له علاقة بتقدير قيمة الخراج الواجب على أصحاب هذه الأرض ، وانه ينتج عن ذلك اختلاف مقدار الخراج من بلد الى آخر ، وفى البلد الواحد من جهة الى أخرى . ومن الأمور التى يجب أن تكون فى الاعتبار عند تقدير الخراج ، هو قرب الأرض المفروض عليها الخراج من البلدان والأسواق أو بعدها ، مما يؤثر فى زيادة أثمان المحصولات أو نقصانها (٦٠) .

وتكون جباية الخراج على أسس ثلاثة ، اما مساحة الأرض واما مساحة الزرع ، واما مقاسمة . وفى الحالة الأولى يؤخذ الخراج

طبقا للمسلمين الهلالية ، وفي الحالة الثانية ، وفقا للمسلمين الشيعة .

أما في الحالة الثالثة فيكون الخراج بتمام الزرع (٦١) .

ويختلف مقدار الخراج ، اذا ضعفت الأرض ، وتأثرت
الحاصلات الزراعية بضعفها ، ويرى العلماء في ذلك رأيين : أما أن
يكون ضعف الأرض ناتجا عن إهمال لها ، وهم قادرون على
إصلاحها ، وفي هذه الحالة لا يسقط الخراج عن الأرض ، ويلتزم
القائمون عليها بدفع ما عليهم من الخراج . وأما أن يكون ذلك
الضعف ناتجا عن أسباب خارجة عن إرادة أصحابها ، كأنقطاع
الماء ، أو اجلاء العدو لهم عن أرضهم ، أو جور العمال ، وظلمهم لهم ،
أو تخريب الأمطار والسيول للأرض . وفي هذه الحالة يسقط
الخراج عن الأرض ، حتى تعود إلى حالتها الأولى ، ويتمكن أصحابها
من الانتفاع بها ، وعند ذلك يلتزمون بما عليهم من خراج (٦٢) .

أما خراج الأرض التي تزرع ، مرة واحدة كل عامين ، فكان
على العمال مراعاة حالها ، عند وضع الخراج منذ بداية الأمر . فعلى
أولى الأمر اختيار أمر من أمور ثلاثة : أما أخذ الخراج عن هذه
الأرض ، أسوة بغيرها ، فيؤخذ عنها الخراج عن المزرع والمتروك .
وأما أن يمسح كل جريبين منهما بجريب ، ليكون أحدهما للمزرع ،
والآخر للمتروك ، وأما أن يضعه بكماله على مساحة المزرع
والمتروك ، ويستوفي من أربابه الشطر من زراعة أرضهم (٦٣) .

ونلمس في هذه السياسة عدالة الاسلام ، وتساهل أحكامه ،
وعدم اجحافها ، بأهل الذمة . وقد أجمعت الآراء ، على أن أرض
الخراج لا تصير أرض عشر ، كما أن الأرض العشر لا تنتقل إلى أرض
الخراج (٦٤) . لأن لكل منهما أحكامه ، وظروف زراعته ، ويستمر
الخراج على الأرض في حالة بناء أصحابها فيها الدور

والحوانيت (٦٥) . وفى حالة ايجار الأرض ، أما فى حالة الاعارة ،
فيمكن أن يكون الخراج على المستعير للأرض (٦٦) .

ويشترط فى عامل الخراج ، الحرية والأمانة والكفاية ، وإذا
تولى وضع الخراج يشترط الى جانب ذلك أن يكون فقيها ، أما اذا
ولى جباية الخراج فقط فلا يجب مراعاة ذلك . ويأخذ عامل الخراج
راتبه من مال الخراج ، كما هو الحال بالنسبة لعامل الصدقة .
وكذلك أجور مساح الأرض . أما أجرة القسام ، فقد اختلف
بشأنها الفقهاء والعلماء . فمنهم من يرى أنها حق على السلطان ،
يجب عليه أن يدفعها مما يستوفيه من الأموال . بينما يقول
آخرون ، ان أجور من يقسم غلة العشر ، وغلة الخراج وسط من
أصل الكيل ، أى تؤخذ من غلة أو مال الخراج (٦٧) . ولما كان
الخراج حقا معلوما ، على مساحة معلومة ، اعتبر فيه ثلاثة مقادير :
مقدار الجريب بالذراع المسموح به ، ومقدار الدرهم المأخوذ به
ومقدار الكيل المستوفى به (٦٨) .

اتفق الفقهاء والعلماء ، على كراهية شراء أرض الخراج من
أهل الذمة . فيقول أبو عبيد (٦٩) : « تتابعث الآثار ، بالكراهة
لشراء أرض الخراج ، وانما كرهها الكارهون من جهتين : احدهما
أنها فىء للمسلمين ، والأخرى أن الخراج صغار » وقد أثر عن
الخليفة عمر بن الخطاب أنه أمر بذلك فقال : « لا تشتروا رقيق
أهل الذمة ، فانهم أهل خراج ، وأرضوهم فلا تبتاعوها ، ولا يقرن
أحدكم بالصغار ، بعد اذ نجاه الله منه » (٧٠) .

بينما اختلف الفقهاء فى حكم أرض العشر اذا اشتراها
الذمى ، وهى الأرض التى يمتلكها المسلمون ، ويؤدون عنها العشر
صدقة . فهل يدفع الذمى العشر أيضا ؟ أم يدفع خراجها عنها ؟

يرى بعض الفقهاء أن الذمي - في حالة شرائه أرض العشر - لا يدفع صدقة لأن الصدقة على المسلمين ، زكاة لأموالهم ، وتطهيراً لنفوسهم .
وانه يجب إلزامه ببيعها لأنه في هذه الحالة ، إبطال للصدقة .
بينما يرى آخرون ، أنه يجوز شراء الذمي أرض العشر دون إلزامه بدفع الخراج أو العشر . ويذهب فريق ثالث إلى أنه إذا اشترى الذمي أرض العشر ، فعليه أن يدفع عنها خراجاً (٧١) .

كان من بين الواجبات المادية أيضاً على أهل الذمة ، التي يؤدونها للمسلمين العشر في تجاراتهم . وأول من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب ، فجعل على تجارة المسلمين ربع العشر ، أي درهما من كل أربعين درهما . بينما جعل على تجارة أهل الذمة نصف العشر ، أي درهما من كل عشرين درهما ومن لا ذمة له ، أي المحاربين ، فجعل على تجاراتهم العشر ، أي درهما عن كل عشرة دراهم (٧٢) . ويكون أداء هذه الضرائب مرة واحدة في كل سنة - كالجزية والخراج والزكاة ، مهما تعددت مرات مرور الذمي على المكان الذي يوجد فيه العاشر (٧٣) . ومتى أخذ منهم مرة ، كتب لهم حجة بأدائهم ، لتكون وثيقة لهم ، وحجة على من يمرون به ، فلا يعشرهم مرة ثانية ، وإن مر ثانية بأكثر من المال الذي أخذ منه ، أخذ من الزيادة وحدها ، لأنها لم تعشر (٧٤) وسنتحدث عن الخراج والعشر ، المفروضين على أهل الذمة في مصر في الباب التالي عند دراستنا لدور أهل الذمة في الحياة الاقتصادية في مصر .

ومن الأحكام الخاصة بأهل الذمة ، السماح لهم بالاقامة في سائر أرجاء العالم الإسلامي عدا البلاد المقدسة - أي مكة والمدينة . وقد نص القرآن الكريم على ذلك وأشارت إليه الأحاديث النبوية . قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا

المسجد الحرام ٠٠) (٧٥) ٠ وقال الرسول عليه الصلاة والسلام :
« لا ينبغي لمسلم أن يؤدي الحراج ، ولا لمشرك أن يدخل الحرم » (٧٦) ٠

أما بخصوص أحكام الكنائس والصلبان وما يرتبط بالشئون الدينية لأهل الذمة ، فيشير أبو يوسف (٧٧) الى أن الصلح كان بين المسلمين وأهل الذمة على أداء الجزية ، وعلى ألا تهدم البيع والكنائس ، القائمة في المدن وخارجها ٠ كما اشترط عليهم ألا يحدثوا ببناء بيعة أو كنيسة ٠ وكانت هذه السياسة عملاً ، بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ فقد أثر عنه أنه أوصى بعدم بناء كنائس وبيع في الاسلام ، أو تجديد ما تهدم منها أو أصابه تخريب ٠٠ وله صلى الله عليه وسلم في ذلك بعض الأحاديث ، نذكر منها : « لا خصاء في الاسلام ولا كنيسة » (٧٨) ٠ وأيضاً « لا تبني بيعة في الاسلام ، ولا يجدد ما خرب منها » (٧٩) ٠

أمر الخليفة عمر بن الخطاب بهدم ما عمر من الكنائس بعد الاسلام ، وإن يمنع أهل الذمة من أحداث الكنائس والبيع واظهار الصلبان خارج الكنيسة ٠ وشدد في ذلك الخليفة الأموي ، عمر ابن عبد العزيز ، الذي أمر بالآلا يترك في دار الاسلام ببيعة ولا كنيسة « بحال قديمة ولا جديدة » وكتب الى مختلف الأمصار « أن امنعوا النصارى من رفع أصواتهم في كنائسهم ، فانها أبغض الأصوات الى الله تعالى ، وأولاها أن تخفض » (٨٠) ، ويجمع العلماء والفقهاء على أنه لا يجوز أحداث كنيسة ، ولا بيعة في المدن والأمصار بدار الاسلام (٨١) ٠

وفي الواقع كان هناك اختلاف بين أحكام أهل الذمة بشأن الكنائس في المدن التي أنشأها المسلمون ، عنها في المدن التي فتحوها صلحاً أو عنوة ٠ وتتفق الآراء في أنه لا يجوز أحداث

كنيسة في المدن ، التي أنشأها المسلمون بعد الفتوحات كالبصرة والكوفة والفسطاط ، وبغداد والقاهرة . كما لا يجوز ذلك في بلاد أسلم أهلها كالمدينة ومكة واليمن . وأيضا لا يجوز ذلك في البلاد التي فتحت عنوة ، أما البلاد والمدن التي فتحت صلحا ، فيجوز فيها أحداث الكنائس ، والابقاء على القديم منها ، وذلك تبعا لما ينص عليه في العهد الذي عقد بين المسلمين وأهل الذمة (٨٢) وفي ذلك تقول بعض الروايات : « أى مصر ، مصرته العرب ، فليس لهم أن يحدثوا فيه بناء بيعة ولا كنيسة ، ولا يضربوا فيه بناقوس ، ولا يظهروا فيه خمر ، ولا يتخذوا فيه خنزيرا ، وكل مصر كانت العجم مصرته ، ففتح الله على العرب ، فنزلوا على حكمهم ، فلم يعجم ما فى عهدهم ، وعلى العرب أن يوفوا لهم بذلك » (٨٣) .

أما بالنسبة للكنائس والأديرة ، وما يرتبط بها من طقوس دينية ، فى مصر ، فقد جاء ، فى عهد عمرو بن العاص ، لأهل مصر - أى صلح بابليون ، وصلاح الاسكندرية - ان لأهل الذمة ، الأمان على كنائسهم والتعهد بعدم تدخل المسلمين فى شئونهم الدينية (٨٤) . ونلاحظ أنه لم يكن فى هذه العهود ، ما يشير الى هدم الكنائس الموجودة ، أو عدم جواز أحداث كنائس وأديرة جديدة بالبلاد المصرية . ومن ثم نجد أن أحداث بناء الكنائس والأديرة أو هدمها ، يختلف من عصر الى آخر . وفى الحقيقة لم يتعرض الذميون لهدم كنائسهم وأديرتهم الا فى فترات محدودة . وهى تلك الفترات التى اشتد فيها الحكم على أهل الذمة ، وتشددوا فى تطبيق الأحكام الاسلامية ، كما رأينا فى دراستنا للباب الأول .

ونلمس من دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، أنه قد بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى ، كما جددت كنائس أخرى ، وشهدنا ذلك منذ فجر الاسلام فى مصر فقد بنيت كنيسة

مارى مرقص بالاسكندرية ، فى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر - فى عهد الخليفة الأموى ، معاوية بن أبى سفيان (٨٥) .
وفى بطركية الأب أغاثو (٤١ - ٥٨ هـ = ٦٦١ - ٦٧٧ م) عمرت كنيسة أبى مقار ، كما بنيت كثير من القلالي بوادى هيب (٨٦) .

وبنيت أول كنيسة فى مدينة القسطنطينية الإسلامية - التى أسسها عمرو بن العاص عقب الفتح العربى لمصر فى ولاية مسلمة ابن مخلد (٨٧) (٤٧ - ٦٢ هـ = ٦٦٧ - ٦٨٢ م) فى حارة الروم (٨٨) .

وقد ذكرنا فى الفصل الثانى من الباب الأول ، ان القبط اليعاقة والملكانيين ، كانوا يشغلون مكانة عظيمة ، فى ولاية عبد العزيز بن مروان . فكان يقربهم اليه ويعمل على تحقيق رغباتهم ، وأذن لهم ببناء عدة كنائس فى العاصمة الإسلامية ، القسطنطينية ، وحلوان ، وهى مدينته الجديدة . وبذلك تمكن بعض الأساقفة فى ذلك العصر ، وفى بطركية الأب اسحق والأب سيمون ، من بناء بعض الأديرة فى مدينة حلوان ، وكان يشرف على بنائها الأسقف اغريغوريوس (٨٩) . كما سمح الأمير عبد العزيز بن مروان ، لكاتبه القبطى ، اثناسيوس ببناء كنيسة فى قصر الشمع ، سماها كنيسة مار جرجس ، كما أقام كنيسة أخرى أيضا ، سماها كنيسة أبى قير (٩٠) .

ولم يقتصر تسامح والى مصر ، عبد العزيز بن مروان ، فى بناء الكنائس الجديدة على القبط اليعاقة فحسب ، بل سمح أيضا للملكانيين بذلك ، فبنى حرسه الملكانيون ، كنيسة مار جرجس ، « وكانت هذه البيعة ، لطيفة وتعرف ، بكنيسة الفراشين » (٩١) .

ويذكر كاترمير (٩٢) أن عبد العزيز بن مروان ، كان يقرب
المسيحيين اليه ، وبنى فى مدينته الكنائس والأديرة .

أذن والى مصر الوليد بن رفاعه - فى عهد الخليفة هشام بن
عبد الملك - فى سنة ١٠٦ هـ ، للقبط باعادة بناء دير الشهيد أبى
مينا بـخط الحمراء (٩٣) - بظاهر القسطنطينية - لأنهم شكوا اليه
ما يتعرض له نساؤهم ، وأطفالهم ، عندما يمضون الى الكنائس
بداخل مصر - ذهابا وإيابا - من قبل المسلمين ، وخاصة فى أيام
صوم الأربعين (٩٤) ولهذا السبب قتل كثير من العرب ، وأذن للقبط
بتجديد بعض كنائسهم بـخط الحمراء ، الى جانب كنيسة أبى مينا ،
ومنها كنيسة مار جرجس وكنيسة أبى يحنس وغيرها (٩٥) .

وهكذا شهد عصر الولاة الأمويين ، بناء كثير من الكنائس
للقبط اليعاقبة والملكانيين على حد سواء ، واستمرت هذه السياسة
فى معظم فترات عصر الولاة العباسيين عدا بعض الفترات المحدودة ،
والتي كانت لا تلبث أن يعقبها فترة يسودها تعمير الكنائس ،
واستحداثها . وفى خلافة هارون الرشيد . كان على بن سليمان
(١٦٩ - ١٧٠ هـ = ٧٨٥ - ٧٨٦ م) ينولى امانة مصر ، وكان
يغض القبط ، فأمر بهدم جميع الكنائس المستحدثة ، ومنها كنيسة
القديسة مريم ، وكنائس معرس قسطنطين . وحاول القبط اغراءه
بالأموال ، حتى يعدل عن رغبته هذه ، فقدموا له خمسين ألف دينار ،
ولكنه رفض ذلك ، وأصر على موقفه (٩٦) .

وفى الحقيقة ، أن هذا الموقف من جانب ولاية مصر فى ذلك
العصر ، لم يستمر طويلا فلما ولى مصر ، موسى بن عيسى (١٧١ -
١٧٢ هـ = ٧٨٧ - ٧٨٨ م) رفع من شأن القبط اذ كان يعطف
كثيرا على القبط وكنائسهم ، فأذن لهم باعادة بناء الكنائس التى

هدمها سلفه على بن سليمان واستنشار في ذلك فقهاء مصر ، وخاصة ،
الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة ، فأجازا له ذلك ، وقالوا :
إن بناء الكنائس هو من أعمال عمارة البلاد ، وإن كل كنائس مصر
لم تبني إلا في الإسلام في عصر الصحابة والتابعين (٩٧) .

وكان يعمل في خدمة المأمون ، عندما قدم الى مصر في سنة
٢١٧ هـ ، فراشون من المسيحيين الملكانيين ، وكانت الكنائس التي
في داخل العاصمة الاسلامية ، تبعد عنهم كثيرا ، ولذلك استأذنوا
الخليفة العباسي المأمون في تجديد بناء كنيسة السيدة مريم على
جبل المقطم بالقرب من قبة الهواء (٩٨) ، حتى يتمكنوا من أداء
صلواتهم ، ومباشرة طقوسهم الدينية . وقد اشتهرت هذه الكنيسة
باسم كنيسة الفراشين - على غرار كنيسة الفراشين في مدينة
حلوان في ولاية عبد العزيز بن مروان - ثم عرفت بعد ذلك باسم
كنيسة الروم (٩٩) . وفي ذلك العصر أيضا ، أقام بكام القبطي
- والى كورة بورة - كثيرا من الكنائس التي اشتهرت بروعة البناء
وجمال الشكل (١٠٠) .

وكان عصر الخليفة المتوكل (٢٣٣ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٨ -
٨٦١ م) أشد العصور تضيقا على أهل الذمة . فقد أمر عماله في
مختلف أنحاء الدولة الاسلامية بهدم جميع الكنائس والبيع
المستحدثة في الاسلام ، كما نهى عن استحداث كنائس
جديدة (١٠١) . ومما لاشك فيه أن هدم الكنائس أو السماح
ببنائها ، كان يختلف من حاكم الى آخر ، وأنهم لم يتبعوا جميعا مبدأ
واحدا . ويمكننا أن نقول ، أن بناء الكنائس الجديدة ، أو تجديد
ما أصابه التخريب ، استمر طوال العصور الاسلامية في مصر ،
مهما صادف ذلك من صعوبات ، والتي كانت سرعان ما تزول ،
ويعقبها فترة هدوء وسلام للذميين . فعصر المتوكل سرعان ما أعقبه

عصر الخلفاء ، وولاة اشتهروا بالسماحة ازاء أهل الذمة ، فقد
أذنوا لهم بتجديد كنائسهم أو استحداث كنائس جديدة .

ويذكر ترتون (١٠٢) أنه لم يكن أمر المتوكل ، القاضي
بتحريم استحداث الكنائس، ختام تلك السياسة ، فقد كان الناس،
ينفذونها أحيانا ، ويتغفلون عنها أحيانا أخرى . كما ان العامة
طالما قامت بأخذ الأمر في يدها ، ذلك أنه قد حدث لما هدمت
الكنيسة التي في خارج حصن تنيس في سنة ٢٣١ هـ ، وتسمى
كنيسة أبى ثور ، أن أعاد القبط بناء الكنيسة في داخل المدينة ،
ولكن ما كاد بناؤها يتشرف على النهاية ، حتى أضرم المسلمون فيها
النار وهدموها ، فاستعان القبط بأولي الأمر في المدينة ، حتى
أكملوا البناء (١٠٣) .

والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها ، ان بناء الكنائس وتعميرها
أو هدمها وتخريبها من الأمور التي لم يكن للمسلمين فيها سياسة
واضحة ، كما لمسنا في دراستنا لتاريخ أهل الذمة في مصر
الاسلامية . فكان يسمح للقبط في بعض الأحيان ، ببناء كنائس
جديدة، وأحيانا أخرى كانوا يمنعون من اصلاح الكنائس القديمة .
ففي عهد الاخشيد ، انهدم جزء من كنيسة أبى شنودة في سنة
٣٢٦ هـ ، وأراد القبط عمارتها ، وبذلوا له في سبيل ذلك كثيرا
من الأموال والهدايا . ولكن الاخشيد رأى انه من الأفضل أخذ رأى
الفقهاء في هذا الأمر (١٠٤) .

أشار بعض الفقهاء آنذاك ، بآلا تعمر الكنيسة المذكورة ، ومن
هؤلاء أبو بكر بن الحداد ، بينما رأى فريق آخر أن للقبط الحق في
تعميرها ، وترميم ما تهدم منها . ومنهم محمد بن على الذى ثار عليه
المسلمون ، عندما سمعوا رأيه في هذا الشأن، وأرادوا قتله واحراق.

داره ، وثار عامة المسلمين لذلك ، وأحاطوا بالكنيسة • فلما بلغ الاخشيده هذه الأخبار ، بعث بالجند لتهدة الحال • ثم أمر بمعاينة حالة الكنيسة ، واذا كان من الممكن أن تظل قائمة على حالتها أو تهدم (١٠٥) • وانتهى الأمر بابقاء الكنيسة على حالتها ، دون تعمير أو ترميم ، حتى جددت فى سنة ٣٦٦ هـ (١٠٦) •

أما عصر الدولة الفاطمية ، فقد شهد عمارة واسعة للكنائس والأديرة ، باستثناء فترات محدودة ، تعرضت فيها الكنائس والبيع للهدم والتخريب • ففي خلافة المعز لدين الله تمكن القبط من بناء كثير من الكنائس وتعميرها • اذ كتب المعز للبطررك أنبا افراهام السريانى سجلا يخلول له بناء كنيسة أبى مرقورة التى كانت قد هدمت قبل ذلك ، وصارت شونة للقصب ، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع ، كما أطلق المعز للبطررك أموالا من بيت المال ، مساعدا له فى بناء هذه الكنائس ، الا أن البطررك رد الأموال للخليفة ، واكتفى بأخذ السجل الذى يحق له بناء هذه الكنائس (١٠٧) •

ولكن عامة المسلمين تعرضوا للبطررك عند بنائه كنيسة أبى مرقورة ، وحاولوا أن يحولوا بينه وبين هذا البناء • وعند ذلك تقدم البطررك بشكواه منهم للخليفة المعز الذى تولى بنفسه مباشرة البناء ، وصحب معه فرقة من الجند ، الى جانب استدعائه البنائين من كل مكان • وتعهدهم له بالحماية • ولم يجسر أحد من المسلمين بعد ذلك على الاعتراض • وكمل بناء هذه البيعة ، وأيضا الكنيسة المعلقة بقصر الشمع • كما قام البطررك بتعمير كافة الكنائس التى تحتاج الى العمارة دون أن يتعرض له أحد • الى جانب تعمير عدة كنائس فى مواضع مختلفة بالاسكندرية ، وأنفق البطررك فى ذلك أموالا كثيرة (١٠٨) • ومن الكنائس التى جدها أنباء أفراهام ،

كنيسة أبى سيفين فى الفسطاط فى خلافة العزيز بالله
الفاطمى (١٠٩) .

وقد تعرض أهل الذمة جميعا ، لكثير من المضايقات فى خلافة
الحاكم بأمر الله . فقد أمر بهدم جميع البيع والكنائس ، فى جميع
أنحاء الأقاليم المصرية ، والاستيلاء على جميع ما فيها من الأواني
الذهبية والفضية ، وحول الكثير منها الى مساجد المسلمين (١١٠) .
وقد تساوى فى ذلك القبط واليهود على حد سواء . ولكن عاد الحاكم
بعد ذلك ، وأذن لأهل الذمة ، باعادة بناء كنائسهم وتعميرها . وكتب
لهم سجلا بذلك ، وأمر أيضا باعادة ما أخذ من هذه الكنائس من
الذهب والفضة والأخشاب والعمد والرخام وغيرها (١١١) .
واستمرت عملية ترميم الكنائس وتعميرها فى خلافة الظاهر
لاعزاز دين الله ، دون اعتراض أحد من الحكام والعوام ، حتى
أعيدت الكنائس الى ما كانت عليه وأفضل (١١٢) .

وفى خلافة المستنصر ، بنيت كنائس كثيرة ، الى جانب ترميم
بعض الكنائس الموجودة وتجديدها . فى سنة ٤٢٩ هـ ، بنى البطرك
الملكانى سطوديس فى القاهرة ، كنيسة مرقورة ، وكنيسة السيدة
بحارة الروم ، كما أعيد ترميم كنيسة جرجيس بخط الحمراء ، وقد
حاول المسلمون منع ذلك ، الا أنهم تمكنوا من اتمام البناء (١١٣) .

كذلك تمكن كاتب سر الخليفة المستنصر، ووزيره أبو السرور
يوحنا بن الأيخ من الحصول على سجل يحق له بناء بعض الكنائس ،
وعقوبة من يتعرض له من المسلمين فبنى كنيسة بربرية
وسرجيوس (١١٤) .

وجدت كنائس وأديرة كثيرة فى خلافة الأمر ، الذى
استخدم القبط فى حكومته على نطاق واسع ، فارتفع شأنهم ،

مما عزز جانبهم ، فأخذوا فى تجديد كنائسهم ، وتعمير أديرتهم ،
ونذكر من ذلك دير النسطور ، ويسمى دير القديس ماري جرجس ،
حتى صار من المتنزهات المشهورة فى ذلك العصر (١١٥) . كذلك
بيعة المرتوتى على اسم السيدة العذراء ، التى أصابها التدمير والتخريب
فعنى بتجديده عمارتها الشيخ أبو اليمن وزير ، متولى ديوان مصر
السفلى ، وجعل لها بستانا حسنا وزودها بمختلف الأواني اللازمة
للتقديم القربان والبخور ، وكل ما تحتاج اليه البيعة (١١٦) . كما
جدد أبو اليمن بيعة أبى قدامة ، وكان ذلك العمل بدون الحصول
على اذن من الخليفة ووزيره الأفضل شاهنشاه الذى أمر بهدمها ،
وتحويلها الى مسجد فى سنة ٤٩٠ هـ (١١٧) . وجدد أيضا دير
طموية ، الذى كان يأنس اليه الأفضل كثيرا ، وكان له بستان عظيم
زوده بجميع أنواع الأشجار والنخيل (١١٨) .

وكان يوجد فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، الى جانب
القبط اليعاقبة والملكانيين جماعة من الأرمن المسيحيين ، الذين
دخلوا مصر منذ خلافة المستنصر ووزيره بدر الجمالى ، وكثر عددهم
وعظم شأنهم فى خلافة الحافظ ، الذى استوزر بهرام الأرمنى .
وقد تمكنت هذه الطائفة من بناء عدة كنائس فى وزارة الجمالى ،
وخاصة عندما قدم مصر زائرا ، بطرك أرمينيا أغريغوريوس الثانى
Gregory (١١٩) . وفى خلافة الحافظ ووزارة بهرام الأرمنى :
بلغ عدد الأرمن فى مصر حوالى ثلاثين ألفا وكثر بناؤهم للكنائس
والأديرة حتى « صار كل رئيس من أهله - أى من أهل بهرام -
يبنى له كنيسة » (١٢٠) .

أما بالنسبة لمعابد اليهود فلا نجد الا اشارات طفيفة فى
المصادر التاريخية القديمة والحديثة ، العربية والافرنجية ، ولعل

ذلك راجع الى قلة عددهم فى مصر بالنسبة لعدد القبط اليعاقبة والملكانيين الذين كان لهم أهميتهم فى المجتمع المصرى ومن هم جذبوا ، انظار الكتاب منذ فجر الاسلام فى مصر للكتابة عنهم . ويشير المقرئى الى كنائس اليهود فى مصر الاسلامية وبعضها كان قديما ، وبعضها كان مستخدما فى العصر الاسلامى وخاصة الموجود منها فى القاهرة (١٢١) . ويبدو أن كنائس اليهود لم تتعرض لما تعرضت له كنائس وأديرة القبط من الهدم والتخريب ، اللهم الا فى عصر الحاكم بأمر الله فى سنة ١٠١٢ م (١٢٢) .

والحقيقة أن أهل الذمة فى مصر قد تمتعوا بحرية كاملة فى القيام بطقوسهم الدينية اللهم الا فى فترات محدودة ، وهى الفترات التى اشتهت فيها بعض الحكام ، فى تطبيق الأحكام الاسلامية بشأن الذميين ، والتى سرعان ما يعقبها فترة يتمتع فيها الذميون بالأمن والسلام ويمارسون فيها حياتهم الدينية وغير الدينية فى حرية واطمئنان . وقد لمسنا ذلك عند دراستنا لدور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى .

إذا كان ذلك هو شأن كنائس أهل الذمة وبيعهم ، فإننا نتساءل عن حكم أبنتهم ودورهم . فيقول ابن قيم الجوزية (١٢٣) عنها : « فان كانوا - أى أهل الذمة - فى محلة منفردة عن المسلمين لا يجاورهم فيها مسلم ، تركوا ، وما يبنونه كيف أرادوا ، وان جاورهم المسلمون لم يمكنوا من مطاولتهم فى البناء ، سواء أكان الجار ملاصقا أم غير ملاصق ، بحيث يطلق عليه اسم الجار » . والواقع ، أن آراء الفقهاء والعلماء تتفق فى ذلك ، وأن أهل الذمة لا يجوز لهم بناء أو سكنى منازل أعلى من منازل المسلمين ، حتى لا يكشفوا عوراتهم ، ولا يعلوا عليهم . كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الاسلام يعلو ، ولا يعلو عليه » (١٢٤) ، وعلى ذلك يجب أن

يكون المسلمون فى رتبة أعلى من الذميين . ولا يجوز للذميين - كما ذكرنا - سكنى دار أعلى من دور المسلمين المجاورة لهم . ويقول الشافعى : « ولا يحدثون بناء يطولون به بناء المسلمين » (١٢٥) وفى الوقت نفسه يذهب الى انهم ، ان كانوا يسكنون قرى أو أحياء منفردين بها دون المسلمين ، فلهم ما شاءوا . كما أنهم لو كانوا فى باد فتحت صلحا . ولم ينص الصلح على شىء من هذا ، يكون لهم حرية السكنى والبناء (١٢٦) .

ولم نجد فى المصادر التاريخية المختلفة ، ما يشير الى وصف دور ومنازل أهل الذمة فى مصر ، وهل كانت دورهم أعلى من دور المسلمين أو أقل ارتفاعا . كما أننا لا نجد فى العهود التى عقدت بين عمرو بن العاص والمصريين ، ما يشير الى ذلك ، أو ينص على شىء خاص بدورهم فى الأحياء والمدن الخاصة بهم أو فى تلك التى يسكنونها مع المسلمين . ونحن نرجح أن أهل الذمة كانوا يمنعون من سكنى الدور والمنازل التى تعلو دور المسلمين ومنازلهم ، وخاصة فى الفترات التى تعرضوا فيها لبعض المضايقات ، والتى كان يتشدد الحاكم فيها فى تطبيق أحكام الاسلام العامة على أهل الذمة فى مصر .

ويتفق الفقهاء والعلماء على ضرورة التمييز بين أهل الذمة والمسلمين فى الملبس وان كنا لا نجد اشارة الى ذلك فى القرآن الكريم ، ولا فى السنن والأحاديث النبوية (١٢٧) . والواقع ، أن التمييز بين أهل الذمة والمسلمين فى الملبس ، والركوب ، والهيئة ، راجع الى ما اشترطه الخليفة عمر بن الخطاب على أهل الذمة فى البلاد التى فتحتها المسلمون .

يقول أبو يوسف (١٢٨) : « لا يترك أحد منهم ، يتشبه بالمسلمين فى لباسه ، ولا فى مركبه ولا فى هيئته » ويؤخذون بأن

يجعلوا فى أوساطهم الزنارات - مثل الخيط الرفيع ، يعقده كل واحد منهم فى وسطه - وبأن تكون قلائسهم مضر به ، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرايبس مثل الرمانة من خشب ، وبأن يجعلوا شرك نعالهم مثنية ، ولا يحذوا حذو المسلمين ، ويمنع نساؤهم من ركوب الرحائل . كما يشير الى أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر عماله بذلك ، حتى يمكن معرفة زى أهل الذمة من زى المسلمين ، ومن ثم يمكن التمييز بينهم بسهولة .

وكان على أهل الذمة أيضا ، ألا يلبسوا العمائم والطيلسان (١٢٩) . ولا يركبوا الخيل وإنما يركبون البغال والحمير بالأكف عرضا (١٣٠) - أى تكون أقدامهم من جانب واحد - وتشير بعض المصادر الى أنه كان على أهل الذمة ارتداء ألوان مميزة ، خاصة بهم دون المسلمين . وقد اختلفت الآراء حول ذلك ، ف يرى البعض أن اللون الأسود كان خاصا بالمسيحيين ، وأن اللون الأصفر كان خاصا باليهود . بينما يرى آخرون أن اللونين الأزرق والرمادى كانا من سمات المسيحيين والأحمر والأسود كانا من علامات السامرة والمجوس . أما اليهود فكان يميزهم اللون الأصفر ، ويرى فريق ثالث أن اللون الأحمر كان من السمات المميزة لأهل الذمة عامة (١٣١) .

ونحن نرجح ، ما ذهب اليه ثرتون ، من حيث انه لم يكن هناك ثمة ضرورة فى عصر الفتح ، لالزام أهل الذمة بلبس نوع معين من الثياب ، يخالف ثياب المسلمين . لأنه مما لا شك فيه ، انه كان لكل فريق ثيابه الخاصة به ، وأن الذميين من المسيحيين واليهود وغيرهم ، كانوا يرتدون ملابسهم الخاصة بهم ، من تلقاء أنفسهم دون الزام لهم بذلك . الا أن الحاجة الى هذا التمييز ظهرت ، بعد ذلك ، حينما أخذ العرب بحظ من المدنية والحضارة ، وخالطوا

أهل البلاد المفتوحة، وعمد بعض الذميين الى التشبه بهم فى لباسهم، فأصبح من الضرورى ، التمييز بين هؤلاء وأولئك ، حتى يمكن التعرف على كل منهم بسهولة ، ومعرفة دين هذا عن ذاك (١٣٢) .

ونحن نرى أيضا ، أن هذه الالتزامات ، لم يؤخذ الذميون بها، الا فى الفترات التى تشدد فيها بعض الخلفاء والحكام ، بتطبيق أحكام الاسلام ، والتشديد على أهل الذمة ، والالتزام بها . وهذا كان بالنسبة لأهل الذمة عامة فى البلاد الاسلامية . أما فى مصر الاسلامية ، فسنعرض للملابس أهل الذمة عند دراستنا لآخلاق وعادات أهل الذمة فيها . ونلاحظ أن أهل الذمة لم يلزموا بذلك - كما تذكر المصادر التاريخية - الا فى فترات معينة ومحدودة ، وخاصة فى خلافة عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى ، وفى عهد الخليفة العباسى المتوكل ، وأخيرا فى عهد الخليفة الفاطمى ، الحاكم بأمر الله .

والى جانب ما تقدم ، من أحكام خاصة بأهل الذمة ، عليهم الالتزام بها ، نجد أحكاما أخرى ، منها ما يتعلق بالمجتمع ، وعلاقة المسلم بالذمى ، ومنها ما يتعلق باستخدام أهل الذمة فى شئون الحكم والادارة . وقد أثر عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه دعا الى عدم القاء السلام على أهل الذمة عند لقائهم فى الطريق ، فاذا هم ألقوا السلام ، رد عليهم المسلم . وله فى ذلك بعض الأحاديث الشريفة نذكر منها : « لا تبدأوا اليهود والنصارى السلام ، فاذا لقيتم أحدهم فى الطريق ، فاضطروه الى أضيقه » (١٣٣) ، ومنها « من صافح مشركا ، فليتوضأ أو ليغسل كفيه » (١٣٤) . وهكذا كان رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، يضع أهل الذمة فى درجة دون درجة المسلمين .

ويقول ابن الدريهم (١٣٥) : ان من لطف الله بالمسلمين ، ورأفته بهم أن حذرهم من أعدائهم - ويقصد بذلك أهل الذمة - ونهاهم عن وصلهم ، وأمرهم بمقاطعتهم ، لعلمه تعالى بقبح سرائرهم ، واضمارهم للمسلمين العدوة والبغضاء ، وسداد نياتهم ، وغشهم للمسلمين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قسر قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) بأن المغضوب عليهم هم اليهود ، وان الضالين هم النصارى .

وتعددت الآيات الكريمة في النهي عن استخدام أهل الذمة أو استكتابهم قال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين ، أولياء من دون الله ، ومن يفعل ذلك ، فليس من الله في شيء ، الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) ، وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالا ، ودها ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) . وقال تعالى أيضا : (يأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين) (١٣٦) .

كما روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أيضا بعض الأحاديث في هذا الشأن ، منها « انا لا نستعين بمشرك » (١٣٧) وغير ذلك من الأحاديث . وكان الغرض منها عدم الاستعانة بأحد من أهل الكتاب ، ومن في حكمهم ، في تصريف أمور البلاد ، وأن لا يكون لهم سلطان على المسلمين . وقد حرص الخليفة عمر ابن الخطاب ، على اتباع ما جاء في القرآن ، وما سنه رسول الله ، فنهى عن استخدام الذميين ، وكتب الى عماله بذلك ، وقال : « لا أكرمهم اذ أهانهم الله ، ولا أعزهم اذ ذلهم الله ، ولا أدنيهم اذ أقصاهم » (١٣٨) .

والحقيقة أن استخدام أهل الذمة ، كان شائعا فى البلاد الاسلاميه فى مختلف الدواوين والأعمال ، اللهم الا فى فترات محدودة ، تشدد فيها بعض الخلفاء فى تطبيق أحكام الاسلام ، وكان ذلك فى الواقع ، نتيجة لضجر المسلمين ، وثورتهم على تحكم الذميين فيهم وتسلطهم عليهم . وحدث ذلك فى خلافة عمر بن عبد العزيز والمتوكل والمقتدر . وكانت أحكامهم خاصة بجميع أنحاء المملكة الاسلامية . ولكن مثل هذه الفترات ، كان ما يلبث ان تعقبها ، فترات استخدم فيها الذميون ، وخاصة المسيحيين منهم على نطاق واسع . وقد تحدثنا عن دور أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، وأدركنا مدى استخدامهم فى الحكومة ، اذ كان منهم الوزراء والكتاب وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم ، وجباة الخراج وغيره من الضرائب . وأشرنا الى أن استخدام أهل الذمة ، وخاصة القبط فى مصر ، كان منذ السنوات الأولى للإسلام فى مصر فقد أبقي عمرو ابن العاص على كثير من الموظفين ، والحكام القبط ، بالرغم من نهى الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك . وقد أقصى الذميون من وظائفهم فى الدولة ، فى بعض الفترات ، ومنها عهد الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز ، وعهد الخليفة العباسى المتوكل ، وكلاهما نهى عن استخدام الذميين فى الأقاليم الاسلامية ومنها مصر . كما دعا الى ذلك بعض الوزراء ، ومنهم رضوان بن ولخشى وصلاح الدين فى عهد كل من الخليفة الفاطمى الحافظ والخليفة العاضد - كما ذكرنا آنفا فى الباب الأول ، الفصل الرابع .

أما أحكام معاملة أهل الذمة ، فى البيع والشراء ، فقد روى عن رسول الله أنه كان يشتري من اليهود ، وأنه فى يوم ما ، أخذ من أحد اليهود ، ثلاثين وسقا من شعير ورهنه درعه . وانقسم العلماء والفقهاء الى فريقين ، أحدهما يرى أنه لا بأس من مشاركة الذمى فى البيع والشراء والآخر يكره ذلك ، لأنهم يميلون للرشوة

والربا ، وانهم يتجرون أيضا فى الخمر والخنزير ، وهى من الامور
المحرمة على المسلمين (١٣٩) .

ونص القرآن الكريم ، على أنه يجوز للمسلم نكاح نساء أهل
الذمة . قال تعالى : (اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا
الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ،
والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) (١٤٠) بينما لا يحل
للمسلم نكاح اماء أهل الذمة (١٤١) .

ومن أحكام أهل الذمة فى الاسلام أيضا ، انه لا يتوارث المسلم
الذمى ، أو العكس . كما انه لا يتوارث اليهودى النصرانى
أو العكس . قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، « لا يرث المسلم
الكافر ، ولا الكافر المسلم » ، كما قال أيضا : « لا يتوارث أهل ملتين
شتى » (١٤٢) .

واختلف الفقهاء فى دية أهل الذمة ، اليهود والنصارى
وغيرهم . فهى عند أبى حنيفة مثل دية المسلم ، فحياة الذمى ،
تكافى حياة المسلم . أما مالك ، فىرى أن دية اليهودى أو النصرانى
يجب أن تكون نصف دية المسلم . ويرى الشافعى أن دية الذمى
يجب أن تكون ثلث دية المسلم (١٤٣) . أما دية الكتابية ، فىرى
البعض منهم ان دية نساء أهل الذمة تكون نصف دية رجالهن سواء
بسواء (١٤٤) .

ومما هو جدير بالذكر ، الأمور التى يجب على الذميين تركها ،
وفىها ضرر على المسلمين فى نفس أو مال ، وان القيام بها يعتبر
نقضا لعهودهم ، وما جاء فيها ، وهى : الاعانة على قتال المسلمين ،
وقتل المسلم والمسلمة ، وقطع الطريق على المسلم ، وإيواء جاسوس

على المسلمين ، وإعانة أعداء المسلمين ، بدلهم على عورات البلاد ،
أو مكاتبة المشركين بأخبار المسلمين أو أن يزنى الذمى بمسلمة ،
أو يصيبها باسم نكاح ، وإن يفتن مسلما عن دينه (١٤٥) .

يقول الشيرازى (١٤٦) : « فإن امتنع الذمى عن لزوم الأحكام ،
أو قاتل المسلمين أو زنا بمسلمة ، أو أصابها باسم نكاح أو فتن
مسلما عن دينه أو قطع الطريق على مسلم ، أو آوى المشركين أو دلهم
على عورات المسلمين ، أو قتل مسلما ، انتقضت ذمته فى ذلك جميعا
وقتل فى الحال ، وغنم ماله » .

كذلك ينقض عهد الذمى ، إذا فعل أو قال شيئا فيه غضاضة
ونقيصة على الاسلام من ذلك ذكر الله عز وجل بما لا يليق ، أو ذكر
كتابه الكريم أو دينه القويم ، أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بما لا ينبغى (١٤٧) .

هذه هى خلاصة لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ، وهى أحكام
عامة بشأن أهل الذمة فى جميع أنحاء البلاد الاسلامية . وقد أشرنا
الى مدى تطبيقها فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى .
وقد لمسنا من كتابات مؤرخى مصر الاسلامية ، أن هذه الأحكام
جميعها ، لم ينص عليها فى العهود ، التى منحت للمصريين عند
الفتح ، اللهم الا ما يتعلق بالجزية . وفيما عدا ذلك منحوا الأمان
— كما ذكرنا — على أنفسهم وأموالهم ، وأطفالهم وكنائسهم .
ولم يشترط عليهم فى هذه العهود شئ فى لباسهم ، أو بناء
كنائسهم أو ركوبهم ، وغير ذلك من الالتزامات الاجتماعية والأدبية
عليهم تجاه المسلمين .

بينما تشير بعض المصادر التاريخية الى أن عمر بن الخطاب
كتب الى فاتح مصر عمرو بن العاص ، « أن يختم فى رقاب أهل

الذمة بالرصاص ، وأن يظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصبيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا ، ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه المواسى ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهن يشبهون بالمسلمين فى لباسهم » (١٤٨) .

ويمكن القول بصفة عامة ، ان هذه الشروط والأحكام ، لم يتحدث مؤرخو مصر الاسلامية عن تطبيقها على أهل الذمة فى مصر ، الا فى فترات محدودة ، تلك الفترات التى يتعصب فيها الخلفاء والحكام ، وفيها يتعرض الذميون لبعض المضايقات .

٢ - الاحتفالات الدينية والقومية

بعد دراستنا لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ، وما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، ندرس دورهم فى المجتمع المصرى ، والصور الاجتماعية لاحتفالاتهم الدينية بأعيادهم ، ومدى مشاركة أمراء مصر ، وسائر أفراد المجتمع وخاصة المسلمين منهم فى هذه الاحتفالات .

والواقع أن الأعياد ندل عند المسلمين على مقدار رقة المظهر الاسلامى الذى يحيط بالحياة العامة ، فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية طول العام . وكان معظم هذه الأعياد النصرانية تتجلى فيها عادات أقدم من ذلك ، وإن الموضع التى كان يحج إليها القبط فى مصر ، إنما كان معظمها مقدسنا عند الوثنيين من قبل . ولم تكن أعياد القديسين التى كانت تعمل فى الأديرة الناشئة إلا تجديدا لأعياد الآلهة القدماء . ولم يرض الذين دخلوا فى الاسلام بأن يحرموا من الاحتفال بهذه الأعياد . فقد ترك المسلمون القبط يتصرفون فى أمورهم الدينية كيفما شاءوا ، بينما اشتركوا فى الجانب الاجتماعى المسلى من تلك الأعياد . وكانت أعياد القديسين فى مختلف الأديرة ، أكثر الأعياد نصيبا من احتفال الناس (١٤٩) .

وقبل ان نخوض البحث فى الاحتفالات الدينية والقومية لأهل
الذمة ، تجدر بنا الإشارة الى أن أهل الذمة فى مصر الاسلامية ،
كانوا من المسيحيين واليهود . أما المسيحيون فكانوا من القبط
اليعاقة ، أصحاب المذهب المونوفيزيتى أو من الملكانيين أصحاب
المذهب الدوفيزيتى . ويمثل القبط اليعاقة ، الأغلبية العظمى بين
أهل الذمة فى مصر ، بينما كان الملكانيون أقلية ضئيلة وحتى عصر
المقدسى ، كان القبط هم غالبية أهل الذمة فى مصر ، فنراه يقول
عن اقليم مصر : « وعامة ذمته نصارى ، يقال لهم القبط ، ويهود
قليل » (١٥٠) . وقد ظهرت فى مصر طائفتان أخريان من المسيحيين
اليعاقة وهما ، السريان من سكان بلاد الشام ، والأرمن من سكان
أرمينيا . وأما اليهود ، فكان منهم الربانيون ، والقراءون .

دخل المسيحيون السريان ، الأراضى المصرية لأغراض شتى ،
فمنهم من دخلها بغرض التجارة ، ومنهم من قدم الى مصر لزيارة
كنائسها وأديرتها ، وتقديم قربان فيها ، وقد استقر المقام ببعضهم
فى الأراضى المصرية ، واختلطوا بالقبط اخوانهم فى المذهب الدينى .
ولم يأنف قبط مصر من اختيار بعض بطاركتهم من هؤلاء السريان
المتفقيين معهم فى المذهب المونوفيزيتى ومن أبرز هؤلاء البطاركة ،
الأب سيمون ، الذى تذكر الرواية القبطية عنه ، أنه كان من أهل
المشرق ، وقد قدم به أبواه الى الاسكندرية ، حيث قدماء قربانا
للكنييسة . وعاش سيمون بدير الزجاج ، حيث أقامه البطرك أنبا
أغاثو ، قسيسا ، وكان يأتى بعد الأب يوحنا فى المرتبة فى هذا
الدير . وتولى البطريركية ، فى ولاية الأمير الأموى عبد العزيز
ابن مروان على مصر . وقد تعجب هذا الأمير ، من اختيار الأساقفة
والكهنة والشعب القبطى لسيمون السريانى ، ليكون بطركا
لهم (١٥١) .

وتكرر هذا الحدث مرة أخرى فى عصر الخلافة الفاطمية ، فقد استقر رأى اكليروس الكنيسة القبطية ، وشعبها على اختيار أنبا افراهم السريانى ، ليكون بطركا لهم . وكان ناجرا ويسمى ابراهيم ابن زرعة ، واشتهر بتصدقته على الفقراء والمساكين والضعفاء من القبط . كما كان على علاقة طيبة بالخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وكبار رجال دولته . فكان يحمل اليهم أجود البضائع والأمتعة ، كما كان هذا التاجر السريانى يحظى أيضا ، بحب كبار رجال القبط ، واکرامهم له . وبعد وفاة البطرک الأب مينا ، رأى الأساقفة والكهنة وكبار القبط ، صلاحية هذا التاجر السريانى ليتولى البطركية ، ونجحوا فى تنصيبه ، وتصدق بجميع أمواله ، وأصلح أمور القبط ، وأبطل الشرطونية التى كان يأخذها البطارقة ، مقابل منح الرتب الكهنوتية . وعظم شأن هذا البطرک وارتفع قدره عند الخليفة ، الذى طلب منه سكنى مصر - أى الفسطاط - ليكون قريبا منه (١٥٢) .

ودخل مصر ، بعض التجار السريان ، قادمين من تكريت ، فى عهد الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله ، وقد قرب الخليفة اليه ، أحد هؤلاء ويسمى طيب بن يوسف ، وكان يحمل كثيرا من بضائع الهند واليمن ، فقدم للخليفة أجود هذه البضائع وأفخرها ، وأحسن اليه الخليفة اذ أعجبه كلامه وحسن منطقه ، وطلب منه الإقامة فى مصر ، وأنعم عليه ومنحه بعض الضياع ، وترك له الحرية الكاملة فى ممارسة نشاطه التجارى ، واستمر هذا الشيخ السريانى مقيما بالقاهرة ، حتى وفاة الخليفة الأمر ، فسكن بعض القرى المصرية ، وتزوج باحدى نساء القبط (١٥٣) .

وكان من الطبيعى أن يكون لهذه الطائفة أماكن خاصة بهم للعبادة والصلاة ، وخاصة من أراد منهم حياة الرهبنة . فكان من

الأديرة المشهورة فى وادى هبيب فى صحراء مصر الغربيه ، دير
السريان . وقد أقامه ، أحد التجار السريان القادمين من تكريت ،
لينزل به الرهبان السريان (١٥٤) . وكان أول من أقام فى هذا
الدير ، الراهبان متى و ابراهيم Mathew and Abraham وذلك فى
بداية القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) وكانا أصلا من
تكريت (١٥٥) . وهناك ما يدل على وجود الرهبان السريان فى وادى
هبيب فى ذلك الوقت اذ يوجد بهذا الدير ، مخطوط سريانى يرجع
تاريخه الى القرن التاسع الميلادى . وقد كتب فى أول هذا المخطوط
العبارة التالية : « اترك كل من يقيم الصلاة لاسحق ودانييل
وشلمون ، الرهبان الطاهرين بوادى الأب يوحنا السريانى ، الذى
منح هذا الكتاب ، وتسعة كتب أخرى لدير السريان فى صحراء
غرب مصر ، فى بطركية الأب قزما ، بطرك الاسكندرية ٨٥١ –
٨٥٩ م ، والأب يوحنا بطرك انطاكيا ٨٤٦ – ٨٧٣ م . وفى حضور
الراهب أنبا أديا Bar Idai رئيس الدير » (١٥٦) .

عظمت مكانة هذا الدير ، فى القرن الرابع الهجرى ، والقرن
العاشر الميلادى وصار فى حوزة البطركية القبطية . فكتب البطرك
القبطى الأب فيلوتاوس ، كتابا (سنوديقا) الى الأب أثناسيوس ،
بطرك انطاكيا ، أشار فيه ، الى أن دير السريان فى وادى هبيب
قد صار تحت سيطرة البطركية القبطية ، وحماية القبط (١٥٧) .
وقد تزايد عدد الرهبان بهذا الدير على مر السنوات والأيام ، حتى
صار لدير السريان ، المركز الثالث بين أديرة وادى هبيب الآهلة
بالرهبان فى القرن الخامس الهجرى ، والحادى عشر الميلادى . وفى
الاحصاء الذى قام به الشماس موهوب بن منصور بن مفرج
الاسكندراني ، لرهبان أديرة وادى هبيب ، بلغ عدد الرهبان فى
دير السريان ستين راهبا (١٥٨) .

وكان لهؤلاء الرهبان السريان بعض العادات الخاصة بهم ،
فقد جرت العادة بينهم ، بمنع الوافدين والزوار ، من دخول ديرهم
هذا ، في الايام السابقة لعيد الميلاد ، وعيد احياء ذكرى صوم
جمعة هرقل ، وأيضا قبل الصوم الكبير وعيد العنصرة (الخمسين)
وأيضا في الايام السابقة للاحتفال بعيد السيدة العذراء (١٥٩) .

واشتهر من الرهبان السريان في هذا الدير ، في القرن
السادس الهجري ، والثاني عشر الميلادي ، القديس الأب أبو يوسف
الذي اشتهر ببركته ، وعلمه بالغيب (١٦٠) . وكان القبط يؤمنون
بأن لبعض رهبانهم وبطاركتهم بركة خاصة ، وإن لهم بعض
المعجزات وسنشير الى ذلك في الفصل التالي ، عند دراستنا لأخلاق
القبط وعاداتهم .

ويبدو أنه كان هناك جماعة من السريان يسكنون القاهرة ،
في عهد الخليفة الفاطمي ، المستنصر بالله ، ووزيره أمير الجيوش
بدر الجمالي ، وأنهم كانوا يقيمون في حي الحسينية بظاهر القاهرة ،
وهو المكان الذي خصصه الوزير أمير الجيوش لاقامة جماعة الأرمن
العسكريين . فطلب ، أمير الجيوش من جماعة السريان وكان رئيسهم
آنذاك يسمى ابن الطويل - ترك هذا المكان حتى يكون مسكنا
مقصورا على جماعة الأرمن . فطلب ابن الطويل وقومه من السريان ،
من أمير الجيوش ، اعطاءهم بعض كنائس دير الخندق ليقيموا فيها ،
فأجابهم الى ذلك . ويبدو من هذه الرواية ان ابن الطويل ، كان
أسقفا لهؤلاء المسيحيين السريان المقيمين بالقاهرة (١٦١) .

أما جماعة الأرمن اليعاقبة ، فكانوا طائفة لها شأنها ، ومكانتها
في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، ووزيره أمير الجيوش
بدر الجمالي . وكانوا يسكنون حي الحسينية بظاهر القاهرة .

ولا غرو ، فى أنهم كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة لدى الوزير بدر الجمالى حتى انه اضطر جماعة السريان الى ترك هذا المدن ، وجعل مسكنه مقصورا على جماعة الأرمن . كما تشير بعض الروايات القبطية الى أنه أخذ بعض الكنائس ، من جماعة السريان وجعلها خاصة بالأرمن (١٦٢) .

ولم تكن جماعة الأرمن المسيحيين فى مصر ، فى ذلك العصر ، مقصورة على الأرمن العسكريين ، فحسب ، بل قدم الى الاراضى المصرية فى ذلك العصر أيضا ، بعض الأرمن الذين أرادوا الرهبنة فى الصحراء الغربية ، وعلى قمم الجبال ، واشتهر أمرهم بين المصريين اليعاقبة ، ونذكر من هؤلاء الراهب القديس ، الذى عرف باسم المناكيس وكان قدم الى مصر من أرمينيا ، فى عهد الخليفة المستنصر ، ودخل وادى هبيب ، واتصل برهبان دير أبى مقار ثم قدم الى الاسكندرية ، حيث آمن البعض بمعجزاته ، وذاع صيته بين القبط (١٦٣) .

وقدم الى مصر فى ذلك العصر أيضا ، بطرك الأرمن أغريغوريوس وقد أحسن أمير الجيوش لقاءه ، ورحب به وأكرم وفادته ، وأنزله كنيسة السيدة مريم عند القنطرة - بين القاهرة ومصر - فسكنها ، واجتمع بالبطرك القبطى أنبا كيرلس الذى رحب به وأكرمه (١٦٤) . وهكذا توثقت العلاقة بين القبط والأرمن ، وكلهم من أصحاب المذهب اليعقوبى . وعليه يقول المؤرخ القبطى ساويرس (١٦٥) : « واشتهر عند جميع الناس ، صحة اجتماع القبط والأرمن والسريان والحبشة والتوبة على الأمانة المستقيمة الصحيحة التى اتفق عليها الآباء القديسون الفضلاء وخالفها نسطور ولاون ، ومجمع خلقدونية » .

شارك البطرك أغريغوريوس القبط فى أحزانهم وأفراحهم . فنراه يشارك فى جنازتهم وخاصة جناز الأساقفة منهم ، فلما

توفي أنبا سنيهوت أسقف مصر . حضر هذا البطريرك الأرمني التجنيزه والصلاة عليه ، وسار في جنازته بصحبة القبط والأساقفة والكهنة (١٦٦) . كما شارك البطريرك أغريغوريوس في تعيين الأساقفة الجدد . ذلك أنه لما خلا كرسي أسقفية مصر بعد وفاة هذا الأسقف ، رغب كبار القبط ، في إقامة الراهب يونس بن سنيهوت ، أسقفا على كرسي مصر وكتبوا الى بطركهم أنبا مقارة بذلك ، فوافق ، على أن ينوب عنه البطريرك أغريغوريوس ، في اختبار أمانة هذا الراهب ، والكشف عن حاله وعمله ، فان وجدته صالحا لذلك أقامه أسقفا . فلما علم بذلك أنبا أغريغوريوس ، أرسل الى الراهب يستدعيه الى مصر ، وأقام عنده أياما فوجده « كما يجب في كل ما يحتاج اليه منه » وأمر بتعيينه أسقفا لمصر (١٦٧) .

والى جانب هذا الدور الذي لعبه جماعة الأرمن المسيحيين في الكنيسة المصرية ، قاموا أيضا بدور له أهمية في تاريخ مصر السياسي ، فعظم شأنهم ، وتقلدوا أعلى المناصب في الدولة ، وخاصة في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله ، الذي استوزر أحد الأرمن وهو بهرام في سنة ٥٢٩ هـ . فخدم احواله بسبط والارس . على حد سواء ، واستخدم منهم النظار والمشرفين ، وحكام الأقاليم وكتاب الدواوين (١٦٨) .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الوزير بهرام الأرمني ، سيطر على كل الأمور في مصر ، فاستدعى أسرته وأهله من أرمينيا ، حتى بلغ عدد الأرمن في البلاد المصرية ثلاثين ألفا ، وقاموا ببناء عدد كبير من الكنائس (١٦٩) . فلما انتهى أمر بهرام وزالت عنه الوزارة في سنة ٥٣١ هـ ، لجأ الى الدير الأبيض بمصر العليا ، حيث فضل حياة الرهبنة على الحياة العلمانية . ثم استدعاه رضوان بن لخشى

- بناء على رغبة الخليفة - الى القاهرة حيث أقام بها الى وفاته (١٧٠) .

وانتشر الأرمن في ذلك العصر في كل أرجاء مصر ، وكان لهم في القاهرة بوابة تعرف باسمهم « باب الأرمن » وبلغ عدد أديرتهم وكنائسهم خمسة وثلاثين على وجه التقريب (١٧١) . ونذكر من هذه الكنائس والأديرة ، كنيسة مار جرجس ، بناحية طرا ، على ساحل البحر الأحمر التي أقطعها أمير الجيوش ، لهم عندما وصل بطركهم أغريفوريس الى مصر ، فهدمها الأرمن ، وأقاموا مكانها كنيسة كبيرة ، وجعلوا لها عدة قباب ، وكرزت باسم مار جرجس ، وجعلوا في أعلى هذه الكنيسة جوسقا بابا من الداخل . وأقاموا حول الكنيسة حصنا دائرا ، كما جعلوا فيها بئرا ، وساقية ، وطاحونا وأنشأوا لها بستانا كبيرا (١٧٢) .

ومن كنائس الأرمن بمصر أيضا كنيسة ماري يعقوب بناحية البساتين . وكانت مزينة بالأقباء ، والعقود ، والأبواب الكبار ، كما كانت تتوسط الرياض والمزروعات . ومن ثم صارت من أحسن وأجمل المتنزهات في مصر ، فلما دخل الغز الأكراد ، وأنصار نور الدين زنكي مصر ، في عهد الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين في سنة ٥٦٤ هـ ، أخذوا من الأرمن هذه الكنيسة ، وجعلوا للأرمن كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة ، حيث سكنها البطريرك الأرمني (١٧٣) .

ولم نجد في المصادر التاريخية المختلفة ما يشير الى أن الحكومة في مصر الاسلامية - طوال العصر الذي نحن بصدد البحث والدراسة فيه من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي - قد ألزمت القبط وغيرهم من المسيحيين بسكنى مدن أو أحياء معينة ،

بل نجدهم ينتشرون فى مختلف المدن المصرية ، فى الوحشين البحرى والقبلى . وبالرغم من ذلك ، فاننا نجد أن بعض المدن كانت أغلبية سكانها من القبط ، ومن أمثلة ذلك ، مدينة تنيس التى بلغ عدد المسيحيين بها فى عهد الخليفة المأمون فى بداية القرن الثالث الهجرى ، ثلاثين ألفا يدفعون الجزية (١٧٤) . ونستنتج من ذلك أن هذا العدد يضم الرجال البالغين القادرين على أداء الجزية ، دون النساء والأطفال والشيوخ والعجزة وغيرهم ممن أعفوا من دفع الجزية .

أما مدينة القيس ، فكان يسكنها اثنا عشر ألفا من القبط ، وكان لهم بها أربع وعشرون كنيسة وديرا . وتشير بعض المصادر الى أن هؤلاء القبط فى كل عيد من أعياد القديس ميخائيل ، يذبحون اثنى عشر ألف خروف ، ثم اقتصر هذا العدد على أربعمائة واستمروا على ذلك حتى سقطت الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٩ هـ (١٧٥) . وهناك بعض المدن التى كان كل سكانها من القبط ، ليس بينهم مسلم أو يهودى فى عصر الولاة الأمويين ، واستمرت كذلك حتى عهد آخر الخلفاء الأمويين ، حينما أرسل مروان بن محمد بعض قواده ، فقتل كثيرا من القبط وخرب كنائسهم (١٧٦) .

ومن هذه المدن أيضا مدينة دميرة . وتقول الرواية القبطية ان « كل من يسكن بها نصرانى » وقد سكنها البطرك أنبا قزما وهو الرابع والخمسون من بطاركتهم (١٧٧) كما كان يكثر سكنى القبط ، بالصعيد ، وكانت توجد بعض القرى التى لا يسكنها سواهم ، ومنها قرية ادرنكة ، التى اشتهر أهلها بالعلم والتعمق فى العلوم الدينية ، وبإتقانهم اللغة القبطية (١٧٨) .

والآن فتساءل ، هل كان يوجد بين القبط ، رؤساء دينيون يمثلونهم ، ويراعون شئونهم ؟ وهل كانت لهم دور عبادة خاصة بهم دون سواهم ؟

كان من بين القبط من يتولى الوظائف الدينية الروحانية ، وتسمى عندهم بالرتب أو الدرجات الكهنوتية ، وهى أحد أسرار الكنيسة السبعة (١٧٩) . وهذه الدرجات هى : البطرک ، والمطران ، والأسقف ، والقمص ، والقسيس ، والأورش دياقن رئيس الشماسية والشماس ، والقارىء أو الانجيلى والراهب . ثم يأتى بعد ذلك جماعة الملحنين (المرنمين) أو المغنين (Rubrios) وقندلقت الكنيسة الكنيسة أو بوابها Orsacristan (١٨٠) .

أما البطرک أو (البطريرک) فهو رئيس الكنيسة والشعب القبطى عامة ، أو بعبارة أخرى هو صاحب المذهب ، والقائم بأمور دين المسيحيين (١٨١) . وكان مقر اقامته بالاسكندرية ثم أصبح يقيم فى العاصمة الاسلامية ، وخاصة فى حالات الاضطراب ، اذ كان يقيم فى الكنيسة المعلقة أو كنيسة أبى سرجة أو كنيسة أبى سيفين (١٨٢) . وتشير الرواية القبطية الى أنه لم يكن أحد من البطاركة ، مقيما بالاسكندرية منذ عهد البطرک أنبا خايال الذى باع أملاك بعض الكنائس ورياعها (١٨٣) . وكان ذلك فى عهد الأمير أحمد بن طولون ، الذى ألزم هذا البطرک بدفع غرامة مالية ، قدرها عشرون ألف دينار ، ولم يكن لديه ما يدفع منه هذا المبلغ ، مما اضطره الى بيع بعض الكنائس وأملاكها لليهود وأيضا اضطر الى بيع الرتب الكهنوتية لمن أرادها ، كما ذكرنا فى الفصل الثالث من الباب الأول . وهكذا لم يعد البطرک منذ ذلك الوقت ، يستطيع الإقامة فى الاسكندرية .

ويشترك في اختيار البطررك وتعيينه ، كل من الأساقفة والكهنة ، أو ما يعبر عنه بأكليروس الكنيسة ، كما كان يختاره كبار رجال القبط والشعب أيضا . ويشترط في البطررك أن يكون بنولا غير متزوج (١٨٤) وأن يكون من بين الرهبان ، ولا يتجاوز سنه الخمسين عاما وأن يكون عالما ، طاهرا (١٨٥) . وبشير ساويرس (١٨٦) الى أنه عندما اجتمع الأساقفة والكهنة وكبار القبط لاقامة بطرك لهم بعد وفاة الأب كيرلس ، قالوا : « ما نقدم علينا الا من نعرف غزارة علمه ، ونزاهة نفسه وطهارته ، ونسكه ، واستقامة أمانته » .

وكثيرا ما كان البطررك يوصى قبل وفاته بمن يتولى البطرركية من بعده . وكان أكليروس الكنيسة شديد الحرص على تنفيذ وصية بطركهم ، كما كان يحرص على ذلك في بعض الأحيان ولاية مصر المسلمون ، الذين كانت موافقتهم على اقامة البطررك ضرورية لاتمام تعيينه بطركا .

ونذكر من الأمثلة على ذلك أن البطررك يوحنا - في إمارة عبد العزيز بن مروان - كان قد أوصى في حياته ، بأن يكون الراهب اسحق خلفا له . وكان اسحق راهبا بأديرة وادي هبيب ، عالما ، حاذقا ، ملما بالكتب الدينية والانجيل ، وما جاء فيه ، ويعحسن الكتابة ويجيد النسخ ، وقد أحضره يوحنا في حياته ، وأشركه في جميع أعماله حتى توفي (١٨٧) .

ثم اجتمع الأساقفة والكهنة واتفقوا على اقامة آخر غير اسحق الموصى به بطركا . لكن أمرهم ما لبث أن انكشف ، ورفض الأمير عبد العزيز ، اقامة بطرك غير اسحق ، الذي قد أوصى به البطررك

السابق يوحنا (١٨٨) . وقد جرت العادة بأن يكون اتمام تنصيب
البطرك في يوم الأحد (١٨٩) .

واتبع القبط ، طريقة التقريع في اختيار البطرك ، في بعض
الأحيان ، وخاصة في العصر الفاطمي . وتذكر الرواية القبطية أن
بعض الوزراء المسلمين ، قد أشاروا على القبط باتباع هذه الطريقة ،
وهو الوزير ، على بن أحمد في خلافة الظاهر لاعزاز دين الله
الفاطمي . وهذه الطريقة تتضمن اختيار مائة راهب من الديارات ،
ثم يقدم من هؤلاء خمسون ، ومن الخمسين يختار الحاضرون خمسة
وعشرين ، ثم يختارون من هؤلاء عشرة ، وأخيرا يختار القوم من
هؤلاء ثلاثة رهبان ، ثم تكتب أسماءهم في رقاع ثلاث ، وفي رقعة
رابعة يكتب اسم الرب . وتشمع هذه الرقاع وتوضع على الهيكل
حتى تقام عليها الصلاة والقداس . ثم يأتون بطفل صغير ليس
عليه خطية ، فيأخذ واحدة من هذه الرقاع الأربع ، فان كانت
تحمل اسم أحد الرهبان الثلاثة ، أوسموه بطركا وان كان فيها
اسم الرب ، فمعنى ذلك أنه ليس من بين هؤلاء الثلاثة من يصلح
للبطركية . وعليهم آنذاك اختيار ثلاثة آخرين من الرهبان ، وهكذا
حتى يتم اختيار البطرك (١٩٠) .

ويتضح من الروايات التاريخية أن البطرك ، كان يختاره
الأساقفة والكهنة والشعب القبطي عادة . ولا يكون هو الذي يسعى
الى البطركية ، مما يحول دون تنصيبه بطركا لمخالفة ذلك لقانون
الكنيسة القبطية . نذكر من الأمثلة على ذلك الراهب يونس بن
كدران الذي تطلع الى البطركية بعد وفاة البطرك غبريال بن تريك ،
الا أن مساعيه قد باءت بالفشل . ولكنه جدد مساعيه مرة أخرى
بعد وفاة البطرك أنبا ميخائيل ، واستعان بالخليفة في سبيل
وصوله الى كرسي البطركية . وقد أمر الخليفة بعقد مجلس من

الأساقفة وخواص الدولة للنظر فى الأمر . وقد رفض الكهنة والأساقفة بشدة تنصيبه بطركا . وقالوا : انهم لا يقيمون بطركا الا الشخص الذى يختارونه هم بأنفسهم ، ويرغبون فيه ولا يكون طامعا فى البطركية . وقد أقاموا يونس بن أبى الفتح بطركا لهم باسم يوحنا ، وذلك فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ (١٩١) .

وكان البطرك بعد اختياره ، يأتى به الكهنة من الدير الذى يقيم فيه الى الكنيسة التى يتم فيها تنصيبه بطركا ، مقيدا بالحديد (١٩٢) . ولعل ذلك لامتناع الكثير عن تولى هذا المنصب الدينى الخطير ، وتفضيلهم حياة النسك والعبادة ، والتفرغ للعلم على هذه المسئولية الكبيرة .

وكان القبط ، يحتفلون بتنصيب بطركهم ، احتفالا دينيا عظيما . ونذكر من أمثلة هذه الاحتفالات ، الاحتفال بتعيين البطرك اسحق - فى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر - فقد نظم القبط موكبا رائعا، يتوسطه البطرك اسحق، وساروا به من بابليون الى الاسكندرية مقر البطركية المرقسية ، حيث انضمت جموع القبط المؤمنين الى هذا الموكب . وكان يتقدم الموكب الكهنة ، يحملون مجامر البخور ، بينما يرفع الشماسية الصليبان عليه ، ويتبع هؤلاء جمهور الشعب حاملين الشموع الموقدة . وأخذ الجميع يترنمون بالمزامير والتسابيح الى أن وصلوا الى كنيسة مار مرقس حيث أقيم الاحتفال برسامته ، وأصبح البطرك الحادى والأربعين (١٩٣) .

وكان البطرك هو الذى يضع القوانين الكنسية (١٩٤) . وكان يخاطب ببعض ألقاب التشريف والتكريم . فمثلا يقال له : « البطرك الجليل ، القديس ، الخاشع ، قدوة النصرانية » (١٩٥) .

وقد ذكرنا من قبل - فى الباب الأول - أن موافقة أمراء مصر وخلفائها ، على البطرك الجديد ، كان أمرا ضروريا لاتمام مراسيم تعيينه . ومن كان يكتب له توقيع أو سجل ، ينضمّن موافقة والى مصر أو خليفته على اقامته بطركا ، ويوصيه فيه باتباع العدل والانصاف بين رعيته من القبط ومراعاة أمور الكنائس والأساقفة والقسس والرهبان وأديرتهم ، ولا يعترض عليه أحد فى شىء (١٩٦) . وسنذكر نص توقيع للبطرك ، ووصية له ، ضمن الملاحق فى نهاية الرسالة .

يلى البطرك فى الدرجات الكهنوتية ، المطران ويسمى أيضا كبير الأساقفة (١٩٧) وكان هذا الاسم فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، يطلق على البطرك (١٩٨) . وتسير بعض المصادر المصرية الى أن بطرك القبط اليعاقبة ، كان يقال له عند الفتح العربى كبير الأساقفة (١٩٩) . ثم صار المطران أو كبير الأساقفة له السلطات القضائية فى الاقليم ، وهو الذى يفصل فى الخصومات بين القبط ، وينظر فى شكواهم (٢٠٠) . وكان على رأس كل عشرة أساقفة مطران ، يكون له السلطة القضائية عليهم ، وإذا توفى أحد هؤلاء الأساقفة ، كان له حق تنصيب آخر مكانه (٢٠١) . وكان البطرك رئيسا لكل المطارنة فى مصر ، ويوجد أربعة مراكز للمطارنة ، الاسكندرية والمنوفية وأورشليم والحبشة ، وكلها تحت رئاسة البطرك القبطى ، الذى يختارهم بنفسه ، ويرأس احتفالات تنصيبهم (٢٠٢) .

يأتى بعد المطران ، الأسقف ، وهو نائب البطرك بالمدينة (٢٠٣) . ولا يشترط فيه ألا يكون متزوجا ، وانما يكون متزوجا من زوجة واحدة ، كما يجب أن يكون وقت اختياره أسقفا

عزباً (٢٠٤) . ويختاره رجال الكنيسة والعلمانيون ، وقيمه
البطرك أسقفا ويباركه (٢٠٥) .

وكان من عادة القبط الاحتفال بتنصيب أسقف مصر ، وذلك
بأن يسير الأسقف الجديد في موكب حافل من المكان الذى يوجد
فيه الى أن يصل الى الكنيسة التى يقدس له فيها . نذكر من
الأمثلة على ذلك ، ما حدث عندما أقيم الراهب يونس بن سنهوت ،
أسقفا على مصر ، فى بطركية الأب مقارة ، وفى عهد الخليفة الفاطمى
لأمر بأحكام الله ، ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش . فقد أبلغ
الكلية وكبار القبط والموظفون منهم ، متولى المعونة فى مصر ، أنه
قد أقيم لهم أسقف جديد، عوضا عن الأسقف المتوفى أنبا سنهوت ،
وأنهم يريدون أن يسيروا به فى موكب من حيث هو ، الى كنيسة
أبى سرجة بقصر الشمع - كما جرت العادة - ويبدو أنهم كانوا
يخشون تعرض عامة المسلمين لهم فى الطرقات . وقد أرسل لهم
الوالى نائبا وجماعة من العسكر ؛ ليحققوا لهم والأمن والهدوء .
وركب الأسقف بغلة عالية من دواب بعض أصحاب الدواوين ،
وسار فى موكب حافل بالقراءة ، وبين يديه الشموع الموقدة ،
والأناجيل وهجاءم البخور حتى وصل الموكب كنيسة أبى سرجة ،
حيث قدس وقرئ تقليد الأسقفية عليه . كما أعيد له هذا الموكب
فى يوم الأحد التالى عند خروجه الى كنيسة السيدة العذراء بحارة
زويلة . ليقدس فيها أيضا (٢٠٦) . وكان للأسقف الحق فى تعيين
القسس والشمامسة وغيرهم من الرتب الكهنوتية داخل دائرة
أسقفيتهم (٢٠٧) .

أما القمص Gommos, Kummus فيكون من بين القسس ،
ويوجد فى الكنيسة والدير على حد سواء . ويكون القمص فى الكنيسة

رئيسا للكهنة بها ، ويخضع له القسيس والشمامسة . بينما القمص
فى الدير ، يكون أب الدير ، أو بمعنى آخر رئيسه (٢٠٨) .

ويشترط فى القسيس أن يكون على أخلاق حميدة ، خاليا من
العيوب الجسمانية ، ولا يتجاوز عمره ثلاثا وثلاثين سنة (٢٠٩) .
ويجوز له الاستمرار مع زوجته الى حين وفاتها ، ولا يجوز له اتخاذ
زوجة ثانية (٢١٠) . ويشترط أن يكون شماسا قبل تعيينه
قسيسا، فان لم يكن كذلك فعليه أن يقوم بأعمال القارئ والشماس
فى الأيام السابقة لتعيينه قسيسا (٢١١) . ويكون القسيس من
بين الصناع والخياطين والنساج وغيرهم ، من أصحاب الأعمال
اليدوية . ولا يشترط فيه أن يكون عالما ، حاذقا . ويجب أن يكون
على علم باللغتين العربية والقبطية ، حتى يتمكن من اعلان القداس
وقراءة الصلاة فكتب القبط الدينية ، تحتوى على ترجمة عربية الى
جانب النص القبطى . ويباشر بعض القسس أعمالهم القديمة ،
بينما يختص آخرون بتعليم الأطفال القراءة بالعربية والقبطية ،
وتعليمهم الديانة المسيحية وان كان لا يمكنهم أن يصلوا الى درجة
الوعظ بين القبط (٢١٢) . ويقول القلقشندي (٢١٣) ، ان القسيس
هو القارئ الذى يقرأ عليهم الانجيل والمزامير وغيرها .

ومن الدرجات الكهنوتية التالية لذلك ، الأرض دياقن
Archdeacon وواجباته واسعة ، ويكون عادة مسئولا عن النظام
فى خدمة الكنيسة . كذلك يكون من مهماته الاشراف على أملاك
الكنائس ، وهو رئيس الشمامسة فى نطاق عمله . وعليه أيضا
مساعدة الأسقف فى أعماله . وهو الذى يسمح لوكلاء الكنائس
بالدخول الى كنيسة (٢١٤) .

ويبدو أن كل مدينة كان لها أرش دياقن واحد ، من واجبه
الحرص على مراعاة التقاليد والعادات والقوانين الكنسية ، ويكون
له شأن وأهمية في تقديم القداس . يدلنا على ذلك ، ما حدث ،
بعد وفاة البطريرك يوحنا - في إمارة عبد العزيز بن مروان على
مصر - حينما أراد الأساقفة والكهنة ، في الاسكندرية ، تقديم
الشماس جرجة بطركا لهم في يوم دون يوم الأحد من أيام الأسبوع ،
فمنعهم من ذلك أرش دياقن المدينة ويسمى مرقص وقال لهم : « ان
لم تجيئوا يوم الأحد وعلى ما جرت به العادة في القوانين ، وتجتمع
جميع أهل المدينة ، والا فما أوسمه » (٢١٥) .

أما الشماسية فأعدادهم كثيرة (Schamas, diacres, deacons)
ويكونون في الغالب ، صغار السن ، ويستخدمون في خدمة
الكنيسة ، ومساعدتهم ضرورية أثناء القيام بالقداس (٢١٦) .
ويقول القلقشندي (٢١٧) : ان الشماس هو قيم الكنيسة كما يذكر
من بين الوظائف الدينية في الكنيسة ، صاحب الصلاة ، ويسميه
الجاثليق ، ويستترط في الجاثليق أن يكون طويل القامة ، جهير
الصوت ، جيد الخلق ، وافر اللحية وعظيمها ، وأن يكون أيضا
زاهدا في الرياسة (٢١٨) .

يأتى بعد ذلك الراهب ، وهو الذى « حبس نفسه على العبادة
في الخلوة » (٢١٩) . ولا يرغب شيئا من متاع الدنيا ، وأملاتها .
ويحيا حياة هادئة ، خالية من المسئوليات ، ومشاغلا بالحياة .
والرهبانية يقصد بها ، طريقة المعيشة المنعزلة عن الناس في خلوة
فردية تامة ، بغرض التفرغ للعبادة (٢٢٠) . ولا يشترط في
الراهب أن يكون بتوليا ، غير متزوج اطلاقا ، اذ يقبل في الرهبنة
المتزوجون ، الذين تركوا زوجاتهم نهائيا ، عند طلبهم لرتبة الرهبنة ،
ولا يشترط للراهب سن معينة (٢٢١) .

يعيش الراهب ، حياة قاسية ، صارمة ، يقتات البقول ، كالفول والعدس ، الى جانب الأسماك . ولا يمكنه تناول شئ من اللحوم فى طعامه الا فى أيام الأعياد . أما حياته اليومية فتشير بعض الروايات الى أن الراهب يذهب ثلاث مرات - فى أثناء اليوم الواحد - الى الكنيسة لقراءة المزامير . أما بقية اليوم ، فيقضيه الراهب فى دراسة كتب الطقوس الدينية وتفسيرها (٢٢٢) . وكما يقبل كثير من رجال القبط على حياة الرهبنة كذلك نجد بعض النساء يرغبن فى الرهبنة ، وحياة النسك والعبادة ، وكان لكل من الرهبان والراهبات أماكن خاصة بهم (٢٢٣) .

ومساكن الرهبان نوعان : الأول القلاى ، ومفردها قلاية ، وهى عبارة عن مغاير منفردة للمتوحدين ، المنعزلين بعيدا عن السكن (٢٢٤) . والقلاية نعد أصلا ، ليسكنها راهب واحد . ويقوم الرهبان أنفسهم بحفر القلاية فى الصحراء ، ومغاير الجبال . أو بنائها من الطوب (٢٢٥) . أما النوع الثانى من المساكن التى يقيم فيها الرهبان للتعبد والنسك ، فهى الأديرة ، ويقال لها : كينويون ، وهى كلمة يونانية ، معناها المعيشة المشتركة (٢٢٦) .

وقد تعددت الأديرة فى جميع أنحاء البلاد المصرية . واشتهر من بين هذه الأديرة فى مصر الاسلامية أديرة وادى هبيب (٢٢٧) . ونجد له أسماء كثيرة منها وادى البطرون ، وبرية شيهات ، وهى التسمية القبطية لهذه المنطقة ، ومعناها ميزان القلوب ، لأنه مكان عبادة ونسك واصلاح السيرة والسريرة ، كما سميت هذه المنطقة باسم الأسقبط أى الناسك أو النسك أو محل النسك (٢٢٨) .

وكان يوجد فى هذا الوادى عدد كبير من الأديرة ، الا أنها خربت عند غزو الفرس لمصر فى عصر الرومان ، ولم يبق منها

الا سبعة أديرة فقط . وتشير الرواية التاريخية الى أنه بعد أن تم
لعمر بن العاص فتح مصر ، وزال الحكم البيزنطى ، خرج الرهبان
من هذه الأديرة ، وعددهم سبعون ألفا ، لمقابلة عمرو بن العاص ،
وعقد الأمان معه ، فسلموا عليه ، وكتب لهم كتابا حفظوه
عندهم (٢٢٩) . وهذا الكتاب بدون شك ، كان يتضمن النعهد
بسلامتهم وأمانتهم ، وحریتهم الدينية .

وكانت هذه الأديرة محل عناية واهتمام البطارقة طوال
تاريخ مصر الاسلامية ، يضعون لها القوانين - كما فعل البطرک
بنيامين - ويعنون بتعمير الأديرة فيها وتنظيمها ، وتحقيق الأمن
والسلام لرهبانها . ونذكر من الأمثلة التى تدل على مدى اهتمام
البطارقة بهذه الأديرة وعنايتهم بها ما حدث فى بطرکية أنبا
شنودة ، فى القرن الثالث الهجرى (٨٥٩ - ٨٨١م) فقد تعرضت
أديرة وادى هبيب لغارات جماعة الأعراب فى صحراء مصر الغربية .
ولما علم هؤلاء ، بعزم البطرک على الذهاب الى هذه الأديرة لقضاء
أيام الصوم المقدس ، وعيد الفصح ، بادروا الى دير أبى مقار
واستولوا على جميع ما كان فيه ، كما تعرضوا أيضا لبعض الأديرة
الأخرى فى هذه المنطقة ، وكان هؤلاء الأعراب ينتهزون فرصة خروج
الرهبان من قلايهم وأديرتهم فينقضون عليهم ، ويجردونهم مما معهم
حتى ملابسهم . وحاول انقبط منع البطرک شنودة من الذهاب الى
وادى هبيب خوفا عليه من هؤلاء الأعراب ، ولكنه أصر على تحقيق
ما جرت به العادة ، وذهب الى هذه البرية ، وقوى الرهبان بها وخرج
يتقدمهم لمواجهة هؤلاء الأعراب ، الذين لاذوا بالفرار من وجه
البطرک شنودة ، ففضى هذا البطرک أيامه فى أديرة وادى هبيب
فى هدوء وسلام . وقام بالقداس بها (٢٣٠) .

اهتم البطرک شنودة بعد ذلك ، بترميم وتعمير دير القديس
أبى مقار ، وأحاطه بسور منيع ، لحماية الرهبان من أى أذى

أو خطر قد يهددهم (٢٣١) . وتقول الرواية القبطية : « ومن كثرة اهتمامه بالبرية المقدسة ، أقام فى بيعة أبى مقار تذكارا جيدا ، وهو أنه لما ذكر فعل الرب بالرهبان والبيعة ، عول على بناء سور حصين على البيعة » وتشير هذه الرواية أيضا الى أنه جمع الأحجار ، وشارك فى عملية البناء بنفسه (٢٣٢) . وقد اتخذ بعض البطارقة أديرة وادى هبيب مقرا لهم بدلا من الاسكندرية التى لم يعد أحد يقيم فيها منذ عهد البطرك أنبا خايال - فى عهد الأمير احمد ابن طولون - ومن هؤلاء البطارقة ، أنبا غبريال (٢٣٣) .

كان من عادة البطارقة القبط بعد اختيارهم أن يقيموا القداس فى الاسكندرية ومصر ودير أبى مقار . فلما تم اختيار أنبا مقار بطركا ، فى عهد الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش ، أقام القداس فى الاسكندرية ثم قدم الى مصر لإقامة القداس فيها . فاعترض على ذلك جماعة من الرهبان الذين حضروا الاحتفال والقداس فى الاسكندرية ، وقالوا : ان ذلك مخالف للعادة ، التى تقضى بإقامة القداس فى دير أبى مقار فى وادى هبيب بعد اقامته فى الاسكندرية ، واضطر البطرك الى تأجيل القداس فى مصر ، وذهب الى دير أبى مقار ، وأقام به القداس ، ثم عاد الى مصر حيث أقام القداس فى الكنيسة المعلقة (٢٣٤) .

وبلغ عدد الرهبان فى أديرة وادى هبيب فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وبطركية أنبا كيرلس ، سبعمائة راهب . كان منهم فى دير أبى مقار أربعمائة ، وفى دير أنبا يوحنا مائة وستون راهبا ، ودير لبوكا كنن به خمسة وعشرون راهبا ، ودير البراموسى ، عشرون ، ودير أنبا بشاى أربعون ، ودير السريان ، ستون ، أما دير أنبا موسى ، فكان لا يوجد به فى ذلك الوقت سوى راهبين أحدهما سريانى الأصل ، والثانى قبطى ، وذلك سوى

الزائرين والسياح • وكان هذا الإحصاء فى سنة ٤٨٠ هـ =
٨٠٤ م (٢٣٥)

كانت الأديرة منتشرة فى جميع أرجاء مصر • وكان أكثر هذه
الأديرة خاصا بالرهبان بينما يوجد عدد قليل منها خاص بالراهبات •
ومن الأديرة الخاصة بالراهبات دير الراهبات بحارة زويلة ، ودير
البنات بحارة الروم ، ودير المعلقة بمصر ودير بربارة (٢٣٦) وقد
تعددت كتابات المؤرخين عن الأديرة فى مصر عامة • ونستخلص
منها ، أن هذه الأديرة ، كانت كثيرة القلاى يحرص الرهبان على
تزيينها بالقناديل والصلبان الذهب ، كما انه كان يلحق بها
البساتين والطواحين والسواقي • كما كان كثير من هذه الأديرة
متنزها ، ومكانا لأهل اللهو والخلعة حيث يكثر بها الشراب •
وقد شارك المسلمون القبط فى اتخاذ كثير من هذه الأديرة متنزهات
لهم ، ومكانا لاشباع هواياتهم فى صيد الطيور أو الأسماك • كما
اهتم كثير من الأمراء والخلفاء ، بعمارة الأديرة وتزويدها بالبساتين
الآهلة بالأشجار المتنوعة ، وأيضا اطلاق وقف لها من الأراضى
الزراعية • وتغنى بعض الشعراء بهذه الأديرة ، وما يدور بداخلها
من الشراب واللهو (٢٣٧) •

وهل كان شأن الكنائس هو شأن الأديرة فى مصر الإسلامية ؟
فى الواقع أن الكنيسة كانت تختلف عن الدير ، من حيث الغرض
الذى يؤدىه كل منهما • فبينما كان الدير مسكنا للرهبان
أو الراهبات ، نجد الكنيسة هى المكان الذى تجتمع فيه عامة القبط
للمصلاة وأداء الطقوس الدينية المختلفة (٢٣٨) •

وقد لمسنا من دراستنا لدور أهل اللمة فى تاريخ مصر
السياسى ، ان الكنائس قد لقيت عناية كبيرة من القبط ورؤسائهم

الدينيين ، كما شاهدت تعميرا واسعا خلال العصور التاريخية المختلفة بتأييد من الحكومة نفسها ، وان الكنائس لم تتعرض لمحاولات التخريب والتدمير الا فى فترات محدودة ، وهى فترات الضيق التى تعرض لها القبط وقاسوا فيها بعض الشدائد ، كما ذكرنا من قبل .

تعددت كنائس القبط فى مصر ، وانتشرت فى جميع البلاد فى الوجهين البحرى والقبطى ونذكر من كنائس القسطنطينية : كنيسة أبى سيفين ، وكنيسة أنبا شنودة ، وكنيسة السيدة مريم ، وكنيسة مارى مىنا ، وكنيسة أبى سرجة ، وكنيسة القديسة بربارة وغيرها (٢٣٩) كما تعددت الكنائس فى القاهرة فى حارات زويلة وحارات الروم (٢٤٠) . كذلك تعددت الكنائس فى صعيد مصر ، ونالت كثيرا من التعمير (٢٤١) .

ونذكر من أمثلة اهتمام البطارقة بالكنائس ، اهتمام البطررك أنبا شنودة الذى أخذ يتفقد شئون الكنائس بنفسه فى كل مكان . فبدأ بكنائس وأديرة صعيد مصر ، واتصل بالقبط هناك وزادهم من علومه ووصاياهم ، ثم عاد الى الاسكندرية لبحث شئون كنائسها أيضا ، وبنى مكان القلاية البطركية - وتسمى باليونانية قسطنطوريون - موصعا يأوى اليه المساكين والضعفاء من القبط . كما حفر قناة لتصل اليهم المياه العذبة ، بدلا من المياه الملحة التى كانوا يشربونها . وحفر كثيرا من الآبار ، وعمل على توصيل هذه المياه أيضا الى ضواحي مدينة الاسكندرية وما يجاورها من الضياع والأقاليم (٢٤٢) .

بعد أن أشرنا الى جماعات اليعاقبة والوظائف الدينية بين القبط وأماكن عباداتهم من الأديرة والكنائس ، تجدر بنا الإشارة

الى ما يسمى القبط بأسرار الكنيسة السبعة Seven Canonical Sacraments وهي التعميد ، والتثبيت ، والقربان أو تقديم القداس ، والعقوبة الدينية أو الاعتراف ، والرتب الكهنوتية ، والزيجة ، وأخيرا الميرون أو زيت المرضى .

أما التعميد والتثبيت ، فيتضمن تنصير الأطفال الجدد ، ولم يحدث أن خالف القبط هذه التقاليد ، أو تراجعوا عن القيام بها وطوال العصور التاريخية الاسلامية كما أن قوانين التعميد ، أو المعمودية لم تلغ اطلاقا . ولا يجوز تعميد الأطفال في أيام الصوم الكبير ، والأسبوع المقدس ، ولا في عيد القيامة . ويرى البعض أن التعميد لا يجوز الا مرة واحدة في السنة في يوم الجمعة العظيمة (٢٤٣) .

وتشير الرواية القبطية الى أن البطريرك أنبا خرستودولس - في عهد الخليفة المستنصر - كتب قانونا للكنيسة القبطية (في ٨ مسرى ، سنة ٧٦٤ ش) ويتضمن هذا القانون ، ألا يعمد ذكر وأنثى في معمودية واحدة ، وأنه لا يجوز أن تتم المعمودية في يوم الجمعة الكبير ، ولا في أيام الخماسين . وإذا عمد الطفل ، فليصم الى أن يتقرب اذا قدر ، ولا يجوز معمودية بدون قربان (٢٤٤) .

أما القداس أو تقديم القربان ، فيقوم به البطريرك أو الأسقف في دائرة أسقفيته ويرتدى رجال الكنيسة ، في أثناء القداس ، في الأيام العادية التونسية dalmatic والطيلسان Amice بينما في أيام الأعياد ، كان عليهم أن يرتدوا الملابس الدينية كلها - سنشير الى هذه الملابس في الفصل التالي - ويستخدم للقربان ، الخبز من الدقيق الفاخر . ويقوم بصناعته قيم الكنيسة ويعده في صباح يوم القداس (٢٤٥) . ويكون هذا الخبز عادة غير مختمر ،

وبدون ملح وخاليا من المواد الدهنية أيضا ، ومختوما بختم باللغة القبطية فيه شكر لله . (٢٤٦) .

أما الخمر اللازمة للقربان - وهى من ضروريات القداس - فيصنعها القبط من عصير العنب ، أو الزبيب المجفف ، المنقوع فى الماء لبعض الوقت . وكانت الخمر تعد بكميات كبيرة تكفى السنة كلها ، وتصنع عادة فى القاهرة ، ومنها توزع على مختلف الكنائس فى جميع أنحاء البلاد المصرية (٢٤٧) . وقد أمر عبد المسيح بن اسحق - نائب الخليفة المتوكل فى مصر - بمنع صنع النبيذ فى جميع أنحاء البلاد المصرية وخاصة الفسطاط وحذر من بيع وشراء الخمر . وكان يرمى من وراء ذلك الى عدم توافر الخمر اللازمة لرفع القداس عند القبط . الا أن القبط حرصا منهم على تقديم القربان ، عمدوا الى عيدان النرجون ، فكانوا ينقعونها فى الماء ، ثم يعصرونها ، ويكون هذا العصير عوضا عن الخمر المصنوعة من العنب والزبيب ، وذلك حتى لا يعدموا القربان والقيام بالقداس (٢٤٨) . ويكون القداس عادة فى يوم الأحد من كل أسبوع ، الى جانب أيام الأعياد (٢٤٩) .

ويجدر بنا أن نشير الى الأواني التى كان القبط يستخدمونها فى أثناء القداس وهى : الكأس Chalice والصينية Paton والقبة dome والملقعة spoon والعلبة ، وتسمى أيضا كرسى الكأس Ark or tabernacle والحصيرة أو الطبق Matar or plate وتكون دائرية الشكل يتوسطها صليب كبير الى جانب الصليب الصغيرة فى الجوانب وتعمل عادة من الحرير . وكان يجب اعداد هذه الأواني قبل القيام بالقداس وتغطيتها جميعا بغطاء من الحرير الأبيض أو الملون الذى يتوسطه صليب ، ويسمى هذا الغطاء Veil or Corporal ويستخدم فى القداس أيضا مروحة من

الفضة أو الذهب ، ذات يد خشبية وتسمى Fan or Flabellum .
ويستخدم أيضا الابريق والطست ، لغسل الأيدي عند القداس .
وكان القبط يصنعونهما من المواد الثمينة كالبرونز والفضة . ومن
ضروريات القداس أيضا ، الميرون أو الزيت المقدس والصليب
ونسخة من الانجيل (٢٥٠) .

وتذكر الروايات التاريخية أن هذه الأواني المستخدمة في
القداس ، كانت في الغالب مصنوعة من الذهب والفضة . ولكنها
في القرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي) استبدلت بها
الأواني الزجاجية والخشبية ، بعد أن امتدت أيدي المسلمين الى
الكنائس لتخريبها والاستيلاء على ما فيها (٢٥١) . ففي بطركية
الاكسندروس استولى قرة بن شريك والى مصر على أواني الكنائس
الذهبية والفضية ؛ مما اضطر البطريرك الى أن يستخدم في القداس
كأسا من الزجاج ، وصينية من الخشب (٢٥٢) .

وكان البخور من ضروريات القداس وتقديم القربان (٢٥٣) ،
وكانت الرسائل والتعاليم التي تتلى أثناء القداس ، تقرأ بالقبطية
ثم بالعربية (٢٥٤) . وكان لا يجوز لأحد من القبط تناول القربان
مرتين في اليوم الواحد (٢٥٥) .

وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وضع
البطريرك خريستودولس بعض القوانين الخاصة بالقداس وتقديم
القربان . وقد جاء في هذه القوانين ، ألا يدخل أحد الكنيسة
الا حافي القدمين مكشوف الرأس . وأن يكون وقوفهم في الكنائس ،
وقت القداس في أيام الآحاد والأعياد في خشوع بين يدي الله حتى
يغفر لهم خطاياهم ، ويضمن لهم النجاة من مكائد العدو . وألا يتكلم
أحد في وقت الصلوات والقداس . كما أوصى في هذه القوانين

بأن تقف النساء في مواضعهن بعفاف ولا يختلطن بالرجال . وبعد فراغ القداس في يوم عيد الزيتونة يقرأ الانجيل تزيحيم الموتى . ويكون القداس يوم الخميس الكبير برهبة وخشوع بغبر تقبيل ولا مصافحة . كما أشار هذا البطرك في قوانينه الى أنه لا يجوز لأحد من الأساقفة والقسس والشمامسة القرباء في مدينة الاسكندرية أن يقدسوا في كنائسها (٢٥٦) .

كما تضمنت قوانين هذا البطرك ، أنه لا يجوز لأي شماس أو قسيس أن يتأخر عن القداس . كما لا يجوز أن يخرج القسيس مجهزة البخور بعد قراءة الانجيل ، وسط الشعب بل يبخر بها حول المذبح . ثم قال : أنه يجوز للقبط عمل القربان في المنازل ، وحمله الى الكنيسة حتى يكون لهم الأجر والثواب ، ويكون عمله على ما جرت به العادة ، وذلك تخفيفاً للأعباء الكنيسة المالية (٢٥٧) .

وكان من عادة رهبان دير أبي مقار وكنيسة الاسكندرية ، أن يتركوا قربان أحد الزيتونة الى يوم الأربعاء الكبير . فلما زار البطرك خريسطودولس ، أديرة وادي هبيب ، وأدرك هذه العادة ، أمر الرهبان بإبطالها ، لما يصيب القربان نتيجة لذلك من العنف والتغيير وغيره . كما هدد بحرمان من يفعل هذه العادة بعد ذلك . فثار الرهبان واختلفوا مع البطرك ، فأخرج البطرك ، من خزانة الكتب الموجودة بدير أبي مقار ، من الكتب ما يثبت خطأ هذه العادة وبطلانها . ومنذ ذلك الوقت لم يجرؤ أحد من القبط أن يترك قربانا (٢٥٨) .

أما الاعتراف السري أمام الكاهن ، فتقول تبشر (٢٥٩) : أنه كان عادة بين جميع المسيحيين . ثم صار فريضة الزامية في أواخر القرن الرابع الميلادي ، بعد أن أدرك الرؤساء الدينيون أن

الاعتراف علنا ، يؤدي الى بعض الأخطار . ونستخلص من ذلك أنه كان من قوانين الكنيسة المسيحية ، أن يعترف المسيحي علنا بين جمهور الحاضرين في الكنيسة بأخطائه وذنوبه . ومما لا شك فيه أن ذلك كان ينتج عنه بعض الأخطار ، كأن تعترف زوجة مثلاً ، بذنوبها أمام زوجها . ولذلك سار الاعتراف سرا ، أمام الكاهن الذي كان عليه أن يميز بين الخطايا الواجب الاعتراف بها علنا ، وتلك التي يجب الاعتراف بها سرا (٢٦٠) . وكان المذنبون بعد الاعتراف بخطاياهم العلنية ، التي لا يخشون من الإفشاء بها ، يركعون أمام الهيكل ويعترفون في سرهم بالخطايا التي لا يمكنهم التصريح بها ، وفي أثناء ذلك يطوف الكاهن بالبخور في أرجاء الكنيسة ، وحول الهيكل (٢٦١) .

أما الكهنوت ، أو بمعنى آخر الدرجات الكهنوتية ، فقد تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل ، باعتبارها ، الوظائف الدينية في الكنيسة . ويأتي بعد ذلك الزيجة أو الزواج ، ولا يجوز الاحتفال به في أيام الصوم الكبير . وإنما جرت العادة على أن يتم الزواج في بداية العيد . ويمتاز هذا الاحتفال في الكنيسة بالوقار . وكان يجب على القسيس أن يتأكد من أن الزوجين يقبلان على الزواج بإرادتهما دون أرغام أو ضغط من أحد . ويلبس جميع أكليروس الكنيسة يوم حفل العرس ، اللون الأبيض . وكان من الملابس الخاصة بالزواج ، صليب من الذهب وخاتم من الذهب ، والمنطق . وكان من عادة القبط أن يعطى الزوج هذه الأشياء للبطرك ليباركهما ، ويقوم عليها بطقوس الخدمة ، قبل ليلة الاحتفال (٢٦٢) .

وكان حفل الزواج ، يبدأ بقراءة مزامير التوبة والغفران ، ويشعل القسيس البخور وبعد ذلك يبدأ جماعة الرنمين في الغناء . يلي ذلك قراءة الانجيل بالقبطية ثم العربية ، ويقوم الحاضرون

بالصلاة . وكان الزوج يلبس أثناء الاحتفال ، تونية بيضاء من الحرير ، تصل الى القدم ، ويشد وسطه بالمنطق ، ويلبس على رأسه غطاء أبيض ويضع البطر ك الخاتم فى يده اليمنى ويباركه ، وبعد ذلك يقف العروسان وعلى رأسهما الصليبان الذهبية ، ويعلن القسيس براءتهما ، ويقدم العروس للعريس ، ويمنحهما بركاته . ثم تضاء جميع أرجاء الكنيسة ، ويعلن القداس ، ويقدم القربان . وبعد الانتهاء من هذه المراسيم ، يخرج العروسان من الكنيسة الى منزلهما الخاص (٢٦٣) .

وآخر أسرار الكنيسة السبعة ، هو ما يسمى بالميرون أو الزيت المقدس ، كما يسمى أيضا زيت المرضى ، ويسميه العرب زيت القناديل . وكان القبط يعتقدون أن هذا الزيت له أسرار عجيبة فى شفاء المرضى والمخبولين (٢٦٤) .

ثم ننتقل الى أعياد القبط ، واحتفالاتهم الدينية والقومية ، وطريقة احتفالهم بها . كان القبط فى مصر الاسلامية ، يحتفلون بأربعة عشر عيداً دينياً ، منها سبعة تسمى (الأعياد الكبار) وسبعة تسمى (الأعياد الصغار) الى جانب الأعياد القومية ، عيد النوروز ، واحتفال وفاء النيل .

أما الأعياد الكبار فهى : عيد البشارة La fête de l'Annonciation ويكون فى ٢٩ من شهر برمهاث . ويحتفلون فيه بذكرى بشارة جبريل - أو غبريال كما يسمونه أحياناً - لمريم عليها السلام ، بميلاد المسيح (٢٦٥) .

وعيد الزيتونة ، ويسمى أيضا عيد الشعانين ، أى التسبيح La fête des Rameaux ويحتفل به القبط فى يوم الأحد

السابق لعيد الفصح . وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخيل من الكنيسة . ويقولون ان هذا العيد ، ذكرى ركوب المسيح العنبر أو اليعفور (الحمار) فى القدس ، ودخوله الى صهيون ، وهو راكب والناس بين يديه ، يسبحون وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحث على فعل الخير . وهذا العيد من الأعياد التى تزين فيها الكنائس فى مصر (٢٦٦) .

أما عيد الفصح La fête de Pâquea ويسمى العيد الكبير — كما يعرف أيضا بعيد القيامة ، فيحتفل به بعد عيد الصليب — أو الصلبوت — بثلاثة أيام . ويزعمون أن المسيح قام فى هذا اليوم من القبر ، بعد ادعاء اليهود صلبه ، وأقام فى الأرض أربعين يوما ثم صعد الى السماء (٢٦٧) .

ومن الأعياد الكبار أيضا ، خميس الأربعين ، ويسمى عيد الصعود La Fête de l'Ascension ويذكر القبط ان المسيح بعد أربعين يوما من قيامته ، خرج مع تلاميذه ، ورفع يديه وبارك عليهم ، ثم صعد الى السماء ، بعد أن وعدهم باشتهاار أمرهم (٢٦٨) .

أما عيد الخماسين ، ويسمى أيضا عيد العنصرة La Fête de la Pentecôte فيحتفل به القبط بعد خمسين يوما من عيد القيامة . ويزعمون أنه فى ذلك اليوم ، حلت روح القدس فى تلاميذ عيسى عليه السلام ، وتكلموا بجميع اللغات السائدة آنذاك وأخذ كل منهم يدعو الى دين المسيح حسب لغة الذين يعيش معهم (٢٦٩) .

وعيد الميلاد Noel هو ذكرى ميلاد عيسى المسيح عليه السلام ، ويحتفل به القبط عشية الأحد ٢٩ من شهر كيهك . ومن مظاهر

الاحتفال بهذا العيد في مصر ، تزيين الكنائس وكثرة الوقود بها (٢٧٠) . وكان المسيحيون في هذا العيد ، يلعبون بالنار حتى تغنى بذلك الشعراء . قال بعضهم :

فاللعب بالنار في الميلاد من سفه
وانما فيه للانسالام مقصود

ففيه بهت النصارى ان ربهم
عيسى بن مريم مخلوق ومولود

ويتميز يوم الاحتفال بهذا العيد أيضا ، بكثرة بيع السموع الملونة ، والتماثيل البديعة الشكل ، حتى بلغ الأمر بالناس ، أنهم كانوا يتنافسون في المغالة بأثمانها (٢٧١) .

وآخر الأعياد الكبار ، هو عيد الغطاس ، ويسمى أيضا عيد المعمودية La fête de l'Epiphanie or du Baptême ويحتفل به في ١١ من شهر طوبة . وهو احياء ذكرى تعميد يوحنا المعمدانى المسيح ، أو بمعنى آخر غسله فى مياه بحيرة الأردن ، اذ حينما خرج من الماء اتصل به روح القدس . واعتاد القبط فى هذا اليوم النزول فى الماء رغم برودة الجو فى هذا الشهر (٢٧٢) .

وتشير بعض المصادر الى أن القبط كانوا يقيمون بعض الشعائر الخاصة بهم فى عشية عيد الغطاس وهو يوم ذكرى معمودية السيد المسيح . وكانت كنائسهم - فى معظم الأحيان - بها أحواض كبيرة ومملوءة ماء ، يباركها الكاهن ويغطس فيها الجميع كبارا وصغارا . واذا لم يكن بالكنائس أحواض أو خزانات مياه كان الكاهن يبارك الماء فى طست كبير يغطس فيه القبط لتحقيق نفس الغرض . وكان بعض القبط يحتفلون بهذا العيد على شاطئ النيل ويغطسون فيه (٢٧٣) .

هذه هي الأعياد السبعة الكبار عند القبط ، أما الأعياد الصغار فمنها : عيد الختان ويحتفل به فى السادس من شهر بؤونة ، وفيه ختن السيد المسيح . وعيد الأربعين وهو ذكرى دخوله السيد المسيح الهيكل ، ويحتفل به فى الثامن من شهر أمشير (٢٧٤) .

وخميس العهد ، ويقال له أيضا خميس العدس ، لأن القبط كانوا يأكلون فى هذا اليوم العدس المطبوخ . ويحتفل به القبط قبل عيد الفصح بثلاثة أيام . وقد جرت العادة أن يملأ اناء كبير بالماء ، ويؤمزم عليه البطرك ، ويغسل منه أرجل سائر القبط الحاضرين . ويذهبون إلى أن ذلك احياء لما فعله المسيح مع تلاميذه فى مثل هذا اليوم ، ليثبت فيهم روح التواضع وأخذ عليهم العهد بالآل يتفرقوا ، وأن يتواضعوا . ومما لا شك فيه أنه سمي لذلك خميس العهد (٢٧٥) . وكان من عادة أهل الاسكندرية فى هذا العيد أن يخرجوا إلى المنارة بمأكلهم ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهو ، ولا يزالون هناك إلى نصف النهار (٢٧٦) .

أما سبت النور ، فيحتفل به قبل عيد الفصح بيوم واحد . ويذهبون إلى أن النور يظهر على قبر المسيح فى ذلك اليوم فى كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ومن هذا النور تشتعل كل قناديل الكنيسة (٢٧٧) .

ومن الأعياد الصغار أيضا أحد الحدود ، ويسمى فى بعض الأحيان ، الأحد الجديد . ويأتى هذا العيد بعد عيد الفصح بثمانية أيام ، ويوافق أول يوم أحد بعد الفطر ، لأن الآحاد التى قبله كانت كلها صوم . وكان من عادة القبط فى مثل هذا اليوم ، تجديد الأثاث ، وتنظيم المنازل ، والاهتمام بحياتهم الدنيوية . أما عيد

التجلى فيحتفلون به فى الثالث عشر من شهر مسرى ويقولون ان
المسيح ، تجلى لتلاميذه فى هذا اليوم بعد أن رفع • وتمنوا أن
يحضر اليهم ايليا وموسى فتم لهم ذلك فى مصلى بيت المقدس ثم
صعد الى السماء وتركهم (٢٧٨) •

أما عيد الصليب ، فيوافق اليوم السابع عشر من شهر توت •
وهو عيد مستحدث عند المسيحيين فى القرن الرابع الميلادى ، وفى
عهد الامبراطور الرومانى قسطنطين ابن هيلانة • وكان قسطنطين
أول أباطرة الرومان ، الذين اعترفوا بالمسيحية ، واعتنقوها •
والسبب فى الاحتفال بهذا اليوم ، ظهور الصليب فى بيت المقدس
على يد السيدة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين • ذلك أنها ذهبت
الى بلاد الشام ، ودلها الأسقف مقاريوس على الحشبة التى يذهب
المسيحيون الى أن المسيح قد صلب عليها ، وقص عليها ما فعله
اليهود • وقد وجدت فى المكان الذى أشار اليه الأسقف ثلاث
خشبات على شكل الصليب ، وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من
شهر توت ، ومن ثم سموا هذا اليوم عيد الصليب أو الصلبوت ،
وصاروا يحتفلون به كل سنة • وكان هذا الحدث بعد ميلاد المسيح
بثلاثمائة وثمان وعشرين سنة • وقد أمرت السيدة هيلانة ببناء
كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وبعد ذلك عادت الى ابنها وحملت
معه الصليب • وصار لهذا العيد فى مصر موسم عظيم يخرج
القبط فيه الى ظاهر القسطاط ، للهو والشراب وغير ذلك (٢٧٩) •

أما الأعياد القومية التى يحتفل بها قبط مصر ، فيأتى فى
مقدمتها عيد النوروز • ويوافق هذا العيد رأس السنة القبطية ،
وهو أول يوم من شهر توت • ويحرص القبط فى هذا اليوم على
اشعال النيران ، والتراش بالماء ، وفى الحقيقة أن هذا العيد صار
من مواسم لهو المصريين (٢٨٠) •

أما العيد القومى الثانى فهو ، عيد وفاء النيل ، ويوافق اليوم الثانى عشر من شهر بؤونة . وكان من عادة المصريين فى مثل هذا اليوم قبل الاسلام ، القاء فتاة بكر ، مزينة بأجمل الحلى والثياب ، فى النيل ، هدية منهم اليه حتى تفيض مياهه ، ومن ثم تزيد خيراته (٢٨١) . والواقع أن مسألة عروس النيل هذه ، كانت شيئا رمزيا ، ولا يمكن أن تكون حقيقة إذ أنه لا يعقل أن يرمى القوم بفتاة فى قيد الحياة فى النيل . ومن المرجح أنهم كانوا يلقون فى النيل بعض الأشياء الثمينة ، لتكون بمثابة هدية منهم الى النيل الذى يجلب لمصر والمصريين الخيرات الواسعة .

ويشير ابن عبد الحكم (٢٨٢) ، المؤرخ المصرى ، الى ان المصريين أرادوا القيام بعبادتهم هذه ، عقب فتح المسلمين لمصر مباشرة ، وقالوا عمرو بن العاص : ان النيل لا تفيض مياهه الا بالقيام بهذه السنة ، التى اعتادوا عليها . ولكن عمرو رفض الاستجابة لطلبهم وقال لهم : ان الاسلام لا يقبل ذلك إطلاقا ، وأنه يهدم ما كان قبله . ثم حدث انخفاض فى مياه النيل ، ولم تفيض مياهه ، طوال ثلاثة الأشهر التالية ، وهى : بؤونة ، وأبيب ، ومسرى . مما كان له أثره فى حياة المصريين ، لارتباط النيل باقتصادياتهم . وأصبح المصريون على وشك ترك أراضيهم ، لعدم تمكنهم من زراعتها بدون فيضان النيل . فلما أدرك عمرو بن العاص ذلك ، كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب ، يطلعه على حقيقة الموقف ، فأرسل الخليفة اليه بطاقة وأمره بالقائها فى النيل . وقد جاء فى هذه البطاقة : « من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، الى نيل أهل مصر ، أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . ففاض النيل على أثر ذلك ، ومن ثم بطلت ، منذ ذلك الحين عادة القاء فتاة أو خلافه فى النيل بين المصريين .

استمر القبط يحتفلون ، بأعيادهم الدينية والقومية ، فى مصر ، طوال عصر الولاة حتى قيام الدولة الطولونية - أولى الدول المستقلة فى مصر - دون محاولة من جانب الولاة والحكام المسلمين ، لمنعهم من ذلك أو التضييق عليهم فى احتفالاتهم ، اللهم الا فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله ، حينما أصدر أوامره المتتالية بنسأ ن أهل الذمة فى سنة ٢٣٥ ، ٢٣٩ هـ . وكان من بينها « ألا يطلق لهم ، أن يظهرُوا فى شىء من أعيادهم صليبا ولا يشعلوا فى الطرقات » (٢٨٣) .

وقد احتفل القبط بعيد الميلاد ، عقب الفتح العربى ، دون أى تدخل من عمرو بن العاص وحكومته . وتشير الرواية القبطية الى أن البطرك بنيامين ، وجميع كهنة الاسكندرية اجتمعوا فى كنيسة السيدة مريم ، للاحتفال بهذا العيد . وقد اجتمع معهم مقدمو المدينة وجميع القبط رجالا ونساء ، أطفالا وشيوخا ، كعادتهم عند احتفالهم بهذا العيد (٢٨٤) . ويذكر أبو صالح الأرمنى (٢٨٥) : انه كان من عادة أهل مصر من القبط والمسلمين فى هذا العيد ، أن يوقدوا الشموع والمصابيح ، والأحطاب على نطاق واسع . ونستخلص من روايته هذه ، ان المسلمين قد شاركوا القبط فى الاحتفال بأعيادهم منذ السنوات الأولى للفتح العربى لمصر . ومما لا شك فيه أنهم اعتبروا هذه الأعياد مواسم للهو والشراب .

ويسير ابن المقفع (٢٨٦) : الى احتفال قبط مصر بسبت النور فى عهد الولاة عبد العزيز بن مرقان . ويبدو أنه كان من عادة قبط مصر فى مثل هذا اليوم كل سنة ، تزيين الكنائس والأديرة . كما جرت العادة أيضا بين القبط ، على تزيين الكنائس والأديرة فى يوم عيد الشعانين ، بأغصان الزيتون ، وقلوب النخيل ، ويفرق منها

على الناس ، على سبيل التبرك ، وقد استمرت مثل هذه العادات طوال عصر الولاة وما بعده (٢٨٧) .

والواضح من بعض الروايات التاريخية أن كل إقليم من الأقاليم المصرية ، كان له طابع مميز في الاحتفال بهذا العيد - أي عيد الشعانين ، أو كما يسمى أحيانا عيد الزيتونة - والدليل على ذلك ما ذكره المقرئ من أن قبط أخميم ، كان من عاداتهم ، بعد الاحتفال بعيد الزيتون أن تخرج القسس والشمامسة ، بالمجامر والبخور ، والصلبان والأناجيل والشموع الموقدة : فيجربون أرجاء المدينة ويقفون على باب القاضى ، ثم أبواب أعيان المسلمين، ويبخرون ويقرأون ، فصلا من الانجيل ، ويمدحون هؤلاء الأشخاص (٢٨٨) .

بينما نجد أن قبط الاسكندرية كان من عاداتهم فى مثل هذا اليوم ، أن يخرجوا ليلا وفى أيديهم أغصان الزيتون ، ويشقوا بها الطرقات والسوق من بيعة القديس أبى سرجة الى بيعة السطير ، وهم مواصلون القراءة والدعاء (٢٨٩) .

أما عيد الغطاس ، فكان من مظاهر احتفال قبط مصر به فى هذا العصر - أى طوال تاريخ مصر الاسلامية حتى سقوط الدولة الفاطمية - أن يركب متولى الشرطة فى أول الليل - ويسمون لها ليلة الحميم - فى موكب كبير ، مرتديا أجمل الثياب وأفخرها . ويوقد بين يديه الشموع والمشاعل ، ويطوف الشوارع ، وينادى فى الناس ، ألا يختلط المسلمون بالقبط فى تلك الليلة ، ويتركوا للقبط فرصة الاحتفال بعيدهم . إذ كان فى سحر تلك الليلة ، يخرجون الى شاطئ النيل ، ويغطس كثير منهم فيه . وكان من عادة الملكانيين خاصة فى هذه الليلة ، أن يخرجوا من كنيستهم فى قصر الشمع ، فى جمع عظيم بالقراءة الملحنة ، والنغمات الملعنة ،

والصلبان المشهورة ، والشموع الموقدة الى شاطئ النيل حيث
يخطب فيهم الأسقف المرعوس عليهم باللغة العربية ، ويدعو للحاكم
وكبار رجال الدولة ، ثم يعودون في نفس الوضع ، الى كنيستهم
حيث يتمون صلواتهم هناك (٢٩٠) .

ونستخلص من هذه الرواية التاريخية ، أن المسلمين ، في
مصر الاسلامية ، كانوا يشاركون القبط في الاحتفال بهذا العيد .
وأن حكام مصر في معظم الأحيان ، كانوا يميلون الى وضع حد
لاختلاط المسلمين بالقبط في هذه الليلة . ونرى ان المسلمين
الذين كانوا يشاركون القبط في مثل هذه الاحتفالات هم - في
الواقع - القبط الذين أسلموا وأرادوا في الوقت نفسه مشاركة
أخوانهم القدامى في حياتهم الاجتماعية وخاصة في اللهو والشراب .

أما في عيد النوروز ، فكان العامة من المصريين ، ينتخبون رجلا
يسمونه أمير النوروز ، ويطلق وجهه بالدقيق أو الجير ، ويركب على
حمار ، ويسير في الطرقات ، وعليه ثوب أحمر أو أصفر ، ويسير
معه جمع كبير وفي يده دفتر مثل دفتر المحتسب . فمن لم يدفع
مبلغا من المال يرش بالماء ممزوجا بالأقذار . وكان الناس يضرب
بعضهم بعضا بالجلود والأنطاع ، ورجال الشرطة لا يعترضون على
ذلك . وان خرج أحد من كبار رجال الدولة من بيته ، لقيه من يرشه
ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فاما أن يفتدى نفسه ، واما أن
يفضح . وهكذا كان الناس يقومون بالمنكرات في كل مكان ، حتى
ان التلاميذ في مكتبهم كانوا يهجمون على معلمهم ، وكثيرا
ما يضطرونه الى أن يفتدى نفسه (٢٩١) .

ويمكن القول ان القبط في مصر الاسلامية قد تمتعوا بحرياتهم
الكاملة في الاحتفال بأعيادهم ، وان كنا نلمس من دراستنا لدور

أهل الذمة فى تاريخ مصر ، فى عصر الولاية ، علم اشتراك الولاية المسلمين فى الاحتفالات بهذه الأعياد الدينية جميعها ، مجاملة منهم للقبط ، وذلك مثلاً بعكس ما كان يحدث فى عهد الأمراء الاخشيديين أو الخلفاء الفاطميين ، إذ شارك كثير من هؤلاء الأمراء والخلفاء ، القبط فى الاحتفالات الرسمية بكثير من أعيادهم ، بل صار للدولة رسوم - نحرص تماماً على القيام بها ، كما سنرى - ولعل السبب فى ذلك أن مصر فى عصر الولاية ، كانت تابعة للخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية . وكان الولاية مشغولين بجمع الأموال ، ومحاولة إرضاء الخلفاء ، ولم يحرصوا غالباً على التقرب من القبط سكان مصر ، ومشاركتهم فى الاحتفال بأعيادهم .

وقد روى عن الخليفة عمر بن الخطاب ، أنه قال : « اجتنبوا عيد اليهود ، والنصارى ، فإن السخط ينزل عليهم فى مجامعهم ، ولا تتعلموا رطانتهم فتتخلقوا ببعض خلقهم » (٢٩٢) . ولعل هذا القول كان له أثره فى نفوس ولاية مصر فى ذلك العصر ، وانهم رأوا العمل به ، بالرغم من أننا نلاحظ أنهم لم يكونوا حريصين دائماً على تنفيذ أحكام عمر بن الخطاب بشأن أهل الذمة . فقد استخدم كثير من الولاية الذميين فى الدواوين وأعمال الحكومة ، بالرغم من أنه نهى عن استخدامهم ، كما سمحوا لهم ببناء الكنائس الجديدة ، وتعمير الكنائس القديمة الموجودة كما ذكرنا .

كان العيد الوحيد الذى شارك فيه ولاية مصر القبط ، هو الاحتفال بعيد وفاء النيل ، وهو عيد قومى . وأقدم وصف وصل إلينا عن احتفال سكان مصر بوفاء النيل ، ما كتبه ابن رسته : فى كتابه الأعلام النفسية فى القرن الثالث الهجرى ، إذ قال : « وقد اتخذت علامات تعرف بها زيادة الماء ونقصانه ، ووكل به جماعة يشعدهونه ويثبتونه ، فإذا زاد نظروا الى بعض تلك العلامات ، فوقفوا

على مقدار تلك الزيادة ، لأن الزيادة فى الخراج على حسب الزيادة فى الماء ، فيصير هؤلاء الموكلون ، الى المسجد الجامع ، بأيديهم الرياحين ، ويقفون على حلقة حلقة ، ويرمون بما معهم من الرياحين اليهم ، وينادون ان الله عز وجل ، قد زاد فى النيل كذا ، وكذا . فيستبشر الناس ، ويكثرون حمد الله والشكر له ، وانه اذا زاد الماء ، أفاض على أراضيتهم ، فغرقها حتى يختلفوا الى القرى فى الزوارق . فاذا نضب ذلك الماء زرعوا أراضيتهم ، فيبلغ خراجهم ألفى ألف دينار » (٢٩٣) .

وقد استمر الاحتفال بوفاء النيل ، ومشاركة الحكومة الاسلامية للقبط فى هذا الاحتفال طوال تاريخ مصر الاسلامية . وقد بنى هذه الرحالة ناصر خسرو ، فى القرن الخامس الهجرى ، هذه الاحتفالات فقال : « . . . ومنذ أول يوم للفيضان يطوف منادون فى المدينة ، منادين بأن الله تعالى ، قد زاد النيل كذا اصبعاً ، ويذكرون مقدار زيادته كل يوم . وحين تبلغ الزيادة ذراعاً كاملاً ، تضرب البشائر ويفرح الناس ، حتى تبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً . وهى الزيادة المعهودة ، يعنى أنه كلما قلت الزيادة عن ذلك ، قيل ان النيل ناقص ، فتصدقوا ونذروا النذور ، وعلاهم الغم . فاذا زاد على هذا القدر فرحوا وأظهروا الغبطة . . » (٢٩٤) .

وكان اذا بلغت زيادة النيل ستة عشر ذراعاً ، ساد الفرح والسرور بين المصريين جميعاً ، حتى ان الوالى كان يركب فى خواص دولته وكبار الأمراء ، الى المقياس ، ويعلم سماطاً يأكل منه جميع المصريين الخواص منهم والعوام ، كما كان يخلع على المقياس ، ويصله بصلبة مقررلة له فى كل سنة (٢٩٥) .

وكثيراً ما كان الولاة المسلمون ، يشتركون مع القبط ورؤسائهم الدينيين فى الصلاة من أجل زيادة النيل ، اذا كان

ناقصا فى موعد فيضانه مما يهدد البلاد بالمقحط والجذب . وقد
خذب منزل ذلك نى ولاية حفص بن الوليد النانية على مصر ، فنقصت
مياه النيل وتعرضت البلاد للمقحط . فصلى من اجل زيادة النيل
المسلمون ، صلاة الاسسقاء ، كما صلى القبط ايضا من اجل
ذلك (٢٩٦) . وحدث ذلك مرة اخرى فى مطلع الخلاء العباسية
فى ولاية أبى عون على مصر (٢٩٧) (١٣٣ - ١٣٦ هـ) فقد نقص
النيل فى عهد هذا الوالى ، فخسى القبط من الآثار السبئية التى
نترب على ذلك ، من ضعف الانناج وبالنالى نقص الخراج . فلما
كان يوم ١٧ من شهر توت ، الموافق لعيد الصليب عند المسيحيين ،
اجتمع كهنة الجيزة ، والأساقفة والسعيب القبطى ، وحملوا معهم
الأنجيل ومجامر البخور ، وذهبوا الى كبسة القديس بطرس
بالجيزة ، وهى تشرف على النيل وضائق الكنيسة بالموجودين ،
وانتشروا فى الحقول والأماكن المجاورة ، وحضر معهم فى ذلك
اليوم ، البطريرك أنبا خيال الذى تقدم الجميع حاملا الصليب ووقف
الجميع على شاطئ النيل ، وافاموا الصلاة ، وأخذ الجميع يصيح
« كيريا لصون » - وهذا نداء مشهور عندهم يتضرعون به الى الله -
وزاد النيل فى ذلك اليوم ذراعا (٢٩٨) .

ثم خرج فى اليوم النالى ، والى مصر - آنذاك - أبو عون ،
وجميع المسلمين ، واجتمعوا على شاطئ النيل ، وصلوا وتضرعوا الى
الله عز وجل ، ليزيد لهم فيضان النيل وكانوا يقولون : « هكذا
يا الله ، الواحد القهار الذى لا نظير له ، يا خالق السماء والأرض ،
أنت تعلم أنا لا نشرك بك ، ولا نعبد معك أحداً ، ولا نقبل مثل
النصارى ، أنك لك ولد ، ولا أنك مولود ، بل نوحده ونعبدك
بالتوحيد . نريد أن ننظر عجائبك اليوم الذى أنت عاملها لتعلم
وتتحقق ، انه لبس دين مثل ديننا ، الذى ورثناه عن آبائنا ونسألك
أن تفعل معنا أعجوبة ، كما فعلت مع النصارى أمس ، الذين هم

أعداؤنا ، وأعداء مذهبنا ، الذين يجعلون معك الها آخر ، مولودا منك ، ويسمى المسيح . . . ويقولون انه ابنك وروح القدس ثالثهم . . . وسألك أن تصنع لنا علامة وآية فى هذا الماء » (٢٩٩) .

وكان القبط يزعمون ، أن النيل لا يزيد ، ولا يرتفع ماؤه ، الا اذا ألقوا فيه ، عند شبرا صندوقا من الخشب فى داخله اصبع أحد شهداء القبط . وفى هذا اليوم الذى سيمونه عبد السموات ويوافق اليوم الثامن من شهر بشنس ، يخرج جميع سكان مصر على اختلاف طبقاتهم الى شبرا حيث يحتفلون على شاطئ النيل ، وغيره من الأماكن بحضور المغنين ، وأصحاب الآلات الموسيقية . وكثيرا ما كانوا ينتهزون ذلك للقيام ببعض المحرمات والمنكرات ، وتنفق فى مثل هذا اليوم الأموال بدون حساب ، وأحيانا تحدث مشاجرات بين بعض القبط تراق فيها الدماء ، ويفرط القبط ومن يكون فى صحبتهم من المسلمين فى شرب الخمر ، وقد يصل الانفاق على الخمر وحدها ، مائة ألف درهم ، فى بعض الأحيان . وتشير بعض الروايات الى أن بعض القبط قد باع خمرا فى ذلك اليوم قيمته ما يزيد على اثنى عشر ألف درهم . وكان أهل شبرا يدفعون ما عليهم من الجزية وغيرها من الضرائب ، من ايراد بيع الخمر فى مثل ذلك اليوم . واستمر الاحتفال بهذا العيد حتى القرن الثامن الهجرى ، حينما أبطل الظاهر بيبرس الاحتفال به فى سنة ٧٠٢ هـ (٣٠٠) .

أما فى عصر الأمراء الطولونيين فالواضح أن القبط ، قد استمروا يحتفلون بأعيادهم الدينية والقومية فى حرية كاملة ، دون محاولة من جانب هؤلاء الأمراء للتضييق عليهم ، أو منعهم من الاحتفال بها . ولم تشر مصادر تاريخ مصر الاسلامية ، الى كيفية احتفال القبط بأعيادهم فى هذا العصر . والحقيقة ، انهم استمروا

على عاداتهم في هذه الاحتفالات . ولعل السبب في ذلك أن القبط قد صاروا ، أقلية قليلة ، بالنسبة للمسلمين في ذلك العصر ، ولذلك لم يعن مؤرخو مصر الاسلامية بالاشارة الى حياتهم الاجتماعية ، وخاصة أعيادهم - بما في ذلك المؤرخون القبط أنفسهم .

ولم نجد الا اشارة واحدة الى احتفالات القبط بأعيادهم في عصر الأمراء الطولونيين ، وذلك في كتاب « سير الآباء البطارقة » . قال ساويرس (٣٠١) عند حديثه عن أحوال القبط في عصر الأمراء الطولونيين : « وأطلقوا النصرى ، أن يعيدوا أعيادهم ، ظاهرا ، وعلانية » وعليه فقد ترك أحمد بن طولون للقبط حرياتهم الاجتماعية ، وأفسح لهم المجال للاحتفال بأعيادهم الدينية كيفما شاءوا ، وممارسة عاداتهم التي اعتادوا عليها في مثل هذه الأعياد من اظهار الصليب ، وحمل الأناجيل ، ومجامر البخور ، والمنساعل الموقدة بخلاف ذلك . هذا ، رغم أننا لم نعلم شيئا عن تدخل الحكومة ليحد من احتفالات القبط بأعيادهم منذ عهد الخليفة المتوكل . ولعل المضايقات التي تعرض لها القبط في ولاية ابن مدبر لحراج مصر ، وما كان من فرضه الضرائب الباهظة عليهم ، وعلى الكنائس والأديرة (٣٠٢) . كل ذلك جعل القبط يحتفلون بأعيادهم في الخفاء بعيدا عن أعين هذا الوالى الذى جعل جل اهتمامه جمع الأموال والاجحاف بأهل الذمة جميعا .

واذا كان الأمراء الطولونيون لم يحاولوا اطلاقا مشاركة القبط في أعيادهم ، نجد الأمراء الاخشيديين كانوا على العكس من ذلك . اذ مال بعض هؤلاء الأمراء الى مشاركة القبط في الاحتفال ببعض أعيادهم الدينية . وتشير بعض المصادر التاريخية الى مشاركة الأمير محمد بن طغج الاخشيد لهم في الاحتفال بعيد الغطاس .

وكان « لليلة الخطاس شأن عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس نية وهي ليلة الحادى عشر من طوبة الموافق السادس من كانون (٢٠٣) وكان أهل مصر فى ذلك اليوم على اختلاف مللهم ومذاهبهم وأعلى اختلاف طبقاتهم ، يبدون فرحهم ، ويظهرون الطيب مما لا ينح لهم فى سائر أيام السنة وأعادهم (٣٠٤) .

وقد احتفل اهالى مصر فى سنة ٣٢٠ هـ بليده العظم احتفالا رائعا ، وقد شارك فى هذا الاحتفال الأمير محمد بن الاخشيدي أمير مصر فى ذلك الوقت ، كما شارك المسلمون من الاحتفال . ويصف لنا المسعودى (٣٠٥) . هذه الليلة فيقول جلس الأمير محمد بن طغج الاخشيدي فى قصره بالجزيرة وأوف حوله الشموع والقناديل التى بلغ عددها ألف قنديل . هذا ما أوقده الشعب من المسلمين والقبط من القناديل والمش والشموع . وحضر هذا الاحتفال مئات الآلاف من الناس ، بعد يوجد مكان لتقديم واحد ، اذ ملأ الحاضرون شواطئ النيل وأسطح الدور والمنازل المجاورة ، كما وجد كثير من الحاضرين مكانه فى القوارب وسط النيل . وارتدى الجميع أفخر الملابس ونزبنوا بأجمل الحلى وأحضروا معهم صنوفا متنوعة من الط والشراب فى أوان من الذهب والفضة . وأحضر الكثير منهم العزف واللهو ، وغطس كثير من الحاضرين فى هذه الليلة النيل ، وهم يزعمون أن فى ذلك أمانا لهم من الأمراض ، كما مبرىء للداء . ويقول هذا المؤرخ ان هذه الليلة من أحسن الما فى مصر ، وأشملها سرورا ، وفرحا ، ولا تغلق فيها الدروب

ومما تجدر الإشارة اليه ، أن احتفال هذه الليلة هو الاح الوحيد الذى ذكرت المصادر التاريخية فيه ، أن الأمراء الاخشيدى قد شاركوا القبط فيه ، ولم تشر الى غيره من الأعياد فى عصر

الأمير أو حلفائه . ويبدو أن القبط كانوا يبالغون في ذلك العصر في الاحتفال بعيد النوروز ويكثرون من التراسل بالماء بعضهم فوق بعض ، مما كان يؤدي الى بعض الاضطرابات ، ولذلك تدخل بعض الأمراء الاختشيديين لمنع القبط من ذلك فقد ذكر الكندي (٣٠٦) : انه في اماره أبي القاسم أنور جور بن محمد بن طغج الاختشيد ، أصدر بهذا الأمير أمرا في يوم السبت الموافق الثامن والعشرين من المحرم سنة ٣٣٥ هـ - وكان يوافق ذلك يوم عيد النوروز ، بمنع الناس من صب بعضهم الماء ، فوق بعض في هذا اليوم ، كما جرت العادة بينهم :

وكان عصر الدولة الفاطمية في مصر ، هو أكثر العصور تسامحا بالنسبة لأهل الذمة جميعا بصفة عامة ، وبالنسبة للقبط بصفة خاصة . فقد تمتع القبط في هذا العصر بكامل حرياتهم الاجتماعية والدينية ، واحتفلوا بأعيادهم في أروع صورة ممكنة كما شاركهم بعض الخلفاء الفاطميين في الاحتفال بكثير من هذه الأعياد . وعلى الرغم من ذلك تدخل بعض هؤلاء الخلفاء ، للحد من بعض العادات التي كان القبط يمارسونها في الاحتفالات ببعض الأعياد أو منعهم من اظهار احتفالانهم كلية . وكان ذلك يحدث في الغالب ، في فترات محدودة وخاصة ، في عهد الخلفاء الثلاثة الأول في مصر ، المعز والعزیز ، والحاكم بأمر الله .

ويبدو أنه المصريين في الاحتفال بعيد النوروز في عهد الخليفة المعز ، قد ارتكبوا كثيرا من المنكرات ، وقاموا بأفعال قبيحة ، ولذلك عزم المعز في سنة ٣٦٣ هـ . الى منع القبط ومن ينساركهم في الاحتفال بهذا العيد ، من ايقاد النيران في الطرقات ، ومن صب الماء بعضهم فوق بعض أيضا (٣٠٧) .

ويقول ابن زولاق ، بشأن هذه الأوامر : « لما تولى المعز مصر .
منع القبط من صب المياه فى يوم النوروز فى الطرقات ، ووقود
النار فى تلك الليلة ، ومن النزول فى المراكب ، وضرب الخيام على
شاطيء البحر عند المقياس ، لأنه كان تحصل بسبب ذلك مفاسد
عظيمة . فأبطل ذلك جميعه ، ونادى أن كل من يفعل ذلك
يصلب » (٣٠٨) ولكن هذا المنع لم يدم طويلا . ففى عيد النوروز
فى السنة التالية ، أى فى سنة ٣٦٤ هـ ، قام المحتفلون به ، بما
اعتادوا القيام به من عادات صب الماء ، وإيقاد النيران ، منذ القديم .
بل توسعوا فى ذلك ، فزادوا من اللعب بالماء والتراش به ، وإيقاد
النيران فى الطرقات وطافوا بالأسواق ، وخرجوا الى القاهرة
يمرحون ، واستمروا على احتفالهم ثلاثة أيام ارتكبوا فيها المنكرات
فى الأسواق ، مما أثار غضب الخليفة المعز لدين الله ، فأمر بإيقاف
هذا الاحتفال ، وأمر بمنع إيقاد النيران ، وصب الماء . وقبض على
بعض المحتفلين فى ذلك الوقت ، فحبس قوم منهم ، وطيف بآخرين
فى الطرقات على ظهور الجمال (٣٠٩) .

كان الاحتفال بعيد النوروز فى عهد بقية الخلفاء الفاطميين
من المواسم التى تعطل فيها الأسواق ، ويقل فيها سعى الناس فى
الطرقات ، وتوزع الملابس والأموال على رجال الدولة وأولادهم
ونسائهم ، الى جانب توزيع الفواكه والمأكولات مثل البطيخ والرمان
واللوز والتمر والسفرجل ، والهريسة المصنوعة من لحوم الدجاج
والضأن والبقر . كما كان يكثر الناس فى ذلك العيد من شرب
الخمور ، ومن رش الماء والأقذار على الناس . وبلغ الأمر الى درجة
أن كثيرا من الناس فضل الإقامة فى منازلهم ، فى مثل هذا اليوم
عن الخروج للمشاركة فى الاحتفال به . وكان الفاطميون يتخذون
أميرا ، يسمونه أمير النوروز ، ويخرج فى موكب حافل فى ذلك
العيد لتوزيع الهدايا على رجال الدولة على اختلاف درجاتهم (٣١٠) .

وكان عيد النوروز هو الاحتفال الوحيد الذى عمد الخليفة المعز لدين الله الى الحد من بعض عادات القبط فيه ، ومنعهم من القيام ببعضها ، بينما من الواضح أن القبط قد باثروا الاحتفال بأعيادهم الأخرى فى حرية وهدوء تام فى عهد هذا الخليفة .

أما الخليفة الفاطمى الثانى فى مصر وهو العزيز بالله ، فقد تدخل فى تحديد احتفال القبط بعيدين من أعيادهم الدينية ، أولهم عيد الغطاس ، فقد منع فى سنة ٣٦٧ هـ القبط من اظهار ما كانوا يفعلونه فى ذلك اليوم من الاجتماع للهو والمرح ونزول الماء ، وخلاف ذلك من المنكرات ، وبلغ به الأمر أنه حذر من يحاول أن يعود الى فعل ذلك من القبط والمسلمين ، وهددهم بالنفى بعيدا عن القاهرة (٣١١) . ومما لا شك فيه أن ذلك كان ناتجا عن مغالة القبط فى اظهار المنكرات والمجون ، لأننا نعرف الكثير عن تسامح هذا الخليفة مع المسيحيين جميعا القبط والملكانيين ، لأنه كان متزوجا من مسيحية .

أما العيد الثانى ، فهو عيد الصليب ، حيث يخرج الناس فيه الى ظاهر القسطنطينية ، ويقومون بكل ما هو منكروا من المحرمات والمنكرات ، ولذلك أمر الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨١ هـ ، بمنع الناس من الخروج الى ظاهر القسطنطينية ، وبضبط الطرق والدروب . ولم يلبث أن عاد القبط ومن يشاركونهم فى الاحتفال بعيد الصليب الى عاداتهم التى اعتادوا عليها منذ القدم فى مثل هذا اليوم فى السنة التالية ، أى فى سنة ٣٨٢ هـ ، وخرجوا الى ظاهر القسطنطينية ، وجررا على عاداتهم فى الاجتماع واللهو (٣١٢) .

أما الخليفة الفاطمى الثالث فى مصر ، وهو الحاكم بأمر الله ، المعروف بسياسته المتقلبة ، فقد منع القبط من الاحتفال بكثير

من أعيادهم الدينية • ونلاحظ أن موقفه هذا من أعياد القبط ، لم يكن على هذا النحو في مبدأ توليه الخلافة ، فقد احتفل القبط بأعيادهم في حرية كاملة • وكان الخليفة الحاكم بأمر الله يخرج بنفسه لمشاهدة الاحتفال بهذه الأعياد وما يجرى فيها من الآباء • وفعل المنكرات ، ويبدو أنه كان يقدم لمساهمة الاحتفال متنكرا حتى يتمتع المحتفلون بكامل حرياتهم ، ويتصرفوا على سجيتهم • ويذكر ابن سعيد الأنطاكي (٣١٣) أن الخليفة الحاكم بأمر الله ، قد حضر بنفسه احتفال القبط بعيد الغطاس في كثر من السنوات • وكان متنكرا لا يعلم به أحد من المحتفلين •

وأول خطوة أقدم عليها الحاكم بأمر الله ، لمنع احتفالات القبط ، كانت في سنة ٣٩٨ هـ • فقد كان من عادة المصريين من القبط وغيرهم في الاحتفال بيوم الشعانين ، تزيين الكنائس بأغصان الزيتون ، وسعف النخيل ، كما كان يفرق منها على الناس قبطا ومسلمين على سبيل التبرك • وقد أمر الحاكم بأمر الله في هذه السنة بمنع مظاهر الاحتفال على هذا النحو في مثل هذا العيد في جميع أنحاء دولته ، ونهى عن حمل أوراق الزيتون وسعف النخيل في الكنائس أو الطرقات ، وحذر الذميين ، وهددهم بالتهديد ، بل وقبض على المخالفين لهذه الأوامر (٣١٤) •

وفي سنة ٤٠٠ هـ ، أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بمنع القبط ومن يشاركونهم من عامة المسلمين من الاحتفال بليلة الغطاس • على ما جرت به العادة بين القبط ، وما كانوا يظهرونه من الاجتماع على ساطيء النيل ، واللهو في مثل هذه الليلة ، وكان ذلك بعد أن ساهم بنفسه — كما ذكرنا — الاحتفال بهذا العيد سنوات متكررة وأمر « ألا يتعرض أحد من سائر الناس كافة الى فعل شيء من ذلك في تلك الليلة أو ذلك اليوم ، وأن يعرض عنه ، ويصرف عن ذكره ، ويجرى مجرى سائر الأيام ، ولا يستعد له ولا يحتفل به » (٣١٥) •

وفى سنة ٤٠٢ هـ كتب الحاكم بأمر الله سجلا ، وأمر بهراءته
فى الجامع العتيق ، وفى جميع الطرقات ، يتضمن منع القبط من
الاحتفال بعيد الصليب ، وأن يحول دون اجتماعهم من أجل ذلك ،
وأن لا يظهرُوا زينتهم فيه ، وأن لا يقدسوا فى الكنائس وأن لا يجتمعوا
فيها ، (٣١٦) :

والواضح من الروايات التاريخية المختلفة ، أن الحاكم بأمر
الله ، قد منع القبط من الاحتفال بأعيادهم الدينية جميعها ، فأبطلت
رسومها واحتفالاتها فى جميع أنحاء الدولة ، وكان النصارى فى
غير عهده ، يحتفلون بها فى بذخ عظيم ، ويتخذونها فرصة لاقامة
المظاهرات الدينية العظيمة ، فيتسهبون الصلبان فى مواكب
احتفالاتهم ويضجون بالترنيل ، والصلوات ، والقراءات من الانجيل ،
ولا سيما على شواطئ النيل ، ويهرع الكثير من المسلمين لمشاهدتها
فى كل مكان ، فأبطل الحاكم بأمر الله ذلك جميعه (٣١٧) .

وباستثناء هذه الفترات المحدودة ، التى ضيق فيها الخلفاء
الفاطميون الأوائل على القبط فى الاحتفال ببعض أعيادهم ، نجد أن
القبط لممنعوا بكامل حرياتهم فى الاحتفال بأعيادهم الدينية ، والقيام
فيها بما اعتادوا القيام به من الطقوس الدينية ، والمواكب الفخمة .
كما صار للحكومة فى ذلك العصر عادات ورسوم فى مثل هذه
الأعياد تحرص أشد الحرص على القيام بها كما سنرى .

يحتفل القبط فى مصر ، بعيد الميلاد فى اليوم التاسع
والعشرين من شهر كيهك من كل عام . وقد جرت العادة فى مثل
هذا اليوم ، بتزيين الكنائس ، وكثرة القناديل الموقدة فيها ، كما
كانوا فى مثل هذا اليوم يلعبون بالنار ، ويتهاذى فيها الأطفال
الشموع الملونة بألوان زاهية متعددة ، والتماثيل البديعة الشكل .

وقد شاركت الحكومة الفاطمية ، القبط فى الاحتفال بهذا اليوم .
وصار من رسوم الدولة وعاداتها ، فى ذلك اليوم ، توزيع
الجامات (٣١٨) المملوءة بالحلاوة القاهرية والمشارد (٣١٩) التى
فيها السمك ، وقرامات الجلاب (٣٢٠) وطيافير الزلابية (٣٢١)
والجورى ، على أرباب الدولة من أصحاب السيوف والقلم (٣٢٢) .

أما خميس العهد أو خميس العدس ، كما يسميه المصريون
أحيانا ، فقد شارك فى الاحتفال به الخلفاء والحكام الفاطميون .
وأصبح من رسوم الدولة فى هذا اليوم توزيع الأموال والهدايا
أيضا على كبار رجال الدولة . وبلغ الأمر الى حد أنه كان يضرب
خصيضا لهذا اليوم خمسمائة دينار من الذهب ، وعشرة آلاف
خروبة (٣٢٣) . وكان القبط يتهدون فى هذا العيد ، يهادى
بعضهم بعضا ، كما كانوا يهادون المسلمين أيضا بأنواع السمك
المختلفة والعدس والبيض وخلاف ذلك (٣٢٤) .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أنه كان كثيرا ما يشارك
الخليفة الفاطمى وكبار رجال دولته فى هذه الأعياد ، ويحضرون
بأنفسهم احتفالات القبط بها . نذكر من الأمثلة على ذلك ، ما حدث
فى الاحتفال بعيد الغطاس فى بداية عهد الخليفة الحاكم بأمر الله
فى سنة ٣٨٨ هـ . فقد نصبت الخيام والمضارب والأسرة على شاطئ
النيل وأقيمت مجالس خاصة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى
وكان يعمل فى ذلك الوقت كاتبسا لبرجون الوصى على الخليفة
الحاكم . وقد أوقدت فى هذا اليوم الشموع والقناديل ، واجتمع
المغنون حول الرئيس فهد وكان فى صحبته أهله ، وشرب الجميع
فى هذه الليلة الخمر ، وغطسوا فى النيل ثم انصرف الرئيس
فهد الى داره وتفرق الحاضرون (٣٢٥) .

وشارك الخليفة الظاهر ، القبط ، الاحتفال بعيد الغطاس في سنة ٤١٥ هـ . اذ ضربت له خيمة خاصة به وبأهله على شاطئ النيل لمشاهدة الاحتفال بهذا العيد ، وقد أمر الخليفة في هذه الليلة ألا يختلط المسلمون بالقبط عند نزولهم الى النيل ليلا . ومن مظاهر الاحتفال في هذه الليلة ، ايقاد المشاعل والنار ، ويكثر الناس من شراء الفواكه واللحوم . كما قدم الى شاطئ النيل ، كثير من الرهبان والقسيس يحملون الصليبان والنيران ومجامر البخور والأنجيل وأكثروا من الصلوات والقراءات حتى جاء وقت الغطس في النيل ، فغطسوا ، وانصرف الحاضرون . وكان من رسوم الحكومة الفاطمية في ذلك العصر أن يوزع على سائر أهل البلاد وخاصة الموظفين في الدولة ، الفواكه من النارج والليمون ، والقصب ، وكذا السمك وخاصة البورى منه (٣٢٦) .

ويقول ابن سعيد الأنطاكي (٣٢٧) عن أعياد القبط في عهد الخليفة الظاهر : « عاد النصارى الى التظاهر بأعيادهم ، وخروج البواعيث الى كنائسهم التي في ظاهر المدينة ، والتظاهر بذلك ، والظاهر يحضر لمشاهدة اجتماعاتهم ، ويتقدم بصيانتهم » .

وشارك الخليفة الأمر بأحكام الله في احتفال بعيد النوروز في سنة ٥١٦ هـ ، وقد حمل اليه في هذا اليوم أفخر النياب وأجودها . وكان من رسوم الدولة الفاطمية في مثل هذا العيد توزيع الكسوات ، وكثير من أنواع الطعام والفواكه ، والأموال على جميع الناس . وكانت تضرب دنانير ودراهم خصيصا لمثل هذا اليوم . يقول المقرئ (٣٢٨) : « وأحضر كاتب الدفتر ، الاثباتات بما جرت العادة به من اطلاق العين ، والورق ، والكسوات على اختلافها في يوم النوروز ، وغير ذلك من جميع الأصناف ، وهو أربعة آلاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة . والكسوات عدة

من شفق. (٣٢٩) دبيقى مذهبات ، وحريريات ، ومعاجر ، وعصبائب
وشننج وفوط دبيقى حريرى * * *

ومما تجدر الإشارة اليه ، أنه كان يحدث فى بعض الأحيان
أن يهتفى القبط من تدخل بعض المسلمين لافساد احتفالهم والحق
الاهانة بهم ، لذلك كانوا يطلبون من حاكم اقليمهم أو مدينتهم
أن ينسأعدهم فى الحيلولة دون حدوث ذلك . ونستدل
على ذلك بما حدث فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، حينما سمع
أمير الاسكندرية فى ذلك العصر ويسمى حصن الدولة بن خير
الكتامى ، الدمشقى ، للقبط بالاحتفال بعيد الشعانين كعادتهم وحمل
فى صحبة المحنفين طائفة من جنده الخاص وأصحابه ، وأوصاهم
بالحفاظة على سر الاحتفال ، وإذا حاول أحد من المسلمين القاء حجر
على المحنفين ، يخدم بابه ، وإذا تكلم مسلم بما فيه اهانة للقبط
يقبض عليه فى الحال ويساق الى الحبس ، ونادى بذلك فى جميع
أرجاء مدينة الاسكندرية (٣٣٠) .

وازاء عطف هذا الأمير المسلم ، خرج القبط فى مدينة
الاسكندرية كعادتهم فى ليلة الشعانين من كنيسة أبى سرجة الى
كنيسة السطير ، وطافوا بأنحاء المدينة يحملون الصليبان ومجامر
البخور ، وأغصان الزيتون وسعف النخيل ، وصاحبهم حرس الاء
ليمنح الحاق أى أذى أو اهانة بهم فى هذا العيد (٣٣١) .

والى جانب هذه الأعياد الدينية الرسمية التى كان القبط
يحتفلون بها منذ ظهور المسيحية ، وطوال العصور الاسلامية ،
نجدهم أيضا يحتفلون بأعياد بعض القديسين والشهداء فى الكنائس
والأديرة الخاصة بهم ، أو بمعنى آخر التى تسمى بأسمائهم تكريما
لهم واعترافا منهم بصدق ايمانهم . ونرى أن هذه الأعياد لم تكن

عامّة يستترك فيها جميع القبط ، وانما كانت أعبادا خاصة بناحية معينة حيث يوجد الدير أو الكنيسة ، فيحتفل به - فى الغالب - سكان هذه الناحية من القبط ، وقد يتشارك فى هذه الأعياد بعض القبط من المناطق الأخرى .

ونذكر من أمثلة هذه الأعياد ، عيد دير شعران (٣٣٢) - بناحية طرا - ويحتفل به فى الجمعة الخامسة من الصوم الكبير ، ويحضر هذا الاحتفال البطريرك وكبار القبط ، وينفقون فيه أموالا كثيرة (٣٣٣) .

ومنها عيد مغارة شقلفيل ، الذى يجتمع فيه كثير من القبط لأحياء ذكرى بومينا ، أحد الجنود الذين عافبهم ، وعذبهم دقائدا نوحس ، ليخرج عن دين المسيح ويعبد الأصنام ، الا أنه ثبت على دينه فقتله فى اليوم العاشر من شهر حزيران (يونيو) الموافق اليوم السادس عشر من شهر بابه (٣٣٤) .

وأبضا نذكر عيد دير سرياقوس الذى يعرف بأبى هور ، ويجتمع القبط فى الدير ، للاحتفال بالعيد (٣٣٥) . ومن هذه الأعياد أيضا عيد دير المغطس . ويوجد هذا الدير بالقرب من بحيرة البرلس عند الملاحات ، ويذكر المقرئى (٣٣٦) أن النصارى تحجج الى هذا الدير من الدلتا والصعيد ، مثل حجهم الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ويكون هذا العيد فى شهر بشنس ، ويسمى عيد الظهور ويذهبون الى أن السيدة مريم تظهر لهم فى هذا اليوم .

ومنها أيضا عيد الشهيد ، الذى يحتفل القبط به ، اذا حان زمن الفيضان وزيادة النيل . ويخرجون فيه تابوتا ، وضع فيه اصبع أحد الشهداء القبط ، ويلقى به فى النيل (٣٣٧) . أما عيد

مارى جرجس ، الذى يحتفل به فبط الواحات ، فقد جرت العادة فيه ، أن يخرج القبط فيه تابوتا فيه جسد هذا الشهيد بعد نفيه فى كسوة جديدة ، ويطاف به البلد جميعه بالشموع والصلبان والقراءة ، ثم يعودون به الى كنيسته (اى كنيسه ماري جرجس) (٣٣٨) .

ومن اعياد القديسين المشهورة فى مصر ، عيد القديسة بربرة فى ليلة اليوم الرابع من شهر كانون . وفيه يجتمع جميع القبط فى مصر والقاهرة فى كنيسه القديسة بربرة ، وكثيرا ما يشتركهم المسلمون فى الاحتفال بهذا العيد لمشاهدة ما يقوم به القبط على سبيل الترفيه عن انفسهم . وكان من عادة القبط ان يقدموا الى هذه الكنيسة فى السر ، التماسا للبركة ، ويدهنوا اجسامهم من زيت القناديل . كما كان كثير من القبط يسمون بناتهم على اسمها (٣٣٩) .

ومن الأعياد الكبرى عند القبط أيضا ، عيد سرعان ما اسخه المسلمون أيضا عيدا لهم ، وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة . وقد جرت عادة العامة فى هذا اليوم ، من كل سنة ان يطوفوا قبل الخروج للسجن ، أسواق البلد بالطبول والبوقات ، ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم . ولكن حدث فى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) ان اشتد الغلاء فى البلاد ، فامتنع التجار عن دفع ما اعتادوا عليه فى مثل هذا اليوم من كل عام . فأمر الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله ، التجار ، بأن يدفعوا للمحتفلين ما جرت به العادة ، بل وأن يطلق لهم ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية . فخرجوا الى سجن يوسف بالجيزة ، ومعهم التماثيل وغيرها مما يثير الضحك ، ويوفر لهم سبل اللهو . وقد شاركهم الخليفة آنذاك فى هذا الاجتفال ، فخرج منهم الى الجيزة وأقام

يومين وشـارك المحتفلين فى مسـحـكهم ولهـوهم ، واستـظرف
احتفالهم (٣٤٠) .

أما الطائفة الأخرى من أهل الدمه فى مصر ، وهم اليهود ،
فقد لمسنا من دراستنا لتاريخ أهل الدمه فى مصر الإسلامية - من
الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى - عدم اهتمام المصادر
التاريخية المختلفة بهم ، وخاصة فى عصر الولاة ، بل ويمتد ذلك
أيضا فى عصر الدولتين الطولونية والإخشيدية ، ما عدا بعض
الإشارات البسيطة اليهم . كما لم تشر مصادر تاريخ مصر من
قريب أو بعيد الى السبب الذى أدى الى إهمال الحديث عن هذه
الطائفة . ونحن نرجح أن ذلك ، كان راجعا الى قلة عدد اليهود
فى مصر بالنسبة الى عدد القبط بها . الى جانب عدم تدخل اليهود
فى الحياة السياسية ، وانصرافهم الى مباشرة نشاطهم الاقتصادى
فى هدوء وسلام بعيدا عن المشاكل السياسية . ونلاحظ أنه عندما
قدم عمرو بن العاص فاتحا لمصر ، لم يحدث إطلاقا أن تعرض له
اليهود ، أو أبدوا أية مقاومة تحول دون اتمام الفتح ، ولذلك نجده
يكافئ اليهود ، خاصة يهود مدينة الاسكندرية . فجعل بين شروط
المهد الذى منحه لسكان هذه المدينة ، شرطا يتضمن السماح
لليهود بالإقامة فى الاسكندرية مقابل دفع الجزية للمسلمين (٣٤١) .
ومما لاشك فيه أنهم تمتعوا ، بكافة حقوقهم وحرياتهم الدينية
والاجتماعية مع الالتزام بأحكام الاسلام الأخرى بشأن أهل الدمه
من ناحية الملبس والمسكن والركوب وغير ذلك .

كما يبدو من الكتابات المتبادلة بين عمرو بن العاص ، والخليفة
عمر بن الخطاب ، أن عدد اليهود ، كان قليلا فى مصر ، وأنهم كانوا
يتركزون فى مدينة الاسكندرية بصفة خاصة . فنجد عمرو بن العاص
يكتب الى الخليفة عمر ، عند وصفه مدينة الاسكندرية له عقب

الفتح ، أنه وجد بها حوالى اربعين ألف يهودى (٣٤٢) . وكان ذلك الحديب هو كل ما ذكرته المصادر عن اليهود فى عصر عمرو بن لوطوط عصر الولاة ، فلم يأت لهم بعد ذلك ذكر فى الحياة السياسية أو الاجتماعية طوال هذه الحقبة من التاريخ .

ثم جاء ذكر اليهود بعد ذلك فى المصادر التاريخية فى عصر الدولة الطولونية ، حينما ألزم الأمير أحمد بن طولون بطرك القبط أنبا خايل (أو ميخائيل) بدفع عرامة مالية قدرها عشرون ألف دينار ، ولم يكن لديه من الأموال ، ما يمكنه من دفع هذه الغرامة ، مما اضطره الى بيع بعض الكنائس القبطية فى مصر القديمة ، وأيضا بعض أملاك الكنائس الأخرى ، وقد استنرى اليهود منه كل ما أراد بيعه فى ذلك الوقت (٣٤٣) . ونستدل من ذلك على ثراء يهود مصر ، وأن اليهود فى مصر لم تكن سكناهم مقصورة على الاسكندرية ، وإنما انتشر اليهود - فى ذلك العصر - فى غيرها من المدن المصرية ، ومنها القسوطاط .

ونرى أن اليهود لم يأت لهم ذكر بعد ذلك فى المصادر التاريخية حتى زوال الدولة الطولونية ، وقيام الدولة الاخشيدية . ونجد اشارة واحدة نفيد أن كافور الاخشيدى ، قد استخدم منهم ، يعقوب بن كلس الذى اعتنق الاسلام فيما بعد ، وخدم الدولة الفاطمية ويبدو أن اليهود طوال هذه العصور التاريخية كانوا يمارسون أعمالهم ، وحرفهم المختلفة دون تدخل فى السياسة ، مما لم يجذب انتباه المؤرخين ومما أدى الى اهمال المصادر التاريخية لهم .

بينما كان العصر الفاطمى - فى الواقع - ازهى العصور التاريخية بالنسبة لليهود فى مصر . ونلاحظ ان كل ما كتب عن

مجتمعهم وبطيئهم مما كان لهم من روساء دينيين وقواد روحانيين يرجع الى هذا العصر . ونحن نرجح ان السبب في ذلك ، هو اشتراك بعض اليهود في الحياه السياسية ، وقيامهم بدور فعال في ادارة شئون البلاد . فقد قرب بعض الخلفاء الفاطميين كثيرا من اليهود اليهم واستخدموهم في الحكومة - كما رأينا - وكان هؤلاء الموظفون يرعون شئون احوالهم في الدين وينظمون أمورهم ، ومن ثم صار لهم مجتمع منظم له رؤساؤه وقواده الروحانيون ؛ مما كان له أثره في المجتمع المصري .

كان اليهود ينقسمون الى فرق واحزاب مختلفة - شأنهم في ذلك شأن القبط - وهي ، الربانيون والقراءون (٣٤٤) والسامرة (٣٤٥) ، وقد انتشر اليهود في كثير من المدن المصرية في العصر الفاطمي ، ولم تكن اقامتهم مقتصرة على الاسكندرية ، او القاهرة وهي العاصمة الفاطمية الجديدة . والدليل على ذلك الاحصاء الذي قام به الرحالة بنيامين التوديلي الذي زار مصر في عهد الخليفة العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين في مصر - في سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٤ م) .

وقد ذكر هذا الرحالة أنه يوجد في مدينة فوص (Kous-Kuts) على حدود مصر - ثلاثة آلاف يهودي ، وفي الفيوم عشرون يهوديا ، وهذا العدد يعتبر قليلا بالنسبة لسكان المدن الأخرى من اليهود . بينما كان يعيش بالفسطاط ألفا يهودي ، ولهما معبدان ، أحدهما لجماعة اليهود الفلسطينيين ، ويسمى المعبد السرياني ، والآخر لجماعة اليهود العراقيين أو البابليين . وكان في بلبيس في ذلك الوقت ثلاثة آلاف يهودي ، الى جانب سكانها من المسلمين والقبط . وفي مدينة زفتى يسكن مائتا ألف يهودي ، بينما كان يسكن مدينة دميرة سبعمائة من اليهود . كما كان يعيش

أهل النمة جا ١ - ٣٨٥

حوالى خمسمائه يهودى فى مدينه المحلة . كما كان يعيش فى مدينه الاسكندرية آنذاك حوالى ثلاثه آلاف من اليهود . أما يهود دمياط فكانوا ماتتى يهودى ، بينما كان لا يوجد فى مدينه تنيس سوى اربعين يهوديا (٣٤٦) .

ونلاحظ ان عدد جميع هؤلاء اليهود ، يعتبر قليلا بالنسبه بعددهم زمن الفتح العربى . كما نلاحظ انتشارهم فى المدن المصريه فى الوجهين البحرى والقبلى ، بينما كانوا يتركزون فى الاسكندرية زمن الفتح . أما عن نقص عدد اليهود فى العصر الفاطمى ، عما كان عليه عند الفتح العربى مصر ، فذلك راجع الى اسلام الكثير منهم . واما انتشارهم فى المدن المصريه ، فذلك راجع الى حب اليهود للمهجرة من أجل التجارة . والى جانب ذلك نلاحظ هجرة عدد من يهود الشام وأيضا يهود العراف الى مصر . فصار لهم جماعات مميزة باسم جماعة الفلسطينيين وجماعة البابليين .

وتشير بعض الروايات التاريخيه الى تركيز اليهود فى بعض أحياء القاهرة . نذكر من ذلك سكناهم حارة الجودرية التى امر الخليفة الحاكم بأمر الله ، باحراقها ، وكان لهم فيها معبد (٣٤٧) . وسكنوا أيضا سويقة اليهود بقصر الشمع ، حيث كانت توجد دار رئيس اليهود ويوجد لهم فيها أيضا حانوت للجزارة ، ومعبد بجوار درب القرامطة . ويبدو أن عددا كبيرا من اليهود تركز فى حارة زويلة ، بدليل اقامتهم خمسة معابد لهم فى هذا المكان (٣٤٨) .

وكان لليهود رؤساؤهم الدينيون ، وقوادهم الروحانيون ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الناجد (Nagide) وهو ما يسمى فى العربية برئيس اليهود . ومهمته رئاسة سياسة المجتمع اليهودى فى مصر (٣٤٩) .

وأصل هذه الوظيفة في المجتمع اليهودي المصري عامس .
وظهرت لأول مرة في تاريخ مصر في العصر الفاطمي . وأول من
شغل هذه الوظيفة بالتين - (Partiel) وبن رئيس اليهود في
المغرب وشمال إفريقيا ومصر . وقد خلفه في رئاسته اليهود ابنه
صمويل Samuel (٣٥٠) الذي باشر هذه المهمة عدة سنين ، وتمكن
من الحصول لليهود ، على نصريح يسمح لهم بالسير في الطرقات
ليلا ، وهم يحملون الفوانيس . كما أنه اشترى مقبرة لدون موبى
اليهود فيها (٣٥١) . وبعد وفاة هذا الناجد ، صار لكل من مصر
وشمال إفريقيا ناجد ، مستنقل عن الآخر (٣٥٢) .

ويسير بنيامين التوديلي (٣٥٢) في رحلته أيضا إلى ان رئيس
كل جماعات اليهود في مصر لأن في ذلك الوقت يسمى نانايل -
R. Nathaniel وأنه هو الذي كان يعين موظفي المعابد . وأن
الاراهية والبنافس بين بغداد والقاهرة ، أو بعباره أخرى بين
الحلافتين العباسية والفاطمية ، كانت سببا في وجود رئيس لليهود
مصر ، مستقلا عن رئيس اليهود في بغداد ، وأنه كان في مصر
يسمى « أمير الأمراء » . ويقول آدم متز (٣٥٤) : ان رئيس اليهود
في القاهرة كان يسمى سرهساريم (ويبدو ان هذا اللفظ ،
عبراني ، معناه أمير الأمراء) وأنه كان يعين أخصار اليهود في مصر
والنصارى وهي البلاد التي كانت في حوزة الخلافة الفاطمية . وأن
الفاطميين قد تكلفوا ايجساد هذه الطائفة الخاصة من الأمراء
(ناجد - أمير) بالقاهرة ، رعية منهم في معارضة كل ما هو
بغدادى .

وجرت العادة في مصر ، أن يكون الناجد من طائفة اليهود
الربانيين دون غيرهم ، ويكون له الحكم على طوائف اليهود الأخرى ،
والقرايين والنصارى (٣٥٥) ويشترط أن يكون من أكبر الكهنة ،
وأكثر الأخصار علما ، وأن يكون متممقا في الدين اليهودي ، كما يكون

سياسيا محنكا . فيقول القليشندى (٣٥٦) : « وكان الذى يختار لذلك ، ينبغي ألا يكون الا من أكبر الكهنة ، وأعلم الأخبار ، وممن عرف من دينهم ما لأجله يصطفى ، ولمسه يختار ، وممن فيه سياسة يججزه عن المضار ، وحجبه عن الاسنفار » .

اما عن مهام الناجد وواجباته ، فى المجتمع اليهودى فى مصر ، ازاء اليهود على اختلاف مذاهبهم ، فاهمها مراعاة مصالح اليهود ، والحرص على الوحدة والألفة بينهم . وأيضا الحكم بينهم ، طبفا لعوانيتهم وما تمليه عليهم النوراه . ويقوم بعقود الزواج ، وفوائين العموية والحرمان على كل من يستحق ذلك من اليهود ، ويراعى ان يدون قبله اليهود فى الصلاة الى القدس . كما كان عليه ، الى جانب ذلك ، الزام اليهود بمراعاة أحكام الاسلام بشأنهم ، والالتزام بها شأنهم فى ذلك شأن القبط . ويعوم الناجد أيضا بتنظيم المجتمع اليهودى ، وقواده كل حسب درجته وطبقته ويكون له الحديث فى جميع المعابد اليهودية (٣٥٧) .

وهكذا كان الناجد فى جماعة اليهود ، شأنه شأن البطرك فى جماعه القبط وهو عند المسلمين ، بمثابة الحامى لليهود ، والمدافع عنهم ، والمطالب بحقوقهم . ومما لاشك فيه ان هذا الرئيس الدينى كان اسمه يسجل فى الديوان ، كما كان يكتب له توقيع أو سجل بولايته هذا المنصب ، الى جانب وصيته بما يجب عليه أثناء قيامه بهذه المهمة الخطيرة (٣٥٨) . وسنورد ضمن الملاحق نصا ، يتضمن توقيعاً برئاسة اليهود ، ووصية له بما يجب عليه مراعاته .

وكان الناجد يقيم غالبا فى القاهرة ، وبصفة خاصة فى قصر الشمع (٣٥٩) . الا انه كان فى بعض الأحيان ، يضطر الى الاقامة فى الفيوم والاسكندرية لفترة محدودة . وتذكر بعض الروايات أن

الناجد ميبوراك بن سعد Meborak B. Saadia المعاصر لوزارة
الأفضل بن أمير الجيوش ، وخلافة الأمر بأحكام الله الفاطمي ،
اضطر الى الاقامة بعض الوقت في الفيوم والاسكندرية ، هربا من
بعض المضايقات التي تعرض لها في القاهرة نتيجة لسعيه بعض
خصومه به (٣٦٠) .

ويبدو أنه كان يوجد بين اليهود رئاسه عليا أخرى ، يحمل
صاحبها لقب جون (Gaon) ويبدو ان هذه الوظيفة كانت ديسه
بمحتة وليس لها علاقه بالحياة العلمانية ومن العسير تحديد العلاقة
بين هذه الرئاسة الدينية وبين الناجد الأكثر علمانية ودينية
لقلّة ما لدينا من الوثائق التي توضح لنا ذلك . ويبدو ان هذا
المنصب الديني ، قد تنازع عليه كل من اليهود البابليين واليهود
الفلسطينيين في مصر . وكثيرا ما كانت الحكومة الفاطمية وناجد
اليهود في مصر ، يتدخلان ، لتأييد جماعة ضد أخرى . كما حدث
في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، حينما أيدوا
أحد اليهود من الجماعة الفلسطينية للحصول على هذا اللقب
ومباشرة هذا المنصب دون منافسه من البابليين . وقد انعكس
موقفهما في مرة أخرى ، فساعدت كل من الحكومة الفاطمية ،
وناجد اليهود ، أحد اليهود البابليين في حمل هذا اللقب أيضا ،
فصار له نفوذ على اليهود في الاسكندرية ودمياط والفسطاط حيث
أثقل كاهل اليهود بالضرائب . كما كان له نفوذ أيضا على يهود
عسقلان وفيسارية وحيفا وبيروت وصيدا .

وهكذا نجد أن هذا اللقب في أي لقب Gaon - منح لأكثر
من شخص في وقت واحد ، كما يبدو انه لم يكن له شروط محددة
بمعايير تنافس البابليين والفلسطينيين من أجل الحصول عليه .
ولكن ما لبث ان تبين الناجد ميبوراك خشونه طبع الجون

البابلي . فبذل اقصى جهده فى حرمانه من هذا اللعب ، ومن مباشرة
نعموده ، واستعمل ابياثر Abiathar الفلسطينى بهذه المهمة ،
وصار رئيس اليهود فى مصر ، الذى يحمل لقب جون ، وذلك فى
سنة ١٠٩٤ م (٣٦١) . ونستخلص من هذه الروايات ان وظيفة
الجون كانت دون وظيفة الناجد وان الأخير له الرئاسة على الأول .

يأتى بعد ذك الحزان Hazzan وينولى رئاسة جماعة
اليهود فى عدة أماكن (٣٦٢) ويقول القلقشندي (٣٦٣) : ان الحزان
يكون بين اليهود بمداية الخطيب فيصعد المنبر ويعظهم . ويشترط
فيه أن يكون متعمقا فى العلم ، وخاصة العلوم الدينية ، وأن يكون
حسن الصوت ، لديه القدرة على المخاطبة وجذب انتباه مستمعيه .
وكان من أهم واجباته القراءة الملحنة للمصلين أثناء أدائهم للصلاة
فى احد المعابد (٣٦٤) .

أما الشليحضبور (Sheliah-Sibbur) أو الفارىء ، فهو
بمداية الامام الذى يؤم جماعة اليهود للصلاة بهم (٣٦٥) .
أما مايسمى برناس Parnas فكان من مهماته جمع الصدقات
والإشراف على أموال المعابد وأملاكها (٣٦٦) . وكان من بين الوظائف
الروحانية بين اليهود ، وظيفة الناس (The Nasi) وسلطانته
أدبى أكثر منه سياسى ، وكان - فى بعض الأحيان - يخلف الناجد
القائم (٣٦٧) .

والواقع ان كل طائفة من طوائف اليهود الثلاث : الربانيون
والفراءون والسامرة ، كانت تنقسم بدورها الى فرق أو مذاهب ،
وهم جماعة البابليين وجماعة الفلسطينيين ولكل فريق من هذه
الجماعات رئيسها الدينى ويسمى « حبر » Haber ويشترط فيه
أن يكون متبحرا فى العلوم ، ومتمكنا من التلمود (٣٦٨) . فنذكر

من الأصله على ذلك ان رئيس جماعه البابليين فى مصر ، فى منتصف
النسب الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، كان يسمى
ابراهيم بن سهران ، ويحمل نسب حبر الوف Haber Alluf (٣٦٩) .
بيضا ان رئيس جماعه الفلسطينيين او جدها فى ذلك الوقت هو
ابراهيم بن شماريا ، الذى كان يسكن القسباط ، ويباشر مهامه
رئيس روى جماعه الفلسطينيين . وقد جاء اسمه فى سير من
الوثائق انى يرجع تاريخها الى النصف الاول من القرن الخامس
الهجرى ، الحادى عشر الميلادى . كما كان اسمه يذكر فى المعابد
فى أيام السبت والاعياد (٣٧٠) .

وكان من بين الرؤساء او الموظفين الدينيين لليهود ، جماعة
القضاة ورئيس المحكمة اذ كان لليهود محاكم خاصة بهم ، تسمى
بيت الدين - Bet-Din وكان يوجد فى القاهرة محكمة رئيسية .
وتسمى بيت الدين الأعظم وتوجد فى معبد جماعة الفلسطينيين
وتكون لها السلطة والرئاسة على المحاكم أو بيوت الدين المحلية ،
التي توجد فى الأقاليم الأخرى . وكان رئيس بيت الدين الأعظم
يسمى ديان - Dayyan - وكان الديان يختار اثنين من كبار
اليهود ، ليكونا بمثابة معاونين له ، أو وكلاء له فى بيت الدين .
أما بيوت الدين المحلية فكثيرا ما كان يرأسها الحبر ، الذى يكون
قد حصل على شهادة - أو اجازة - من الاكاديمية الفلسطينية ،
وليس من الضرورى ، دائما أن يكون القضاة من الأحرار (٣٧١) .

والى جانب هذه الدرجات أو الوظائف الدينية عند اليهود
والتي كانت تضافى على اصحابها ، اجلالا واحتراما ، كان هناك بعض
كبار رجال اليهود الذين يتمتعون باحترام اخوانهم اليهود ، وكانوا
بمنحوتهم بعض القاب التبجيل والاحترام ، فيقال لهم مثلاً :
الشيخ فلان آدين المذهب وأفضله ، أو سيد بيت اسرائيل ، وغير

ذلك من عبارات التعظيم . وكان لمبل هؤلاء الاشخاص شأن عظيم
فى المجتمع اليهودى فى مصر ، وخاصة فى العصر الفاطمى (٣٧٢) .

ثم ننتقل بعد ذلك ، الى الحديث عن أماكن عبادة اليهود .
وفياهم فيها بصلواتهم وطفوسهم الدينية . وكانت هذه الأماكن
تسمى المعابد Synagogues تمييزا لها عن كنائس القبط . واكثر
معابد اليهود فى مصر كانت قديمة ، وبُنيت قبل الفتح العربى .
ولم يستحدث منها فى الاسلام الا المعابد التى أقيمت لهم فى
القاهرة الفاطمية ، وقد انفرد المقرئى دون غيره من مؤرخى مصر
الاسلامية بذكر معابد اليهود فى مصر .

وكان أعظم هذه المعابد وأكبرها مكانة لدى اليهود ، معبد
دموه بالجيزة . ويزعمون ان مكان هذا المعبد ، هو المكان الذى كان
موسى عليه السلام ، يبلغ منه رسالات ربه الى فرعون مصر ، حتى
خرج بنو اسرائيل من الأراضى المصرية . ويذهب اليهود أيضا
الى ان هذا المعبد قد تم بناؤه ، بعد خراب بيت المقدس (٣٧٣) .

ومن معابد اليهود أيضا ، معبد جوجر بالغربية . ويذهب
اليهود الى ان النبى الياس عليه السلام ، قد ولد بهذا المكان ، وأنه
هو الذى بنى هذا المعبد الذى ظل فى مكانه الى هذا العصر (٣٧٤) .

أما معبد المصاصة ، فبوجد فى درب الكرمة بمصر .
وتشير بعض الروايات الى ان هذا المعبد قد أصلحه اليهود ،
ورموا بنساءه عقب الفتح العربى لمصر فى عهد الخليفة عمر بن
الخطاب (٣٧٥) . بينما كان بوجد فى قصر الشمع معبدان لليهود
أحدهما للفلسطينيين أو بعبارة أخرى لأهل الشام ، والثانى لجماعة
البابليين وهم أهل العراق (٣٧٦) . وقد مر بنا ، ان اليهود قد

اشتركوا من القبط احدى كنائس القبط اليعاقبة فى هذه المنطقة فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، فى عهد الأمير أحمد بن طولون ، وبطركية الأنبا خيال (٣٧٧) .

كما كان لليهود بحارة الجودرية معبد ، ولكنه صار خرابا منذ عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، الذى أمر باحراق هذه الحارة بما فيها من يهود (٣٧٨) . وكان لهم فى حارة زويلة معبد دار الخدرة (٣٧٩) الى جانب أربعه معابد أخرى ، اثنان منها للمقرائين ويسميان باسمهم ، والثالث خاص باليهود الربانيين . أما المعبد الرابع فيخصص جماعة السامرة (٣٨٠) .

وكان لليهود فى مصر ، أعيادهم الدينية الخاصة بهم ، والتي يحرصون على الاحتفال بها ، والقيام بما يتطلبه هذا الاحتفال من مراسيم دينية . ونستنتج من الروايات التاريخية المختلفة أن اليهود كانوا يهودون ، بالاحتفال بأعيادهم الدينية دون مشاركة القبط أو المسلمين لهم . وكان موقف المسلمين من احتفالات اليهود الدينية - فى الواقع - يخلف عن موقعهم من احتفالات القبط ، طوال تاريخ مصر الاسلامية . كذلك لم يشارك أمراء مصر وخلفاؤها اليهود فى احتفالاتهم بأعيادهم ، وذلك أيضا عكس ما لمسناه عند دراستنا لاحتفالات القبط الدينية ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، الذى يعتبر أزهى العصور بالنسبة لليهود ، ودورهم فى الحياة السياسية ، والاجتماعية فى مصر ولعل ذلك راجع الى رغبة الخلفاء الفاطميين فى استمالة القبط وهم أكثر عددا من اليهود . فكان الخلفاء الفاطميون الشيعة ، يشاركون القبط فى حياتهم الاجتماعية كسبا لتأييدهم ونصرتهم ضد خصومهم السنين .

وكان لليهود في مصر الاسلامية خمسة اعياد دينيه هي :
عيد الفطير ، ويحتفل به اليهود في اليوم الخامس عشر من شهر
ابريل (نيسان) ويستمر الاحتفال بهذا العيد سبعة ايام لا يأكل
فيها اليهود شيئا سوى الفطير ، ولذلك كانت تسميته بهذا الاسم .
ويزعم اليهود ان هذه الابرام السبعة هي الايام التي نخلصوا فيها
من فرعون مصر ، اذ اغرقه الله (٣٨١) . ويسمى هذا العيد ايضا
عيد الفصح (٣٨٢) . ويكون هذا العيد دائما في يوم سبت دون
سواه من ايام الاسبوع ويكون سابقا لعيد الفصح عند
القبط (٣٨٣) .

ومن اعياد اليهود ، عيد الاسابيع ، ولعله سمي بذلك لانه
يأتي بعد عيد الفطير بسبعة اسابيع . ويذهبون الى أنه ، اليوم
الذي كلم فيه الله بني اسرائيل من طور سيناء (٣٨٤) وبسمى
هذا العيد أيضا باسم عيد العنصرة وعيد الخطاب . ويقول اليهود انه
كان من جملة الخطاب ، الوصايا المنضمنة الأمر والنهي والتوفيق .
ويعد هذا العيد من أعظم اعياد اليهود ويكثرون فيه من عمل الخاوي
وأكلها (٣٨٥) . وجرت عادة اليهود فيه أن يخرجوا الى معبد دموه ،
ويجعلون ذلك بدلا من حجهم الى القدس (٣٨٦) .

أما عيد رأس الشهر ، فيسمى أيضا عيد رأس السنة ،
ويوافق هذا العيد اليوم الأول من شهر تشرين (أكتوبر) . ويذهب
اليهود الى أنه هو اليوم الذي افتدى فيه ابراهيم ابنه اسحق عن
الذبح . ويسمونه عيد رأس هشايا (٣٨٧) . وجرت عادة اليهود
في هذا العيد أن يكثروا من النفخ في البوق والسوافر ، وهي قرون
الكباش ، ويبطل فيه العمل ، كما تعطل الاعمال في يوم السبت
من كل أسبوع (٣٨٨) .

ومن أعياد اليهود أيضا عيد صوماريا ، وهو عيد الصوم
النبير (أو العظيم) ، ويسمى هذا العيد أيضا باسم الكبشور
أو العاشور (٣٨٩) . ولا يجوز لليهود الاحتفال به في أيام الأحد
أو الثلاثاء أو الجمعة من أيام الأسبوع (٣٩٠) . ويلتزم جميع اليهود
بهذا الصوم ، ومدته خمس وعشرون ساعة ، تبدأ قبل غروب
الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرين . ويختتم هذا الصوم
بمضي ساعه بعد غروبها من اليوم العاشر ، ويشترطون رؤيته
ثلاثة كواكب عند الافطار ، وهو عندهم تمام الأربعين الثالثة التي
صام فيها موسى عليه السلام . ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى ،
يفسر لهم فيه جميع الذنوب التي ارتكبوها طوال حياتهم (٣٩١) :

أما عيد المظله ، فقد سمي بذلك لأنهم يستظلون في هذا العيد
ومدته سبعة أيام ، بأغصان القصب والآس والخلاف (٣٩٢) . ويبدأ
الاحتفال بهذا العيد في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين .
ويبدأ هذا العيد من الأعياد المقدسة عند اليهود ويؤدون فيه الحج .
ويزعمون أن هذا العيد عندهم نذكار منهم لظلال الله تعالى إياهم
في التيه بالغمام .

وفي هذا العيد ، تعطل الأعمال ، فقد جاء في النوراة - السفر
البال - « وفي خمسة عشر من الشهر السابع ، عيد المظال ،
فلا تعملوا سبعة أيام ، وحجوا قدام الله حجاً ، وأجلسوا في المظال
بيت آل اسرائيل كلهم ، سبعة أيام ، ليعلم أحقابكم أني أجلس
بني اسرائيل في المظال . اذ أخرجتم من مصر ، ويستعمله جماعة
اليهود » (٣٩٣) .

وأخر يوم من أيام هذا العيد ، يسمى عرافا ، وفيه وقف
الغمام على رعوس بني اسرائيل في التيه (٣٩٤) . وقد جرت العادة

بين اليهود بأن يضع كل من امكنه ، نبي بيته طارمة من فصب ،
وسقفها من الجريد الأخضر وسعف النخيل ، ويدرك داخلها اسفاد
التوراه . بينما كان بعض الأثرياء من اليهود يؤزرها بالديباج .
كما كان كل يهودى يعمل فى أول أيام هذا العيد قبضة فيها ثلاثة
عيدان ، وفى كل عود ثلاثة أغصان بعضها أعلى من بعض . وفى
كل غصن ثلاث أوراق ، وفى وسطها قلب من سعف النخيل ، وعود
من الصفصاف ، وأترجة سالمة من الخدوش لم يصبها أى عفن ،
ويسير بهذا كله الى المعبد حيث يتركها هناك . وقبل نهاية أيام
العيد يذهب كل يهودى الى المعبد حيث يؤدى الصلاة ، ويباركه قيم
المعبد ، ثم يسلم الحزان عليهم ، ويقرأ عليهم شبيثا من
التوراه (٣٩٥) .

والى جانب هذه الأعياد الدينية لليهود ، نجد بعض الأعياد
الأخرى المستحدثة ، والنبي استمروا يحتفلون بها فى مصر
الاسلامية حتى القرن الخامس الهجرى . ونذكر فيها عيد الغوريم
وعيد الحنكة . أما عيد الغوريم ، ويسمى أيضا عيد الفوز ، وعيد
المجلة ، فقد جرت العادة بينهم على صوم الأيام الثلاثة السابقة لهذا
العيد . ويسود الفرح والسرور أثناء الاحتفال بهذا العيد . ويقوم
اليهود فى هذا العيد بكثير من أعمال اللهو والخلاعة . كما جرت
العادة فيه بين اليهود أن يهادى بعضهم بعضا كما كانوا يصورون ،
هامان ، وزير كسرى فارس أردشير ، ويعملون له تمثالا من الورق
المحشو بالنخالة والملح ، ثم يلقون به فى النار حتى تحترق . وكان
الغرض من وراء فعلهم هذا خدعة أولادهم الصغار (٣٩٦) .

وكان اليهود يحتفلون بعيد الحنكة ثمانية أيام . وكان من
عادة اليهود فى هذا العيد ، ان يوقدوا القناديل والسروج على أبواب
المنازل . وكانت هذه القناديل يزيد عددها ، يوما بعد يوم ، حتى

يصبح على باب كل دار ثمانية قناديل في الليلة الثامنة . ويسمى اليهود هذا العيد ، أيضا ، عيد التبريك لأنهم يخرجون في أيام هذا العيد كتابهم المقدس (التوراة) ويتباركون به (٣٩٧) . ويبدو أن اليهود في مصر قد استمروا ، يحتفلون بهذا العيد حتى القرن التاسع الهجري . فقد شاهد القبطسندى (المتوفى سنة ٨٢١ هـ) الاحتفال بهذا العيد (٣٩٨) .

وهكذا كان لأهل الذمة من القبط واليهود في مصر دورهم في الحياة العامة ، طوال تاريخ مصر الاسلامية ، منذ الفتح العربى حتى سقوط الدولة الفاطمية وقد تمتعوا في معظم الأحيان بكامل حرياتهم الاجتماعيه والدينيه في الاحتفال بأعيادهم الدينية والقومية ، وايضا الاحتفال بتولية رؤسائهم وقوادهم الدينيين ، كما لمسنا في دراستنا في هذا الفصل .

والواقع ان طوائف أهل الذمة في مصر ، وخاصة القبط منهم ، لم تكن في عزلة تامة عن المسلمين . فنجد ان المسلمين كانوا يشاركون القبط في الاحتفال بكثير من أعيادهم الدينية المختلفة طوال هذا العصر . وكان ذلك ، بطبيعة الحال ، مجاملة من المسلمين لهؤلاء القبط الذين يكونون طبقة لها شأنها في المجتمع المصرى آنذاك . ومما لاشك فيه ، ان كثيرا من هؤلاء المسلمين كانوا قبطا في الأصل قبل اعتناقهم الاسلام ولذلك كانوا دائما يتوقون الى ممارسة بعض عاداتهم القديمة التى اعتادوها قبل اسلامهم ، مثل اللعب بالنار ، والتراش بالماء ، والتزين بسعف النخيل ولبس الفاخر من الثياب ، وتبادل الهدايا وغير ذلك مما اعتاده القبط في أعيادهم .

كذلك نجد بعض أمراء مصر وخلفائهما - خاصة في عصر الاخشيديين والفاطميين - يشاركون القبط دون اليهود في الاحتفال

بكثير من أعيادهم الدينية ، بل أصبح للدولة في مثل هذه الاعياد عادات ورسوم ، لا يمكنها التخلي عنها . وكان ذلك مبدأه منهم هذه الطبقة القليلة العدد من السكان كسبا لتأييدهم لهم ضد الخلافة العباسية في بغداد . الى جانب اعتماد هؤلاء الأمراء والخلفاء على عدد كبير من القبط في ادارة البلاد وشئون الحكم . فتان عن الطبيعي اذن ان يشاركوا في أعياد القبط مجامله منهم هؤلاء الموظفين وان كنا لا نلمس مثل هذه الروح بالنسبة لجماعة اليهود في مصر ، حتى ولا في العصر الفاطمي الذي كان بمثابة العصر الذهبي لجماعة اليهود ، ونجد اهمال المصادر التاريخية الاشارة الى ذلك . ونلاحظ ان القبط واليهود لم يمتنعوا من الاحتفال بأعيادهم هذه ، الا في فترات محدودة ، وهي الفترات التي تعرض فيها أهل النمة لبعض المضايقات وخاصة في عهد الخليفة العباسي الموكل ، وعهد الخلفاء الفاطمي ، الحاكم بأمر الله .

وكان لكل من اليهود والقبط ، الى جانب أعيادهم الدينية هذه ، عادات وتقاليد اجتماعية وخلقية ، خاصة بهم ، اسنمروا يحافظون عليها ، ويتحلون بها طوال تاريخ مصر الاسلامية ، حتى نهاية العصر الفاطمي .

٢ - الأخلاق والعادات

شارك أهل الذمة ، من القبط واليهود ، بدورهم في حياة المجتمع المصري . وكان لكل منهم رؤساؤهم الدينيون ، الذين يحكمون بينهم ، وينظمون شئونهم ، ويراعون مصالحهم ، ويدافعون عن حقوقهم . كما كان لكل من اليهود والقبط طقوسهم الدينية وأعيادهم التي احتفلوا بها في حرية كاملة ، منذ الفتح العربي لمصر حتى نهاية العصر الفاطمي ، باستثناء فترات محدودة . وقد شاركهم المسلمون في كثير من هذه الاحتفالات ، كما شارك بعض أمراء مصر وخلفائها في بعض هذه الأعياد ، وخاصة أعياد القبط . ومما لاشك فيه انه كان لكل طائفة من هذه الطوائف ، أخلاق يتميزون بها ، وعادات يختصون بها ، ويحرصون على القيام بها ، كما كان لكل منهما أزياءها الخاصة والتي تميزها عن المسلمين في مصر .

ولما كان البطاريقة هم رؤساء القبط الدينيين والمسؤولين عنهم ، كان من الطبيعي أن يكونوا قدوة ومثلا أعلى للقبط ، يسايرونهم في أخلاقهم وطبائعهم ويتطلعون الى التشبه بهم . ونلمس من دراستنا لتاريخ أهل الذمة في مصر الاسلامية ، أن أهم ما كان يميز حياة هؤلاء البطاريقة القبط ، الزهد والتقشف وخاصة اذا تذكرنا أن هؤلاء البطاريقة كانوا رهبانا أصلا . وكان هؤلاء البطاريقة يكثرون

من الصلاة والدعاء لله من أجل شعبهم القبطي . كما اشهر هؤلاء البطارقة بالتواضع ، وعدم الاشتغال بالحياة الدنيا ، وترفها ، فدان طعامهم يتألف ، في الغالب ، من البقول والخبز .

وسير بعض الروايات التاريخية الى طعام البطرك أنبا سيمون - الذي عاصر ، والى - مصر عبد العزيز بن مروان - وتقول : « كان في زمانه كله غذاؤه خبز ، وملح مدقوف بكمون ، وبقل ، وما يشبه ذلك ، ليضعف سهوات الجسد ، ويجعله عبيدا للروح » (٣٩٩) .

ونستخلص من الروايات التاريخية المحلفة ان البطارقة كانوا ، دائما ، يميلون الى توفير الحرية والسلام لآخوانهم القبط ، كما كان هؤلاء البطارقة يتميزون بالرحمة والرفق باخوانهم القبط ومساعدة العوزة والمحاجين منهم في كل زمان ومكان ، وخاصة في اوقات الازمات الاقتصادية التي تعرضت لها أحيانا البلاد المصرية . وكتب التاريخ القبطية حافلة بالأمثلة العديدة على ذلك . ونذكر من هذه الأمثلة التي تدل على رفق البطارقة برعاياهم وحرصهم على تمتعهم بالحرية ، وتوفير سبل الأمن والاستقرار لهم ، ماحدث في بطركية الأب أغاثو - في القرن الأول الهجري - اذ حارب المسلمون الرومان في عهده ، واستولوا على جزيرة صقلية ، وحملوا الكثير من أهلها المسيحيين أسرى الى مصر . وكان هذا البطرك يبدى ألمه ، من أجل هؤلاء الأسرى ، فبادر الى شرائهم من المسلمين ، ومنحهم حرياتهم ، فمن أراد الإقامة في مصر ، أذن له بذلك ، ومن أراد منهم العودة الى بلاده ساعده في ذلك (٤٠٠) .

ومن الأمثلة على ذلك أيضا البطرك أنبا مرقس (الثالث) - الذي عاصر النزاع بين الأمين والمأمون من أجل الخلافة ، وتنافس

الزعماء السياسيين في مصر من أجل النفوذ والسيادة - وقد حدث في ذلك العصر أن استولى جماعه من الأندلسيين على الاسكندرية وجاءوا اليها يحملون عددا كبيرا من الأسرى ، وكان من بينهم كثير من الرهبان والقس والنسامة والنساء والأطفال . فاشترى البطرك مرقص أعدادا كبيرة من هؤلاء الأسرى ، اذ بلغ عددهم ستة آلاف أسير ، وقد منحهم حرياتهم ، وخيرهم بين البقاء في مصر ، فيصبحون من ضمن رعاياه القبط ، أو العودة إلى بلادهم . وقد رغب كثير منهم في البقاء في مصر بين القبط بعد أن لمسوا في البطرك مرقص ، حبه للخير ، واقباله على الاحسان اليهم . فكان يعهد بهم إلى معلمين لتعليمهم العلوم الدينية المختلفة أما من رغب منهم في العودة إلى بلادهم ، فكان البطرك مرقص يزودهم بالموثونة ، ويدفع لهم من الأموال ما يحتاجون اليه حتى يصلوا إلى أهلهم ، وقد اشتهر هذا البطرك - نتيجة لأفعاله - باحسانه وإنسانيته بين الملوك والأمراء المعاصرين له (٤٠١) .

وكان البطارقة يبادرون إلى مساعدة شعبهم من القبط ، وتقديم المساعدات المادية لهم ، خاصة في أوقات الغلاء والأزمات الاقتصادية التي قد تتعرض لها أحيانا البلاد المصرية . وتحفظ لنا المصادر التاريخية القبطية كثيرا من الأمثلة على ذلك .

نذكر من ذلك الغلاء الذي تعرضت له مدينة الاسكندرية ، في بطركية أنبا يوحنا الثالث ، المعاصر لوالى مصر عبد العزيز بن مروان - وقد استمر هذا الغلاء ثلاث سنوات متتالية ، لم يتردد ، أثناءها ، البطرك يوحنا ، في امداد القبط بالطعام ، وكل ما يحتاجون اليه حتى نجوا من المجاعة . ويقول ساويرس (٤٠٢) : « كان يدفع لهم قوتهم دفعتين في كل جمعة ، ويدفع لهم أيضا دراهم ، وكانت طاحون الكعك لا تبطل لا ليل ولا نهار ، بل تعمل للمنقطعين .

أهل الذمة ج ١ - ٤٠١

وكانت عينه ملآنة ، وكان كثير الصدقة ، وكان يدفع صدقات كثيرة
مثل البحر » •

كما عانى صعيد مصر ، ومدينة الاسكندرية ، فى بطركية
أنبا يوحنا الرابع من الأزمة الاقتصادية ، ومات كثير من الناس من
شدة الجوع والحاجة • فحزن لذلك البطرك يوحنا : أشد الحزن ،
وأخذ يتضرع الى الله بالصلوات والدعاء ليلا ونهارا وكان يقول
فى صلواته ودعائه : « يارب ارحم خليقتك وعمل يديك ، لا تصنع
بنا مثل خطايانا • فنحن مستحقون لكل أدب ، لأننا لم نسلك فى
طريق وصاياك • » (٤٠٣) ونستنتج من هذا الدعاء أن القبط ،
كانوا يعتقدون ان كل شدة تنزل بهم أو أزمة يتعرضون لها سواء
أكانت سياسية أم اقتصادية ، كانت دليلا على غضب الله عليهم ،
وعقابا لهم ، على أخطائهم الدنيوية •

كانت مخازن الكنيسة القبطية بالاسكندرية تحفل بالخيرات
فى ذلك الوقت فأمر البطرك يوحنا ، الشماس مرقص - وكان يده
اليمنى فى القيام بأمور البيعة - بأن يقدم الطعام الى كل جائع
بالمدينة ، وكان يقدمه الى المحتاجين فى الصباح والمساء من كل
يوم • ولما علم القبط بذلك ، أسرعوا الى مقر البطرك يوحنا ،
ليحصلوا منه على ما يحتاجون اليه من الطعام والأموال ، واشتهر
هذا البطرك بأعماله الحسنة ، وذاع صيته فى غير مصر من البلاد
الاسلامية ولم يقف الأمر عند حد مساعدة القبط فى هذه الأزمة ،
بل نجده يكثر من وصاياهم لكبار القبط وأغنيائهم ، يحثهم فيها على
مداومة الصدقة ، والتزام الرحمة والرفق بالضعفاء والمحتاجين ،
وكان يقرأ لهم ما يشير الى ذلك ويؤيده من الكتب المقدسة (٤٠٤) •

ولما كان البطرك دائما قدوة للقبط ، وخاصة كبارهم ، فقد كانوا يحذون حذوه في فعل الخير ، وعمل الحسنات . فكان أعيان القبط في مدينة الاسكندرية يقومون بتفقد الفقراء والأيتام والأرامل والمساكين من القبط ، ويقدمون اليهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام والكسوة . ومما تجدر الإشارة اليه ان بعض الرؤساء والقواد القبط ، قد أصابه العوز والفقر ، خلال الأزمة الاقتصادية التي نزلت بمدينة الاسكندرية . فكان البطرك ومن تشبه به من القبط لا يترددون في مساعدة المحتاجين . كما كان هذا البطرك يؤوى الغرباء القادمين الى الاسكندرية ، واستمر على هذه السياسة الرحيمة حتى انتهت الأزمة الاقتصادية (٤٠٥) .

وكان الأساقفة في مناطق أسقفيتهم ، يكثرون من فعل الخير والصدقة والاحسان الى الفقراء والمحتاجين من اخوانهم القبط . ومن هؤلاء نذكر الأسقف أنبا باسيليوس أسقف أرمنت ، ويحكى عنه أنه كان في زمن الغلاء والشدة الاقتصادية ، لا يترك في بيته خبزا الا وتصديق به (٤٠٦) . كما اشتهر بعض المستخدمين من القبط بحب الاحسان والصدقة على المحتاجين من اخوانهم ، تشبها بما كان يفعل البطاركة والأساقفة ، ومن هؤلاء الشماس بقرية الرشيدي الكاتب ، وكان مستخدما في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، فترك الخدمة في الديوان ، وبدأ يتفقد أحوال اخوانه القبط ، خاصة المساكين منهم بسبب الضرائب المفروضة عليهم ، فكان يضمّنهم ويدفع الأموال عنهم حتى يطلق سراحهم . كما كان يتصل بأثرياء القبط وأغنيائهم ، ليأخذ منهم ما يقدرّون على دفعه ويتصدق به على الفقراء والمحتاجين من القبط (٤٠٧) ، خاصة أنهم قد قاسوا في هذا العصر ، كثيرا من الشدائد .

الواقع أن حب الصدقة وفعل الخير ، لم يكن مقصورا على البطارقة والأساقفة وبعض المستخدمين من القبط في المدن المصرية ، بل كان يشاركهم في ذلك كثير من عامة القبط في الريف المصري . فتشير بعض أوراق البردي الى أن بعض القبط باحدى قرى الفيوم ، قد أوصى بثلاث أمواله وأملاكه المختلفة ، لفتاة من القبط ، قد تولى تربيتها . وكان هذا الحدث معاصرا للأمراء الاخشيديين . كما أننا نستدل من هذه البردية على ثراء بعض القبط في بعض قرى الريف المصري . ويجدر بنا أن نشير الى نص ما جاء في البردية التي تتضمن هذه الوصية ، والمؤرخة في شهر شوال سنة ٣٤٨ هـ (ديسمبر ٩٥٩ / يناير سنة ٩٦٠ م) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، شهد الشهود المسمون في آخر هذا الكتاب على اقرار يحنس بن شنودة بن بطرس . من سكان ططون من كورة الفيوم ، أقر عندهم ، وأشهادهم على نفسه في صحة عقله وبدنه ، وجواز أمره ، طائع غير مكره ، ولا مجبر ، ولا مضطهد طالب ، رغب ، أنه تصدق على سميته دركة ، الصبية التي رباهما ، بثلاث ما تملكه يمينه من دينار أو درهم أو ثوب أو نحاس أو منزل أو شيء مما يساوي درهما واحدا ، صدق عليها ذلك صدقة لوجه الله لا يريد بذلك جدى ولا شكورا . فمتى ما أدى يحنس بن شنودة أو أحد أنسابه بدعوى ، أو احتج بحجة ، بوجه من الوجوه ، ولسبب من الأسباب . . . فدعواه في ذلك باطل وزور ، وافك وعدوان . شهد على اقرار يحنس بن شنودة بجميع ما في هذا الكتاب ، بعد أن قرئ عليه وعرفه ، وأقر بفهمه في صحة عقله وبدنه وجواز أمره طائع غير مكره ولا مجبر ، ولا مضطهد . . . وذلك في شوال سنة ٣٤٨ هـ . شهد ابراهيم بن أحمد بن رزق على اقرار يحنس بن شنودة ، شهد عبد الصمد بن يوسف بجميع ما في هذا الكتاب ، وكتب شهادته بخطه على اقرار يحنس بن

شنودة ، شهد حي بن الدياس على اقرار يحنس بن شنودة ، بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب شهادته بخطه ، وكتب عنه بأمره « (٤٠٨) » .

وكان القبط ، يعتقدون أن كل ما ينزل بهم من صعاب ويحل بهم من أزمات وكوارث راجع الى غضب الله عليهم ، ومن ثم كانوا يلجأون الى الصلاة والدعاء لله حتى تزول عنهم هذه الشدائد .
وعليه كان كثيرا ما يحدث ان يستعين البطارقة بالصلوات والدعاء على انفراج الكروب وزوال الشدائد ، خاصة انه كان يحدث بعض الأزمات التى لا تفيد فيها المساعدات المادية .

نذكر من الأمثلة على ذلك ، البطرك مرقس ، حينما تعرضت أقاليم البحيرة فى عهده الى هجوم أسراب الجراد على أراضيها ، فأكل جميع ثمار الأرض والكروم ، وساءت الأحوال الاقتصادية .
فحزن البطرك مرقس لذلك ، وطلب من القبط الأرثوذكس الخروج معه بالبخور والصلبان وهم يحملون الأناجيل ، توسلا وتضرعا الى الله ليزيل عنهم هذه الشدة (٤٠٩) .

كان القبط ، وخاصة البطارقة يحرصون أشد الحرص على وحدة الكنيسة القبطية وتماسكها، وضم الخارجين عنها ، والمخالفين لمذهبها مهما كان أمر هؤلاء . وقد حدث فى بطركية أنبسا مرقس الثالث أن انضمت الى الكنيسة جماعة من المخالفين لها ، وهم جماعة البرشنوفيين ، الذين كانوا يسمون أيضا (من ليس لهم رأس) وكانت هذه الجماعة توجد فى مصر منذ بطركية الأب بطرس . وقد حاول البطرك مرقس جاهدا هداية هذه الجماعة ، وتضرع الى الله بالصلوات والدعاء ، من أجل ذلك ، وكان يقول : « والآن يارب ، اسمع صلاة عبدك ، وليدخل دعائى أمامك ، بسبب هذه الخراف

الضالة ، ولتجتمع أعضاء بيعتك ، ليكونوا قطيعا واحدا ، وراعيها واحدا » (٤١٠) .

وسرعان ما سعى رؤساء هذه الجماعة الى البطرك مرقس ، الذى رحب بهم ، وقبلهم أعضاء فى الكنيسة القبطية ، على ألا يكون لهم درجة أو رتبة من الكهنة فأجابوه الى ذلك ، بل وكتبوا له تعهدا بذلك . ولكن بعد أن تحقق البطرك مرقس من صدق أمانتهم وحسن نياتهم ، رأى تعيينهم أساقفة لبعض المناطق ، وصاروا من المقربين اليه . وعندما شعرت جماعة البرشنوفيين بالاطمئنان ، أسرعوا باعلان انضمامها الى الكنيسة القبطية ، فرحب البطرك بها ، وعم البلاد الفرح والسرور (٤١١) .

ويحدث ما يشبه ذلك فى بطركية أنبا شنودة - فى أواخر عصر الولاة - فقد خرج عليه بعض سكان صعيد مصر ، فخرج اليهم بنفسه ، وبذل أقصى جهده من أجل هدأيتهم ، ونجح فى ابطال ما شاع بينهم من مقالة وآراء خاطئة ، لانتفق وآراء القبط الأرثوذكس كما انه أكثر من وصاياهم اليهم ، مستشهدا فى ذلك بأعمال الرسل وبعض البطارقة الصالحين حتى يهتدوا ويعدلوا عما كانوا عليه من أخطاء (٤١٢) .

وكان القبط بصفة عامة ، يكونون كل حب وتقدير لبطاركتهم ، ويبذلون أقصى جهدهم فى سبيل توفير الأمن والاستقرار لهم ، كما كانوا يعاونونهم فى الشدائد التى قد يتعرضون لها . والباب الأول من هذا البحث ، يتضمن كثيرا من الأمثلة التى تدل على مدى مساعدة القبط على اختلاف طبقاتهم للبطاركة ، وخاصة فى دفع ما كان يفرض على بعضهم من غرامات مادية ، وخاصة فى عصر الولاة وعصر الأمراء الطولونيين .

تعرض القبط - كما ذكرنا - لكثير من الشدائد ، فى أثناء النزاع بين الأمين والمأمون من أجل الخلافة ، وما كان يسود مصر من تنافس بين الزعماء السياسيين على الاستئثار بالنفوذ والسيادة على البلاد . كما تعرض القبط لبعض المضايقات الشديدة فى مدينة الاسكندرية خاصة ، من جراء ما فعله الأندلسيون بها ، وأصاب البطرك مرقص كثير من السوء فرأى أحد البطاركة ، ويسمى مقارة بن ثابت النبراوى - من أهل سمند - أن ينهض البطرك ويخلصه من أفعال الأندلسيين بالمدينة . وسعى من أجل ذلك ، لدى أحد زعماء مصر آنذاك وهو عبد العزيز الجروى ، الذى استأثر بالنفوذ والسلطان ، فى الأقاليم الواقعة شرق مصر ، والتمس منه احضار البطرك أنبا مرقص ليقوم بينهم بعبدا عن مدينة الاسكندرية ، فأجابه عبد العزيز الى ذلك وكتب له سجلا لتدعيم مركز البطرك (٤١٣) .

ولكن ساءت العلاقة ، بعد ذلك ، بين عبد العزيز الجروى وبين البطرك أنبا يعقوب - خليفة البطرك مرقص - وطلب عبد العزيز من البطرك يعقوب مقابلته ، وهدده ان امتنع عن لقائه ، بإقدامه على هدم الكنائس والأديرة ، وقتل الأساقفة ، وأبدى مقارة ابن ثابت ، ألمه لموقف الجروى من البطرك ، وكتب الى البطرك يعقوب ، يلتمس منه لقاء عبد العزيز الجروى ، ووعدته بتوفير الأمن والسلام له ، وبدفع كل ما قد يلزمه به من غرامات مالية (٤١٤) .

عندما كان القبط ، يحتفلون بعيد الشهيد مارى مينا فى سنة ٥٦٧ للشهداء (حوالى سنة ٨٥١ م) فى بطركية الأب قزما الثانى ، حدثت فتنة بينهم ، مما نتج عنها قتل أحد القبط . فغضب أحمد بن دينار ، حاكم الاسكندرية ، وأمر بالقبض على البطرك قزما وانتزع منه كل ما جمعه من الأموال والصدقات من القبط فى هذا

العيد ، كما ألزمه بعدم مغادرة الاسكندرية الى أى مكان آخر .
وعلم بعض المستخدمين القبط بما نزل ، بالبطرك ورأى
مقارة بن يوسف ، كاتب صاحب الديوان ، وكان له نفوذ عند
ولاة مصر ، وإبراهيم بن ساويرس ، صاحب بيت المال ، انقاذ
البطرك من- برائن حاكم الاسكندرية- (٤١٥) فنقدا الى والى حراج
مصر عبد الواحد بن يحيى الوزير ، يلتمسان أن يأذن لهما باحضار
البطرك قزما من الاسكندرية الى القسطنطينية . ليكتب له ما عليه من
الخراج ، لأنه قد ولى البطركية متأخرا ، ولا علم له بخراج الكنائس .
وبهذه الحيلة ، تخلص البطرك من قسوة حاكم مدينة الاسكندرية
وتقررت اقامته فى مدينة دميرة ، وكان كل سكانها حينئذ من
القبط (٤١٦) .

ويقول ابن المقفع (٤١٧) : « وكان من نعمة الله أن جماعة
من المؤمنين متولون ديوان السلطان ، وجميعهم يبذلون أنفسهم على
البيعة ، شهوة واجتهادا عن أمانتهم وأراحوا البطرك والبيعة
والمؤمنين ، وصاروا تحت هدوء وسلامة ، ولا موضع واخدا كان فيه
اضطراب فى تلك الأيام ، وهم مواصلون الصلوات والقداست لله
على ما أنعم به عليهم » .

كما نلمس حرص القبط ، على ايواء البطرك ، وتقديرهم كل
مساعدة مادية ممكنة له ولتلاميذه فى وقت الغلاء ، والأزمات
الاقتصادية ، كما حدث عقب فتح الفاطميين لمصر وما تبعه من أزمات
استمرت ، سبع سنوات متواصلة ، ومات فى أثناء ذلك كثير من
الناس من شدة الجوع والحاجة . فقد استضافت احدى شهيرات
نساء القبط الثريات وتسمى دينا - وهى من سكان قرية
بلقونة (٤١٨) - البطرك ، ومن كان فى صحبته ، حتى انتهت
سنوات الغلاء وعاد الرخاء الى البلاد (٤١٩) . وكتاب سير البيعة

المقدسة مليء بالأمثلة التي تشير الى مدى عناية القبط ببطركهم ،
وتوفير الأمن والاستقرار له وللكنييسة .

ويبدو أن بعض القبط - بالرغم من ذلك - كان يميل الى الخداع
والغدر ، والسعاية بعضهم ببعض ، لدى الرؤساء والحكام المسلمين
فى مصر . ونلمس ذلك كثيرا فى دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى
مصر الاسلامية . وكانت معظم هذه السعايات ، والوشاية ، ضد
البطرك نفسه الذى هو الرئيس الدينى لهم ، وبمثابة الأب الروحى
لهم . ومما تجدر الاشارة اليه أن بعض السعايات بالبطرك ، كانت
من جانب الملكانيين ، نكاية منهم للقبط اليعاقبة الذين قد ارفع
شأنهم فى ظل الحكم الاسلامى ، وغلبوا على معظم الكنائس والأديرة ،
وذلك بالرغم من اتفاقهم معهم فى الدين المسيحى وان اختلفوا فى
المذهب .

ومهما كانت هذه السعايات ، سواء أكانت من جانب القبط
أنفسهم أم من جانب الملكانيين ، فكثيرا ما كانت تؤدى الى سوء
معاملة الولاة أو الخلفاء للبطاركة ، ووضعهم فى الحبس ، وفرض
الغرامات المادية عليهم ، مما كان يضطرهم الى فرض الشرطونية ،
أى بيع الدرجات الكهنوتية ، وبيع أملاك بعض الكنائس فى بعض
الأحيان ، لعجزهم عن سداد ما فرض عليهم من غرامات . وبالتالى
تعرضت الكنيسة القبطية لكثير من الشدائد والمضايقات من جراء
هذه السعايات . ويجدر بنا أن نذكر بعض الأمثلة لهذه السعايات .

لما خرج الى مصر عبد العزيز بن مروان الى الاسكندرية ،
لتفقد الأمور بها لم يخرج البطررك أنبا يوحنا لاستقباله والسلام
عليه ، وذلك لعدم علمه بقدومه فسعى به بعض الملكانيين ، وعلى
رأسهم تاوفانيس ، حاكم مريوط ، وقالوا لعبد العزيز : « انه

ما خرج ولا تلقاك لكثرة تعجبره وكبريائه ، وكثرة ماله « فغضب
الأمير لذلك أشد الغضب وقبض على البطرك يوحنا ، وأمر بوضعه
فى الحبس ، وفرض غرامة مالية عليه (٤٢٠) .

أما البطرك أنبا يوساب ، فى عهد الخليفة العباسى المأمون ،
فقد سعى به بعض الأساقفة القبط . وهما : الأسقف اسحق
أسقف تنيس ، والأسقف تادرس ، أسقف مصر ، اللذان حنقا على
البطرك ، لعزله اياهما من كراسيهما (٤٢١) .

وفى اماره أحمد بن طولون على مصر ، سعى بالبطرك أنبا
خايل ، أحد الأساقفة وهو أسقف مدينة سخا ، وأعلم الأمير أن
البطرك يمتلك أموالا كثيرة ، وأوانى من الذهب والفضة . فطمع
أحمد بن طولون فى الحصول على بعض الأموال من البطرك ،
فاستدعاه اليه ، الا أن البطرك أعلمه ، أنه لا يمتلك شيئا ، وانتهى
الأمر بفرض غرامة مالية قدرها عشرون ألف دينار (٤٢٢) .

ويقول البلوى (٤٢٣) : ان القبط لا يحسنون أكثر من سعايه
بعضهم ببعض ويذكر لنا مثلا على ذلك مما حدث فى بعض جهات
الريف المصرى . فقد بعث أحمد بن طولون ، أحد قواده الى بعض
القرى ، لجمع ما عليها من الأموال ، وتفقد أحوالها ، فجاء الى هذا
القائد ، أحد القبط بها ، وسعى لديه ، براهب ، فى هذه القرية ،
كان يحقد عليه ، ويريد التشفى منه والايقاع به ، فأخبر القائد
بأن هذا الراهب قد عثر على كنز عظيم . فأحضر القائد الراهب ،
وهدهده ، وألزمه بدفع خمسمائة دينار ، مما أحزن الراهب أشد
الحزن . وهكذا لم تقتصر السعاية والوشاية على العاصمة ، بل
امتدت أيضا الى القرى المصرية . وأيضا لم تكن السعاية مقصورة
على البطرك ، بل أيضا كان يسعى القبط بعضهم ببعض على اختلاف
طبقاتهم .

ولم تكن سعاية القبط وغدرهم ببطركهم لدى ولاية مصر
وحكامها ، فحسب بل عمدوا فى بعض الأحيان الى اثاره بعض
الأساقفة ضد البطرك ، ففى خلافة المستنصر بالله ، قامت خصومة
بين البطرك خريسطودولس ، والأسقف يوحنا أسقف مدينة سخا .
فجمع الأسقف بعض الأساقفة ، وأنارهم ضد البطرك ، واتفق
الجميع على عزل البطرك من البطركية . عند ذلك سعى القبط
المصالحون فى تهدئة الأمور ، وتحسين العلاقة بين الأساقفة
والبطرك (٤٢٤) .

وامتدت سعايات القبط الى الأساقفة نواب البطرك . فقد اتهم
أحد الرهبان ويسمى فرج ، جماعة من الأساقفة ، وسعى بهم لدى
الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى ، واتهمهم بحيازة ودائع وأموال
كثيرة لبعض الأثرياء فى مصر . وسأله أن يأذن له باستخراج ما لدى
الأساقفة فأذن له بذلك . وانتهى الأمر بالزام الأساقفة فى الوجوه
القبلى والبحرى بدفع أربعة آلاف دينار . وكتب أمير الجيوش
منشورا ، لفرج الراهب يتضمن الزام كل أسقف من أساقفة الوجه
البحرى بدفع خمسة دينارات ، فى كل سنة ، لفرج الراهب كما ألزم
أساقفة الوجه القبلى بدفع خمسمائة دينار (٤٢٥) .

وسعى بعض الرهبان لدى الخليفة الفاطمى ، الحافظ ،
برهبان دير أبى مقار وذهبوا الى أنه لديهم من الملاحم والعلوم
ما يمكنهم من التنبؤ بما يجرى للموك ولدولهم ، وأنهم يمتلكون
الكثير من الذهب والفضة ، مما أثار الخليفة الحافظ ، فأرسل
بعض رجاله لاكتشاف حقيقة الأمر ، فأساءوا معاملة الرهبان بدير
أبى مقار ، وألحقوا بهم كثيرا من الاهانات كما قبضوا على كثير
منهم ، وحملوهم الى القاهرة . الا أن الخليفة الحافظ تبين حقيقة
الأمر ، فأحسن لقاء رهبان دير أبى مقار ، وأكرمهم ، وأعادهم الى
أديرتهم سالمين (٤٢٦) .

والحقيقة ان الروايات القبطية ، تقدم لنا كثيرا من الأمثلة على سعايات بعض القبط باخوانهم ، وخاصة بالأساقفة والرهبان . نلمس من دراستنا ، لتاريخ أهل النمة في مصر الاسلامية ، أن الأمر لم يقف عند حد السعاية بالبطرك والأساقفة لدى المستولين ، بل عمده بعض القبط الى سم البطرك تخلصا منه ، ومن رياسته الدينية . فقد كان البطرك أنبا سيمون ، في ولاية عبد العزيز بن مروان - يفضل الانفراد بنفسه دائما لمواصلة القراءات والصلاة ، ولا يجتمع كثيرا بالأساقفة والكهنة في مدينة الاسكندرية فبغضه قبط الاسكندرية ، وفكروا في الخلاص منه بالسم . ولما فطن عبد العزيز بن مروان الى هذه المؤامرة ، أمر بالقبض على المتهمين ، واحراقهم وهم أحياء ، الا أن البطرك أنبا سيمون التمس منه العفو عن الكهنة ، فأطلق سراحهم (٤٢٧) .

ويمكننا أن نقول ، ان العلاقة بين القبط ورؤسائهم الدينيين ، كان يسودها ، غالبا - الديمقراطية ، فلم يكونوا يشعرون بالخوف أو الرهبة من البطرك ، حتى انهم كانوا يسعون به أحيانا عند الحكومة ، كما انه لم يكن هناك عقوبة جسدية ينزلها البطرك بمن يسيء التصرف من القبط . ولعل ذلك كان من أكبر العوامل المشجعة على السعاية بالبطاركة لدى الرؤساء والخلفاء ، أو التجروؤ في مخاطبتهم أو التناول عليهم (٤٢٨) .

ومن أبرز أخلاق القبط في ذلك العصر ، ميلهم الى الاعتقاد في الخرافات والايان بأن البطاركة والقسس ، يستطيعون القيام بالمعجزات التي لا تخضع للمنطق أو العقل كاحياء الموتى ، وشفاء المرضى ، وذلك نتيجة رغبة القبط في احاطة هؤلاء البطاركة والقسس بهالة من العظمة والاجلال . وتحفل الروايات القبطية بكثير من الأحداث التي يعتمد نسيجها على الخيال ،

فكان القبط يلجأون الى البطارقة والأساقفة لشفاء مرضاهم (٤٢٩) . كما كانوا يلجأون اليهم - حينما يتوقف سقوط الأمطار مما يؤدي الى قلة الانتاج الزراعى (٤٣٠) - الى جانب ايمان بعض القبط بأن لرؤسائهم الدينيين العلم بالغيب والمستقبل (٤٣١) وبقدرتهم على تخليص أجساد القبط من الارواح الشريرة (٤٣٢) .

اشتهر كثير من القبط فى مصر بالشراء الواسع ، وكان كثير منهم يتبرعون ببعض أموالهم لآخوانهم القبط المحتاجين والفقراء . كما كانوا ينفقون كثيرا من أموالهم فى تعمير الكنائس والأديرة ، وتزويدها بكل ما يلزمها . ومن أشهر هؤلاء الأثرياء مقارة بن ثابت النبراوى . وأيضاً بكام ، عامل كورة بورة فى عهد الخليفة المأمون ، الذى أنفق كثيرا من أمواله فى بناء قبة كنيسة القيامة فى بيت المقدس وفى بناء كثير من الكنائس فى كورته (٤٣٣) .

وتذكر بعض الروايات أن الخليفة المأمون العباسى ، حينما زار مصر ، كان يمر بالقرى فيقيم فى كل قرية يوماً وليلة ، وخالف هذه القاعدة عند قرية « طاء النمل » فلما تجاوزها ، خرجت اليه عجوز تسمى مارية القبطية ، صاحبة هذه القرية ، وهى تصيح به : « يا أمير المؤمنين ، نزلت فى كل ضيعة ، وتجاوزت ضيعتى ، والقبط تعيرنى بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلولة فى ضيعتى ، ليكون لى الشرف ، ولعقبى من بعدى ، فلا تنسيت بى الأعداء » فقبل المأمون دعوتها وضيافتها له . وكان يصاحب المأمون فى هذه الضيافة ، أخوه المعتصم وابنه العباس ، وأولاد أخويه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكتم والقاضى أحمد بن داود . وأعدت السيدة مارية الطعام والهدايا لهم جميعاً . ولما عزموا على الرحيل فى اليوم التالى ، قدمت لكل منهم طبقاً فيه كيس من النقود (٤٣٤) . مما يدل على الثراء الذى اشتهرت به هذه السيدة القبطية .

والواضح من كثير من الروايات التاريخية أن معظم أغنياء القبط ، كانوا يتركزون في الريف المصرى بصفة خاصة • وتحدث ابن الداية (٤٣٥) عن أحد هؤلاء الأثرياء فقال : « كان يبيع أرياف مصر نصراني من أهلها ، كثير المال ، فاشى النعمة ، سمح النفس • وكانت له دار ضيافة وجرايات واسعة على ذوى الستر بالفسطاط » •

واشتهرت بعض نساء القبط في الريف المصرى بالنراء الواسع ، ومنهن السيدة ديننا التى استضافت البطرك أنبا مينا ، عندما اشتد الغلاء في البلاد المصرية ، عقب دخول الفاطميين مصر ، واستمر سبع سنوات • وقد أنفقت هذه السيدة على البطرك وتلاميذه وكل من كان في صحبته من أموالها الخاصة (٤٣٦) •

كذلك تشير بعض أوراق البردى الى نراء بعض القبط في قرية ططون بكورة الفيوم فهناك ثلاث أوراق بردية ، يرجع تاريخها الى سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) تتضمن عقود بيع ثلاثة منازل من ثلاثة أشخاص ، اثنان منهم من القبط ، والثالث من المسلمين ، والمشتري شخص واحد من القبط ، ويسمى يحنس بن شنودة ، وقد دفع الثمن المحدد لهذه المنازل قبل تسلمها (٤٣٧) • مما يدل على ثراء هذا الشخص ، وتوافر المال عنده •

واشتهرت بعض المدن براء أهلها القبط ، نذكر منها ، مدينة عين شمس ، وكانت غالبية سكانها من القبط ، حتى القرن الرابع الهجرى ، ولهم كنائس واسعة وكثيرة وكان يشتهر كثير من أهلها باليسار ، وسعة الحال • وكان هؤلاء يتبرعون ببعض أموالهم لآخوانهم القبط ، بل للمسلمين (٤٣٨) أحيانا •

وقد أشار الرحالة ناصر خسرو ، الذى زار مصر فى القرن الخامس الهجرى ، الى ثراء بعض القبط . فتحدث عن قبطى كان يملك من المراكب والأموال والأموال ما لا يمكن عده واحصاؤه . ويذكر أنه قد حدث فى بعض السنوات أن نقص ماء النيل ، وانعدمت الغلال فى البلاد ، فكتب الوزير الى ذلك القبطى قائلاً : « ليست السنة رخاء ، والسلطان مشفق على الرعية فاعط ما استطعت من الغلة ، اما نقدا واما قرضا » فأجاب القبطى : « أسعد الله السلطان ، والوزير ، ان لدى من الغلة ما يمكننى من اطعام أهل مصر الخبز ست سنوات » (٤٣٩) .

ومما لا شك فيه أن المقصود بأهل مصر ، هم سكان القاهرة وضواحيها وليست البلاد المصرية كلها . ونتبين من هذا النص ما كان عليه هذا القبطى من ثراء وكيف انه كان يمتلك من الغلة ما يكفى غذاء سكان العاصمة لبضع سنوات .

كانت حياة القبط ، وخاصة الرؤساء منهم ، والكتاب ، فى منازلهم ودورهم تتميز بالترف والرفاهية . أما فى خارجها ، فقد كان القبطى يرتدى فى ديوانه أبسط اللباس ويتقشف فى طعامه ، ويركب الحمار (٤٤٠) . فقد كان القبط يميلون الى التواضع والتقشف فى خارج دورهم حتى اذا صار الواحد منهم فى داخل منزله ، كان له كامل الحرية فى اللباس الفاخر ، والطعام المتنوع الى جانب التمتع بكل وسائل الترف والرفاهية .

وتقول الرواية القبطية : « ولما صار جميع مقدمى المملكة ، والناظرين فى دواوينها وتدير أمورها ، كلهم نصارى ، وهم الملاك النافذ أمرهم ، طغوا وعتوا ، وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر ، وتكبروا وعزت نفوسهم ، ووقع بينهم البغضة والحسد ،

وبين مقدميهم ، وصار أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيوية ، والتجمل ،
والتفاخر والكبرياء على بعضهم بعض « (٤٤١) » .

وبالرغم من ذلك ، كان هناك بعض القبط الذين يعانون من
الفقر والبؤس في بعض المدن المصرية ، وخاصة قبط تنيس . اذ
كان أكثر سكان هذه المدينة من القبط ، وكانوا أكثر قبط مصر
فقرا وبؤسا . فمدينة تنيس تحيط بها المياه من كل ناحية ، وليس
لهم حقول يزرعونها أو أى مصدر آخر للثروة والرزق ، ولا تصلح
مدينتهم لتربية الماشية . بل ان الماء الذى يشربونه يضطرون الى
نقله من مكان بعيد ، ويشترون كل أربع جرار ماء بدرهم . وكان
العمل الوحيد الذى يمكنهم القيام به ، هو نسج الكتان ، الذى
تقوم نساؤهم بغزله . وكانوا مثقلين بالضرائب ، فكان على كل
واحد منهم ، دفع خمسة دنائير . واستعمل جباة الضرائب معهم
العنف والشدّة ، وكثيرا ما كانوا يحبسونهم لعجزهم عن سداد
ما عليهم ؛ مما كان يضطرهم الى رهن أولادهم ونسائهم فيعملون
كالعبيد . وكان يحدث قبل حلول وقت تحرير هذه الرهائن أن
يطالبوا بجزية السنة التالية (٤٤٢) .

ولما علم البطررك ديونيسيوس ، بطرك أنطاكيا بحالة قبط
تنيس ، عندما قدم مصر للمرة الأولى فى امارّة عبد الله بن طاهر ،
وخلافة المأمون العباسي . أبدى الله ، وعطفه على هؤلاء القبط
الأرثوذكس ، ورأى ضرورة مساعدتهم ، والتخفيف من شدة البؤس
الذى يقاسون منه ، فحدث عبد الله بن طاهر ، أمير مصر ، فى
شأنهم . وكان عبد الله بن طاهر يعطف على القبط ، ومن ثم أمر
بتخفيف الجزية المفروضة على قبط تنيس ، وتحديدتها بثمانية
وأربعين درهما على الأغنياء ، وبأربعة وعشرين درهما على متوسطى
الحال ، واثنى عشر درهما على الفقراء (٤٤٣) .

يذهب بعض الكتاب المحدثين الى أن الجماعات شأنها شأن الأفراد ، لها طابعها المميز وكان الطابع المصرى ، هو الحرص الشديداً على العادات والتقاليد ، وخاصة ما يتعلق منها بالدين . لأن الميل الى الروحانيات ميزة أصيلة فيه . وهذه النزعة تنعكس فى العادات التى اعتاد القبط ممارستها جيلاً بعد جيل ؛ وكان من أهم هذه العادات والتقاليد ، المواظبة على قراءة الكتاب المقدس يومياً ، حتى صار فى إمكانهم تلاوة أجزاء كثيرة منه غيباً . والمواظبة على الصلاة ، وتكريس ركن معين من البيت يضعون فيه أيقونة ، أمامها قنديل والغرض من ذلك أن يكون هذا الركن منبهاً لهم الى الحياة الروحية التى يجب عليهم السعى نحوها يومياً ؛ وحتى يجد كل من فى البيت ركناً يستطيع الالتجاء اليه ورفع صلواته الى الله . كما كان من عادات القبط احترام القربان احتراماً بالغاً (٤٤٤) .

واشتهر عن القبط ، اقبالهم على الصيام ، وخاصة فى مواسم الصيام الأربعة الرئيسية . وأولها الصوم الكبير ، ويسمى أيضاً صوم الأربعين المقدس (٤٤٥) . ويكون هذا الصيام ، فى الأيام الخمسة والخمسين السابقة لعيد الفصح . وكان من عادة القبط خلال هذا الصيام ، أن يمتنعوا عن أكل الأسماك والبيض والألبان ومنتجاتها ، بينما يجوز لهم تناول الخضراوات والفواكه والبقول المعدة بالزيت كما كانوا يمتنعون عن الشراب بعد ساعتين من حلول المساء وحتى منتصف الليل ، وبعد ذلك يجوز لهم الشراب والأكل (٤٤٦) وكان من عادة البطارقة فى أيام صوم الأربعين ، أن يخرجوا ، الى ديارات وادى هيبب - أو بمعنى آخر برية أبى مقار المقدسة ، ويقيموا بين الرهبان هناك الى عيد الفصح (٤٤٧) .

أما الصوم الكبير الثانى ، فيكون قبل عيد الميلاد ، ويسمى صوم الميلاد . وكان من عادة قبط مصر فيه صوم ثلاثة وعشرين

يوما * بينما كان رجال الكنيسة يصومون ثلاثة وأربعين يوما .
أما الصوم الثالث ، فيكون قبل عيد القديسين بطرس وبول
Apôtre Pierre et Paul ومدته ثلاثة عشر يوما ، ويكون
يعد عيد العنصرة (الخماسين) ويتصومه رجال الكنيسة ثلاثين
يوما . أما الصوم الرئيسي الرابع للقبط ، فيسبق عيد صعود
السيدة العذراء ، ويكون الصوم فيه لمدة خمسة عشر يوما . وأحيانا
يشترك المسلمون القبط في هذا الصيام احتراماً وتبجيلاً للسيدة
مريم (٤٤٨) .

وجرت عادة القبط في هذه المواسم الثلاثة الأخيرة على
الامتناع عن تناول اللحوم والبيض والألبان ومنتجاتها . وإلى جانب
هذه المواسم الكبرى للصيام ، كان القبط يصومون يومى الأربعاء
والجمعة من كل أسبوع . وكان يلزم الأطفال القادرون على الصيام ،
ويعفى من الصيام المرضى وغير القادرين عليه (٤٤٩) .

هناك أيضا صوم الغطاس ، ويكون فى اليوم العاشر من شهر
طوبه . ويتناول فيه القبط ألوان الأطعمة المسموح لهم بها ، فى
صوم الأربعين المقدس . وقد نشأ الصيام فى هذا اليوم لأن « الرسل
القديسين ، رسموا أن يفطروا فى يومى الأربعاء والجمعة ، اذا اتفق
فيهما عيد الميلاد والغطاس ، ويؤكل فيهما - فى هذين العيدين -
سائر الأطعمة المحللة فى أيام الخمسين ، من انها عبادان للرب -
لئلا يظن بنا انا نهمين ، منهمكين فى لذات العالم الزائلة ، كأعياد
اليهود والصابئة ، رسم لنا أن يتقدم هذين العيدين بالصوم ،
فيكون عوضهما ، ويكمل لنا القصدان ، قصد الصوم وقصد
العيد » (٤٥٠) .

كما جرت العادة فى الكنيسة القبطية أنه اذا وافق يوم
البرمونى يوم سبت أو أحد ، يجب صوم الجمعة الذى قبله حتى

المساء (٤٥١) . وكان من القوانين التي وضعها البطرك أنبا
خرسطودولس ، للكنيسة القبطية في عهد الخليفة الفاطمي
المستنصر بالله ، قوانين خاصة بالصيام ، منها أنه لا يجوز أن يتم
زواج في صوم الأربعين المقدسة على الإطلاق (٤٥٢) . كذلك كان
من بين هذه القوانين ما يتعلق بفترات الصيام الأخرى (٤٥٣) .

وكان من عادة القبط أيضا ، أن يصوموا أسبوعا ، يعرف
باسم صوم أسبوع هرقل ، أو (صوم جمعة هرقل) وبدأت هذه
العادة ، منذ الامبراطور هرقل . إذ أنه حينما دخل مدينة القدس ،
في بلاد الشام ، استقبله المسيحيون بها بالصلبان والأناجيل
والبخور والشموع المشتعلة ، ألا أنه وجد المدينة خرابا ، وعلم
من هؤلاء المسيحيين أن اليهود هم الذين قاموا بهذا الخراب والتدمير ،
كما كان اليهود ، يقدمون كل مساعدة ممكنة الى الفرس خصوم
الرومان . وألح هؤلاء المسيحيون على هرقل ، في ضرورة الانتقام
من هؤلاء اليهود وابدانهم ماعتذر عن ذلك ، لأنه سبق له أن منحهم
أمانا وعهدا . الا أن البطارقة والأساقفة الموجودين آنذاك ، قد
برروا له اباداة اليهود بأن العهد والأمان كان سابقا لما قاموا به من
الخراب والتدمير . كما تعهد هؤلاء البطارقة والأساقفة بأن يقوموا
عنه بكفارة يمينه ، وذلك بأن يلتزموا ، ويلتزموا المسيحيين جميعا ،
بصوم جمعة كل سنة على مر الزمان والدهور . فأوقع باليهود وقيعة
شنعاء ، وأبادهم جميعا حتى انه لم يبق بمصر والشام منهم الا من
تمكن من النجاة . وكتب البطارقة والأساقفة آنذاك الى جميع البلاد
بالزام المسيحيين بصوم أسبوع من كل سنة عرف عندهم بصوم
جمعة هرقل (٤٥٤) . وتقول تبشر (٤٥٥) : انه لا تزال الكنيسة
القبطية وكنائس الشرق بأسره تصومه سنويا الى يومنا هذا .

وكان من عادات القبط أيضا ، الذهاب الى الكنيسة من غير تناول أى طعام على الاطلاق ، حتى اذا كان الشخص عازما على عدم تناول من الأسرار الالهية (أو القربان) وهذا فى الواقع تعبيرا عن احترامهم لبيت العبادة ، وللشعائر التى سيحضرونها ، لأن الامتناع عن الأكل يتضمن تهيئة الروح وتقويتها ، ولهذا أيضا جرت عادة ما تزال معمولا بها فى بعض الجهات هى « الأغابى » أو وجبة المحبة - وهذه وجبة يتناولها المصلون جميعا بعد الانتهاء من القداس فى قاعة ملحقة بالكنيسة . وتتناوب العائلات - كل بدورها - اعداد الطعام لهذه الوجبة ، وتقديمه للكنيسة . كما كان من عادة القبط بعد تناول الأسرار المقدسة أن يجتمعوا مع بعضهم فى قاعة ملحقة بالكنيسة يتسامرون ، ويأنس بعضهم ببعض (٤٥٦) .

كان من العادات الشائعة أيضا بين القبط فى ذلك العصر ، تخصيص أماكن فى الدور الأعلى للسيدات . ذلك أنه فى العصور الوسطى الاسلامية لم تكن سياسة التسامح ازاء القبط مكفولة دائما ، ولا الأمان مستقرا لهم . ومتى كان الولى كارها ، مبغضا للقبط كان يأمر جنوده بالهجوم على الناس حتى وهم يصلون فى الكنيسة . فرأى القبط أن يخصصوا لنسائهم أماكن عالية لها ممرات مؤدية الى المنازل مباشرة . وكان هناك أشخاص مخصصون للحراسة ، فاذا ما رأوا ، الجند آتين من بعد ، أعطوا الاشارة فتانسحب السيدات فى سكون الى الممرات المؤدية الى بيوتهن فى أمان وسلام (٤٥٧) .

وكان من عادة القبط من سكان مدينة الاسكندرية ، عند الاحتفال بأعيادهم ، الدينية دعوة المخالفين لهم فى المذهب الدينى ، الى دورهم وكنائسهم ، ليشاهدوا احتفال القبط بأعيادهم وعظمة بطاركتهم ، وأعمال آبائهم الصالحين . ولكن البطريرك أنبا يعقوب منعهم من ذلك ، فكان لا يسمح للمخالفين للكنيسة القبطية بدخول الكنيسة وقت الاحتفال بالأعياد طوال مدة بطريركيته (٤٥٨) .

كما جرت العادة بين قبط الاسكندرية أيضا ، ألا يقوموا بأي عمل ، ولا يزاولوا أى نشاط فى يوم الجمعة العظيم (٤٥٩) .

وكان من عادة كثير من قبط مصر ، الذهاب الى برية أبى مقار المقدسة فى أعياد الميلاد والغطاس والفصح من كل سنة (٤٦٠) . كما اعتاد القبط تعميد أطفالهم قبل الختان كما جعل تقديم القداس فى الكنائس بالبخور والصلاة ويستعمل البخور وقت التكليل (٤٦١) .

ومن عادات القبط فى مصر الاسلامية، أيضا ، الحج الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس لزيارتها ، تلك الكنيسة التى كانوا يعظمونها كثيرا . واستمر القبط حريصين على ذلك حتى عهد الخليفة الفاطمى ، الحاكم بأمر الله . يقول ابن القلانسى (٤٦٢) : « ان العادة جارية بخروج النصارى بمصر ، فى كل سنة فى الغيارات الى بيت المقدس ، بحضور فصيحهم فى بيعة قمامة ، فخرجوا فى سنة ٣٩٨ هـ على رسمهم فى ذلك ، متظاهرين بالتجمل الكبير على مثل حال الحاج فى خروجهم » .

وأبدى الحاكم بأمر الله دهشته من هذا التقليد ، ومن خروج النصارى الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، دون غيرها من الكنائس ، وتساءل عن أصل هذه العادة ، وعن ضفة هذه الكنيسة . وقد أجابه عن تساؤله أحد مستخدميه ويسمى ختكين العضدى الداعى فقال : « هذه البيعة تقرب من المسجد الأقصى ، تعظمها النصارى أفضل تعظيم ، وتحج اليها عند فصيحهم من كل البلاد ، وربما صار اليها ملوك الرومان وكبراء البطارقة متكرين ، ويحملون اليها الأموال الجمة والثياب والستور والفروش ، ويصوغون لها القناديل والصلبان والأواني من الذهب والفضة » وقد اجتمع فيها

من ذلك على قديم الزمان وحديثه الشيء العظيم قدره لمختلف أصنافه . فإذا حضروا يوم الفصح فيها ، وأظهروا مطرانهم ، ونصبوا صليبانهم ، وأقاموا صلواتهم ونواميسهم ، فهذا الذي يدخل في عقولهم ، ويوقع الشبهة في قلوبهم . ويعلقون القناديل في بيت المذبح ، ويحتالون في إيصال النار إليها ، بدهن البلسان وآله ، ومن طبيعته حدوث النار فيه مع دهن الزئبق ، وله ضياء ساطع ، وإظهار لامع ، يحتالون بحيلة يعملونها بين كل قنديل وما يليه حديدا ممدودا ، كهيئة الخيط متصلا من واحد إلى آخر ويطلونه بدهن البلسان ، طليا يخفونه عن الأبصار ، حتى يسرى الخيط إلى جميع القناديل فاذا صلوا وحان وقت النزول فتح باب المذبح وعندهم أن عهد عيسى عليه السلام فيه ، وأنه عرج به إلى السماء منه . ودخلوا وأشعلوا الشموع الكثيرة ، واجتمع في البيت من الناس الخلق الكثير ، . . ويتوصل بعض القوم إلى أن يقرب النار من الخيط ، فيعاق به ، وينتقل بين القناديل من واحد إلى آخر ، ويشعل الكل ، ويقدر من يشاهد ذلك أن النار قد نزلت من السماء فاشتعلت تلك القناديل » (٤٦٣) .

فلما سمع الخليفة الحاكم بأمر الله ذلك ، استدعى كاتب الانشاء بشر بن سور وأمره أن يكتب إلى والي الرملة كتابا يأمره فيه بأخذ كل ما في كنيسة القيامة من أوان وأمتعة ثم هدمها (٤٦٤) ، وقد جاء في هذا الكتاب : « خرج أمر الامامة اليك بهدم قمامة ، فأجعل سماءها أرضا ، وطولها عرضا » (٤٦٥) . فلما علم بذلك قبض مصر ، كتبوا إلى قيم البيعة بذلك فأخرج بعض ما كان فيها من الذهب والفضة والجواهر والثياب . ثم وصل أصحاب الحاكم بأمر الله فاستولوا على ما بقي بها ، وهدموا أبنيتها (٤٦٦) .

ولكن ما لبث أن أعيد بناء هذه الكنيسة مثل سائر الكنائس في مصر وبلاد الشام. ويأشر القبط عاداتهم في زيارة هذه الكنيسة في بيت المقدس. وقد حدث في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، أن استولى الغز الأكراد على بيت المقدس، وأنكروا ما كان يدعيه القسس بشأن إيقاد قناديل هذه الكنيسة دون تدخل منهم، وأن النار نازلة إليها من السماء. إلا أنه بعد مشاهدتهم ذلك في كل سنة، بدأوا يرعون شئون المسيحيين، واستخدموهم في إدارة شئون المدينة، وخاصة منصور البلباقى الذى كان هو وزوجته يقدمان كل معونة ممكنة لكل من يصل إلى القدس من المسيحيين من مصر وغيرها من البلاد. كما أنه بذلك قصارى جهده في تعمير كنيسة اليعاقبة الأرثوذكس بالمدينة، وكتب إلى البطريرك كيرلس يسأله أن يرسل اليهم من يكرزها لهم (٤٦٧).

ولما سيطر الصليبيون على بيت المقدس في عهد الخليفة المستنصر، ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش في سنة ٤٩٢ هـ. لم يعد القبط يخرجون إلى بيت المقدس كعادتهم. فتقول الرواية القبطية: « وصرنا معشر النصارى اليعاقبة القبط، لا نصل إلى الحج إليها ولا نتمكن من الدنور من ذلك، لأجل ما هو، من بغضهم لنا، وهو اعتقادهم فينا، وتكفيرهم إيانا » (٤٦٨).

وكان القبط في مصر يتشبهون أحياناً بغيرهم من عناصر المجتمع فانتشرت بينهم عادة اتخاذ السرارى إلى جانب زوجاتهم. وظهر ذلك في عهد البطريرك الأب سيمون - في ولاية عبد العزيز ابن مروان - وقد حارب الأساقفة انتشار هذه العادة، وكانوا يمنعون من اتخاذ السرارى من حضرة الفداسات. فلجأ هؤلاء إلى عبد العزيز، وشكوا إليه الأساقفة وأنهم قد منعوه عن الزواج، مما اضطرهم إلى الانحراف الخلقي، مما أغضب عبد العزيز بن مروان.

وعقد اجتماعا حضره أربعة وستون أسقفا وعلى رأسهم البطريرك أنبنة
سيمون ، وبعد مناقشات وجدال ، حكموا بحرمان هؤلاء من الكنيسة ،
ان لم يتخلوا عن السرارى (٤٦٩) .

ويبدو أن هذه العادة ، انتشرت بين القبط مرة أخرى ، فى
عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وعهد بطريركية أنبا ابراهيم .
فقد أدرك هذا البطريرك ، ان كثيرا من كبار القبط ، يتحدثون عدة
سرارى ، وينجبون منهم الاولاد ، فانزعج لذلك ، وهدد بالحرمان
والمنع من القداسات ، وتقديم القربان ، كل من يتخذ سريه ،
وتشدد البطريرك فى ذلك . فخاف القبط من غضب الله عليهم ومن
حرمان البطريرك لهم ، فتخلوا عن سراريهم ، وتابوا بين يدي البطريرك
وقبل توبتهم ، وغفر لهم خطاهم . بينما خالف البطريرك فى ذلك
أحد كبار القبط ، وكان له مكانة عظيمة بين أصحاب الدواوين
والمستخدمين ، ولم يخش من حرمان البطريرك له من الكنيسة ، وغضب
عليه ، فوعظه البطريرك كثيرا دون جدوى ، فأعلن البطريرك
حرمانه (٤٧٠) .

وقد جرت عادة القبط فى مصر أيضا ، على اتخاذ أسماء
القديسين والقديسات أسماء لأولادهم وبناتهم . ون أوضح الأمثلة
على ذلك اسم القديسة بربرة . وتشير بعض الروايات الى أنه
نصف نساء مصر ، اتخذن اسم بربرة ، طمعا فى بركاتها (٤٧١) .

وأقبل القبط ، على شرب الخمر ، وخاصة غداة عيد الفصح
وغيره من الأعياد (٤٧٢) والدليل على ذلك ما جاء فى وصف بعض
الأديرة ، وما كان من اشتهاى وهبائها وزوارها ، بالاغراق فى

ليخمر . وكثيرا ما كان بعض المسلمين يترددون على هذه الأديرة من
جل هذا الغرض . وكثيرا ما كان الشعراء يتغنون بمثل هذه الأديرة
رما يدور فيها . من ذلك ما قاله ابن عاصم عن دير مرحنا :

فاجئت كؤوسك يا غلام واعفنى
فلقد سكرت وخمر طرفك مستكرى
فاشرب على حسن الرياض وغننى
وانظر الى الساقى الأيمن الأحمور (٤٧٣)

ومن الأديرة التى تغنى بها الشعراء ، دير نهيا ، وما يدور فيه
من شرب كؤوس الخمر . فقال ابن البصرى :

أتنشط للشرب ياسـيـدى
فيومك هذا دقيق الدروز
وتقصـد نهيا وديرا لها
به منبت الورد والمرمجوز
وتشرب فيها برطل وجام
وطاس وكاس وكوب وكوز (٤٧٤)

والأديرة المشهورة بالشراب واللهو ، كثيرة فى مصر ، وقد
تغنى الشعراء بالكثير منها ، كما أطنب المؤرخون المختلفون فى
الكتابة عنها .

اصطلح القبط المستخدمون على ألقاب يتخذونها ، ويتصدرها
لفظ (الشيخ) وقد ظهرت هذه الظاهرة وتبلورت بصفة خاصة فى
عصر الفاطميين . ونذكر من هذه الألقاب « الشيخ أبو اليمن » ، وهو

لقب اتخذه قزمان بن مينا ، الذى اشتهر امره فى عهد الخليفة المعز لدين الله (٤٧٥) . وتعددت مثل هذه الألقاب ، فى عهد الخليفة المستنصر ، فوجد مثلا ، الشيخ أبو زكريا ، والشيخ أبو البشر ، والشيخ أبو السرور والشيخ أبو البدر ، والشيخ أبو الطيب ، والشيخ أبو الفضل ، والشيخ أبو مليح ويلقب أيضا بالشيخ الأثير نجيب الدولة ومكينها (٤٧٦) . وظهرت فى هذا العصر أيضا ، ألقاب خالية من لفظ الشيخ ، منها أمين الأمناء أبو اليمن ، والسيد الأوحى سيده رؤساء السيف والقلم (٤٧٧) . واستمرت هذه الألقاب ، وأمثالها شائعة بين القبط طوال عصور مصر الاسلامية .

ويقول القلقشنذى (٤٧٨) ، بشأن تلقيب القبط المستخدمين بالألقاب المختلفة : « وقد اصطلحوا على ألقاب يتلقبون بها ، غالبا مصدرة بالشيخ ، ثم منهم ما يجرى على الرسم الأول فى التلقيب بالاضافة الى الدولة فيتلقب بولى الدولة ونحوه ، ومنهم من يحذف المضاف اليه فى الجملة ويعرف اللقب بالألف واللام فيقولون الشيخ الشمس ، والشيخ الصفى والشيخ الموفق ، وما أشبه ذلك » .

أما ملابس القبط فى مصر الاسلامية ، حتى نهاية العصر الفاطمى ، فاننا نلمس اغفال المصادر التاريخية ، الى حد كبير ، الحديث عن ملابس القبط ، اللهم الا فى فترات التضييق عليهم . ونحن نتساءل : هل كان للقبط فى مصر الاسلامية ملابس مميزة خاصة بهم دون غيرهم من المسلمين أو اليهود ؟ ومما لا شك فيه أنه كان للقبط ملابسهم الخاصة ، فبعد فتح العرب لمصر وكانت مختلفة بطبيعة الحال عن ملابس الفاتحين العرب المسلمين ، ومن ثم لم يكن

هناك ضرورة ملحة بالزامهم بلبس نوع معين من الثياب حتى يسهل التمييز بينهم وبين المسلمين
 كان من بين أحكام الدولة الإسلامية - كما ذكرنا - في معاملة أهل الذمة ضرورة لبس - العيثار - والتمييز بين أهل الذمة وبين المسلمين في الملابس . وفي الحقيقة أن هذا التمييز ، كان سائدا بطريقة طبيعية ، عقب الفتح العربي لمصر ، فقد كان للفاتحين العرب أزياءهم المميزة ، والتي تختلف عن أزياء المصريين . ولكن عمرو بن الخطاب ، حرص على ألا يتشبه المصريون الذميون بالعرب المسلمين فكتب إلى عمرو بن العاص : « أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيتهم ، ويركبوا على الألف عرضا . . . ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم » (٤٧٩) *

وهكذا كان على عمرو بن العاص ، عقب فتح مصر ، أن يمنع أية محاولة ، من جانب القبط للتشبه بالمسلمين في لباسهم ، وأن يلزمهم بشد المنطق - وهو حزام جلد - حول وسطهم وأن يحلقوا مقدمة رؤوسهم ، وأن تكون أقدامهم من جانب واحد عند ركوبهم .

كانت هذه - في الحقيقة - الإشارة الوحيدة ، الخاصة بلباس القبط وهيئتهم في مصادر تاريخ مصر الإسلامية ، حتى نهاية القرن الأول الهجري . ويبدو أن القبط طوال هذا القرن ، كانوا حريصين على ارتداء ملابسهم الخاصة بهم ، دون القيام بأدنى محاولة للتشبه بالمسلمين ، وارتداء ملابسهم . فلما أصبح العرب على جانب كبير من الحضارة والتمدن ، ورسخت أقدامهم في البلاد ، رأى القبط أن يتشبهوا بهم ، وتطلعوا إلى ارتداء ملابسهم . ولذلك أصبح من الضروري أن يتيقظ الحكام والخلفاء لذلك ، ويبادروا

الى وضع حد لهذه الظاهرة . وبدأ ذلك واضحا فى عهد الخليفة
الأموى عمر بن عبد العزيز ، الذى اشتهر بتشديده فى تطبيق
الاحكام الاسلامية ، بشأن أهل الذمة فى جميع الميادين . فنراه
يكتب الى عماله فى مختلف الاقاليم الاسلامية ، بما فيها مصر ،
بضرورة الزام الذميين بعدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم .

ونلاحظ تعدد الروايات التاريخية عن أوامر عمر بن
عبد العزيز ، بشأن ملابس أهل الذمة ، ومنها أن الخليفة عمر بن
عبد العزيز ، حرم على جميع الذميين لبس العمام والتشبه
بالمسلمين فى لباسهم ، وانه منعهم من ارتداء ملابس الجند
العرب (٤٨٠) . كما جاء فى بعض كتبه الى ولاته : « ألا يمشى
نصرانى ، الا مفروق الناصية ، ولا يلبس قباء (٤٨١) ولا يمشى
الا بزئار من جلود ، ولا يلبس طيلسانا ولا سراويل ذات خذمة ،
ولا نعلا لها عذبة ، ولا يوجد فى بيته سلاح ، الا انتهب » (٤٨٢)
ومما لا شك فيه ، أن تلك الأوامر كانت نتيجة اهمال الذميين للباس
الزئار أو المنطق الذى يشد أوساطهم ويميز بينهم وبين المسلمين ،
واقدامهم على وضع العمام على رؤوسهم .

والملاحظ أن (المنطق) كان أهم ما يميز القبط بصفة خاصة ،
ويبدو انه كان من اللباس الرسمى لهم . فكان بكام القبطى ،
حاكم كورة بورة ، فى عهد الخليفة المأمون ، فى يوم الجمعة ، وفى
وقت الصلاة يلبس السواد - شعار العباسيين - ويتقلد السيف
ويشد وسطه بالمنطق ويركب برذونا (٤٨٣) ، وبين يديه أصحابه
متجهين الى المسجد . ثم يقف بكام عند باب المسجد ، بينما يدخل
نائب عنه من المسلمين ليؤم المصلين (٤٨٤) .

ثم اننا لم نجد فى المصادر أية اشارة عن ملابس القبط منذ
عصر المأمون حتى عصر الخليفة العباسى ، المتوكل ، الذى تشدد مع

الذمين ، والزمهم بكثير من الأمور ، وهدد من يحاول عدم تنفيذها .
فكتب في سنة ٢٣٥ هـ الى مختلف الأقاليم الاسلامية بما فيها
مصر ، يوصى عماله بضرورة التمييز بين المسلمين في الملابس
والركوب والزامهم ببعض الأمور في هذا الشأن وتحذيرهم بمخالفة
ذلك . ويجدر بنا الإشارة الى بعض هذه الكتب وقد جاء فيها :

« وقد رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه وارشاده ، أن يجعل
أهل الذمة جميعا بحضرته في نواحي أعماله ، أقربها وأبعدها ،
وأخصهم وأحسبهم ، على تغيير طيالسهم التي يلبسها من لبسها
من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم ، ملونة كالوان الثياب
العسلية لا يتجاوز ذلك متجاوز منهم الى غيره . ومن قصر عن هذه
الطبعة من اتباعهم ، وارذالهم ، ومن سعه به حاله من لبس
الطيالسة ، أخذ بتركيب خرقتين ، صبغهما ذلك الصبغ ، تكون
استدارة كل واحدة منهما شبرا تاما في مثله ، على موضع أمام
ثوبه الذي يلبسه تلقاء صدره ، ومن وراء ظهره . وان يؤخذ الجميع
منهم في قلانسهم تركيب أذرة عليها تخالف ألوانها ، ألوان
القلانس ، وترفع في أماكنها التي يقع بها منها ، لئلا يلصق بها
فيستتر ولا يكون ما يركب منها على احساك فيخفى . وكذلك في
سروجهم باتخاذ ركب خشب لها ونصب أكر على قرابيسها تكون
نائية عنها ، ومرفعة عليها لا يرخص لهم في ازالتها عن أعلى
قرابيسهم ، ومواخير سروجهم الى جوانبها ، بل يتفقد ذلك منهم
ليتبع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ، ظاهرا ،
يشبته الناظر من غير تأمل ، وتأخذه الأعين من غير طلب . وأن تؤخذ
من أمهاتهم وعبيدهم من يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير
مكان المناطق التي كانت في أوساطهم . » (٤٨٥) .

كانت هذه أول مرة يشهد فيها الحكام المسلمون على الذميين
 بشأن الملابس لأن أوامر عمر بن عبد العزيز ، كانت لا تنعدي
 - كما ذكرنا - المنطق وقص مناطق الشعر وغير ذلك من الأمور
 البسيطة . بينما نرى المتوكل توسع في ذلك ، إذ حدد أوصاف
 ثيابهم وحدد لهم طريقة ركوبهم . والرواية القبطية لا تعطينا
 تفصيلات عن مدى تطبيق أهل الذمة في مصر لهذه الأوامر ، وإن
 كنا نرى أنهم وضعوها موضع التنفيذ ، شأنهم في ذلك شأن
 غيرهم من الذميين في مختلف الأقاليم الإسلامية خاصة في العراق .
 واقتصرت الرواية القبطية على الإشارة إلى أن المتوكل أمر القبط
 بلبس الثياب ذات اللون الأبيض . وأن تكون ثيابهم
 مصبوغة (٤٨٦) .

كما أمر المتوكل نساء أهل الذمة بلبس ازار عسلى
 اللون (٤٨٧) . وتشير بعض المصادر إلى أن المرأة الذمية كانت تتدثر
 بالدفار الأصفر ، حين تغادر بيتها إلى الخارج وتضع المنطق حول
 وسطها (٤٨٨) . وبعد بضعة سنوات ، وفي سنة ٣٣٩ هـ ، ألزم
 الخليفة المتوكل أهل الذمة بلبس دراعتين (٤٨٩) عسليتين ، وأمرهم
 بالاعتصاف على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين (٤٩٠) .
 ومنذ ذلك العصر ، وحتى عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ،
 لا نجد أية إشارة إلى ملابس القبط في المصادر التاريخية المختلفة .

ألزم الحاكم بأمر الله القبط في مصر ، بلبس الثياب والعمائم
 السود ، وأمر بضرورة التمييز بينهم وبين المسلمين في لباسهم .
 كما ألزمهم بحمل صلبان طولها ذراع وعرضها ذراع أيضا ، وورنها
 خمسة أرتال أيضا ، وهي من الخشب ومختومة بخاتم رصاص
 عليه اسم الخليفة ، وتعلق في أعناقهم بحبال من الليف . كما
 أمرهم الخليفة أيضا بشد الزنار في أوساطهم (٤٩١) .

وأمر الخليفة الحاكم بأمر الله في قضاء القبط باللبس
نعلا ، كنعال المسلمين . كما كان على المرأة القبطية أن تضع في
قدمها اليمنى نعلا أحمر اللون ، بينما تضع في قدمها اليسرى
نعلا أسود اللون (٤٩٢) . ومنع الخليفة القبط من ركوب الخيل ،
وسمح لهم بركوب الحمير والبغال ، بسروج والجام غير محلاة بذهب
أو فضة ، بل تكون السروج من الخشب عليها سيور من الجلد
الأسود خالية من كل حلية (٤٩٣) . وسبق لنا أن أشرنا تفصيلا ،
إلى هذه القيود بالفصل الرابع ، من الباب الأول ، عند دراستنا
لموقف الخلفاء الفاطميين من أهل الذمة .

فلما كانت خلافة الظاهر الفاطمي ، تحرز القبط كثيرا من
هذه الأحكام ، وغيروا كثيرا من ملابسهم ، بعد أن سمح لهم الخليفة
بذلك ، وترك لهم حزية اللباس . فاقصر : أكثر القبط في مصر ،
في ذلك الوقت ، على شد الزنار في أوساطهم ، ولبس العمام
السوداء اللون (٤٩٤) . ويبدو أن شد الزنار كان أمرا حتميا ،
فكان جميع الحكام والخلفاء يتمسكون بضرورة التزام القبط به ،
حتى في الأوقات التي تمتع فيها القبط بتسامح الحكام وعطفهم .

والدليل على ذلك ما حدث في عهد الخليفة الفاطمي
المستنصر بالله ، ووزيره أمير الجيوش بدر الجمالي . ففي سنة
٤٧٥ هـ (٨٠٢ ش) صدر سجل ، يضمن إلزام القبط جميعا
بشد الزنانيير السوداء اللون (٤٩٥) . وفي عهد الخليفة الفاطمي
الظافر أبي منصور بن الخليفة الحافظ ، ألزم القبط أيضا بشد
الزنار ولم يسمح لهم بلبس الطيالس ، وإن كانت هذه الأوامر لم
تدم طويلا وسرعان ما زالت (٤٩٦) .

أما الوزير الصالح طلائع بن بزريك - فى عهد الخليفة الفاطمى - فكان شديد الكراهية للقبط وأمر بالآلا يكون لعبائهم ذوائب (٤٩٧) . وفى عهد الخليفة العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر - أمر وزيره أسد الدين شيركوه فى سنة ٥٦٤ هـ ، بأن يرفع القبط عذب (٤٩٨) عماثمهم ، وأن يشهدوا الزنار فى أوساطهم (٤٩٩) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن رجال الكنيسة القبطية أو بمعنى آخر اكليروس الكنيسة كان لهم ملابس كنسية خاصة بهم فكان لا يمكنهم دخول الكنيسة وعمل القداس الا بها . وقد حاول بعض الكتاب المحدثين ، دراسة الملابس الكنسية لرجال الدين القبط . الا أنهم واجهوا صعوبات كثيرة ، ولم يمكنهم الوصول الى صورة دقيقة واضحة لهذه الملابس . ونذكر من الكتاب الذين عنوا بدراسة الملابس الكنسية « بتلر » الذى ضمن كتابه عن كنائس مصر ، عدة فصول عن الملابس الكنسية للقبط ، وأورد فيه ، بعض الروايات التى تتضمن وصف هذه الملابس ثم ناقشها جميعا وحاول المقارنة بينها وبين الملابس الكنسية فى الكنائس الأخرى غير المصرية .

ونلاحظ أن هذه الروايات ، تشترك فى ذكر خمسة أنواع من الملابس الكنسية التى يجب على رجال الدين ارتداؤها وهى : البرنس (٥٠٠) أو الشملة ، ويكون من الحرير الأبيض (٥٠١) . ويسمى أيضا البلينة أو الابهنسى . فقد جاء فى الرواية القبطية عند الإشارة الى القوانين التى وضعها البطررك بنيامين لدير أبى مقار : ألا يصعد قس الى هيكل هذا الدير الا بعد أن يرتدى بلينة ولا يتقرب فيه قس ولا شماس الا بعد ارتدائه الابهنسى أوبلين (٥٠٢) . أما التونية ، فهى عبارة عن رداء طويل ، يصل الى القدم ، محلى بالجواهر ، فى شكل علامة الصليب أو بخيوط

من التحرير (٥٠٣) والمنطق (٥٠٤) ، ويمكن القول ان المنطق كان من أهم أنواع الملابس التي تميز القبط جميعا عن المسلمين وانه لم يكن خاصا برجال الكنيسة وحدهم . تم هناك الجبرية Chasnale or Cope (٥٠٥) والبطرشيـبل Stale (٥٠٦) . بينما ننـفرد بعض الروايات بذكر ما يسمى الكمان Sleeves وهو غطاء للأدراع (٥٠٧) . وتشير روايات أخرى الى ما يسمى المانـبل Maniple وينفرد بلبسها أصحاب الرتب الكهنوتية بعد الشماسية ، أو من هم دونهم من الكهنوت (٥٠٨) .

وكان كل من البطارقة والأساقفة يمسكون عكازا في أيديهم (٥٠٩) . كما كان البطارقة والأساقفة والقسس يضعون صلبانا من الفضة حول أعناقهم تتدلى على صدورهم (٥١٠) ويذكر الجاحظ (٥١١) أن الجانليق - وهو صاحب الصلاة - كان يميزه القناع والمظلة والبرطلة والعكاز .

وتشير بعض المصادر الى أنه قد صار للبطرك ثياب خاصة مميزة في عهد الخلفاء الفاطميين فيقول المقرئى (٥١٢) ان البطرك أنبا كيرلس المتوفى فى سنة ٣٨٥ هـ ، والمناصر للخليفة المستنصر بالله « عمل بدلة للبطارقة من ديباج أرزق وبلاية من ديباج أحمر بتصاوير ذهب » . وكانت هذه هى أول محاولة لعمل كسوة خاصة بالبطارقة دون غيرهم من رجال الدين فى الكنيسة القبطية .

أما الرهبان فى الأديرة المصرية ، فكانت ملابسهم عبارة عن ثوب قصير من الكتان بدون أكمام بحيث تصل الى أسفل المرفقين . وكان الراهب يغطى كتفه ورقبته بفراء مدبوغ من جلد الغنم أو الماعز (٥١٣) . أما الرداء الخارجى للراهب فيسمى ، اسكيم

الرهبان وهو رداء قصير من الكتان تمر فوقه خيوط صوفية مجدولة
تنزل من أعلى العنق وتندلى على جانبي الرقبة وتصل الى الكتفين
وتحيط بأسفل الأبطين بحيث يعقد طرفاهما وتترك الأيدي
طليقة (٥١٤) . ويتصل بالاسكيم قلنسوة أو غطاء للرأس من
الوبر ، رسمت عليه بعض الصليبان . وأخيرا ، يشد الراهب وسطه
بمنطق من الجلد (٥١٥) كما كان الراهب يمسك بيده عكازا (٥١٦) .
ولا يرتدى الألوان المصبوغة (٥١٧) .

وكان الراهبان وقت القداس ، يحرم عليهم تغطية رؤوسهم
أو لبس الصنادل أو ارتداء السراويل التي تغطي القميص فتصل
الى الأرض (٥١٨) . ومن الواضح أن الراهبان كانوا لا يبدوون أى
اهتمام بملابسهم ، ولذلك كانت بسيطة ورخيصة اذ لا يعنون
بحياكتها . كما ان الراهب منهم كان لا يمتلك عادة ، أكثر من رداء
واحد ، اذا غسله بقى فى قلايته حتى يجف . كما كان الراهب
حريصا على بقاء الأردية فترة طويلة ، وكثيرا ما أصلحها عدة مرات ،
وربما يتوارثها الراهبان تبركا بصاحبها ، وكل ذلك - فى الواقع -
امعانا فى النسك ، ومحاربة لشهوات الجسد ، وكرهية لترف
الدنيا (٥١٩) .

أما عن أخلاق وعادات الطائفة الثانية من أهل الذمة ، وعم
اليهود ، على اختلاف مذاهبهم وفرقهم ، فقد واجهتنا نفس الصعوبة
التي واجهتنا عند دراستنا لدورهم فى الحياة السياسية والاجتماعية
فى مصر الاسلامية ، وذلك نتيجة ما كنبه المؤرخون المختلفون عن
اليهود فى مصر فى ذلك العصر ، وإهمال دورهم ، ومركزهم فى
المجتمع المصرى فلم يمدونا بما كان يتميز به اليهود من الأخلاق
والعادات ، ولا نجد فى المصادر المختلفة الا أخبارا قليلة متناثرة ،
تتضاءل كثيرا أمام حديث المصادر عن حياة القبط الاجتماعية .

ونستخلص من بعض الروايات التاريخية ، أن وجوه اليهود
فى مصر كانوا يستهرون ، بالكرم وحبهم لضيافة اخوانهم اليهود ،
ومد يد المعاونة الى المحتاجين منهم ، وقد ظهر ذلك واضحا فى العصر
الفاطمى (٥٢٠) اذ اننا نجد فى المصادر التاريخية ما يشير الى ذلك ،
قبل هذا العصر . كما نلاحظ ان اليهود الذين كان لهم شأن فى
الادارة والحكم ، كانوا يبذلون أقصى الجهد فى سبيل مساعدة
اخوانهم فى الدين ، وتحقيق مطالبهم ، وتوفير سبل الأمن والاستقرار
لهم . وظهر من بين جاليات اليهود فى الاسكندرية والفسطاط ،
خاصة ، بعض الافراد ، الذين كرسوا جهودهم ، من أجل توفير
الرخاء والسعادة لـاخوانهم اليهود ، وتقديم كل مساعدة ممكنة
لهم . وكانت مثل هذه الخدمات تتزايد على مر الأيام والسنوات ،
وخاصة منذ القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى عندما
بدأ بعض القراصنة العرب يصلون الى الموانئ المصرية ، ومعهم
الأسرى اليهود من الرحالة والتجار وغيرهم (٥٢١) ، وخاصة الى
ميناء الاسكندرية ، حيث يبيعونهم لأهلها . وكان اليهود المصريون ،
يبادرون الى شرائهم واطلاق حرياتهم . وكانت فدية اليهودى
تبلغ ثلاثة وثلاثين وثلث دينار (٥٢٢) .

والواقع أن وصول القراصنة المستمر ، يحملون الأسرى
اليهود ، قد أثقل كواهل اليهود فى الاسكندرية ، مما اضطرهم
الى طلب المساعدة والعون من الجاليات اليهودية فى المدن المصرية
الآخرى ، وضرورة مشاركتهم فى القيام بهذا الواجب . فوصلت
رسائلهم الى جماعات اليهود بالفسطاط ، وتنبس ودمياط وغيرها
من المدن التى تنتشر فيها جماعات اليهود الربانيين والقرائين ،
تحمل طلب يهود الاسكندرية المعاونة والمساعدة فى جمع فدية
الأسرى اليهود (٥٢٣) .

وحفظت بعض المصادر التاريخية ، أخبار جهود اليهود فى العمل على فداء الأسرى اليهود ، وذكرت لنا كثيرا من أسماء هؤلاء اليهود ، ونخص بالذكر منهم دافيد بن اسحق David B. Isaac Hallevi ونيتانيل بن هاكوهين Net anneel B. Elazar Hakkohen وكانت أسماءهما تذكر دائما كل يوم سبت فى الصلوات فى المعابد اليهودية المختلفة ، اعترافا بجهودهما وخدماتهما المتكررة لآخوانهم اليهود (٥٢٤) . ومن هؤلاء اليهود أيضا ابراهيم بن شماريا الذى قام بدور كبير فى سبيل فداء الأسرى اليهود . فكان دائما يستجيب لنداء يهود الاسكندرية (٥٢٥) .

ولم يقف الأمر عند حد ، طلب المساعدة والعون ، من جاليات اليهود المصرية ، بل أرسل يهود الاسكندرية ، بعض وجوه اليهود الى الدولة البيزنطية لجمع الأموال اللازمة لفدية الأسرى اليهود البيزنطيين ، لعجزهم عن سداد فديتهم . ومما تجدر الإشارة اليه أن كثيرا من هؤلاء اليهود ، كانوا يفضلون الإقامة بين اليهود المصريين فى ظل الحكم الاسلامى (٥٢٦) .

ويذكر موريس فارجون (٥٢٧) أن الجاليات اليهودية فى العصر الفاطمى ، كانت فى حالة يسر ورخاء ، وقد اشتهر من بينها بعض الأفراد ، وذاع صيتهم ، فى الكرم والسخاء . وكانوا يمتلكون ثروات عظيمة ، وان هذه الجاليات قد لعبت دورا عظيما ، بين المجتمعات اليهودية على شواطئ البحر المتوسط ، وخاصة منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وعندما أخذ القراصنة العرب ، ينزلون الموانئ المصرية ، ويحملون معهم عددا كبيرا من اليهود الأسرى ، فكان يهود الاسكندرية ، وغيرها من المدن المصرية ، يبذلون أقصى جهدهم فى سبيل اطلاق سراحهم وفدائهم . ومن مظاهر اليسر والشراء بين اليهود ، أنه قد جرت العادة بينهم على الخروج للحج الى بيت المقدس فى كل سنة (٥٢٨) .

وكان المستخدمون من اليهود ، شأنهم فى ذلك شأن القبط ، يتخذون. بعض الألقاب ، فسادت فى عهد الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله ألقاب : عميد الدولة وأمير الملك ، وسعد الملك ، وكاتبهم. سر المملكة ، ودعامة الدولة (٥٢٩) .

أما من ناحية ملابس اليهود ، فلا نجد وصفا لها ، أو إشارة اليها فى المصادر التاريخية المختلفة . ونرى انه لابد انه كان لهم ثياب خاصة بهم قبل الفتح العربى لمصر ، شأنهم فى ذلك شأن القبط ، وانهم حرصوا عليها فى عصور مصر الاسلامية ، كما كانت ملابسهم تختلف عن ملابس القبط ، وأنه كان ينظر اليها نظرة احتقار فى مصر الاسلامية ، والدليل على ذلك ان سمد فى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر ، عندما أراد عقاب البظرك يوحنا . هدهد بأن يرغمه على ارتداء الملابس اليهودية والتشهير به فى الطرقات (٥٣٠) . ولم نجد فى المصادر المختلفة أية إشارة الى هذه الملابس ، اللهم الا إشارة واحدة عند ، الكندى ، حينما ذكر أن لباس الرأس عند اليهود ، يسمى برطلة (٥٣١) . كما أن المصادر لم تذكر شيئا عن الملابس الدينية لرجال المعابد اليهودية . وكل ما نجده فى مصادر تاريخ مصر الاسلامية ، يتعلق بالزام اليهود ، شأنهم شأن القبط ، - فى فترات الضيق المحدودة - بلبس الغيار وعدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم .

ونلاحظ أن أحكام وأوامر الخلفاء فى عصر الولاة ، كانت تصدر باسم أهل الذمة أو باسم النصارى دون ذكر لليهود . ورأبنا ذلك فى أوامر الخليفة الأموى ، عمر بن عبد العزيز ، والخليفة العباسى المتوكل . وقد ألزم اليهود فى عهد الخليفة المتوكل بعدم ارتداء الملابس البيضاء اللون (٥٣٢) .

ولم تذكر المصادر والتاريخية شيئا عن الزام اليهود بنوع خاص من الملابس منذ عصر المتوكل ، حتى عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، الذي أمر في سنة ٣٦٢ هـ ، بألا يظهر يهودى اذ بالغيار ، وهى الملابس التى يظهرون بها وتختلف عن ملابس المسلمين (٥٣٣) .

ثم أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، اليهود ، بشد الزنار فى أوساطهم ولبس الغيار ، وصبغ أطراف عمائمهم . كما ألزمهم ، بأن يعلقوا ، فى أعناقهم ، كبة خشب على شكل رأس العجل وزنها خمسة أرتال ، ومختومة بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ، وتعلق فى أعناقهم بحبال ليف . كما ألزم اليهود ، فى ذلك العصر ، بنفس الأوامر التى ألزم بها القبط بشأن الركوب وغيره (٥٣٤) .

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ، ألزم وزيره أمير الجيوش ، اليهود فى سنة ٤٥٧ هـ ، بأن يشدوا الزنار فى أوساطهم ، وأن يكون لونها أسود ، وأن يصبغوا أطرافها باللون الأصفر ، ليتميزوا عن القبط (٥٣٥) . ثم أمر الصالح طلائع بن رزيق ، فى عهد الخليفة الفائز ، اليهود بألا يكون لعمائمهم ذوائب (٥٣٦) . وبعد ذلك ألزمهم أسد الدين شيركوه ، بأن يجعلوا فى عمائمهم خرقة صفراء حتى يتميزوا بها عن القبط (٥٣٧) .

ومما تجدر الإشارة اليه أنه كان لكل من القبط واليهود ، مدافن خاصة بهم وكانت هذه المدافن متجاورة ، وإن كان لا يسمح لليهود بدخول مدافن القبط ، أو للقبط بدخول مدافن اليهود . وتوجد مدافن القبط اليعاقبة وأساقفتهم فى مصر بأرض الحبش ، وفيها علامة الصليب منقوشة على حجر صوان (٥٣٨) . وإلى الشمال

من هذه المقابر ، توجد مقابر اليهود والسامرة • أما مدافن
النصارى الملكانيين والأرمن فتوجد فى كنائسهم (٥٣٩) •

وخلاصة القول ، كان لكل من القبط واليهود أخلاقهم
وتقاليدهم التى اشتهروا وتمسكوا بها ، سواء أكانوا من
الرؤساء الدينيين أم من عامة الناس • ونلاحظ أن كلا من القبط
واليهود ، كانوا حريصين على وحدة كنيساتهم القبطية ، أو معبدتهم
اليهودى ، والحيلولة دون حدوث أى انشقاق • كما نلاحظ تعاطف
أبناء كل طائفة فكان أغنياء الطائفة يعاونون الفقراء والمحتاجين من
أخوانهم فى الدين ، ولكن هذا التعاطف لم يمنع حدوث بعض
الخلاجات بين أبناء الطائفة الواحدة أحيانا ، أو حدوث شقاق بين
الرؤساء الدينيين ورعاياهم •

وقد اختلفت العادات والتقاليد ، تبعا لدرجة الشراء أو تنوع
المهن والحرف كما خضعت هذه العادات لسنة التطور ، وتأثرت
بتطور الحياة الاجتماعية فى مصر الاسلامية ، أو بعلاقة الازميين
بمسائر أفراد المجتمع المصرى ، الى جانب تأثرها بسياسة الخلفاء
أو السلطات الحاكمة فى مصر •

٤ - العلاقات بين أهل الذمة وسائر عناصر المجتمع المصرى

لم تكن العلاقات بين أبناء الطائفتين المسيحيتين فى مصر ،
أى بين القبط اليعاقبة والملكانيين ، علاقة ود وصفاء ، فى أغلب
الأحيان . فقد عظم شأن القبط ، وارتفع ذكرهم فى ظل الحكم
الاسلامى ، بعد فترة طويلة من المعاناة فى ظل الحكم الرومانى ،
الذى ألحق بالقبط كثيرا من الظلم والتعسف ، بينما أحسن
الرومان معاملة جماعية الملكانيين ، أتباع مذهب الامبراطورية
الدينى . فأساء الملكانيون الى القبط اليعاقبة ، واسنولوا على
كنائسهم وأديرتهم ، حتى انتهى حكم الرومان فى مصر ، وزال
سلطانهم بها ، فتتنفس القبط اليعاقبة الصعداء ، واستعادوا ما كان
لهم من كنائس وأديرة من أيدي الملكانيين ، كما صاروا مقربين من
الولاة المسلمين بل الخلفاء أيضا . وعليه رجحت كفة القبط
اليعاقبة على الملكانيين ، الذين صاروا أقلية بالنسبة للقبط فى مصر
الاسلامية .

ولذلك أصبح الملكانيون لا يترددون فى الايقاع بالقبط ،
عندما تحين لهم الفرص نكاية فيهم واثقاما منهم . واستمرت هذه
الروح ، سائدة بين الملكانيين طوال تاريخ مصر الاسلامية فمن
صار بيده السلطة منهم ، بذل قصارى جهده فى الاساءة الى القبط
والحاق كل أذى وضرر ممكن بهم . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها

ما حدث في بطركيسة الأب أغاثو في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية - حينما تمكن أحد الملكانيين ، ويسمى تيودوسيوس ، من تولي الحكم في مدينة الاسكندرية ، وأقاليم مريوط والبحيرة ، فنصب العداء للقبط ولبطركهم ، وأسبأ اليهم كثيرا ، وأثقل كاهل البطرك بالضرائب والغرامات المالية ، وبلغ به الأمر أن هدد البطرك الأب أغاثو بالقتل اذا هو خرج من قلايته ليلا أو نهارا . وبعد وفاة الأب أغاثو ، حجز تيودوسيوس على كل أموال الكنائس وأملاكها بالاسكندرية ، مما نتج عنه سوء أحوال القبط ، وسبادت المدينة وما حولها ، مجاعة استمرت حتى توفي تيودوسيوس وخلص القبط من نواياه السيئة نحوهم ، وما كان ينزله بهم من سوء وضرر (٥٤٠) .

وكان بعض الملكانيين أيضا يقدم ، على السعاية ببطرك القبط عند الحكام المسلمين ، والإيقاع بينه وبينهم . ونذكر من الأمثلة على ذلك أنه حينما خرج هذا الأمير الى مدينة الاسكندرية لتفقد الأمور بها ، لم يخرج البطرك أنبا يوحنا لاستقباله والسلام عليه كما جرت العادة بين البطاركة في مصر الإسلامية . فوجد بعض كبار الملكانيين وعلى رأسهم تاوفانيس حاكم مدينة مريوط ، في هذا الحدث فرصة للإيقاع بالبطرك القبطي وأيضا رعاياه من القبط . ولذا بادروا الى السعاية به لدى عبد العزيز بن مروان وأوغروا صدره عليه ، وزعموا له أن البطرك يوحنا لم يخرج للمقائه لتجبره وكبريائه واتساع ثرائه (٥٤١) .

كذلك لم تكن العلاقة بين القبط واليهود في مصر ، غالبا ، علاقة طيبة ، اذ كان اليهود ينقمون على القبط ، لكثرة عددهم وغلبتهم على الحكام ، وتمكنهم من البلاد دونهم . فقد كان القبط هم سكان البلاد الأصليين ، قبل الفتح الاسلامي ، ولذلك نظر

القبط الى اليهود على أنهم طبقة اجتماعية أدنى منهم . ويذكر تروتون ان الصلات بين القبط واليهود لم تكن ودية على السواء ، ويفسر ذلك بأن المسلمين كانوا يرون في صدر العصر الاسلامي انه من الممكن الاعتماد على اليهود ، لمواجهة الغالبية المسيحية . ولقد لمسنا في دراستنا لموقف القبط واليهود من الفتح العربي ، ان اليهود لم يقوموا بأدنى محاولة لصمد العرب المسلمين أو حتى معاونة الرومان وبعض القبط في مقاومة الفاتحين العرب . ولذلك أحسن عمرو بن العاص معاملتهم ، وأقرهم في مناطق سكناهم مع أداء الجزية (٥٤٢) .

واستمرت روح العداء ، سائدة بين القبط واليهود في مصر الاسلامية . وكثيرا ما كان بعض اليهود يحاول الايقاع بالبطرك القبطي وأساقفته ، ونذكر من الأمثلة على ذلك ما حدث في عهد الأمير أحمد بن طولون ، وبطركية أنبا شنودة ، حينما تعاون بعض اليهود مع أحد القبط ، وكتبوا رقاعا ضد البطرك ، من أجل الايقاع به وبأساقفته . ومن سوء حظ هؤلاء المتآمرين ، ان الأمير أحمد ابن طولون ، اكتشف كذبهم ، وتبين حقيقة مؤامرتهم ، ونجى البطرك وأساقفته (٥٤٣) .

وقد ظهرت البغضاء بين اليهود والقبط واضحة في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، الذي قرب اليه كثيرا من اليهود ، وفي مقدمتهم يعقوب بن كلس اليهودي الأصل والذي كان رغم إسلامه يخدم مصالح اليهود غالبا ، ويقرب الكثير منهم . وكان له صديق يهودي يسمى موسى ، تمتع بمكانة عظيمة لدى الخليفة المعز لدين الله . وقد تعاون كل من يعقوب بن كلس وصديقه موسى ، على الايقاع بالبطرك القبطي أنبا افراهم ورعاياه القبط ، لحقدما عليه ، لما تمتع به من منزلة كبيرة عند الخليفة ، حتى ان

المعز كان يطلب منه التردد عليه دائما . فطلب الصديقان من الخليفة المعز أن يستدعى البطرك أنبسا أفراهام ، لكي يناظره في بعض الأمور الدينية ، حتى يتبين له ضعف المامة بدينه ، فطلب الخليفة المعز من البطرك أنبسا أفراهام أن يبعث برجل من القبط ليناظر موسى اليهودي ، ولكنه حدث أن تفوق القبطي عليه في المناظرة (٥٤٤) .

وكان الموظفون القبط ، يميلون الى ابعاد اليهود عن الوظائف العامة وشئون الحكم والادارة . وظهرت هذه الروح واضحة في عصر الدولة الفاطمية التي بدأ اليهود فيها يتولون بعض أعمال الدواوين ، والوظائف المختلفة (٥٤٥) .

وتشير الرواية القبطية الى تحول بعض اليهود الى الدين المسيحي ، نذكر من هؤلاء ، أبا الفخر بن أزهر . وكان من كبار رجال اليهود ، وأكثرهم علما وخبرة ، في عهد الخليفة الفاطمي الفائز ، وبطركية أنبا يوحنا في سنة ٥٥٤ هـ . ودرس أبو الفخر كتب الدين المسيحي وتعمق فيها ، كما أتقن اللغة القبطية في وقت قصير ، فكان يجادل اليهود بالعبرية ، ويفسره للقبط بالقبطية . وقد ألحق المسلمون واليهود به كثيرا من الأذى . وبذل اليهود كثيرا من الأموال للخلفاء والحكام ليقتلوه ، لكنه نجا من كل هذه المحاولات ، واحتفظ بالعقيدة المسيحية حتى وفاته (٥٤٦) .

أما عن العلاقات بين اليهود والقبط من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى ، فكانت يسودها السلام في معظم الأحيان . فلم تحدث بينهم فتن ، أو مشاغبات ، في عصر الولاة ، أو في عصر الأمراء الطولونيين . ولكن ظهرت هذه الفتن وخاصة بين المسلمين ، والقبط ، في فترات محدودة في عصر بعض الأمراء الاخشيديين ، وفي عصر بعض الخلفاء الفاطميين ، كما سنرى .

والحقيقة أن المسلمين لم يكونوا فى عزلة تامه عن اهل الدمه
فى المجتمع المصرى ، وبصفة خاصة عن القبط . فقد رأينا المسلمين ،
يشاركون القبط فى الاحتفالات بأعيادهم الدينية المختلفه ،
وما يسودها من اللهو والشراب ، وإرتداء الملابس الجديدة .
وتناول بعض المأكولات الخاصة بالأعياد . كما كانوا يتبادلون
الهدايا مع القبط ، بينما كان المسلمون يتركون القبط وشأنهم
عند القيام بالمراسيم الدينية الخاصة بأعيادهم فى الكنائس .

والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها ، أيضا ، أن القبط فى مصر ،
كان لهم نصيب واضح فى حياة المسلمين الاجتماعية . نذكر مثلا
أنه قد جرت العادة بين المسلمين فى مدينة اسنا بصعيد مصر أنهم
فى أفراس عرسهم ، بدعون بعض القبط الذين يحسنون الغناء
والتلحين باللغة القبطية ، ويشركونهم فى احياء احتفالاتهم . فيتقدم
هؤلاء المغنون القبط موكب العروس فى شوارع المدينة
وأسواقها (٥٤٧) .

كما كان سكان هذه المنطقة من المسلمين ، يشاركون القبط
فى استقبال أسقفهم الجديد عند تعيينه . فجرت العادة ، أن يحمل
رجل من المسلمين ، الأسقف الجديد من خارج مدينة اسنا ، حتى
يصل به الى قلايته التى يسكن فيها طوال مدة توليه الأسقفية (٥٤٨) .
وقد جرت العادة أيضا ، بين سكان هذه المنطقة ، انه فى ليلة
عيد الميلاد من كل سنة يشارك المسلمون القبط فى ايقاد الشموع
والقناديل والخطب (٥٤٩) .

وبالرغم من أن عدد اليهود والقبط ، كان يتناقص تدريجيا
فى مصر الاسلامية نتيجة لتحويل الكثير منهم الى الاسلام ، فانه
لم تكن الهوة سحيقة بين الأكثرية الاسلامية ، وبين الأقلية من اهل

الذمة . اذ كانوا كثيرا ما ينعاونون في حياتهم الاجتماعية ،
والاقتصادية . كما كان بعض أثرياء القبط ، يستخدمون بعض
المسلمين في أعمال ضياعهم في الريف المصري . روى
ابن الداية (٥٥٠) : « كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها ، كثير
المال ، فاشى النعمة وسمح النفس ، وكانت له دار ضيافة وجرايات
واسعة على ذوي الستر بالقساط . »

وقد شهدت أواخر القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث
الهجرى صورا كثيرة لعلاقات الود بين المسلمين والقبط ، وخاصة
الرهبان منهم ، نذكر منها صورة تبرز أحد العلماء المتصوفين ،
وهو أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم الذى كان يتصل بالرهبان في
الأديرة ، ويأخذ عنهم الزهد ، والانقطاع عن ملاذ الحياة ، والاقبال
على العبادة ، والتفانى في الحب الالهى كما أخذ عن هؤلاء الرهبان
بعض العلوم الفلسفية . وكان بعض هؤلاء الرهبان يتمكنون من
قراءة النقوش المصرية القديمة ، وكانوا لا يخلون بعريف ذى النون
ما يصلون اليه من معرفة بهذه النقوش وغيرها (٥٥١) .

ونذكر أيضا من الأمثلة التى أشارت اليها بعض المصادر
التاريخية ، والننى تدل على علاقة الود ، والوثام ، بين بعض القبط
والمسلمين في مصر ، ما كان من حسن معاملة أحد كبار المستخدمين
القبط وهو أبو السرور يوحنا بن الأيخ ، كاتب سر الخليفة الفاطمى
المستنصر بالله ووزيره ، للمسلمين عامة . فكان يحسن اليهم
جميعا ، ويساعد المحتاجين منهم . وقد نعم هذا المستخدم القبطى
بحب واحترام جميع المسلمين (٥٥٢) .

كما نلاحظ مشاركة اليهود والقبط ، المسلمين في أحزانهم ،
والدعاء للمرضى من الأمراء المسلمين . كما حدث عند مرض

أحمد بن طولون ، فقد خرج المسلمون واليهود والقبط الى جبل
القطم للدعاء لأحمد بن طولون بالشفاء (٥٥٣) .

وتشير كثير من الوثائق ، وخاصة التي ترجع الى عصر
الدولتين : الاخشيدية والفاطمية ، أن القبط كانوا يشركون
المسلمين معهم فى الشهادة ، والتوقيع على عقود البيع والشراء ،
وحجج الوصايا ، وعقود الزواج . نذكر من هذه الوثائق ، وثيقتين
يرجع تاريخهما الى سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) وتتضمن الأولى عقد
بيع بين يحنس بن سنودة ومقطلتى ابنة سنودة ، من سكان
احدى قرى كورة الفيوم . وهذه الوثيقة تتضمن وصفا كاملا للمنزل
المباع ، وحدوده ، كما تشير الى أن دفع الثمن قد تم بالدينار (٥٥٤) .

أما الوثيقة الثانية فهى عبارة عن عقد بيع بين
يحنس بن سنودة وكل من موسى بن سكريس ، وصمويل بن
سنودة ، من سكان نفس القرية . وفيها أيضا وصف للمنزل ، وأنه
دفع الثمن تم نقدا بالدينار . والملاحظ ان هذه العقود ، كانت تتم
على شروط بيع المسلمين (٥٥٥) .

كما تشير بعض الوثائق الأخرى ، الى أنه كثيرا ما كانت
عمليات البيع والشراء تتم بين القبط والمسلمين فى عصر الدولتين :
الاخشيديّة والفاطمية بصفة خاصة . فهناك وثيقة ترجع الى
سنة ٣٤١ هـ . وتتضمن عقد بيع منزل بين يحنس بن سنودة
وعبد العزيز بن مقبل وكلاهما من سكان بعض قرى كورة الفيوم
وتتضمن الوثيقة وصفا كاملا للمنزل وحدوده من كل جانب ، وثمن
البيع وتوقيع من اشترك فى الشهادة على عقد البيع من المسلمين
والقبط (٥٥٦) . ونستخلص من هذه الوثائق أيضا دليلا على ثراء
بعض القبط بقرى الفيوم وقدرتهم على دفع قيمة مشنرياتهم نقدا ،
ومقدمات .

وكما كانت عمليات البيع والشراء بين المسلمين والقبط ،
فى عصر الأمراء الاخشيديين كان يتم ذلك أيضا فى عصر الخلفاء
الفاطميين . فنجد بعض الوثائق التى تؤيد ذلك ، ويرجع تاريخها
الى القرن الخامس الهجرى ، وتتضمن عمليات البيع والشراء
المتبادله فى مدينه الأشموين (٥٥٧) .

ونذكر أيضا وثيقة يرجع تاريخها الى سنة ٣٤٨ هـ (ديسمبر
٩٥٩ / يناير ٩٦٠ م) وتتضمن وصية بعض القبط ، بثلاث
ممتلكاته ، من كل صنف لحدى الفتيات القبط أيضا ، وأنه اشرك
فى الشهادة على هذه الوصية بعض المسلمين (٥٥٨) .

كذلك نجد كثيرا من الوثائق التى ترجع الى عصر الدولة
الفاطمية ، وخاصة فى القرن الخامس الهجرى . ونضمن هذه
الوثائق جميعها عقود بيع بين نفر من القبط ، واشراكم المسلمين
فى الشهادة على عقود البيع والشراء ، والتوقيع عليها . ونلاحظ
أن هذه الوثائق جميعها كانت خاصة بكورة الفيوم ومدينة
الأشموين (٥٥٩) .

وتم تزواج بين المسلمين والذميات ، وخاصة فى عصر
الأمراء الطولونيين حيث ظهر الاندماج بين المسلمين والمصريين
واضحاً . وتؤكد ذلك بعض الوثائق ، نذكر منها واحدة تتضمن
زواج بونة ابنة خليف من يزيد بن قاسم (٥٦٠) .

وبالرغم من هذه الصور التاريخية التى تعبر عن المحبة ،
والود ، والسلام بين المسلمين وأهل الذمة ، فاننا نجد فى
المصادر التاريخية ، صورا مضادة ، ونلمسها فى عهد بعض الأمراء
الأخشيديين ، وأيضا فى عصر بعض الخلفاء الفاطميين . وتوضح

هذه المصادر نفور المسلمين أحيانا من الذميين ، وثورتهم عليهم ، وشغبهم بهم . ومما لاشك فيه أن هذه الصور كانت رد فعل ، لما صار لأهل الذمة من أهمية ومكانة في المجتمع المصرى فقد بولى الكثير منهم أعمال الدواوين وسئون الحكم ، وخاصة الوظائف المالية ، مما أثار حنق بعض المسلمين ، الذين ألهم تسلط الذميين على مصالحهم . كما حنق المسلمون أيضا على أهل الذمة ، نتيجة الحرية الواسعة التى تمتعوا بها ، والسماح لهم ببناء الكنائس الجديدة أو تعمير الكنائس القديمة . كما أن أخبار انتصارات الرومان المتوالية فى بلاد الشام ونجاحهم فى الاستيلاء على بعض المدن بها ، كانت تثير شعور الغضب والكرهية ضد الذميين وخاصة القبط منهم ، مما نتج عنه شغب المسلمين وثورتهم ضدهم . وسنشير فيما يلى الى بعض الحوادث التى تؤكد هذه الظاهرة ، وتوضح جوانبها فى عصر الأمراء الاخشيديين ، ثم فى عصر الخلفاء الفاطميين .

ثار المسلمون فى عهد الأمير محمد بن طغج الاخشيد ، فى سنة ٣٢٦ هـ ، عندما اذن للقبط بتجديد كنيسة أبى شنودة . فأفتى بعض الفقهاء بأحقية القبط فى ذلك ، بينما أنكر فريق آخر من الفقهاء ذلك . فنار المسلمون ، وأرادوا اشعال النيران فى منازل الفقهاء الذين رأوا أحقية القبط فى تجديد الكنيسة المذكورة ، وتعميرها ، وأرادوا قتلهم . كما أحاط المشاغبون بالكنيسة ، مما اضطر الاخشيد الى التدخل لتهدئة الأمور فبعث بجندة لصرف المتظاهرين ، الا أنهم رموهم بالحجارة . فأرسل الاخشيد الفقيه أبا بكر بن الحداد ، مع أحد المهندسين ، لدراسة حال الكنيسة ، فأقرا بقاءها دون تعمير (٥٦١) .

كذلك ثارت عامة المسلمين ضد القبط ، وغيرهم من المسيحيين ،
وخربوا بعض الكنائس ، عندما وصلتهم أنباء انتصارات الرومان
فى بلاد الشام فى اليوم الثالث من المحرم سنة ٣٤٩ هـ (٥٦٢) .

وعاود المسلمون ثورتهم فى العام التالى ، عندما وصلتهم
الأخبار ، بغزو الرومان ، بقيادة الامبراطور نقفور ، جزيرة
اقریطس ، وحريب ما فيها من المساجد ، الى جانب سبى كثير من
أهلها المسلمين . وكان ذلك اليوم ، يوافق عيد العازر ، قبل عيد
الشعانين بيومين . فتجمع كثير من المسلمين ، وارادوا تخريب بعض
الكنائس الملدانية واليعقوبية ، والاستيلاء على ما فيها من الأواني
والأمتعة . فركب أحد قواد الاخشيد فى جموع من الجند ، وفرق
جماعة المتظاهرين ، وتمكن من القضاء على هذه الفتنة (٥٦٣) .

وتشير بعض المصادر الحديثة ، الى أن العوامل الرئيسية
لاثارة الفتنة أحيانا بين المسلمين والذميين ، هى انتصار الرومان
فى بلاد الشام ، وما كان يكتبه الشعراء المسلمون ، من قصائد
ينسبونها الى المسيحيين . يذكرون فيها ما فعله الرومان المسيحيون
فى المدن الاسلامية وأهلها ، مما كان الغرض منه استنهاض همم
المسلمين ، ولكنه كان يؤدى فى بعض الأحيان الى توتر العلاقات
بين المسلمين والمسيحيين فى مصر ، وغيرها من البلاد
الاسلامية (٥٦٤) .

ولكن هذه المشاغبات التى كانت بين المسلمين والقبط فى عصر
الأمراء الاخشيديين ، كانت لفترات محدودة ، بينما كانت العلاقة ،
غالبا ، طيبة بين الفريقين فعاشوا جميعا فى وئام وسلام ، معظم
سنوات هذا العصر .

أما في عصر الخلفاء الفاطميين ، فقد تكررت المشاغبات بين عامة المسلمين وأهل الذمة من القبط واليهود نتيجة تسامح الخلفاء الواضح مع الذميين ، واستخدامهم لهم في الحكومة على نطاق واسع ، مما لم يسبق له مثيل في تاريخ مصر ، وسائر البلاد الإسلامية الأخرى . مما مكنهم من التسلط على مصالح المسلمين ، مما أثار شعور الكراهية أحيانا ضد الذميين وما ترتب عليه من قيام المسلمين بالنورة ضدهم ، في الطرقات والتعرض لنسائهم وأطفالهم وهم في طريقهم الى الكنائس .

وعارض المسلمون رغبة الذميين في بناء الكنائس ، بالرغم من حصولهم على تصريح من الخلفاء . فقد اذن الخليفة المعز لدين الله ، للبطرك أنبا أفراهم ببناء بعض الكنائس في مصر . فلما شرع البطرك ورعاياه القبط في البناء ، حالت عامة المسلمين دون ذلك . فاشتكى البطرك للخليفة ، الذي سارع بإرسال فرقة من جنده لتفريق المتظاهرين وإرغامهم على السكون والهدوء ، وتهديدهم بالعقاب إذا تعرضوا للقبض بسوء ، أثناء بنائهم للكنائس . وكتب الخليفة المعز للقبط ، سجلا يسمح لهم فيه ببناء بعض الكنائس وتجديد البعض الآخر (٥٦٥) .

وحدث في سنة ٣٨٦ هـ ، أن احترق الأسطول الذي أمر الخليفة العزيز بالله ، ببنائه للخروج به الى بلاد الشام ، لقتال الرومان به ، فاتهم المسلمون التجار الرومان ، الذين قدموا الى مصر ببضائعهم المختلفة . فثارَت عامة المسلمين من المصريين والمغاربة ، وقتلوا من هؤلاء التجار أعدادا كبيرة ، نحو مائة وستين ، كما هجم المسلمون على دور هؤلاء الرومان ، واستولوا على محتوياتها كما امتدت أيديهم الى بعض الكنائس المملوكية بمصر ، وخرّبوا بعضها ، واستولوا على ما فيها من الأواني الذهبية

والفضية والأمتعة . وتدخل الوزير المسيحي عيسى بن نسطورس ،
ووضع حدا لهذا الاعتداء على الملكانيين وأمر برد كل ما أخذته
المسلمون الى التجار والكنائس (٥٦٦) .

والواقع أن شعور الكراهية لدى المسلمين لم يكن موجها
نحو القبط وحدهم ، بل نحو اليهود أيضا . ويبدو أن المسلمين
كانوا يحتقرون اليهود ، ويستهزئون بهم ويعترضون تجمعاتهم
في مختلف الظروف والمناسبات . فقد حدث في عهد الخليفة الحاكم
بأمر الله ، حينما كان اليهود يشيعون جنازة أحد أعيانهم ، أن
اعترضت عامة المسلمين طريقهم ووجهوا اليهم الاهانات ، ورجموهم
بالحجارة . وكان المسلمون يحرضون ، أحيانا ، أصحاب السلطة
في البلاد ، على الحاق الأذى باليهود ، ويوجهون اليهم كثيرا من
الاتهامات . ونتج عن ذلك القبض على بعض اليهود ، ووضعهم
في السجن ، بعد أن لحقهم كثير من الاهانات من المسلمين ثمهم في
طريقهم الى السجن (٥٦٧) .

وفي الحقيقة ، وجد المسلمون في عصر الخليفة الحاكم بأمر
الله فرصة للتعبير عن شعورهم ازاء الذميين جميعا . فقد شاركوا في
هدم الكنائس والأديرة ، والاستيلاء على أمتعتها كما تمادوا في
اهانة الذميين ، وشجعهم على هذه السياسة كراهية الحاكم
بأمر الله للذميين وانقلابه عليهم خلال عدة سنوات . فلما أمر
الحاكم بهدم دير القصير ، أسرع عامة المسلمين الى الدير ،
ونبشوا قبور الموتى ، واستولوا على التوابيت الخشبية (٥٦٨) .
وأبدى المسلمون فرحهم ، لهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس .
ويصف ابن القلانسي (٥٦٩) شعور المسلمين آنذاك فيقول : «وشاع
الخبر ، فسر المسلمون به ، ودعوا للحاكم دعاء كبيرا على ما فعله

ورفع أصحاب الأخبار اليه ، ما الناس عليه من هذه الحالة ،
ففرج بذلك ، وتقدم بهدم ما يكون في الأعمال من البيع والكنائس .

ويذكر ابن سعيد الأنطاكي (٥٧٠) أن المسلمين في هذا
العصر ، قد انتهزوا هذه الفرصة للأساءة الى القبط خاصة ،
فهدموا بعض الكنائس في القاهرة وضواحيها وأقاموا مكانها
مساجد لهم . وتصف بعض الروايات القبطية شعور المسلمين
آنذاك نحو القبط ، فتقول : « وكان على النصارى في هذه التسع
سنوات ضيق عظيم ، وطرد وشتم ولعن من المسلمين ويبصقون في
وجوههم ، وكان أكثر ذلك بمدينة تنيس وأعمالها . وإذا جاز
نصراني عليهم ، يشتمونه ويقولون له ، اكسر هذا الصليب ، وادخل
في الدين الواسع ، وان نسي نصراني صليبه ، ومشى بلا صليب
لقى هوانا كثيرا » (٥٧١) .

ويبدو أن عامة المسلمين ، وأطفالهم ، كانوا يعترضون
أحيانا نساء القبط ، وهن في الطريق الى الكنائس وخاصة في أيام
صوم الأربعين ، وعيد الفصح بصفة خاصة ، كما حدث في عهد
ال خليفة المستنصر بالله ، إذ اشتكى بعض كبار موظفي القبط من
أن بعض الصبية المسلمين قد اعترضوا طريق نسايتهم ، ورجموهن
بالحجارة ، وسبوهن (٥٧٢) .

وفي عهد الخليفة الفاطمي الحافظ ، اهتم بعض الاساقفة
بكنيسة مدينة زفتى ، واكملوا بناءها ، واحتفلوا بافتتاحها ، وسموها
كنيسة ماري جرجس . فثار المسلمون ، والحقوا بهذه الكنيسة
الخراب والتدمير ، وحولوها الى مسجد (٥٧٣) . وحدث مثل هذا
الحدث في عهد الخليفة الظاهر ، إذ عمر القبط كنيسة ماري جرجس
بالمطرية ، فهدمها المسلمون ، وأقاموا لهم مسجدا ، في نفس
المكان (٥٧٤) .

وفي الحقيقة لم يكن سحق المسلمين ، أحيانا ، على القبط واليهود ، نتيجة تعصب ديني ، إنما هو رد فعل لتسلط أهل الذمة على أمور الدولة ، وخاصة في عصر الخلفاء الفاطميين ، حتى إن بعض الشعراء تغنوا بذلك في بعض القصائد ، فقال ابن بشر الدمشقي :

تنصرنا لتنصر دين حــــــق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ماسواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل (٥٧٥)

كما قال الحسن بن خاقان :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر انى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (٥٧٦)

وبالرغم من استخدام اليهود في بعض نواحي الإدارة ، كان المسلمون — في رأى تريتون — ينظرون اليهم نظرتهم الى فئة دونهم مكانة ، لا يحق لهم أن يتناولوا لأكثر من تناول الفتات المتساقط من موائد سادتهم (٥٧٧) . وربما كان هذا الشعور من جانب المسلمين ، هو السبب في عدم مشاركة المسلمين لليهود في الاحتفال بأعيادهم ، مثلما كانوا يشاركون القبط ، ولعل هذا الشعور أيضا كان سبب قلة ما وصلنا من الأخبار عن اليهود ، وخاصة في المصادر الإسلامية اذا قارنا ذلك بما وصلنا من أخبار وروايات عن القبط .

بعد دراستنا للعلاقة بين عامة المسلمين وأهل الذمة في مصر
الاسلامية ندرس علاقة حكام مصر في ذلك العصر بالذميين ، وبمدي
تسامحهم معهم .

تمتع أهل الذمة في الحقيقة ، بتسامح حكام مصر ، طوال
هذا العصر الذي نحن بصدد البحث والدراسة فيه . إذ كان
الحكام المسلمون يعطفون عليهم ، ويستخدمونهم في الدواوين
المختلفة وفي إدارة البلاد المصرية . كما تركوا لهم جرياتهم الدينية
والاجتماعية ، فباشروا طقوسهم الدينية في حرية تامة في معظم
الأحيان ، واحتفلوا بأعيادهم الدينية والقومية ، بل شارك كثير
من حكام مصر في هذه الاحتفالات . كما نلاحظ أن كثيرا من حكام
مصر ، كان يحول دون تعرض عامة المسلمين للقبض وغيرهم من
الذميين ، عندما يشرعون في بناء كنائس جديدة ، أو تجديد وتعمير
القديم منها . كما أنس بعض حكام مصر ببعض الأساقفة والرهبان
القبط ، فكثيرا ما كان هؤلاء الحكام يحرصون على الاجتماع بهم ،
واستشارتهم في أمورهم . كما اهتم كثير من حكام مصر بالأديرة ،
واتخذوها متنزها لهم ، وجعلوا لها الأراضى ، وقدموا لها المعونة
المادية لرهبانها كما سنرى .

اشتهر عمرو بن العاص ، أول ولاة مصر من المسلمين ،
بحسن معاملته للقبط واليهود ، وتسامحه معهم ، وتركه الحرية
الدينية والاجتماعية لهم . وليس أدل على ذلك من كتابة الأمان
للبطرك القبطى بنيامين . كما أنه كان ، دائما ، يستشير الخليفة
عمر بن الخطاب في بعض الأمور الخاصة بالقبط ورهبانهم ، حتى
يستشير برأيه ، ويسترشد بسياسته فأجابه الخليفة عمر ، بأن من
يموت من أهل الذمة ويكون له عقب ، يكون ميراثه وكل ما يملكه

لعقبه من بعده ، أما من يموت منهم وليس له وارث شرعى ، فيميراثه
يصير الى بيت مال المسلمين ، لأن ولائهم يكون للمسلمين (٥٧٨) .

وبالرغم من سياسة عمرو بن العاص المتسامحة ، وحسن
معاملته للقبط ، فإنه كان لا يتوانى فى عقاب من يتهم منهم بسوء
النية نحو العرب والاسلام . وتشير بعض المصادر الى انه صادر
أموال أحد القبط ، عندما علم انه كان ينقل للرومان أخبار المسلمين
ويدلهم على عوراتهم ، ويكتب لهم بذلك . فاستحل عمرو بن
العاص أموال هذا القبطى ، وبلغ ما صادره ثلاثة عشر مليون
دينار (٥٧٩) .

وعلى الرغم من أننا نلمس فى عصر الولاة ، إجحاف بعض الولاة
المسلمين بالذميين ، والتشدد معهم فى جمع الضرائب ، واتباع
وسائل مختلفة فى سبيل ذلك — كما سنرى فى الباب الثالث —
فقد أحسن كثير من الولاة ، فى هذا العصر ، معاملة أهل الذمة ،
واشتهرت سياستهم نحوهم بالتسامح والعطف ، وخاصة بالنسبة
لرجال الدين القبط . وتحفظ لنا المصادر التاريخية وخاصة القبطية
منها كثيرا من الأمثلة على ذلك . منها ما حدث فى ولاية مسلمة
ابن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) الذى كان أول من أذن ببناء كنيسة
بالفسطاط (٥٨٠) . فقد اتهم بعض الموظفين القبط باقليم سخا ،
وقرر حكام هذا الاقليم حرقهم بالنار ، الا أن الوالى مسلمة بن
مخلد بعث الى اقليم سخا سبعة من الأساقفة ، للتحقيق فى هذا
الحدث ، وابداء رأيهم فى الحكم على المتهمين (٥٨١) .

وكانت تسود علاقات الود والمحبة أيضا بين أمير مصر
عبد العزيز بن مروان وبطرك القبط يوحنا الثالث . ولما أشار
الأطباء على عبد العزيز بن مروان بالإقامة فى حلوان ، نزل فى دير

طمويه ومنح الرهبان عشرين ألف دينار فى هذه الزيارة ، وتم
شفاء الأمير ، مما كان له أثره فى ازدياد حبه للرهبان القبط واجلال
بطركهم (٥٨٢) . ومما تجدر الاشارة اليه ، أن العملة الاولى لمصر
الاسلامية قد ضربها عبد العزيز ، وهو مقيم فى هذا الدير (٥٨٣) .

وكان بعض الولاة المسلمين يحبون الاجتماع بكبار رجال
القبط واعيانهم . ويؤكد ذلك ما جاء فى ترجمة البطرك أنبا اسحق ،
ذلك أن والى مصر عبد العزيز بن مروان كان كثيرا ما يجتمع
بالموظفين القبط ، كما كان يأنس كثيرا ببطركهم أنبا اسحق ، حتى
بلغ به الأمر انه كان كثيرا ما يدعوهم الى تناول الطعام معه فى
قصره ، ويتجاذبون أطراف الحديث أثناء ذلك فى مختلف
النواحى (٥٨٤) .

كما كان هذا الوالى يجتمع بكبار القبط فى أعيادهم الدينية ،
فتذكر الرواية القبطية أن الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، لما
دخل على أبيه عبد العزيز ، وجده مجتمعا مع بعض المسلمين
وجماعة من كبار القبط ، وكان ذلك اليوم يوافق عيد
الفصح (٥٨٥) .

وبالرغم من زيادة عبيد الله بن الحبحاب ، الخراج على أهل
الذمة ، وتشدده فى جبايته (٥٨٦) ، نجد بعض أوراق البردى
التي تشير الى تسامحه ورفقه بالذميين ، عند جباية الجزية
وغيرها من الضرائب . فهناك بردية تتضمن رخصة بالسماح
لشخص بترك قريته والذهاب الى قرية أخرى ، والاقامة فيها وقتا
معينا ، ويرجع تاريخ هذه البردية الى شهر ذى الحجة سنة
١١٢ هـ (فبراير ٧٣١ م) وفيها يسمح والى مصر عبيد الله بن
الحبحاب ، لرجل من القبط بالانتقال من قريته الى قرية أخرى ،

والإقامة فيها ، والعمل بها حتى يتمكن من دفع ما عليه من الجزية ،
وأمله شهرين ، وكتب يأمر عماله ألا يتعرضوا له بسوء (٥٨٧) .

وأظهر بعض الولاة المسلمين صداقته ، لبعض رؤساء القبط
الدينيين ، من هؤلاء أبو القاسم بن عبيد الله ، الذى كان صديقا
للبطرك أنبا تادرس ، وللأسقف أنبا مسيس ، فكان يطلب الاجتماع
بهما . كما كان يحضر سراريه الى البطرك أنبا تادرس ليباركهن
له ، وفعل ذلك مرات كثيرة (٥٨٨) .

وكان أبو القاسم صديقا ، للأسقف أفراهم ، أسقف
الفيوم . وكانت كنائسه وأديرته كثيرة الاموال والأماك فطلب منه
أبو القاسم ، ان يعطيه ثلاثمائة دينار ، وقال له : إنه يعلم محبته
الشديدة له منذ ولاية أبيه عبيد الله ، وأنه كان يبذل قصارى
جهده فى تحقيق كل ما يرمى اليه ، ويطلب من أبيه عبيد الله . كما
قدم أبو القاسم للأسقف أنبا أفراهم إحدى سراريه وكانت مغربية
الأصل ، وقال له : هذه ابنتك ، وجعل يده فى يديها ، ثم قال له
أبو القاسم أيضا : « أنا أكرمك بهذه الكرامة العظيمة ، حتى أنني
جعلت زوجتى لك ابنة ، ولا تدفع لها شيئا تكرمها به » (٥٨٩) .

واشتهر والى مصر حسان بن عتاهية (١٢٧ هـ = ٧٤٥ م)
بتكريمه للقبط ولرؤسائهم الدينيين ، وخاصة الأساقفة والرهبان ،
كما كان يعطف كثيرا على الكنائس وكان يقرب إليه البطرك أنبا
خاويل ، وكثيرا ما كان يطلب منه الحضور اليه والتحدث معه ،
وكان يستشير فى كثير من الأمور ، ويأخذ برأيه فى معظم
الأحيان (٥٩٠) .

كما كان والى مصر عبيد الملك بن بطرول من آخر الولاة
الأمويين — يحب البطرك أنبا خاويل ويحبه كثيرا إلى قصره

ويتحدث إليه ويطلب منه الدعاء له ولاهله ، كما تشير بعض الروايات القبطية الى أنه كان لعبد الملك ابنه مريضة ، في الرابعة من عمرها ، فسأل البطريرك أنبا خاييل الدعاء لها بالشفاء والصلاة عليها ، ففعل البطريرك ذلك ، ومسح جسدها بالزيت المقدس ، فتم شفاؤها ، ولذا أصبح عبد الملك يعطف على القبط وأمافتهم منذ ذلك الحين (٥٩١) .

وأحسن بعض ولاة مصر في العصر العباسي ، معاملة أهل الذمة ، وتركوا لهم حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وخاصة الولاة الأتراك منهم ، الذين كرهوا العرب ، ومن ثم قربوا اليهم القبط ، وأعادو إليهم كثيرا من أراضيهم وممتلكاتهم المصادرة . كما أذن الكثير منهم للقبط باعادة بناء كنائسهم وتجديد الكثير منها (٥٩٢) .

واشتهر الأمراء الطولونيون بعطفهم على أهل الذمة ، وخاصة القبط ، واشتهرت سياستهم نحوهم ، بالتسامح ، وتركوا لهم الحرية الدينية والاجتماعية كاملة . وكان أحمد بن طولون يأنس ببعض رهبان دير القصير ، ويعطف على رهبان هذا الدير جميعا ، كما كان يكثر من زيارته لهذا الدير . وقد قال هؤلاء الرهبان : « كان كثيرا ما يطرقنا الأمير أحمد بن طولون ويخلو في بعض قلايينا يفكر ، وكان يأنس براهب منا ، يقال له اندونة . شكونا اليه يوما أمر ابن المدبر ، صاحب خراج مصر ، وقتلنا له : انه يطالبنا بجزية رؤوسنا وقد أسقطت عن أمثالنا على مر السنين . فوقع اليه بخطه توقيعا ، وقال لنا : احذروا أن تجعلوا توقيعي هذا كالسيف الذي يصول به صاحبه ، ولكن استعملوا الاستكانة عند إيصالكم إياه والمسألة ، وحسن التصرف » (٥٩٣) .

وكان أحمد بن طولون ، أيضا ، يقتصر للقبط من قواده ، اذا أساءوا اليهم ، مهما علت مكانة هؤلاء القواد . فقد حدث أن أرسل

أحمد بن طولون أجد قواده الى بعض القرى. في الريف ، لتفقد
أحوالها ، وجمع ما على أهلها من الأموال ، فأساء هذا القائد
الى بعض الرهبان ، وأجبرهم على دفع خمسمائة دينار له . وحزن
الراهب ، فقيل له : لا تحزن ولا تبك ، ولنا أمير عادل منصف .
وأشار البعض عليه ، بالخروج الى أحمد بن طولون ، وتقديم
شكواه اليه ، من هذا القائد ، وما عمله معه . فلما علم ابن طولون
بقصة هذا الراهب أمر بالقبض على القائد ، وباعتقاله . بينما
قال للراهب : « كان سبيلك أن تدعى عليه بثلاثة آلاف دينار ،
حتى أخذها لك منه ، وأجعل ذلك تأديبا له ولغيره » (٥٩٤) .

وقد سار خمارويه على نهج أبيه ، فأحسن الى أهل الذمة ،
وعطف كثيرا على القبط بصفة خاصة ، واهتم بمصالحهم ، وخاصة
الرهبان والأساقفة منهم . وكان يأنس ببعضهم ويميل الى الاجتماع
بهم ، والاعتماد عليهم في تفقد أحوال البلاد . ومن هؤلاء الأسقف
أنبا بخوم ، أسقف مدينة طما (٥٩٥) .

أما أكثر حكام مصر تسامحا مع الذميين ، سواء القبط ، أو
اليهود ، فهم الخلفاء الفاطميون أصحاب المذهب الشيعي ، المخالف
لمذهب المصريين السني ، ولذهب الخلافة العباسية أيضا . ولما
كان من الصعب على الخلفاء الفاطميين الشيعة الاعتماد على
المصريين السنيين ، فقد قربوا اليهم أهل الذمة وأظهروا لهم الكثير
من التسامح والعطف ، وتوسعوا في استخدامهم في أهم شئون
الدولة ودواوينها (٥٩٦) .

ويقول آدم مثر (٥٩٧) : ان الخلفاء الفاطميين قد أظهروا
تسامحا نعجب له ، وانه لم يكن ينتظر ذلك من قوم لهم مذهبهم
الخاص الذي انفردوا به ، وخالفوا جمهور المسلمين . وكان أطباء

الخلفاء من اليهود الذين لم يحتاجوا الى تغيير دينهم ، ولم يضطروهم
أحد الى ذلك . وقد عظم نفوذ اليهود ، في بلاط الخليفة المعز ،
الى حد كبير ، فصار لا يعمل شيئا الا بمعاونتهم وإبداء رأيهم .

والواقع أن نفوذ اليهود ، لم يكن واضحا في عهد الخليفة
المعز فحسب ، بل اتسع نفوذهم أيضا ، وزادت مكانتهم ، في عهد
الخليفة المستنصر بالله ، بفضل جهود أبى سعد بن سهل التستري
الذى نجح في استخدام كثير من ائيهود في ذلك العصر . ويمكن
القول — اذا استثنينا الخليفة الحاكم بأمر الله — أن الخلفاء
الفاطميين جميعا قد أحسنوا معاملة أهل الذمة فاستخدموهم على
نطاق واسع ، لم يسبق له مثيل من قبل . فصار منهم الوزراء
والكتاب وعمال الدواوين وعمال الخراج ، وحكام الأقاليم وخواص
الخليفة .

ولكننا نلاحظ أيضا ، أن هؤلاء المستخدمين الذميين ، كان
معظمهم يسيء الى المسلمين ، ويعدونهم عن الدواوين والأعمال
المختلفة ، ويستخدمون مكانهم اخوانهم في الدين سواء أكان هؤلاء
المستخدمون من القبط أم اليهود . ومن الأمثلة على ذلك ، ما حدث
في عهد الخليفة الحافظ ، حينما أصبح الاكرم بن زكريا القبطى
رئيس الدواوين ، فأقدم على عزل المسلمين من أعمالهم وجعل
القبط مكانهم . فظهرت عليهم دلائل النعمة ، وارتدوا أجمل وأفخم
الملابس كما ركبوا البغال الحسنة ، والخيول المزينة ، بالسروج ،
وبالفروا في الشدة مع المسلمين ، وضايقوهم في أرزاقهم واستولوا
على الأحباس الدينية ، والأوقاف الشرعية بل اتخذوا العبيد
والماليك والجواري من المسلمين والمسلمات ، وبلغ بهم الأمر أنهم
اضطروا ، أحد الكتاب المسلمين الى بيع أولاده ، وبناته لغرامة
فرضوها عليه (٥٩٨) .

وبالرغم من سوء معاملة القبط ، وغيرهم من الذميين ، أحيانا للمسلمين ، فقد أظهر الخلفاء الفاطميون ، تسامحا عظيما معهم . فأذنوا لهم ببناء الكنائس والقيام بالطقوس الدينية في حرية تامة ، والاحتفال بأعيادهم ، بل عهد كثير من هؤلاء الخلفاء الى مشاركة القبط في الاحتفال بها ، وجعلوا للدولة رسوما تحرص على القيام بها في مثل هذه الأعياد كل سنة ، كما أشرنا من قبل في الفصل الثاني من هذا الباب .

بل اننا نلاحظ أن الحاكم بأمر الله الذي اشتهر بقسوته أحيانا ، على الذميين وتضييقه الشديد عليهم ، قد أظهر تسامحا كبيرا في أواخر أيامه ، فأذن لهم باعادة بناء كنائسهم وتعمير ما خرب منها . كما أذن لمن اعتنق الاسلام ، رغما عنه ، بالعودة الى دينه اذا رغب في ذلك . وكتب لهم سجلات بالامان على أنفسهم وكنائسهم . كما أنه صار يأنس ببعض رهبانهم ، وخاصة أنبا سلمون ، رئيس دير طور سيناء . فكان يستجيب الى كل ما يطلبه منه ، بشأن اصلاح حال القبط ، وتعمير كنائسهم وأديرتهم . كما كان يحرص على لقائه يوميا عند خروجه الى الصحراء ، مما أطلق السنة بعض عامة المسلمين ، فعاثوا عليه ميله الشديد لأنبا سلمون ومشاركته للرهبان في ارتداء الصوف ، وزعموا أنه أصبح تلميذا لأنبا سلمون . كما كان الحاكم يتردد كثيرا على دير القصر ، ويشاهد عمارته بنفسه ، ويستحث العمال على الفراغ من البناء ، كما قدم الى هذا الدير كثيرا من الأموال ، مساعدة منه في عملية البناء ، وليستعين بها الرهبان في الانفاق منها على أنفسهم (٥٩٩) . ونضيف الى ذلك أن الخليفة الحافظ ، كان شديد الحرص على الالتقاء بالبطرك الأرمني كل يوم خميس واثنين من كل أسبوع (٦٠٠) .

تمتع رهبان دير طور سيناء بتسامح الخلفاء الفاطميين ، بعد
الحاكم بأمر الله ، وحفظوا بكثير من عطفهم ، ورعايتهم . ويدلنا على
ذلك ، ما وجد من وثائق ترجع الى القرن السادس الهجرى ،
الثانى عشر الميلادى ، فى مكتبة دير سانت كاترين بسيناء (٦٠١) .
وهذه الوثائق توضح كثيرا من جوانب العلاقة بين رهبان هذه
المنطقة ، وبين الحكومة الفاطمية ومصر آنذاك . وتشير أيضا
الى أن رهبان طور سيناء كثيرا ما كانوا يبعثون بالتماسهم الى
السلطات المسئولة فى الديار المصرية فى ذلك الوقت ، بطلب
رعايتهم وحمايتهم من المضايقات التى كانوا يتعرضون لها من
العربان المجاورين لهم ، وان الحكومة الفاطمية كانت تسرع فى
اصدار المنشورات التى تقضى بحمايتهم ورعاية شئونهم .

وقد جاء فى احدى هذه الوثائق ، ويرجع تاريخها الى مستهل
القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أن أسقف دير
سيناء ، ويسمى نيفرى ، يلتبس من الخليفة الفاطمى فى مصر ،
الأمير بأحكام الله (٤٩٦ — ٥٢٤ هـ) اصدار أوامره برعايته ، هو
ورهبانه . وسرعان ما استجاب الخليفة الأمر ، لهذا الالتماس ،
وأصدر منشورا يأمر فيه « بمضاعفة الاحسان اليهم ومتابعة الانعام
عليهم ، وتوفير حظوظهم من الرعاية ، واجزال نصيبهم من العناية
والحماية وتعمونهم بالعدل العميم الشامل ، وبالانصاف
المتكامل » (٦٠٢) .

كما جاء فى هذه الوثيقة أيضا ، أمر الخليفة الأمر ، « بصرف
العناية الى ما يستتب من حال هذا الأسقف والمقيمين معه فى الطور
من طائفته ، وأهل ملته ، وتحلته ، وليجرى أحوال جميعهم على
السداد فى الإقامة هنالك ، والاستقرار » (٦٠٣) .

ومما لا شك فيه أن أسقف هذا الدير ، ورهبانه ، قد قدروا هذا الموقف من جانب الخليفة الفاطمي الأمر ، وما انطوى عليه هذا الموقف من حسن المعاملة . ويؤكد لنا ذلك ، ما جاء في الوثيقة المذكورة « .. أنهى أسقف طور سيناء المعروف بنيفري وجماعة الرهبان والنصارى المقيمين معه ، انهم في ظل الدولة الحافضية (لا شك أن المقصود الدولة الفاطمية ولعل ذلك ناتج عن خطأ في الطبع) آمنون ، وفي وطن عدلها ساكنون ، وأنهم مالم يكون في زمانها يفتخرون ، وبما يخرج من أوامرها يتشرفون » (٦٠٤) .

كانت أهم منتجات هذا الدير ، القمح والشعير ، وغيرهما من الحبوب والنخيل والكروم . وكانت هذه المنتجات تثير كثيرا من الخلافات بين الرهبان والعربان . وكان الرهبان بدورهم يرفعون شكواهم ، بشأن ذلك ، إلى الحكومة الفاطمية ، التي كانت تحاول وقف هذا الخلاف . وهناك وثيقة تتضمن منشورا ، صادرا ، من ديوان الانشاء ، بتاريخ ٣ رجب سنة ٥٢٩ هـ (أبريل ١١٣٥ م) وفيه أمر ، بمنع كل من يتعرض لاسقف الدير ورهبانه ، ما يختص بهم من القمح والشعير ، وغيرهما من الحبوب والكروم ، وما يعتصر منها جميعا (٦٠٥) .

وجاء في وثيقة أخرى بتاريخ ، ذى الحجة ، سنة ٥٤٨ هـ (فبراير / مارس سنة ١١٥٤ م) أنه قد صدر منشور من القاهرة « برعاية الرهبان المقدم ذكرهم ، ومن ينتجع اليهم ، ويطرا عليهم ، وأصحابهم ، وأهل ملتهم ، والتابعين ، والمتصرفين في تحصيل أقواتهم ، وغير ذلك من مصالحهم التي لا غنى عنها لأنهم وحفاظهم ، وحياطتهم ، وصونهم في أنفسهم ، وأصحابهم ، السالكين سبيلهم . وكف الأيدي من الحاضرة ، والبادية عن أذيتهم ، وعن الامتداد بسوء اليهم » (٦٠٦) .

كما تضمنت هذه الوثيقة أيضا ، أمرا من الحكومة الفاطمية يقضى بإزالة الأعباء والرسوم التى كان يلزمهم بها حكام هذه المنطقة وذلك نصه : « .. بحسم مواد الضرر عنهم ، وإعفائهم من كل ما لزمون به ، ويطالبون به ، ويكرهون على أدائه ، والقيام به من الرسوم والمؤن ، والغرامات وسائر الكلف التى لم تجر العبادة بها ، حملا لهم على عدل الدولة ورفقا بهم ، ورعاية لزمة الإسلام فيهم ، وعملا بقضايا السجلات التى بأيديهم » (٦٠٧) .

وهناك أيضا وثيقة (سنذكر نصها فى الملاحق) يرجع تاريخها الى ربيع الثانى سنة ٥٥١ هـ (مايو / يونيو سنة ١١٥٦ م) فى عهد الخليفة الفائز بنصر الله . وتتضمن هذه الوثيقة ، أوامر هذا الخليفة ، برفع بعض الأعباء والغرامات عن رهبان هذا الدير ، والتى ألزمهم بها النواب والحكام بالحصون الطورية . وفيها أيضا ، يأمر الخليفة الفائز بالابقاء على العرف الجارى ، المستقر بينهم ، وعدم المساس به ، والواضح من نص الوثيقة أن ذلك جاء بعدم التماس رفعه أسقف الدير الى الخليفة المذكور . وقد جاء فى هذه الوثيقة ، « ... أنهى الى حضرتنا ، استضرار أنطون ، أسقف طور سيناء ، بما يقصده به الولاة من الاجحاف ، ويلتمسونه من جهته ، من رسم أحدثوه ، وهو عشرة دنانير وبساطان .. ، أنكرنا ذلك على معتمديه .. وخرج أمرنا بايداع هذا المنشور الأمر ، بإزالة هذا الرسم وتعقيبه ، والمنع من التماسه من هذا الاسقف ، والحذر من تناوله من جهته .. واعتماده بالرعاية ، والملاحظة ، والمعونة والمرافدة ، والمبالغة فى اعزاز جانبه ، وتسهيل مطالبه ، والتحذير من تكليفه ، أو أحد من رهبانه ، أو جاره ، وأجرائه على القوانين المرضية والأوضاع المختارة .. » (٦٠٨) .

والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها أن هذه الوثائق المختلفة توضح وتؤكد سياسة ، التسامح التى انتهجها الخلفاء الفاطميون ،

نحو أهل الذمة في مصر بصفة عامة ، والقبط منهم بصفة خاصة ، في مختلف الأقاليم المصرية البعيدة عن القاهرة أو القريبة منها . فقد لمسنا من دراسة هذه الوثائق ، أن رهبان دير طور سيناء النائي ، كانوا يعيشون في هدوء وأمن دون أن يلحقهم أذى ، أو يصيبهم مكروه من جانب الحكومة الفاطمية أو عمالها ، وخاصة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

والى جانب ذلك تأمين طريق الحجاج الى بيت المقدس . ولا غرو فقد اشتهر المسلمون بسعة صدرهم ، وتسامحهم الصادق في شئون الدين ، وفي الحريات الشخصية . وكل ذلك ، في الواقع ، يرجع الى ما انطوى عليه الدين الاسلامي . من روح التسامح والمحبة مع غير المسلمين : وجاء في احدى الوثائق ، السابق الاشارة اليها ، والتي ترجع الى منتصف القرن السادس الهجري ، « . . . انه لما كان من سيمنا ازالة المحرمات وتعقب آثارها ، والمنع من الاستمرار عليها ، وتأكيده انكارها ، ورعاية من يحتوى عليه ، نطاق مملكتنا من أهل الذمة واعتمادهم بما يسبغ عليهم ، ملابس الحنو والرحمة ، تساوى في عدلنا الصغير والكبير ، وشملهم من حسن نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير . . . » (٦٠٩) .

لم تقتصر العلاقات بين حكام مصر الاسلامية ، وبين أهل الذمة ، وخاصة القبط منهم ، على تسامح هؤلاء الحكام ، وحسن معاملتهم لهم ، واستخدامهم في شئون الحكم والادارة ومشاركتهم في الاحتفال بأعيادهم الدينية والقومية ، بل كثيرا ما كان بعض هؤلاء الحكام ، يغشون أديرتهم ، ويتخذونها متنزها لهم ، ومكانا للهو والشراب . وقد ظهر ذلك بصورة واضحة ، منذ عصر الأمراء الطولونيين . فقد كانت هذه الأديرة ، ببساتينها الفسيحة ،

وقاعات شرابها الباردة ، مجمع اهل البطالات ، ومقصد طلاب اللذات . وكان اقرب هذه الدير لنفوس الامراء والمسلمين المعاصرين ، دير القصير على جبل المقطم (٦١٠) .

ذكرنا من قبل ، أن احمد بن طولون ، كان يتردد كثيرا على رهبان دير القصير ، وانه كان يأنس لبعض الرهبان فيه وينخذ من دير القصير ، متنزها له ، يتردد عليه بين الحين والآخر ، ويشترك رهبانه في لهوهم وشرابهم . وكان ابنه خمارويه أيضا ، يكثر غشيان دير القصير ، اذ كان شديد الاعجاب بما فيه من صور . كما كان يشارك الرهبان فيه ، في شرابهم ولهوهم . وبغى لنفسه في هذا الدير غرفة (أو قبة) ذات أربع طاقات ، ليجلس فيها عند حضوره الى هذا الدير . ويتخذونه متنزها لهم ، اقربه من مدينة الفسطاط (٦١١) .

كذلك شارك الخلفاء الفاطميون وعامة المسلمين في العصر الفاطمي القبط في اتخاذ الدير متنزهات لهم ، ومكانا للشراب واللهو . ومن هذه الدير التي اشتهرت في هذا العصر دير مرحنا ، بالقرب من النيل ، على بركة الحبش (٦١٢) . ويعبد هذا الدير من بين الديارات التي اتخذها الخلفاء الفاطميون وعامة الناس ، متنزها لهم ، للتمتع باللهو ، والطرب لاجتماع طيب الشراب به الى جانب طيب الهواء ، وحسن المنظر ، واشرافه على بركة الحبش احدى بقاع مصر المشهورة بالقصف والبطالة . وقد تغنى بعض الشعراء بهذا الدير ، وما كان يدور فيه من اللهو والشراب : فقال أمية بن عبد الصلت المغربي :

يا دير مرحنا لنا ليلة لو شربت بالنفس لم تبخس (٦١٣)

وكان الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، يكثر غشيان هذا الدير وقضاء كثير من الأوقات فيه . وقد أمر العزيز بالله بأن يقام لهذا الدير ، بعض البساتين ، كما جعل فيه مجلسا له على عمد من رخام جميلة المنظر . ويوجد بالقرب من هذا الدير ، بئر ماء ، عليها شجرة جميز ، وكثيرا ما يجتمع عندها الناس ، ويقضون بها كثيرا من أوقات اللهو والشراب (٦١٤) .

ويقول التسابستى (٦١٥) فى وصف هذا الدير ، « فهذا الموضع من مواضع اللعب ، ومواطن اللهو والطرب ، نزه فى أيام النيل وزيادته ، وامتلاء البركة ، حسن المنظر ، نزه البقاع وكذلك فى أيام الزرع ، والنوار . ولا يكاد يخلو من المتطرحين والمنزهين . وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه » كما أنشد العزيز بالله بعض أبيات من الشعر عن هذا الدير ، فقال :

ايا دير مرحنا سقتك رعود من الغيم ، يهمس حزنها ويجود
(٦١٦)

كما حظى دير نهيا ، باهتمام كثير من الخلفاء الفاطميين ، الذين ترددوا عليه كثيرا ، وشاهدوا رهبانه ، وشاركوهم فى لهوهم وشرابهم . كما كان البعض منهم يقصد هذا الدير بغرض الصيد ، ويوجد دير نهيا بالجيزة ، وهو من أحسن الديارات بمصر وأطيبها موضعا ، وأجلها موقعا ، عامر برهبانه وسكانه . وله فى النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته فاذا انصرف الماء ، وزرعت الأرض ، ظهرت أنواع الأزهار المختلفة . وله خليج يجتمع حوله أنواع مختلفة من الطيور ، لذلك فهو متصيد أيضا لمن يهوى الصيد (٦١٧) .

وقد تغنى الشعراء بهذا الدير ، ومنهم ابن البصرى المعاصر
للأمراء الأخشيديين ، ونذكر من أشعاره ، ما يلى :

أتنشط للشرب با سيدي فيومك هذا دقيق الدروز
فعندي لك اليوم منسويتان سرقتهما من دجاج العجوز
أتنشط عندي على نبتتين على لوزتين ، على فطرميز
وتقصد نهيا وديرا لها به منبت الورد والمرمجوز
واتشرب فيها برطل وجام وطاس وكاس وكوب وكوز
(٦١٨)

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الخليفة المعز لدين الله ،
نزل بدير نهيا عندما قدم الى مصر ، ليقيم بها ، ويتخذها مقرا
للخلافة الفاطمية ، وانه أقام بهذا الدير سبعة أشهر ، أمر أثناءها
باقامة بستان أمام هذا الدير ، كما جعل له حوض سبيل ، وبئر
سباقية (٦١٩) . وكان ذلك كله ، فى الواقع ، مكافأة من الخليفة
لرهبان هذا الدير ، على حسن ضيافتهم اياه ، وكرم استقبالهم له .

وكان دير نهيا من بين الأديرة ، التى أصابها التخريب فى
عهد الخليفة الحاكم بأمر الله . فلما كانت سنة ٤١١ هـ حينما
أطلق الحاكم الحرية لأهل الذمة لاعادة كنائسهم وأديرتهم اهتم
بعمارة هذا الدير ، أحد القبط ، من سكان بلدة وسيم ، من كورة
الجيزة . كما أطلق الحاكم بأمر الله ، لرهبان هذا الدير بعض
الرزق (٦٢٠) . وهذا يشبه ما فعله نفس الخليفة مع رهبان دير
القصر .

اما الخليفة الأمر بأحكام الله ، فكان يتردد على دير نهيا
كثيرا ، بغرض التنزه والصيد . ومما يذكر انه عندما ذهب اليه

لأول مرة ، وجد بابه قصيرا ، ولا يمكنه الدخول منه الا منكس الرأس ، فدخله بظهره . ولما وصل الى الهيكل بداخل الدير ، سأل عن مكان وقوف القسيس ومكان وقوف الشماسة . وطاف بأرجاء الدير جميعها . وقد أحسن الرهبان بدبر نهيا استقباله ، وأكرموا ضيافته ، ودفع اليهم ألف درهم ، وقضى بقية نهاره ينصيد أمام الدير (٦٢١) .

واستمر الخليفة الأمر بأحكام الله ، يتردد على هذا الدير ، ويفضي بعض الوقت فيه مع الرهبان . وكان يركب اليه فى مواكبه وعساكره . ومما يجدر بنا ذكره ، انه أقام له مجلسا فى دير نهيا ، عبارة عن منطرة عالية ، كما عمل قبة بابها من خارج الدير ، ولها سلم من الحجارة يصعد اليها منه (٦٢٢) . ويقول أبو صالح الأرمنى (٦٢٣) ، ان الأمر « قد بات فى الدير ليلتين متفرقة . وصار فى كل يوم يتردد للصيد ، ويضيفونه الرهبان ، فجعل لهم فى كل ركبة ، يطرق الدير فيها ألف درهم ، فحصل لهم من ذلك خمسة وعشرون ألفا » وقد استعان رهبان هذا الدير بهذا المال فى تجديد سور الدير ، وكان عدد الجمال التى تحمل الطوب والحجر الى دير نهيا ، فى كل يوم ، أربعين جملا .

وبمضى الزمن ، صار رهبان دير نهيا ، مقربين الى الخليفة الأمر بأحكام الله ، لا يترددون فى سؤاله ، قضاء بعض ما يحتاجون اليه . فقد سألوه أن يجعل لهذا الدير وقفا من الأرض الزراعية ليزرعه الرهبان فى كل سنة ، ويستغلوه فى نفقاتهم ، ونفقات ديرهم . فأجابهم الخليفة الى ذلك وجعل لدير نهيا مساحة تقرب من ثلاثين فدانا ، ظلت يأيدى الرهبان حتى سنة ٥٦٤ هـ . حينما استولى عليها الغز الأكراد ، أتباع نور الدين زنكى ، عندهما دخلوا مصر

— فى عهد الخليفة العاضد — ولم يتركوا لرهبان دير نهيا سوى
المصيدة ، لينتفعوا بها فى صيد الطيور والحيوانات (٦٢٤) .

واشتهر من أديرة مصر فى هذا العصر أيضا ، دير طمويه ،
الذى قصده كثير من الخلفاء والوزراء ، ويقع فى غرب مصر ازاء
حلوان (٦٢٥) . ويحيط بهذا الدير سور منيع ، ويطل على البحر ،
ويجاوره جوسق ، يتوصل اليه من بيعة القديس مرقوريوس ،
وتكثر به أشجار الكروم . وتوجد به جماعة من الرهبان (٦٢٦) .
وبعد دير طمويه أحد متنزهات مصر المشهورة ومواقع لهوها
المعروفة ، وخاصة حين يخضر الزرع ، وقد تغنى بدير طمويه كثير
من الشعراء ، فقال فيه ابن عاصم المصرى :

أقصرا من ملامى اليوم انى غير ذى سلوى ولا اقصار
فسقى الله دير طمويه ، غيثا بغواد موصولة بسنوار
واشرب بطمويه من صهباء صافية تزرى بخمر قرى هيت وعانات
على رياض من النوار زاهية تجرى الجداول فيها بين جنات
منازل كنت مشغوقا بها كلفا وكن قدما مواخيرى وخائلى
كانما النيل فى مر النسيم به مستلثم فى دروع سابريات
(٦٢٧)

وكان الوزير الأفضل بن أمير الجيوش — فى عهد الخليفة
الآمر بأحكام الله — يكثر من التردد على هذا الدير ، ويتخذ منزها
له . وقد أحاطه برعابته وعنايته ، فأنشأ بجواره بستانا كبيرا ،
غرس فيه جميع أنواع الأشجار والنخيل ، وحفر له الآبار وجعل
لها السواقي كما جعل حول البستان سورا عظيما (٦٢٨) .

أما دير شهران الذى جددہ بمين الراهب ، فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، فكان به جوسق كبير • وله أيضا بستان مساحته حوالى ستة أفدنة ، فيه أنواع مختلفة من الأشجار والنخيل • وكان الخليفة الحاكم بأمر الله ، يتردد عليه كثيرا ، ومنه يخرج الى الجبل ، ويسير فى البرية (٦٢٩) • والواقع أن مصر الإسلامية ، كانت حافلة بالأديرة المزودة بالبساتين الفسيحة ، الزاهرة ، المثمرة ، والمصايد الكبيرة ، والتى كانت من أهم متنزهات المصريين على اختلاف طبقاتهم ، ومعتقداتهم الدينية •

وأخيرا ، نشير الى العلاقة بين أهل الذمة وبين القضاة المسلمين والواقع أنه بالرغم من أن الذميين من القبط واليهود ، كانت لهم محاكمهم الكنسية الخاصة بهم ، والتى كانت تتكون عادة من رؤسائهم الدينيين ، فيفصلون بينهم فى المنازعات ، ومسائل الميراث والزواج وخلاف ذلك من القضايا • وبالرغم من ذلك ، كان يجوز للذى أن يلجأ الى القضاة المسلمين ؛ ولكن الكنائس لم تكن تنظر الى ذلك بعين الرضا (٦٣٠) •

ويبدو أن القضاة المسلمين ، فى العصور الإسلامية الاولى ، كانوا ينظرون فى خصومات أهل الذمة ، وقضاياهم فى منازلهم • فلما ولى القضاء خير بن نعيم سنة ٢١٥ هـ (٧٣٨ م) كان يقضى فى المسجد بين المسلمين • وبعد العصر يجلس على باب المسجد على المعارج ، ليقتضى بين الذميين سواء أكانوا من القبط أم اليهود (٦٣١) • أما القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر سنة ١٧٧ هـ ، فكان أول من أدخل أهل الذمة المسجد ليحكم بينهم وينظر فى قضاياهم (٦٣٢) •

ومهما كان الأمر ، فقد أجاز بعض الفقهاء ، تقليد النظمى القضاء بين أهل دينه • وهذا ان كان العرف به جاريا ، فهو تقليد زعامة

ورياسة ، وليس تقليد حكم وقضاء ، وانما يلزمهم حكمه ، لالتزامهم
نه ، واذا امتنعوا من التحاكم اليه ، لم يجبروا على ذلك ، فاذا رجعوا
الى قاضى المسلمين ، فانه يقضى بينهم بحكم المسلمين أو بمعنى آخر
سريعة الاسلام (٦٣٣) .

وهكذا نلمس من دراستنا ، لتاريخ أهل الذمة فى مصر
الاسلامية أن أهل الذمة لم يكونوا فى عزلة تامة عن المسلمين فى
المجتمع المصرى ، الذى صار بمرور الزمن أغلبيته من المسلمين ، بينما
صار أهل الذمة فيه يكونون طبقة اجتماعية قليلة العدد . ومع ذلك ،
كانت تسود بين المسلمين والذميين ، فى أغلب الأحيان ، علاقات
الود والسلام ، كما كانت تسود علاقات الصداقة والمودة ، بين
الحكام المسلمين ، وكبار الذميين فى البلاد المصرية فى مختلف
العصور الاسلامية . وسنرى أنه كان لأهل الذمة أيضا دور واضح
فى الحياة الاقتصادية فى مصر الاسلامية .

الهـنـوامـش

(١) Antoine Fatial : Le Statut Legal des non-Musulmans
en pays d'Islam, p. 72.

وعلى حسنى الخربوطلى . الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٢٦ . الاسلام
واهل الذمة ، ص ٦٥ .

• " حورجى زيدان . تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ١٥٣ .

(٢) انظر القواميس العربية .

(٣) الماوردى . الاحكام السلطانية . ص ١٢٧ . ابن الفراء . الاحكام
السلطانية ص ١٣٨ .

الشعرانى . الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ . ترتون . اهل الذمة فى الاسلام ،
ص ٤ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٢٩ .

(٥) ابن قيم الجوزية : احكام اهل الذمة ، ق ١ ، ص ٣ .

(٦) نفس المرجع ، ق ١ ، ص ١ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٢ . وقد اتفق الفقهاء والعلماء على أخذ الجزية
من اهل الكتاب - أى اليهود والنصارى - ومن المجوس ، ومن فى حكمهم .
ولكنهم اختلفوا فى معنى أخذ النبی عليه الصلاة والسلام الجزية من المجوس
فهل أخذها منهم ، لأن لهم كتاباً ؟ أم هناك معنى آخر لأخذها منهم ؟ فقال
مالك : « أخذت منهم الجزية لأنهم من العجم » وقال الشافعى . فكل من دان .

ودان آباؤه بنفسه وإن لم يدن آباؤه دين أهل الكتاب ، أى كتاب كان قبل دخول
الفرقان ، وخالف دين أهل الأوثان . وعلى الإمام إذا أعطاه الجزية وهو صاغر
أن يقبلها منه عربيا كان أو عجميا ، وهكذا لم يحدد الشافعى أهل الكتاب بالميهود
والنصارى فقط ، بل ذكر أى كتاب كان قبل ذلك غير التوراة والانجيل .

وبينما نرى الشافعى يذهب الى أخذ الجزية من المجوس لأنهم أهل كتب ،
نرى أبا حنيفة وأصحابه يؤيدون ما ذهب اليه مالك من أحد الجزية منهم لأنهم
عجم . ونحن نؤيد الرأى القائل بأنهم ليسوا بأهل كتاب ، ولو كانوا أهل كتاب
لجاء ذكرهم فى القرآن الكريم . قال تعالى : (إن يقولوا إنما أنزل الكتاب
على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين) وإنما اعتبرناهم أهل
ذمة ، يدفعون الجزية ، عملا بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام – ويقول
أبو عبيد : « خص النبى عرب أهل الكتاب بالجزية دون من لا كتاب لهم منهم ،
ثم لم يرض من سائرهم الا بالاسلام أو القتل ، وعم العجم من ذوى الكتاب ومن
لا كتاب له يقبل الجزية منهم وهم المجوس . انظر الشافعى : الأم ، ج ٤ ،
ص ٩٧ .

الطبرى : كتاب الجهاد ، وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف
الفقهاء ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ .

أبو عبيد : الأموال ، ص ٥٤٣ – ٥٤٤ . ابن قيم الجوزية . أحكام أهل
الذمة ، ق ١ ، ص ٢ .

(٨) أبو عبيد . الأموال ، ص ٥٤٥ – ٥٤٦ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٥٤٦ .

(١٠) الأحكام السلطانية ، ص ١٣٨ .

(١١) الخراج ، ص ١٢٢ .

(١٢) الماوردى . الأحكام السلطانية ، ص ١٢٧ ، ابن القراء . الأحكام
السلطانية ، ص ١٣٧ .

(١٣) أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢ – ٢٣ .

(١٤) تعددت الأقوال بشأن المعنى المقصود من « عن يد وهم صاغرون » ،
منها أن أهل الذمة يعطون الجزية وهم أذلاء مقهودون . ومنها أنهم يعطون
الجزية من يد الى يد نقدا غير نسيئة . وقال آخرون . من يد الذمى الى يد

الأخذ لها بأعنا بها ولا موئلا في دفعها . ومنها أن معاشها على انعام منكم عليهم ، بأقراركم لهم وبالقبول منهم . وقيل عن قدرة على أدائها ، فلا تؤخذ من عاجز عنها . وقول آخر ، أن يدفعها الذمى وهو قائم ويكون الأخذ لها جالسا ، أو أن يأتي بها بنفسه ماشيا لا راكبا ، ويطال وقوفه عند اتيانه بها ويجر الى الموضع الذى تؤخذ فيه بالعنف ، ثم تجريده ويمتنع - ونرى أن هذا كله لا يوجد دليل عليه ، ولا هو مقتضى الآية ، ولا نقل عن الرسول ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك . وهكذا كان موقف البعض شديدا من أهل الذمة . ويبالغ فى اذلالهم وامتهانهم فى الوقت الذى كان الاسلام يدعو فيه الى المعاملة الحسنة ، عملا بسياسة النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة من بعده ، ورقة الخلفاء الراشدين بهم .

ويرى البعض أن الجزية ليست اجرة عن سكنى الدار ، لأنها لو كانت اجرة لوجب على النساء والصبيان والزمنى والعميان ، ولو كانت اجرة لدفعها بنو تغلب وغيرهم والتزموا بضعف ما يؤخذ من المسلمين من زكاة اموالهم . ولو كانت اجرة لكانت مقدرة بالمدة كسائر الاجارات ولو كانت اجرة لما وجبت بوصف الاصغار والاذلال ، ولكانت مقدرة بحسب المنفعة . فان سكنى الدار قد تساوى فى السنة أضعاف الجزية المقدرة ، وكان الواجب فيها ما يتفق عليه المؤجر والمستأجر . انظر ابن قيم الجوزية . أحكام أهل الذمة ، ق ١ - ص ٢٢ - ٢٦ . ابن الدريهم . منهج الصواب فى قبج استكتاب أهل الكتاب . ورقة ٢٧ ، ب .

(١٤) . ابو يوسف : الخراج ، ص ١٢٢ . ويقول . « انما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان . . . ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من أعمى ولا حرفه له ولا عمل ولا من ذمى يتصدق عليه ولا من مقعد ، والمقعد والزمن اذا كان لهما يسار أخذ منهما ، وكذلك الأعمى ، وكذلك المترهبون الذين فى الديارات ، اذا كان لهم يسار ، أخذ منهم وان كانوا انما هم مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم ، لم يؤخذ منهم . وكذلك أهل الصوامع ان كان لهم غنى ويسار ، ويقول الماوردى فى الاحكام السلطانية ، ص ١٣٩ : « لا تجب الجزية الا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ، ولا مجنون ولا عبد ، لأنهم أتباع وذرائع . ولو تفردت منهم امرأة على أن تكون تبعا لزوج أو نسيب لم تؤخذ منها جزية لأنها تبع رجال قومها . . . ولا تؤخذ الجزية من خنثى مشكل » ويقول الشعرائى فى الميزان . ح ٢

ص ١٤٠ - « واتفقوا على أن الجزية لا تضرب على نساء أهل الكتاب مطلقا ، ولا على صبيانهم حتى يبلغوا ، ولا على عبيدهم ، ولا على مجنون وأعمى وشيخ فأن ، ولا على أهل الصوامع » . انظر أيضا الشافعي : الأم ج ٤ ، ص ٩٨ . الطبري : كتاب الجهاد وكتاب الجرية ، ص ٢٠٤ - ٢٠٨ . أبو عبيد : الأموال ، ج ٤٥ . ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٩ . والنهية ج ٣ ، ص ٩٦ .

(١٦) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٢٦ . أبو عبيد : الأموال ، ص ٤١ ، ويقول : « أن الجزية والخراج على قدر الطاقة من أهل الذمة بلا حمل عليهم ولا اضرار بغير المسلمين ، ليس فيه حد مؤقت . ألا ترى أن رسول الله إنما كان فرضه على اليمن ديناراً ، على كل حالم وقيمة الدينار آنذاك ، عشرة أو اثنا عشر درهما . فهذا دون ما فرض عمر بن الخطاب على أهل الشام . وأهل العراق ٠٠٠ إنما زاد عليهم بقدر يسارهم وطاقتهم » كما أن الجزية من مصر يختلف مقدارها عنها في هذه البلاد ، بل يختلف مقدارها من عصر إلى آخر كما سنرى في الباب الثالث .

(١٧) الشافعي : الأم ، ج ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٢ . ويقول : « الدينار أقل ما يقبل من أهل الذمة » كما يقول : « فإن بدل أهل الذمة أكثر من دينار ، بالغ ما بلغ ، كان الازدیاد أحب إلى ، ولم يحرم على الامام مما زاده شيء » . بينما يقول مالك : « لا أرى أن يزداد عليهم ، ولا يؤخذ منهم الا ما فرضه عمر ابن الخطاب ، لأنه خطب الناس ، فقال : قد فرضت لكم الفرائض ، وسننت لكم السنن ، وتركتم على الواضحة » انظر أيضا ، الطبري : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٠٨ . والماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٩ .

(١٨) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٢٢ - ١٢٤ . ويشير إلى أن المومنين مثل الصيرفي والبزار ، وصاحب الضيعة ، والتاجر والمعالج الطبيب ، وكل من كان منهم بيده صناعة أو تجارة يحترف بها . أما الطبقة الثالثة فهم العمال الذين يعملون بأيديهم ، مثل الخياطين والصياغين ، والاسكافيين والجزارين . ومما لا شك فيه أن متوسط الحال هو في حالة وسط بين هاتين الطبقتين . انظر أيضا : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٦ - ٢٧ . ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٩ . الشعرائي : الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ . الابشيهي : المستطرف ، في كل فن مستطرف ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(١٩) ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٢٩ . وقد روى عن علي بن أبي طالب أنه كان يأخذ الجزية « من كل ذي صنع . من صاحب الأبرأيزا ، ومن صاحب المسان مسان ، ومن صاحب الحبال حبالا ، ثم يدعو العرفاء فيعطيههم الذهب والفضة فيقتسموه تم يقول . خذوا هذا فاقسموه ، فيقولون : لا حاجة لنا فيه . فيقول أخذتم خياره وتركتم على سرازه لنحملنه . » وهكذا كان علي بن أبي طالب يرفق بأهل الذمة ، ويأخذ الجزية مما هو موجود لديهم دون ارغام أو ارهاق . انظر . أبو عبيد : الأموال ، ص ٤٤ .

(٢٠) الخراج ، ص ١٢٣ . بينما يقول ابن قيم الجوزية (ق ١ ، ص ٢٤) « ولا يحل تكليفهم مالا يتدرون عليه ، ولا تعذيبهم على أدائه . ولا حبسهم ولا ضربهم » هذا بينما يذهب أبو يوسف الى حبسهم حتى يؤدوا الجزية ، يرفض ذلك ابن قيم الجوزية . كما تشير روايات كل منهما .

(٢١) أبو يوسف . الخراج ، ص ١٢٥ .

(٢٢) أبو يوسف . الخراج ، ص ١٢٥ .

(٢٣) نفس المصدر ، ص ١٢٥ . ويذكر أنه عندما كان عمر بن الخطاب راجعا من الشام ، مر في طريقه ، يقوم يعذبون في الشمس ويصب فوق رؤوسهم الزيت . فسأل عن أمرهم . فقيل له ، أنهم لم يؤدوا الجزية ، فهم يعذبون حتى يوفوا بما عليهم . فسأل عن حججهم في ذلك ، فاجابوه بأن ليس لديهم ما يدفعون عنه جزية رؤوسهم . فأمر باطلاقهم وعدم تعذيبهم ، قائلا : اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لا تعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس في الدنيا ، يعذبهم الله يوم القيامة » .

(٢٤) نفس المصدر ، ص ١٢٦ . مر هذا الخليفة يوما ، بشيخ ضرير يسأل حاجة ، وعلم أنه ذمي ، فأمر صاحب بيت المال ، بإعطائه شيئا من الصدقة . وقال : « انما الصدقات للفقراء والمساكين » يعنى بالفقراء المسلمين ، أما المساكين فهم المحتاجين من أهل الذمة . وأمر بوضع الجزية عن هذا الشيخ وأمثاله . وكان سميّه عمر بن عبد العزيز يفعل مثل ذلك . فكتب الى عامله على البصرة « انظر من قبلك من أهل الذمة ، قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه » انظر ، أبو عبيد : الأموال ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢٥) تورتون : أهل النمة في الاسلام ، ص ١٣٥ . على حسنى الخربوطلى
الاسلام وأهل النمة ، ص ٧١ - ٧٢ . فقد بعث عمر بن الخطاب عماله لجباية
خراج العراق فختموا رقاب النميين ، كما بعث الى عمرو بن العاص في مصر بختم
رقابهم عند جباية جزية رؤوسهم .

(٢٦) الخراج ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢٧) تورتون : أهل النمة في الاسلام . ص ١٢٢ . على حسنى الخربوطلى .
الاسلام وأهل النمة ، ص ٧٢ .

(٢٨) الشعرانى : الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٦ . ابن قيم الجوزية . أحكام أهل
النمة ، ق ١ ، ص ٣٩ .

ويقول : « واختلف أصحاب الشافعى ، فقال بعضهم .
تجب بأول السنة دفعة واحدة ولكن تستقر جزءا بعد جزء ، وقال
بعضهم : معنى اضافة الوجوب الى أول السنة ، انبساطه على جميع الاوقات .
لا أنها تجب دفعة واحدة بأول السنة ، وبنوا على ذلك الأخذ بالقسط اذا أسلم
أو مات أو جن . وقال بعضهم : انما يدخل وقت وجوبها عند انقضاء السنة » .
انظر . المصدر الأخير ، ص ٤٢ ٩

(٢٩) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل النمة ، ق ١ ، ص ٣٩ .

(٣٠) أبو عبيد . الأموال ، ص ٤٧ . ويقول في تأويل هذا الحديث ، ان النمة
إذا أسلم في آخر السنة سقطت عنه الجزية ، لأن المسلم لا يؤدي الجزية .
ولا تكون ديناً عليه ، كما لا تؤخذ منه بعد الاسلام . وقد روى عن عمر بن الخطاب
وعلى بن أبى طالب ، وعمر بن عبد العزيز ، ما يقوى هذا المعنى .

(٣١) الطبرى : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢١١ .

(٣٢) الآية ٣٨ .

(٣٣) تذكر بعض المصادر التاريخية أن رجلاً من الأعاجم أتى عمر بن الخطاب
وقد أسلم وكانت تؤخذ منه الجزية وشكا له ذلك ، فرقع عنه الجزية .

كما أسلم أحد النميين على عهد على بن أبى طالب ، فقال على له : « ان
أقمت في أرضك ، رفعنا عنك جزية رأسك ، وأخذناها من أرضك ، وان تحولت
عنا فنحن أحق بها » .

وكتب عمر بن عبد العزيز : « من شهد شهادتنا ، واستقبل قبلتنا ، واختتن ،
فلا تأخذوا منه جزية » ، انظر : أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٨ . ابن قيم الجوزية .
أحكام أهل النمة ، ق ١ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣٤) أبو عبيد : الأموال ، ص ٤٨ . كان الحجاج بن يوسف التتغى اول من ابقى الجزية على من اسلم من اهل الذمة ، فقد لاحظ اسلام الكثير منهم وانتقالهم الى المدن ، لذلك أمر بعدم اعفائهم من الجزية واجبارهم على العودة الى قراهم .
انظر ، على حسنى الخربوطلى . الاسلام واهل الذمة ، ص ٧٤ .

(٣٥) احكام اهل الذمة ، ق ١ ، ص ٥٧ .

(٣٦) سورة التوبة ، الآية ١٠ .

(٣٧) عبد الله بن عبد الحكم . سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٧٨ .

(٣٨) الشافعى . الام ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

(٤٢) ابن قيم الجوزية : احكام اهل الذمة ، ق ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٤٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٨١ ، أبو عبيد : الأموال

ص ٤٩ .

(٤١) أبو عبيد . الأموال ، ص ٤٩ .

(٤٢) ابن قيم الجوزية . احكام اهل الذمة ، ق ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٦١ .

(٤٤) الطبرى . كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢١١ . وقد منع عمر بن الخطاب اخذ الجزية من الخمر والخنزير وقال له بلال « ان عمالك ياخذون الخمر والخنزير فى الخراج » فقال : لا تأخذوا منهم ، ولكن ولوهم بيعها ، وخذوا ائتم من الثمن » ويعنى ذلك ان المسلمين كانوا ياخذون من اهل الذمة الخمر والخنزير فى جزية رؤوسهم وخراج أرضهم . فهذا ما انكره بلال ، ونهى عنه عمر بن الخطاب ، ثم رخص لهم ان ياخذوا ذلك من ائمانها ، اذا كان اهل الذمة المتولين لبيعها ، لأن الخمر والخنزير من أموال اهل الذمة ، ولا تكون من أموال المسلمين . انظر ، أبو عبيد : الأموال ، ص ٥٠ .

(٤٥) جعل عمر بن الخطاب ضيافة نصارى الشام للمسلمين ثلاثة ايام مما ياكلون ، ولا يكلفونهم ذبح شاه أو دجاجة ، بينما جعل ضيافة اهل السواد بالعراق للمسلمين ، يوما وليلة وأن يصلحوا لهم القناطر . وقيل انه اشتد على اهل الذمة ضيافة المسلمين يوما وليلة ، فاذا حبسهم مطر أو مرض قيومان ، فاذا اقاموا اكثر من ذلك ، انفقوا من أموالهم .

انظر ، ابن الفراء الأحكام السلطانية ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

ابو عبيد . الأموال ، ص ٣٩ .

(٤٦) الطبرى . كتاب الجهاد وكتاب الجزية . ص ٢١٤ . ويقول الشافعى
ولا اجد احد الدين وصلوا الصلح عليها باعيتهم لانهم قد ماتوا كلهم . هـ
قوم من اهل الذمة اليوم ، اقروا ، أو قامت على اسلامهم بيعة بأن صلحهم كان
على ضيافة المسلمين ضيافة معلومة وانهم رضوها . . انظر نفس المصدر
والصفحة .

(٤٧) ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها . ص ٦٤ .

(٤٨) ابن الرفعة . الرتبة فى الحسبة ، ورقة ٢٣ ب . الشيرازى . نهاية

الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٧ .

(٤٩) ترتون . اهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٥١ .

(٥٠) ترتون . اهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٥١) الأحكام السلطانية ، ص ١٤١ . ويرى فى قوله تعالى (تسالهم

خرجا) وجهين . الاول اجرا والثانى مفعلا . وفى قوله (فخراج ربك خير)
رأيان أيضا : أحدهما فرزق ربك فى الدنيا خير منه والثانى فاجر ربك فى الآخرة
خير منه .

(٥٢) م.١ ج ٧ . ص ٢٢٠ . ويقول ابن قيم الجوزية - ق ١ . ص ١٠٠ -

ان الخراج ذو ضريبة الارض .

ويقول أبو عبيد - الأموال ، ص ٧٣ . « معنى الخراج فى كلام العرب ، انما
هو الكراء والغلة . الا تراهم يسمون غلة الأرض والدار والمملوك خراجا ومن
حديث النبى صلى الله عليه وسلم : « أنه قضى أن الخراج بالضمان » .

(٥٣) الماوردى . الأحكام السلطانية ، ص ١٣٧ .

(٥٤) ابن قيم الجوزية : أحكام اهل الذمة . ق ١ ، ص ١٠٠ .

(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٧ .

(٥٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ - ١٤٩ .

(٥٧) ابن قيم الجوزية . أحكام اهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥٨) الأحكام السلطانية ، ص ١٤٢ . والقفيز يساوى ثمانية اربطال وثمان

ثلاثة دراهم يوزن المثقال .

ويجدر بنا الإشارة الى حديث النبي عليه الصلاة والسلام . « منعت العراق درهما وقفيزها ومنعت الشام دينارها ومديدها ، ومنعت مصر دينارها وارتديها ، وعدتم كما بدأت » وتري أنه في ذلك حدد موازين ومكاييل كل من هذه البلاد . انظر ، أبو عبيد : الأموال ، ص ٧١ .

ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١١٣ .

(٥٩) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ . ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٥١ . وطرق الري ووسائله مخرجه منها « ما يروى بغير آلة من الأنهار والعيون » ، ٢ - ما يروى من نواضح ودوالي ، ٣ - ما يروى عن طريق المطر والثلج ويسمى القذى ، ٤ - ومنها ما سقته الأرض بنداوتها ، وما أسكن من الماء قرارها فشرب زرعها ويسمى البعل . أما الفيل فهو ما شرب من القناة . وهذه كلها أمور تجب مراعاتها عند تقدير الخراج .

(٦٠) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٤ .

(٦١) نفس المصدر ، ص ١٤٤ . ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٥٢ . بينما يجعل ابن قيم الجوزية ، ق ١ ، ص ١١٦ ، الخراج على أساسين . أما على مساحة الأرض وأما على الزرع . وفي الحالة الأولى يكون الخراج بالسنة الهلالية وفي الحالة الثانية يكون على أساس تمام الزرع .

(٦٢) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٦٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ - ١٤٧ . ابن قيم الجوزية

أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١١٨ .

(٦٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ - ابن الفراء . الأحكام

السلطانية ، ص ١٥٤ .

ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١١٩ .

(٦٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ . ابن قيم الجوزية : أحكام

أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٢٠ .

(٦٦) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ . ابن قيم الجوزية :

أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٦٧) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٧ . ابن الفراء . الأحكام

السلطانية ، ص ١٥٧ .

(٦٨) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٧ . ابن الفراء : الأحكام

السلطانية ، ص ١٥٧ .

أهل الذمة ج ١ - ٤٨١

والجريب عشر قصبات فى عشر نصبات ، والقليز عشر قصبات فى قصبة
والعشير قصبة فى قصبة والقصبة ست أذرع ، فليكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة
ذراع . والعفيز ثلاثمائة وستون ذراع ، والعشير ست وثلاثون ذراعا . وكان
هناك سبع أذرع أقصرها القاضية ثم اليوسفية ثم السوداء ثم الهاشمية الصغرى
وهى البلالية ثم الهاشمية الكبرى ثم العامرية ثم الميزانية . أما القاضية
فقد وضعها ابن أبى ليلى القاضى . واليوسفية نسبة الى أبى يوسف القاضى ، أما
السوداء فقد وضعها الرشيد والهاشمية الصغرى بلال بن أبى بردة ، والهاشمية
الكبرى المنصور ، أما الذراع العمرية فهى ذراع عمر بن الخطاب ، والذراع
الميزانية وضعها المأمون . انظر الماوردى . الأحكام السلطانية ، ص ١٤٨ -
١٥١ .

- (٦٩) الأموال ، ص ٧٦ .
- (٧٠) نفس المصدر ، ص ٧٧ .
- (٧١) الطبرى : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٧٧ .
- (٧٢) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٣٥ . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل
الذمة ، ق ١ ، ص ١٥٥ .
- (٧٣) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٦٢ .
- (٧٤) نفس المصدر ، ص ١٦٢ .
- (٧٥) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ص ١٧٥ .
- (٧٦) الشافعى : الأم ، ج ٤ ، ص ٩٩ .
- (٧٧) الخراج ، ص ١٣٨ .
- (٧٨) أبو عبيد : الأموال ، ص ٩٤ .
- (٧٩) ابن الدريهم : منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة
١٤٥ ابن زبير القاضى : شروط النصارى ، ورقة ١ .
- (٨٠) ابن الدريهم : منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة
١٤٥ ، ب .
- الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف ، ج ١ ، ص ١١٢ .
- (٨١) الشعرائى : الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .
- (٨٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ . ابن قيم
الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ ، ٦٨٩ - ٦٩٢ ويقول بشأن
الأماكن المقدسة عند اليهود والنصارى : أما الدير فللنصارى خاصة - بيتونه

للمرهبان خارج البلد يجتمعون فيه للرهبانية والتفرد عن الناس . أما القلاية
 هيبيها رهبانها مرتفعة كالمنازة والفرق بينها وبين الدير أن الدير يجتمعون فيه
 والقلاية لا تكون الا لواحد ينفرد فيها بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها طاقه
 يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج اليه . أما الصومعة فهي كالقلاية تكون
 للراهب وحده . ويرى البعض أن القلاية تكون منقطعة في خلاة من الأرض
 والصومعة تكون على الطريق . أما البيع فجمع بيعة وهي متعبد النصارى .
 وأما الكنائس فجمع كنيسة وهي لأهل الكتابين - اليهود والنصارى - وللإهود
 خاصة الفهر ، ومفردها فهر ، وتعنى بيت المدارس الذى يتدارسون فيه العلم . ومن
 أقوال مالك بن أنس المشهورة « كانوا اليهود حين خرجوا من نهرهم » وحكم هذه
 الأماكن جميعها فى الاسلام هو حكم الكنائس . انظر ، ابن قيم الجوزية ،
 احكام اهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٦٦٨ - ٦٦٩ .

(٨٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٤٩ .

(٨٤) Chronique de Jean, p. 455 . الطبرى تاريخ الامم والملوك ، ج ٢ ،

ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

أبو المتحسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ . تحصيل الاستيفاء
 فى مغازى المصطفى ، ورقة ١٠٩ ، ب - القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ،
 ص ٣٢٤ .

(٨٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٥٠ .

المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

سيدة كاشف / مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٩٢ .

ترتوتون : اهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤٥ .

Marcel : Egypte depuis la Conquete, p. 286.

(٨٦) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٩٢ .

(٨٧) أبو صالح الأرمنى ، ص ٣٠ .

(٨٨) ترتوتون : اهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤٥ .

(٨٩) أبو صالح الأرمنى ، ص ٦٧ .

(٩٠) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤١ .

Chronique de Michel, Vol. 2, fasc. 3, p. 476.

(٩١) ابن بطريق . التاريخ المجموع ، ص ٤١ .
أبو صالح الأرمني ، ص ٦٧ . ويقول انه اكراما لهؤلاء الملكانيين القائمين
على خدمته ، اذن لاساقفتهم ببناء كنيسة أخرى .
Memoires géographiques et historiques . ., T. I., p. 25. (٩٢)

(٩٣) الكندي . الولاة والقضاة ، ص ٧٧ . أبو صالح الأرمني ، ص ٣٨ .
ويسميه صاحب الأكاليل الثلاثة النازلة له من السماء وهو من أهل نقيوس . انظر
أيضا ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦٥ . ويسميه كنيسة
يوحنا ولعله يقصد كنيسة أبى يحنس التي جددت في ذلك الوقت أيضا .

(٩٤) وهو الصوم الكبير عند القبط ، ويكون في الأيام الخمسة والخمسين
السابقة لعيد الفصح . وقد سمي بصوم الأربعين ، لأن مدة هذا الصيام ينقص
عددها الى أربعين يوما فقط اذا استثنينا أيام الاحاد والسبت من كل اسبوع .
وهي الأيام التي لا يجوز للقبط الصيام فيها . انظر :
Aulefage : Les Coptes, pp. 29, 30.

(٩٥) أبو صالح الأرمني ، ص ٣٨ - ٣٩ . ويقول : « في هذا الصنع
جماعة من رؤساء النصارى ، ففسح لهم في تجديد كنائسهم فابتدروا بعمارة
الحمراء ، وتجديد ما هدم منها ، فجددوا البيعة وعملوا لهم أوانى حسنة من
الفضة وغيرها . وابتاعوا عدة أملاك ، ويستأنوا ، وفيه بثرا سائفة وكان جميع
ذلك مسكونا - وبه مغطس كبير ، رجدد في علوها كنائس عدة » .

وفي هذا الوقت أيضا شيد دمسيسوس Damisius وهو من أهل كورة
انصنا بمصر العليا - ديرا كبيرا في الجبال . وكان صيادا يعمل في النبال .
ويتم قانون الرهبنة . انظر ، ترتون : أهل الزمة في الاسلام ، ص ٤٨ - ٤٩ .
(٩٦) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٣١ .

المقريزي : الخطط : ج ٢ ، ص ٩٥ ، ج ٤ ، ص ٣٩٦ . ابن على الاسحاقى :
اخبار الاول فيمن تعرف في مصر من ارباب الدول ، ص ١٥٨ .
(٩٧) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٣٢ . المقريزي : الخطط ، ج ٢ ،
ص ٩٥ ، ج ٤ ، ص ٣٩٦ .

ابن على الاسحاقى : اخبار الاول فيمن تعرف في مصر من ارباب الدول ،
ص ١٥٨ .

(٩٨) بناها والى مصر حاتم بن هرثمة (١٩٤ - ١٩٥ هـ) فوق سفح المقطم ليقيم فيها ، وموضعها الآن القلعة الحالية تقريبا . انظر : سيدة كاشف مصر قى فجر الاسلام ، حاشية ، ص ١٩٢ .

(٩٩) ابن بطريق . التاريخ المجموع ، ص ٥٨ . أبو صالح ، ص ٦٦ .

(١٠٠) ابن بطريق . التاريخ المجموع ، ص ٥٨ .

(١٠١) ابن المقفع . سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٧ ، ص ٣٥٤ . ابن زبير القاضي : شروط النصراني ، ورقة ١٣ .

ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(١٠٢) أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٥٤ .

(١٠٣) ابن بطريق . التاريخ المجموع ، ص ٨٢ .

(١٠٤) ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، من القسم الخاص بمصر ، ص ١٨٣ .

(١٠٥) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، آدم مئز .

الحضارة الاسلامية . ج ١ ، ص ٧٤ .

(١٠٦) نفس المصدر ، ص ١٨٣ - ١٨٤ . ويذكر ابن سعيد أن الاخشيذ قد عهد الى أبى بكر بن الحداد الفقيه بتعيين حال الكنيسة . وقد منحب الأخير معه المهندس على بن عبد الله البواش وبعد أن طافا بجميع أجزاء الكنيسة قرر ابن عبد الله البواش بقاء الكنيسة وقال : « تبقى كذلك خمسة عشر عاما ثم يسقط منها موضع . ثم تقيم الى تمام أربعين سنة ، وتسقط جميعها ، وأعلم ابن الحداد ، الأمير الاخشيذ بذلك فأمر بترك الكنيسة على حالها . تكلمنا »

(١٠٧) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٦ . ويسميا أبو صالح بيعة مرقوريوس ، ويذكر أن هذا الخليفة هو العزيز بالله ، وليس والده المعتز ، ونحن نرى أن الرواية الاولى اقرب الى الصديق لمعاصرة المصدر وقزبه من الأحداث . تاريخ أبو صالح ، ص ٥٤ - ٤٩ . وكان السبب فى سماح الخليفة للبطرك بهذا البناء هو أنه أراد اختبار اعتقاد القبط بإيحاء من اليهود فخرج ومعه جميع المسلمين واليهود ، وعلى رأسهم يعقوب بن كلس وصديقه موسى الى جبل المقطم فصلى المسلمون وكبروا ، فلم تظهر لهم آية وكذلك اليهود . ثم

تقدم البطرك أنبا ابراهيم وجميع الشعب الأرثوذكسي فدعوا الى الله ، وصلوا ورفعوا البخور وامتفوا « كيريا ليصون » ثلاث مرات . فتحرك الجبل . وخاف المعز والمسلمون وقالوا : الله أكبر لا إله غيرك وقال المعز للبطرك بعد أن شاهد ذلك ثلاث مرات حسبك يا بطرك ، قد عرفت صحة دينكم ، وسأله عما يتمناه ويطلب منه فسأله البطرك في السماء له ببناء الكنائس فكان ذلك .

انظر ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٤ - ٩٦ .
أبو صالح : ص ٤٤ - ٤٥ .

(١٠٨) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٧ . أبو صالح ص ٤٥ - ٤٦ ، ٤٧ .

ويقول ابن المقفع ، انه لما اعترض أحد المسلمين عند بناء الكنيسة في حضور المعز ، أمر الخليفة برمي الحجارة عليه ، والبناء فوقه . وعلى ذلك لم يجرؤ أحد على اعتراض البناء بعد ذلك .

O'Leary : A short history of the Fatimid Khalifate, (١٠٩)
p. 116

(١١٠) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٣٢ .
المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ . وذكر أبو صالح كثيرا من البيع والأديرة التي أصابها الهدم والتخريب في ذلك العصر ، تذكر منها في بلاد الصعيد بيعة القديس أنبا يخوم وفي كورة الأشمونين بيعة السيدة مريم التي حولها الى مسجد للمسلمين . ودير القصير وما به من كنائس . انظر ، ص ٦٣ ، ٩٦ ، ١٣١ .
ويقول ابن سعيد الانطاكي ، ص ١٩٧ ، ان دير القصير كان للملكانيين . وقد أمر الحاكم بهدمه في سنة ٤٠٠ هـ . وكان يقيم فيه البطرك الملكاني أرسانيوس ، فأخرج منه وقتل ، كما طرد من هذا الدير جميع من كان فيه من الرهبان ، ونشبت قبور الموتى به ، وأخذ ما فيها من توابيت خشب وتركت الجثث ملقاة على الأرض . وفي ذلك الوقت أيضا هدمت كنيسة مريم الشهيرة بكنيسة العجوز بدمياط . وكانت للملكانيين أيضا . وصارت خرابا ، واستولى المسلمون على آلاتها وسائر أوقافها .

(١١١) ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٧ : ابن سعيد الانطاكي ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ . ومن البيع والأديرة التي أذن لهم الحاكم بإعادة بنائها ، دير القصير ، الذي رتب الباسا له - بعد ذلك ، ستة عشر فدانا وفقا عليه . ومن الأديرة التي شيدت في هذا العصر دير شهران . انظر :

أبو صالح ، ٦٣ ، ٦٥ . ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(١١٢) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

(١١٣) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(١١٤) George Solimon : Un texte Arabe Inédit pour servir à l'histoire des Ghétein d'Egypte, p. 16.

وعلى أبو السرور السماح له ببناء هذه الكنيسة لان زوجته وأولاده ، كانوا يتعرضون لشتائم أطفال المسلمين وعوامهم ، عند خروجهم فى الأعياد الى الكنائس فرأى أن يجنبهم ذلك ببناء كنيسة بالقرب من داره التى يقيم فيها . فأجابه المستنصر الى ذلك وقال له : « خذ خط الحكام ، وتعال الى أكتب خطى ، فوق خط الحكام ، وكل من تعرض لك قطعت رقبتة » وتم ذلك وبنى الوزير كنيسة فاراد المستنصر هدم أحدهما ، ولكن أبو السعود توفى قبل أن يتم ذلك ، فأبقى الخليفة عليهما .
أنظر نفس المصدر ، ص ١٦ - ١٨ .

(١١٥) أبو صالح الأرمنى ، ص ٥٤ .

(١١٦) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

(١١٧) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(١١٨) أبو صالح الأرمنى ، ص ٩٥ . ويشير أيضا الى بيعة القديس مارى سابا الاسكندراني التى اهتم بتجديدها ، الشيخ أبو البركات يوحنا بن أبى الليث فى خلافة الامر ، والذي كان يتولى ديوان التحقيق . نفس المصدر ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(١١٩) أبو صالح الأرمنى ، ص ٦١ - ٦٢ .

Meinardus : Christian Egypt, pp. 401-402.

(١٢٠) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(١٢١) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ - ٣٦١ . وهذه الكنائس هى كنيسة دموة بالجيزة ، كنيسة جوجر بالغربية وكنيسة المصاصة - بالفسطاط وكنيسة الشاميين والعراقيين بقصر الشمع وبالقاهرة فى باب زويلة خمس كنائس وبحارة الجودرية كنيسة أحرقتها الحاكم بأمر الله .

(١٢٢) Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 34.

(١٢٣) أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ .

(١٢٤) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ .
(١٢٥) نفس المصدر ، ص ٧٠٥ . القلقشندي . صبح الأعشى ، ج ١٣
ص ٣٦٤ .

(١٢٦) الطبري : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٣٦ .
(١٢٧) ويرى بعض الفقهاء والعلماء انه يوجد بين احاديث رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - ما يشير الى ضرورة الخيار بمعنى أن يكون لباس الذمي مغايرا
ومخالفا للباس المسلمين . واعتبر هؤلاء الحديث الذي يدعو الى ذلك ، هو
قوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله ،
لا يشرك به ، وجعل الذل والصغار على من يخالف أمري ومن تشبه بقوم فهو
منهم » .

واعتبر هؤلاء قوله عليه الصلاة والسلام : « وجعل الذل والصغار على من
خالف أمري » موجبة لاذلالهم بتغيير لباسهم عن لباس المسلمين ، ويستدلون
على ذلك بقوله : « ومن تشبه بقوم فهو منهم » وكانت هذه هي حجة من يقول
ان الزام أهل الذمة بمخالفة المسلمين في لباسهم سنة من سنن رسول الله .
انظر . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٣٥ - ٧٣٦ .

(١٢٨) الخراج ، ص ١٢٧ . ويقول أبو حنيفة وأصحابه . « ينبغي ألا يترك
أحد من أهل الذمة يتشبه في لباسه ولا مركبه ولا في هيئته بالمسلمين . وينبغي
ان يؤخذوا حتى يجعل كل انسان في وسطه كستيجا مثل الخيط الغليظ يعقده
على وسطه . وان يؤخذوا بأن يلبسوا ، قلانس مضرية . وان يركبوا بسروج
على قربوس السرج مثل الرمانة . وأن يجعلوا شرك نعالهم مثنية ، ولا يحذوها
على حذو المسلمين ، ولا يلبسوا طيالة مثل طيالة المسلمين ولا أردية مثل
أرديتهم » .

انظر : الطبري : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٤٠ .
والأردية هي زي العرب قديما ، وقد لبسها رسول الله والصحابة من بعده
والمسلمون .

انظر : ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٥٢ .
أما الكستيج فيسمى أيضا كستجة وهي كلمة فارسية الأصل ، والمقصود
بها ، ما يسمى في اللغة العربية بالمنطق . انظر ، ترتون : أهل الذمة في الاسلام ،
ص ١٣٤ - ١٣٥ ، حاشية ص ١٣٤ .

- (١٢٩) الطرطوشي . سراج الملوك ، ص ٢٥٦ . ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة ق ٢ ، ص ٧٣٩ .
- ويقول ان العمائم لباس العرب قديما ، ولباس الرسول والصحابة من بعده ، فهي لباس الاسلام .
- (١٣٠) الشيرازي . نهاية الرتبة في طلبه الحسبة ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
- القلقشندي . صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٣ .
- (١٣١) الشيرازي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٦ . النهاية ، ج ٣ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
- القلقشندي . صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٤ .
- Antoine Fattal : La statut legal des non-Musulmans en pays d'Islam, p. 111.
- (١٣٢) رتون . أهل الذمة في الاسلام ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- (١٣٣) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .
- ابن الدريهم . منهج الصواب في قبج استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ٣٥ ب .
- وكان عليهم أيضا أن يجعلوا للمسلمين صدر المجالس ، وصدر الطريق .
- انظر : القلقشندي . صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٤ .
- (١٣٤) ابن الدريهم : منهج الصواب في قبج استكتاب أهل الكتاب . ورقة ٣٦ ب .
- (١٣٥) نفس المصدر ، ورقة ١٠ ب ، ١١ ب .
- (١٣٦) انظر : ابن الدريهم : منهج الصواب في قبج استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ١٢ ب ، ١٤ ب ، ١٨ ب . ابن النقاش : المذمة في استعمال أهل الذمة ، ورقة ٧٩ ، ٨٠ .
- ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ق ٢ ، ص ٦٢٩ .
- (١٣٧) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
- ابن النقاش : الذمة في استعمال أهل الذمة ، ورقة ٨٠ . ابن الدريهم : منهج الصواب ، ورقة ٣٤ ب .
- ويروى أن الرسول لما خرج الى بدر ، لحق به رجل من المشركين ، وأراد مشاركتهم في القتال ، فرفض الرسول وقال له : تؤمن بالله ورسوله . فرفض .

فقال له الرسول ارجع فلن أستعين بمشارك . وتكرر هذا الموقف بينهما ثلاث مرات وانتهى بإسلام الرجل المذكور .

(١٣٨) ابن النفاش : المذمة فى استعمال أهل الذمة ، ورقة ٨٢ .

ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة : ق ١ ، ص ٢١١ .

(١٣٩) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٤ .

(١٤٠) نفس المصدر ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(١٤١) مالك بن أنس : الموطأ ، ج ٢ ، ص ٥٤٠ - ٥٤١ .

(١٤٢) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة : ق ٢ ، ص ٤٤٢ ، مالك بن

أنس : الموطأ ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

ويذكر أنه قد حدث فى خلافة عمر بن الخطاب أن محمد بن الأشعث كان له عمة من الذميات ، توفيت ، فسال الخليفة عن يرثها ، فأجابه بأنه لا يرثها سوى أهل دينها . وكذلك كان رأى عثمان بن عفان .

(١٤٣) محمد بن عبد الرحمن الدمشقى . رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة ،

حاشية ، ص ١١٥ .

مالك بن أنس . الموطأ ، ج ٢ ، ص ٨٦٤ . آدم متز : الحضارة الاسلامية ،

ج ١ ، ص ٦٩ .

(١٤٤) محمد بن عبد الرحمن الدمشقى . رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة .

حاشية ، ص ١١٥ .

(١٤٥) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٩٧ . الشعرانى :

الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(١٤٦) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٧ . القلقشندى : صبح الاعشى

ج ١٣ ، ص ٣٦٥ .

(١٤٧) الشعرانى : الميزان : ج ٢ ، ص ١٤٧ . سواء اكان ذلك نص

عليه فى العهد ، أم لم ينص عليه ويقول الشافعى ، ان العفو جائز على النادم من اهانة النبى . وحينئذ يرد له اعتباره وامتيازاته ، وان كان ابن تيمية قد ذهب الى وجوب قتل مثل هذا الشخص .

انظر ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٨ .

(١٤٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٥١ ، طبعة تورى .

- (١٤٩) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
- (١٥٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ .
- (١٥١) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- السنكسار ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .
- (١٥٢) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩١ - ٩٢ .
- (١٥٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٩٩ .
- (١٥٤) Meinardus : Christian Egypt, p. 160.
- (١٥٥) Ibid., p. 160, and Monks and Monasteries of the Egyptian desert, p. 246.
- (١٥٦) Meinardus : Monks and Monasteries ..., p. 246.
- ويبدو انه كان يوجد رهبان سريان فى صحراء وادى هبيب قبل هذا التاريخ
يكثير وانه كان لهم دير فى القرن الرابع الميلادى ، كما تشير بعض المصادر
الى وجود جماعة من السريان فى وادى هبيب فى سنة ٥٧٦ م . انظر نفس
المصدر ، ص ٢٤٧ .
- (١٥٧) Ibid., p. 248.
- (١٥٨) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٦٠ . عمر
طوسون : وادى النطرون ورهبانه واديرته ، ص ١٧١ .
- (١٥٩) Meinardus : Christian Egypt, p. 162.
- (١٦٠) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٢٦ . ويشير
الى بعض الامثلة الدالة على بركة هذا القديس وعلمه ما فى الغيب فذكر انه
بعد وفاة البطرك انبا مقارة - فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى -
بقى كرسي البطركية خاليا بضع سنوات ، ثم ذهب بعض كبار القبط الى اديره
وادى هبيب لطلب بطرك من بين الرهبان هناك فلما وصلوا دير السريان تحدثوا
الى القديس ابي يوسف بشأن البطركية ومن يصلح لها . فقال لهم : ارجعوا الى
منازلكم فقد تعبتم فى مجيئكم الى هنا فان بطرككم فى مصر ، وسماء لهم ،
وهو غبريال بن تريك .
- (١٦١) نفس المصدر ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
- (١٦٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ . ابن ميسر . اخبار مصر ، ج ٢ .
- ص ٨٠ .

وتشير الرواية القبطية الى أن جماعة الأرمن في مصر قد طمعوا في بعض الكنائس التي بيد السريان ، وسألوا الوزير أمير الجيوش في ذلك ، وقالوا له : ليس لنا بيعة نصلي فيها . بينما اتخذ أسقف السريان إحدى الكنائس مخزناً للقرط لدابته . فلما كشف أمير الجيوش عن حقيقة الأمر ، أمر الأسقف ابن الطويل بنقل القرط من الكنيسة المشار اليها ، وجعلها لجماعة الأرمن ، لكي يعمروها ، ويتخذوها متعبدا لهم ، يؤدون فيها طقوسهم الدينية ، انظر : ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ .

(١٦٣) ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٩ . ويرى أنه كان يرتدى الحديد على جسمه ومن فوقه مسح شعر وحدث أن حضر له في الاسكندرية شاب يعذبه الشيطان كل يوم . فأحضر المناكيس قسيسين من الأرمن وقرا على الشاب كتب وانجيل يوحنا على وعاء به ماء ثم صب الماء على الشاب ، فبرئ مما أصابه .

(١٦٤) نفس المصدر ، ص ٢١٩ . ويقال ان هذا البطرك كان ابن أخت البطرك السابق لارمنيا ، وان خاله فوض اليه البطركية ، وأرسله الى مصر ، وجعل في صحبته بعض القديسين الفضلاء ، كما أعطاه صلباً ذهبا . بينما يقول « ميناردوس » ان هذا البطرك قدم الى مصر في القرن ٥ هـ - ١١ م . وان اسمه St. Vahram ثم عرف باسم جريجوري الثاني Gregory II وأنه أراد أن يعيش في عزلة على قمم الجبال ؛ لذلك ترك كرسى البطركية في أرمنيا . وقد حاول ملك أرمنيا رده عن ذلك الا أنه فشل في مساعيه ويبدو أن هذا البطرك ، خرج الى القسطنطينية ثم الى روما ومنها الى مصر وزار الصحراء الغربية وأقام له بطركية في البلاد المصرية ، انظر :

Monks and Monasteries, pp. 248-249.

(١٦٥) سير الابرار البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

(١٦٦) نفس المصدر ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٧ .

(١٦٧) ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ١٥ - ١٦ ، ٢٠ - ٢١ .

(١٦٨) نفس المصدر ، ص ٢٨ - ٣٠ .

ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(١٦٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧٩ . المقرئ : اتعاط الحنفلة ورقة ١٣٧ ؟ .

(١٧٠) ابن ميسر أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٨١ ، ٨٢ . ابن المقفع : سير
الآباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٣ و
Meinardus : Christian Egypt, p. 201.

ويعرف الدير الأبيض بدير بوشنودة في صعيد مصر ، وهو عظيم البناء
واسع الأفق بني من الحجر الأبيض ، وزين أحسن زينة . ويقع غربي النيل
مقابل أخميم . ويجري بالقرب منه خليج . ويعد هذا الدير من أجمل المتنزهات
في مصر في فصل الشتاء والربيع حين يخضر الزرع ، وتنبت الزهور ، وتكثر
مسايد الطيور . ويصبح الدير في موضع في غاية الحسن وجمال بديع ، انظر
العمري . مسالك الأمصار ، ج ١ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

Meinardus : Op. Cit., p. 401. (١٧١)

(١٧٢) أبو صالح الأرمني ، ص ٦١ و ٦٢ .
(١٧٣) نفس المصدر ، ص ٣ - ٤ .

Quatremère : Memoires Géographiques et historiques, (١٧٤)
T. I, pp. 220-221.

ويذكر أنه كان بها اثنتان وخمسون كنيسة هدمها الحاكم ، وجعل مكانها
مساجد .

(١٧٥) أبو صالح الأرمني ، ص ١١٦ .
Quatremère : Memoires Géographiques, —, T. I, (١٧٦)
pp. 567 - 368.

(١٧٧) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣ .
(١٧٨) المقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٦ .

(١٧٩) Seven Canonical sacraments وفي المعمودية Baptism
والتثبيت Confirmation والقربان Eucharist والعقوبة Penance والرتب
الكهنوتية Orders والزيجة Matrimony ثم الميرون أو مسح المرضى
بزيوت القناديل Unointing or unaction of the sick . انظر .

Butler : Ancient Coptic Churches, Vol. 2, pp. 262.

Ibid. p. 301. (١٨٠)

(١٨١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٣ ، ج ١٢ ، ص ٤٧٤
ويسميه البطريك .

Butler : Op. Cit., p. 303, Autefage : les Coptes, p. 31. (١٨٢)

(١٨٣) ابن المقفع : سير الالباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(١٨٤) والدليل على وجوب هذا الشرط ما جاء فى سير المبيعة بشأن البطررك انبا مينا فى عصر الامراء الاخشيديين . وكان والداه قد الزماه بالزواج فلما خلا بزوجه طيب خاطرهما ، واتفق معها على الخروج الى دير ابي مقار للترهب فيه وطلب منها الا تعلم احدا بذلك واستمر راهبا فى هذا الدير حتى توفى البطررك تاوفانيوس . فاجتمع الاساقفة والكهنة لإقامة بطرك مكانه واستقر رأيهم على أن يكون انبا مينا هذا بطركا . فأخذوه مقيدا بالحديد الى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم الخاصة بذلك . ثم علم بعض الاساقفة أنه متزوج فقالوا له : « وقد فعلنا معك ما لا يجوز ، وما هو مخالف القانون فأصدقنا عن نفسك » فاجابهم بأن ذلك صحيح وكلفهم باحضار المرأة التى قد زوجها ابواه له ، فسمعوا منها حقيقة أمره فحمدوا الله على ذلك . انظر :

ابن المقفع : سير الالباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٤ - ٨٦ .

Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, p. 202, and (١٨٥)
Autefage : Les Coptes, p. 31.

(١٨٦) سير الالباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

(١٨٧) نفس المصدر ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ . ومن الأمثلة التى أوصى فيها البطررك القائم بمن يلى البطرركية بعده ما حدث فى خلافة هارون الرشيد حينما أوصى للبطرك يوحنا بالقس مرقص ليكون بطركا من بعده . انظر نفس المصدر ، ص ٢٣٧ .

(١٨٨) نفس المصدر ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(١٨٩) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(١٩٠) ابن المقفع : سير الالباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٢ . وتشير بعض المصادر الى أن الرقاق الأربع يقام عليها الصلاة والقداس ، ثلاثة أيام متتالية ثم يأتى القوم بعد ذلك براهب أو شماس لأخذ إحدى هذه الرقاق . انظر : Autefage : Les Coptes, p. 31.

وقد اتبع القبط هذه الطريقة فى عصر الولاة العباسيين . فلما توفى البطررك انبا مينا فى خلافة ابي جعفر المنصور ، وأراد القبط إقامة بطرك آخر خلفا له إتبعوا طريقة التبريع ، وتم لهم تنصيب انبا يوحنا قيم بيعة ابي مينا بطركا .

بعد أن كانت الرقعة التي يتم اختيارها فيها اسمه في المرات الثلاث - انظر ،
ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .
كما اتبعت هذه الطريقة في اقامة البطريرك ميخائيل بن دنشقرى في خلافة
الحافظ .

انظر ، ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٢٨ .
(١٩١) ابن المقفع . سير الابرار البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٢٨ ،
٤٠ - ٤٢ .

Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 307-309. (١٩٢)
والصادر القبطية مليئة بالأمثلة على ذلك . منها أنه بعد وفاة البطريرك يوحنا
- في خلافة هارون الرشيد - أراد الشعب تعيين الأب مرقس خلفا له ولكنه امتنع
عن ذلك وهرب الى أديرة وادى هبيب ولكن تمسك القبط به ، وتمكن بعض الكهنة
من احضاره مقيدا بالحديد الى الاسكندرية حيث تمت مراسيم تعيينه بطريرا .
انظر ، ابن المقفع . سير الابرار البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٢٨ .
كذلك تم الاتفاق على اقامة الأب ميخائيل بطريرا - وكان راهبا بدير أبي
مقار بوادى هبيب - ذهبوا اليه ، وأخذوه من الدير بالقوة ، وقيده بالحديد
في رجله ، وحملوه الى الاسكندرية وذلك في عصر الأمراء الاخشيديين . انظر :
نفس المصدر ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٦ . ومن الأمثلة على ذلك أيضا البطريرك أنبا
افراهم وقد أتوا به مقيدا وساروا به الى الاسكندرية . انظر نفس المصدر ،
ص ٩١ .

Amélineau : Histoire de P. Coptic Isaac, pp. 49-50. (١٩٣)

(١٩٤) نجد الأب بنيامين الذي عاصر الفتح العربي لمصر ، قد وضع بعض
القوانين الخاصة ببيعة أبي مقار في وادى هبيب . وهذه القوانين تتضمن
الا يصعد أى قس الى الهيكل الا بعد أن يلبس البليئة أولا وقبل أن يحمل البخور
عليه ولا يتقرب فيه قس أو شماس الا بعد لباسه البليئة (البرنس) ولا يتكلم
أحد في هذه البيعة حديثا بطلا ولا يجلس فيها يقرأ كتابا من الكتب ، ومن خالف
ذلك يكون محروما . كما لا يدخل أى كاهن من كهنة هذا الموضع بكاهن غريب
من كهنة مصر أو رئيس الى هذه القبة المقدسة ، ولا يدخل اليه بجاء ولا برشوة .
انظر ، ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١١٨ . السنكسار ،
ج ٣ ، ص ٥٢٣ .

ومن الامثلة على ذلك البطرک أكرسوطودولس في خلافة المستنصر بالله الفاطمي ، الذي وضع بعض القوانين الكنسية أيضا في المعمودية، وتقديم القرىبان ، وما يجب على القبط ورؤسائهم الدينيين في أيام الاحاد والاعياد ، وأوقات القداس ، وأيام الصوم المختلفة . انظر ، ابن المقفع . سير الابهاء البطاركة . م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(١٩٥) القلقشندي . صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٧٢ . وكان القبط في المراسلات مع بطركهم يراعون هذه الديباجات ، تشريفا وتكريما لبطركهم ، من امثلة ذلك . « د الى الحضرة السامية . القديسة النفيسة ، البطركية الفاضلة ، الرئيسة فخر الله ، اليعقوبية ، وضياء البيعة الارثوذكسية سيد الابهاء ورئيس الرؤساء » ابن المقفع : سير الابهاء البطاركة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٧ ، ١٠ ، ١٦ .

(١٩٦) القلقشندي . صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .

Primate, archbishop, Metropolitan. (١٩٧)

The Oxford dictionary of the Christian Church, p. 78. (١٩٨)

(١٩٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢٠٠) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٣ .

Chronique de Mihcel, le Syrien, T. 3, fasc. 1, p. 68. (٢٠١)

Butler . Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 212-313. (٢٠٢)

(٢٠٣) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٣ ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ .

Autefage : Les Coptes, p. 32, Butler : Op. Cit., p. 313. (٢٠٤)

Butler : Op. Cit., p. 313. (٢٠٥)

(٢٠٦) ابن المقفع : سير الابهاء البطاركة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٢١ - ٢٢ .

Chronique de Michel, T. 3. fasc. 1, p. 68. (٢٠٧)

Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 318-319. (٢٠٨)

Ibid., p. 319 and Autefage : Les Coptes, p. 32. (٢٠٩)

Autefage : Op. Cit., p. 32. (٢١٠)

Butler : Op. Cit., p. 319. (٢١١)

- (٢١٢) Autefage : op. Cit., pp. 32-33.
- (٢١٣) صبيح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٣ .
- (٢١٤) The Oxford dictionary of Christian Church, p. 79.
- (٢١٥) ابن المقفع سيرة الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٠ .
- (٢١٦) Autefage : Les Coptes, p. 33.
- (٢١٧) صبيح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ .
- (٢١٨) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧١ .
- (٢١٩) صبيح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ . ويسمى الراهب فى اللغة اليونانية موناخوس وهى كلمة مشتقة من الواحد ، لأن الراهب يتوحد وينقطع للعبادة . والدير الذى يقيم فيه الراهب يسمى موناستيريون ومعناه محل التوحيد . أما فى اللغة العربية فالراهب اسم فاعل . مشتق من الرهينة أى الخوف . بمعنى أنه يخاف الله . انظر . عبد المسيح البرموسى . تحفة السائلين ، ص ٢١٥ .
- (٢٢٠) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية . ص ١ . ولم تكن المسيحية هى الديانة الوحيدة التى تنفرد بالدعوة الى المبادئ النسكية . ففى الديانات السابقة للمسيحية جماعات وطوائف كرست نفسها لحياة انعزالية أو نسكية على درجات متفاوتة من القسوة البدنية . ولذلك شواهد فى كتابات الصين والهند ، وشعوب آسيا الغربية ، وكذلك الأدب المصرى القديم .
- (٢٢١) نفس المصدر . ص ٩٥ ، ٩٦ . وكان الطالب للرهبنة . يتعرض قبل رسامته لبعض الاختبارات القاسية ثلاث سنوات ، وقيل ثلاثة أيام . يختبر فيها قدرته على تحمل المشاق والأعباء ، وقدرته على التواضع واحتقاره لذاته ، وعدم اهتمامه بجسده . كما أن الطاعة كانت شرطاً أساسياً لقبول الراغب فى الرهبنة . انظر نفس المصدر ، ص ٩٨ .
- ويقول بتلر ان طالب الرهبنة يقضى ثلاث سنوات تحت التجربة والاختبار . وبعدها تتم رسامته راهباً وذلك بأن يقف أب الدير أى رئيسه ، عند باب الهيكل ، ويدعو طالب الرهبنة الى الجلوس ساجداً على الأرض ويقرأ عليه الصلاة الجنائزية ، ثم يعمل له اكليل الاكليروس ، بمعنى أن يحلق له قمة رأسه ، ثم يلبسه الملابس الكهنوتية . ثم يسأل طالب الرهبنة عن الاسكيمو وهو اللباس المميز للراهب ، ويباركه رئيس الدير ، ويقرأ عليه ، ما يفسر له الأعباء الشاقة ، والواجبات الصعبة التى تفرضها عليه هذه الملابس فى الحياة النسكية ، انظر . Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 322-323.

ويقول حكيم أمين : ان الراهب بعد ذلك يصبح مقطوعا عن العالم الخارجى ، كما يحرم عليه مقابلة والديه وأقاربه مدة طويلة ، ويطلق لحيته • ويصير من الضروري عليه القيام بالأعمال اليدوية ، كعمل السلال والحصير ، وغزل ونسج الكتان ، كما تخصص بعضهم فى بناء الصوامع ، انظر ، دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ، ص ١٠٠ - ١٠١ • وعن الأعمال اليدوية للرهبان انظر ، عزيز سوريال : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ، ص ١٦٩ - ١٧٠ (رسالة مارمينا ، سنة ١٩٤٨ م) •

Aulefage : Les Coptes, p. 33. (٢٢٢)

Aulefage : Les Coptes, p. 34. (٢٢٣)

(٢٢٤) عبد المسيح البرموسى : تحفة السائلين ، ص ١٧ •

(٢٢٥) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ، ص ١٢٨ • ويضيف الى ذلك انها تحاط من الخارج بحائط صغير ويسدها باب خشب يعلق بمفتاح من الداخل ، ويتكون بعض القلالى من حجرتين وأكثرها بدون نوافذ أما اثائها فعبارة عن حصير وغطاء من جلد الحيوان أو الصوف وفيها صوان حفر فى الحائط لوضع الكتب الدينية • وكان الراهب يخزن ما يحتاج اليه من الماء لمدة أسبوع فى جرة من الفخار • كما يوجد فى داخل القلاية ابر وحبال وخيوط ، وسعف نخيل وغيرها من الأدوات اللازمة لعمل السلال ، كما ان بعض القلالى كان يمتلك اثولا يدوية للنسيج • ويحتفظ الراهب بسلة من الخبز ، وعلبة ملح وبعض الاواني من الفخار • انظر ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ - ١٢٩ •

(٢٢٦) عبد المسيح البرموسى : تحفة السائلين ، ص ١٧ ، ٣٢ • ويقول :

المقريزى (الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ -) ، ان الدير هو خان النصارى وأنه يختص بالتساك المقيمين به • بينما الكنيسة يجتمعون فيها للصلاة • فى حين يقول ياقوت الحموى (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٩٥) ان الذين عبارة عن بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون فى مصر الأعظم ، أما يكون فى الصحارى والجبال • وجمع دير أديار ، والديرانى هو صاحب الدير كما يجمع هذا اللفظ على ديار ودور وأدور وأديرة ، وأدورة • وأصل الكلمة الدار ، ثم خصص الموضع الذى يسكنه الرهبان أو الراهبات ، وصار علما بهم •

(٢٢٧) ويقع هذا الوادى غرب مصر ، بين مريوط والفيوم • وقد سمي بوادى

هبيب نسبة الى هبيب بن محمد بن معقل بن عفان الغفارى ، أحد الصحابة • وكان

هبيب هذا قد اعتزل مصر أثناء الفتنة ضد عثمان بن عفان ، ولجأ الى هذا الوادى واقام فيه . وقد نسب اليه هذا الوادى ، وصار يسمى باسمه . انظر .

عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٢٩ .

(٢٢٨) عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٢٩ .

عبد المسيح البرموسى : تحفة السائلين ، ص ٤٤ . المقرئى . الخطط . ج ٤ ، ص ٤١٩ .

(٢٢٩) المقرئى . الخطط . ج ٤ ، ص ٤١٩ . ويرى عمر طوسون ،

ص ٤٠ أن المقرئى مبالغ فى ذكر عدد رهبان وادى هبيب الذين خرجوا الى مصر لمقابلة عمرو بن العاص القائد العربى عقب الفتح ويذكر انه لم يكن يوجد بهذه الدير فى أواسط القرن السادس الميلادى سوى الفى وخمسمائة راهب . وانه لما زاره البطرك بنيامين حوالى سنة ٦٣٠ م . أى قبل الفتح العربى لمصر بحوالى عشر سنوات ، كان به عدد قليل من الرهبان . ونحن نرى انه قد يكون عدد الرهبان قد زاد فى السنوات التالية لهذه السنة خاصة أن قبض مصر اليعاقبة كانوا يلجأون الى الرهبنة والعزلة بعيدا عن حياة المدن وما فيها من اضطهاد وقسوة ، املتأ عليها سياسة المقوقس حاكم مصر فى إمبراطورية هرقل وهربا من دفع الضرائب الثقيلة التى فرضتها عليهم حكومة الرومان فى ذلك الوقت ، ولذلك لا بد أن عدد الرهبان فى أديره وادى هبيب فى القرن السابع ، قد زاد كثيرا عما كان عليه فى القرن السادس الميلادى ونستدل على ذلك من الرواية القبطية التى تصف جماعة الرهبان فى هذه الدير عند استقبالهم للبطرك بنيامين بعد الفتح العربى لمصر ، عندما دعاه هؤلاء الرهبان لتكريز هيكلى أبى مقار هناك . انظر ، ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١١٣ - ١١٤ .

وأما أسماء أديره هذا الوادى فهى دير أبى مقار ودير أنبا بشاى ودير السريان ودير يوحنا كاما ودير البراموس ودير موسى ودير يوحنا القصير . انظر ، المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ . عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٤٥ .

(٢٣٠) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٨ .

عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٤٤ .

(٢٣١) عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٤٤ .

(٢٣٢) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٧ .

- (٢٣٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٧٠ .
- (٢٣٤) نفس المصدر ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ .
- (٢٣٥) نفس المصدر ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .
- (٢٣٦) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٢١ .
- (٢٣٧) الشايبسى . الديارات ، ص ١٨٤ وما يليها .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٩٦ وما يليها .
- المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ - ٤٢٢ .
- العمرى : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦٠ - ٢٨١ .
- الصفدى : تاريخ الغيوم ، ص ٢٢٠ . وانظر أيضا أبو صالح الأرمنى تاريخ أديرة وكنائس مصر . وكله يدور حول الأديرة والكنائس المصرية من النواحي المعمارية والهندسية والتاريخية والاجتماعية .
- (٢٣٨) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ . وذكر بعض الشعراء العرب لفظ كنيسة بى أشعارهم فقال العباس بن مرداس السلمى .
- يدورون بى فى ظل كل كنيسة وما كان قوماً يبتنون الكنائس
- وقال ابن قيس الرقيات أيضاً :
- كانها دمية مصورة فى بيعة من كنائس الروم
- ويشير المقرئى فى موضع آخر الى أماكن عبادة اليهود والقبط فيقول . قال الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » فقال المفسرون . الصوامع للصابئة ، والبيع للنصارى ، والصلوات هى كنائس اليهود . أما المساجد فهى للمسلمين . ويقول ابن قتيبة : ان الكنيسة كلمة عبرانية الاصل معناها الموضع الذى يجتمع فيه للصلاة . انظر نفس المصدر ، ص ٢٤٩ .

(٢٣٩) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ - ٤٢٥ و

Butler : Ancient Coptic Churches.

T. 1, pp. 247-249, and Meinardus : Christian Egypt, pp. 186-206.

(٢٤٠) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ و

Butler : Op. Cit., pp. 271-285.

Meinardus : Op. Cit., pp. 208-209.

(٢٤١) المقرئى . الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٣٤ - ٤٣٧ و
Butler : Op. Cti., pp. 341-372.

أما كنائس الوجه البحرى والاسكندرية ، فانظر ، المقرئى . الخطط

ج ٤ ، ص ٤٣٧ .

Meinardus : Op. Cit., pp. 114-115.

(٢٤٢) ابن المقفع : سير الالباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ١٨ - ١٩ .

Bu'ler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 263-271 . (١٤٢)

ويبدأ الاحتفال بان يخلط القسيس الماء بيده ويشعل البخور مع الصلاة .
ويصلب القسيس على الماء ثلاث مرات . ويعمل بعد ذلك علامه الصليب على وجه
الطفل بذون زيت ، ثم يعوذ عليه ويعزم مع التصليب على الوجه . ثم يحرك الطفل
فى الماء شرقا وغربا ، ثم يصلب على وجهه بالزيت ، ويسمى زيت التنصر
او المعمودية ، ويتم ذلك ثلاث مرات .

ويقول البيرونى - الاثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٢٩٤ - ان اما
الحسن الاهوازى قد ذكر انه يقرأ على المنتصر « سبعة أيام فى البيعة ، غدوا
وعشيا ، فاذا كان السابع عرى ودهن جسده كله بالزيت . ثم صب الماء الساخن
فى أنية رحام منصوبة فى وسط البيعة ، وينقط القس على وجه الماء بالزيت
خمس نقط على مثال الصليب ، أربعاً وواحدة وسطها . ثم يشال ويحط رجلاه
جميعاً فوق النقطة الوسطى ويجلس فى الماء . ويأخذ القس من أحد جوانبه ماء
كفه ماء فيصبه على رأسه ثم من جانب آخر الى أن يأتى على الجوانب الأربعة
على مثال الصليب . ويتنحى القس عنه ويجىء من يريد أن يأخذه من الماء
وهو الذى أجلسه فيه فيغسله القس وجميع من فى البيعة يقرأون ثم يخرج من
الماء ويوشح بازار ويحمله جمل لثلاث تمس رجله الأرض ويصيح أهل البيعة كلهم
سبع مرات كيرياالسن أى يارب ارحمنا . ويلبس ثيابه وهو محمول ثم يحط عنه
ويلزم البيعة أو يتردد اليها سبعة أيام فاذا كان اليوم السابع غسله القس بلا زيت
ولا فى تلك الأنية الأولى » وفى معنى المعمودية انظر .

Mar'im'iano Rancaglia : His'oire de L'Eglise Copte, T. 1, p. 116,
et, Vocabulaire de théologie Biblique, pp. 82-83.

(٢٤٤) ابن المقفع . سير الالباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٦٦ . ١٦٧

١٦٨

Bu'ler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 276-278. (٢٤٥)

ويكون شكل الخبز دائريا ، وعرض كل قطعة منه ثلاث بوصات ، وتكون
سميكة جدا ، ويرسم عليها شكل صليب .

(٢٤٦) تبشر : تاريخ الأمة القبطية ، ج ٣ ، ص ٤٤ . بينما كان من عادة
السريان أن يضعوا الملح والزيت في خبر القربان . ولذلك حدث خلاف بينهم وبين
البطرك خرسطودولس - في عهد الخليفة المستنصر - عندما كان هذا البطرك يقوم
بالقداس في كنيسة أبي مرقورة بمصر ، حيث دارت مناقشة شديدة بين البطرك وبين
أحد السريان الموجودين في ذلك الوقت ويسمى الشيخ أبو البشر - وكان يعمل
طبيباً ومقرباً من الخليفة المستنصر - وقد منعه البطرك من القربان وأمر تلاميذه
باخراجه من الكنيسة .

انظر ، ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .
Butler : Op cit., p. 281. (٢٤٧)

(٢٤٨) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
Butler : Op. cit., p. 281. (٢٤٩)

(٢٥٠) Ibid., pp. 37-56. وكان من عادات القبط في قداس الزواج ،
استخدام تاج من الفضة والذهب منقوش عليه بعض الكتابات ومرسوم عليه صلبان
وغير ذلك من النقوش الملائمة . ويشاركون في ذلك المؤمن . انظر نفس المصدر ،
ص ٦٣ .

Butler : Op. cit., p. 38. (٢٥١)

(٢٥٢) تبشر . تاريخ الأمة القبطية ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .
Butler : Op. Cit., p. 285. (٢٥٣)

وتقول تبشر ، ان استعمال البخور عادة وثنية ، وان المسيحيين لم يكونوا
يستخدمون البخور في كنائسهم في القرون الثلاثة الأولى للمسيحية ،
ثم بدأوا استعمال البخور بعد القرن الرابع الميلادي بحجة انه يطرد
الروائح الكريهة الناتجة عن ازدحام جمهور المصلين . وصار له أهمية كبيرة في
القداس بعد القرن السادس الميلادي ، فصار طقساً دينياً عظيم الأهمية .
وانظر : تاريخ الأمة القبطية ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ٩٨ - ٩٩ .

Butler : Op. Cit., p. 285. (٢٥٤)

(٢٥٥) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

ويشير الى أن البطرك أنبا خيال - في خلافة مروان بن محمد - كان يقوم بالقداس في كنيسة الشهيد سرجيوس ، فجاءه رجل عبطى يريد تناول القربان . مثل سائر اخوانه القبط ، الا أن البطرك منعه من ذلك عدة مرات . فلما انتهى البطرك من القداس سأل الرجل عن السبب فى حرمانه من تناول القربان . فطلب البطرك منه الاعتراف بخطئه وذنبه حتى لا يقع فيه سواء بعد اليوم . فاعترف بأنه تناول افطار منزله ثم أتى الكنيسة ليتناول القربان فيها ، دون أن يعلم خطأ ذلك وأنه مخالف لقوانين الكنيسة . وكان كثير من قبط الصعيد يفعلون مثل ذلك . فكتب أنبا خيال الى جميع البلاد المصرية ، يدعو القبط الى عدم تناول القربان مرتين فى اليوم الواحد .

انظر ، نفس المصدر ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢٥٦) ابن المقفع : سير الایام البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢٥٧) نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

(٢٥٨) نفس المصدر ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢٥٩) تاريخ الأمة القبطية ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٢٦٠) تبشر تاريخ الأمة القبطية ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢٦١) نفس المصدر ، ص ٩٨ .

(٢٦٢) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 323-324.

وفى اليوم المحدد للعرس يخرج العروسان كل منهما على انفراد ، تتقدمهما الموسيقى ويسيران فى الطرقات حتى يصلا الكنيسة المحدد اقامة العرس فيها ، ويتقدمهما الشماسة بالشموع الموقدة والأجراس . وفى داخل الكنيسة يجلس الزوج وسطه جماعة الرزمين ، أما الزوجة فتجلس فى الجانب المخصص للنساء .

(٢٦٣) Butler : Op. Cit., pp. 324-326.

(٢٦٤) Ibid, pp. 326-327.

(٢٦٥) النويرى نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٥١ .

المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤ . محمود شكرى الألوسى البغدادى :

بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

Autefage : Les Copies, p. 29. و

(٢٦٦) النويرى . نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٢ . المقريرى . الخطط .
ج ٢ ، ص ٢٤ .

الألوسى البغدادي . بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .
و Au efage : Les Coptes, p. 29.

(٢٦٧) الألوسى . بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٢٥٧ . ويقول المقريرى (الخطط .
ج ٢ ، ص ٢٥) . انه لما تمالا اليهود على عيسى عليه السلام واجتمعوا على
صلبه وقتله ، قبضوا عليه وصلبوه على خشبة مع لصين . ويرى المسيحيون أن
الحقيقة ، أن الله رفعه ولم يصلب وأن الذى صلب شخص آخر غير المسيح الذى
الله عليه شسه المسيح . كما يزعمون أن الجند قد اقتسموا ثيابه وساد الأرض
ظلمة أثناء النهار ، وذلك فى يوم الجمعة ١٥ نيسان = ١٩ برمهات . وقد
دفن الشبيه فى آخر النهار فى هذا اليوم وأطبق عليه حجر عظيم وختم عليه رؤساء
اليهود كما أقاموا عليه الحرس حتى لا يجرؤ أحد على سرقة . ويزعمون أن
المقبور خرج من القبر ليلة الأحد التالى . ولما مضى بطرس ويوحنا التلاميذ الى
القبر ، وجدوا الثياب بدون ميت ، وعلى القبر ملاك الله بثياب بيضاء اللون
أخبرهم بقيام المقبور من القبر . ثم قالوا فى عشية يوم الأحد المذكور دخل
المسيح على تلاميذه وسلم عليهم وأكل معهم وأوصاهم وأمرهم بأمر تضمنها
الانجيل .

وفى بطركية أدبا شنودة - فى عهد الخليفة العباسى ، المستعين بالله -
ذهب بعض القبط الى أن عيد الفصح كان فى نفس السنة التى صلب فيها يسوع
وقد أظهر لهم البطرك شنودة صواب هذا الأمر وأعلمهم أن الصليبات كان فى يوم
الجمعة ٢٧ برمهات ، وأن القيامة كان فى ٢٩ من نفس الشهر يوم الأحد .
انظر ، ابن المقفع . سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

وقع بين المسيحيين فى سنة ٣٩٧ هـ ، خلاف فى سائر الأقاليم فى حساب
عيد الفصح ويوم الاحتفال به ، فرأى البعض أن هذا العيد يكون فى ٦ من شهر
نيسان الموافق ٢٨ رجب من نفس السنة . والسبب فى ذلك أن حساب فصح
المسيحيين مستخرج من حساب فصح اليهود . بمعنى أنه إذا كان يوم فصح اليهود
فى أى يوم من أيام الأسبوع كان يوم الأحد الذى يليه هو فصح المسيحيين .
فمثلا إذا وافق عيد الفصح عند اليهود يوم سبت ، كان عيد الفصح عند القبط
يوم الأحد غده أو يكون فصح اليهود موافقا يوم الأحد فيكون ذلك اليوم هو
أحد الزيتونة والأحد الذى يليه يكون عيد الفصح عند القبط . ومهما كان الأمر

فقد اتفق جميع المسيحيين في مصر من الملكانيين واليعاقبة والنساطرة ، على أن فصيح اليهود يكون في يوم السبت ٥ نيسان وفصح القبط وجميع المسيحيين يوم الأحد غده . وكتب البطررك أرسانيوس الملكاني بذلك الى أهل بيت المقدس فقبلوا مذهب أهل مصر ، كما أيدهم في ذلك مسيحيو انطاكيا واحتفل جميع المسيحيين بعيد الفصح يوم ٦ نيسان ما عدا نفرا قليلا من قبط صعيد مصر الذين احتفلوا به يوم الأحد التالي . انظر ابن سعيد الانطاكي . ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢٦٨) النويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩١ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥ . الألوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥٧ ، ويذكر المقرئى أن أهل الشام يسمونه عيد المسلاق ، بينما يذكر النويرى والألوسى أنهم يسمونه السلاق بدون الميم .

(٢٦٩) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩١ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥ . الألوسى : بلوغ الأرب ج ١ ، ص ٣٥٨ . ويقول المقرئى ، أن القبط يزعمون أن هذا العيد يكون بعد الصعود بعشرة أيام ، وبعد القيامة بخمسين يوما ، حين اجتمع التلاميذ وتجلى لهم روح القدس في شبه السنة من نار فامتلاوا من روح القدس وتكلموا بجميع الألسنة فظهرت على أيديهم آيات كثيرة وعاد لهم اليهود ، إلا أن الله نجاهم منهم . وخرجوا من سجن اليهود وفرقوا يهدعون الناس الى دين المسيح .

(٢٧٠) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٢ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥ . الألوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥٨ . والسبب في إيقاد النيران ليلة عيد الميلاد ، هو أن مريم لما جاءها المخاض ، لجأت الى جذع النخلة واشتد عليها البرد فعمد يوسف النجار الى حطب فجعله حولها كالحظيرة ثم أشعل فيها النيران فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية حتى شعرت بالدفء وكسر لها سبع جوزات وجدهن في خرجه ، فأطعمها . ولذلك يوقد النصارى النار ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز . انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية . ج ٢ ، ص ٢٨١ .

(٢٧١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢٧٢) نفس المصدر . ص ٢٦ . النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٢ . الألوسى : بلوغ الأرب ج ١ ، ص ٣٥٨ و . Autefage : Les Cop'és p. 29.

ويسمى هذا العيد في اليونانية الابيغافيا ومعناه عيد الظهور لان فيه ظهر سر الثالوث المقدس ، الاب ينادى من السماء هذا هو ابني الحبيب ، والابن قائم على نهر الأردن وروح القدس قائمة عليه شبه حمامة . كما شاهد المعمدان أن المسيح لما اعتمد وصعد من الماء انشقت له السماء ونزل عليه روح القدس في شبه حمامة وأتى صوت من السماء قائلا : « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت » . وفي هذا اليوم أيضا ظهر السيد المسيح بعد ثلاثين سنة ولذلك صار هذا العيد عظيما عند المسيحيين جميعا يتطهرون فيه من خطاياهم وذنوبهم بالماء المقدس . انظر :

Le Synaxaire Arabe Jacobite, T. 3, pp. 539-541. (٢٧٣)
Autefage : Les Coptes, p. 29.

(٢٧٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٢ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

الالوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥٨ .

(٢٧٥) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

المقرئى : الخطط : ج ٢ ، ص ٢٧ .

الالوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ . ويسميه أهل الشام خميس الأرض وخميس البيض بينما أهل الأندلس يسمونه خميس أبريل . انظر : نفس المصادر .

(٢٧٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٢٧٧) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٣ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ . ويذكر كل من النويرى (ج ١ ، ص ١٩٢) والالوسى (ج ١ ، ص ٣٥٩) أن هذا الاجراء من أعمال القسس ، رغبة منهم في استمالة أصحاب العقول الضعيفة . فكانوا يعلقون القناديل في بيت المذبح ، ويعملون على ايصال النار اليها وذلك بمد شريط من حديد دقيق جدا ، مدهون بدهن البلسان والزئبق ، وبعد انتهاء الصلاة واقتراب وقت الزوال يفتح الهيكل ويدخله الناس ، فإذا به وقد اشتعلت فيه الشموع ، يعتقد الحاضرون ، عند ذلك ، أن النار قد نزلت من السماء وأوقدت جميع القناديل بالكنيسة .

(٢٧٨) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٣ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨ . الالوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢٧٩) المقرئى الخط ، ج ٢ ، ص ٢٨ - ٢٩ . ويذكر كل من السويرى (نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٣ - ١٩٤) والبيرونى (الآثار الباقية ، ص ٢٩٦) والالوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ . ان البصارى يزعمون ان الامبراطور قسطنطين اعتنق دين المسيح وبنى كنائس بلاد الشام عامة لأنه كان على عداوة مع بعض الرومان ، وضاق بهم ذرعا حتى اضطر الى مصانعتهم ، ودفع صريبة سنوية لهم . ثم ظهرت له ملائكة من السماء تحمل أعلاما عليها علامة الصليب ، حاربت الرومان وهزمتهم ، فعمل الامبراطور مثل هذه الأعلام وحارب بها خصومه وغلبهم . ثم علم من بعض التجار ان علامة الصليب هى علامة دين المسيح الذى مركزه بأرض الشام . ولذلك اعتنق المسيحية ، كما أمر قومه باتباع هذا الدين . ثم خرجت أمة الى بلاد الشام ، ووصلت الى بيت المقدس حيث تمكنت من العثور على الخشبة التى زعم المسيحيون أن المسيح قد صلب عليها ، وحملتها الى القسطنطينية واتخذ يوم رؤيتها لها عيداً عظيماً عند المسيحيين جميعاً .

(٢٨٠) المقرئى : الخط ، ج ٢ ، ص ٣٠ . ويقول النويرى (نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٨٥ - ١٨٦) ان أول من اتخذ هذا العيد جمشيد أحد ملوك الفرس الأوائل . وكان من عادة القوم فيه أن يحضر الملك فى الليل ، رجلاً جميل الوجه قد أرصد لما يفعله ، فيقف على الباب حتى الصباح ثم يدخل على الملك بدون استئذان ، فيقول له الملك : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما اسمك ؟ ولأى شئ وردت ؟ وما معك ؟ فيجيب الرجل : أنا المنصور واسمى المبارك ، ومن قبل الله أقبلت ، والملك السعيد أردت ، وبالهناء والسلامة وردت ومعنى السنة الجديدة . ثم يجلس ، ويدخل بعده رجل معه طبق من الفضة وفيه حنطة وشعير وجمص وسيميم وأرز - من كل صنف سبع سنابل وتسع حببات - وقطعة سكر ودينار ودرهم جديان ، فيضع الطبق بين يدى الملك . ثم تدخل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل عليه الوزير ثم صاحب الخراج ثم صاحب المعونة ثم الناس على طبقاتهم ومراتبهم . ويقدم للملك بعد ذلك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب ، فيأكل منه ويطعم من حضر . ثم يقول : هذا يوم جديد ، من شهر جديد ، من عام جديد ، ومن زمان جديد . وكانت عادة عوام الفرس فيه رفع النار فى ليلته ورش الماء فى صبيحته .

ويقول المقرئى (الخط ، ج ٢ ، ص ٣٠ - ٣١) النوروز أول سنة الفرس ، الموافق ١٤ من آذار ويزعم البعض أنه اليوم الذى تم فيه شفاء أيوب عليه

السلام . وقال الله سبحانه وتعالى له اركض برجليك هذا فاعتسل بارد وماء
فصار ذلك اليوم عيداً ، وسنوا فيه رش الماء . ويذهب البعض الى انه كان
بالشام بعض بنى اسرائيل ، اصابهم الطاعون ، فصاروا الى بلاد العراق وبلغ
عددهم اربعة الاف ، وماتوا هناك ثم احياهم الله بأن امطرهم فى ليلة من
الليالى . فلما بلغ الخبر ملك الفرس قال . تباركوا بهذا اليوم ، وليصب بعضكم
على بعض الماء ، وكان ذلك اليوم هو يوم النوروز . ويوافق عند الفرس يوم
الاعتدال الربيعى ، كما أن المهرجان أول الاعتدال الخريفي . ويقال ان أول من
احتفل بالنوروز فى مصر أحد ملوك القبط القدماء ويسمى مناوش بن مناوش .
وكانوا يقومون سبعة أيام يأكلون ويشربون اكراما للكواكب . .

وقد اسنن ملوك خراسان فى هذا العيد ، سنة جديدة ، اذ ابهم اتخذوا
هذا اليوم موسماً يلبس فيه جلودهم ملابس الربيع والصيف . ويقول أحد
المؤرخين : ان جمشيد (أو جمشيد) هو سليمان بن داود . وان أصل الاحتفال
بهذا اليوم يرجع الى انه لما فقد سليمان بن داود خاتمه ، ذهب عنه ملكه . ومالبت
أن عاد اليه بعد أربعين يوماً كما عاد اليه ملكه . فقال الفرس آنذاك « نوروز آمد »
أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم النوروز . وأمر سليمان الرياح فصعلته ،
ورآه خطاف ، فقال له . « أيها الملك ان لى عشا فيه بيض فاعدل لا تحطمها »
فعدل سليمان عن الطير . فلما نزل على الأرض ، حمل طائر الخطاف فى منقاره
ماء ، ورش بين يدي الملك ، كما أهده رجل جرادة . ولذلك سادت عادة رش
الماء فى مثل هذا اليوم ، وتبادل الهدايا ، بين الناس . انظر ، البيرونى :
الآثار الباقية ، ص ٢١٥ .

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٥٩ - ٦٦١ .

(٢٨١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٣ (طبعة لجنة
البيان العربى) محمد الشطيبى المغربى . الجمان فى أخبار الزمان ، ورقة
١٢٩٦ . (مخطوط بدار الكتب) .

(٢٨٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .
السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ . المغربى : الجمان
فى أخبار الزمان ، ورقة ١٢٩٦ .

(٢٨٣) ابن زبر القاصى : شروط النصارى ، ورقة ١٢ ، ١٣ . مخطوط بدار
الكتب .

- (٢٨٤) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .
- (١٨٠) تاريخ ابو صالح ، ص ١١٦ .
- (١٨١) سير الابهاء البصاره ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤١ .
- (٢٨٧) ابن سعيد الانطاكي ، ص ١٩٤ .
- (٢٨٨) المعريزي . الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ . ويخص بالذكر مسيحيي كنيسني اسبوطير وميخائيل .
- (٢٨٩) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .
- (٢٩٠) ابن سعيد الانطاكي ، ص ١٩٦ .
- (٢٩١) آدم منز الحاضرة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .
- (٢٩٢) المعريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤ . ويقول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى « والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو قرأوا كراما » ان المقصود بالزور واللغو هو اعياد المشركيين من اليهود والمسيحيين .
- (٢٩٣) ابن رسته . الاغلاق النفيسة ، ص ١١٦ .
- (٢٩٤) ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٤٢ .
- (٢٩٥) النويري . نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .
- (٢٩٦) سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٩٦ .
- (٢٩٧) ويسمي ابن المقفع باوون ، انظر سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .
- (٢٩٨) ابن المقفع : سير الابهاء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
- (٢٩٩) نفس المصدر ، ص ٢٠٨ . ويشير الى أن اليهود والسامرة قد شاركوا المسلمين والقبط في الصلاة والدعاء من أجل زيادة النيل كما صلى القبط ثانياً ، انظر نفس المصدر ، ص ٢٠٩ .
- (٣٠٠) المعري : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ . المعريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١١٠ ، سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٩٦ .
- توتون : أهل الذمة في الاسلام ، ص ١١٧ - ١١٨ .
- (٣٠١) ابن المقفع (سير الابهاء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٦ - ٤٧ .
- (٣٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٤ - ٢٨ ، ٤٤ .
- (٣٠٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .
- (٣٠٤) سيده كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ، ص ٢٥١ .
- (٣٠٥) مروج الذهب : ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

- (٢٠٦) الولاة والقضاة ، ص ٢٩٤ .
- (٢٠٧) ابن حميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٦ . المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١ ، ٣٨١ .
- (٢٠٨) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦١ . عن مخطوط لابن زولاق .
- (٢٠٩) المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .
- (٢١٠) المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ . على إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ، ص ٥٢٦ .
- (٢١١) المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦ . اتعاظ الحنفا ، ص ٢٤٢ .
- (٢١٢) المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩ .
- (٢١٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، ص ١٩٦ .
- (٢١٤) نفس المصدر ، ص ١٦٤ . المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤ .
- كما أبطلت رسوم الشعانين في بيت المقدس ، وكان الاحتفال بهذا اليوم يتم في ضجة عظيمة وتزين جميع الكنائس في مثل هذا اليوم من كل عام .
- بأغصان الزيتون وسعف النخيل . انظر ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص ٧٠ . آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .
- (٢١٥) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .
- المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧ .
- (٢١٦) المقيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩ - ٣٠ .
- (٢١٧) محمد عبد الله الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٠ .
- (٢١٨) الجوامع : المكايل ، والفعل جم ، وجمم . انظر المنجد ، ص ٩٦ .
- (٢١٩) الثاردي : أوان خاصة فيها قليل من الماء . المنجد ، ص ٦٧ ، الوسيط ، ج ١ ، ص ٩٤ .
- (٢٢٠) الجلاب والجلاب : الغسل أو السكز عقد بماء الورد ، المنجد ، ص ٩٢ .
- (٢٢١) الزلابية : عجينة يقلي بالسمن أو الزيت ، المنجد ، ص ٣١ ، الوسيط ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

- (٣٢٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥ - ٢٦ ، ٣٩١ .
 (٣٢٣) الخروبة : حبة الخروب ، ويوزن بها - الوسيط ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .
 (٣٢٤) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، ٣٩٢ .
 (٣٢٥) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦ - ٢٧ ، ٣٩١ - ٣٩٢ .
 (٣٢٦) نفس المصدر ، ص ٢٧ ، ٣٩٢ .
 (٣٢٧) تاريخ ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٣٨ .
 (٣٢٨) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١ - ٣٢ ، ٣٨٩ - ٣٩٠ .
 (٣٢٩) شقق : مفردتها شقة ، وهى قطعة من الثياب مستطيلة . الوسيط ، ج ١ ، ص ٤٩١ .
 (٣٣٠) ابن المقفع : سير الاءاء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣٣١) نفس المصدر ، ص ١٨٠ . ونذكر أن المدينة كانت تعاني من الغلاء وارتفاع الاسعار فلما احتفل القبط بهذا العيد وصل الى المدينة ككثير من القبط وانخفضت الاسعار وزال الغلاء ، وساد الرخاء وتحقق المسلمون أن ذلك من بركة حروج الزيتونة وطواف القبط بها فى المدينة . وعليه صاروا يشاركون القبط فرحتهم فى الاحتفال به فى كل عام . ونرى فى هذه الرواية بعض المبالغة من جانب المؤرخ القبطى .

(٣٣٢) ويقال له دير شهران نسبة الى أحد حكماء القبط وكان قديما يعرف بدير مرقوريوس الذى يقال له أيضا مرقورة أو أبو مرقورة . ولما سكنه برصوما ابن البنان ، عرف باسم دير برصوما . ومارقوريوس أحد شهداء القبط فى عهد الامبراطور دقلديانوس . انظر : المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ .
 (٣٣٣) نفس المصدر ، ص ٤٠٩ .

(٣٣٤) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٢ . وهذا الدير نحت فى الجبل فقد حفر فى الصخر وليس له باب وانما جعلت له نقور فى الجبل ومن أراد دخوله أرخيت له سلبة فأمسكها بيده وجعل رجله فى تلك النقور وصعد . ولهذا الدير طاحونة يديرها حمار واحد . ويطل هذا الدير على النخل الناحية منفلوط وأمام جزيرة يقال لها شقلفيل بها قريتان احدهما تسمى شقلفيل والأخرى تسمى بنى شقير .

(٢٣٥) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤١٨ . وتشير بعض المصادر الى اعجوبه تحدث في هذا الدير ونعتقد انها من صنع الخيول وصعها القبط الذين عرف عنهم الاعتقاد في الخرافات . وتتضمن هذه الاعجوبة أن من به ألم ومرض يذهب الى هذا الدير ، فيضعه رئيس الدير ، ويأتي بخنزير يتلمس مواضع الألم ثم يأكل هذا الموضع دون أن يلمس الموضع السليم من الجسم . ثم يذر رئيس الدير على موضع الألم رماد خنزير فعل مثل ذلك من قبل ثم حرق . ويدهنه رئيس الدير بزيت القناديل ، وبذلك يبرئ الشخص من الألم الذي يشكو منه . وبعد ذلك يذبح الخنزير ويحرق ، ويعدده رئيس الدير رمادا يستعمل في مثل هذه الحالات . انظر ، نفس المصدر ، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

الشابستي : الديارات ، ص ٢٠١ .

العمري . مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

ياقوت الحموي . معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٩٧ .

(٢٣٦) الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٩ .

(٢٣٧) العمري : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

(٢٣٨) أبو صالح الأرميني ، ص ١١٨ .

George Salomon : Un Texte Arabe Inédit pour servir à l'histoire des Chrétiens d'Egypte, p. 18.

(٢٤٠) آلم مئز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

والقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢٤١) Chronique de Jean, p. 455.

(٢٤٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٤ . ابن بطريق . التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٦ . ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٣٠ . بينما تذكر بعض المصادر أن عدد اليهود في الاسكندرية عند الفتح كان حوالي ستمائة ألف . وقد هرب كثير منهم الى بلاد الرومان فبلغ عدد من بقي منهم نحو خمسين ألفا يؤدون الجزية . انظر ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٢٤٢) القريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ .

Maurice Fargon : Les Juifs, p. 114, et

Mann : The Jews, T. 1, p. 14, and Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 220.

وميخائيل شارويعيم : الكافي ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢٤٤) ويتفق الريانيون والقراءون في ايمانهم بالتوراة ولا نجه بينهم ثقا في أصل اليهودية . وقد اتفق جميعهم على استخراج ستمائه وثلاث مئة فريضة من التوراة يتقيدون بها ، كما أنهم يتفقون على نبوة موسى وهارون وشع عليهم السلام وعلى نبوة ابراهيم واسحق ويعقوب والأسباط ثنى عشر كما يتفقون في استقبالهم صخرة بيت المقدس في صلاتهم جهون اليها موتاهم وان الله سبحانه وتعالى كلم موسى على طور سيناء بينما تلف كل من الريانيين والقرائين في أمرين :

الاول . القول بالظاهر والجنوح الى التأويل . فالقراءون يققون على ظواهر نصوص التوراة فيحملون ما وقع منها منسوباً الى الله تعالى ، كما تقبل لاهرية من المسلمين والريانيون يذهبون الى تأويل ما جاء في التوراة كما ل الأشعرية من المسلمين .

ثانيا : القول بالقدر . فالريانيون يقولون بأن لا قدر سابقا كما تقول القدرية المسلمين . والقراءون يقولون بسابق القدر كما تقول الأشعرية . انظر : لقشندى . صبح الاعشى ج ١٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ ويبدو ان اليهود الربانيين ثنوا مصر قبل القرائين . تقول بعض المصادر التاريخية انه لا يعرف تماما متى تقرر بالقرائين المقام في مصر . وان عددهم في أوائل القرن العاشر الميلادي كبير لا يستهان به وانهم كانوا يستخدمون أدوات مصنوعة من الـ Courts — يعيشون قريبا من النيل على بعد عشرين فرسخا من الفسطاط وانهم من نسل هنا بن قارىء Jonanan b. Kareah . الذي هاجر الى مصر . والقراؤون تفلون بأيام الاحاد الى جانب ايام السبت من كل اسبوع . واقدم وثيقة بالفسطاط يرجع تاريخها الى سنة ١٠٣٠ م وصار لمجتمعهم ومدارسهم أهمية شأنها في القرن الثاني عشر الميلادي . وكانت أهم مراكزهم القاهرة دسكندرية الى جانب انتشارهم في المدن الأخرى حيث يوجد غيرهم من اليهود . لـ : The Jewish Encyclopedia, Vol. V., p. 70.

(٣٤٥) أما السامرة فهم يؤمنون بالتوراة وبموسى وباليعاد وبالجنة النار ويصلون صلاة اليهود ويصومون صومهم ويستنون بسنتهم ويقرأون توراة ، ويحرمون ما يحرمه اليهود الآخرون . بينما لا يخالفون غيرهم من يهود في الايمان بالرسول ، فالسامرة لا يؤمنون بنبي غير موسى وهارون ويوشع ابراهيم فقط . كما يخالفونهم في القبلة فاليهود الآخرون يصلون الى بيت المقدس سامرة تصلى الى جبل عزون بنابلس وهو عندهم الطور الذي كلم الله عليه

- موسى • انظر ، ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٩١ - ٩٢ .
القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ • ويقول ان التوراة التي
بيد السامرة ، تختلف عن توراة الربانيين والقرايين •
The Itinerary of Rabbi Benjamin, T. I., pp. 146, 147, 149 (٣٤٦)
158, 159.
The Jewish Encyclopedia, Vol. V. p. 62. وانظر أيضا :
ادم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٦٥ - ٦٦ •
(٣٤٧) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦ ، ج ٤ ، ص ٣٦١ •
M. P. Casanova : Essai reconstitu'ion topographique
de la ville d'al Fostat ou Misr, p. 19.
ويقول وومان Waman ، يوجد حى اليهود فى قصر الشمع حيث يوجد لهم
معبدان وبيت رئيس اليهود • انظر : حاشية نفس الصفحة •
(٣٤٨) المقرئى : الخطط ج ٤ ، ص ٣٥٠ •
(٣٤٩) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٢ •
Mann : The Jews, T.I., p. 251,
Mann : The Jews. T. I. p. 252 and The Jewish En- (٣٥٠)
cyc'oped'a. Vol. V., p. 68.
The Jewish Encyclopedia. Vol. V., p. 68. (٣٥١)
Mann : Op. Cit., T. I. p. 252. (٣٥٢)
The Itinerary of Rabbi Benjamin, T. 2., pp. 197 - 198 (٣٥٣)
(٣٥٤) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٦٣ • وكان رئيس اليهود فى
بغداد يسمى رأس الجالوت ، ويسميه المسلمون سيدنا • وكلمته وأوامره لا تنفذ
الا شرقى الفرات • وكان ينافس ناجد اليهود فى مصر •
(٣٥٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٨٥ •
Mann : Op. Cit., p. 255. و
(٣٥٦) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٨٩ •
(٣٥٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ •
Mann : The Jews, T. I. p. 255.
(٣٥٨) القلقشندي : صبح الأعشى : ج ١١ ، ص ٣٨٨ - ٣٩١ •

- Casanova : Essai reconstitution topographique de la (٢٥٩)
ville d'al Fustat, p. 19.
- The Jewish Encyclopedia, Vol. I., p. 68. (٢٦٠)
- The Jewish Encyclopedia, Vol. V., p. 69. (٢٦١)
- Mann : The Jews, T. 1. p. 268. (٢٦٢)
- (٢٦٣) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ • ويقول مان ، انه من الخطأ أن يكون
الحزان واعظا متميزا في ذلك عن القارىء ، انظر :
Mann : Op. Cit., p. 268.
- Mann : Op. Cit., pp. 268-269. (٢٦٤)
- Ibid. p. 268. (٢٦٥)
- والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ •
- Mann : Op. Cit., p. 259. (٢٦٦)
- Ibid., p. 254. (٢٦٧)
- Ibid., pp. 257 - 258. (٢٦٨)
- Mann : The Jews, T. 1., pp. 94, 96. (٢٦٩)
- Mann : The Jews, T. 1, pp. 94-95. (٢٧٠)
- Ibid., pp. 264-267. (٢٧١)
- Ibid., pp. 259 - 262. (٢٧٢)
- (٢٧٣) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ • ويوجد في قنزا المعبد
شجرة يزعم اليهود أنها موجودة منذ عهد موسى •
- (٢٧٤) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٥٨ •
- (٢٧٥) نفس المصدر ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ •
- (٢٧٦) نفس المصدر ، ص ٣٦١ •
- Paul, E. Kahle : The Cairo - Geniza p. 1. (٢٧٧)
- (٢٧٨) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٦١ •
- (٢٧٩) نفس المصدر ، ص ٣٦١ •

- (٣٨٠) نفس المصدر ، ص ٣٦١ .
- (٣٨١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٦ . المقرئى : الخطط .
ج ٤ ، ص ٣٧٣ . اللوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .
- (٣٨٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٦ . اللوسى : بلوغ الأرب ،
ج ١ ، ص ٣٦٢ .
- (٣٨٣) ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .
- (٣٨٤) المقرئى . الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٧٣ .
- (٣٨٥) النويرى . نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٦ . اللوسى : بلوغ الأرب .
ج ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .
- (٣٨٦) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ .
- (٣٨٧) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٥ . المقرئى : الخطط .
ج ٤ ، ص ٣٧٣ .
- البيرونى . الآثار الباقية ، ص ٢٧٥ . اللوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ،
ص ٣٦١ .
- وهكذا يرى اليهود أن الذبيح هو اسحق وليس اسماعيل .
- (٣٨٨) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢٧٥ .
- (٣٨٩) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٥ .
المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٧٣ .
- (٣٩٠) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٥ . اللوسى : بلوغ الأرب ،
ج ١ ، ص ٣٦١ .
- (٣٩١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٥ . البيرونى : الآثار
الباقية ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
- (٣٩٢) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٧٣ . والاس والخلاف نوعان من
الأشجار . النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٥ . البيرونى : الآثار
الباقية ، ص ٢٧٧ .
- (٣٩٣) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢٧٧ .
- (٣٩٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٧ .
- (٣٩٥) اللوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٣٩٦) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ . البيرونى :

الأثار الباقية ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

الألوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ . والسبب فى الاحتفال بهذا اليوم ، أنه لما أجلي بختنصر اليهود من بيت المقدس ، نزلوا احدى مدن أصفهان . فلما كان عهد كسرى فارس اردشير ووريه هامان حان لليهود حير يسمى مردخاى تزوج أردشير ابنة عمه . ومن ثم صار له ولليهود مكانة عند كسرى ؛ مما أثار حقد الوزير فعمد الى احتفاره والحط من شأنه . وعزم على هلاك اليهود جميعا فى بلاد فارس . وحدد لذلك يوم منتصف شهر آذار نكاية فى اليهود الذين يزعمون أن موسى ولد وتوفى فى هذا اليوم . فلما علم مردخاى ، بهذا ، بادر باخبار ابنة عمه بما عزم عليه الوزير هامان وطلب اليها أن تعلم زوجها أردشير بذلك ، وتلتمس منه حماية اليهود وخلصهم جميعا . فاستجاب كسرى لذلك ، وأمر بقتل وزيره بينما كتب لليهود عهدا بالأمان لهم جميعا بل زاد فى الاحسان والبر اليهم فى ذلك اليوم . ومنذ ذلك الحين صار اليهود يحتفلون بهذا اليوم من كل سنة واتخذوه عيدا لهم .

(٣٩٧) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٩٧ . البيرونى : الأثار الباقية

ص ٢٧٨ .

الألوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦٤ . وكان سبب احتفالهم بهذا العيد ، هو تغلب بعض الملوك على بيت المقدس ، وفتكه ببني اسرائيل وانتهاك أعراض نسائهم فتصدى له بعض أولاد أحد الكهنة وعددهم ثمانية حتى تمكن أصغر هؤلاء الاخوة من قتله . ثم طلب اليهود زيتا لوقود الهيكل ، فلم يجدوا الا كمية بسيطة ورعوها على القناديل التى تسرج على ابواب دورهم فى كل ليلة لمدة ثمانى ليالى ، واتخذ اليهود هذه الايام اعيادا وسموها عيد الحنكة بمعنى التنظيف والتطهير ، اذ خلصوا فيه الهيكل من أيدي الملوك الجابرة .

(٣٩٨) قزوين : اهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٠ .

(٣٩٩) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٣٤ . وبالرغم من ذلك

لا تخلو المصادر التاريخية من الاشارة الى بعض البطارقة الذين كانوا على العكس من ذلك ، فاهتموا كثيرا بحياتهم وطعامهم وشرابهم الى جانب الحرص على جمع الاموال . ومن هؤلاء الطرك قلا تاوس - الذى عاصر الخليفين الفاطميين المعز ، وابنه العزيز - وتقول الرواية القبطية ، انه كان « مستمرا على جمع المال ، والاكل والشرب وقيل انه بنى حماما فى داره . وكان يدخله كل يوم ، واذا خرج يبخر ببخور

طایل جدا ، ثم يجلس يحكم ويأمر وينهى الى أربع ساعات من النهار ثم يقوم .
واذا كانت سادس ساعة يهيا له من الطعام والشراب ما يحتاج اليه وفواكه .
ويقوم يدخل داره . ويحضر عنده قوم عاداتهم جارية ان يجالسوه ، وينادموه من
أمل دمرو (دميعة) ومن أهله وأقاربه فيأكل معهم ويشرب ولا يصل اليه أحد
بقية النهار الى ثانى يوم ودفعات كثيرة يجلس للاكل والشراب من بكرة أو ثالث
ساعة من النهار ما خلا الايام التى يجب فيها الصوم « . وتضيف هذه الرواية
انه قد وجد له بعد وفاته أموالا عظيمة جمعها أثناء توليه البطركية فاقسمها أهله
فيما بينهم . انظر ، نفس المصدر م ٢ ج ٢ ، ص ١١٣ ، ١١٥ .

(٤٠٠) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٢ . الانبا
ايسيدورسى : الخريدة النفيسة ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٤٠١) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٤٩ .
(٤٠٢) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٢٨ . تاريخ ابن
الراصب ، ص ١٢٢ .

(٤٠٣) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .
(٤٠٤) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ . تاريخ
ابن الراهب ، ص ١٢٧ .
(٤٠٥) نفس المصدر : ص ٢٣٢ .

(٤٠٦) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥ . ويروى
أنه حدث فى ليلة ما أن طرق بابيه رجل محتاج فأمر بعض القسس الموجودين عنده
بإعطائه شيئا من الخبز ، ولم يبق عنده غير رغيفين فأعطاه أحدهما ثم طرق بابيه رجل
آخر فأمر بإعطائه جزءا من الرغيف الباقي لديه ثم طرقه رجل ثالث فأمر بإعطائه
ما بقى دون أن يأكل هو .

(٤٠٧) نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ١٢٩ . ويشير الى قصة حدثت له ذات
يوم ، ذلك انه بعد ان اشترى الخبز ووزعه كعادته على المحتاجين والفقراء من القبط
ولم يبق معه الا رغيف واحد أعد لافطاره دق الباب رجل وسأله شيئا من الطعام
فدفعه بقيرة له ، وبقي هو بدون طعام حتى اليوم التالى .

(٤٠٨) جروهمان : أوراق البردى ، السفر الثالث ، ص ١٥٣ .
(٤٠٩) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٤٦ .
(٤١٠) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

- (٤١١) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٣ .
- ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- (٤١٢) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٢١ - ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ .
- (٤١٣) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .
- (٤١٤) نفس المصدر ، م ١ ج ٢ ص ٢٦٢ .
- (٤١٥) نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٢ - ٣ .
- (٤١٦) نفس المصدر ص ٣ .
- (٤١٧) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٣ - ٤ .
- (٤١٨) بلقونة أو بلقينة : وهى قرية من قرى الحوف من كورة نيا . انظر :
ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٨٩ .
- (٤١٩) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ٩٠ .
- (٤٢٠) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٢٦ .
- (٤٢١) نفس المصدر ص ٢٧٧ - ٢٧٨ . وقد عزلهما البطرک بناء على طلب
شعب تنيس ومصر ، والحاحهم على البطرک حتى انهم هددوه بالخروج على الكنيسة
وقتل هذين الاسقفين اذا لم يعزلهما . وقد اثار ذلك غضب الاسقفين وفكروا فى
السعاية بالبطرك لدى الافشين قائد المأمون فى مصر . فذهبوا اليه وادعيا امامه
أن البطرک يوساب هو الذى حرّض البشموربين على الثورة والتمرد ، فأرسل
الافشس رسله لاحتضار البطرک ، والحقوا بالبطرك كل اهانة ممكنة امام القبط .
الا أن الافشين ما لبث أن تبين حقيقة الأمر فعفا عن البطرک ، وأراد فى الوقت نفسه
عقاب الاسقفين ، الا أن البطرک يوساب التمس منه العفو عنهما . انظر ، نفس
المصدر ، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .
- (٤٢٢) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ٧١ . واضطر البطرک
الى بيع بعض كنائس القبط بقصر الشمع ، وبعض أملاك الكنائس بالاسكندرية
لليهود . كما انه اضطر الى بيع مناصب الاسقفية وفرض الشرطونية حتى يتمكن من
دفع المطلوب منه .
- واستمرت سعاية القبط ببطركهم فى عهد الخلفاء الفاطميين . فقد سعى أحد
الرهبان ويسمى يونس بالبطرك أنبا زخارياس - فى عهد الخليفة الحاكم - لرغبته
فى الاسقفية وعدم تمكنه من الوصول اليها لما هو فيه من فقر وكانت الدرجات
الكهنوتية تباع فى ذلك العصر - ولذلك فكر فى السعاية بالبطرك لدى الحاكم ،

ورفع اليه رقاعا ضد البطريرك ، وزعم له فيها أنه ينافسه في السلطان والنفوذ وأنه يمتلك اموالا كثيرة مما اثار غضب الخليفة فقبض على البطريرك ووضعه في السجن لمدة ثلاثة أشهر . انظر ، نفس المصدر ص ١٢٠ - ١٢١ ، ١٢٧ .

كما سعى بعض الاساقفة بالبطرك كيرلس ، وقدموا ضده رقاعا الى الوزير امير الجيوش وزير الخليفة المستنصر . الا أن الوزير لم يعط هذه الرقاع شيئا من الاهتمام ودعا البطريرك وجميع الاساقفة الى الاجتماع به وذلك في سنة ٤٧٥ هـ = ٨٠٢ ش . واشتد في كلامه مع الاساقفة ودعاهم الى حسن معاملة البطريرك كما طلب منهم وصح قوانين لدينهم ، وعرضها عليه . ثم اجتمع مرة ثانية بالبطرك والاساقفة واحسن مخاطبتهم ، وبالف في اكرامهم ، ثم قال لهم : « كونوا كلكم شرعا واحدا ، ولا تختلفوا ، وطيعوا مقدمكم وكونوا مثله ، ولا تكنزوا ذهبا ولا فضة ، وصدقوا بكل ما يحصل لكم ، كما أوصاكم المسيح . وهذه القوانين التي عملتوها ، مما احتاج اليها ، وانما طلبتها منكم ليتجدد عندكم علمها ، لما بلغني من بعد عهدكم بها وبقرائها » نفس المصدر م ٢ ج ٣ ص ٢١٣ - ٢١٦ .

(٤٢٣) سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٠٦ .

(٤٢٤) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ١٧٢ .

(٤٢٥) نفس المصدر ، ص ٢١٧ .

(٤٢٦) نفس المصدر م ٣ ج ١ ص ٣٥ - ٣٦ .

(٤٢٧) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٣٤ .

(٤٢٨) نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ٧٠ - ٧١ ويتضح ذلك مما حدث في ناحية دنوش حينما دعا القبط البطريرك لتكريز كنيسة جديدة هناك . فاجتمع البطريرك والقبط ، ومن معهم من الاساقفة لافامة القداس ، بينما تأخر أسقف سخا الذي تقع في حوزته هذه الكنيسة بحجة انه يعد الطعام للبطرك انبا خيال ومن معه . فلما حان وقت القداس ولم يحضر الأسقف المذكور طلب الحاضرون من البطريرك وضع القربان على الهيكل والبدء في القراءات الى أن يحضر الأسقف الا انه لما قدم ووجدهم قد بدأوا القداس غضب أشد الغضب وأساء مخاطبة البطريرك وتناول عليه فرأى البطريرك أن ينزل به العقوبة الدينية فحرم هذا الأسقف وعزله من الأسقفية فسعى به هذا الأسقف لدى الأمير أحمد بن طولون كما ذكرنا .

(٤٢٩) والامثلة على ذلك كثيرة في كتاب « سير الآباء البطارقة » ، م ١ ، ج ٢

ص ١٣٩ - ١٤٠ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ص ٢٦٣ .

- (٤٣٠) نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٣٥ - ٣٦ .
- (٤٣١) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٧ .
- (٤٣٢) نفس المصدر ص ١٥٦ ، ص ٢١٢ .
- (٤٣٣) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٥٨ .
- (٤٣٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ . ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٥٦ - ١٥٧ . الانبا ايسيدورس : الخريدة النفسية ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ . ويشبى المقرئى الى أن المأمون قد كافأ هذه السيدة باقطاعها عدة ضياع ، واعفاء مائتى فدان من قريتها من الخراج جزاء على كبر مروعتها وسعة حالها .
- (٤٣٥) المكافاة ، ص ٣٦ - ٣٧ .
- (٤٣٦) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ٩٠ .
- (٤٣٧) جروهمان : أوراق البردى ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٤ ، ١٥٨ - ١٥٩ ، ١٦٣ - ١٦٤ .
- (٤٣٨) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ١٥٠ .
- (٤٣٩) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٢٢ .
- (٤٤٠) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٩ .
- (٤٤١) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ١٧٣ .
- (٤٤٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٥ - ١٥٦ و Chronique de Michel, T. 3, fasc. pp. 63-64.
- (٤٤٣) Chronique de Michel, T. 3, fasc p. 64. و ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٦ ويذكر أن عبد الله بن طاهر قد جعل الجزية عليهم اثنين وعشرين درهما كما نصت قوانين أرض السواد . انظر أيضا : Quatremère : Mémoires géographique et historiques, T. I, p. 321.
- ويشير الى وجود اثنتين وخمسين كنيسة بتنيس وقد هدمها الخليفة الحاكم وجعل مكانها مساجد انظر : Ibid., pp. 329-330.
- (٤٤٤) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية الكتاب الثانى ص ٥٠٣ - ٥٠٤ .

(٤٤٥) سمي بصوم الأربعين لأن مدة هذا الصيام ينقص عددها الى أربعين يوما فقط ذلك اذا استخرجنا من المدة السابقة (٥٥ يوما) أيام الآحاد والسبوت من

كل أسبوع والتي يجوز للقبط الصيام فيها • انظر :
Autefage : Les Coptes, p. 29.

Ibid., pp. 29-30. (٤٤٦)

(٤٤٧) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٦٠ •
Autefage : Les Copte, p. 30. (٤٤٨)

Ibid., p. 30. (٤٤٩)

Le Synaxaire Arabe Jacobite T. 3, p. 535. (٤٥٠)

(٤٥١) نفس المصدر ص ٥٣٦ • ويوم البرمونى يوافق اليوم السابق لعيد الغطاس •

(٤٥٢) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ١٦٦ •

(٤٥٣) نفس المصدر ص ١٦٧ ، ١٦٨ • وذاك نص ما قاله هذا البطريرك فى جوانينه بشأن الصيام « ويجب على المؤمنين صيام الرسل الحواريين الذى هو بعد الخمسين شكرا لله على ما أنعم به علينا من موهبة الروح القدس صياما متصلا الى اليوم الخامس من أبيب ، ويعيدون فيه ، كما جرت العادة • وان وافق ذلك اليوم ، يوم ، الأربعاء فيفطروا فيه قبل وقت الصوم • وان كان يوم الجمعة فلا يفطرون فيه قبل وقت الصوم الجارى به العادة •

وكذلك صوم الميلاد المقدس ، يكون من عيد مارى مينا فى خمسة عشر يوما من هاتور الى تسعة وعشرين يوما من كيهك • وان وافق يوم عيد الميلاد الشريف يوم الأربعاء أو الجمعة يفطروا فيه ولا يصومون بالجملة • وكذلك عيد الغطاس المقدس فى الحادى عشر من طوبة ، وان اتفق يوم أربعاء أو جمعة فيفطروا فيه أيضا ، ولا يصوموا • وان وافق العاشر من طوبة الذى فيه صوم الغطاس أن يكون يوم سبت أو يوم أحد فلا يصام بالجملة بل يصومون يوم الجمعة الذى قبل ذلك عوض ليلة الغطاس ، ولا يجوز لأحد من المؤمنين أن يصوم يوم سبت الا السبت الواحد فى كل سنة وهو السبت الكبير ، الذى هو آخر الصوم ، ويوجب الصوم الأربعاء والجمعة دائما طوال السنة الا أيام الخمسين فقط •

(٤٥٤) المقرئى : الخطط ج ٤ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ •

(٤٥٥) تاريخ الأمة القبطية م ٢ ص ١١٨ •

(٤٥٦) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، الكتاب الثانى ،
ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٤٥٧) نفس المصدر ص ٥٠٦ .

(٤٥٨) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٤٥٩) نفس المصدر ص ٢٨٧ - ٢٨٨ . ويروى لنا قصة تؤكد ذلك وتتضمن
ما يلى : كان فى مدينة الاسكندرية فى بطركية الأب يوساب فى عهد الخليفة العباسى
المأمون ، رجل من أتباع المذهب الخلقدونى ، وكان يشتهر بثرائه الكبير وأملاكه
الواسعة . وكان له فى ظاهر الاسكندرية كثير من حقول الكروم فحدث أن انكسرت
بها احدى السواقي عند ذلك طلب من تجار قبطى أن يصلحها له ، وصادف ذلك
يوم الجمعة العظيم عند القبط الارثوذكسي فرفض التجار القبطى ذلك ، لأنه لا يجوز
لهم القيام بأى عمل فى مثل هذا اليوم المبارك .

(٤٦٠) نفس المصدر م ١ ج ١ ص ١١٩ ، م ٢ ج ٢ ص ١٣٣ .

(٤٦١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٩٨ .

تاريخ ابن الراهب : ص ١٣٨٧ - ١٣٩ .

(٤٦٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٦ .

(٤٦٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧ .

(٤٦٤) نفس المصدر ، ص ٦٧ .

(٤٦٥) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ . ويشير الى

أن كاتب هذا الكتاب كان مسيحيا نسطوريا ويسمى ابن شيرين .

(٤٦٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧ .

(٤٦٧) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٤٦٨) نفس المصدر ص ٢٤٩ .

(٤٦٩) نفس المصدر م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ . الشمس منسى القمص :

تاريخ الكنيسة القبطية ص ٤٠٨ .

(٤٧٠) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٢ ، ص ٩٢ و

Le Synaxaire Arabe Jacobite, T. 2, pp. 309-310.

ويذكر أن هذا القبطى قد افتقر ثم طرد من عمله بعد أن لحق به بعض
الامهانات كما ابتلى جسمه بكثير من الامراض المزمنة ومات شر موة عبدة ومثلا
لكل القبط .

George Solomon : Un Texte Arabe ... , p. 18. (٤٧١)

• (٤٧٢) آدم مئز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٦ .

• (٤٧٣) العمرى : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

• (٤٧٤) الشايبستى : الديارات ص ١٩٢ - ١٩٣ . العمرى : مسالك الابصار

ج ١ ، ص ٣٦٢ . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٥٣٩ .

• (٤٧٥) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ٨٧ ، ٩٨ ، أبو صالح

الأرمنى ص ٤٦ .

• (٤٧٦) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ،

٢٠٩ ، ٢٢٠ .

• (٤٧٧) أبو صالح الأرمنى ص ٤٣ .

• (٤٧٨) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٩٠ .

• (٤٧٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٥ .

• (٤٨٠) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٣ .

• (٤٨١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب ، والجمع اقبيية ، والقباء كالفرجية

فى أيامنا ويلبس تحته الجبة . انظر ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام

حاشية ، ص ٣١٠ .

• (٤٨٢) عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٦ .

• ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ، ص ٢١ .

Chronique de Michel : T. 2, fasc. 3, p. 489.

• (٤٨٣) البرذون : نوع من الخيول ، تركى الأصل .

• (٤٨٤) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٥٩ .

• ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٥ .

• (٤٩٥) ابن زبر القاضى : شروط النصارى ورقة ١٤ ، ١٥ . مخطوط بدار الكتب .

• وانظر أيضا بشأن أوامر المتوكل هذه . المقرئى : الخطط ، ج ٤ ص ٣٩٧ .

• سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢١٢ - ٢١٣ . ونلاحظ انه حذر عماله

من التواني فى تطليق ما جاء فى كتابه اليهم « وأن توعد الى عمالك فيما أمر به

أمير المؤمنين من ذلك ايعازا تحذره به على استقصاء ما تقدم فيه اليهم ويحذره

به ويتقدم اليهم فى انزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة الى غيره

ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم وسلوكهم السبيل الى أمير المؤمنين يحملهم عليها فأخذهم بها ان شاء الله تعالى فاعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين وأنفذه الى عمالك في نواحي عملك .. » .

- (٤٨٦) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ ، ٥ .
(٤٨٧) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ . والازار ثوب يحيط بالنصف الاسفل من البدن والجمع أزر وأزرة . الوسيط ، ج ١ ، ص ١٥ .
(٤٨٨) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٦ .
(٤٨٩) الدراعة : جبة مشقوقة من الامام ، والجمع دراريع .
(٤٩٠) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ . سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢١٣ .

- ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٦ .
(٤٩١) ابن سعيد الأنطاكى ص ٢٠٠ . ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
المقرئى : الخطط ج ٤ ، ص ٣٩٩ . القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .
ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٧ - ١٢٨ . محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٦٨ ، ٧٠ .

- (٤٩٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٨ .
(٤٩٣) ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٠٢ . ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .
القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ . المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ .
ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٨ . محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٠ - ٧١ .

- (٤٩٤) ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٣٨ .
(٤٩٥) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .
(٤٩٦) نفس المصدر ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٤٤ .
(٤٩٧) نفس المصدر ، ص ٤٦ .

(٤٩٨) العذبة : طرف الشيء . عذبة العمامة أى طرفها . والجمع عذب .
الوسيط ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ .

(٤٩٩) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
(٥٠٠) البرنس كل ثوب رأسه منه ملتزق به . وأيضا لفظ يطلق على القلنسوة الطويلة ، والرداء ذى الكمين يلبس بعد الاستحمام والجمع برانس . الوسيط ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(٥٠١) ويسمى Eponnis or amice وتسميه بعض الروايات أيضا Woolen-ephod ويلبسه جميع الداخلين الى الكنيسة ، انظر :
Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 98, 99-100.

(٥٠٢) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ١ ج ١ ص ١١٨ .
(٥٠٣) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 98, 99, 100.

ويسمى أيضا قميص الكاهن Alb or dalmatic ويقول رؤوف حبيب فى دليل المتحف القبطى (حاشية ص ١٢٣) ان لفظ التونية ، مشتق من الكلمة اليونانية خيتون ومعناها بالانجليزية Tunic أى قميص .

(٥٠٤) Butler : Op. Cit., pp. 98, 99, 100. ويسمى Girdle .

(٥٠٥) Butler, Op. Cit., pp. 99, 100.

(٥٠٦) Ibid., pp. 99, 100. ويسميه رؤوف حبيب فى دليل المتحف القبطى

(حاشية ١٢٣) البدرشيل ويذكر انه لفظ مشتق من الكلمة اليونانية ابتراخيليون ومعناه ما يوضع حول العنق ، والبدرشيل يوضع حول العنق وينسدل على الصدر والظهر .

(٥٠٧) Butler : Op. Cit., pp. 99, 100.

(٥٠٨) Ibid., p. 98.

(٥٠٩) Ibid. p. 217.

(٥١٠) Ibid., p. 231 وكان رجال الكنيسة السريانية والأرمن دون القبط

يلبسون صنادل خاصة Slippers نفس المصدر p. 233 .

(٥١١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٤ والبرطلة تشبه القلنسوة وهى كلمة قبطية معناها ابن الظل أو ابن المظلة - حاشية نفس الصفحة .

(٥١٢) الخطط ج ٤ ص ٤٠٠ ، ميخائيل شاروبيم : الكافي ج ٢ ص ٣٦٧ .
 (٥١٣) حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية ص ١٤٤ . عزيز سوريال
 عطية : نشأة الرهبنة المسيحية في مصر ص ١٦٨ . ومما لا شك فيه ان هذه الملابس
 تطورت عما كانت عليه في عصر الراهب أنطونيوس مؤسس الرهبنة في مصر والذي
 كان يلبس أردية من جلد الغنم ، ويجعلها بمثابة قميص ، ثم يرتدى فوقها مسحاً
 من الكتان ، كما اخذ قلنسوة من الوبر لغطاء رأسه (انظر المصدر الأول ص ١٤٣)
 ويشير ابن المقفع الى ملابس الرهبان ، فيقول ان اصطفن ابن أندونة الذي اعتنق
 الاسلام في عهد المتوكل كان يقول : « ان التصاري قبل هذا اليوم لا يلبسون
 ثياباً لها اكمام بل يلبسون ثياباً بغير اكمام كما يلبس الرهبان الذين هم يدعوهم
 آباءهم . فاذا كان الآباء تلبس هذا اللباس فالأحرى أن تكون أولادهم مثلهم » .
 انظر سير الآباء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٦ .

(٥١٤) حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية ص ١٤٤ و
 Autefage : Les Coptes, p. 34.
 ويذكر رؤوف حبيب في دليل المتحف القبطي (حاشية ص ١٢٣)
 ان الاسيكي كلمة مسقة من اللفظ اليوناني اسخيما ومعناه رداء الرهبان المتقدمين
 في الفضيلة .

(٥١٥) حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية ص ١٤٤ . عزيز سوريال
 عطية : نشأة الرهبنة المسيحية في مصر ص ١٦٨ . ويقول ان هذه الملابس كان
 يرتديها الرهبان عند الخروج من الدير ، أما في داخل الدير فكانوا يكتفون بالقميص
 القصير والحزام والطاقيّة .

(٥١٦) حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية ص ١٤٦ . الجاحظ : البيان
 والتبيين ج ٣ ص ٨٤ .

(٥١٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٩ .

(٥١٨) حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية ص ١٤٦ .

(٥١٩) حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية ص ١٤٦ - ١٤٧ .

Mann : The Jews, T. 1., p. 81. (٥٢٠)

Ibid., p. 87. (٥٢١)

Ibid., pp. 87-88. (٥٢٢)

Mann : The Jews, T. I., pp. 88-89. (٥٢٣)

- Ibid., pp. 88, 90. (٥٢٤)
 Ibid., p. 91. (٥٢٥)
 Ibid., pp. 92-93. (٥٢٦)
 Les Juifs en Egypte, p. 119. (٥٢٧)

(٥٢٨) ترتون : أهل الذمة في الاسلام ص ١٠١ .
 Maurice Fargon : Les Juifs, p. 121. (٥٢٩)

- (٥٣٠) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ، ص ١٢٦ .
 (٥٣١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٤٢٤ . قال بعض الشعراء .

تحت اميال طوال كبراطيل اليهود

- (٥٣٢) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٤ ، ٥ .
 (٥٣٣) المقریزی : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٣٢ .
 (٥٣٤) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، المقریزی : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ القلفشندی : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .
 أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ - ١٧٨ . ترتون : أهل الذمة في الاسلام ص ١٢٧ - ١٢٨ . محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ .
 (٥٣٥) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ٢ ج ٣ ، ص ٢١٨ .
 (٥٣٦) نفس المصدر ، م ٣ ج ١ ، ص ٤٦ .
 (٥٣٧) نفس المصدر ، م ٣ ج ٢ ، ص ٦٣ .
 (٥٣٨) تاريخ أبو صالح الأرمني ، ص ٥٥ - ٥٦ . وقد أوصى البطرك زخارياس أن يدفن في هذه المقابر بين القبط ، لما لمسه في حياته من شدة إيمانهم وتقديرهم لهم على ما قاسوه في عهد الخليفة الحاكم .
 (٥٣٩) نفس المصدر ، ص ٥٦ .
 (٥٤٠) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة ، م ١ ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ . السنكسار : ج ١ ، ص ١٢٧ .
 (٥٤١) ابن المقفع : سير الآباء البطارقة م ١ ج ٢ ، ص ١٢٦ .
 (٥٤٢) أهل الذمة في الاسلام ص ٩٩ - ١٠٠ ويذكر انه لم يكن معاوية ابن أبي سفيان يتولى على طرابلس حتى جلب اليهود اليها وأسكنهم فيها وفعل المسلمون في الأندلس مثل ذلك . فأسكنوا اليهود المدن التي تم لهم فتحها . وكل

بذلك لأنهم كانوا يدركون عداوة اليهود للنصارى . ولما عزم الوليد بن عبد الملك على تحويل كنيسة يوحنا في دمشق إلى مسجد طلب من اليهود العمل في هدم الكنيسة . نفس المصدر ص ١٠٠ .

(٥٤٣) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٤٧ - ٤٩ .

(٥٤٤) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٦ .

(٥٤٥) Mann : The Jews, T. 1., pp. 211-212, and : Maurice Fargon : Les Juffs, p. 120.

(٥٤٦) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة م ٣ ، ج ١ ، ص ٥٣ . أبو صالح الأرمني ، ص ٥٧ .

(٥٤٧) أبو صالح الأرمني ص ١٢٩ . ترتون : أهل الذمة في الاسلام ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٥٤٨) أبو صالح الأرمني ، ص ١٢٩ .

(٥٤٩) نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٥٥٠) المكافاة ، ص ٣٦ . حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية « العصر الطولوني » ص ٢١٧ .

(٥٥١) محمد كامل حسنين أدب مصر الاسلامية ، ص ٦٤ .

(٥٥٢) George Solomon : Un Texte Arabe, p. 2. وذكرنا من قبل

بالفصل الرابع من الباب الأول موقف الأمراء المسلمين من هذا القبطي وردعهم

لأحدهم حين حاول الايقاع بأبي السرور لدى الخليفة .

(٥٥٣) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٧٠ و

Mann : The Jews, T. 1., p. 14.

(٥٥٤) جروهمان : أوراق البردي العربية ، السفر الأول ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٥٥٥) نفس المصدر ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٥٥٦) جروهمان : أوراق البردي العربية ، السفر الأول ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٥٥٧) نفس المصدر ص ٢١٤ - ٢١٧ ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٥٥٨) نفس المصدر ، ص ١٥٣ .

(٥٥٩) نفس المصدر ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٦٧ - ١٦٨ ، ١٧٣ - ١٧٤ ،

١٧٨ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٩٥ - ١٩٨ ، ٢٠٣ - ٢٠٦ ، ٢١٠ - ٢١١ ، ٢١٤ - ٢١٧ .

أهل الذمة ج ١ - ٥٢٩

(٥٦٠) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ٢١٧ والواقع ان ذواج المسلمين من الذميات بدأ فى مصر الاسلامية منذ أن بدأ العرب ينزلون الريف والقرى المصرية ويعملون فى زراعة الأراضى . كما ان القبط الذين اعتنقوا الاسلام اختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين العرب بعد ذكاجهم المسلمات . انظر : المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٥٦١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٥٦٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ٨١ ، ٨٢ . ويصف المؤرخ موقف عامة المسلمين آنذاك ، فيقول : « فشغثت غواغى مصر ، ورعاهم ، شغثا عظيما . وأغلق النصارى الكنائس ذلك اليوم سريعا وأصبح يوم الاثنين غده وقصدوا كنيسة ميخائيل التى للملكانيين بقصر الشمع ، وكسروا أبوابها ، وهتكوا الكنيسة ونهبوا ما ظفروا به منها ورجعوا الى كنيسة بوقير التى لليعقوبية بقصر الشمع ففعلوا بها مثل ذلك . فلما كان يوم الجمعة بعد صلاة الظهر الثامن من المحرم من السنة ، وقعت صيحة فى الجامع العتيق ، ورجفة ، فنهب عالم من الناس ، وأخذت ثيابهم ، وعاد الرعاع الى كنيسة ميخائيل . وكسرت أبوابها أيضا ، ونهبت الكنيسة ، وشعثت . وكذلك أيضا كنيسة كانت لليعقوبية برأس الخليج ، فعل بها مثل ذلك » .

وتهاى المسلمون لغزو بلاد الرومان ، وركب كافور الاخشيدي لدار الصناعة وطرح مركبا عظيما واجتمع خلق عظيم ، ليشاهدوا تدشين هذا المركب ، ففرق كثير منهم كما غرقت بعض المراكب (٨ صفر سنة ٣٤٩ هـ) .

(٥٦٣) نفس المصدر ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٥٦٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٢٤١ . وتذكر من القصائد التى قيلت بشأن ذلك القصيدة المعروفة باسم القصيدة الأرمنية والتى تنسب الى شاعر ارتد عن الاسلام واتصل بالامبراطور نقفور ونظم هذه القصيدة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ويقال انه أرسلها الى الخليفة العباسى المطيع لله ، ومن بين ما جاء فيها :

ثغوركم لم يبق فيها لوهنكم	وضعفكم الا رسوم العالم
فتحننا الثغور الأرمنية كلهسا	بفتيان صدوا كالمليوث الضراغم
واقريطش قد حازت اليها مراكب	على ظهر بحر مزيد متلاطم

فحزتهم أسرى ويستقى نساؤهم
الى حلب حتى استبحنا حريمها
ومصر سافتحها بسيفي عنسوة
وأجزى كافور بما يستحقه
ذوات الشعور المسيلات النواعم
وهدم منها سورها كل هدم
وأخذ أموالا بها وبهائم
بمشط ومقراض وقصى محاجم

وتشير القصيدة الى المدن الاسلامية التي اعتدى الرومان عليها ، وتنتهى بهذه
الآيات :

هنالك تخلو الأرض من كل مسلم
سافتح أرض الله شرقا ومغربا
فعيش علا فوق السموات عرشه
وصاحبكم بالتراب أودى به الثرى
لكل نقي الدين أغلف زاعمهم
وابشر ديننا للصليب بفسارحي
يفوز الذى والاه يوم التخاصم
فصار رفاتا بين تلك الرماثم

انظر نفس المصدر ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ . ونص القصيدة موجود أيضا فى كتاب
السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٢ ، ص ١٥٩ - ١٧٩ .

(٥٦٥) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٧ ، أبو صالح
الأرمنى ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٥٦٦) تاريخ ابن سعيد الأنطاكى ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٥٦٧) Mann : The Jews, T. 1., pp. 31-32.

(٥٦٨) أبو صالح الأرمنى ، ص ٦٣ .

(٥٦٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٨ .

(٥٧٠) تاريخ ابن سعيد الأنطاكى ، ص ١٨٦ .

(٥٧١) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٥٧٢) George Solomon : Un Texte Arabe, p. 3. ص ٣

(٥٧٣) ابن المقفع : سير الأباء البطارقة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٥٧٤) نفس المصدر ، ص ٤٤ .

(٥٧٥) ابن الأثير : الكامل : ج ٧ ، ص ١٧٦ . أحمد أمين : ظهر الاسلام ،

ج ١ ، ص ٨٦ .

- (٥٧٦) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٠١ . أدم متر : الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
- (٥٧٧) توتون : أهل الذمة في الإسلام ، ص ١٠١ .
- (٥٧٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨١ - ٨٢ .
- (٥٧٩) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٧٩ .
- (٥٨٠) أبو صالح الأرمني ، ص ٣٠ .
- (٥٨١) ابن المقفع : سيرة الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .
- (٥٨٢) ايريس حبيب المصري : تاريخ الكنيسة القبطية ، الكتاب الثاني ، ص ٢١٧ و .
- Stanley Lane-Pool : History of Egypt in Middle Ages, p. 26.
- (٥٨٣) ايريس حبيب المصري : نفس المصدر ، ص ٢١٧ .
- Anélienau : Histoire de P. Isaac, pp. ٥67-70. (٥٨٤)
- (٥٨٥) ابن المقفع : سيرة الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .
- (٥٨٦) ابن المقفع : سيرة الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .
- (٥٨٧) جروهمان : أوراق البردي ، السفر الثالث ، ص ١١٨ - ١١٩ .
- (٥٨٨) ابن المقفع : سيرة الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .
- (٥٨٩) نفس المصدر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .
- (٥٩٠) نفس المصدر ، ص ١٧٣ .
- (٥٩١) ابن المقفع : سيرة الآباء البطارقة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .
- (٥٩٢) Stanley Lane-Péole : History of Egypt ..., p. 42.
- (٥٩٣) البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، ص ١١٨ . ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .
- (٥٩٤) البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .
- (٥٩٥) ابن المقفع : سيرة الآباء البطارقة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٧٧ .
- ويقول ان السبب في حسن معاملة خمارويه للقبط ورهبانهم انه لما سمع بأديرة وادى هبيب خرج اليها ، ودخل كنيسة أبي مقار ، ونظر الى جسد هذا القديس ، وطلب من الرهبان اخراج الجسد من الكفن ، فكان ذلك . ثم أمسك بشعر لحيته ، ففتح عينيه في وجهه ، فوقع خمارويه مغشيا عليه ، ثم انفاقه

الرهبان بمسحه بزيث القناديل كما ظهرت له أعجوبة أخرى في هذا الوادي ،
ذلك أنه لما شاهد صورة القديس تادرس رمى اليه بحزمة ريحان وكانت في يده ،
وقال : خذها يا فارس يا شجاع ، فخرجت يده من الصورة ، وأخذت الريحان ،
فخلف الأمير وبهت مما شاهده - ومنذ ذلك الوقت صار يراعى مصالح القبط
في مصر ، ويحسن معاملتهم .

(٥٩٦) جمال سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ٥٤ .

(٥٩٧) الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٥٩٨) قرتون : أهل الذمة في الإسلام ، ص ٢٣ .

(٥٩٩) ابن سعيد الأنطاكي ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٦٠٠) Stanley Lane-Pole : Hist. of Egypt, p. 170 .

(٦٠١) يرجع بناء هذا الدير إلى عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) .

وزوجته الامبراطورة تيودورا وهو آية من آيات الفن والمعمار البيزنطي من حيث
جماله ، وما احتواه من المياني الرائعة والصور الجميلة والفسيفساء ذات الألوان
البديعية إلى جانب ما به من الكؤوس والأواني والذخائر المقدسة الذهبية
والفضية . انظر جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي .

ص ١٧٩ (مجلة الآداب الإسكندرية ، م ١٨ ، سنة ١٩٦٤ م) .

M.H.P. Rabins : Le Monastère de Sainte Cathérine, p. 2 .

ولعرفة أهمية هذا الدير وشأنه في مصر الإسلامية ، انظر ، الشابستى ،
الديارات ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٨ ،
ص ٥٢٠ .

العمري : مسالك الأبحار ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٦٠٢) جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي .

ص ١٨٤ (الوثيقة رقم ٦) .

(٦٠٣) نفس المصدر ، ص ١٨٨ .

(٦٠٤) نفس المصدر ، ص ١٩٠ .

(٦٠٥) نفس المصدر ، ص ١٨٥ - ١٨٦ (الوثيقة رقم ٨) .

(٦٠٦) جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي .

ص ١٨٤ (الوثيقة رقم ٩) .

(٦٠٧) نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

(٦٠٨) جوزيف نسيم : ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٥ (الوثيقة رقم ١٠)
(٦٠٩) جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والإيوبي ،
ص ١٨٩ .

(٦١٠) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ٢٢١ . ويوجد دير
المقصير في أعلى الجبل . وهو حسن البناء نزه البقعة . وله ينير منقورة في
الجبل . ولهذا الدير عيد عظيم يجتمع فيه خلق عظيم من المسيحيين . وكان
هذا الدير بيد الملكانيين . وقد أنشأ به البطريرك الملكاني اصطات *Eustathus*
كنيسة الابسطلى . كما أنشأ فيه قلاية للساقفة . ويعيد له في كل سنة عيد
القديس ارسانيوس في الثالث عشر من شهر بشنس . وكان البطريرك اصطات يعمل
في تجارة الكتان ثم ترهب في هذا الدير وعمل على تعميره وتوسيعه . ثم
أقيم بطريرا للملكانيين ، واستمر في هذا المنصب أربعاً وستين سنة . وقد بلغت
كنائس هذا الدير في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي عشر كنائس .
كما يوجد بهذا الدير منظره حسنة ، ومرافق للملكانيين . وقد أمر الحاكم يأمر
الله بهدم هذا الدير في سنة ٤٠٠ هـ . ثم رسم له بتجديد ما تشعث منه في
سنة ٤١١ هـ وقد رتب له الياساك أخو بهرام الارمني ستة عشر فداناً وقفاً
له . ومن الطريف أنه كان يوجد بهذا الدير بغل ، لنقل المياه من البحر الى
الدير فكان ينزل معه أحد الرهبان . ليملا له الماء ، ويحمله اياه ، ويبقى الراهب
المذكور عند البحر ، بينما يذهب البغل الى الدير ويعود الى البحر بمفرده .
وقد أحيط هذا الدير بحصن منيع . ودبر بعض عامة المسلمين ، حيلة لمرهبان
هذا الدير حتى تمكنوا من دخوله والاستيلاء على ما فيه وقتل جماعة من الرهبان
به ، انظر ، الشابستى : الديارات ، ص ١٨٤ - ١٨٥ . أبو صالح الارمني ،
ص ٦٢ - ٦٦ . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٥٢٦ . العمرى :
مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦٣ . المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٠ -
٤١١ .

(٦١١) ياقوت الحموى . معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٥٢٦ .
(٦١٢) نفس المصدر ، ص ٥٣٥ . العمرى . مسالك الأبصار ، ج ١ ،
ص ٣٦١ . وكان من أديرة الملكانيين بمصر ثم صار في حوزة اليعاقبة في عصر
الولاة ثم عاد الى الملكانيين ثانية . وقد اهتم بتجديد عمارته أبو الفضل بن
البغدادي وأبو نصر بن عبدون - ويعرف بأبن العداس - في عهد الخليفة الحاكم
بأمر الله . وقد تعرض هذا الدير شأنه شأن غيره من الأديرة والكنائس ، لعمليات
التخريب والتدمير آنذاك ، وكان بهذا الدير بعض الراهبات الى جانب وجود

الرهبان . وكان يرعى شئونهم أبو الفضل بن أبي الليث في عهد الخليفة الامر
بأحكام الله . وكان لهذا الدير بستان جامع لمختلف أنواع الأشجار المثمرة .
وضعت أمر هذا الدير على مر العصور ولم يهتم بعمارتها حتى سنة ١١٦٨ م .
لضعف الملاكانيين بعصر وقلة عددهم . انظر ، الشابستى . الديارات ، ص ٢٥٥ -
٢٥٦ .

أبو صالح الأرمني ، ص ٥١ - ٥٢ ويسميه المقریزی دير الطحين ، الخطط
ج ٤ ، ص ٤١١ .

(٦١٣) الشابستى : الديارات ، ص ٢٥٦ .

(٦١٤) نفس المصدر . ص ١٨٧ - ١٨٨ . ياقوت الحموى . معجم البلدان ،
ج ٨ ، ص ٥٤٥ .

المقریزی . الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١١ .

(٦١٥) الديارات ، ص ١٨٨ .

(٦١٦) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ .

(٦١٧) الشابستى . الديارات ، ص ١٩١ . ياقوت الحموى : معجم البلدان
ج ٨ ، ص ٥٣٩ .

العمري : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦٢ . المقریزی . الخطط ، ج ٤ ،
ص ٤١٣ .

(٦١٨) الشابستى : الديارات ، ص ١٩٢ - ١٩٣ . العمري . مسالك
الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٦١٩) أبو صالح الأرمني ، ص ٧٧ .

(٦٢٠) نفس المصدر ، ص ٧٧ .

(٦٢١) نفس المصدر ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٦٢٢) أبو صالح الأرمني ، ص ٧٨ .

(٦٢٣) نفس المصدر ، ص ٧٨ .

(٦٢٤) نفس المصدر ، ص ٧٨ - ٧٩ . ويذكر أن بعض الكتاب المصريين قد
حفر بئرا على نفقته الخاصة لهذا الدير . وكان في داخل بيعة هذا الدير جوسق
كبير ، جدد الشيخ أبو البركات الكاتب المعروف بابن كتامة ، عمارته وكانت
الأرضة قد أصابت أخشاب هذا الدير . فاهتم الشيخ أبو البركات بتجديد سقف
الدير وأعمدته . وبلغ عدد الرهبان في هذا الدير حتى عصر أبي صالح الأرمني
سبعة رهبان . انظر : نفس المصدر ، ص ٧٩ - ٨١ .

٦٢٥) الشابستى : الديارات ، ص ١٩٤ . المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٤ .

٦٢٦) أبو صالح الأرمنى ، ص ٨٥ .

٦٢٧) الشابستى : الديارات ، ص ١٩٤ . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٥١٩ . العمرى : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٢٧١ . والسابرى من الثياب ، يعنى الرقيق الجيد ، ومن الدروع الدقيقة النسيج فى احكام . الوسيط ، ج ١ ، ص ٤١٥ . وقد لقى دير طمويه عناية خاصة فى عهد الخليفة الامر ، اذ عنى بتجديده الشيخ أبو اليمن وزير ، متولى ديوان الوجه البحرى ، وابنه الشيخ أبو المنصور ، الذى اهتم بتزويد هذا الدير ، بمختلف الاوانى من الفضة فعمل له صينية وكاسا وملعة ومجمره وصلبيا . وايضا جعل لهذه الاوانى كسوة فاخرة من الحرير ، انظر : ابو صالح الارمنى ، ص ٨٥ .

٦٢٨) أبو صالح الارمنى ، ص ٨٥ . وكان بهذا الدير معاصر للزيوت . كما كان له اراض واسعة تقدر بسبعة وأربعين فدانا . وكان يدفع عنها الرهبان ، عشرة دنانير ، لبیت المال .

٦٢٩) نفس المصدر ، ص ٦٠ .

٦٣٠) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٧٥ . وقد الف الجاثليق تيموثيوس Timotheus حوالى سنة ٢٠٠ هـ (٨٥٠ م) كتابا فى الاحكام القضائية للمسيحيين لكى يقطع كل عذر يحتج به المسيحيون الذين يلجأون الى القضاة المسلمين ، بدعوى نقصان القوانين المسيحية .

٦٣١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٥٩ .

٦٣٢) نفس المصدر ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

٦٣٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٧٦ . ويذكر أنه لا يوجد من القوانين التى وصفها البطارقة المسيحيون سوى بعض عقوبات دينية كنسية منها ، التوبيخ امام الناس ، والقيام على المسح والرماد امام البيعة ، ودفع كفارة مالية للبيعة . والمنع من دخولها ، ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت ، ومن الدفن على الطريقة المسيحية ، ومن امثلة العقوبة أن المنيح الذى يضرب آخر ، يمنع من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيسين شهرين وبقف كل يوم أحد على المسح والرماد ، وعليه أن يتصدق على الفقراء بحسب قدرته . انظر نفس المصدر ، ص ٧٦ - ٧٧ .

مجلد اول

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
المقدمة	٩
تمهيد	٣١
الهوامش	٥٣

الباب الأول

دور أهل الذمة في الحياة

السياسية في مصر

١ - موقف القبط واليهود من الفتح العربي	٦٧
٢ - دور أهل الذمة في الحياة السياسية في عصر الولاة	١٠٥
٣ - أهل الذمة في عصر الدولتين الطولونية والأخشيدية	١٥٥
٤ - موقف الدولة الفاطمية من أهل الذمة	١٧٣
الهوامش	٢٢٢
	٥٣٧

الباب الثاني

أهل اللغة في المجتمع المصري

- ١ - أحكام أهل الذمة في الاسلام ومدى تطبيقها في
مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي . . . ٢٩٥
- ٢ - الاحتفالات الدينية والقومية ٢٣١
- ٣ - الأخلاق والعادات ٣٩٩
- ٤ - العلاقات بين أهل الذمة وسائر عناصر المجتمع . . . ٤٤٠
- الهوامش ٤٧٣

صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ •
د • عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - على ماهر •
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة الامملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة •
د • محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى •
د • علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ •
لمسى المطيعى ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الايوبى •
د • عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتنى لازمة الحياة الفكرية •
د • على بركات ، ١٩٨٧

- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل .
محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية .
محمود فوزى ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية .
شكرى القاضى ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير .
نبيل راغب ، ١٩٨٨
- ١٣ - أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية .
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية .
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى .
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) .
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى .
د . محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية *
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين *
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي *
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ *
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر *
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، امام التصوف
فى مصر : الشعراانى *
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) *
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د. أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩

- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عصر الاخشيديين ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون في مصر في عصر محمد علي ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعي المطيعي ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقي : نظرة على الأوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومي ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د . يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون برون : ترجمة : ذ. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر
العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفي ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتقديم : د . حسن
حبشى ، ١٩٩١
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د . لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى ،
د . زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د . سهير إسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، فى إبريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن
الثامن عشر ،
د . الهام محمد على ذهني ، ١٩٩٢

- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة .
د . محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن اقليم المنوفية ،
د . حلمي أحمد شلبي : ١٩٩٢
- ٥٧ - مصر الاسلامية وأهل الذمة ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التأميم (١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د. سيده اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣ .
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسه
وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣
- ٦٧ - مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
(ابحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الاعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حشى ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١)
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

- ٧٠ - أهل النعمة في الاسلام ،
تأليف : أ . س . ترتون ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
أعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمانة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل اللمة في مصر ، في العصر الفاطمي الأول ،
د . سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د . سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشي ، ١٩٩٤

- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د . رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الاول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د . أحمد الشربيني ، ١٩٩٥

- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ٢ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى ،
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تألف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الحمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نحوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ - ١٩٥٨)
د . نسه نومي عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
ج ٢ ،
د . سهر اسكندر ، ١٩٩٦

- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د . عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) .
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د . إيمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د . محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،
د . سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة .
أ . د . عبد العزيز صالح ، أ . د . جمال مختار ،
أ . د . محمد إبراهيم بكر ، أ . د . إبراهيم نصحي ،
أ . د . فاروق القاضي ، أعدها للنشر : أ . د . عبد العظيم
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد
كفافي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفر / جمال منصور

- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ .
د . تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره .
د . علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) .
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥
١٩٨٧) ،
د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ، ج ٢ ،
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيو ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ١ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني

- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ٢ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقي ،
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) -
د . اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر .
أحمد رشدى صالح
- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - ادیب أسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د . البيومي اسماعيل
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس

- ١٢١ - التجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤) .
د . محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج ٦
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد احمد البدوى .
د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د . محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج ٧
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج ٨
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
- ١٢٨ - معارك صتفية
جمال بدوى
- ١٢٩ - الدين المصام (وائمه فى تطور الدين المصرى)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣)
د . يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧)
سمير فريد

١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨)
تأليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرؤوف أحمد عمر

١٣٢ - دار المندوب السامي في مصر ج١ ، (١٩١٤ - ١٩٢٤)
د . ماجدة محمد حمود

١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر ج٢ (١٩١٤ - ١٩٢٤)
د . ماجدة محمد حمود

١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى
لدارندلى

بقلم / عزت حسن أفندى الدار ندلى
ترجمة / جمال سعيد عبد المغنى

١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية (في ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محاسن محمد الوقاد

١٣٦ - أوراق يوسف صديق تقديم / د. عبد العظيم رمضان

١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكى
د . محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ - الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب
في مصر السيد يوسف

١٣٩ - موسوعة الفناء المصرى في القرن العشرين
محمد قابيل

- ١٤٠ - سياسة مصر فى البحر الأحمر
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - طارق
عبد العاطى غنيم .
- ١٤١ - وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار .
- ١٤٢ - مذكراتى فى نصف قرن ج ٤
أحمد شفيق باشا .
- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة فى القرنين الثانى والأول ق.م.
د . منيرة محمد الهمشرى .
- ١٤٤ - كشوف مصر الأفريقية
فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) -
د . عبد العليم خلاف .
- ١٤٥ - النظام الإدارى والاقتصادى فى مصر
فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) -
د . منيرة محمد الهمشرى .
- ١٤٦ - المرأة فى مصر المملوكية
د . أحمد عبد الرازق
- ١٤٧ - حسن البنا [هتمى . . كيف . . ولماذا ؟]
د . رفعت السعيد
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د . سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى

- ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د . سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
تأليف / السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محاسن محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د . عليا عبد السميع الجنزورى
- ١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الاسلامية
العصور الوسطى
د . عليا عبد السميع الجنزورى
- ١٥٥ - عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ - ١٨٨٣)
د . عبد الحميد البطريق
- ١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ج ٣ فى العصر الاسلامى
د . سمير يحيى الجمال

١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ج ٤ في العصر الاسلامي
والحديث

د. سمير يحيى الجمال

١٥٨ - نائب السلطنة المملوكية في مصر
(من ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الأول .
د. محمد فريد حشيش

١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الثانى
د. محمد فريد حشيش

١٦١ - السيف والنار في السودان
تأليف/ سلاطين باشا

١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان
(١٩٣٦ - ١٩٥٣)
د. تمام همام تمام

١٦٣ - مصر والحملة الفرنسية
المستشار / محمد سعيد العشماوى ..

١٦٤ - الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ

(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة
بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة
القاهرة « ٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ »)
اعداد / د. عبد العظيم رمضان

١٦٥ - التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر
سامي سليمان محمد السهم

١٦٦ - مذكرات معتقل سياسي
صفحة من تاريخ مصر
السيد يوسف

١٦٧ - الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط منذ الفتح العربي
الى نهاية الدولة الاخشيدية
د . صفى على محمد

١٦٨ - مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى

١٦٩ - مدن مصر الصناعية في العصر الاسلامى الى نهاية عصر
الفاطميين (٢١ - ٥٦٧ هـ / ٦٤٢ - ١١٧١ م)
د . صفى على محمد عبد الله

١٧٠ - القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ -
٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١ - تاريخ الجالية الأرمنية في مصر (القرن التاسع عشر)
محمد رفعت

١٧٢ - تاريخ أهل الذمة في مصر الاسلامية (من الفتح العربى
الى نهاية العصر الفاطمى ج ١)
د . فاطمة مصطفى عامر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



General

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٦٧٣/١٩٩٩

ISBN — 977 — 01 — 6551 — 4



الدراسة التى بين أيدينا هى دراسة علمية موسعة
نشرها على جزئين: الجزء الأول ويتناول باين، الأول
عن دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر، والثانى
يتناول أهل الذمة فى المجتمع المصرى.

والباب الأول ينقسم إلى أربعة فصول تتناول: موقف
القبط واليهود من الفتح العربى، ودور أهل الذمة فى
الحياة السياسية فى عصر الولاة، وأهل الذمة فى عصر
الدولتين الطولونية والأخشيديّة، وموقف الدولة الفاطمية
من أهل الذمة.

أما الباب الثانى، وهو يضم أربعة فصول أيضاً،
فيتناول أحكام أهل الذمة فى الإسلام، ومدى تطبيقها فى
مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى، ثم
الاحتفالات الدينية والقومية، والأخلاق والعادات،
وعلاقات أهل الذمة بسائر عناصر المجتمع المصرى.

To: www.al-mostafa.com